فلسطين

سلسلة دراسات منهجية في القضية الفلسطينية

د. محسن محمد صالح
الأستاذ المشارك في الدراسات الفلسطينية
وتاريخ العرب الحديث

الطبعة الأولى
مايو 2002
كوالالمبور ـ ماليزيا

Fajar Ulung
No. 42G, Jalan 6/21 D,
Medan Idaman, Batu 5, Off Jalan Gombak,
53100 Kuala Lumpur,
Malaysia.
Tel: (603) 40219023
Fax: (603) 40219029
Email: faz3000@pd.jaring.my

Professional Eagle Trading Sdn. Bhd.
No. 28A, Jalan 4/21D,
Medan Idaman, Batu 5, off Jalan Gombak,
53100 Kuala Lumpur,
Malaysia.
Tel: (603) 40229700
Telfax: (603) 40244700
Email: petra998@tm.net.my

petrad_55@yahoo.com

المحتويات

الفصل الرابع: الكيان اليهودي الصهيوني ويهود العالم

الفصل الخامس: المقاومة المسلحة ضد المشروع الصهيوني في فلسطين والكيان الإسرائيلي

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

يسرني أن أقدم بين يدي القارئ هذا الكتاب، الذي يجمع بين دفتيه سبعة فصول يكمّل بعضها بعضاً، لتعطي –بإذن الله- صورة واضحة وشاملة حول القضية الفلسطينية.

وبالطبع، فقد كتبت آلاف الكتب والدراسات حول القضية الفلسطينية من مختلف زواياها، غير أن الدراسات العلمية تميل عادة إلى تغطية أحد جوانب الموضوع أو فرع من فروعه. أما الدراسات المنهجية التي تقدم القضية بصورة مركزة شاملة بين دفتي كتاب واحد فهي قليلة محدودة.

وقد اعتمدنا في هذا الكتاب التصنيف حسب المواضيع أو الخطوط العامة للقضية الفلسطينية. فهناك فصل عن أرض فلسطين، وفصل عن شعب فلسطين، وفصل عن الحركة الصهيونية وفكرها، وفصل عن الكيان الإسرائيلي وأوضاعه السياسية والسكانية والاقتصادية والعسكرية، وفصل عن مقاومة المشروع الصهيوني، وما تضمنته من حروب وثورات وانتفاضات، وآخر عن حركات المقاومة نفسها، كما أفردنا فصلاً حول مشاريع التسوية السلمية. وحتى لا يشعر القارئ الكريم بالتشتت، فقد وضعنا تمهيداً ناظماً لما بعده من فصول. وهو تمهيد يقدم نظرة سريعة حول فلسطين عبر التاريخ وخلفيات ظهور القضية الفلسطينية؛ بحيث يقدم لمن يقرؤه أرضية عامة، تُسهِّل استيعاب الفصول المتخصصة التالية، التي فصَّلت كثيراً من النقاط التي أشار إليها هذا التمهيد.

ويستهدف هذا الكتاب قطاعات المثقفين وطلبة المعاهد والجامعات، وكافة المهتمين بالقضية الفلسطينية. وهو يصلح – بإذن الله - كتاباً منهجياً حول القضية يمكن أن يدرسه طلبة العلم وخصوصاً في الجامعات. وهو مكتوب بلغة أكاديمية سهلة، والمعلومات الواردة فيه موثقة علمياً، كما يعتمد آخر الأرقام والإحصائيات المتعلقة بالقضية حتى سنة 2002م.

وقد كتب هذا الكتاب وفق رؤية تؤمن بأن فلسطين أرض عربية إسلامية، وبحقّ أبنائها فيها، وبشرعية جهاد العرب والمسلمين وكفاحهم، لتحرير كامل أرضهم المقدسة المباركة.

نسأل الله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، والصدر مفتوح لكل اقتراح أو توجيه أو نقد بنَّاء.

د. محسن محمد صالح

تمهيد

الخلفيات التاريخية للقضية الفلسطينية

تمهيد

الخلفيات التاريخية للقضية الفلسطينية

يسعى هذا التمهيد إلى تقديم نظرة سريعة على فلسطين عبر التاريخ، وعلى خلفيات نشوء القضية الفلسطينية في التاريخ الحديث والمعاصر، بما يشكِّل أرضية مناسبة للانطلاق للفصول التي تشملها هذه الدراسات المنهجية.

مقدمة:

ثلاثة جوانب تجعل القضية الفلسطينية القضية الأبرز التي شغلت – ولا تزال تشغل – العالم العربي والإسلامي:

الجانب الأول: طبيعة الأرض بقدسيتها وبركتها ومركزيتها في قلوب المسلمين.
والجانب الثاني: طبيعة العدو بخلفيته العقائدية وعدائه التاريخي.
والجانب الثالث: طبيعة التحالف الغربي الصهيوني الذي هدف أساساً إلى تمزيق الأمة الإسلامية، وإضعافها وإبقائها مفككة الأوصال، تدور في فلك التبعية للقوى الكبرى.
ولذلك يمثل التحدي اليهودي الصهيوني، الذي انزرع في فلسطين – قلب العالم الإسلامي – بأشكاله العسكرية السياسية والحضارية، أبرز التحديات التي تواجه الأمة المسلمة، وسعيها نحو التحرر والوحدة والنهضة، لاسترداد مكانتها وريادتها بين الأمم.
وليس بخافٍ أن هذه القضية لم تكن يوماً قضية الفلسطينيين وحدهم؛ لأن إنشاء الكيان اليهودي – الصهيوني على أرض فلسطين لم يكن إلا مركزاً متقدماً لتنفيذ هذا البرنامج الغربي – الصهيوني. وسواء التقى ذلك مع أهداف أخرى من حل مشكلة اليهود في أوروبا، أو التعاطف الديني مع رغباتهم، فإن الحقيقة الصارخة تكشف مدى الظلم الذي يرتكبه الغرب في تهجير شعب فلسطين وتدمير كيانه، وتعريض العالم الإسلامي للخطر، والاستقرار العالمي للانفجار، في سبيل تحقيق أهدافهم تلك، في عالمٍ يزعمون فيه دعوتهم للسلام العالمي وحقوق الإنسان.

فلسطين:

يطلق اسم فلسطين على القسم الجنوبي الغربي لبلاد الشام، وهي الأرض الواقعة غربي آسيا على الساحل الشرقي للبحر المتوسط.
ولفلسطين موقع استراتيجي مهم، إذ تعد صلة الوصل بين قارتي آسيا وإفريقيا، ونقطة التقاء جناحي العالم الإسلامي.
وقد سكن الإنسان أرض فلسطين منذ عصور موغلة في القدم كما تدل الحفريات والآثار، وشهدت أرضها مراحل التطور الإنساني الأولى في التحول من الرعي إلى الزراعة، كما أن أول مدينة جرى تشييدها في التاريخ هي مدينة "أريحا" الواقعة شمال شرقي فلسطين وذلك نحو 8000 ق.م حسبما يذكر علماء الآثار.

وأقدم اسم معروف لهذه الأرض هو "أرض كنعان"؛ لأن أول شعب سكن هذه الأرض ومعروف لدينا تاريخياً هم "الكنعانيون"، الذين قدموا من جزيرة العرب نحو 2500 ق.م. واسم فلسطين هو اسم مشتق من اسم أقوام بحرية، لعلها جاءت من غرب آسيا الصغرى ومناطق بحر إيجة حوالي القرن الثاني عشر ق.م، وورد اسمها في النقوش المصرية باسم "ب ل س ت"، وربما أضيفت النون بعد ذلك للجمع، وقد سكنوا المناطق الساحلية، واندمجوا بالكنعانيين بسرعة، فلم يبق لهم أثر مميز سوى أنهم أعطوا الأرض اسمهم.
أما أرض فلسطين بحدودها الجغرافية المتعارف عليها حاليا، فلم تتحدد بدقة إلا في أيام الاحتلال البريطاني لفلسطين (وخصوصا خلال 1920-1923). وقد ظلت حدود أرض فلسطين تضيق وتتسع عبر التاريخ، غير أنها ظلت تعبر بشكل عام عن الأرض الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الميت ونهر الأردن. وعلى أي حال، فإن مساحة فلسطين وفق التقسيمات المعاصرة تبلغ 27009كم2. وتتمتع فلسطين بمناخ معتدل هو مناخ البحر المتوسط، وهو مناخ يساعد على الاستقرار والإنتاج.

فلسطين عبر التاريخ:

هناك آثار تشير إلى أن الإنسان سكن فلسطين منذ العصر الحجري القديم (500 ألف – 14 ألفاً ق.م)، كما يشير العصر الحجري الوسيط (14 ألفاً – 8 آلاف ق.م) إلى وجود أشكال حياة حضارية تمثلت فيما يعرف بالحجارة النطوفية. وعندما قدم الكنعانيون من جزيرة العرب (نحو 2500 ق.م) كانت هجرتهم واسعة بحيث أصبحوا السكان الأساسيين للبلاد، وقد أنشأوا ما لا يقل عن مائتي مدينة وقرية في فلسطين، مثل مدن بيسان وعسقلان وعكا وحيفا والخليل وأسدود وبئر السبع وبيت لحم. ويرى ثقات المؤرخين أن معظم أهل فلسطين الحاليين، وخصوصا القرويين، هم من أنسال القبائل الكنعانية والعمورية والفلسطينية، ومن القبائل العربية التي استقرت في فلسطين قبل الفتح الإسلامي وبعده، حيث اندمج الجميع في نسيج واحد، يجمعهم الإسلام واللغة العربية، حيث أسلم الجميع واستعربوا تحت الحكم الإسلامي طوال ثلاثة عشر قرناً.
كان قدوم إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين (نحو 1900 ق.م) إشراقة لنور التوحيد في هذه الأرض المباركة، وقد عاصر حاكم القدس "ملكي صادق" الذي كان على ما يبدو مرحبا وصديقا له. وكان لأبي الأنبياء دوره في نشر رسالة التوحيد، ويبدو أنه لم يجد عنتاً ولا عناءً من أهل فلسطين، ولم يضطر لتركها بسبب دينه أو دعوته، فظل مستقراً فيها ويتنقل بحُرّية حيث يشاء إلى أن توفاه الله في المدينة التي حملت اسمه "الخليل". وقد سار على دربه أبناؤه الأنبياء من بعده إسماعيل (الذي استقر في مكة)، وإسحق وابنه يعقوب اللذان استقرا في فلسطين. وكان ليعقوب عليه السلام اثنا عشر ابناً هم الأسباط المعروفون ببني إسرائيل (وإسرائيل هو لقب يعقوب عليه السلام) وقد هاجروا إلى مصر واستقروا فيها، حيث عانوا من اضطهاد الفراعنة بضعة قرون. وأرسل الله لهم موسى عليه السلام (في القرن 13 ق.م) لينقذهم من فرعون وطغيانه، وأهلك الله فرعون وجنوده، غير أن بني إسرائيل في ذلك الزمان كانوا قد طبعوا على الذل والجبن فرفضوا الذهاب إلى الأرض المقدسة قائلين لموسى: "فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون".
وتوفي موسى عليه السلام قبل أن يدخل فلسطين، وعندما نشأ جيل جديد صلب من بني إسرائيل بعد أربعين سنة من التيه، قادهم يوشع بن نون عليه السلام (نحو 1190 ق.م) حيث عبر بهم نهر الأردن، واستطاع

تحقيق بعض السيطرة لبني إسرائيل في الجزء الشمالي الشرقي من فلسطين. ولمدة 150 سنة تالية سادت النكبات والفوضى والخلافات والانحلال الخلقي والديني بين بني إسرائيل. ولم يتحسن حالهم إلا بقدوم طالوت ملكا عليهم، والذي استطاع الانتصار على أعدائه.
وكان ظهور داود عليه السلام الذي خلف طالوت إيذاناً ببدء مرحلة جديدة لنور التوحيد في الأرض الباركة، حيث آتاه الله الملك (نحو 1004ق.م) وقد واصل حربه ضد الأقوام الكافرة على الأرض المقدسة حيث أخضعها واستطاع نقل عاصمته إلى القدس سنة 995ق.م وسيطر على معظم فلسطين، باستثناء معظم المناطق الساحلية التي لم تخضع له. واستمر في حكمه عليه السلام حتى 963ق.م حيث خلفه ابنه سليمان عليه السلام (963-923ق.م) حيث شهدت فلسطين حركة بناء وعمران وازدهار ضخمة، وسخّر الله له الريح والجنّ، وأعطاه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. وكان حكم داود وسليمان عليهما السلام هو العصر الذهبي الذي حكمت فيه فلسطين نحو ثمانين عاما تحت راية الإيمان والتوحيد قبل الفتح الإسلامي لها.
وبعد وفاة سليمان عليه السلام، انقسمت مملكته إلى دولتين منفصلتين متعاديتين في كثير من الأحيان فنشأت مملكة "إسرائيل" شمال فلسطين خلال الفترة (923-721 ق.م) التي سمتها دائرة المعارف البريطانية ازدراء "المملكة الذيلية" حيث ضعفت وفسد حكامها وانتهى أمرها بسيطرة الآشوريين بقيادة سرجون الثاني عليها، وتدميرها ونقل سكانها من بني إسرائيل إلى حرّان والخابور وكردستان وفارس، وأحلو مكانهم جماعات من الآراميين، ولم يبق بعد ذلك أثر لأسباط بني إسرائيل العشرة الذين شكلوا هذه الدولة. أما "مملكة يهوذا" فاستمرت منذ (923-586ق.م)، وكانت عاصمتها القدس وقد اعترتها عوامل الضعف والوقوع تحت النفوذ الخارجي فترات طويلة، فقد هزمها ودخل عاصمتها شيشق فرعون مصر (أواخر القرن 10 ق.م)، وفعل مثله الفلسطينيون في عهد يهورام (849-842ق.م)، واضطرت لدفع الجزية إلى الآشوريين ...، ثم إنها سقطت أخيرا بيد البابليين بقيادة نبوخذ نصر الذي خرّب القدس، ودمّر الهيكل، وسبى حوالي 40 ألفاً من اليهود، وبذلك سقطت مملكتهم سنة 586ق.م.
وهكذا، فلم تطُل مملكة بني إسرائيل في فلسطين أكثر من أربعة قرون حكموا في معظم الوقت بعضا من أرضها، وكان حكمهم غالب الوقت ضعيفاً مفككاً، وخضع أحياناً لنفوذ وهيمنة دول قوية مجاورة. وفي الوقت نفسه، ظل أبناء فلسطين من الكنعانيين وغيرهم في أرضهم، ولم يهجروها أو يرتحلوا عنها.
وقد سمح الإمبراطور الفارسي قورش لليهود بالعودة إلى فلسطين، فعادت قلّة منهم، عاشت إلى جانب أبناء فلسطين، وتمتعت منطقة القدس بنوع من الحكم الذاتي تحت السلطة الفارسية التي استمرت (539-332ق.م). وتلا ذلك عصر السيطرة الهللينية الإغريقية على فلسطين (332-63 ق.م) واستمر يدير شئون اليهود "الكاهن الأكبر"، واستطاع اليهود تحقيق حكم ذاتي منذ سنة 146ق.م أخذ يضيق ويتسع، وتزداد مظاهر استقلاله وتضعف حسب صراع القوى الكبرى في ذلك الوقت على فلسطين (الرومان، البطالمة، السلوقيين ...).
وقد تمكن الرومان من السيطرة على فلسطين 63ق.م، وأخضعوها لحكمهم المباشر من سنة 6م، حيث ألغوا الحكم الذاتي اليهودي في منطقة القدس. وقد ثار اليهود (66-70م) لكن القائد العسكري الروماني تيتوس أخمد ثورتهم ودمّر الهيكل، ثم ثار اليهود مرة أخرى وأخيرة (132-145م) لكن القائد الروماني جوليوس سفروس احتل القدس ودمرها، وأقام الإمبراطور الروماني هدريان مدينة جديدة فوق خرائبها

سماها إيليا كابيتولينا حيث عرفت بعد ذلك باسم إيلياء، وهو اسم هدريان الأول. وحظر على اليهود دخول القدس حوالي 200 سنة تالية، وندرت أعدادهم نسبة إلى السكان طوال 18 قرنا تالية. بينما ظل أهل البلاد الأصليون من كنعانيين ومن اختلط بهم من قبائل العرب مستقرين في البلاد قبل قدوم بني إسرائيل وفي أثناء وجودهم، وظلوا مستمرين كذلك إلى أيامنا هذه.

فلسطين في العهد الإسلامي:

قبل أن تتشكل الدولة الإسلامية في المدينة المنورة, كانت أنظار القلّة المستضعفة من المسلمين في مكة تتجه إلى المسجد الأقصى وبيت المقدس في فلسطين. إذ أن معجزة الإسراء تمت من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وكان المسجد الأقصى هو القبلة الأولى للمسلمين في الصلاة. وقد كان فتح خيبر وفدك(7هــ)وغزوتا مؤتة (8هــ) وتبوك (9هــ) وحملة أسامة بن زيد (11هــ) مقدمة لتطلع المسلمين إلى بلاد الشام.
أما فتح فلسطين فكانت أبرز المعارك التي أدت إلى فتحها هي معركة أجنادين بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه في 27 جمادى الأولى 13هــ-30 يوليو 634م قرب بيت جبرين التي قتل فيها نحو ثلاثة آلاف من الروم، ومعركة فحل – بيسان في 28 ذي القعدة 13هـ -23 يناير 635م والتي كان ميدانها غربي نهر الأردن إلي الجنوب من بيسان. أما المعركة الفاصلة فكانت معركة اليرموك شمالي الأردن في 5 رجب 15 هـ - 12 أغسطس 636م والتي واجه فيها جيشُ المسلمين المكون من 36 ألفا بقيادة أبي عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهما جيش الروم البالغ 200 ألف. وقد حلت كارثة كبرى في الروم قدرها المؤرخون بنحو 130 ألف قتيل. وقد أدت هذه المعركة إلي فتح بلاد الشام. وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه لاستلام مفاتيح بيت المقدس بعد أن حاصرها المسلمون بضعة أشهر ورغب أهلها في الصلح شرط أن يتولى عمر رضي الله عنه العقد بنفسه. وهي المدينة الوحيدة في عهد الراشدين التي تولي خليفة بنفسه استلام مفاتيحها, وقد شارك عمر في الفتح نحو أربعة آلاف من الصحابة وصدح صوت بلال بن رباح فيها بالأذان بعد أن كان امتنع عن ذلك منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد كتب عمر بن الخطاب عهداً, اشتهر باسم "العهدة العمرية" وقد جاء فيه:
"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان, أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم, ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم, ولا يكرهون على دينهم, ولا يضار أحد منهم, ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.
وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن. وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص, فمن خرج منهم فإنه آمن علي نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم, ومن قام منهم فهو آمن وله مثل ما على أهل إيلياء من الجزية...
شهد على ذلك خالد بن الوليد, وعمرو بن العاص, وعبد الرحمن بن عوف, ومعاوية ابن أبي سفيان, وكتب وحضر سنه 15 هـ".
ويعكس هذا النص مدى التسامح الديني عند المسلمين في عالم كان يسوده التعصب الأعمى والإكراه على الدين. وقد تم فتح القدس على الأرجح في ربيع الآخر 15هــ - مايو 637م. وكانت "قيسارية" آخر مدينة

تفتح في فلسطين في شوال 19هــ - أكتوبر 639م وكانت ميناء ومدينة عامرة قوية سعى الروم للاحتفاظ بها قدر استطاعتهم.
وحسب التقسيمات الإدارية أصبحت فلسطين "جندا" من "أجناد" الشام الذي توزع على أربعة أجناد في الراشدين, وأصبحت خمسا في عهد الدولة الأموية. وقد ظلت فلسطين جزءا أصيلاً في الدولة الإسلامية ومتفاعلاً مع تطوراتها السياسية والحضارية. ولم يكن تغير الدول والأسر الحاكمة ليؤثر على حقيقة أن أهل فلسطين عرب مسلمون موالون لدولة الإسلام وحكم الإسلام.
وقد أستمر حكم الراشدين حتى سنة 41هــ - 661م ثم تبعه حكم بني أمية حتى 132هــ -750م, ثم العباسيون الذين استمر حكمهم المباشر على فلسطين إلى أن بدأ يعاني من الضعف والتفكك مع انتهاء العصر العباسي الأول بمقتل الخليفة العباسي المتوكل سنة 247هــ -861م مما أعطي الفرصة للولاة إلى أن يشكلوا لأنفسهم سلطات محلية وراثية, كما حدث مع العائلة الطولونية التي حكمت مصر وضمت فلسطين إليها 264-292هــ أي 878-905م, وقد حذا الإخشيديون حذو الطولونيين عندما حكموا مصر, فضموها إلى نفوذهم 323-358هـ أي 935-969م . وقد حكم الإخشيديون والطولونيون تحت الظل الاسمي للدولة العباسية.
وفي 358هـ تمكن الفاطميون الذين ينتمون إلى المذهب الإسماعيلي من السيطرة على فلسطين. وخاض الفاطميون صراعات مع الثورات المحلية والقرامطة والأتراك السلاجقة للسيطرة على فلسطين. وتمكن السلاجقة في 464هـ - 1071م من السيطرة على معظمها. لكن الصراع عاد ليحتدم بين السلاجقة أنفسهم وبينهم وبين الفاطميين الذين تمكنوا من السيطرة على صور سنة 1097م وبيت المقدس في فبراير 1098 وقد كان هذا الصراع في غمرة الحملة الصليبية الأولي التي بدأت طلائعها في الوصول إلى بلاد الشام. وقام الفاطميون بمراسلة الصليبيين عارضين عليهم التعاون في قتال السلاجقة مقابل أن يكون القسم الشمالي من بلاد الشام للصليبيين وفلسطين للفاطميين.
وليس من منهجنا في هذه الدراسة أن نتحدث عن تفصيلات الحروب الصليبية. ولكننا نذكر أن الصليبين تمكنوا من احتلال فلسطين,
وسيطروا على القدس 493هــ - 1099م بعد أن خاضوا في بحر من دماء المسلمين, وقتلوا منهم في القدس حوالي سبعين ألفاً. لكن الأمة الإسلامية كانت لا تزال تملك الكثير من القوة والحيوية وكانت أرقى حضارياً وعلمياً من الصليبين الأوروبيين, رغم ما كانت تعانيه من تشرذم وصراع سياسي وحروب داخلية فقد ظهر أبطال مجاهدون أنهكوا الصليبيين طيلة فترة حكمهم, ومن أمثالهم أقسنقر البرسقي 508-520 هــ, وعماد الدين زنكي 521-540هـ الذي أسقط إمارة الرها الصليبية, وأبنه نور الدين محمود 541-569هـ / 1146-1174م , الذي قدم نموذجا فذاً للقيادة المسلمة, وتبني مشروعاً نهضوياً حضارياً موازياً لمشروع التحرير الذي شغله طيلة حكمه, فتمكن من توحيد القوى الإسلامية بقيادته في بلاد الشام, ثم ضم مصر إلى حكمه, وأسقط الخلافة الفاطمية فيها على يد واليه هناك صلاح الدين الأيوبي, وتمكن من تحرير نحو خمسين مدينة وقلعة من الصليبيين. إلا أنه توفى رحمه الله بعد أن استكمل تثبيت فكي الكماشة (مصر والشام) على عنق الصليبيين.
رفع صلاح الدين الأيوبي راية الجهاد بعد نور الدين 569-589هـ / 1174-1193م، وأعاد توحيد الشام ومصر تحت قيادته, وخاض معركة حطين مع الصليبيين في 24 ربيع الآخر 583هـ - 4 يوليو 1187م وهي معركة فاصلة في التاريخ أدت إلى تحطيم الوجود الصليبي وفتح بيت المقدس في 27 رجب 583هـ - 2 أكتوبر 1187م أي بعد نحو 88 عاما من الحكم

الصليبي. وقد تابع الصليبيون حملاتهم وتمكنوا من السيطرة على شريط ساحلي بين يافا وصور, كما سيطروا مرة أخرى على القدس (بسبب الصراعات الداخلية في الدولة الأيوبية) معظم الفترة بين 626-642هـ / 1229 – 1244م إلى أن عادت نهائياً إلى حظيرة الإسلام, واستمرت كذلك حتى الاحتلال البريطاني لفلسطين سنة 1917م.

وقد خلف المماليك الدولة الأيوبية سنة 648هـ- 1250م وواجهوا الزحف المغولي على أرض فلسطين في معركة عين جالوت 25 رمضان 658هـ الموافق 6 سبتمبر 1260م بقيادة قطز (محمود بن ممدود) والتي تعد من المعارك الفاصلة في التاريخ. ثم تابع المماليك مشروع تحرير فلسطين وبلاد الشام من بقايا الصليبيين، فقام الظاهر بيبرس بجهد كبير في ذلك، حيث استرد العديد من المناطق في فلسطين والشام ثم تابعه سيف الدين قلاوون، ثم ابنه الأشرف خليل بن قلاوون الذي تم على يديه إنهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام بإسقاطه مملكة عكا الصليبية. إذ حرر عكا في 17 جمادى الأولى 790هـ الموافق 18 مايو 1291م، واستولى بعد ذلك بسرعة على صيدا وصور وحيفا وعتليت لتعود السيطرة الكاملة على فلسطين والشام من جديد لحكم الإسلام.

وعندما ضعف شأن المماليك قام العثمانيون بالسيطرة على فلسطين (وباقي الشام) سنة 1516م، وسيطروا على مصر في السنة التالية، ووسعوا سيطرتهم خلال نصف القرن التالي لتشمل معظم العالم العربي، حيث استمر حكمهم حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة 1918م.

وعلى أي حال، فإن الحكم الإسلامي لفلسطين استمر نحواً من 1200 سنة حتى 1917م، وهي أطول فترة تاريخية مقارنة بأي حكم آخر، كان الحكم فيها مسلما والشعب مسلما، وغطى الحكم كلّ فلسطين وليس بعضها، كما ضرب المسلمون المثل الأعلى في التسامح الديني وحرية الأديان، فكانوا خير من خدم الأرض المقدسة، وحمى حرمتها.

وقد ترسخ الإسلام في فلسطين بقدوم عدد من الصحابة رضي الله عنهم واستقرارهم في فلسطين ونشرهم للإسلام فيها، وكان منهم: عبادة بن الصامت، وشداد بن أوس، وأسامة بن زيد بن حارثة، ووائلة بن الأسقع، وفيروز الديلمي، ودحية الكلبي، وعبد الرحمن بن غنم الأشعري، وعلقمة بن مجزر الكناني، وأوس بن الصامت، ومسعد بن أوس بن زيد، وزنباع بن روح، وأبو ريحانة شمعون الأنصاري، وأنيف بن ملة الجذامي، وأبو رويحة الفزعي .. وغيرهم من الصحابة الذين عاشوا في فلسطين ودفنوا في ثراها.

ومن التابعين من أبناء فلسطين رجاء بن حيوة الكندي من مواليد بيسان، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك بتولية عمر بن عبد العزيز الخلافة. ومن التابعين أيضاً عبادة ابن نسي الكندي، وروح ابن زنباع، وممن سكن فلسطين أو زارها من التابعين مالك ابن دينار والأوزاعي وهانئ بن كلثوم وحميد بن عبد الله اللخمي، وسفيان الثوري، وابن شهاب الزهري.

ومن كبار الأئمة والفقهاء الذين ولدوا في فلسطين الإمام الشافعي الذي ولد في مدينة غزة، وممن عاشوا في فلسطين أو زاروها من الأئمة إبراهيم بن أدهم، والليث بن سعد، وأبو بكر بن حمد الطرطوشي، وأبوبكر الجرجاني، وابن قدامة المقدسي.

وإلى فلسطين ينتسب فاتح الأندلس القائد موسى بن نصير اللخمي، كما ينتسب عبد الحميد بن يحيى رئيس فن الكتابة وسيّد الإنشاء والدواوين في عصره، وينتسب إليها أيضا أول علماء الكيمياء الكبار في التاريخ الإسلامي خالد بن يزيد الأموي. ولا يتسع المجال للاستطراد، فقد كانت الأرض المقدسة مركزاً للحضارة الإسلامية، ومهوى لأفئدة

المسلمين، وشارك أبناؤها بفعالية في بناء صرح الأمة الإسلامية الشامل وفي الارتقاء بنهضتها.

خلفيات ظهور القضية الفلسطينية في التاريخ الحديث:

كما أشرنا سابقاً، فَقَدَ اليهود صلتهم بفلسطين عملياً حوالي ألف وثمانمائة عام، ولم يكن لديهم سوى العاطفة الدينية التي رفض أحبارهم وحاخاماتهم وقادتهم تحويلها إلى برنامج عملي، لأنهم كانوا يؤمنون أنهم استحقوا تدمير دولتهم وشتاتهم بسبب خطاياهم، وأن عليهم انتظار المسيح المخلّص الخاص بهم "الماشيح" أو "المسيا"، وعند ذلك يجوز لهم الاستقرار في فلسطين وإقامة كيانهم.
على أن عدداً من التغيرات المهمة حدثت في التاريخ الأوروبي الحديث، انعكست بدورها على اليهود وإنشاء المشروع الصهيوني. فمنذ القرن السادس عشر الميلادي ظهرت حركة الإصلاح الديني "الحركة البروتستانتية" التي ركزت على الإيمان بالعهد القديم "التوراة"، ونظرت لليهود وفق رؤية توراتية بأنهم "أهل فلسطين" المشردون في الأرض، وآمنت بأن اليهود سيُجمعون من جديد في فلسطين لعودة المسيح المنتظر الذي سيقوم بتنصيرهم، ليبدأ بعد ذلك عهد يمتد ألف سنة من السعادة. وقد شكل أتباع الكنائس البروتستانتية أغلبية سكان بريطانيا والولايات المتحدة وهولندا ونحو نصف سكان ألماني. وهكذا ظهرت "الصهيونية" غير اليهودية خصوصاً وسط هؤلاء البروتستانت الذين دعموا المشروع الصهيوني بناء على خلفية دينية.
ومن جهة أخرى، فإن أوروبا – خصوصا في القرن التاسع عشر – شهدت تحولات سياسية مهمة، فمنذ الثورة الفرنسية على الحكم الملكي سنة 1789 أخذت تتشكل الدولة الأوروبية الحديثة، وانتشرت الفكرة القومية والمشاعر الوطنية، وتم إنشاء أنظمة علمانية فصلت الدين عن الدولة وهمّشت دور الكنيسة. وتم "تحرير" اليهود، وإعطاؤهم كافة حقوق المواطنة، خصوصا في أوروبا الغربية، مما سهل على اليهود اختراق هذه المجتمعات والأنظمة، والارتفاع بمكانتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق مستويات أعلى من النفوذ في دوائر السياسة والاقتصاد والإعلام.
وفي المقابل فإن الدولة القومية والمشاعر الوطنية في روسيا وأوروبا الشرقية قد أخذت منحى آخر، حيث كان يتواجد غالبية يهود العالم. إذ قاوم يهود روسيا عمليات الدمج والتحديث الروسية، التي تميزت بالفوقية والقسر والإرهاب. وزادت مشاركة الكثير من اليهود في الحركات الثورية اليسارية من عداء الحكومة القيصرية الروسية لهم، وانفجرت العداوة ضدهم بشكل مكشوف إثر اغتيال قيصر روسيا ألكسندر الثاني 1881، والذي اتهم به اليهود. وبدأت موجة من الإجراءات العنيفة القاسية ضدهم سميت ب "اللاسامية" anti-semitism، أي العداء لليهود لكونهم يهودا ينتمون إلى العنصر السامي، وقد أدى ذلك إلى نشوء "المشكلة اليهودية" إذ أن ملايين اليهود في روسيا أخذوا يبحثون عن فرصة للخلاص مما هم فيه، وبدأت أعداد هائلة منهم في الهجرة إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية والجنوبية. وقد كانت هذه فرصة الحركة الصهيونية للظهور الدعوة إلى حل المشكلة اليهودية بإنشاء كيان آمن مستقل لليهود في فلسطين، وتعاطف الكثير من

الأوروبيين والأمريكان مع هذه الدعوة سواء لخلفياتهم الدينية، أو تخلصاً من أعباء التدفق اليهودي على أرضهم.
وأسهم ضعف الدولة العثمانية – التي كانت فلسطين تحت حكمها (1516-1917)- وسعي الدول الغربية لتقاسم أراضيها إلى بروز أجواء عملية أفضل لتأسيس المشروع الصهيوني. ففي مؤتمر لندن الاستعماري (1905-1907) ظهرت فكرة إنشاء "الدولة الحاجزة" في منطقة فلسطين، واقترح المؤتمرون الذين رفعوا توصياتهم إلى رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت كامبل بنرمان C. Bannerman إنشاء هذا الكيان بحيث يتشكل حاجز بشري قوي وغريب، شرقي البحر المتوسط، يكون قوة عدوة لشعب المنطقة، وصديقة للدول الأوروبية ومعتمدة عليها. وكان أفضل من ينفذ هذا المشروع هم اليهود.
وقد هدف المشروع الغربي من إنشاء فكرة الدولة الحاجزة إلى غرس كيان غريب في قلب العالم الإسلامي، ويفصل جناحه الآسيوي عن جناحه الإفريقي. يمنع وحدته، ويضمن ضعفه وتفككه، إذ أن استمرار مثل هذا الكيان مرتبط بذلك. وسيسعى هذا الكيان بالتالي لضرب أي نمو حضاري قوي في المنطقة، وسيشغل العالم الإسلامي بمشكلة طويلة معقدة تستنزف طاقته وجهوده، وتبقيه إلى أبعد مدى ممكن في فلك التبعية والضعف والحاجة للعالم الغربي وقواه الكبرى. وكما أن هذا الكيان سيكون بحاجة إلى دعم الغرب لضمان استمراره، فإن الغرب كذلك سيكون بحاجة إليه لضمان ضعف العالم الإسلامي وتفككه وتبعيته، وبذلك ينشأ بينهما تحالف يهودي صهيوني-غربي صليبي لا ينفصم. وهنا تكمن أهمية أن يفهم المسلمون أن هذا المشروع موجه ضد كل مسلم وآماله في الوحدة والنهضة والتقدم وليس ضد الفلسطينيين وحدهم.
لقد عانى الغرب الصليبي من قرون طويلة من الصراع مع المسلمين، كانت فيه اليد الطولى للمسلمين نحو أحد عشر قرناً، وما كانت لتنتهي دولة مسلمة حتى تحل مكانها دولة مسلمة تجدد الحيوية في هذه الأمة وتحفظ عزتها وكرمتها، فكانت دول الراشدين والأمويين والعباسيين والمماليك, وتمكن العثمانيون الذين خلفوا المماليك من فتح معظم أوروبا الشرقية، ومن توحيد العالم العربي تحت رايتهم فكانوا حصنا عظيما للإسلام قروناً عديدة. غير أن ضعف الدولة العثمانية خصوصا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين جعل الأوروبيين يفكرون بطريقة تضمن ألا تقوم بعد ذلك للعالم الإسلامي قائمة، وألا تحل محل العثمانيين دولة مسلمة جديدة، تبعث الحيوية والنهضة فيهم، فكانت فكرة الدولة الحاجزة.

التطور السياسي للقضية الفلسطينية حتى عام 1914

لفتت حملة نابليون بونابرت على مصر التي احتلها بسهولة في يوليو 1798 الأنظار إلى مدى ضعف الدولة العثمانية وفتحت شهية الاستعمار الأوروبي لاقتسام تركة هذه الدولة. ورغم أن حملة نابليون بونابرت على فلسطين انتهت بالفشل على أسوار مدينة عكا 1799، إلا انه كان أول زعيم سياسي أوروبي يصدر دعوة رسمية لليهود لتحقيق آمالهم وإقامة كيانهم على ارض فلسطين، وقد نشر دعوته هذه في 20 ابريل 1799 في أثناء حصاره لعكا.
ولم تكن الأهمية الخاصة لمصر وبلاد الشام لتغيب عن أعين البريطانيين الذين كانوا القوة الكبرى الأولى في العالم، فافتتحت بريطانيا قنصلية لها في القدس سنة 1838. وفى أول رسالة لنائب القنصل في القدس، طلبت الخارجية البريطانية منه توفير الحماية لليهود، حتى وإن كانوا غير

بريطانيين، ولذلك ظلت هذه القنصلية مركزاً للدفاع عن مصالح اليهود حتى نشوب الحرب العالمية الأولى سنة 1914. وعندما تم للبريطانيين السيطرة على قبرص 1878، ومصر 1882، أصبحت الدولة الاستعمارية الوحيدة التي لها قواعد شرقي البحر المتوسط. وفضلا عن الخلفيات الدينية والتاريخية، فقد أصبحت تنظر إلى فلسطين في ضوء التنافس الاستعماري على المنطقة، وفى ضوء حاجتها لحماية الجناح الشرقي لقناة السويس التي أصبحت الشريان الحيوي للمواصلات البريطانية خصوصاً إلى الهند. وعندما تأسس المشروع الصهيوني، وظهرت فكرة الدولة الحاجزة فإنها كانت تخدم – بلا شك- مختلف الدوافع والخلفيات الدينية والحضارية والسياسية والاستراتيجية. وأصبحت تتخذ أبعاداً عملية يمكن تنفيذها في ضوء التدهور العثماني المتسارع.

ولم تكن أصداء الدعاوى التي أطلقها اليهود والصهاينة غير اليهود "للعودة" إلى فلسطين لتأخذ أبعاداً جدية قبل نهايات القرن التاسع عشر. فقد ظهرت بواكير هذه الدعوات في القرن السادس عشر, مرورا بأول كتاب صدر حول هذا الموضوع بقلم المحامى البريطاني هنرى فنش H.Finch سنة 1621 بعنوان "البعث العالمي الكبير أو دعوة اليهود", كما ظهرت في كتابات ودعوات النصارى أمثال اسحق نيوتن (1643-1727), جان جاك روسو (1712-1778), وبريستلى(1733-1804), وشافتسبرى ولورنس اوليفنت. وظهرت كذلك دعوات اليهود أمثال شبتاى بن زفي (1626 –1676), ويهودا القالي (1798-1878) وموزيس هس (1812-1875) وغيرهم. غير أن قدوم اليهود ظل مرتبطا بالعاطفة الدينية التقليدية في زيارة الأماكن المقدسة أو السكن بجواره, كما ارتبط بمشاريع استيطانية "خيرية"، ولم يأخذ طابع البرنامج السياسي المنظم المكشوف. فقد كان عدد اليهود في فلسطين سنة 1799 نحو خمسة آلاف, وفى عام 1876, بلغ 13920 يهودياً.

أخذت الهجرة اليهودية تتخذ طابعا أكثر تنظيما وكثافة منذ 1882 إثر تصاعد "المشكلة اليهودية" في روسيا، وقامت السلطات العثمانية بعدد من الإجراءات لمنع الاستيطان اليهودي في فلسطين، وقامت سنة 1887 بفصل سنجق القدس عن ولاية سوريا، ووضعته مباشرة تحت إشراف الحكومة المركزية (الباب العالي) لإعطاء رعاية واهتمام أكبر لهذه المنطقة. ورغم أن عدد اليهود الذين تركوا بلدانهم الأصلية (خصوصا روسيا وشرقي أوروبا) بلغ مليونين و366 ألفا و941 شخصاً خلال الفترة (1881-1914)، إلا أن عدد من استطاع الهجرة منهم إلى فلسطين بلغ 55 ألفاً، أي ما نسبته 2.32% بينما هاجرت الأغلبية الساحقة إلى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وأمريكا الجنوبية. وهذا يدل على نجاح نسبي للسلطات العثمانية في الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ولقد كان إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية World Zionist Organization وانعقاد مؤتمرها الأول في بال بسويسرا 27-29 أغسطس 1897 بزعامة ثيودور هرتزل T. Hertzl فاتحة العمل الصهيونية السياسي المؤسسي المنظم لتأسيس الدولة اليهودية على أرض فلسطين. وقد حرص هرتزل على تحقيق المشروع الصهيوني من خلال الاتصالات الدبلوماسية، ومحاولة تشجيع القوى الكبرى، وخصوصاً بريطانيا، على تبنّي هذا المشروع، في ضوء المصالح والفوائد التي يمكن أن يجنيها الغرب الاستعماري الصليبي، وقد حاول هرتزل عبثاً إقناع الدولة العثمانية ببيعه فلسطين وإعطاء اليهود حكماً ذاتياً فيها تحت السيادة العثمانية، وفتح أبواب الهجرة اليهودية إليها مقابل عروض مغرية، كانت الدولة العثمانية في أمَسّ الحاجة إليها. إلا أن السلطان عبد

الحميد الثاني (1876-1909) وقف سداً منيعاً ضد رغبات اليهود، وردّ على من نقل اقتراح هرتزل إليه قائلاً:
"أنصحه بألا يسير أبداً في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد؛ لأنها ليست لي بل لشعبي. ولقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا ... ليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قسمت الإمبراطورية، فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثتنا، ولن أقبل بتشريحنا لأيّ غرض كان".
وقد شارك اليهود بفعالية في إسقاط السلطان عبد الحميد من منصبه، من خلال انبثاثهم ونفوذهم الكبير في جمعية تركيا الفتة وذراعها لجنة الاتحاد والترقي، والتي قامت بالانقلاب العسكري عليه، إجباره على التنازل عن العرش، وتعمدت إرسال قره صو اليهودي ضمن الوفد الذي أبلغ السلطان عبد الحميد بقرار عزله. وكان قره صو هذا قد حاول التأثير على السلطان عبد الحميد لإسكان اليهود في فلسطين، فقام بطرده. وقد استمتع اليهود بنفوذ كبير تحت حكم الاتحاد والترقي خلال الفترة (1909-1914)، فبينما كان لليهود ثلاثة وزراء من أصل 13 وزيراً في حكومة الاتحاد والترقي التي تشكلت سنة 1913، كان للعرب الذين يزيد عددهم عن نصف السكان وزير واحد.
وقد كان لأبناء فلسطين نشاط مبكر في مواجهة المشروع الصهيونية، وكانت أولى الاصطدامات المسلحة بين الفلاحين الفلسطينيين والمستوطنين الصهاينة عام 1886، وقاموا بتقديم عرائض للسلطات العثمانية، كما نشطت الصحف في تبيان الخطر الصهيوني مثل جريدتي الكرمل وفلسطين. وكان للشيخ محمد رشيد رضا المصلح الإسلامي "اللبناني" المقيم في مصر من خلال مجلة المنار دور رائد في ذلك. كما برز من رجالات فلسطين يوسف ضيا الخالدي وسليمان التاجي الفاروقي وإسعاف النشاشيبي ... ممن تحدثوا عن الخطر الصهيوني.
وكانت سياسات "التتريك" والمحاباة للصهيونية التي مارستها حكومة الاتحاد والترقي باعثاً رئيسياً لأبناء فلسطين والعرب للانضمام للجمعيات العربية، التي أخذت تطالب بالإصلاح ضمن الدولة العثمانية، مثل حزبي اللامركزية والعربية الفتاة وغيرهما.

قضية فلسطين في الحرب العالمية الأولى 1914-1918:

ومع بداية الحرب العالمية الأولى 1914 كان قد بلغ عدد اليهود في فلسطين نحو 80 ألفاً، غير أن موقف اليهود الممالئ لبريطانيا وحلفائها ضد الدولة العثمانية قد جعل العثمانيين يضيقون عليهم فترة الحرب (1914-1918)، فانخفض عددهم مع نهايتها إلى 55 ألفاً.
وقد كانت الحرب العالمية الأولى خطراً هائلاً على الجميع، لكنها مثلت في الوقت نفسه فرصة أمام كل طرف للانتفاع من نتائجها في حالة الانتصار، فنشط سوق المفاوضات والاتصالات السرية والمعاهدات لترتيبات ما بعد الحرب. ورغم أن المنظمة الصهيونية العالمية عانت مؤقتاً من حالة من التشتت بسبب وجود الكثير من قياداتها في ألمانيا، إلا أن حاييم وايزمان C.Weizmann استطاع إعادة ترتيب أوراقها، وقيادتها عملياً من خلال مركزه في بريطانيا. أما بريطانيا فقد سعت إلى ضمان نفوذها في بلاد الشام والعراق من خلال السير في ثلاثة

اتجاهات متعارضة متضاربة، ولم تبال بهذا التعارض كثيراً في سبيل تحقيق أهدافها والانتصار في الحرب.
كان **الاتجاه الأول** التفاوض مع الشريف حسين بن علي أمير الحجاز (مراسلات حسين – مكماهون يوليو 1915 – مارس 1916) لدفعه لإعلان الثورة العربية على العثمانيين مقابل وعود باستقلال معظم المناطق العربية في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق تحت زعامته. وكان الكثير من رجالات العرب قد أصيبوا بالإحباط جرّاء سياسات الاتحاد والترقي، التي أفقدت الدولة العثمانية مصداقيتها الإسلامية، كما غضبوا لقيام جمال باشا الصغير والي سوريا بتعليق العديد من القيادات الغربية على أعواد المشانق في مايو 1915، رغم أن زعامات الجمعيات العربية كانت قد أعلنت في بداية الحرب تناسي خلافاتها مع العثمانيين، والوقوف إلى جانبها في محاربة "الكفار". وقد تعمدت بريطانيا سياسة عدم الوضوح في تحديد التزاماتها، وقد ضغط الشريف حسين على بريطانيا لتكون أكثر تحديداً، خصوصاً فيما يتعلق بحدود الدولة العربية المقترحة، فأرسلت بريطانيا في 24 أكتوبر 1915 عددا من التحفظات على الحدود، كمطالبتها بعدم ضم إقليمي مرسين وأضنة، وكذلك المناطق التي تقع إلى الغرب من سنجق حلب وحمص وحماة ودمشق، فضلاً عن استمرار استعمارها لجنوب اليمن وإمارات الخليج العربي، ومطالبتها بوضع إداري خاص لجنوب العراق يكفل المصالح البريطانية. ورغم أن الشريف حسين كان يفهم أنه لا يستطيع تغيير شيء بالنسبة للبلدان العربية المستعمرة، كما عبر عن استعداده لمناقشة المصالح البريطانية في جنوب العراق، إلا أنه أصر على عروبة المناطق غربي مناطق حلب وحمص ودمشق (وهي ما فهم أن المقصود منها ما يعرف الآن بلبنان). وقد تم الاتفاق على ضرورة المسارعة في إعلان الثورة على أن تتم مناقشة الأمور المعلقة بعد انتهاء الحرب. فقام الشريف حسين بإعلان الثورة في الحجاز في 10 يونيو 1917، وتحالف علناً مع البريطانيين، وأيدته في ذلك الجمعيات العربية التي كان لها نفوذ قوي خصوصاً في بلاد الشام كالعربية الفتاة واللامركزية والعهد.
أما **الاتجاه البريطاني الثاني** فكان التفاوض مع فرنسا (انضمت بعد ذلك روسيا للمفاوضات) بشأن مستقبل العراق وبلاد الشام. وقد تم الاتفاق فيما يعرف بمعاهدة سايكس - بيكو Sykes-Picot Agreement في مايو 1916 على إعطاء البريطانيين معظم العراق (مقارنة بحدوده الحالية) وشرق الأردن ومنطقة حيفا في فلسطين، أما لبنان وسوريا فتوضعان تحت الاستعمار الفرنسي. ونظراً لرغبة كافة الأطراف في استعمار فلسطين فقد اتُفق على أن توضع تحت إشراف دولي.
وكان **الاتجاه البريطاني الثالث** هو التفاوض مع المنظمة الصهيونية العالمية حول مستقبل فلسطين. وقد دفعهم إلى ذلك حاجتهم الماسة لاستخدام النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة لدفعها للمشاركة في الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها (وهذا ما حدث فعلاً في مارس 1917)، فضلاً عن وجود النفوذ اليهودي الصهيوني في بريطانيا وفي الحكومة البريطانية نفسها من خلال وزير الداخلية اليهودي الصهيوني هربرت صمويل H.Samuel، والنصارى المتصهينين مثل رئيس الوزراء لويد جورج L.George، ووزير الخارجية بلفور Balfour هذا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه سابقاً من دوافع وخلفيات دينية وسياسية واستراتيجية ... وكانت النتيجة صدور وعد بلفور في 2 نوفمبر 1917 بتعهد بريطانيا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد كان هذا من أغرب الوعود في التاريخ الإنساني، ففضلاً عن تعارضه مع المعاهدات الأخرى، فقد تجاوز بصلف وغرور رغبات وأماني أصحاب البلاد الشرعيين، وتعهد بأن يعطي أرضاً لا يملكها – بل ولم يكن قد احتلها بعد- إلى أناس لا

يستحقونها، وكان ذلك في ذروة الحديث عن الشرف البريطاني، والدفاع عن القيم والمبادئ.
لم تبق اتفاقية سايكس – بيكو طي الكتمان، إذ قام الروس بكشفها بعد أن استطاعت الثورة الشيوعية القضاء على الحكم القيصري في روسيا في أكتوبر 1917 وأعلنت انسحابها من الحرب. كما عرف الناس مبكراً بوعد بلفور الذي لم يعد سراً بعد أن وصل للصحافة في البلاد العربية – مصر بالتحديد- بعد أقل من أسبوع من صدوره. وقد كان ذلك صدمة كبيرة للثورة العربية، إذ لم يتخيلوا أبداً هذه الدرجة من الخداع البريطاني، ولذلك رفض جنود الثورة العربية الاستمرار ما لم توضح الأمور، فأرسلت بريطانيا إمعانا في التضليل أحد مبعوثيها (هوغارث Hogarth) في يناير 1918 لطمأنة الشريف حسين، حيث حملت تصريحاً بريطانياً بأن الهجرة اليهودية لفلسطين لن تتعارض مع مصالح السكان السياسية والاقتصادية. كما حمل التصريح البريطاني إلى القياديين السوريين السبعة في يونيو 1918 تأكيدات واضحة على أن الأرض التي يحتلها البريطانيون (جنوب فلسطين وجنوب العراق) سوف تحكم وفق رغبات السكان، فضلاً عن الموافقة على استقلال ما كان لا يزال تحت السيادة العثمانية من شمال فلسطين وشرق الأردن وسوريا ولبنان وشمال العراق. وعندما انتهت الحرب العالمية صدر التصريح الأنجلو – فرنسي 7 نوفمبر 1918 بتأكيد التعهدات للعرب الذين كانوا تحت الحكم العثماني في الحربة والاستقلال.

فلسطين تحت الاحتلال البريطاني 1917-1948:

أتم البريطانيون احتلال جنوب فلسطين ووسطها في ديسمبر 1917، واحتلوا القدس في 9 ديسمبر 1917. وخطب قائد الجيش البريطاني اللنبي Allenby في القدس محتفلاً بانتصاره قائلاً: "والآن انتهت الحروب الصليبية"، وكأن حملتهم على فلسطين كانت آخر حملة صليبية، وكأن الحرب الصليبية لم تتوقف منذ أن شنها الأوروبيون قبل ذلك بأكثر من 800 عام. وفي سبتمبر 1918 احتل البريطانيون شمال فلسطين، كما احتلوا في سبتمبر – أكتوبر 1918 شرق الأردن وسوريا ولبنان. ومنذ ذلك الوقت فتحت بريطانيا بالقوة مشروع التهويد المنظم لأرض فلسطين، واستطاعت بريطانيا بعد ذلك إقناع فرنسا بالتخلي عن مشروع تدويل القدس كما في نصوص سايكس بيكو، مقابل رفع بريطانيا لدعمها للحكومة العربية التي نشأت في دمشق بزعامة فيصل بن الشريف حسين، حتى تتمكن فرنسا من احتلال سوريا. ثم وفرت بريطانيا لنفسها غطاءً دولياً باستصدار قرار من عصبة الأمم في 24 يوليو 1922 بانتدابها على فلسطين، وتم تضمين وعد بلفور في صك الانتداب، بحيث أصبح التزاماً رسمياً معتمداً دولياً. غير أن فكرة الانتداب التي ابتدعتها عصبة الأمم، كانت قائمة على أساس مساعدة الشعوب المنتدبة وإعدادها لنيل استقلالها. وقد تضمن صك الانتداب نفسه على فلسطين مسئولية الدولة المنتدبة (بريطانيا) في الارتقاء بمؤسسات الحكم المحلي، وصيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين. وهذا يعني ألا يقف وعد بلفور في نهاية الأمر عائقاً في وجه أبناء فلسطين ضد الارتقاء بمؤسساتهم وإقامة دولتهم. وكان تنفيذ وعد بلفور يعني عملياً الإضرار بمصالح أهل فلسطين وحقوقهم، وتعطيل بناء مؤسساتهم الدستورية باتجاه إقامة دولتهم. وقد فضّلت بريطانيا دائماً التزام الشق المتعلق بوعد بلفور، وأصمّت آذانها ولم تحترم الشق المتعلق بحقوق أبناء فلسطين العرب الذين كانوا يمثلون نحو 92% من السكان عند بداية الاحتلال. وربما أرادت بريطانيا من إيجاد نصوص

متعلقة بحقوق الفلسطينيين إظهار نفسها بمظهر الحكم العادل بين الطرفين العربي واليهودي، وتشجيع الفلسطينيين على المطالبة بحقوقهم وفق أساليب مدنية "دستورية"، وعدم إغلاق كافة المنافذ أمامهم، بحيث لا يصلون إلى درجة الانفجار والثورة بسرعة، في الوقت الذي تقوم فيه بالتسويف والمماطلة، ريثما يتم لها ترسيخ الوطن القومي اليهودي في فلسطين.
وضعت بريطانيا فلسطين تحت الحكم العسكري حتى نهاية يونيو 1920، ثم حولتها إلى الحكم المدني، وعينت اليهودي الصهيوني هربرت صمويل أوّل مندوب سامٍ" لها على فلسطين (1920-1925) حيث شرع في تنفيذ المشروع الصهيوني ميدانياً على الأرض. وتابع المندوبون "السامون" المسيرة نفسها، غير أن أكثرهم سوءاً ودهاءً ونجاحاً في التنفيذ كان آرثر واكهوب (1931-1938) A. Wauchope حيث وصل المشروع الصهيوني في عهد إلى درجات خطيرة.

تطور المشروع الصهيوني:

وعلى أي حال، فقد عاشت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني مؤامرة رهيبة، فحُرم أهل فلسطين من بناء مؤسساتهم وحُكْم أنفسهم، ووُضعوا تحت الحكم البريطاني المباشر، وأُعطي المندوبون السامون صلاحيات مطلقة. وضيقت بريطانيا على الفلسطينيين سبل العيش وكسب الرزق، وشجعت الفساد، وسعت لتعميق الانقسامات العائلية والطائفية وإشغال أبناء فلسطين ببعضهم. وفي المقابل شجعت الهجرة اليهودية، فزاد عدد اليهود من 55 ألفاً (8% من السكان) سنة 1918 إلى 650 ألفاً (31% من السكان) سنة 1948. ورغم الجهود اليهودية – البريطانية المضنية للحصول على الأرض، إلا أن اليهود لم يتمكنوا من الحصول سوى على نحو 6.5% من فلسطين بحلول 1948، كان معظمها إما أراضٍ حكومية، أو أراضٍ باعها إقطاعيون غير فلسطينيين كانوا يقيمون في لبنان وسورياً وغيرهما، وقد بنى اليهود على هذه الأراضي 291 مستعمرة. وفي الوقت الذي كانت فيه السلطات البريطانية تسعى حثيثا لنزع أسلحة الفلسطينيين، وتقتل أحياناً من يحوز سلاحاً نارياً، بل وتسجن لسنوات من يملك رصاصات أو خنجراً أو سكيناً طويلاً، فإنها غضت الطرف، بل وشجعت سراً تسليح اليهود لأنفسهم، وتشكيلهم قوات عسكرية وتدريبها، بلغ عددها مع اندلاع حرب 1948 أكثر من سبعين ألف مقاتل (64 ألف مقاتل من الهاغاناه، وخمسة آلاف من الأرغون، وألفين من شتيرن .. وغيرها)، وهو عدد يبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش العربية السبعة التي شاركت في حرب 1948!! وأسس اليهود الوكالة اليهودية سنة 1929، والتي تولت شئون اليهود في فلسطين، وأصبحت أشبه بدولة داخل دولة لما تمتعت به من صلاحيات واسعة. وأقام اليهود مؤسسات اقتصادية واجتماعية وتعليمية ضخمة، شكلت بنية قوية تحتية للدولة اليهودية القادمة، فتأسس الهستدروت (اتحاد العمال) وافتتحت الجامعة العبرية بالقدس سنة 1925 ... وكما نرى، فإن الظلم والقهر والمحاباة كان السمة الأبرز للاستعمار البريطاني لفلسطين.
وهكذا، تمكنت الحركة الصهيونية من إنشاء الكيان الإسرائيلي ف منتصف مايو 1948، لتشهد المنطقة ظروفاً وتعقيدات جديدة؛ غير أننا نترك للفصلين الثالث والرابع الحديث بالتفصيل عن الحركة الصهيونية والكيان الإسرائيلي.

ظهور الحركة الوطنية الفلسطينية:

ورغم حالة الإنهاك التي خرج بها الفلسطينيون من الحرب العالمية الأولى، ورغم وقوع البلاد العربية من حولهم – والعالم الإسلامي بشكل عام- تحت سطوة الاستعمار ونفوذه، ورغم ضعف إمكاناتهم المادية، وانعدام أدوات الضغط والنفوذ السياسي لديهم، مقارنة بما حظي به المشروع الصهيوني من دعم يهودي عالمي، ومن رعاية القوى العظمى له، رغم ذلك كله، فإن التمسك بحقهم الكامل في فلسطين، والإصرار على استقلالهم مهما كلفهم الثمن، كانت السمة الأبرز لنشاطهم السياسي الجهادي طوال فترة الاحتلال البريطاني. وقد تمحور النشاط السياسي الفلسطيني حول مطالب محددة أبرزها:

- **إلغاء وعد بلفور لما يتضمنه من ظلم وإجحاف بحقوق الأغلبية الساحقة من السكان.**
- **إيقاف الهجرة اليهودية.**
- **وقف بيع الأراضي لليهود.**
- **إقامة حكومة وطنية فلسطينية منتخبة عبر برلمان (مجلس تشريعي) يمثل الإرادة الحقيقية الحرة للسكان.**
- **الدخول في مفاوضات مع البريطانيين لعقد معاهدة تؤدي في النهاية إلى استقلال فلسطين.**

وعلى هذه الأسس نشأت الحركة الوطنية الفلسطينية، وأقام الفلسطينيون مؤتمرهم الأول (المؤتمر العربي الفلسطيني 27 يناير-10 فبراير 1919) في القدس، فرفض تقسيم بلاد الشام وفقا لمصالح الاستعمارية، وعدّ فلسطين جزءاً من سوريا (بلاد الشام)، وطالب باستقلال سوريا ضمن الوحدة العربية، وتشكيل حكومة وطنية تمارس الحكم في فلسطين، وقد عقد الفلسطينيون سبعة مؤتمرات من هذا النوع حتى عام 1928. وبرز في قيادة الحركة الوطنية رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني موسى كاظم الحسيني الذي استمر في الزعامة الرسمية للحركة الوطنية حتى وفاته في مارس 1934. غير أنه من الناحية الفعلية برز اسم الحاج أمين الحسيني، الذي أصبح مفتي القدس سنة 1921، ورئيس المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى منذ تأسيسه سنة 1922، والذي غدا أهم قلعة للحركة الوطنية والقوة الدافعة خلفها. وبوفاة موسى كاظم الحسيني أصبح الحاج أمين زعيم فلسطين دون منازع حتى نهاية الاستعمار البريطاني سنة 1948. وهكذا، فإن شعب فلسطين رفض منذ البداية المشروع الصهيوني، وقاومه بكل الوسائل، وسنترك للفصلين الخامس والسادس الحديث بالتفصيل عن جهاد هذا الشعب وثوراته وحركاته ومنظماته. ونكتفي بهذا القدر من التمهيد، الذي نرجو أن يشكّل أرضية مناسبة للدخول في تفصيلات المواضيع التي تتضمنها هذه الدراسات المنهجية.

----

[1] لمزيد من التفصيل حول تاريخ فلسطين القديم، انظر مثلاً: محمد أديب العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ** (صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، 172)، **والموسوعة الفلسطينية**، إشراف أحمد المرعشلي (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984)، ج1، ص37، وج3، ص 273-279، وج4، ص 174.

[2] انظر **الموسوعة الفلسطينية**، ج1، ص 117-129.

[3] حول التفصيلات عن أرض فلسطين ومكانتها في الإسلام يرجى الاطلاع على الفصل الثني من هذا الكتاب.

[4] انظر **الموسوعة الفلسطينية**، ج3، ص 271-279، وص 666-670.

5 سورة المائدة: 24.

[6] انظر مثلا حول تاريخ بني إسرائيل القديم المشار إليه في الفقرات السابقة في: ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم 1220ق.م-1459م: منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي،** ط4 (بيروت، دار النفائس، 1984). **والموسوعة الفلسطينية** ج1، ص 238، وج3، ص 184-186، وص 266-268، وج4، ص 216-218.

[7] حول فتح فلسطين وبلاد الشام، انظر مثلاً: الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، 1970)، وأحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق** (بيروت، دار النفائس، 1980)، ومحسن صالح، **الطريق إلى القدس،** ط3 (لندن: فلسطين المسلمة، 1998)، ص49-77.

[8] انظر نص العهدة العمرية في: محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك،** تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، 1969)، ج3، ص 418.

[9] حول فلسطين في عهد الراشدين والأمويين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين، انظر مثلا: **الموسوعة الفلسطينية**، ج3، ص 242-266، وص 426-428.

[1]0 ناقشنا في كتابنا الطريق إلى القدس في الفص الثالث بالتفصيل جهاد المسلمين لتحرير فلسطين من الصليبيين والتتار، انظر: **الطريق إلى القدس**، ص89-128.

[1]1 انظر مثلا حول الصحابة والتابعين ورجال الإسلام الذين عاشوا في فلسطين في: ضياء الدين محمد المقدسي، **فضائل بيت المقدس**، تحقيق محمد مطيع حافظ، سلسلة فضائل الشام رقم 2 (دمشق: دار الفكر، 1985)، ص 90-92، ومصطفى مراد الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين** (بيروت: دار الطليعة، 1979)، ص47-48، وص 111-113، وص 138-140، وص 188. ومصطفى مراد الدباغ، **من هنا وهناك**، ص 80-83، وص 112.

[1]2 انظر حول هذا الموضوع: ريجينا الشريف: **الصهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ الغربي**، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة، رقم 96 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر 1985).

13 انظر حول هذا الموضوع في: عبد الوهاب المسيري، **الأيدلوجية الصهيونية**، سلسلة عالم المعرفة، رقم 60-61 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر 1982- يناير 1983)، ج1، ص89-116. وأسعد عبد الرحمن، **المنظمة الصهيونية العالمية 1882-1982** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990)، ص23-26.

14 انظر ملف وثائق فلسطين، إعداد وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، 1969)، ج1،ص121.

[1]5 انظر ريجينا الشريف، مرجع سابق، ص106-110، **والموسوعة الفلسطينية**، ج2،ص279.

[16] Albert H. Hyamson, Palestine under the Mandate 1920-1948 (Great Britain: Methues, 1950). P.7.

[17] انظر ريجينا الشريف، مرجع سابق، ص 79-81، وأسعد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 27-30.

[18] حسان حلاق، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897 – 1909**، ط2 (بيروت: الدار الجامعية للطباعة النشر، 1980)، ص 82-84.

[19] سمير أيوب، **وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيونية** (بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر، 1984)، ج1، ص 280.

[20] انظر: حسان حلاق، مرجع سابق، ص 101-105.

[21] انظر: وليم فهمي، **الهجرة اليهودية إلى فلسطين** (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974)، ص 36, وقد قدّرت مراجع أخرى عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين 1882-1914 بحوالي 55-70 ألفاً، انظر مثلاً: **دليل إسرائيل العام**، تحرير صبري جريس وأحمد خليفة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1996)، ص40.

[22] سمير أيوب، مرجع سابق، ج1، ص128.

[23] انظر: صالح أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن** (بيروت: دار الفتح، 1970)، ص33.

[24] عجاج نويهض، **رجال من فلسطين** (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1980)، ص326-327.

[25] انظر حول هذا الموضوع في: عبد الوهاب الكيالي، **تاريخ فلسطين الحديث**، ط9 (بيروت: المؤسسة العربية للدرسات والنشر، 1985)، ص37-67.

[26] حول المفاوضات والوعود البريطانية مع الشريف حسين، والفرنسيين، والمنظمة الصهيونية العالمية، انظر: المرجع نفسه، ص 72-84. وأيضاً: George Antonius, **The Arab Awaking** (London: Hamish Hamilton, 1955) pp.260-272. **وتقرير اللجنة الملكية، الكتاب الأبيض رقم 5479،** النسخة العربية الرسمية، إصدار حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين (القدس، 1937)، ص23-31. (اشتهر هذا التقرير بتقرير بيل).

[27] أميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عاماً** (بيروت: دار النهار للنشر، 1972)، ص 28-30.

[28] كان عدد العرب نحو 610 آلاف واليهود نحو 50-55 ألفاً.

[29] انظر مثلاً لمزيد من التفصيل حول المشروع الصهيوني في: محمد سلامة النحال، **سياسة الانتداب البريطاني حول أراضي فلسطين**، ط2 (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1982)، **وحرب فلسطين 1947-1948** (الرواية الإسرائيلية الرسمية) ترجمة أحمد خليفة (قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1948)، ص 18، وص26. وصالح أبو بصير، مرجع سابق، ص 465-485/ ومحمد عبد الرءوف سليم، **نشاط الوكالة اليهودية فلسطين، منذ إنشائها وحتى قيام دولة إسرائيل 1922-1948** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982).

الفصل الأول

أرض فلسطين

فلسطين:

يطلق اسم فلسطين على القسم الجنوبي الغربي من بلاد الشام، وهي الأرض الواقعة غربي آسيا على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وفلسطين ذات موقع استراتيجي مهم، إذ تعد صلة الوصل بين قارتي آسيا وإفريقيا، ونقطة التقاء جناحي العالم الإسلامي.

وأقدم اسم معروف لهذه البلاد هو "أرض كنعان"، لأن أول شعب تاريخي استقر فيها هم الكنعانيون، الذين جاءوا من جزيرة العرب أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. واسم فلسطين اسمٌ مشتقٌ من اسم أقوام بحرية لعلها جاءت من غرب آسيا الصغرى ومناطق بحر إيجة حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وورد اسمها في النقوش المصرية "ب ل س ت PLST"، وربما أضيفت النون بعد ذلك للجمع، وقد سكنوا المناطق الساحلية، واندمجوا بالكنعانيين بسرعة، لكنهم أعطوا الأرض اسمهم.

ولم يتحدد شكل فلسطين وحدودها الجغرافية المتعارف عليها في عصرنا هذا إلا أيام الاحتلال البريطاني لفلسطين (1920 ـ 1923)، وقد كان تحديد أرض فلسطين يضيق ويتسع باختلاف العصور المتعاقبة عليها غير أنها ظلت جزءاً تاريخياً من بلاد الشام. ومن الصعب متابعة حدود فلسطين التاريخية، لأن طبيعة دراستنا هنا لا تميل إلى التفصيل الدقيق، غير أننا سنمر بأهم معالم التطور التاريخي لهذه الحدود. ففي العهد البيزنطي، ومنذ أواسط القرن الرابع للميلاد، قُسِّمت فلسطين إلى ثلاث وحدات إدارية، هي:

1 ـ فلسطين الأولى Palaestina I : وتشمل المنطقة من جنوب جبل الكرمل ومرج ابن عامر إلى خطٍّ يبدأ جنوبي رفح ويمتد شرقاً إلى وسط البحر الميت، وكان حدُّها الشرقي يضم أجزاء من شرق الأردن، فيمر خط حدودها من جنوبي بيسان ويقطع نهر الأردن بحيث يحيط بالمنطقة بين عجلون شمالاً وطرف البحر الميت الشمالي الشرقي، وكان مركز فلسطين الأولى مدينة قيسارية، ومن مدنها القدس ونابلس ويافا وغزة وعسقلان.

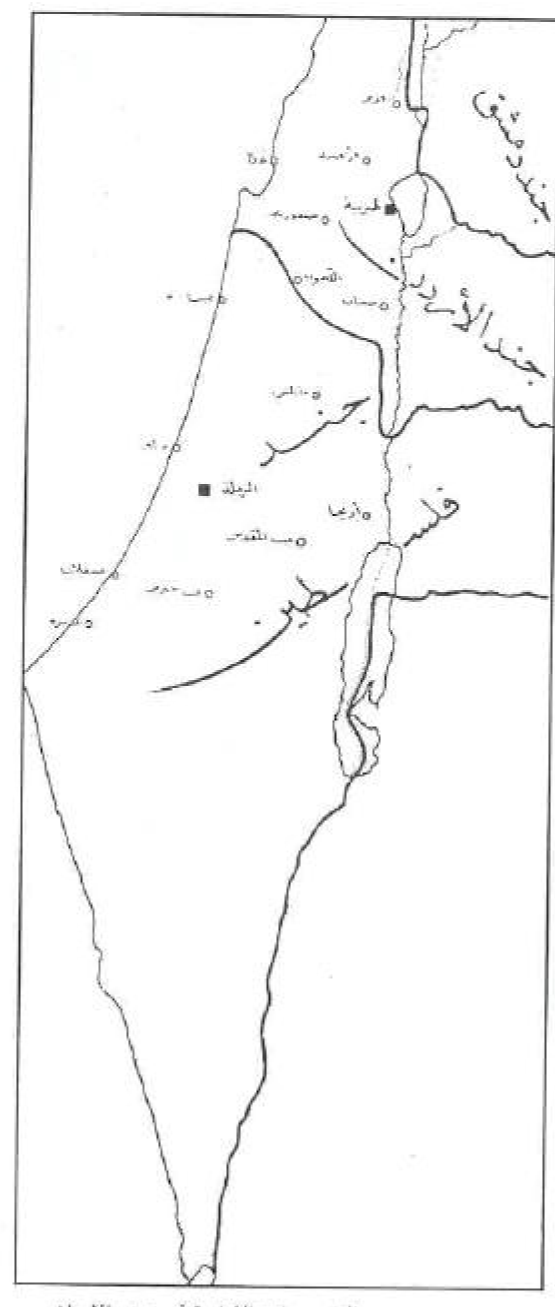
2 ـ فلسطين الثانية Palaestina II: وكانت تشمل جبال الجليل ومرج ابن عامر والمرتفعات الواقعة إلى الشرق من بحيرة طبرية، أي أجزاء من شرق الأردن وسوريا الحالية.

3 ـ فلسطين الثالثة Palaestina III: وكانت تضم المنطقة الواقعة جنوب خط رفح- البحر الميت، إلى خليج العقبة، وكان مركزها مدينة البتراء الواقعة الآن في شرق الأردن[1].

وعندما دخلت فلسطين تحت الحكم الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عُدَّت جزءاً من بلاد الشام، حيث قسمت الدولة إلى سبعة أمصار، وكانت بلاد الشام أحد هذه الأمصار. وقد قُسِّمت

الشام إدارياً إلى أجناد في عهد الراشدين، هي جُنْدُ حمص، وجند دمشق، وجند فلسطين، وجند الأردن، وفي العهد الأموي أضيف جند خامس هو جند قنسرين، وكان جند فلسطين يمتد من رفح على الحدود مع سيناء إلى اللجون، وهي مدينةٌ تقع على بعد 18 كم شمالي غرب مدينة جنين. وكانت اللدُّ عاصمة جند فلسطين إلى أن تولى سليمان بن عبد الملك ولاية هذا الجند في عهد أخيه الوليد بن عبد الملك (86 ـ96هـ)، فأمر سليمان ببناء مدينة الرملة التي أصبحت عاصمة هذا الجند. ثم ما لبث جُند فلسطين أن أصبح ولاية مستقلة في العصر العباسي، بعد عهد أبي العباس السفاح، وظل مركزها الرملة. وكانت مقسومة إلى اثنتي عشرة "كُورة" هي الرملة، وإيلياء (القدس)، وعمواس، واللد، ويبنة، ويافا، وقيسارية، ونابلس، وسبسطية، وعسقلان، وغزة، وبيت جبرين، ويضم إليها نواحي زغر، وديار قوم لوط، والشراة والجبال حتى أيلة على خليج العقبة.

أمَّا جُند الأردن فقد كان يضم وفق الاعتبارات المعاصرة أجزاء من شرق الأردن وشمال فلسطين وجنوب لبنان، وكان هو أصغر أجناد الشام، وكان مركزه (عاصمته) طبرية، ويضم ثلاث عشرة "كُورة"هي طبرية، والسامرة، وبيسان، وفحل، وجرش، وبيت راس، وجدر، وآبل، وسوسية، وصفورية، وعكا، وقَدَس (شمال صفد)، وصور.



التقسيمات الإدارية في صدر الإسلام

المصدر : الموسوعة الفلسطينية-ج١-ص١١٨

وفي عهد المماليك (1250 ـ 1517)، قُسِّمت بلاد الشام إدارياً إلى "نيابات"، وارتبطت أرض فلسطين بثلاث نيابات هي نيابة صفد، ونيابة القدس، ونيابة غزة، وكانت نيابة صفد تضم أجزاء من شمال فلسطين وجنوب لبنان حتى نهر الليطاني. وفي العهد العثماني في بلاد الشام (1516 ـ 1918)، قسمت بلاد الشام إلى ثلاث إيالات "ولايات"، هي إيالة دمشق، وإيالة حلب، وإيالة طرابلس، وألحقت بكل إيالة وحدات إدارية تسمى "سناجق" وكانت سناجق نابلس وغزة والقدس واللجون وصفد تتبع إيالة دمشق، وكان سنجق نابلس يضم أجزاء من شرق الأردن. وعندما استُحدثت إيالة صيدا سنة 1660 ضُمَّت مناطق صفد إليها، وانتقل مركز هذه الإيالة إلى عكا عام 1777، وتَبِعت ألوية

القدس ونابلس والبلقاء فيما بعد إيالة صيدا. وعندما صدر نظام الولايات الجديد سنة 1864 ضُمَّت إيالة صيدا إلى ولاية سوريا.

وعندما أُنشئت ولاية بيروت سنة 1887 فُصل لواء عكا والبلقاء وثلاثة ألوية أخرى عن ولاية سوريا لتُكوِّن الولايات الجديدة. وكانت ولاية بيروت تمتد إلى منتصف الطريق بين نابلس والقدس، ضامَّةً بذلك لواء البلقاء الذي كان مركزه نابلس، وكان يضم أقضية جنين، وبني صعب وجماعين والسلط، في حين ضم لواء عكا أقضية حيفا والناصرة وطبريا وصفد، وقد ظلت هذه الأجزاء من شمال فلسطين جزءاً من ولاية بيروت حتى عام 1914. أما لواء القدس، فنظراً لأهميته ومخاوف الدولة العثمانية من الأطماع اليهودية الصهيونية فيه، ومن تدخلات الدول الأجنبية في شؤونه، فقد قامت بفصله عن ولاية سوريا، وأعلنته متصرفيةً مستقلةً وربطته بالحكومة المركزية في العاصمة ربطاً مباشراً منذ عام 1874، وضمت هذه المتصرفية مناطق وسط فلسطين وجنوبها، وتبعتها أقضية القدس ويافا وغزة والخليل. وفي عام 1909 أنشئ قضاء بئر السبع وكان قبل ذلك جزءاً من قضاء غزة. ونظراً لقوة متصرفية القدس فقد حدث أكثر من مرة أن ألحق بها لواء نابلس (البلقاء) كما حدث أن ألحق بها قضاء الناصرة خلال الفترة 1906 ـ 1909. وقد استمرت متصرفية القدس حتى نهاية الدولة العثمانية[2].

لقد أردنا من هذا الاستطراد في الحديث عن الحدود الجغرافية لفلسطين التأكيد على عدد من المعاني أهمها:

- إنَّ تسمية فلسطين تسميةٌ قديمةٌ وهي غالباً ما تغطي المنطقة بين البحر المتوسط والبحر الميت ونهر الأردن.

- إنَّ فلسطين جزء من بلاد الشام، ولم تكن التقسيمات الإدارية أو التسميات أو توسيع بعض المناطق وتضييقها ليؤثر على شعور أبنائها الأصيل بأنهم أبناء أمَّةٍ مسلمةٍ واحدة، وأن ولاءهم للحكم لا يهتز ما دام مسلماً.

- ولم تكن التقسيمات الإدارية سوى تقسيمات فنية، لتسهيل متابعة الدولة المسلمة لشؤون الأقاليم، ولم يكن تغييرها ليثير أية حساسيات حقيقية لدى عامة الناس. وكانت هذه التغييرات تحدث كما يحدث الآن في أي بلد من توسيعٍ أو تضييقٍ أو إعادة تسميةٍ للمحافظات والأقضية، دون أن يمس ذلك جوهر حياة الناس. وعلى ذلك، فقد كان طبيعياً أن يكون شمال فلسطين جزءاً من جند الأردن وأجزاءً من شرق الأردن جزءاً من جند فلسطين، ثم يحدث أن تتبع أجزاء من شمال فلسطين ولاية بيروت، وأن يكون مركز لواء البلقاء هو مدينة نابلس، .. إلخ.

- إن المشاعر الإقليمية الضيقة لم تكن لتوجد بين أبناء بلاد الشام (والمسلمين بشكل عام)، فكانت حرية التنقل والحركة والإقامة والعمل والتملك أموراً عادية يمارسها الجميع دون قيد أو حرج.

- إن التحديدات والجنسيات الإقليمية كانت بعيدة تماماً عن حس المسلم طوال العهد الإسلامي حتى نهاية الدولة العثمانية، ولم تنبت

بذورها إلا في عهد الاستعمار الغربي، ولكنها لم تتجذر للأسف إلا بظهور الدول الإقليمية العربية والإسلامية المستقلة.

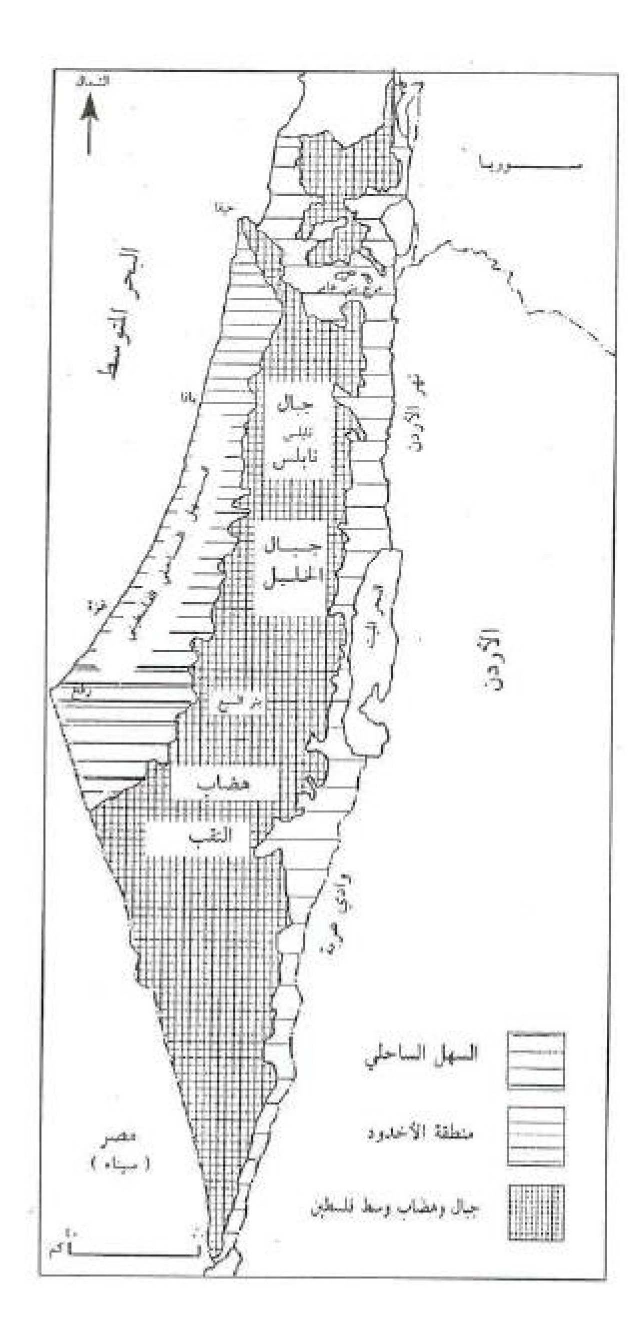
وكان من عادة العرب أن يطلقوا على أرض فلسطين اسم "سوريا الجنوبية" وذلك باعتبارها جزءاً من سوريا (بلاد الشام). وفي أثناء عهد الحكومة العربية في دمشق، (منذ أوائل أكتوبر 1918 حتى يوليو 1920) كانت فلسطين ـ على الرغم من الاحتلال البريطاني ـ ممثلة في المؤتمر السوري العام، وأول جريدة عربية ظهرت بعد الاحتلال البريطاني حملت اسم "سوريا الجنوبية". وكان الكثير من رجالات فلسطين في دمشق، ومنهم نواب في المؤتمر السوري الذي أعلن استقلال سوريا في 8 مارس 1920. ولم يغب هذا الاسم عن فلسطين إلا بعد معركة ميسلون، والاحتلال الفرنسي لسوريا، وسقوط الحكم العربي فيها (يوليو 1920)[3].

وتحت الاحتلال البريطاني تعينت الحدود بين فلسطين من جهة، وبين لبنان وسورية من جهة أخرى بموجب الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني، المنعقد في 23 ديسمبر 1920، وقد حدث عليها بعض التعديل عام 1922 ـ 1923. أما حدود فلسطين مع شرق الأردن فقد حددها المندوب السامي لفلسطين وشرق الأردن في الأول من سبتمبر 1922. وبهذا التحديد بلغت مساحة فلسطين 27009 كيلومترات مربعة، وامتدت بين خطي عرض 30 29ْ و 15 33ْ شمالاً، وبين خطي طول 15 34ْ و 40 35ْ شرقي غرينتش[4]. وبلغت حدود فلسطين مع شرق الأردن 360 كم، ومع سوريا 70 كم، ومع لبنان 79 كم، ومع مصر 210 كم. أما الساحل الفلسطيني على البحر المتوسط فيبلغ طوله 224 كم.



جغرافية فلسطين (التضاريس والمناخ)

يمكن أن تقسم فلسطين إلى ثلاثة قطاعات طولية رئيسية هي السهل الساحلي، والمرتفعات الجبلية الوسطى التي تشغل معظم مساحة فلسطين، والأخدود الأردني. ويضيق السهل الساحلي بمحاذاة جبل الكرمل عند حيفا إلى 200 متر، ويتسع جنوباً ليزيد عرضه عن ثلاثين كيلومتراً في منطقة غزة، وهو منطقة تركز سكاني واقتصادي كبير. وفي الوقت الحالي يتركز حوالي ثلاثة أرباع سكان فلسطين فيه، وفضلاً عن النشاط الاقتصادي للموانئ وخصوصاً حيفا، فإنه يعد من المناطق الزراعية المهمة وخصوصاً للحمضيات. أما مرتفعات وسط فلسطين فهي تشمل جبال نابلس وجبال الخليل وهضبة النقب، ويبلغ ارتفاع جبالها إلى حوالي ألف متر، فيصل جبل حلحول إلى 1020 متراً ، وجبل جرزيم وعيبال إلى 940 متراً . وفي سلسلة جبال الجليل شمال فلسطين، تقع أعلى قمم جبال فلسطين، حيث يرتفع جبل الجرمق إلى 1208 أمتار.



وقد نشأت في هذه المرتفعات عددٌ من حواضر فلسطين المهمة مثل القدس ونابلس والخليل وبيت لحم ورام الله. ورغم وعورة السطح إلا أن هذه المناطق ظلت منذ آلاف السنين مراكز للعمران القروي، حيث تغطي الكثيرَ من السفوح تربةٌ صالحة للزراعة، استخدمها الفلاح الفلسطيني لإنتاج الحبوب و الخضراوات وزراعة أشجار الزيتون والكروم واللوزيات فضلاً عن الرعي وتربية الماشية. أما هضبة النقب التي تصل مساحتها إلى عشرة آلاف كم2 فهي صحراوية قليلة الإمكانات باستثناء مشارفها الشمالية، أما أجزاؤها الأخرى فلا يصيبها سوى 50 مم أو أقل من المطر، وهي أقل مناطق فلسطين كثافة سكانية.

ويمتد الأخدود الأردني مسافة 460كم من قواعد جبل الشيخ شمالاً إلى خليج العقبة جنوباً، وعلى طول الحدود الأردنية الفلسطينية، ويجري نهر الأردن في جزئه الشمالي، ليدخل في بحيرة طبرية ثم يخرج منها ليصب في البحر الميت على منسوب يقل عن 395 متراً تحت سطح البحر. أما البحر الميت فينتشر على مساحة 940 كم2، ومياهه أشد ملوحة من أي بحر أو بحيرة أخرى على وجه الأرض، ولا توجد فيه حياة بحرية. ومنطقة غور الأردن والبحر الميت هي أكثر المناطق انخفاضاً عن سطح البحر من أي مكان آخر على وجه الأرض، وتتميز هذه المناطق بحرارتها طوال العام، ويزرع سكانها النخيل والموز والخضراوات. وفي هذه المنطقة من الجانب الفلسطيني تقع أقدم مدينة في التاريخ وهي مدينة أريحا، التي نشأت حوالي سنة 8000 قبل الميلاد. وإلى الجنوب من البحر الميت يستمر هذا الأخدود أكثر من 150 كم، وهو ما يطلق عليه وادي عربة، غير أنه كلما اتجه جنوباً زاد ارتفاعاً، ثم يبدأ بالانخفاض من جديد إلى أن يصل إلى مستوى سطح البحر على شاطئ خليج العقبة.

والمناخ في فلسطين هو مناخ البحر المتوسط بشكل عام، وهو حار جاف صيفاً دافئ ممطر شتاء، وتتراوح معدلات نزول الأمطار من 600 ـ 800مم سنوياً في مرتفعات الجليل ونابلس والخليل. وفي السهل الساحلي تتضاءل كمية الأمطار كلما اتجهنا جنوباً، حيث تبدأ منطقة الكرمل بحوالي 800 مم، حتى تصل في منطقة رفح إلى حوالي 150 مم سنوياً. أما في منطقة غور الأردن فيصل معدل الأمطار إلى 200 مم سنوياً، وفي النقب 50مم سنوياً.

أما درجات الحرارة فالمناخ معتدل نسبياً بشكل عام، فمعدل درجة الحرارة الدنيا لأبرد الشهور في القدس هو في يناير 8ْ م ، وفي أغسطس 25ْ م وهو أعلاها حرارة، وفي السهل الساحلي لا يتدنى معدل الحرارة عن 19ْ م، ولا يزيد (المعدل الأدنى) عن 26ْ م في أغسطس. أم النهايات القصوى للحرارة فتنخفض إلى الصفر في الشتاء، خصوصاً في المرتفعات الجبلية، وتصل إلى 40 درجة في الصيف خصوصاً في مناطق غور الأردن[5].

مكانة فلسطين الإسلامية

تتمتع أرض فلسطين بمكانة خاصة في التصور الإسلامي، وهي المكانة التي جعلتها محط أنظار المسلمين ومهوى أفئدتهم، وسنشير هنا باختصار إلى أهم النقاط التي جعلتها تحظى بهذه المكانة:

- في أرض فلسطين المسجد الأقصى المبارك، وهو أول قبلة للمسلمين في صلاتهم، كما يُعدُّ ثالث المساجد مكانة ومنـزلة في الإسلام بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي، ويُسنُّ شد الرحال إليه وزيارته، والصلاة فيه بخمسمائة صلاة عما سواه من المساجد. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى"[6]، وقال صلى الله عليه وسلم:" الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة"[7]. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة نزل على أخواله من الأنصار، وأنه صلى قبل بيت المقدس"[8].

وروى الطبري في تاريخه عن قتادة قال:" كانوا يُصلُّون نحو بيت المقدس ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة، وبعدما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجَّه بعد ذلك نحو الكعبة البيت الحرام"[9].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض، قال: المسجد الحرام، قلت ثم أي، قال: المسجد الأقصى"[10]. وعن ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: يا رسول الله، أفتنا في بيت المقدس، فقال:" ائتوه فصلوا فيه، فإن لم تأتوه وتصلوا فيه فابعثوا بزيت يسرج في قناديله"[11].

وعن أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" من أهلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر"، أو "وجبت له الجنة"، ثم قال: يرحم الله وكيعاً أحرم من بيت المقدس (يعني إلى مكة)[12]. ورواه البيهقي وابن حبان في صحيحه ولفظه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" من أهلَّ من المسجد الأقصى بعمرةٍ غفر له ما تقدم من ذنبه"، قال: فركِبَت أم حكيم إلى بيت المقدس حتى أهلت منه بعمرة.

- وأرض فلسطين أرض مباركة بنص القرآن الكريم: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ[13]، وقال تعالى: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا[14]، قال ابن كثير: بلاد الشام[15]، وقوله تعالى: وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا[16]، قال ابن كثير: بلاد الشام[17]، وقال تعالى: وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً[18]، قال ابن عباس: القرى التي باركنا فيها هي بيت المقدس[19]. والبركة هنا حسية ومعنوية لما فيها من ثمار وخيرات، ولما خصت به من مكانة، ولكونها مقر الأنبياء ومهبط الملائكة الأطهار.

- وهي أرض مقدسة بنص القرآن الكريم، قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ﴾[20]، قال الزجاج: المقدسة : الطاهرة، وقيل سماها المقدسة لأنها طهرت من الشرك وجعلت مسكناً للأنبياء والمؤمنين، قال الكلبي: الأرض المقدسة هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وقال قتادة: هي الشام كلها[21].

- وفلسطين أرض الأنبياء ومبعثهم عليهم السلام، فعلى أرضها عاش إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب ويوسف ولوط، وداود وسليمان وصالح وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ممن ورد ذكرهم في القرآن الكريم، كما زارها محمد صلى الله عليه وسلم. كما عاش على أرضها الكثير من أنبياء بني إسرائيل الذي كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي جاءهم نبي، وممن ورد ذكرهم في الحديث الصحيح نبي الله يوشع عليه السلام[22]. ولذلك فإن المسلمين عندما يقرؤون القرآن الكريم يشعرون بارتباط عظيم بينهم وبين هذه الأرض لأن ميدان الصراع بين الحق والباطل تركّز على هذه الأرض، ولأنهم يؤمنون بأنهم حاملو ميراث الأنبياء ورافعو رايتهم.

- وتكثر في فلسطين أضرحة ومقامات ومزارات الأنبياء، وهي تُخلِّد ذكرى استقرارهم أو مرورهم في هذه الأماكن، فأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام سميت باسمه إحدى أهم مدن فلسطين، وهي مدينة الخليل، ويقع ضريحه في هذه المدينة داخل الحرم الإبراهيمي. وللنبي صالح سبعة أماكن على الأقل تخلد ذكرى نزوله في فلسطين أحدها في الرملة، وله فيها موسم زيارة سنوي مشهور، في شهر إبريل من كل عام. وهناك قرية من قرى قضاء طولكرم اسمها "ارتاح" تناقل الناس جيلاً بعد جيل أن يعقوب عليه السلام قد ارتاح فيها. وفي فلسطين أكثر من مقام للنبي شعيب عليه السلام. وهناك مقام مشهور للنبي موسى عليه السلام قرب أريحا، كما أن في القدس ضريح داود عليه السلام. أما المسيح عيسى عليه السلام فهناك العديد من الأماكن التي تخلد ذكراه في القدس وبيت لحم والناصرة وغيرها[23].

- وفلسطين أرض الإسراء، فقد اختار الله سبحانه المسجد الأقصى ليكون مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومنه كان معراجه إلى السماء، فشرَّف الله بذلك هذا المسجد وأرض فلسطين تشريفاً عظيماً، وجُعلت بيت المقدس بذلك بوابة الأرض إلى السماء. وهناك في المسجد الأقصى جمع الله سبحانه لرسوله الأنبياء من قبله فأمَّهم في الصلاة، دلالة على استمرار رسالة التوحيد التي جاء بها الأنبياء، وعلى انتقال الإمامة والريادة وأعباء الرسالة إلى الأمة الإسلامية.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"أُتيت بالبراق فركبته، حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم عُرج بنا إلى السماء"[24].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" لقد رأيتني في الحِجْر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط، فرفعه الله لي [أي بيت المقدس] أنظر إليه ما يسألونني عن شيء إلا أنبأتهم به. وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء [يعني في بيت المقدس] فإذا موسى قائم يُصلِّي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة. وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني نفسه صلى الله عليه وسلم، فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت من الصلاة قال قائل: يا محمد هذا مالكٌ صاحب النار، فسَلِّم عليه، فالتفتُّ إليه، فبدأني بالسلام"[25].

- وتبسط الملائكة أجنحتها على أرض فلسطين، التي هي جزء من بلاد الشام، ففي الحديث الصحيح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"يا طوبى للشام، يا طوبى للشام، قالوا: يا رسول الله وبم ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطة أجنحتها على الشام"[26].

- وهي أرض المحشر والمنشر، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس، فقال:"أرض المحشر والمنشر"[27].

- وهي عقر دار الإسلام، وقت اشتداد المحن والفتن، فعن سلمة بن نفيل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"عقر دار الإسلام بالشام"[28]، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فنظرت فإذا نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام"[29].

- والمقيم المحتسب فيها كالمجاهد والمرابط في سبيل الله، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أهل الشام وأزواجهم وذرياتهم وعبيدهم وإماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله، فمن احتل مدينة من المدائن فهو في رباط، ومن احتل منها ثغراً فهو في جهاد"[30].

-وفي أحاديث يفسر ويقوي بعضها بعضاً أن الطائفة المنصورة الثابتة على الحق تسكن الشام وخصوصاً بيت المقدس وأكنافها، فعن أبي أمامة مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لعدوهم قاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قيل: يا رسول الله أين هم؟، قال: بيت المقدس وأكناف بيت المقدس"[31].

لمن الحق الديني والتاريخي في أرض فلسطين؟

أقام اليهود حججهم في اغتصاب أرض فلسطين وإنشاء الكيان اليهودي الصهيوني عليها، على ادعاءات دينية وتاريخية، ونحاول هنا أن نناقش الأمر من هاتين الزاويتين:

أولاً : الادعاءات الدينية

الغريب في أمر الادعاءات الدينية أن اليهود يريدون من الآخرين أن يقتنعوا ويؤمنوا بما يؤمنون به، ولو كان المسلمون يؤمنون بحق اليهود في فلسطين لما حدثت صراعات وحروب. إن نقطة الالتقاء في القناعات الدينية توجب أن يؤمن أحد الطرفين بما عند الآخر، وهو ما يجعل الأمر يبدو مستحيلاً من الناحية المنطقية، إذ لا يوجد معايير دقيقة يقبلها الطرفان، ويمكن الاحتكام إليها.

يبني اليهود ادعاءاتهم الدينية على ما ينقلونه من التوراة المحرفة من إعطاء الله سبحانه هذه الأرض لإبراهيم ونسله. ومما جاء فيها "وقال الرب لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك... فذهب إبراهيم كما قال الرب... فأتوا إلى أرض كنعان... وظهر الرب لإبراهيم وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض"[32]، وجاء في التوراة المحرفة أيضاً "وسكن (إبراهيم) في أرض كنعان فقال له الرب: ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد"[33]، وجاء فيها أيضاً:"قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات"[34].

كما يحتجون بتراث أنبياء بني إسرائيل في الأرض المقدسة، وسعيهم لإسكان أتباعهم فيها، ومد نفوذهم عليها كما فعل موسى ويوشع وداود وسليمان عليهم السلام، غير أن الرؤية الإسلامية تنظر للأمر من زاوية مختلفة، ويمكن إجمال رد المسلمين على اليهود في النقاط التالية:

أولاً: يؤمن المسلمون بكل الأنبياء، والإيمان بالأنبياء من أركان الإيمان، والكفر بأي منهم ممن ثبتت رسالتهم (بما فيهم أنبياء بني إسرائيل) كفرٌ يخرج عن الإسلام. غير أن المسلمين يؤمنون أن اليهود حرَّفوا التوراة، وكذَّبوا أنبياءهم وقتلوا عدداً منهم، ولم يتبعوا هداهم. ويؤمن المسلمون أنهم الأتباع الحقيقيون لهؤلاء الأنبياء، وأنهم ورثة رسالتهم، في هذا الزمان وليس اليهود.

وإذا كانت رابطة العقيدة والإيمان هي الأساس الذي يجتمع عليه المسلمون مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم، فإن المسلمين هم أحق الناس بميراث الأنبياء بما فيهم أنبياء بني إسرائيل؛ لأن المسلمين هم الذين لا يزالون يرفعون الراية التي رفعها الأنبياء، وهم السائرون على دربهم وطريقهم. وهؤلاء الأنبياء هم مسلمون موحدون حسب الفهم القرآني. وانظر قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[35]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. وَمَن يَرْغَبُ

عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ. أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[36].

وبشكل عام، فأمة التوحيد واحدة من لدن آدم عليه السلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وأنبياء الله ورسله وأتباعهم هم جزء من أمة التوحيد، ودعوة الإسلام هي امتداد لدعوتهم، والمسلمون هم أحق الناس بأنبياء الله ورسله وميراثهم.

فرصيد الأنبياء هو رصيدنا وتجربتهم هي تجربتنا، وتاريخهم هو تاريخنا، والشرعية التي أعطاها الله للأنبياء وأتباعهم في حكم الأرض المباركة المقدسة هي دلالة على شرعيتنا وحقنا في هذه الأرض وحكمها.

ثانياً:يؤمن المسلمون أن الله سبحانه وتعالى أعطى هذه الأرض لبني إسرائيل لفترة محدودة، عندما كانوا مستقيمين على أمر الله، وعندما كانوا يمثلون أمة التوحيد في الأزمان الغابرة، ولسنا نخجل أو نتردد في ذكر هذه الحقيقة وإلا خالفنا صريح القرآن، ومن ذلك قول موسى عليه السلام لقومه: يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ[37]، غير أن هذه الشرعية ارتبطت بمدى التزامهم بالتوحيد والالتزام بمنهج الله، فلما كفروا بالله وعصوا رسله وقتلوا الأنبياء ونقضوا عهودهم وميثاقهم، ورفضوا اتباع الرسالة الإسلامية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم والذي بشر به أنبياء بني إسرائيل قومهم الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ [38]، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ [39]، فلما فعلوا ذلك حلت عليهم لعنة الله وغضبه فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً[40]، وقال تعالى قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ[41].

وبذلك تحولت شرعية حكم الأرض المقدسة إلى الأمة التي سارت على منهج الأنبياء وحملت رايتهم، وهي أمة الإسلام. فالمسألة في فهمنا ليست متعلقة بالجنس والنسل والقوم، وإنما باتباع المنهج.

لقد شوه اليهود جمال التوحيد، وافتروا على الله الكذب، وزوروا تاريخ أنبيائهم. وعلى سبيل المثال تذكر التوراة المحرفة والتلمود أن الله (تعالى عما يقولون علواً كبيراً) يلعب مع الحوت والأسماك كل يوم ثلاث ساعات، وأنه بكى على هدم الهيكل حتى صغر حجمه من سبع سماوات إلى أربع سماوات، وأن الزلازل والأعاصير تحدث نتيجة نزول دمع الله على البحر ندماً على خراب الهيكل[42]، هذا فضلاً عما ذكره القرآن من ادعاءاتهم وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ[43]، لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء[44]، وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ[45].

كما ينسب اليهود إلى سيدنا يعقوب عليه السلام سرقة صنم ذهبي من أبيه، وأنه صارع الله (!!) قرب نابلس، وسمي بذلك بإسرائيل، كما تنسب له رشوة أخيه وخدعة أبيه، وأنه سكت عن زنا ابنتيه وأنه أشرك بربه...!! وقس على ذلك ما ذكروا عن باقي الأنبياء عليهم السلام[46].

إن اليهود أنفسهم يعترفون بالمنكرات التي فعلوها بحق الله وحق أنبيائه، فيذكرون أن ملكهم يوحاز بن يوتام 735 ـ 715 ق.م علق قلبه بحب الأوثان حتى إنه ضحى بأولاده على مذابح الآلهة الوثنية وأطلق لنفسه عنان الشهوات والشرور، وأضلَّ منسي بن حزقيا الذي حكم خلال الفترة 687 ـ 642 ق. م قومه عن عبادة الله وأقام معابد وثنية[47]. ولسنا نستغرب هذا عن بني إسرائيل فتلك أخلاقهم مع موسى عليه السلام تشهد بذلك، كما أن القرآن الكريم يشير إلى أنهم غيّروا وبدَّلوا وقتلوا الأنبياء ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[48]، ويحدثنا التاريخ أنهم قتلوا النبي حزقيال حيث قتله قاضٍ من قضاتهم لأنه نهاه عن منكرات فعلها، وأن الملك منسي بن [حزقيا] قتل النبي أشعيا بن أموص إذ أمر بنشره على جذع شجرة لأنه نصحه ووعظه، وأن اليهود قتلوا النبي أرميا رجماً بالحجارة لأنه وبخهم على منكرات فعلوها[49].

ويسجل التلمود أن سقوط دولة اليهود وتدميرها لم يكن إلا "عندما بلغت ذنوب بني إسرائيل مبلغها وفاقت حدود ما يطيقه الإله العظيم، وعندما رفضوا أن ينصتوا لكلمات وتحذيرات إرمياه". وبعد تدمير الهيكل وجه النبي إرمياه كلامه إلى نبوخذ نصر والكلدانيين قائلا:" لا تظن أنك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الله المختار، إنها ذنوبهم الفاجرة التي ساقتهم إلى هذا العذاب"[50].

وتشير التوراة إلى آثام بني إسرائيل التي استحقوا بسببها سقوط مملكتهم، فتذكر على لسان أشعيا أحد أنبيائهم "ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الآثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدون تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء"، سفر أشعيا الإصحاح الأول (4)، وتقول التوراة " والأرض تدنست تحت سكانها لأنهم تعدوا الشرائع، غيروا الفريضة، نكثوا العهد الأبدي" سفر أشعيا الإصحاح 24 (5).

وهكذا لم يعد اليهود مؤهلين لحمل أعباء الرسالة وتكاليفها، ففقدوا حقهم الديني في الأرض المقدسة.

ثالثاً: فضلاً عن فهمنا المسألة في أصلها الشرعي، فإذا كان الله قد أعطى إبراهيم عليه السلام ونسله هذه الأرض، فإن بني إسرائيل ليسوا وحدهم نسل إبراهيم، فالعرب العدنانيون هم من نسله أيضاً، وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وإليهم تنتمي قبيلة قريش، التي ينتسب إليها محمد صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فللعرب حقهم في الأرض.

رابعاً: إن القرآن الكريم يوضح مسألة إمامة سيدنا إبراهيم وذريته في شكل لا لبس فيه، وتأمل قوله تعالى "وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ"[51].

فعندما سأل إبراهيم الله أن تكون الإمامة في ذريته بيّن الله له أن عهده لذريته بالإمامة لا يستحقه ولا يناله الظالمون، وأي ظلم وكفر وصد عن سبيل الله وإفساد في الأرض أكبر مما فعله بنو إسرائيل ويفعلونه!!.

ثانياً: المزاعم التاريخية

يزعم اليهود أن فلسطين هي أرضهم التاريخية، وأن تاريخهم وتراثهم قد ارتبط بها، وأنهم هم الأصل في هذه الأرض وغيرهم ليسوا من أبنائها، وليسوا أكثر من عابري سبيل، وأن الأرض لا ترتبط عندهم بمعنى مميز كما ترتبط لدى اليهود.. ويشيرون إلى فترات حكم داود وسليمان عليهما السلام ودولتي إسرائيل ويهودا.. إلخ.

وابتداء، فإننا لا نعدُّ اليهود الحاليين امتداداً تاريخياً شرعياً لبني إسرائيل، وحكم الأنبياء و الصالحين لأرض فلسطين، وصراعهم مع أعدائهم هو جزء من تاريخ أمة التوحيد، التي تعد أمة الإسلام امتداداً تاريخياً طبيعياً لهم.

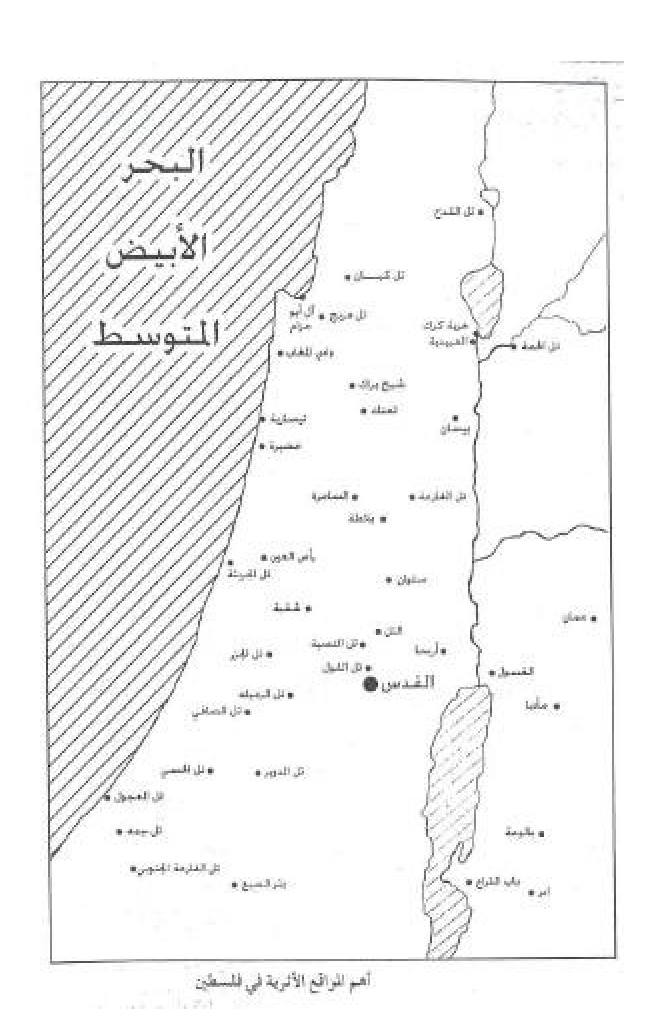
وعلى أي حال، وحتى لو قبلنا فرضاً، بمناقشة الأمر وفق الافتراضات اليهودية، فإنه يمكن إجمال ردنا عليهم فيما يلي:

أولاً: سكن الإنسان أرض فلسطين منذ العصور الموغلة في القدم، أي قبل حوالي مليون عام، وبنى أبناء فلسطين أقدم مدينة في العالم " أريحا" قبل نحو عشرة آلاف سنة أي 8000 قبل الميلاد، وهاجر الكنعانيون من جزيرة العرب إلى فلسطين حوالي 2500ق.م، وكانت هجرتهم واسعة بحيث أصبحوا السكان الأساسيين للبلاد، وعرفت البلاد باسمهم، وأنشأوا معظم مدن فلسطين وقراها والتي بلغت في الألف الثاني قبل الميلاد حوالي مائتي مدينة وقرية، ومنها مدن شكيم (نابلس وبلاطة)، وبيسان وعسقلان وعكا وحيفا والخليل وأسدود وعاقر وبئر السبع وبيت لحم وغيرها.

ويرى ثقاةُ المؤرخين أن عامة أهل فلسطين الحاليين وخاصة القرويين هم من أنسال الكنعانيين والشعوب القديمة، مثل شعوب البحر "الفلسطينيون"، أو من العرب والمسلمين الذين استقروا في البلاد إثر الفتح الإسلامي لها، وامتزجوا بأهلها الأصليين، أي أن جذور الفلسطينيين الحاليين تعود إلى 4500 سنة على الأقل، وهم لم يغادروها أو يهجروها طوال هذه الفترة إلى أي مكان آخر[52].

ثانياً: إن قدوم إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين كان حوالي سنة 1900 ق.م، والتوراة تعترف أنها كانت أرضاً عامرة وتسميها باسمها "أرض كنعان"، حتى إن إبراهيم عليه السلام اشترى من أهلها مكاناً يدفن فيه زوجته سارة، وهو مغارة المكفيلة، والتي دفن فيها هو أيضاً فيما بعد، وكذلك ابنه إسحاق وحفيده يعقوب عليهما السلام، وهي التي بني عليها المسجد الإبراهيمي. واستقر بنو يعقوب فيما بعد (واسمه إسرائيل أيضاً)، في مصر بعد ذلك لأجيال عديدة حتى جاء

موسى عليه السلام بتكليف إرسالهم إلى الأرض المقدسة حوالي 1250ق.م.



أهم المواقع الأثرية في فلسطين

وحتى سنة 1000ق.م لم يتمكن بنو إسرائيل سوى من الاستيطان في أجزاء ضئيلة من فلسطين في الأراضي المرتفعة المحيطة بالقدس، وفي السهول الشمالية.

ثالثاً: إن ملك داود وسليمان عليهما السلام استمر حوالي ثمانين عاماً فقط (1004 ـ 923 ق.م)، وخلالها تمت السيطرة على معظم أنحاء فلسطين باستثناء المناطق الساحلية التي لم تلامسها المملكة إلا من مكان قريب من يافا.

وبعد وفاة سليمان عليه السلام انقسم اليهود إلى مملكتين:

1 ـ مملكة إسرائيل: في الجزء الشمالي من فلسطين، وعاصمتها في شكيم ثم ترزة ثم السامرة قرب نابلس، واستمرت حوالي مائتي عام (923- 721 ق.م)، وقد سمتها دائرة المعارف البريطانية ازدراء "المملكة الذيلية"، لضعفها وقلة شأنها. وقد قام الآشوريون بقيادة سرجون الثاني بالقضاء على هذه الدولة ونقلوا سكانها اليهود إلى حران والخابور وكردستان وفارس، وأحلوا محلهم جماعات من الآراميين، ويظهر أن المنفيين الإسرائيليين اندمجوا تماماً في الشعوب المجاورة لهم في المنفى، فلم يبق بعد ذلك أثر لنسل

الأسباط العشرة من بني إسرائيل (يعقوب)، وهم الذين كانوا يتبعون هذه المملكة.

2 ـ مملكة يهودا: وعاصمتها القدس واستمرت 337 عاماً أي الفترة 923 ـ 586 ق.م، ولم تكن تملك سوى أجزاء محدودة من وسط فلسطين، وقد اعترتها عوامل الضعف ووقعت تحت النفوذ الخارجي فترات طويلة، ودخل المهاجمون القدس نفسها مرات عديدة، كما فعل فرعون مصر شيشق أواخر القرن العاشر ق. م، والفلسطينيون الذين استولوا على قصر الملك يهورام (849- 842 ق.م) وسبوا بنيه ونساءه، كما خضعت للنفوذ الآشوري في عهود سرجون الثاني، وأسرحدون وآشور بانيبال، ..إلخ، وأخيراً أسقط البابليون بقيادة نبوخذ نصر "بختنصر"هذه المملكة، وسبى 40 ألفاً من اليهود إلى بابل في العراق، وهاجر من بقي من اليهود إلى مصر.

وعلى هذا، فإن ملك بني إسرائيل استمر في أقصى مداه الزمني حوالي أربعة قرون لكنه كان على الأغلب على أجزاء محدودة من أرض فلسطين، وكانت مساحة نفوذهم على الأرض ونفوذهم السياسي تتآكل كلما مر الوقت.

رابعاً: عندما دخلت فلسطين تحت الحكم الفارسي 539 ـ 332 ق.م سمح الإمبراطور قورش الثاني لليهود بالعودة إلى فلسطين من سبيهم البابلي، فرجعت أقلية منهم بينما بقيت أغلبيتهم في الأرض الجديدة (العراق) بعد أن أعجبتهم فاستقروا فيها. وسُمح لليهود بنوع من الحكم الذاتي تحت الهيمنة الفارسية في منطقة القدس وبمساحة لا يتجاوز نصف قطرها 20 كيلو متراً في أي اتجاه، أي بما لا يزيد عن 4.8 % من مساحة فلسطين الحالية؟!.

وتحت الحكم الهلليني الإغريقي 332 - 63 ق.م استمر وضعهم على حاله تقريباً في عصر البطالمة (302 - 198 ق.م) غير أنهم عانوا من حكم السلوقيين (198 - 63 ق.م) الذين حاولوا فرض عبادة الآلهة اليونانية عليهم. وعندما ثار اليهود على الوضع، سمح لهم السلوقيون بممارسة دينهم، وتأسّس لهم حكم ذاتي في القدس منذ 164 ق.م أخذ يضيق ويتسع، وتزداد مظاهر استقلاله أو تضعف حسب صراع القوى الكبرى في ذلك الزمان على فلسطين. لكنهم ظلوا تحت نفوذ غيرهم ، ولم يتهيأ لهم الاستقلال السياسي الكامل رغم أنهم شهدوا انتعاشاً وتوسعاً تحت زعيمهم الكسندر جانيوس 103 ـ 76 ق.م. وقد غيَّر الرومان الذين بدأوا حكم فلسطين منذ 63 ق.م من سياستهم تجاه الحكم الذاتي اليهودي منذ السنة السادسة للميلاد، فبدأوا حكماً مباشراً على القدس وباقي فلسطين. وعندما ثار اليهود على الرومان 66 - 70 م أخمد الرومان الثورة بقسوة، ودمروا الهيكل والقدس. كما قضى الرومان على ثورة أخرى وأخيرة لليهود 132 - 135م فدمروا القدس وحرثوا موقعها، ومُنع اليهود من دخولها، والسكن فيها، وسُمح للمسيحيين فقط بالإقامة على ألّا يكونوا من أصل يهودي. وأقام الرومان مدينة جديدة فوق خرائب أورشليم (القدس) سموها إيليا كابيتولينا، ولذلك عرفت القدس فيما بعد باسم إيلياء، وهو الاسم الأول للإمبراطور الروماني في ذلك الوقت هادريان. واستمر حظر دخول اليهود للقدس مائتي سنة أخرى[53].

خامساً: منذ القرن الثاني للميلاد وحتى القرن العشرين، وطوال حوالي 1800 سنة لم يشكل اليهود أية مجموعة بشرية أو سياسية ذات شأن في تاريخ فلسطين، وانقطعت صلتهم بها، سوى ما حفظوه من عواطف روحية، لم يكن لها تأثير سوى زيارة بعضهم للقدس، بإذنٍ وتسامح من المسلمين.

ويدعي اليهود ارتباطهم المقدس بأرض فلسطين، وأنهم لم يخرجوا منها إلا قسراً، وأنهم لو سمح لهم لعادوا كلهم إليها، وهذا ينطوي على قدر هائل من المبالغة، إذ يذكر المؤرخون أن أغلب اليهود استنكفوا عن العودة إلى فلسطين بعد أن سمح لهم الإمبراطور الفارسي قورش بذلك. كما يجمع المؤرخون أن أعداد اليهود في فلسطين لم تزد عن ثلث يهود العالم قبل أن يحطم الرومان القدس على يد تيتوس في القرن الأول الميلادي. والآن، وبعد أكثر من خمسين عاماً على إنشاء الكيان اليهودي لا يزال أكثر من 60% من يهود العالم يعيشون خارج فلسطين، ويستنكفون عن الهجرة إليها، خصوصاً من تلك المناطق التي تتمتع بأوضاع اقتصادية أفضل كالولايات المتحدة وأوروبا الغربية[54].

سادساً: انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي منذ 395 م، فتكونت الإمبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية، والإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما، غير أن الإمبراطورية الشرقية، التي عرفها العرب بدولة الروم، والتي عرفت كذلك باسم الدولة البيزنطية، حافظت على الهيمنة على فلسطين باستثناء فترات ضئيلة حتى جاء الفتح الإسلامي.

سابعاً: فتح المسلمون فلسطين في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بعد هزيمة الروم في أجنادين واليرموك وغيرها، ودخلوا القدس في 15هـ/ 636م. ومنذ ذلك الزمان اكتسبت فلسطين طابعها الإسلامي، ودخل أهلها في دين الله أفواجاً، وتعرب سكانها وتعربت لغتها بامتزاج أبنائها في ظل الحضارة الإسلامية مع القبائل العربية القادمة من الجزيرة، وظلت محتفظة بشكل عام بطابعها الإسلامي إلى عصرنا هذا.

ثامناً: احتل الصليبيون القدس وأنشأوا مملكة بيت المقدس، واستمر حكمهم 88 عاماً 1099 ـ 1187 إلى أن استطاع صلاح الدين الأيوبي تحريرها إثر معركة حطين. وفيما عدا ذلك فإن فلسطين نعمت بالحكم تحت راية الإسلام 636 ـ 1917، أي حوالي 1200 عام. وهي أطول فترة تاريخية مقارنة بأي حكم آخر، كان الحكم فيه مسلماً والشعب مسلماً، وهو ما لم يحظ به أي عهد آخر مَرَّ على فلسطين. ثم إن المسلمين حكموا على مر تاريخهم فلسطين كلها وليس بعضاً منها. كما ضرب المسلمون المثل الأعلى في التسامح الديني، فوفروا حرية العبادة لليهود والنصارى، وأمنوهم على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم، فكانوا خير من خدم الأرض المقدسة وحمى حرمتها ومنع سفك الدماء.

تاسعاً: إذا كانت المسألة متعلقة بالانتماء القومي والتركيب العرقي، فهل يستطيع يهود هذا الزمان إثبات أنهم أنسال بني إسرائيل الذي عاشوا في فلسطين قبل ألفي عام؟ إن الدراسات العلمية الأكاديمية لعدد من اليهود أنفسهم، وعلى رأسهم الكاتب المشهور آرثر كوستلر A. Koestler في كتابه القبيلة الثالثة عشر: The Thirteenth Tribe The Khazar Empire & its Heritage تشير إلى أن الأغلبية الساحقة ليهود هذا الزمان ليست من ذرية بني إسرائيل القدماء، وأن معظم اليهود الآن هم من نسل يهود الخزر، وهم في أصلهم قبائل تترية قديمة كانت تعيش في منطقة القوقاز، وأسست لنفسها مملكة في القرن السادس الميلادي شمال غربي بحر الخزر (بحر قزوين). وقد تهودت هذه المملكة في القرن الثامن الميلادي، ودخل ملكها بولان في اليهودية سنة 740 للميلاد، وقد سقطت هذه المملكة في نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر على يد تحالف الروس والبيزنطيين، وانتشر يهود الخزر بعد ذلك في روسيا وأوروبا الشرقية والغربية، واستقرت أعداد منهم في الأندلس أيام الحكم الإسلامي، وبعد سقوطها على يد الأسبان، هاجروا إلى شمال إفريقيا حيث شملهم تسامح المسلمين ورحمتهم[55].

عاشراً: إن الحكم اليهودي الصهيوني المعاصر على معظم أرض فلسطين منذ سنة 1948 لم يتم إلا بالغصب والقوة والبطش و الدمار، وبناء على طرد أهلها وحرمانهم من حقوقهم، وتحت حماية القوى الكبرى ورعايتها كبريطانيا وأمريكا، وهو يفتح باباً لسفك الدماء والحروب التي لا يعلم مداها إلا الله.

وهكذا فمن الناحية التاريخية لم يحكم اليهود إلا أجزاء من فلسطين وبما لا يزيد عن أربعة قرون (400 عام)، بينما حكمها المسلمون حوالي 1200 عام. ثم إن أهل فلسطين من الكنعانيين ومن امتزج بهم ظلوا أهلها منذ 4500 عام وحتى الآن، ولم يخرجوا منها على مر العصور، وهم الذين تنصروا أيام الرومان، وهم الذين أسلموا فيما بعد، فبقيت الأرض أرضهم، والبلاد بلادهم، أما اليهود فقد انقطعت صلتهم بفلسطين حوالي 1800 عام (135- 1948)، ولأصحاب العقل والمنطق أن يجيبوا الآن: من هو صاحب الحق التاريخي في أرض فلسطين؟

حادي عشر: ما هو التقويم التاريخي الحضاري للدور الذي قام به اليهود في فلسطين؟

نترك الإجابة لبعض مؤرخي النصارى المشهورين، فمثلاً يقول هـ.ج ولز في كتاب موجز التاريخ حول تجربة بني إسرائيل في فلسطين بعد السبي البابلي:" كانت حياة العبرانيين في فلسطين تشبه حياة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار... ومن الأول إلى الآخر لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقية، ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم"[56].

ويذكر المؤرخ المشهور غوستاف لوبون أن بني إسرائيل عندما استقروا في فلسطين "لم يقتبسوا من تلك الأمم سوى أخس ما في حضارتها، أي لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارة ودعارتها وخرافاتها فقربوا لجميع آلهة آسيا، قربوا لعشتروت ولبعل ولمولوخ

من القرابين ما هو أكثر جداً مما قربوه لإله قبيلتهم يهوه العبوس الحقود الذي لم يثقوا به إلا قليلاً" ويقول :"اليهود عاشوا عيشة الفوضى الهائلة على الدوام تقريباً، ولم يكن تاريخهم غير قصة لضروب المنكرات.." "إن تاريخ اليهود في ضروب الحضارة صفر.. وهم لم يستحقوا أن يُعدُّوا من الأمم المتمدنة بأي وجه". ويقول غوستاف لوبون أيضاً:" وبقي بنو إسرائيل حتى في عهد ملوكهم بدواً أفاقين مفاجئين مغيرين سفاكين.. مندفعين في الخصام الوحشي"، ويقول:"إن مزاج اليهود النفسي ظل على الدوام قريباً جداً من حال أشد الشعوب بدائية. فقد كان اليهود عُتُداً مندفعين، غُفلاً سُذَّجاً جفاة كالوحوش والأطفال"..."ولا تجد شعباً عطل عن الذوق الفني كما عطل اليهود"[57].

الاستيطان اليهودي والاستيلاء على أرض فلسطين في التاريخ الحديث والمعاصر

كان الوجود اليهودي في فلسطين مما لا يؤبه له طوال العصور الإسلامية، ولم يزد عدد اليهود في بداية القرن التاسع عشر عن خمسة آلاف[58] لا يكادون يملكون شيئاً من أرضها. ومع نشوء المسألة اليهودية في أوروبا، وتجدد اضطهاد اليهود خصوصاً في روسيا وشرق أوروبا، ونشوء المشروع الصهيوني، أخذت أعداد متزايدة من اليهود بالهجرة والاستيطان المنظم في فلسطين، خصوصاً منذ العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر. وبدأوا بإنشاء مستوطنات زراعية مثل بتاح تكفا (التي أسست عام 1878 وفشلت ثم أعيد تأسيسها 1882)، وريشيون ليتسيون، وزخرون يعقوب 1882. ثم تتابع إنشاء المستوطنات بدعم من المليونير اليهودي روتشيلد، والصندوق القومي اليهودي (الكيرين كايميت)، الذي أنشأته المنظمة الصهيونية العالمية. ومع نهاية عهد الدولة العثمانية في فلسطين سنة 1917 ـ 1918، كان اليهود يملكون 420 ألف دونم (الدونم يساوي ألف متر مربع) من الأراضي أي 1.56% من مساحة فلسطين، وهي من أراضي الدولة الأميرية التي حصلوا عليها بحجة استصلاحها وتأسيس مدارس زراعية أو بالشراء أحياناً، واستفادوا من الفساد في الجهاز الإداري العثماني في تلك الفترة، واستخدموا أساليب الرشوة والخداع لتحقيق مآربهم[59].

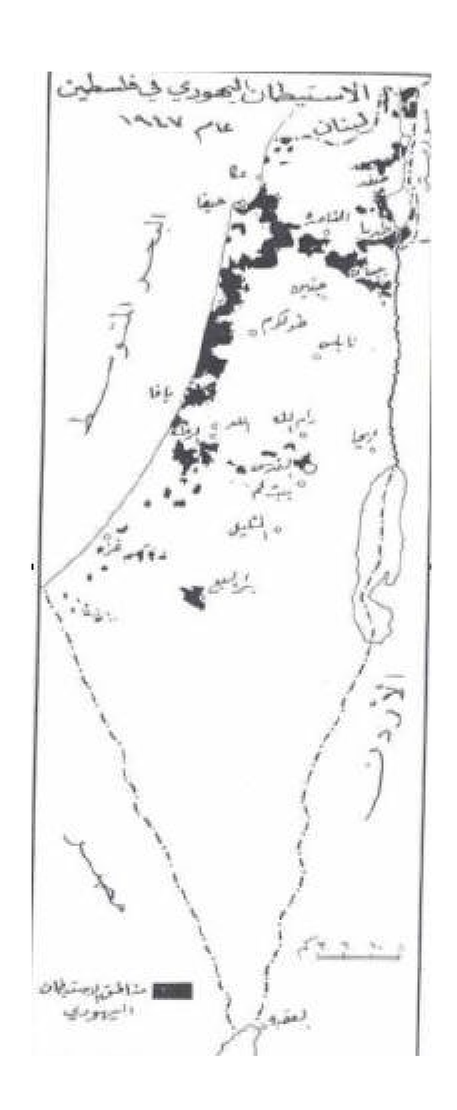
استولى اليهود خلال فترة الاستعمار البريطاني لفلسطين وتحت رعايته 1917- 1948 على مساحات أخرى تقدر بمليون و380 ألف دونم ، ووصل مجموع مساحة الأرض التي استولى عليها اليهود بمختلف الطرق حتى عام 1948 إلى حوالي مليون و 800 ألف دونم أي 6.67% من مساحة فلسطين، أقاموا عليها 291 مستوطنة، وقد أعطى قرار الأمم المتحدة 181 بتقسيم فلسطين والصادر في 29 نوفمبر 1947 اليهود نحو 54%، بينما أعطى العرب نحو 45%، وجعل منطقة القدس منطقة تحت إشراف دولي على 1% من أرض فلسطين[60].

وخلال حرب فلسطين 1948 تمكنت القوات اليهودية من احتلال نحو 77% من أرض فلسطين (20770كم2)، ولم يبق من فلسطين سوى الضفة الغربية (5876 كم2)، وقطاع غزة (363كم2). وقد دمر الكيان الصهيوني معظم القرى الفلسطينية التي وقعت تحت سيطرته وهجر

أهلها وبلغت القرى المدمرة على 478 قرية من أصل 585 قرية كانت قائمة في الأرض المحتلة سنة 1948. وبنى اليهود مستعمرات جديدة في الأرض المحتلة سنة 1948 حتى بلغت 756 مستعمرة سنة 1985. كما قاموا بالاستيلاء على ممتلكات من بقي من العرب فاستولوا على 62 قرية أخرى وشردوا سكانها، وطردوا الآلاف من بدو النقب وصادروا أكثر من مليوني دونم من أراضيهم، كما صادروا معظم الأوقاف الإسلامية ووضعوها تحت تصرفهم. ولم يبق تحت تصرف أبناء فلسطين العرب في الأرض المحتلة سنة 1948 سوى نحو 4% من الأرض، لازال اليهود يحاولون انتزاعها بالتدرج وبشتى الوسائل[61].

وخلال حرب الأيام الستة في يونيو 1967 تمكن الكيان الصهيوني من احتلال باقي فلسطين (الضفة الغربية وغزة)، فضلاً عن احتلاله لشبه جزيرة سيناء من مصر، ولهضبة الجولان السورية. وقد واصل اليهود سياسة الاستيطان والاستيلاء على الأرض فأعلنوا ضم منطقة القدس الشرقية (حيث المسجد الأقصى) ضماً أبدياً للكيان الصهيوني، وأعدوا مشروعاً كبيراً لإنشاء القدس الكبرى بحث تغطي 20% من أرض الضفة الغربية. وخلال عشرين عاماً 1967 ـ 1987 قام الكيان الصهيوني بمصادرة 3.179.215دونم، وفي الفترة 1988 ـ 1997 ضم حوالي 512 ألف دونم أخرى، وفي السنتين الأخيرتين من القرن العشرين ضم حوالي 150 ألف دونم، ليصبح مجموع الأراضي المصادرة من الضفة ثلاثة ملايين و 841 ألف دونم، أي نحو 62% من مجموع مساحة الضفة والقطاع. (منها نحو 3 ملايين و 686 ألف دونم في الضفة أي 62.7% من مساحتها، و 155 ألف دونم في القطاع، أي 43% من مساحته)[62].

وفي شرقي القدس أقام اليهود أكثر من عشرة أحياء سكنية يسكنها نحو 190 ألف مستوطن حتى زادوا عن أعداد العرب في القدس الشرقية، كما أقاموا أكثر من 160 مستوطنة في باقي الضفة الغربية مزودة بالطرق والخدمات الحديثة حتى بدت المدن والقرى الفلسطينية جزراً معزولة وأشلاء مقطعة في بحر الاستيطان المتلاطم، ويسكن في هذه المستوطنات نحو 200 ألف مستوطن حسب تقديرات سنة 2000. وفي قطاع غزة أنشأ اليهود 16 مستعمرة يسكنها نحو خمسة آلاف مستوطن، ولا تزال مشاريع الاستيطان وتوسيع المستعمرات قائمة على قدم وساق غير آبهة بالتسوية السلمية التي وقعت مع منظمة التحرير الفلسطينية في سبتمبر 1993[63].



الاستيطان اليهودي في فلسطين
عام ١٩٤٧
لبنان
حيفا
الناصرة
جنين
طولكرم
نابلس
يافا
رام الله
أريحا
القدس
بيت لحم
الخليل
غزة
بئر السبع
العقبة
مناطق الاستيطان
اليهودي

العلاقة بين أصناف الارض ومشروع تقسيم فلسطين

أصناف الارض في فلسطين ١٩٤٦

مشروع تقسيم فلسطين ١٩٤٧

ماذا تعطي التسوية السلمية من الأرض للفلسطينيين؟

بعد حوالي سبع سنوات من توقيع اتفاقيات الحكم الذاتي بين الكيان الإسرائيلي ومنظمة التحرير الفلسطينية فإن جل ما حصل عليه الفلسطينيون حتى مارس 2001 لا يتجاوز 17% أي نحو 1000 كم2 من أرض الضفة الغربية وهناك 25% أخرى تخضع للسيطرة المشتركة من الجانبين (مناطق ب)، ولا زال 58% من أرض الضفة تحت السيطرة الكاملة لليهود، وتسيطر السلطة الفلسطينية على نحو 55% حوالي (200 كم2) من أرض القطاع، وبذلك يبلغ مجموع ما تسيطر عليه فعلياً من الأرض حوالي 1200 كم2 أي 4.4 % من كل أرض فلسطين.

لقد أخرجت اتفاقات التسوية الأراضي المحتلة سنة 1948 من دائرة المناقشة وأقرت ملكيتها للكيان الصهيوني، وانحصرت دائرة النقاش في أرض الضفة الغربية والقطاع، وبانتظار اتفاقات التسوية النهائية حول الأرض والمستوطنات فإن الصهاينة يوجدون كل يوم واقعاً جديداً ينهب الأرض وخيراتها، حتى يخشى ألا تجد السلطة الفلسطينية ما تفاوض عليه بعد ذلك. وكان العرض الإسرائيلي المبدئي للتسوية النهائية يقترح (بعد استثناء منطقة القدس التي ضمها) إعطاء 50% مما تبقى من الضفة الغربية للفلسطينيين، وضم 10% نهائياً للكيان الإسرائيلي وإبقاء 40% معلقاً لمفاوضات لاحقة، مع الإصرار على احتفاظ اليهود بالمستوطنات حتى لو تحولت إلى مناطق تحت سيطرة السلطة الفلسطينية. وفي مفاوضات كامب ديفيد في يوليو 2000 عرض الجانب الإسرائيلي تسليم أكثر من 90% من الضفة الغربية لكن عدم الاتفاق حول مستقبل القدس واللاجئين الفلسطينيين أفشل المفاوضات. وعندما تسلم شارون رئاسة الوزراء في مارس 2001 عاد مرة أخرى ليعرض على الفلسطينيين 42% فقط من أرض الضفة الغربية، وليستمر في سياسة التوسع الاستيطاني وضم الأراضي الفلسطينية.

هل باع الفلسطينيون أرضهم؟ وتخلوا عنها لليهود؟!

سألني ذات مرة أحد أساتذة الجامعات العرب على استحياء هذا السؤال: هل باع الفلسطينيون أرضهم، وتخلوا عنها لليهود؟ ولم يكن ليسأل لولا أن الصلة توثقت بيننا، وعلم أنه لن يُحرجني بسؤاله. والواقع أنني لم أحرج من سؤاله، ولكن ما أثار استغرابي أنه أستاذ في التاريخ الحديث، وممن أسهموا في إعداد مناهج التاريخ في بلده العربي، وفيها مباحث عن فلسطين!! فهمت بعد ذلك أن هذا السؤال يتردد في صدور الكثيرين، ويجدون حرجاً في إثارته، وعرفت كم يقصر الفلسطينيون، والمتخصصون في الدارسات الفلسطينية في شرح القضية بشكل سليم وموضوعي، ليس للعالم وإنما حتى لأبناء جلدتهم ودينهم.

تُركِّز الدعاية اليهودية الصهيونية على أن الفلسطينيين هم الذين باعوا أرضهم لليهود، وأن اليهود إنما اشتروها "بالحلال" من أموالهم، فلا ينبغي للفلسطينيين أن يطالبوا بعد ذلك بها! ولعلنا نستطيع هنا إعطاء فكرة مختصرة عن الموضوع.

إن الدعاية الصهيونية في بداياتها ومنذ القرن التاسع عشر ارتكزت على فكرة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، مُعتبرةً أنه لا يوجد شعب في فلسطين، وأن من حق اليهود الذي لا يملكون أرضاً أن تكون هذه الأرض لهم. لكنهم ومنذ بوادر الاستيطان الأولى وجدوها عامرة بالحيوية والنشاط يعيش فيها شعب كادح متجذر في أرضه. ومن الطريف أن نذكر أنه في العقد الأخير من القرن التاسع عشر بعث ماركس نوردو أحد كبار قادة الحركة الصهيونية المقربين إلى هرتزل بحاخامين اثنين ليرفعا تقريراً إلى المؤتمر الصهيوني عن الإمكانية العملية للهجرة إلى فلسطين، وبعد أن رجعا، كتبا تقريراً جاء فيه:" إن فلسطين عروس جميلة وهي مستوفية لجميع الشروط، ولكنها متزوجة فعلاً"، أي أن هناك شعباً يسكنها وليست أرضاً بلا شعب.

لقد بدأت المقاومة الفلسطينية النشطة للاستيطان اليهودي في فلسطين منذ أن بدأ هذا المشروع بالظهور، ومنذ المراحل الأولى المبكرة له، في أيام الدولة العثمانية. فقد حدثت اصطدامات بين الفلاحين الفلسطينيين وبين المستوطنين اليهود 1886، وعندما جاء رشاد باشا متصرفاً للقدس وأبدى محاباة للصهاينة قام وفد من وجهاء القدس بتقديم الاحتجاجات ضده في مايو 1890، وقام وجهاء القدس في 24 يونيو 1891 بتقديم عريضة للصدر الأعظم (رئيس الوزراء) في الدولة العثمانية طالبوا فيها بمنع هجرة اليهود الروس إلى فلسطين وتحريم استملاكهم للأراضي فيها[64]. وقام علماء فلسطين وممثلوها لدى السلطات العثمانية، كذلك صحف فلسطين بالتنبيه على خطر الاستيطان اليهودي والمطالبة بإجراءات صارمة لمواجهته. وترأس الشيخ محمد طاهر الحسيني مفتي القدس سنة 1897 هيئةً محلية ذات صلاحيات حكومية للتدقيق في طلبات نقل الملكية في متصرفية بيت المقدس، فحال دون انتقال أراض كثيرة لليهود. وكان للشيخ سليمان التاجي الفاروقي الذي أسس الحزب الوطني العثماني في سنة 1911 دوره في التحذير من الخطر الصهيوني، وكذلك فعل يوسف الخالدي، وروحي الخالدي، وسعيد الحسيني ونجيب نصار[65].

ورغم أن السلطان عبد الحميد والسلطات المركزية أصدرت تعليماتها بمقاومة الهجرة والاستيطان اليهودي، إلا أن فساد الجهاز الإداري العثماني حال دون تنفيذها، واستطاع اليهود من خلال الرشاوى شراء الكثير من الأراضي، ثم إن سيطرة حزب الاتحاد والترقي على الدولة العثمانية وإسقاطهم السلطان عبد الحميد 1909، والنفوذ اليهودي الكبير بداخله، قد سهل استملاك اليهود للأرض وهجرتهم لفلسطين. ومع نهاية الدولة العثمانية 1918 كان اليهود قد حصلوا على حوالي 420 ألف دونم من أرض فلسطين اشتروها من ملاك إقطاعيين لبنانيين مثل آل سرسق، وتيان، وتويني، ومدور، أو من الإدارة العثمانية عن طريق المزاد العلني الذي تباع فيه أراضي الفلاحين الفلسطينيين العاجزين عن دفع الضرائب المترتبة عليهم، أو من بعض الملاكين الفلسطينيين ومعظمهم من النصارى أمثال عائلات روك، وكسار، وخوري وحنا. وقد غطت عمليات الشراء هذه نحو 93% من الأرض التي حصلوا عليها. وعلى أي حال، فإن الخطر الصهيوني لم يكن يمثل خطراً جدياً على أبناء فلسطين في ذلك الوقت، لضآلة الحجم الاستيطاني والسكاني اليهودي وللاستحالة العملية لإنشاء كيان صهيوني في ظل دولة مسلمة (الدولة العثمانية)[66].

وعندما وقعت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني 1917 – 1948، كان من الواضح أن هذه الدولة جاءت لتنفيذ المشروع الصهيوني وإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد استثمرت كل صلاحيات الحكم الاستعماري وقهره لفرض هذا الواقع. وقد قاومت الحركة الوطنية الفلسطينية الاستيطان اليهودي بكل ما تملك من وسائل سياسية وإعلامية واحتجاجية، وخاضت الكثير من الثورات والمجابهات. وقد بلغ مجموع ما تمكن اليهود من الاستيلاء عليه خلال فترة الاحتلال البريطاني حوالي مليون و 380 ألف دونم أي حوالي 5.1% فقط من أرض فلسطين رغم ما جندته من إمكانات عالمية، ورؤوس أموال ضخمة، وتحت الدعم والإرهاب المباشر لقوة الاحتلال غاشمة. ولكن مهلاً! فمعظم هذه الأراضي لم يشتروها في الواقع من أبناء

فلسطين! فالحقائق الموضوعية تشير إلى أن معظم هذه الأراضي تسرب لليهود عن طريق منح حكومية بريطانية لأراضي فلسطين الأميرية "أراضي الدولة"، أو عن طريق ملاك إقطاعيين كبار غير فلسطينيين كانوا يقيمون في الخارج، ومنعوا عملياً ورسمياً من الدخول إلى هذه المنطقة (تحت الاحتلال البريطاني) لاستثمار أرضهم إن كانوا يرغبون بذلك فعلاً.

فقد منحت السلطات البريطانية نحو 300 ألف دونم لليهود من الأراضي الأميرية دون مقابل، كما منحتهم 200 ألف دونم أخرى مقابل أجر رمزي، ففي عهد هربرت صموئيل أول مندوب سام بريطاني على فلسطين (1920 - 1925) وهو يهودي صهيوني، قام بمنح 175 ألف دونم من أخصب أراضي الدولة على الساحل بين حيفا وقيسارية لليهود، وتكررت هباته الضخمة على الأراضي الساحلية الأخرى وفي النقب وعلى ساحل البحر الميت[67].

وكان هناك أملاك إقطاعية ضخمة لعائلات حصلت على هذه الأراضي، خصوصاً سنة 1869 عندما اضطرت الدولة العثمانية لبيع أراض أميرية لتوفير بعض الأموال لخزينتها، فقامت بشرائها عائلات لبنانية غنية، وقد مثّل ذلك وجهاً آخر للمأساة. فقد باعت هذه العائلات ما مجموعه 625 ألف دونم. فقد باعت عائلة سرسق اللبنانية أكثر من 200 ألف دونم من أراضي مرج ابن عامر للصهاينة وتسبّب ذلك في تشريد 2746 أسرة عربية هم أهل 22 قرية فلسطينية، كانت تفلح هذه الأراضي لمئات السنين. وتكررت المأساة عندما باعت عائلات لبنانية أخرى حوالي 120 ألف دونم حول بحيرة الحولة شمال فلسطين، كما باعت أسرتان لبنانيتان أراضي وادي الحوارث (32 ألف دونم) مما تسبب في تشريد 15 ألف فلسطيني. ومن العائلات التي قامت ببيوع كبيرة للأراضي لليهود في أثناء الاحتلال البريطاني: آل سلام، وآل تيان، وآل قباني، وآل يوسف، والصباغ، والتويني، والجزائرلي، وشمعة، والقوتلي، والمارديني، وكلها أسر لبنانية أو سورية. وقد بلغت نسبة الأراضي الزراعية التي باعها الملاك الإقطاعيون الغائبون خارج فلسطين خلال الفترة 1920 ـ 1936 ما نسبته 55.5% مما حصل عليه اليهود من أراض زراعية[68]. وعلى الرغم مما يتحمله من قام بهذه البيوع من أبناء هذه العائلات من مسئولية، فإن اللوم لا يقع بشكل كامل عليهم وحدهم، إذ إن السلطات البريطانية منعتهم من الدخول لاستغلال هذه الأراضي، بحجة أنهم أجانب، وذلك بعد أن تم فصل فلسطين عن سوريا ولبنان وفق تقسيمات سايكس- بيكو بين الاستعماريين البريطاني والفرنسي.

أما مجموع ما تسرب إلى أيدي اليهود من أراض باعها لهم عرب فلسطين خلال الاحتلال البريطاني فكان حوالي 260 ألف دونم. وقد حصل اليهود على هذه الأراضي بسبب الظروف القاسية التي وضعت حكومة الاستعمار البريطاني الفلاحين الفلسطينيين فيها، ونتيجة لاستخدام البريطانيين لأسلوب نزع الملكية العربية لصالح اليهود وفق مواد من صك الانتداب البريطاني على فلسطين، والتي تخول المندوب السامي هذا الحق. كما حدثت حالات بيع بسبب ضعف عدد من الفلسطينيين ووقوعهم تحت الإغراءات المادية وليس من المستغرب أن توجد في كل زمان ومكان في أي بلد عربي أو غير عربي، فئات قليلة تضعف أمام الإغراءات ، لكنها على أي حال فئة

منبوذة محارَبة من مجمل أبناء شعب فلسطين، وقد تعرض الكثير منهم للمقاطعة والتصفية والاغتيال خصوصاً في أثناء الثورة العربية الكبرى التي عمت فلسطين خلال 1936 ـ 1939.

وعلى هذا فإن مجموع ما حصل عليه اليهود من أبناء فلسطين حتى سنة 1948 لا يتجاوز 1% من أرض فلسطين، وخلال سبعين عاماً من بداية الاستيطان والهجرة المنظمة لفلسطين، وتحت ظروف قاسية. وهذا بحد ذاته يبرز مدى المعاناة التي لقيها اليهود في تثبيت مشروعهم وإنجاحه في فلسطين، ومدى إصرار الفلسطينيين على التمسك بأرضهم[69].

وقد قام أبناء فلسطين خصوصاً في الثلاثينيات من القرن العشرين بجهود كبيرة في محاربة بيع الأراضي، وكان للمجلس الإسلامي الأعلى بقيادة الحاج أمين الحسيني، وعلماء فلسطين دور بارز. فقد أصدر مؤتمر علماء فلسطين الأول في 25 يناير 1935 فتوى بالإجماع تحرِّم بيع أي شبر من أراضي فلسطين لليهود، وتعدُّ البائع والسمسار والوسيط المستحل للبيع مارقين من الدين، خارجين من زمرة المسلمين، وحرمانهم من الدفن في مقابر المسلمين، ومقاطعتهم في كل شيء والتشهير بهم[70]. وقام العلماء بحملة كبرى في جميع مدن وقرى فلسطين ضد بيع الأراضي لليهود، وعقدوا الكثير من الاجتماعات وأخذوا العهود والمواثيق على الجماهير بأن يتمسكوا بأرضهم، وألا يفرطوا بشيء منها. وقد تمكن العلماء من إنقاذ أراض كثيرة كانت مهددة بالبيع، واشترى المجلس الإسلامي الأعلى قرى بأكملها مثل دير عمرو وزيتا، والأرض المشاع في قرى الطيبة وعتيل والطيرة، وأوْقف البيع في حوالي ستين قرية من قرى يافا. وتألفت مؤسسات وطنية أسهمت في إيقاف بيع الأراضي، فأنشئ "صندوق الأمة" بإدارة الاقتصادي الفلسطيني أحمد حلمي باشا ، وتمكن من إنقاذ أراضي البطيحة شمال شرقي فلسطين، ومساحتها تبلغ ثلاثمائة ألف دونم[71].

إن الخسارة الحقيقية لأرض فلسطين لم تكن بسبب بيع الفلسطينيين لأرضهم وإنما بسبب هزيمة الجيوش العربية في حرب 1948، وإنشاء الكيان الصهيوني – إثر ذلك – على 77% من أرض فلسطين، وقيامه مباشرة وبقوة السلاح بطرد أبناء فلسطين، والاستيلاء على أراضيهم، ثم باحتلال باقي أرض فلسطين إثر حرب 1967 مع الجيوش العربية، وقيامه بمصادرة الأراضي تحت مختلف الذرائع. وقد ظلت نظرة أبناء فلسطين حتى الآن إلى من يبيع أرضه أو يتوسط بالبيع نظرة احتقار وازدراء، وظل حكم الإعدام يلاحق كل من تُسوِّل له نفسه بيع الأرض، وقام رجال الثورة الفلسطينية بتصفية الكثيرين من هؤلاء على الرغم من حماية قوات الاحتلال الصهيوني لهم.

كيف يتعامل اليهود الصهاينة مع أراضي الوقف الإسلامي ومقدسات المسلمين

لم تسلم أوقاف المسلمين ومقدساتهم من عدوان اليهود الصهاينة عليها ومصادرتها ومحاولة محو آثارها. ففلسطين مليئة بالمقدسات والأراضي التي وقفها أصحابها لخدمة المسلمين وحاجاتهم كالفقراء

والمساكين وطلبة العلم وعابري السبيل وخدمة المساجد. وتشكل الأوقاف في فلسطين نحو مليون و 680 ألف دونم (6.25 % من مساحة فلسطين)، وهي تمثل 10% من مجمل الأراضي الصالحة للزراعة، وهناك في فلسطين 340 قرية تُعدُّ وقفاً كلياً أو جزئياً، مثل قرى بورين وبيت فوريك، وشطا، وسعسع.

وفي الأرض التي احتلت سنة 1948 استولى اليهود على معظم الأوقاف بحجة أنها أملاك غائبين، وسلموها لبني دينهم الذين أقاموا عليها المستوطنات والمشاريع الزراعية والصناعية والتجارية. ولم تسلم حتى مساجد المسلمين ومقابرهم وآثارهم التاريخية من هذا العدوان. فقد تمت مصادرة معظم مساحة المسجد الإبراهيمي في الخليل وجعلت كنيساً ومزاراً لتعبد اليهود، واستولى اليهود على الحائط الغربي للمسجد الأقصى"حائط البراق" الذي يسمونه حائط المبكى، وصادروا حارة المغاربة الملاصقة له وهي أرض وقف وهدموا أبنيتها وجعلوها ساحة لزائري حائط مبكاهم. وحولوا مسجد الظاهر بيبرس في المجدل الذي بني قبل أكثر من 700 سنة إلى مطعم ، أما أشهر مسجد في يافا "مسجد السكسك" فقد حولوه إلى ناد لليهود من أصل بلغاري، وحولوا مسجد قيسارية إلى بار وخمارة، واستخدم المسجد الصغير في حيفا مكاناً للتحشيش والدعارة، وحول مسجد صفد إلى متحف للآثار ومكاتب سياحية. وهدموا مسجد الإمام الحسين ومقامه في عسقلان، وأنشأوا مكانهما مستشفى يهودياً. ولم تكن مئات المساجد الأخرى بأحسن حظاً من المساجد التي ذكرنا أمثلتها فتعرضت لمصائر مشابهة مثل مساجد عكا وطبريا وصفد وحوقين وأقرت وأبو كبير وسلمة وقبية وعمواس ولوبية وصرفند .. وغيرها[72].

ولم يرع اليهود الصهاينة حرمة مقابر المسلمين، ففي القدس بني على جزء من مقبرة مأمن الله "ماميلا"، فندق بلازا الفخم، وفتحت فيها شوارع وحول القسم المتبقي إلى حديقة عامة فوق قبور المسلمين، أما مقبرة يازور قرب يافا فقد صودر جزء لعمل شارع عليها، والباقي حول إلى مشاغل ومكان لتجميع النفايات. وتحولت مقبرة الشيخ مؤنس قرب يافا إلى مشاغل ومصانع، وبنيت على جزء آخر بنايات تتبع جامعة تل أبيب. أما مقبرة الاستقلال في حيفا فقد أزيل جزء منها ونبش حوالي ثلاثة آلاف قبر، وبني فندق سياحي مكانها. وقاموا بنبش قبر"مشهد" فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما في قرية بني نعيم قرب الخليل، بحجة البحث عن بقايا أثرية، كما حاولوا نبش قبر الشيخ عز الدين القسام رمز الجهاد والوطنية في فلسطين في القرن العشرين.. وهذا غيض من فيض ... وما نذكر هنا ذكر على سبيل المثال لا الحصر[73].

القدس والوضع الحالي

احتل اليهود القدس الغربية في حرب 1948، (وهي تساوي نحو 84.1% من المساحة الكلية للقدس)، وقاموا بتهويد هذه المنطقة - التي تعود 85 % من ملكيتها للعرب - وبناء أحياء سكنية يهودية فوق أراضيها وأراضي القرى العربية المصادرة حولها، مثل قرية لفتا التي بُني عليها البرلمان الإسرائيلي "الكنيست" وعدد من الوزارات، وقرى عين كارم ودير ياسين والمالحة وغيرها.[74]

وفي عام 1967 أكمل الكيان الصهيوني احتلاله للقدس الشرقية، التي تُعدّ جزءاً من الضفة الغربية، والتي يقع فيها المسجد الأقصى. ومنذ ذلك الوقت بدأ حملة تهويد محمومة لشرقي القدس، فأعلن عن توحيد شطري القدس تحت الإدارة "الإسرائيلية" في 27 يونيو 1967، ثم أعلن رسمياً في 30 يوليو 1980 أن القدس عاصمة أبدية موحدة للكيان "الإسرائيلي".[75]

وقد كان التركيز على القدس مسألة مركزية في الفكر اليهودي الصهيوني؛ لما تمثله من أبعاد دينية وتاريخية، وقبل أن ينشأ الكيان الإسرائيلي بحوالي خمسين عاماً قال هرتزل، مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية، "إذا حصلنا على مدينة القدس، وكنت لا أزال حياً وقادراً على القيام بأي عمل، فسوف أزيل كل شيء ليس مقدساً لدى اليهود فيها، وسوف أحرق جميع الآثار التي مرت عليها قرون"[76]، وكان المؤسس الفعلي للكيان الإسرائيلي وأول رئيس وزراء له ديفيد بن جوريون يقول "إنه لا معنى لإسرائيل دون القدس، ولا معنى للقدس دون الهيكل".

وقام الكيان الإسرائيلي بتوسيع نطاق بلدية القدس تدريجياً؛ ليتمكن من ضم مناطق أخرى من الضفة الغربية نهائياً إلى كيانه، وليقوم بعملية تهويد القدس على نطاق مبرمج واسع. فتوسع نطاق البلدية شرقي القدس من 6.5 كم2 سنة 1967 إلى 123 كم2 سنة 1990. أما خطة ما يسمى بالقدس الكبرى التي يطمح لتنفيذها فتشمل 840 كم2، أي نحو 15 % من مساحة الضفة الغربية. وفي نطاق بلدية شرقي القدس أنشأ الصهاينة طوقاً من 11 حياً يهودياً حول المدينة القديمة حيث المسجد الأقصى، يسكنها نحو 190 ألف يهودي. كما أنشأ طوقاً آخر ـ أكثر اتساعاً ـ حول القدس من 17 مستعمرة يهودية محاولاً قطع القدس عن محيطها العربي الإسلامي، وبالتالي قطع الطريق عن أي تسوية سلمية يمكن أن تعيد القدس أو شرقي القدس للفلسطينيين.[77]

ويسكن القدس بشقيها الغربي والشرقي حوالي 650 ألفاً حسب تقديرات سنة 2000 من بينهم 450 ألف يهودي، و 200 ألف عربي (كل العرب تقريباً يسكنون شرقي القدس). وبسبب سياسات المصادرة والقهر استولى الصهاينة على 86 % من مساحة القدس، وبقي للعرب الفلسطينيين فعلياً 4 %، بينما هناك 10 % مُنع العرب من الانتفاع بها ومعدَّة لمشاريع يهودية، مما يشير إلى مدى الخطورة التي وصل إليها مشروع تهويد مدينة القدس. مع العلم أن الفلسطينيين كانوا يملكون 90 % من القدس عند بدء الاحتلال البريطاني 1918.[78]

أما الحرم القدسي "المسجد الأقصى" فهي قصة مأساة أكثر إيلاماً. ولقد بدا التحريض اليهودي واضحاً بهذا الاتجاه منذ العشرينيات من القرن العشرين، وركز اليهود مطالبهم في البداية على الحائط الغربي للمسجد الأقصى الشريف "حائط البراق" والذي يسمونه حائط المبكى. والحائط والمنطقة التي حوله هي في الحقيقة أرض وقف إسلامي مثبتة بالشهادات والوثائق، وهو ما اعترفت به حتى لجان التحقيق الدولية. فبعد أيام من احتلال اليهود القدس الشرقية، قاموا بتدمير حي المغاربة المقابل للحائط الغربي للمسجد الأقصى (حائط البراق أو ما يسميه اليهود حائط المبكى)، وهو حي مكون من 135 بيتاً ومسجدين، وجرى تسويته بالأرض ليكون ساحة يستخدمها اليهود لأغراض عبادتهم، رغم أن الحي أرض وقف إسلامي.

وبدأ اليهود حملة محمومة من الحفريات تحت المسجد الأقصى والمنطقة التي حوله، مركّزين على المنطقة الغربية والجنوبية للمسجد، محاولين إيجاد أي دليل حول هيكلهم، لكن كان معظم ما وجدوه آثاراً إسلامية تعزز مكانة القدس وهويتها الإسلامية. ومنذ 1967 وحتى سنة 2000 مرت عمليات الحفريات بعشر مراحل، كانت تتم بنشاط ولكن بهدوء وتكتم، و ركزت على المنطقتين الغربية والجنوبية للمسجد الأقصى وصادرت خلالها الكثير من المساجد والمباني التاريخية الإسلامية وهدمتها، فقامت مثلاً في 14 ـ 20 يونيو 1969 بهدم 31 مبنى إسلامياً تاريخياً وشردت سكانها. وتم حفر عدد من الأنفاق تحت المسجد الأقصى. وكان جل ما وجدوا آثاراً إسلامية تعزز مكانة القدس الإسلامية وهويتها، مما زادهم غيظاً وحقداً. وبلغت الحفريات مراحل خطيرة عندما أخذوا يفرغون الأتربة والصخور من تحت المسجد الأقصى وقبة الصخرة، مستخدمين المواد الكيماوية لتذويب الصخور، مما يجعل الأقصى تحت خطر الانهيار في أي لحظة، بسبب أية عاصفة قوية أو زلزال خفيف.

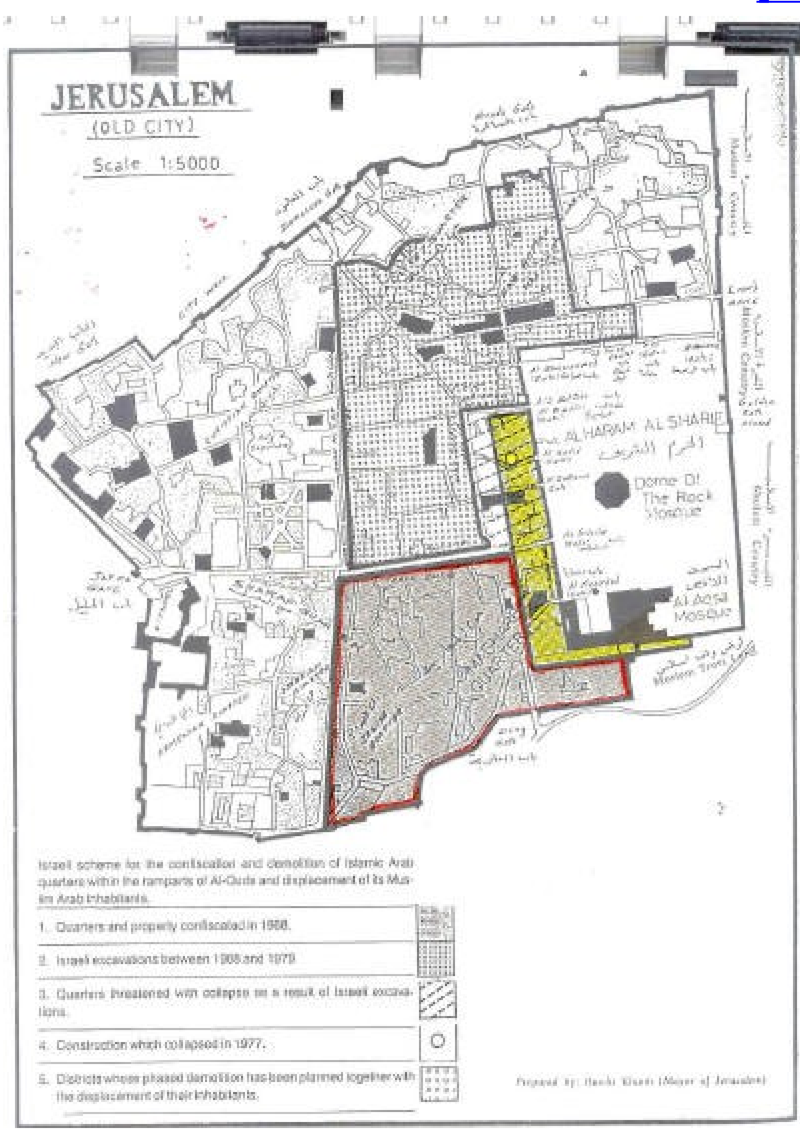
أما الاعتداءات على المسجد الأقصى فقد جرى 40 اعتداءً خلال 1967 ـ 1990، ولم تنفع التسوية السلمية واتفاقات أوسلو في وقف الاعتداءات، فتم تسجيل 72 اعتداءً خلال الفترة 1993 ـ 1998، مما يشير إلى ازدياد الحملة الشرسة ضد أحد أقدس مقدسات المسلمين. وكان من أبرز الاعتداءات عملية إحراق المسجد الأقصى في 21 أغسطس 1969 التي اتهم فيها نصراني متعصب يدعى دينيس مايكل روهان وينتمي إلى كنيسة الله. وقد أتت النيران على أثاث المسجد وجدرانه، كما أحرقت منبره العظيم الذي بناه نور الدين زنكي، ووضعه صلاح الدين الأيوبي فيه بعد تحرير الأقصى من الصليبيين سنة 1187م.وقد أخلى اليهود سبيل روهان بعد محاكمة صورية حكمت بأنه لا يتحمل مسئولية جنائية لأنه "مجنون". وقد تلكأت سلطات الاحتلال في المساعدة على إطفاء الحريق، بل وعرقلت جهود المسلمين الذين اندفعوا بالآلاف لإطفائه.

وقد أنشئت منظمة المؤتمر الإسلامي بعد شهر من هذا الحريق عندما تنادى زعماء دول العالم الإسلامي لمناقشة سبل حماية المسجد الأقصى والقدس الشريف، غير أن ضعف الدول الإسلامية، وتضارب ولاءاتها وأيديولوجياتها، وعدم تبني خطوات عملية جادة من قبلها، جعل من هذه المنظمة مؤسسة تكاد تكون عديمة الجدوى، ولا تتجاوز أعمالها عقد الاجتماعات وإصدار البيانات وتفريغ المشاعر.

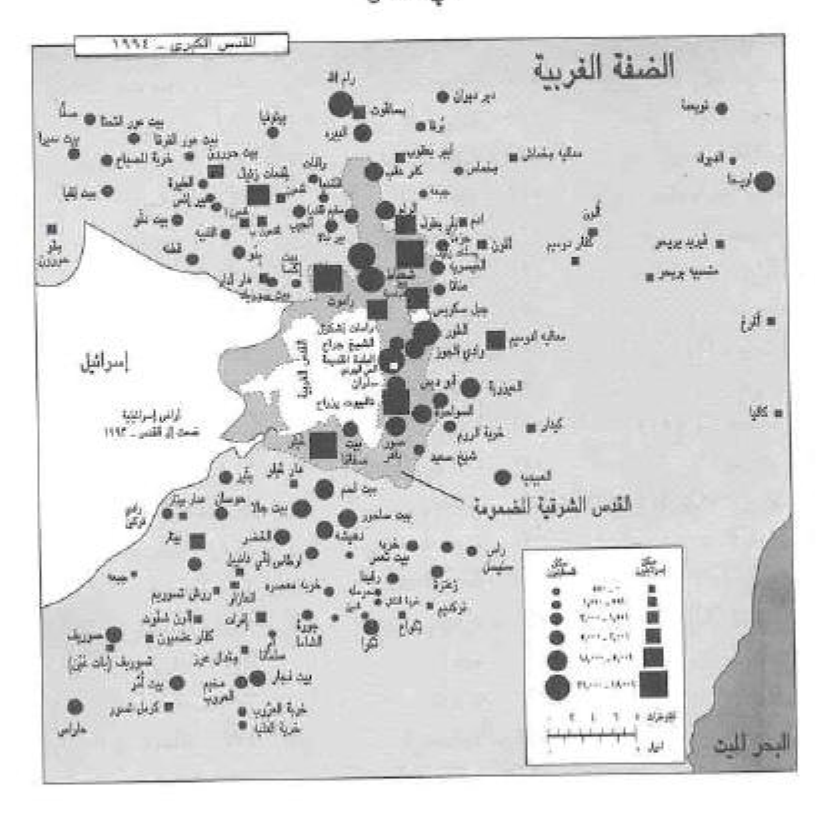
وفي 30 يناير 1976 أقرت إحدى المحاكم الإسرائيلية حق اليهود في الصلاة في ساحات المسجد الأقصى في أي وقت يشاءون من النهار. وفي الأول من مايو 1980 اكتشفت محاولة لتدمير الأقصى عندما وجد بالقرب منه أكثر من ألف كيلو من مادة (تي.إن.تي). وفي إبريل 1982 اقتحم جندي يهودي اسمه آلان جودمان المسجد الأقصى، وأطلق النار على حارس البوابة، ثم هرع إلى مسجد قبة الصخرة وهو يطلق النار بغزارة وبشكل عشوائي، فأصاب عدداً من المصلين، وشاركه جنود متمركزون على أسطح المنازل المجاورة في إطلاق النار تجاه قبة الصخرة، فتدافع المسلمون نحو المسجد لحمايته

وأصيب حوالي مائة مسلم في هذه المواجهات. وفي الوقت نفسه استخدمت الولايات المتحدة حق النقض الفيتو لإسقاط مشروع إدانة مجلس الأمن الدولي لهذا الحادث في 20 إبريل1982. وتكررت محاولات نسف المسجد الأقصى في يناير وأغسطس وديسمبر 1984، وفي 17 أكتوبر 1989 قامت جماعة أمناء الهيكل اليهودية بوضع حجر الأساس لبناء الهيكل الثالث قرب مدخل المسجد الأقصى.[79]

ويقوم المسلمون في القدس وفلسطين بالسهر على حماية الأقصى رغم ما يعانونه من احتلال وقهر، وهم يهبّون دوماً للدفاع عن حرمته بأجسادهم وحجارتهم، بعد أن فقدوا النصير العربي والإسلامي. فلم تخل أي محاولة اعتداء يهودية من قيام المسلمين بالتصدي لها حتى لو أدى ذلك إلى ارتكاب مجازر بحقهم، كما حدث في 8 أكتوبر 1990 عندما استشهد 34 وجرح 115 آخرون، عندما حاولت جماعة يهودية وضع حجر أساس الهيكل داخل المسجد الأقصى. وكما حدث في 25 ـ 27 سبتمبر 1996 إثر انتفاضة الغضب التي قامت بسبب افتتاح اليهود لنفق تحت الجدار الغربي للمسجد الأقصى، مما أدى لاستشهاد 62 فلسطينياً، وجرح 1600 آخرين، وقد أدى تدخل الشرطة الفلسطينية إلى جانب الفلسطينيين إلى مقتل 14 جندياً صهيونياً وجرح خمسين آخرين.[80]



المستوطنات الإسرائيلية
في القدس



لقد صدرت عشرات القرارات الدولية عن الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي برفض ضم الكيان الإسرائيلي للقدس الشرقية، ورفض أية إجراءات مادية أو إدارية أو قانونية تغيّر من واقع القدس واعتبار ذلك لاغياً، واعتبرت هذه القرارات الكيان "الإسرائيلي" قوة احتلال يجب أن تخرج من القدس (ومن الضفة الغربية وقطاع غزة ككل).
وقد صدر أول هذه القرارات في 4 يوليو 1967 عن الجمعية العامة للأمم المتحدة تحت رقم 2253. وظلت القرارات تتوالى إلى أن ضم الكيان الإسرائيلي القدس رسمياً إليه، فاتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار ES 712 في 29 يوليو 1980 بغالبية 112 صوتاً مقابل 7 أصوات وامتناع 24، يدعو الصهاينة إلى الانسحاب الكامل ودون شروط من جميع الأراضي العربية المحتلة بما فيها القدس. واتخذ مجلس الأمن في 30 يوليو 1980 بغالبية 14 صوتاً ضد لا شيء وامتناع الولايات المتحدة عن التصويت قراراً بإعلان بطلان الإجراءات التي اتخذها الكيان الإسرائيلي لتغيير وضع القدس، مؤكداً ضرورة إنهاء الاحتلال "الإسرائيلي". واستمرت القرارات في الصدور إلى الآن، غير أنها وإن كانت تعترف بحقوق الفلسطينيين، إلا أنها تفتقر الجدية والآلية اللازمة لإرغام الكيان الإسرائيلي على احترام القرارات الدولية.[81]

الفصل الثاني
شعب فلسطين

تكوين شعب فلسطين:

تدل آثار الإنسان القديم في حفريات شقبة في وادي النطوف أن سكان فلسطين في عصور ما قبل التاريخ هم من العرق الذي يسمى عرق البحر المتوسط. ومنذ 3000 ق.م أخذت الهجرات السامية تتوالى على فلسطين من الجزيرة العربية حتى غلب عليها العنصر السامي، فنـزل الكنعانيون فلسطين حوالي 2500 ق.م. وفي 1500ق.م جاءت هجرة سامية من القبائل المآبية والإيدومية والعمونية، واستقرت جنوبي سوريا في الإقليم الممتد بين البحر الميت وخليج العقبة، ثم جاءت هجرة سامية ثالثة بالأنباط الذين استقروا في بلاد الشام نحو 500 ق.م[82].

ومن جهة أخرى هاجرت إلى فلسطين نحو 1200 ق.م أقوام بحرية من غربي أسيا الصغرى وجزر بحر إيجة استقرت على ساحل فلسطين، وعُرفت باسم "بلست PLST"وسرعان ما اندمجت وذابت في الكنعانيين. أما بنو إسرائيل فقد حاولوا دخول فلسطين تحت قيادة موسى عليه السلام أواخر القرن الثاني عشر (حوالي 1230ق.م)، ثم إنهم استقروا بعد ذلك في أجزاء من شمال شرقي فلسطين، غير أن سقوط دولتهم إسرائيل سنة 721 ق.م أدى إلى هجرة عشرة من قبائلهم الإثني عشر، كما أن السبي البابلي بعد ذلك سنة 597 ق.م وسنة 586 ق.م قد أخذ أعداداً ضخمة من اليهود إلى العراق، حيث تضاءل شأن اليهود وعددهم في فلسطين. وقد كان لهم بعض الازدهار بعد ذلك، عندما حققوا حكماً ذاتياً بزعامة الأسرة المكابية (164 ـ 37 ق.م)، وذلك تحت الهيمنة الإغريقية ثم الرومانية، ولكن لم يعد لهم شأن يذكر منذ القرن الثاني للميلاد (بعد 135م)[83].

وكان لليمنيين من السبئيين والمعينيين جاليات كبيرة في الواحات التي تمر بها الطرق التجارية في بلاد الشام منذ الألف الأول قبل الميلاد. ومن القبائل العربية الأولى الشهيرة التي استقرت بأرض الشام ومنها فلسطين قبيلة قضاعة التي تنصرت فيما بعد، وولاها ملوك الروم على عرب بلاد الشام. ثم وردت قبيلة سليح فحلت مكانها. ثم إن بني غسان "الغساسنة" هاجروا من اليمن أواخر القرن الثالث الميلادي، فاستقروا شمال الحجاز، ثم انتقلوا للشام، واعترف لهم البيزنطيون بنوع من السيادة، وأقاموا دولة حاجزة بين الروم والفرس، وامتدت سلطتهم على القبائل العربية في فلسطين، واستمر ملكهم حتى حوالي سنة 584 م حيث بدأ انهيارهم عندما خاصموا الروم. وحين غزا الفرس الشام 613م قضوا على آخر نفوذ للغساسنة، وكان هذا بُعيد نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم، وبدء انتشار الإسلام.

وقد شهدت بلاد الشام ثلاثة كيانات عربية قبل الإسلام، فظهر الأنباط في الجنوب، وظهرت تدمر في الشمال، والغساسنة بينهما. أما تدمر

فلم يصل نفوذها إلى فلسطين، وأما الأنباط فقد تمركزوا في البتراء شرق الأردن، وسرعان ما وسَّعوا نفوذهم، وأسسوا لأنفسهم مملكة رأسها الحارث الأول منذ 169 ق.م. وفي أوج ازدهارهم شملت دولتهم الأقسام الشرقية والجنوبية من فلسطين وحوران وإيدوم ومدين وسواحل البحر الأحمر، وباتت دولتهم تحيط بمنطقة المكابيين (اليهود) من ثلاث جهات على عهد الحارث الثاني والثالث. غير أن دولتهم ما لبثت أن سقطت في نهاية القرن الأول الميلادي على يد الرومان[84].

وبعد الفتح الإسلامي انتشرت القبائل العربية في فلسطين، وامتزجت بمن سبقها من كنعانيين وغيرهم، وحدثت حركة أسلمة وتعريب تدريجية وطبيعية تحت راية الحكم الإسلامي، حتى أصبح دين أهل فلسطين الإسلام ولسانهم العربية. وبشكل عام، فإن غالبية من استقر من العرب في فلسطين هم من القحطانية أي من العرب العاربة، أي من القبائل العربية التي ترجع إلى أصول يمنية، فقد كانت معظم جيوش الفتح الإسلامي من هذه القبائل. فنـزل مثلاً قوم من الأشعريين طبرية وغلبوا عليها، ونزل بعضُ أفخاذ جذام في بيت جبرين، وفيما يلي طبرية من أرض، وسكن أقوام من بكر بن وائل جنين وآخرون من مضر بن نزار في نابلس. وفي منطقة الخليل وما حولها كانت قد استقرت لخم، وبطن من بني عبد الدار وهم رهط تميم الداري رضي الله عنه. ومن أهم قبائل العرب العاربة حِمْيَر التي ينسب جل أفرادها إلى قبيلة قضاعة، والتي انتشرت بطونها في قرى البطاني (غزة)، وجماعين (نابلس)، ووادي حنين (يافا)، وغيرها. ومن بطون قضاعة التي انتشرت في فلسطين، قبائل كلب وبلي وجهينة وجرم وقدامة وبنو بهراء وبنو عذرة والقين و مسكة. ومن العرب العاربة قبائل بنو كهلان، ومن أهمها طيء التي تعرف اليوم باسم "شمر"، ولخم وزُبيد والأوس والخزرج، وكلها انتشرت في أماكن مختلفة من فلسطين. وهناك أعداد من عرب شمال الجزيرة العربية الذين يعرفون ببني عدنان أو بني إسماعيل أو العرب المستعربة، وإليها تنسب قريش التي جاء العديد من عائلاتها إلى فلسطين من نسل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والعباس وغيرهم من الصحابة، وهناك كذلك قبيلة عَنْـزَة، وحرب وغيرها[85].

وظل شعب فلسطين مسلماً عربي اللسان منذ الفتح الإسلامي وإلى وقتنا هذا. ولم تؤثر فترة الحروب الصليبية في تركيبة السكان إلا قليلاً عندما غزاها صليبيو أوروبا، فسرعان ما استوعب المسلمون هذه الهجمة وأعادوا للأرض هويتها المسلمة. وقد ظلت فلسطين منطقة جذب سكاني لمكانتها المقدسة ولموقعها الجغرافي ولمناخها المعتدل وإمكانات الزراعة والتجارة وغيرها، فاستقر بها بعض المسلمين من الأكراد والبربر والشيشان والبوسنة والأتراك حيث تعربوا وامتزجوا بأهلها، وظلت في فلسطين أقلية نصرانية تعيش بسلام وطمأنينة في ظل حكم المسلمين، وكان من نصارى فلسطين أولئك الذي ظلوا على دينهم من أهل البلد، ومن استقر من النصارى فيما بعد ممن رغبوا في السكن في الأرض المقدسة، من أرمن ويونان وغيرهم. كما اتسع التسامح الإسلامي لسكن اليهود واستقرارهم، بوصفهم أهل ذمة، فعاشت أقلية ضئيلة منهم دون طموحات سياسية، وكانوا في بداية القرن التاسع عشر لا يتجاوزون

الخمسة آلاف. ووصل عددهم قبيل بداية البرنامج العملي النَّشِط للهجرة الصهيونية أي حوالي 1880م إلى 23 ألفاً تقريباً[86].

وعندما احتل البريطانيون فلسطين عام 1918 كان عدد سكان فلسطين نحواً من 665 ألف نسمة منهم حوالي 550 ألف مسلم، والنصارى حوالي 60 ألفاً، واليهود 55 ألفاً. أي أن العرب كانوا نحو 91.73% من السكان، بينما كان اليهود 8.27% وكانت غالبية هؤلاء اليهود من المهاجرين الغرباء القادمين من روسيا وشرق أوروبا خلال السنوات الأربعين السابقة[87].

وتحت الاحتلال البريطاني، الذي تعهد بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، تم فتح أبواب الهجرة والاستيطان على مصراعيها لليهود حيث هاجر في الفترة 1919 ـ 1948 نحو 483 ألف يهودي[88]. ولكن حتى صدور قرار تقسيم فلسطين من الأمم المتحدة في نوفمبر 1947 فإن العرب ظلوا أغلبية السكان. فحسب المعلومات التي ذكرتها لجنة الأمم المتحدة التي أوصت بالتقسيم فإن عدد السكان العرب بلغ مليوناً و 237 ألفاً و 374 شخصاً (67.05%) وبلغ عدد السكان اليهود 608 آلاف و 225 شخصاً (32.95%) وهي أرقام تستند إلى الإحصائيات البريطانية لسنة 1946[89].

لقد حاول قرار الأمم المتحدة الظالم بتقسيم فلسطين أن يضفي شرعية على إنشاء الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، وكان من أبرز أوجه الظلم التي انبنت على هذا القرار تمزيق شعب فلسطين وتشريده. ففي المنطقة التي قضى التقسيم إعطاءها لليهود (54% من الأرض) كان يعيش 498 ألف يهودي و 497 ألف عربي، وفي المنطقة التي قضى بإعطائها للعرب (45% من الأرض) كان يعيش 725 ألف عربي و 10 آلاف يهودي فقط، بينما تقرر وضع منطقة القدس (1% من الأرض) تحت إشراف دولي حيث يسكنها 105 آلاف عربي، و 100 ألف يهودي[90]. وحسب دراسة إحصائية دقيقة قامت بها جانيت أبو لغد فإن عدد الفلسطينيين العرب في نهاية سنة 1948 كان مليوناً و 398 ألفاً، أما تقديرات سلمان أبو ستة للسنة نفسها فهي مليون و 441 ألفاً[91].

ولأن اليهود كانوا قد تجهزوا تماماً للحرب بدعم من القوى الكبرى لفرض قرار التقسيم، بل وتوسيع كيانهم وطرد أبناء فلسطين من الأرض التي يسكنون عليها، فقد تسببت حرب فلسطين 1948 بمأساة كبرى لشعب فلسطين، فحسب إحصاءات الأمم المتحدة تم تشريد 726 ألف فلسطيني من أرضهم، وزادت التقديرات بعد ذلك إلى نحو 900 ألف لاجئ، أي أن نحواً من ثلثي شعب فلسطين قد طردوا من أرضهم، حيث قام اليهود الصهاينة بأحد أبشع حالات التطهير العرقي في التاريخ الحديث. ثم قاموا بإحلال اليهود من شتى الأجناس والألوان مكان أبناء البلاد الأصليين، وفي العام 1967 احتل الصهاينة ما تبقى من فلسطين (الضفة الغربية وغزة) وشردوا 330 ألف فلسطيني آخرين[92]. ومنعت القوات الصهيونية ولا تزال تمنع الفلسطينيين من العودة إلى أراضيهم، وبذلك ظلت أعداد هائلة من الفلسطينيين تزيد عن نصف العدد الكلي لاجئةً خارج فلسطين.

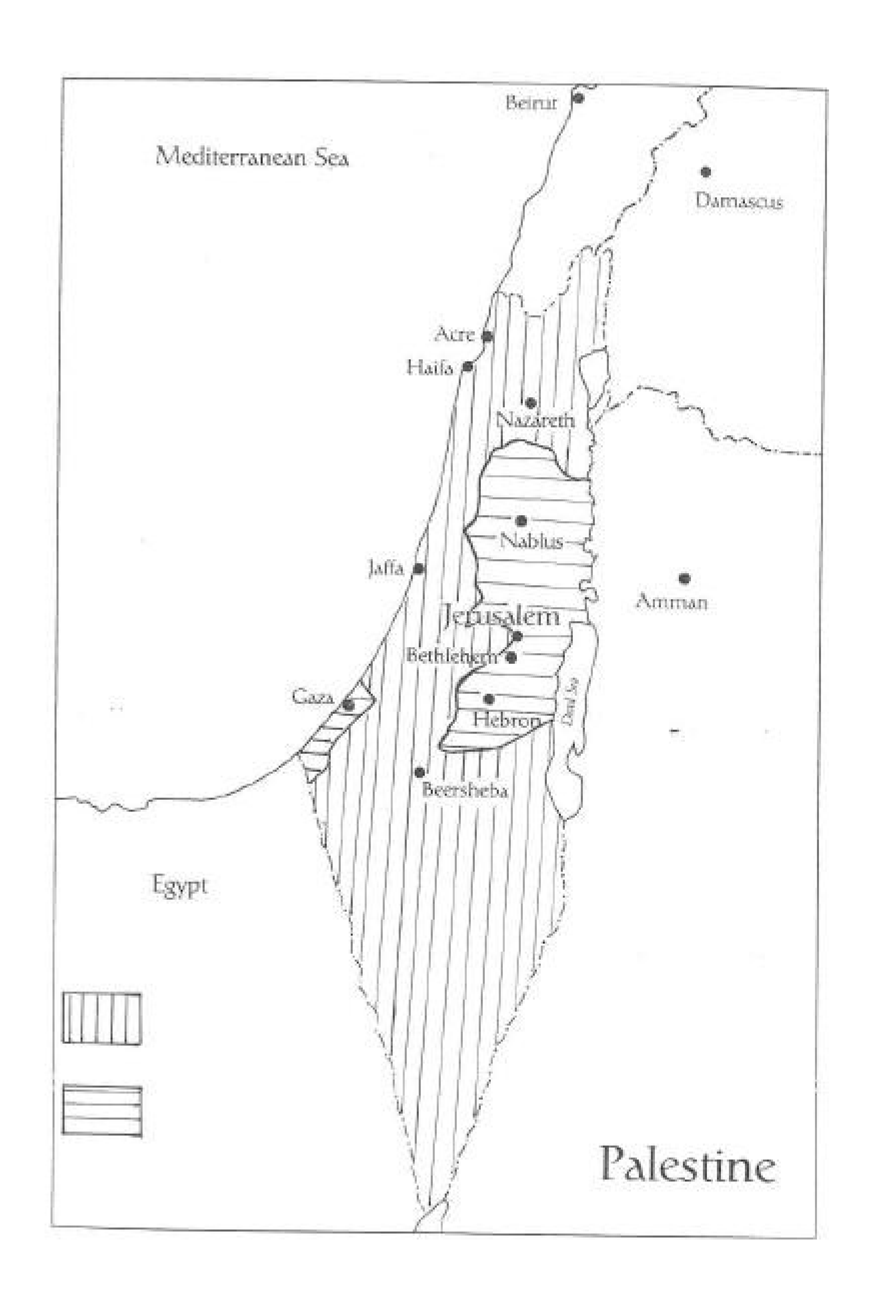
وهكذا توزع شعب فلسطين(الذي بلغ عدده سنة 2002 حوالي 9 ملايين و 554 ألفاً) على ثلاث تقسيمات جغرافية، هي:

- أرض فلسطين المحتلة سنة 1948 (حوالي مليون و 239ألفاً في سنة 2002، أي نحو 12.97% من الفلسطينيين).

- أرض فلسطين المحتلة سنة 1967، بما فيها القدس الشرقية (حوالي ثلاثة ملايين و 485 ألفاً في سنة 2002، أي 36.48% من الفلسطينيين).

- الفلسطينيون خارج فلسطين (حوالي أربعة ملايين و830 ألفاً في سنة 2002أي 50.55% من الفلسطينيين)[93].

ومشكلة اللاجئين الفلسطينيين من أصعب المشاكل الإنسانية في التاريخ الحديث، وأصحابها هم الأكثر عدداً والأطول معاناة بين لاجئي العالم منذ سنة 1948. ومع ذلك حال التواطؤ الدولي للقوى الكبرى وخصوصاً الولايات المتحدة مع الكيان الصهيوني دون عودتهم إلى أرضهم، رغم صدور العشرات من قرارات الأمم المتحدة التي تؤكد حقهم في العودة.



هل ترك الفلسطينيون أرضهم بناء على رغبتهم؟

تزعم الدعاية الصهيونية ومؤيدوها أن الفلسطينيين رحلوا عن فلسطين في أثناء حرب 1948 بناء على رغبتهم الخاصة، وبناء على حث الزعماء العرب لهم عبر برامج الإذاعات العربية، بينما كان الصهاينة يطالبونهم بالبقاء!! لكنهم اختاروا الرحيل، وبذلك فقدوا حقهم في أرضهم، وعليهم تحمل ما صنعت أيديهم!

من المثير للسخرية أن مناقشة القضايا البديهية، ومماحكة الحقائق تكون أحياناً أكثر صعوبة من مناقشة القضايا الصغيرة، المختلف في زاوية النظر حولها. ولو جربت أن تناقش شخصاً عنيداً يطالبك بإثبات أن الشمس هي التي تشرق كل صباح على الكرة الأرضية لعرفت مدى الصعوبة التي ستواجهها في مثل هذه الأمور. ومن المؤلم أيضاً أن تجد من إخوانك العرب والمسلمين من التبس عليه الأمر فتأثر بالدعاية الصهيونية وجاء مجادلاً أو على الأقل متسائلاً باحثاً عن الحقيقة.

أولاً: وقبل كل شيء فمن ينكر أن السلوك الطبيعي للمدنيين في أثناء الحروب وخصوصاً إذا صاحبها مذابح وتطهير عرقي هو الهجرة باتجاه مناطق أكثر أمناً بانتظار انتهاء الحرب حتى يعودوا بعد ذلك إلى ديارهم؟ ألم يفعل ذلك اليهود أنفسهم؟ ألم يحدث هذا منذ وقت قريب في تيمور الشرقية وغيرها من البلدان؟!.

ثانياً: إذا حدث ورحل السكان عن منطقة ما أثناء الحرب لمصلحة يرونها، وبغض النظر عمن شجعهم على ذلك، فهل يحرمهم ذلك من حقهم في العودة إلى أرضهم عند انتهاء الحرب. لماذا سمح للبوسنيين والأفغان والشيشان والتيموريين الشرقيين وغيرهم بالعودة إلى أرضهم؟ بينما لم يسمح للفلسطينيين؟.

لماذا ألزم المجتمع الدولي الأنظمة الحاكمة في تلك البلدان بإعادة اللاجئين إلى أراضيهم، ولم يلزم الكيان الصهيوني بذلك؟.

ثالثاً: إذا كان الصهاينة فعلاً قد دعوا الفلسطينيين إلى البقاء في أرضهم، فلماذا منعوهم من العودة إليها عند انتهاء الحرب؟ بعد أن لم يعد هناك خطر يذكر من هؤلاء المدنيين؟ لماذا صادروا الأراضي الفلسطينية وأحلوا مكانهم مستوطنين يهود من نحو تسعين بلداً من بلدان العالم؟

وباختصار لماذا لم يثبتوا حسن نواياهم إن كان لديهم أية نوايا حسنة؟!

رابعاً: يدعي اليهود الصهاينة أن الفلسطينيين تركوا فلسطين بناء على رغبتهم الخاصة!! فهل تطوعوا فعلاً بسؤال الفلسطينيين عن حقيقة رغبتهم؟ ولماذا يتحدثون باسمهم ورغماً عنهم؟ وهل لديهم الاستعداد لفتح الباب لعودة الفلسطينيين إلى أرضهم؟ إذا ثبت أنهم تركوها كارهين، ومستعدين للعودة إليها راغبين؟ ألم تكفهم عشرات من البيانات والتصريحات والاستفتاءات؟ وأكثر من خمسين سنة في المخيمات رافضين للتوطين في أي مكان غير فلسطين؟ والثورات والانتفاضات؟ وعشرات من قرارات الأمم المتحدة التي استصدروها....

خامساً: إذا كان اليهود يدعون لأنفسهم حق العودة إلى فلسطين بعد ألفي عام من تركها! فلماذا يحرمون أبناء فلسطين من حق العودة إلى أرضهم بعد أشهر فقط أو سنوات من "تركها"؟.

وإذا كان اليهود أنفسهم لم يظهروا نوايا جادة، ولم يقوموا بأية برامج عملية للعودة إلى فلسطين طوال 1800 سنة وعلى مدى عشرات الأجيال، فهذا يعني وفق المنطق نفسه أن اليهود قد فقدوا حقهم في العودة منذ أمد طويل.

وعلى أي حال، فإن حقائق الواقع وأدلة التاريخ واعترافات اليهود أنفسهم تكذب ادعاءاتهم ومحاولات تزييفهم للتاريخ. فلا الفلسطينيون خرجوا وفق رغبتهم، ولا الزعماء العرب أمروهم بالخروج، ولا الزعماء الصهاينة خططوا لإبقائهم والتعايش معهم.

ففي سنة 1961 أمضى الصحفي الإيرلندي أيرسكين تشايلدرز عدة أشهر يتقصى أسباب خروج الفلسطينيين وطالب الزعماء الصهاينة بدليل واحد يثبت مزاعمهم لكنهم عجزوا، ولم يجد ما يثبت أن

الإذاعات العربية حضت العرب على الخروج، ولجأ تشايلدرز إلى محطات الإذاعة البريطانية والأمريكية لتفحص تسجيلات البث الإذاعي التي سجلت طوال سنة 1948 وانتهى إلى القول:" "ليس هناك أمر أو نداء أو اقتراح واحد يمكن أن تكون قد بثته إي إذاعة عربية داخل أو خارج فلسطين خلال 1948 يتعلق بتشجيع الفلسطينيين على الرحيل. بل على العكس من ذلك تم التقاط تسجيلات متكررة لنداءات وأوامر موجهة من إذاعات عربية إلى الفلسطينيين تطلب منهم البقاء في فلسطين". ووجد تشايلدرز أدلة واضحة على أن الإذاعة الإسرائيلية كانت تبث برامج بالعربية لحث الفلسطينيين على الرحيل[94].

ولم تصدر اللجنة العربية العليا أوامرها للفلسطينيين بالنـزوح (لإفساح المجال للجيوش العربية)، كما تروج الدعاية الصهيونية، بل على العكس فهناك أكثر من رسالة رسمية صادرة عن اللجنة، وإحداها مؤرخة في 8مارس 1948 تطلب من الحكومات العربية التعاون لمنع نزوح الفلسطينيين[95].

أما الحقيقة التي يجب تثبيتها فإن النوايا الصهيونية منذ مرحلة مبكرة كانت تركز على فكرة الدولة اليهودية، والتخلص من القوميات الأخرى من مناطقها، ومنذ البداية كتب ثيودور هرتزل T. Herzl - مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية وأول رئيس لها - في مذكراته:"يجب أن تتم عمليتي طرد الفلسطينيين والتخلص منهم بحذر وسرية بالغة"، ونقل عن زعيم الحركة الصهيونية في فلسطين ديفيد بن غوريون سنة 1937 قوله إن اليهود يجب أن يطردوا العرب ويحلوا محلهم"[96].

أما يوسف ويتز Yosef Weitz الإداري المسئول عن الاستيطان الصهيوني عام 1940 فقد كتب يقول:" يجب أن يكون واضحاً في أذهاننا أنه ليس هناك مجال لأن يعيش الشعبان معاً في هذا البلد، لذا فإن الحل الوحيد يكمن في أن تكون فلسطين خالية من العرب، وليس هناك من طريقة لتنفيذ هذا المخطط سوى طردهم جميعاً إلى الدول المجاورة"[97].

وقد اعترف الصهاينة - فيما بعد - أنهم نفذوا خطة كبيرة سموها "خطة داليت" لتهجير الفلسطينيين من أرضهم، وتبعاً لما ورد في التاريخ الصهيوني الرسمي فإن القرى الفلسطينية التي قاومت هذه الخطة يجب تدميرها وطرد سكانها خارج حدود الدولة اليهودية"، وتم تبني السياسة نفسها مع المدن الفلسطينية. وكتب إسحاق رابين الذي كان أحد القيادات العسكرية اليهودية لحرب 1948 (وأصبح رئيساً للوزراء فيما بعد) أقوالاً تمكنت صحيفة نيويورك تايمز من نشرها في 23 أكتوبر 1979" مشينا إلى الخارج بمرافقة بن غوريون، وأعاد آلون سؤاله: ما الذي سنفعله بالسكان الفلسطينيين؟ فأجابه بن غوريون بحركة من يده: اطردوهم"، وكشف باحث يهودي يدعى بيني موريس عن وثيقة مؤرخة في 30 يونيو 1948 أعدها قسم الاستخبارات اليهودية المباشرة في الجيش الإسرائيلي يوضح فيه أن الرحيل الجماعي للفلسطينيين كان بسبب العمليات العدائية اليهودية المباشرة على التجمعات العربية، وانعكاسات هذه العمليات على التجمعات العربية الأخرى، وبسبب ما قامت به المجموعات الصهيونية

الإرهابية الأخرى مثل عصابة الأرغون التابعة لمناحيم بيغن. وتذكر الوثيقة بأنه" مما لا شك فيه أن العمليات العدائية التي قامت بها عصابة الهاغاناة كانت السبب الرئيسي في رحيل الفلسطينيين"، وتعترف الوثيقة بأن المؤسسات والإذاعات العربية حاولت مجابهة ترحيل الفلسطينيين والحد منها[98].

وكتب ديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء للكيان الصهيوني في يومياته 18 يوليو 1948 :" يجب أن نفعل أي شيء من أجل ضمان أنهم (اللاجئون الفلسطينيون) لن يعودوا مرة أخرى"[99].

ومن جهة أخرى فقد استخدمت القوات الصهيونية أسلوب المجازر البشعة لإثارة الرعب والفزع وتهجير السكان، وارتكبت حوالي 34 مجزرة خلال حرب 1948 بمدنيين فلسطينيين أثناء عمليات التهجير، وكان من أشهرها مذبحة دير ياسين التي اعترفت القوات الصهيونية فيها بمقتل 254 من الرجال والنساء والأطفال[100].

وبعد، فإنه مما لا شك فيه أن خروج الفلسطينيين من أرضهم كان عملية مبيتة ومخطط لها وتم تنفيذها بموافقة وإشراف أعلى مستويات القيادة الصهيونية.

الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة 1948

استطاع اليهود الصهاينة إنشاء كيانهم عام 1948 على نحو 77% من أرض فلسطين، وبعد طرد ثلثي الشعب الفلسطيني من أرضه، كما أشرنا سابقاً. وقد ظل عدد من الفلسطينيين في هذه الأرض ممن لم يتمكن الصهاينة من طردهم، وقد بلغ عددهم حوالي 156 ألفاً، 17% من العدد الكلي لسكان الكيان الصهيوني عند إنشائه[101]. وهؤلاء الذين بقوا هم الذين يعرفون بـ"فلسطينيي الـ 48"، أو عرب الـ 48، أو ما يسميه الصهاينة بـ"عرب إسرائيل"، وهكذا ولأول مرة يجد أبناء فلسطين أنفسهم أقلية في أرضهم بل وتعاملهم الدولة الصهيونية كغرباء أو مواطنين من الدرجة الثانية.

لقد كان حجم الدمار هائلاً وكانت درجة تمزيق النسيج الاجتماعي والاقتصادي للفلسطينيين في الأرض المحتلة تفوق التصور، فحسب د. إبراهيم أبو جابر فقد تم تدمير 478 قرية من أصل 585 قرية عربية كانت قائمة في الأرض المحتلة 1948.[102] وفي دراسة متأنية للدكتور وليد الخالدي وضع قائمة دقيقة بأسماء 418 قرية تم تهجير سكانها سنة 1948، وقد تابع د.سلمان أبو سنة قائمة القرى هذه وأضاف عليها مجموعة أخرى من القرى ومراكز استقرار البدو خصوصاً في بئر السبع، ليصبح العدد الكلي للقائمة 531 قرية ومركزاً. وقد هجر بسبب ذلك 804 آلاف فلسطيني إلى خارج الأرض المحتلة أو ما أصبح يدعى "إسرائيل"، بينما تم تهجير نحوا من 30 ألفاً آخرين من أرضهم إلى مناطق أخرى داخل الأرض المحتلة نفسها أي حوالي خمس الفلسطينيين الـ156 ألفاً الذين ظلوا هناك[103].

ويحاول الكيان الصهيوني إثبات شرعيته وفق شعار الصهاينة المعروف "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، ولذلك يسعى لطمس كل الحقائق حول أبناء فلسطين الذي شردهم وحول قراهم ومراكزهم

الحيوية التي دمرها. تقول جولدا مائير رئيسة وزراء الكيان الصهيوني السابقة:" لا يوجد شيء اسمه فلسطينيون"![104] ويعرض د. إسرائيل شاحاك ـ أحد مفكري اليهود ـ هذا الأمر قائلاً:" إن الحقيقة المتعلقة بالتجمعات السكانية العربية التي كانت موجودة داخل حدود دولة إسرائيل قبل 1948 تُعدُّ أحد أهم الأسرار التي يتكتم عليها في إسرائيل، فليست هناك أية منشورات أو كتيبات تتحدث عن هذه التجمعات السكانية وأماكن وجودها. وهذا أمر تم تجاهله بشكل متعمد حتى يمكن تدريس خرافة "البلاد الفارغة"، وكانت القرى المدمرة في غالب الأحوال قد دمرت تدميراً كاملاً بمنازلها وأسوار حدائقها وحتى مقابرها وشواهد قبورها.. حتى يتم إيهام الزائرين.. بأن جميع هذه المناطق كانت عبارة عن صحراء مقفرة". أما الجنرال موشيه دايان أحد كبار الشخصيات الصهيونية في القرن العشرين والذي تدرج في مناصب رئاسة أركان الجيش الإسرائيلي، ووزارة الدفاع، ووزارة الخارجية، وكان له اهتمام خاص بالآثار، فيقول:" ليست هناك قرية يهودية واحدة في هذه البلاد لم يتم بناؤها فوق موقع لقرية عربية"[105].

ومنذ البداية شرعت الدولة الصهيونية الناشئة في التعامل مع من تبقى من أهل فلسطين في الأرض المحتلة عام 1948 وفق الخطوط التالية:

- تبني قوانين وسياسات تمييزية ظالمة جعلتهم كالغرباء في أرضهم، ومواطنين من الدرجة الثانية.

- وضعهم تحت ظروف أمنية واقتصادية صعبة تلجئهم إلى الهجرة وترك الأرض.

مصادرة أراضيهم، وأراضي الوقف الإسلامي.

- محاولة محو هويتهم الدينية والثقافية وسلخهم عن محيطهم الفلسطيني والعربي والإسلامي.

- وتنفيذا لهذه السياسات، فقد وضع هؤلاء الفلسطينيون تحت الحكم العسكري وتم عزل القرى العربية عن بعضها وإعلان كل قرية منطقة مغلقة لا يحق الدخول إليها والخروج منها إلا بإذن. حتى أن إميل حبيبي الشيوعي الفلسطيني عضو الكنيست منع من مغادرة مدينته لحضور الكنيست إلا بعد حصوله على تصريح خاص. وظل الفلسطينيون تحت الحكم العسكري حتى 1966 عندما توقف العمل به رسمياً، غير أنه من الناحية العملية ظلوا تحت الرقابة المشددة، وما حدث هو مجرد عملية انتقال سلطة متابعتهم إلى أيدي وحدة المهمات الخاصة في الشرطة الإسرائيلية. لقد كانت القوانين المطبقة على الفلسطينيين في أرض 1948 جائرة إلى حد أن وزير العدل الإسرائيلي السابق يعقوب شابيرا يقول: " حتى في ألمانيا النازية لم يكن هناك مثل هذه القوانين، ولا يمكنك أن تجد نظاماً يشبه نظامنا إلا في البلاد المحتلة.. إن من واجبنا أن نقول للعالم بأسره أن قوانين الدفاع تدمر البنية التحتية للعدالة في هذا الكون"[106].

لقد كان التعامل منذ البداية مع فلسطينيي الـ48 عدوانياً، وكأنهم وجدوا "خطأ" في "أرض إسرائيل"، ولذلك أعلن يوري لوبراني مستشار رئيس الوزراء الإسرائيلي 1960 - 1963 أن الفلسطينيين في إسرائيل هم الأعداء الأبديين لإسرائيل[107]. وفي الكيان

الصهيوني لا يمكن أن توجد مساواة حقيقية لجميع المواطنين، لأن إسرائيل أعلنت نفسها منذ البداية أنها دولة اليهود أينما يقيمون، ومهما كانت جنسياتهم، وحالما تطأ أرجلهم الأرض المحتلة يصبحون مواطنين أصليين لهم الحقوق كافة، بما فيها الوصول إلى أعلى مراتب الدولة. أما وجود العرب فيها ولو منذ آلاف السنين فلا يعني ذلك أنها دولتهم، لأن إسرائيل ليست بالضرورة دولة للمواطنين الذين يعيشون فيها.

وقامت السلطات الصهيونية بطريقة منهجية متدرجة ودون ضوضاء إعلامية بعملية اغتصاب الأراضي من أصحابها الشرعيين سواء من طرد وشرد منها أو من ظل صامداً على أرضه. وقامت بسن 34 قانوناً لإعطاء شرعية للظلم الذي تمارسه ومن هذه القوانين، قوانين أملاك الغائبين، وقانون استملاك الأراضي، وقانون مصادرة الأراضي لمصلحة المجتمع.. وغيرها. وقد أدى ذلك إلى مصادرة نحو 97% من الأرض التي يملكها الفلسطينيون مع نهاية القرن العشرين[108].

وكان معدل ملكية الفرد الفلسطيني سنة 1945 هي 19 دونم، وقد هبطت سنة 1950 إلى 3.4 دونم وسنة 1981 إلى 0.84دونم، وهكذا[109]. وقد ثار أبناء فلسطين المحتلة 1948 في وجه هذه القوانين والمصادرات الظالمة، وكان من أبرز هذه الانتفاضات ما يعرف بانتفاضة يوم الأرض في 30 مارس 1976 والتي استشهد فيها ستة من الفلسطينيين.

ورغم القوانين الظالمة الجائرة ، فقد صمد أبناء فلسطين في أرضهم متشبثين بحقهم، وشجعهم على ذلك ما رأوه من معاناة إخوانهم اللاجئين من ظروف أقسى وأصعب. وقد استمرت معدلات النمو السكاني الطبيعي بينهم بمعدلات عالية غير أن نسبتهم إلى عدد اليهود في فلسطين لم تتحسن كثيراً بل وشهدت انحساراً في الخمسينيات والستينيات بسبب هجرة أعداد هائلة من اليهود من بقاع العالم شتى إلى فلسطين المحتلة، كما تأثرت بموجة الهجرة اليهودية الكبرى مع انحلال الاتحاد السوفيتي وسقوطه أواخر الثمانينيات من القرن العشرين.

ويبين الجدول التالي تطور أعداد الفلسطينيين ونسبتهم إلى العدد الكلي في الأرض المحتلة سنة 1948[110]:

السنة	العدد بالألف	النسبة إلى عدد السكان
1948	156	17%
1958	221	10.9%
1968	406	14.3%
1978	569	15.9%
1988	817	18.3%

1990	875	18.2%

ووفق نسب النمو الطبيعي نحو 3.4% سنوياً فإن عدد الفلسطينيين أصبح في سنة 2002 حوالي مليون و239 ألفاً. وهي تشكل الآن نحو 19.5% من السكان.

ومن الناحية الدينية ينقسم أبناء فلسطين إلى مسلمين من أهل السنة ونسبتهم 77%، ودروز 10%، ونصارى 13%. وكانت نسبة النصارى في السنوات الأولى للاحتلال حوالي 20% إلا أنها انخفضت بسبب هجرة أعداد منهم خصوصاً إلى أوروبا وأمريكا[111].

ويقدم الكيان الصهيوني نفسه على أساس أنه واحة الديمقراطية في منطقة الشرق الأوسط وأن الفلسطينيين تحت حكمه يتمتعون بحقوق المواطنة والحرية السياسية، وأن أحوالهم الاقتصادية تحسنت كثيراً. وقبل مناقشة مثل هذه الادعاءات، فإن الإشكالية الأساسية يتم تجاهلها، وهي أن أرض هؤلاء الفلسطينيين محتلة عنوة وقهراً، وأن معظم إخوانهم قد شردوا وطردوا ، وأنهم لا يملكون حق إرجاعهم، بينما تُفتح أرض فلسطين لليهودي من أية جنسية وبلد كان ، يتجنس ويمتلك ويحكم، بينما يعامل الفلسطيني على أنه غريب في أرضه، وعدو محتمل يمكن محاربته أو تهجيره في أي لحظة. هذا هو محور القضية الذي يجب ألا يغيب عن الأنظار. غير أن ما يشوش هذه الرؤية أحيانا أن الكيان الصهيوني يسعى جاهداً للظهور بوصفه دولة ديمقراطية ليحصل على قبول وثناء دولي، وهذا يوفر هامشاً من الحرية السياسية والدينية للفلسطينيين تحت حكمه. ثم يزيد الأمر تشويشاً ما يلقاه الفلسطينيون من معاملة سيئة ومعاناة على أيدي أشقائهم العرب في بعض البلدان العربية، مما يوفر حجة يستقوي بها الكيان الصهيوني ليحاول إظهار نفسه في وضع أفضل. كما أن مستوى المعيشة في الكيان الصهيوني أعلى بكثير من مثيله في البلدان المجاورة، وهو ما يظهر الفلسطينيين في الأراضي المحتلة بمستوى معيشي أفضل، على الرغم من وجودهم في ذيل القائمة، وسوء أحوالهم مقارنة باليهود داخل الكيان. إذ ليس من العدل مثلاً أن تقارن وضع الفقير في أمريكا أو السويد مع فقير آخر يعيش في الهند أو تشاد أو موزمبيق، عند ذلك يصبح الفقير الأمريكي غنياً مترفاً مقارنة بنظيره في تلك البلاد. والأصل أن تتم المقارنة وفق الظروف نفسها والزمان والمكان وتكاليف المعيشة ومتطلبات الحياة الكريمة.

وعلى أي حال، فإن الدراسة المتأنية لأوضاع الفلسطينيين في أرض 1948 تثبت الأوضاع المتردية التي يعيشونها مقارنة باليهود، فمثلاً تتجاوز المخصصات المالية الحكومية للمجالس المحلية اليهودية (البلديات)، خمسة أضعاف إسهام الحكومة في الميزانية المحلية للمجالس المحلية العربية، ودعم الحكومة لتكلفة المياه التي يستهلكها المزارعون اليهود تناهز ما تمنحه للعرب بمائة مرة، ويوجد 10 عرب من أساتذة الجامعات من بين خمسة آلاف أستاذ جامعي يهودي، وهناك عربي واحد من مجموع 2400 يحتلون مراكز إدارة في الشركات التي تمتلكها الحكومة، وليس هناك أي مدير عربي من بين 600 مدير من مدراء الصناعات التي يمتلكها اتحاد العمال في الكيان الصهيوني "الهستدروت"، ومن بين جميع المسئولين الـ 1860 المسجلين في الوزارات الإسرائيلية هناك 26 فلسطيني فقط يعملون

جميعاً في إدارات تنحصر مسئوليتها في الشؤون الدينية والبلدية العربية. ومن مجموع 76 بلدة سكانها بين خمسة آلاف إلى عشرين ألفاً، هناك عشرون بلدة تفتقر إلى الخدمات الصحية منها 19 فلسطينية. وحتى سنة 1976 كان هناك قرية عربية واحدة مزودة بشبكة للمجاري من بين 104 قرى عربية، وقد ربط الصهاينة بين تقديم الكثير من الخدمات وبين أداء الخدمة العسكرية لكيانهم، مثل إعالة الأطفال وقروض الإسكان ونفقات الدراسة الجامعية وغيرها، وهذا حرم الفلسطينيين الذين لا يؤدون هذه الخدمة(سواء برغبتهم أو برغبة الصهاينة أيضاً) من الكثير من حقوق المواطنة[112].

وتشير أحوال الفلسطينيين في الأرض المحتلة 1948 إلى إهمال صهيوني متعمد في خدمات البنية التحتية كالكهرباء والصرف الصحي والمياه وقروض السكن، وإلى منع تراخيص البناء، وإلى النقل الإجباري للسكان من قراهم إلى قرى أخرى، وفتح مكاتب لمساعدتهم على الهجرة إلى الغرب. وحسب الإحصاءات الإسرائيلية نفسها فإن 48% من الفلسطينيين يعيشون تحت خط الفقر ومعدل البطالة بينهم 22%[113].

وقد كانت السنوات العشرون الأولى لقيام الكيان الصهيوني 1948 ـ 1967 كابوساً كبيراً على صدور أبناء فلسطين المحتلة 1948. فقد وضعوا تحت حكم عسكري عدواني بغيض، وغادر نتيجة الحرب معظم المثقفين وقادة الأحزاب رجال الفكر الفلسطينيين، بينما كان غالب من تبقى من الفلاحين البسطاء مما أوجد أزمة في القيادة والتوجيه، وخلت الساحة إلا من شراذم الشيوعيين الفلسطينيين الذين أيدوا إنشاء الدولة الصهيونية. ولم يجد الفلسطينيون ما يعبرون به عن توجهاتهم السياسية إلا من خلال الأحزاب "الإسرائيلية". كما ضُرب ستار حديدي بين هؤلاء الفلسطينيين وإخوانهم الفلسطينيين والعرب والمسلمين، بينما جرت محاولات لغسل أدمغتهم ومحو هويتهم الوطنية والثقافية.

وقد عبر الشيخ رائد صلاح أحد قادة الحركة الإسلامية - فيما بعد - في أرض الـ48 عن هذه الأحوال بقوله:" لقد كانت الهوية غائبة، والثقافة الإسلامية أبوابها مسدودة"، وقال إبراهيم عبد الله رئيس مجلس قرية كفر قاسم (فيما بعد) :" منذ عام 49 وحتى عام 67 لم نكن نعلم شيئاً عن أصولنا وحضارتنا، لم نكن نعلم شيئاً عن الإسلام، لقد كان هناك بعض من نسخ القرآن مبعثرة في بعض ما بقي من مساجد قديمة في القرى العربية، لقد غرقنا في ظلمة تامة من الجهل والفساد"[114].

وفي مثل هذه الأوضاع خلت الأجواء للشيوعيين الذين استطاعوا في البداية الانتشار وسط قطاعات المجتمع الفلسطيني، وكذلك للزعامات التقليدية والعشائرية التي كانت تخشى فقدان نفوذها إذا ما عارضت الصهاينة بقوة وفعالية. وعلى الرغم من أن الحزب الشيوعي اعترف بالكيان الصهيوني ودولته ومؤسساته إلا أنه حمل عدداً من الأطروحات التي تخدم مصالح الفلسطينيين في أرض 48، مقارنة بالأحزاب الصهيونية الأخرى، كدعوته للمساواة وإقامة دولة فلسطينية في الضفة والقطاع. وتراوحت قوة هذا الحزب في الوسط العربي بين 11% من أصوات الناخبين سنة 1959 و 50% سنة 1977،

إلا أنه عاد إلى الضمور في الثمانينيات لتنخفض نسبته سنة 1992 إلى 23%. وحصل اليساريون ضمن "الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة" على ثلاثة مقاعد في انتخابات الكنيست لسنة 1999. أما القوى التقليدية فقد كانت تنـزل في قوائم مرتبطة بأحزاب صهيونية وخصوصاً حزب العمل وقد بلغت ذروة نفوذها سنة 1955 عندما حصلت على 55% من أصوات الوسط العربي، وفي سنة 1969حصلت على 41%، ثم في 1977 حصلت على 16% لكنها فقدت نفوذها بعد ذلك، ولم تتمكن من اجتياز نسبة الحسم اللازمة للتمثيل في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي)، وهناك قوة يسارية أخرى ظهرت منذ 1981 تدعى "الحركة التقدمية للسلام"، غير أنها تركز على الهوية الفلسطينية وليس الأممية كالشيوعيين وفازت بمقعدين في الكنيست سنة 1984 ومقعد واحد سنة 1988. أما الحزب العربي الديمقراطي الذي تأسس سنة 1988 فهو أول حزب قام على أساس عربي صرف، إذ إن الشيوعيين والحركة التقدمية ضمتا أعضاء يهود، وحصل في انتخابات سنة 1988 على مقعد واحد في الكنيست، ثم سنة 1992 على مقعدين[115].

ومن الجدير بالملاحظة أن نسب الشعبية السابقة في الوسط العربي لا تعبر بالضرورة عن حقيقة نفوذ تلك الأحزاب، إذ إن هناك أعداداً كبيرة من العرب ترفض المشاركة في الانتخابات الإسرائيلية، ولا تسجل أسماءها في قوائم الناخبين، كما أن هناك أعداداً أخرى ممن يسجلون أسماءهم لا يستخدمون حقهم في الانتخابات.

ومن جهة أخرى، فإن هناك حركات سياسية غير برلمانية (لا تشارك في البرلمان)، مثل حركة أبناء البلد، والحركة الإسلامية. أما حركة أبناء البلد فتعد استمراراً طبيعياً لحركة الأرض التي ظهرت سنة 1959 وحملت ميولاً قومية ناصرية، ثم ما لبثت السلطات الإسرائيلية أن حظرت نشاطها سنة 1965 لأنها ترى أن فلسطين واحدة غير قابلة للتجزئة وأن أي حل عادل يجب أن يتم وفق إرادة الشعب الفلسطيني. وقد ظهرت حركة أبناء البلد سنة 1973، وحققت بعض النجاحات في الانتخابات البلدية، وعدَّت نفسها من روافد الحركة الوطنية الفلسطينية المنضوية تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية[116].

وقد أخذت بوادر انتشار التيار الإسلامي في مناطق فلسطين الـ 48 إثر حرب 1967، عندما أصبحت كل فلسطين تحت الاحتلال الصهيوني، وأمكن لفلسطينيي الضفة والقطاع من الاتصال بإخوانهم في أرض الـ48، ونشر التيار الإسلامي بينهم وقد كان لأمثال الشيوخ أحمد ياسين، وحامد البيتاوي، ومحمد فؤاد أبو زيد، وأحمد الحاج علي، وسعيد بلال، فضل كبير في ذلك. كما درس الكثير من فلسطينيي الـ 48 في كليات وجامعات الضفة والقطاع فضلاً عن أوروبا وأمريكا حيث كان التيار الإسلامي الفلسطيني ينمو ويتزايد، وعادوا إلى مناطقهم لينشروا الدعوة الإسلامية، ويقيموا الهيئات الخيرية والعيادات الطبية وقاعات المطالعة والأندية الرياضية. وتبنى التيار الإسلامي بشكل عام أفكار ومناهج "الإخوان المسلمون"، ودعوا إلى أن الإسلام هو الحل لمشكلات الجماعات والأفراد وطمحوا على المدى البعيد إلى إقامة الدولة الإسلامية على كامل أرض فلسطين. غير أنهم تعاملوا بحذر وواقعية مع الظروف والأحوال السياسية التي يعيشونها

وفق إمكاناتهم المتاحة. وكان هؤلاء الشباب قد تحمسوا للعمل الجهادي المسلح ضد العدو الصهيوني فأنشئوا تنظيم "أسرة الجهاد"، سنة 1979 وقاموا بعدد من العمليات لكنهم سرعان ما اكتشف أمرهم سنة 1980 وقبض على زعيمهم عبد الله نمر درويش، وعلى القائد العسكري للتنظيم فريد أبو مخ، وعلى باقي أفراده وحكموا بالسجن مدداً مختلفة.

وفي الثمانينيات انتشرت الحركة الإسلامية بشكل واسع في قطاعات المجتمع ونجحت في تقديم خدمات اجتماعية واسعة لفسطينيي 48، وكسب أفرادها سمعة كبيرة، وشاركت الحركة الإسلامية في انتخابات البلدية، وكان أول مجلس سيطروا عليه هو مجلس "كفر برا" سنة 1984، وحققوا نجاحاً واسعاً سنة 1989 ففازوا في بلديات أم الفحم وكفر قاسم وكفر برا وجلجولية وراهط. وكسبت الحركة الإسلامية 42 مقعداً من أصل 146 تم التنافس عليها أي 28.6% من المقاعد[117]. وفي انتخابات 1994 فازت بالبلديات نفسها عدا راهط.كما فازت ببلديات كفر قرع وكابول وكفر كنا، وحصلت على العديد من المقاعد في الناصرة وفراديس والطيبة وعكا واللد وتل السبع و غيرها.

وقدرت بعض الدراسات شعبية الحركة الإسلامية في أوساط فلسطينيي الـ48 بنحو 30%، وتكاد هذه النسبة تصل إلى نحو 40% مع نهاية التسعينيات، وأصبحت القوة الأكثر شعبية وسط فلسطينيي 1948. وظلت الحركة ترفض المشاركة في انتخابات البرلمان "الإسرائيلي" حتى لا تعطي الشرعية للكيان الصهيوني، وإن كانت لم تمانع من قيام الأفراد بانتخاب أشخاص أكثر كفاءة وأهلية لخدمة المناطق العربية. غير أن النقاش الطويل في الموضوع بين كوادر الحركة أفرز خطين متعارضين أحدهما يمثل الأغلبية ويرفض المشاركة في الانتخابات، ويرأسه الشيخ رائد صلاح والشيخ كمال الخطيب، وآخر يرى تحقيق مصلحة من خلال المشاركة ورأسه الشيخ عبد الله نمر درويش. وقد تحالف الشيخ درويش مع الحزب العربي الديمقراطي في انتخابات 1996 وفاز بأربعة مقاعد اثنان منها للحركة الإسلامية، وقد توسع هذا التحالف سنة 1999 واستطاع الفوز بخمسة مقاعد[118].

ويرى الكيان الصهيوني في الحركة الإسلامية خطراً محتملاُ وقنبلة موقوتة قد تنفجر في أي لحظة، وهو يتربص لأية أخطاء في نظره أو هفوات ليقوم بضرب الحركة والتضييق عليها. وتعمل الحركة من جهتها بحذر وضمن الدائرة التي يسمح بها القانون، وتحرص على ألا تعطي أي مبرر للصهاينة للاستعجال بضربها.

وحذرت جهات عديدة من ظاهرة نمو الاتجاه الإسلامي، وقالت صحيفة هآرتس في 13 يوليو/تموز 1979 إن هذه الظاهرة أصبحت مصدر قلق أكيد لكل يهودي، وأن السلطات الرسمية تنظر إليها بريبة وخوف. وعلق رئيس الوزراء إسحاق شامير على نتائج الانتخابات البلدية سنة 1989 قائلاً إن نهوض هذه الحركة، يُظهر أن هناك دورة للإرهاب مثيرة للقلق. وعلق بعض الخبراء والمعلقين مثل رفائيل إسرائيلي قائلاً:" إنهم يستغلون النظام والديمقراطية لمنفعتهم الخاصة، وهدفهم هو اجتياح المجتمع من الداخل، ثم في مرحلة ثانية أسلمة

مجمل فلسطين والشرق الأوسط"، كما طالب بعضهم بإلغاء شرعيتها القانونية باعتبارها خارجة عن القانون ودعا للعمل على استئصالها[119].

الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة

(فلسطين المحتلة 1967)

ذكرنا أن ما تبقى من فلسطين تحت السيطرة العربية إثر حرب 1948 كان يساوي نحو 23% من أرضها، وقد انقسمت هذه الأرض إلى جزأين، الأول: يطلق عليه الضفة الغربية ومساحتها 5878 كم2 (21.77% من أرض فلسطين)، والثاني: قطاع غزة ومساحته 363كم2 (1.33%). وقد كان من المفترض أن تقوم دولة فلسطينية في هاتين المنطقتين وفق قرارات الجامعة العربية والأمم المتحدة. لكن الأردن قام بضم الضفة الغربية إليه سنة 1950، بينما قامت مصر بوضع قطاع غزة تحت إدارتها المباشرة دون أن تضمه رسمياً. وقد ظل الوضع كذلك إلى أن قامت القوات الصهيونية باحتلال الضفة والقطاع في يونيو/حزيران 1967.

قُدر عدد سكان الضفة الغربية سنة 1948 بحوالي 400 ألف نسمة، وبسبب تهجير الصهاينة للفلسطينيين في حرب 1948 فقد لجأ إلى الضفة نحو 280 ألفاً استقروا في 21 مخيماً للاجئين، كما توزع آخرون على مدن الضفة الغربية وقراها. ومن جهة أخرى فقد كان عدد سكان قطاع غزة حوالي 75 ألفاً، قبيل نكبة 1948، وإثر هذه النكبة أصبح سكان القطاع 200 ألف سنة 1949 وفي سنة 1950 حوالي 288 ألفاً، وقد استقر لاجئو الـ48 في 8 مخيمات في قطاع غزة فضلاً عن مدن القطاع وقراه، وشكلوا نحو 69% من سكانه، غير أن نسبتهم انخفضت بسبب هجرة الكثيرين للخارج، وفي 1967 كانت نسبة اللاجئين في القطاع حوالي 59% من سكانه[120].

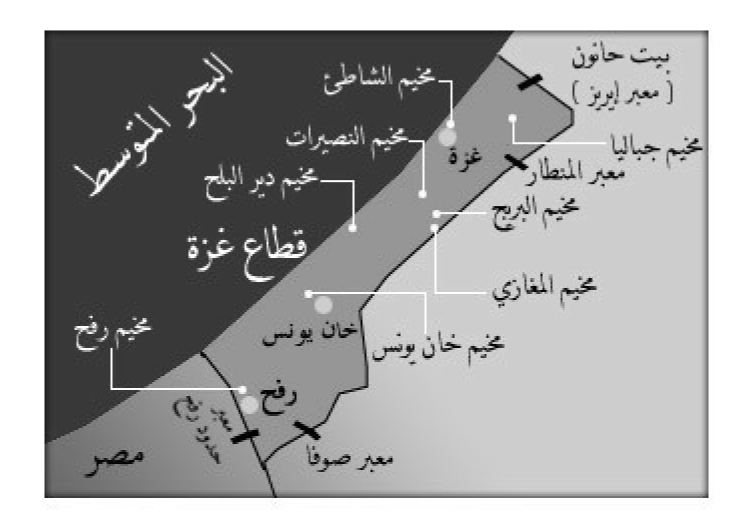
ولم تكن الموارد الاقتصادية في الضفة والقطاع تتحمل هذا العدد المفاجئ من الزيادة السكانية كما لم تكن الأوضاع الاقتصادية للأردن ومصر تمكنهما من توفير بنية تحتية مناسبة تستطيع استيعاب طاقات الناس العاملة وإمكاناتهم. وقد عاش مئات الألوف من اللاجئين أوضاعاً بائسة، ومعاناة لا توصف، وسكنوا الخيام سنوات عديدة وسكن بعضهم الكهوف والمغائر، يجمع العشرة في الخيمة الواحدة حرارة الصيف وزمهرير الشتاء، فأمطاره وأوحاله وآلام التشرد وفقدان أسباب العمل والمعيشة.

ومع ذلك فقد رفض اللاجئون بعزة وإصرار خطط التوطين والاستقرار كافة في أي مكان، وظلت قلوبهم - ولمّا تزال - معلقة بعودتهم الكريمة إلى أرضهم المغتصبة. وعلى الرغم من قسوة الظروف فقد أظهر الفلسطينيون رغبة هائلة في التعلم والارتقاء الأكاديمي، وخلال سنوات كانت نسبة المتعلمين الفلسطينيين قد أصبحت هي الأفضل في الوطن العربي وتضاهي مستويات التعليم في البلدان الأوروبية.

وتحت ضغط هذه الأوضاع وحاجة بلدان الخليج للكوادر المتعلمة والأيدي العاملة مع ظهور النفط، والانتعاش الاقتصادي فيها، فقد انتقل الكثير من الفلسطينيين إلى هناك ليحسنوا من أوضاعهم ويسهموا في نمو تلك البلدان، دون أن ينسيهم ذلك العمل من أجل قضيتهم حيثما حطت رحالهم، ولذلك فإن أعداد السكان في الضفة وغزة في الخمسينيات والستينيات لا تعكس النمو الطبيعي للفلسطينيين بسبب هجرة عشرات الآلاف إلى شرق الأردن وبلدان الخليج.

وفي سنة 1966 (قبيل حرب 1967)، كان عدد الفلسطينيين في الضفة 830 ألفاً، وفي القطاع 455 ألفاً، وإثر الاحتلال الصهيوني للضفة والقطاع (يونيو/حزيران 1967)، كان عدد الفلسطينيين (حسب التعداد الذي أجراه الصهاينة) 665 ألفاً في الضفة (بينهم 66 ألفاً من سكان القدس الشرقية)، و354 ألفاً في القطاع. وهذا يعني أنه إذا ما روعيت الزيادة الطبيعية للسكان خلال عام (حوالي 40ألفاً)، فإن عدد الفلسطينيين الذين شردوا أو نزحوا عن الضفة والقطاع نتيجة حرب 1967 يبلغ أكثر من 300 ألف. وقد حرم هؤلاء من العودة إلى فلسطين، وانضموا مع إخوانهم الذين كانوا يعملون في الخليج أو الأردن وغيرها إلى أعداد اللاجئين الموجودين خارج فلسطين[121]، وتظهر الخريطتان التاليتان مخيمات اللاجئين في الضفة والقطاع.





وتحت الاحتلال الصهيوني عمدت السلطات إلى تنفيذ خطط ترمي إلى تفريغ الضفة والقطاع من السكان بشكل مبرمج ومتدرج من خلال وضع الناس تحت ظروف أمنية واقتصادية وحياتية لا تحتمل، وقد تبنت السياسات التالية لتحقيق أهدافها:

1. الإرهاب وبث روح الخوف و الفزع وسط السكان من خلال الحواجز العسكرية والمداهمات الليلية، والإعتقالات والتعذيب.

2. تضييق الخناق اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ونفسياً.

3. تعمد إذلال الناس وإهانتهم وتحقيرهم ونشر روح اليأس بينهم، واشتهر أن يطلب الجندي الصهيوني من الشخص من العامة في الشارع ربط حذاء الجندي أو تقليد صوت الحيوانات كالكلاب أو حتى أن يُقبِّل أحياناً دبر الحمار.. إلخ.

4. نشر الفساد والمخدرات بين الناس، وخصوصاً الشباب، وتيسير سبل الزنا والفجور والخلاعة.

5. مصادرة الأراضي الصالحة للزراعة، وحرمان الفلسطينيين من حقهم في الماء لري مزروعاتهم، وإغراق السوق بمنتجات زراعية وصناعية إسرائيلية رخيصة لضرب الاقتصاد الفلسطيني المحلي، لمنع الفلسطينيين من الإنتاج والاعتماد على النفس، وتحويلهم إلى شعب يعتمد على العمل الثانوي الهامشي الذي يوفره الصهاينة، بحيث تصبح حياة العامل الفلسطيني "تحت رحمة" القرار الصهيوني، ويكون أداة رخيصة لإنجاح المشروعات والمؤسسات الصهيونية.

6. بناء المستوطنات اليهودية، وإحضار عشرات الآلاف من المستوطنين وتسليحهم، وتقطيع أوصال الضفة والقطاع وتمزيقها.

7. تبني سياسة التجهيل بمحاربة الجامعات الفلسطينية وإغلاقها، وتقليص فرص عمل الخريجين لتصبح الدراسة غير ذات جدوى عملية.

ولتنفيذ هذه السياسات أصدر الصهاينة الأمر العسكري رقم 2 في 7 يونيو 1967 والذي ركّز جميع السلطات بيد الحاكم العسكري. وجاء في مادة 3 أ منه "تناط كل سلطات الحكم والتشريع والتعيين والإدارة المتعلقة بالمنطقة أو سكانها، من الآن فصاعداً، بي وحدي شخصياً، أو بكل من أُعيِّنه لهذا الغرض، أو من يعمل بالنيابة عني". ولم يأبه الصهاينة بالقوانين الدولية التي تمنع إحداث تغييرات في المناطق المحتلة، ومضوا حثيثاً في سياسة التهويد[122]. وقد كتب مايكل آدامز مراسل صحيفة الجارديان البريطانية عن فلسطينيي الضفة والقطاع بأنهم "لم يتمتعوا منذ عام 1967 بأية حقوق، ولا بأية مؤسسات نيابية، ولا توجد سلطة يمكنهم الشكوى إليها، ولا توجد جهة تحميهم. وكل حركة وفعل لهم يخضع للسلطة التعسفية للحاكم العسكري الإسرائيلي. ومن الممكن احتجازهم وحبسهم وترحيلهم دون تدخُّلٍ من جانب أية محكمة، ويجوز تدمير بيوتهم وممتلكاتهم ومصادرة أراضيهم وحرق محاصيلهم الزراعية واقتلاع أشجارهم"[123].

إن هذه السياسات لم تنجح بشكل عام في إثناء الشعب عن المطالبة بحقه أو الثبات على أرضه، بل العكس فإن عشرين عاماً من المعاناة فد فجرت الانتفاضة الكبرى في الضفة والقطاع في ديسمبر/كانون أول 1987، لتبرز أحد أنبل ظواهر الصمود والمقاومة في التاريخ الحديث. ومع ذلك فقد حقق الصهاينة بعض النجاحات الجزئية، فقد خرج من الضفة والقطاع - طلباً للعلم أو الرزق أو الحياة الكريمة - نحو 220 ألف شخص خلال الفترة 1967 ـ 1985 معظمهم من الشباب. كما يضطر نحو 20 ألف شاب للمغادرة سنوياً للبحث عن عمل[124]. وتمكن الصهاينة من تجنيد مئات العملاء ممن أفسدوهم بالفجور والمخدرات، وظهرت أشكال من التسيب والفساد، خصوصاً في النصف الأول من السبعينيات، لكن ظهور الصحوة الإسلامية وانتشارها مكن من الوقوف في وجه هذه الظاهرة وحصرها، ثم ضربها خلال الانتفاضة.

وتشير الإحصاءات التي قامت بها دائرة الإحصاءات المركزية في السلطة الوطنية الفلسطينية إلى أن النتائج الأولية في 1997 لعدد السكان في الضفة الغربية (بما فيها القدس)، هو مليون و 870 ألفاً. وفي قطاع غزة مليون و 21 ألفاً. وحسب معدلات النمو الطبيعية فإن عدد سكان الضفة والقطاع سنة 2001 هو ثلاثة ملايين و371 ألف نسمة. وبسبب المعدل العالي للتزايد السكاني فإن المجتمع الفلسطيني في الضفة والقطاع يعد مجتمعاً فتياً، إذ أن نسبة الأطفال (دون 15 سنة)، 50% من مجموع السكان، وهذا على الرغم من أنه يفشل مشاريع التهجير والتفريغ الصهيونية، ويفسد عليها تقريباً تهويد الأرض المقدسة، إلا أنه يلقي أعباء اقتصادية كبيرة على كاهل معيلي الأسر الذين يعانون أصلاً من مصاعب جمة[125].

ويقدم الجدول التالي إحصائية تقريبية لأعداد السكان في الضفة والقطاع بناء على آخر إحصاء للسلطة الفلسطينية سنة 1997، مع إضافة نسبة النمو الطبيعي للسكان الفلسطينيين وهي بحدود 3.4% سنوياً، مع توقعات الأعداد حتى سنة 2005:[126]

السنة	2000	2001	2002	2003	2005
الضفة الغربية	2.138.210	2.203.672	2.278.596	2.356.606	2.519.004
قطاع غزة	1.128.723	1.167.099	1.206.781	1.247.811	1.334.105
المجموع	3.266.933	3.370.771	3.485.377	3.604.417	3.853.109

كان من أوائل الإجراءات الصهيونية أن ضمت القدس الشرقية إلى كيانها، فأصبح أهل القدس رسمياً جزءاً من الكيان الصهيوني، كما تم توسيع منطقة القدس الجغرافية لتشمل نحو 20% من أرض الضفة الغربية. وقد تابعت السلطات الصهيونية وفق خطة استراتيجية مبرمجة الاستيلاء على أراضي الضفة والقطاع، بحيث تمكنت مع نهاية 1999 من السيطرة على نحو 62.7% من أراضي الضفة، و 43% من أراضي القطاع، وبَنَتْ في الضفة أكثر من 160 مستوطنة يسكنها نحو 200 ألف مستوطن يهودي، كما أنشأت في غزة 16 مستوطنة يسكنها نحو خمسة آلاف مستوطن. وقد هدفت هذه السياسات إلى التهويد التدريجي للأرض والسكان، والاستيلاء على كل المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية والأمنية لإحكام السيطرة العسكرية على الضفة والقطاع، وتطويق المدن والقرى الفلسطينية بأحزمة من المستوطنات، بحيث تتحول إلى جزر معزولة تفقد وحدتها وهويتها المشتركة، فضلاً عن تثبيت حقائق جديدة على الأرض يستحيل تغييرها في أي تسوية سياسية قادمة. وهكذا، ففي الوقت الذي كانت أعداد السكان في الضفة والقطاع تنمو وتتضاعف، وتتزايد حاجاتهم، كانت السلطات الصهيونية تنـزع منهم أراضيهم وأملاكهم لتضاعف معاناتهم وآلامهم.

ومن جهة أخرى، فقد سيطر الحاكم العسكري الصهيوني على جميع مصادر المياه في الضفة الغربية، ومنع حفر آبار جديدة، أو تعميق الآبار القديمة، وحدد سقفاً أعلى لحصص المياه للفلسطينيين، ففي عام 1990 مثلاً (وهو نموذج لغيره من السنوات)، خُصّص للفلسطينيين 17% فقط من المياه الجوفية في أرضهم في الضفة الغربية، بينما خصص 83% للاستخدام داخل الكيان الصهيوني أو في المستوطنات اليهودية في الضفة. ويمنع الفلسطينيون من أن تزيد أرضهم المروية بالماء عن 6% من أرضهم الزراعية، بينما يتمكن المستوطنون من ري 69% من الأراضي التي استولوا عليها. وبينما يخصص لكل فلسطيني نحو 127 متراً مكعباً في السنة، فإنه يخصص للمستوطن 1600 متراً مكعباً، أي أكثر من 12 ضعفاً.[127] وعلى الرغم من اتفاقات التسوية السلمية (أوسلو 1993)، ووجود السلطة الفلسطينية في عديد من مناطق الضفة والقطاع، إلا أن الصهاينة احتفظوا "بحقهم" في منع حفر أية آبار دون إذنهم، واعترف وزير الري الفلسطيني نبيل الشريف بأنه جلس ثلاث سنوات مع المفاوض الإسرائيلي لحفر بئر واحدة قرب جنين، ولم يستطع الحصول على تصريح منه بذلك!![128].

وهكذا أصبح من المستحيل على الفلسطينيين استثمار أراضيهم الزراعية تطويرها بشكل واسع، وفي الوقت نفسه أغرقت السلطات الصهيونية الأراضي الفلسطينية بمنتجات زراعية رخيصة، ومنعت الفلسطينيين من تصدير منتجاتهم، وفرضت على زراعتهم ضرائب باهظة، وبذلك أصبحت تكاليف الإنتاج الزراعي الفلسطيني عالية وغير مجدية اقتصادياً، وفتحت المؤسسات الصهيونية وخصوصاً قطاعات البناء المجال للعمال الفلسطينيين، فاضطر عشرات الآلاف إلى ترك الزراعة والعمل كأيد عاملة رخيصة في الاقتصاد الصهيوني.

ويعمل ما معدله 100 ـ 120 ألف عامل فلسطيني في الأرض المحتلة 1948 فيما يسمى "إسرائيل"، ويتقاضون رواتب تساوي ثلث إلى خمس ما يتقاضاه العامل اليهودي، إذا ما احتسبت المزايا التي يحصل عليها اليهودي. وكثيراً ما يغري السماسرة اليهود النساء والصغار بترك بيوتهم ومدارسهم للحصول على عمالة أرخص، مما يكون له آثار اجتماعية سلبية كبيرة. ويعمل معظم هؤلاء بالمياومة (راتب يومي)، ويمكن أن يطردوا من العمل في أي لحظة، وليس لهم أية ضمانات اجتماعية أو صحية، ويفقد هؤلاء وظائفهم إذا ما أغلقت الأراضي المحتلة عام 48، بذرائع أمنية أو بسبب العمليات الفدائية أو المناسبات الوطنية.. ، إلى أن تفتح لهم مرة أخرى. وهكذا استحوذ السوق "الإسرائيلي" على نحو 39% من الأيدي العاملة في الضفة والقطاع، وهذا جعل حياة الآلاف وخلفهم مئات الآلاف ممن يعيلونهم من زوجات وأبناء رهينة لدى الصهاينة.[129] وعلى الرغم من أن هذه النسبة قلّت في أثناء الانتفاضة 1987 ـ 1993 إلى نحو 12.3%، إلا أنها عادت للزيادة مرة أخرى بعد اتفاقات أوسلو (1993). ومن جهة أخرى يعاني أبناء الضفة الغربية والقطاع من نسب بطالة عالية كان معدلها في معظم سنوات الاحتلال يزيد عن 20%، وفي سنة 1997 كانت نسبة البطالة 21.5% منها 18.2% في الضفة، و 31.6% في قطاع غزة، وحتى نهاية 1998 كان لا يزال يوجد 20% من الأسر في الضفة والقطاع تعيش تحت خط الفقر[130].

وظل الاحتلال الصهيوني يتحكم بالاقتصاد الفلسطيني حتى جعله هامشياً وتابعاً لاقتصاده، ولم تنفع اتفاقات التسوية السلمية كثيراً في فك هذا الحصار إذ لا تزال 90% من التجارة الخارجية تحت رغبات وشروط وقيود الصهاينة فضلاً عن أكثر من 80% من مصادر المياه، فهم يتحكمون بما يدخل للموانئ والمطارات والحدود وما يخرج منها.

منذ الاحتلال الصهيوني وضعت المؤسسات التعليمية تحت إدارة الحاكم العسكري، على الرغم من إبقاء نظام التعليم الأردني (في الضفة الغربية)، والمصري (في قطاع غزة) شكلاً. وصار من سلطات الحاكم العسكري تعيين المدرسين وفصلهم، ووضع المناهج واختيار الكتب المدرسية ووضع برامج جديدة أو إلغاء برامج قائمة وبناء مدارس جديدة. وتعرض قطاع إلى إهمال متعمد فلم يوظف أمين مكتبة ولا فني مختبر بدوام كامل منذ 1967، وألغيت مقررات التربية البدنية والفنون والتدبير المنـزلي في كثير من المدارس، وانخفض عدد المدارس الحكومية من 884 مدرسة 1967 إلى 790 مدرسة عام 1979، رغم التزايد الكبير في السكان. ووضعت قائمة كبيرة بالكتب

الممنوعة وصل عددها سنة 1986 إلى 1600 كتاب ، خصوصاً ما يشير إلى تاريخ فلسطين أو الثقافة الفلسطينية، كما منع تدريس عدد من كتب المناهج المقررة في المدارس، فمثلاً منع استخدام تسعة كتب من 27 كتاباً في المرحلة الابتدائية وثمانية كتب من أصل عشرين للمرحلة الإعدادية في مدارس الأونروا. وأعطي الأمر العسكري رقم 854 الصادر في 6 يوليو/تموز 1980 للضابط الصهيوني حق التدخل في الجامعات ومؤسسات التعليم العالي، سواء في مناهجها أو إدارة جهازها التعليمي، فأصبحت من ناحية الإشراف والمراقبة العسكرية لا فرق بينها وبين المدارس الابتدائية[131].

ومن الملاحظ أن كل الإجراءات الصهيونية لم تثن أبناء فلسطين عن شغفهم بالدراسة والتعليم وقد أدى إلى إصرارهم على التعلم وما رافقه من نضال سياسي وجهادي وإضرابات ومظاهرات إلى استمرار العملية التعليمية، بل ونموها رغماً عن الاحتلال. فبلغ عدد المدارس الحكومية 1175 والأونروا 265 والخاصة171 للعام الدراسي 97/1998، فضلاً عن 789 روضة أطفال. كما تمكن الفلسطينيون في الضفة والقطاع من إنشاء ثمانية جامعات (6 في الضفة و2 في القطاع)، يدرس فيها في العام الدراسي 92/1993 نحو 20500 طالب، وقد عانت هذه الجامعات من أوامر الإغلاق، فاغلقت جامعة بير زيت مثلاً خمسة أشهر سنة 1982، وأغلقت جامعة النجاح أربعة أشهر سنة 1983، وأربعة أشهر أخرى سنة 1984، وشهرين سنة 1985، وتزايدت الإغلاقات في فترة الانتفاضة بشكل كبير. كما استمر التضييق على الطلاب والأساتذة واعتقالهم والمراقبة الصارمة على الميزانية ومصادر التمويل، وعدم السماح للكفاءات الأكاديمية في الخارج بالتدريس فيها إلا وفق قيود تجعل الأمر شبه مستحيل، وفي سنة 1985 رفضت السلطات الصهيونية السماح باستمرار 39 أستاذاً جامعياً فلسطينياً في الجامعة الإسلامية بغزة، بحجة أنهم من فلسطيني الخارج، مما أدى إلى طردهم وإبعادهم، ومن بينهم مدير الجامعة بالإنابة د. محمد صيام. فضلاً عن هذه الجامعات كان هناك 16 كلية جامعية متوسطة (كليات مجتمع)، بينها 14 في الضفة الغربية، واثنتان في القطاع[132].

كما تعرضت قطاعات الصحة للإهمال تحت الاحتلال الصهيوني، فرغم تضاعف عدد السكان، انخفضت المستشفيات الحكومية من14 مستشفى سنة 1967 إلى 10 مستشفيات سنة 1993، وبلغت الميزانية المقررة للخدمات الصحية أقل من 2% من ميزانية الخدمات الصحية في الكيان الصهيوني، وكان على هذه الميزانية أن تتضاعف 15 مرة حتى تصل بالخدمات الصحية إلى أدنى مستوى مقبول. وقد كانت ميزانية القطاع الصحي سنة 1990 في الضفة الغربية 10 ملايين دولار، وهو يوازي 15% من ميزانية أحد مستشفيات تل أبيب[133].

وقد تعمدت سلطات الحكم العسكري الصهيوني عدم إحداث أي تطور في المعدات والأجهزة الطبية أو التدريب وإدخال الكفاءات، ووصفت مصادر منظمة الصحة العالمية التجهيزات الموجودة بأنها لا تصلح للتشخيص الحديث، ولا يمكن أن يقال فيها أكثر من أنها أثرية[134].

وقد حدث بعض التحسن في الخدمات الصحية إثر تولي السلطة الفلسطينية الحكم الذاتي في عدد من مناطق الضفة والقطاع.

الشعب الفلسطيني في الخارج

هناك لبس أو سوء فهم يقع فيه بعض من يكتب عن الفلسطينيين في الخارج، فبعض الباحثين يظن أنهم اللاجئون الفلسطينيون نتيجة حرب 1948 وهذا خطأ، فكثير من لاجئي الـ48 لا يزالون يعيشون داخل فلسطين في الضفة الغربية وقطاع غزة. وبعضهم الآخر يضيف إلى لاجئي الـ48 أولئك الذين تشردوا نتيجة حرب الـ67 من الضفة الغربية وغزة (أطلق عليهم لقب نازحين)، وهذا أيضاً لا يكفي لتحقيق الدقة المطلوبة وذلك لأن أعداداً كبيرة من الفلسطينيين خرجت من الضفة الغربية وقطاع غزة لأسباب مختلفة خلال الفترة 1948 ـ 1967، وخصوصاً من انتقل منهم للضفة الشرقية من الأردن أو ذهب إلى بلدان الخليج العربي والمهجر طلباً للرزق، وهؤلاء محرومون أيضاً من حق العودة إلى الأرض المحتلة، وهناك أيضاً أعداد كبيرة من الشباب خرجت للدراسة أو للعمل من الضفة والقطاع منذ 1967 وحتى الآن، وحرمتهم السلطات الصهيونية من حق العودة بحجج مختلفة، مثل انتهاء تصريح الخروج وغيره، فضلاً عمن أبعدوا قسراً عن فلسطين بسبب مقاومتهم للاحتلال.

وعلى هذا فإن قدراً كبيراً من اللاجئين الفلسطينيين هم مشردون ولكن لا يزالون في الحدود الجغرافية لفلسطين، وهناك قدر كبير آخر من الفلسطينيين خارج فلسطين ليس بالضرورة من اللاجئين بسبب حرب 1948، وحديثنا هنا ينصب على الفلسطينيين الذين يعيشون خارج فلسطين سواء من لاجئي 48 أو مشردي 67 أو لأية أسباب أخرى.

وتواجهنا بعد ذلك مشكلتان فنيتان في التعرف على أعداد فلسطينيي الخارج وأوضاعهم، أولاهما أن بعضاً يظن أن أعدادهم هي تلك المسجلة لدى وكالة إغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا)، وهذا خطأ لأن هناك مئات الألوف لم يسجلوا أسماءهم لأنهم لم يسكنوا مخيمات اللاجئين ابتداء، أو لأنهم لم يحتاجوا إلى خدماتها، أو لأنهم سكنوا في مناطق لا تقدم فيها الوكالة خدماتها مثل مناطق الخليج العربي وأوروبا وأمريكا. وثاني هذه المشكلات هي حالة التشتت التي يعانيها أبناء فلسطين في كل بقاع العالم، وموقف كل نظام من الأنظمة السياسية التي يعيشون تحت ظلها من قضيتهم، وقدرتهم على التعبير عن أنفسهم في مؤسسات سياسية واجتماعية واقتصادية، بحيث أن معرفة أحوالهم وأعدادهم تعتمد إلى حد كبير على الرؤية السياسية للنظام ومصالحه. ولا أود أن أشغل القارئ الكريم بدراسات رقمية وإحصائية كثيرة، ومتضاربة قدمها باحثون ومؤسسات مختلفة، فهذا ليس منهجنا في هذا البحث، ولكننا نختار إحدى الإحصاءات الأقرب إلى الموضوعية والتي قدمها أحد الباحثين إلى مؤتمر علمي في بوسطن في الولايات المتحدة حول عدد الفلسطينيين سنة 1998[135]، ونستطيع أن نستخلص منها ما يلي:

عدد الفلسطينيين	المنطقة
2.328.803	الأردن
430.188	لبنان
456.662	سوريا
48.784	مصر
274.762	السعودية
37.696	الكويت
105.578	بلدان الخليج العربي الأخرى
74.284	العرق وليبيا
5.544	بلدان عربية أخرى
203.588	أمريكا الشمالية والجنوبية
259.248	بقية أنحاء العالم
4.225.642	مجموع الفلسطينيين في الخارج

وبتطبيق نسبة الزيادة الطبيعية للفلسطينيين (3.4%) يصبح عدد فلسطينيي الخارج أربعة ملايين و 671 ألفاً و 487 شخصاً في سنة 2001، ويصبح أربعة ملايين و 830 ألفاً و 308 شخصاً سنة 2002.

العدد	السنة
4.671.487	2001
4.830.308	2002

أما عدد الفلسطينيين داخل فلسطين فقد قدرهم الباحث نفسه للعام نفسه (1998)، بنحو (3.914.549)، ومن بين هؤلاء الذين يعيشون داخل فلسطين هناك (1.529.089)، هم لاجئون ومشردون من مساكنهم وأرضهم لكن لا يزالون يعيشون داخل الإطار الجغرافي لفلسطين[136].

وهكذا فإن تقدير عدد الفلسطينيين لسنة 1998 (حسب تقدير هذا الباحث) هو ثمانية ملايين و 139 ألفاً و 191 شخصاً، ونسبة الفلسطينيين المقيمين خارج فلسطين إلى العدد الكلي للفلسطينيين

هي 51.9%، أما نسبة اللاجئين والمشردين الفلسطينيين ممن حرموا حق العودة إلى أرضهم وقراهم الأصلية (سواء أقاموا داخل فلسطين أو خارجها) هي 70.69% (أي خمسة ملايين و753 ألفاً و 731 شخصاً). ووفق تقديرات سنة 2002 ـ في ضوء الزيادة الطبيعية للفلسطينيين ـ يصبح المجموع الكلي للاجئين ستة ملايين و577 ألفاً و58 شخصاً.

ولابد من الإشارة إلى أن هناك نسبة ضئيلة من أبناء الضفة الغربية وقطاع غزة يقيمون في الخارج بقصد الدراسة والعمل ولديهم في الوقت نفسه هوية "مواطنة" تمكنهم من العودة والإقامة في الضفة أو القطاع، غير أن هذه النسبة لا تؤثر بشكل جدي على التقديرات المشار إليها أعلاه وربما لا تتجاوز 2 ـ 3 % من عدد الفلسطينيين.

وما يهمنا هنا هو إدراك حجم المأساة التي يعيشها الفلسطينيون عندما نعلم أن أكثر من ثلثيهم أجبروا على ترك مدنهم وقراهم الأصلية، وأن أكثر من نصفهم لا يعيشون ضمن الحدود الجغرافية لفلسطين. وما يزيد حجم المأساة وآلامها أن قضية اللاجئين الفلسطينيين هي أقدم قضايا اللاجئين في التاريخ الحديث والتي واجهها المجتمع الدولي دون اكتراث حقيقي. لقد اتخذت قرارات دولية بشأن لاجئي الحرب الأهلية مثلاً في تيمور الشرقية وغيرها، وجرى إلزام الأطراف المعنية بتنفيذها خلال سنة أو بضع سنوات. أما بشأن الفلسطينيين فقد مضى على تهجيرهم نحو (54) عاماً، وقد اتخذت الأمم المتحدة قرار (194) الذي يطالب الكيان الصهيوني "إسرائيل" بإعادة اللاجئين، وتم تأكيد هذا القرار منذ سنة 1949 أكثر من (110) مرات في الدورات المتعاقبة للأمم المتحدة وبشبه إجماع من المجتمع الدولي، وظلت الولايات المتحدة نفسها توافق على هذا القرار حتى سنة 1993 (عندما حول الأمر إلى اتفاق أوسلو). ومع ذلك فإن الكيان الصهيوني رفض الانصياع لهذا القرار، لأن الولايات المتحدة والقوى الكبرى لم تكن لديها الجدية الكافية لإجبار الكيان الإسرائيلي على تنفيذه.

لقد عانى الفلسطينيون من أوضاع مأساوية نتيجة تشردهم عن أرضهم، فقد تمزق كيانهم الاجتماعي السياسي، وفقدوا مصادر رزقهم من أراضٍ كان يزرعونها، أو أعمال يقومون بها، أو بيوت يسكنونها، أو ثروات منقولة يملكونها. ووجدوا أنفسهم فجأة في مخيمات للاجئين، يسكنون الخيام أو الكهوف والمغائر لا يجدون ما يسدون به أدنى متطلبات حياتهم اليومية سواء كان ذلك طعاماً أو علاجاً أو تعليماً أو عملاً كريماً، ودون خدمات مياه. ولا تزال مخيمات اللاجئين في لبنان وسوريا والأردن بل وفي الضفة والقطاع وأوضاعها المأساوية التي مضى عليها أكثر من خمسين عاماً شاهداً حياً على مدى الظلم التي تعرض له أبناء هذا الشعب ومدى تجاهل المجتمع الدولي لقضيتهم.

وقد أنشأت الأمم المتحدة وكالة لغوث اللاجئين الفلسطينيين "أونروا" سنة 1950 لتقديم المساعدات الإنسانية للاجئين، وقامت هذه الوكالة ـ ولا تزال ـ بتوفير جانب حاجات اللاجئين من تموين بالمواد الرئيسية للطعام ومن مدراس للتعليم وبعض الخدمات الصحية.. ويبلغ عدد

الفلسطينيين المسجلين رسمياً لديها سنة (1999) نحو ثلاثة ملايين و 600 ألف لاجئ[137]. ورغم أن اللاجئين يستفيدون من خدماتها إلا أنهم يتعاملون بحذر ورفض عنيف لأية محاولات تستهدف توطينهم في أماكن لجوئهم الحالي، ولا يرضون عن العودة إلى أرضهم في فلسطين بديلاً.

وتعاني وكالة الأونروا من مشاكل مزمنة في التمويل ومن عجز متواصل في ميزانيتها مما أدى إلى تناقص كبير في خدماتها، ومن أمثلة ذلك أنه منذ عام (1993) وحتى نهاية عام (1999) تقلصت خدمات الأونروا إلى المخيمات بنسبة (30 ـ 35%) حسبما ذكر وزير شؤون اللاجئين الفلسطينيين في السلطة الفلسطينية أسعد عبد الرحمن[138].

ولأن الفلسطينيين شعب يتميز بالنشاط والقدرة على المبادرة، فقد أخذ اللاجئون يتكيفون مع ظروف حياتهم الصعبة، فأصبحت المخيمات مراكز عمل وطني وتعبئة سياسية ومعنوية، وكان أبناؤها روحاً أساسية في حركات المقاومة والتحرير، واهتم الفلسطينيون بالتعليم ودرس الكثيرون ليلاً في ضوء القمر أو على فتائل الكاز.. وبعد سنوات من المصابرة والكفاح أصبحت نسبة المتعلمين الفلسطينيين أفضل النسب في العالم العربي بل ومن أفضل النسب في العالم أجمع. وبدأ اللاجئون يستبدلون بالخيام أبنية من الطين أو الطوب في نفس مواقعهم، غير أن السلطات ـ خصوصاً في لبنان ـ تمنعهم رسمياً من سقف بيوتهم المتواضعة بالإسمنت، ويكتفون لذلك بألواح الزينكو. وتفتقد المخيمات إلى الآن إلى أدنى مواصفات التنظيم البلدي وخدمات توصيل شبكات المياه والصرف الصحي. ومن الطبيعي ـ في ظروف تمنع فيه السلطات المخيمات من التوسع والامتداد ـ أن يضطر الكثيرون للبحث عن العمل أو السكن خارج المخيمات أو الهجرة إلى بلدان الخليج العربي وأوروبا وأمريكا حيث تتوفر فرص العمل. وعلى ذلك فإن إحصاءات اللاجئين في المخيمات لا تعكس بالضرورة الأعداد الحقيقية للاجئين. فنسبة المقيمين داخل المخيمات في الأردن وسوريا ولبنان لا تتجاوز بعد خمسين عاماً من اللجوء (سنة 1999) الـ 25% حسب إحصاءات الأونروا نفسها، بينما تسكن معظم الأعداد الأخرى في مدن وقرى هذه البلاد[139].

الفلسطينيون في دول الطوق

كما لاحظنا في الجدول السابق فإن أغلب فلسطينيي الخارج يقيمون في بلدان لها حدودها المباشرة بفلسطين، وخصوصاً الأردن وسوريا ولبنان، حيث يتشابه الفلسطينيون مع سكان هذه البلاد بشكل عام في خصائصهم السكانية والاجتماعية باعتبار أن الجميع ينتمون إلى ما يعرف جغرافياً وتاريخياً بلاد الشام. وأن الحدود الحالية بينهم جاءت نتيجة المؤامرات الاستعمارية الدولية وخصوصاً اتفاقية سايكس بيكو 1916 بين بريطانيا وفرنسا. ويقيم في هذه البلدان الثلاثة نحو ثلاثة ملايين و 215 ألفاً و158 شخصاً أي نحو 76.1% من الفلسطينيين خارج فلسطين حسب إحصاءات 1998. وهذه النسبة العالية تعكس رغبة الفلسطينيين الكبرى في البقاء بجوار أرضهم التي حرموا بالقوة من العودة إليها، والسعي للعودة متى سنحت الظروف.

وفي الأردن نجد أن الفلسطينيين قد منحوا رسمياً الجنسية الأردنية وكافة حقوق المواطنة، من إقامة وعمل وشراء أراضٍ وبناء، وانتخاب وترشيح للبرلمان ومشاركة في الحكم وكان ذلك إثر تَوحيد الضفة الغربية مع الضفة الشرقية للأردن في دولة واحدة سنة 1950، تحت حكم الملك عبد الله بن الحسين. وتسلَّم عدد من الفلسطينيين رئاسة الوزراء من أمثال سمير الرفاعي، وسليمان النابلسي، وطاهر المصري. غير أن علاقة النظام الحاكم مع الفلسطينيين أو من يمثلهم تعرضت إلى بعض المنعطفات كان من أبرزها إشكالية التمثيل الرسمي للفلسطينيين خصوصاً منذ إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية سنة 1964، التي أصبحت رسمياً الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني حسب قرارات القمة العربية في الرباط سنة 1974، مما جعل هناك نوعاً من ازدواجية التمثيل. وكان من الأحداث الجسام احتلال الكيان الصهيوني للضفة الغربية في يونيو 1967، وخسارة الأردن من الناحية الفعلية سيادته وسيطرته عليها. وظل الأردن يَعُدُّ الضفة الغربية جزءاً من كيانه الجغرافي إلى أن أصدر الملك حسين بن طلال في صيف 1988 قراره بفك العلاقة مع الضفة الغربية، ليخلي الساحة لمنظمة التحرير لمحاولة تمثيلها، وكانت لا تزال عملياً تحت الاحتلال الصهيوني.

وقد أوجدت أحداث سبتمبر/أيلول 1970 شرخاً كبيراً بين الحكم الأردني وفصائل منظمة التحرير الفلسطينية، إذ إن المعارك الكبيرة التي اندلعت بين الطرفين أدت لقيام الجيش الأردني بسحق حركات المقاومة الفلسطينية وخسارتها لنفوذها في الأردن. وقد انعكس ذلك سلباً بشكل أو بآخر على طريقة تعامل النظام مع الفلسطينيين بشكل عام، حيث تقلص أثرهم في مؤسسات الحكم والدولة، رغم أن حقوقهم الدستورية بقيت كما هي من الناحية الرسمية. ويتحدث بعض المحللين أن تحسناً إيجابياً أخذ يظهر مؤخراً كان أحد معالمه تشكيل حكومة أبو الراغب في يونيو 2000، والتي شارك فيها عشر وزراء من أصول فلسطينية أي ثلث أعضاء الحكومة. ولا توجد إحصاءات دقيقة في الأردن عن الفلسطينيين من حملة الجنسية الأردنية غير أن التقديرات تحوم حول معدل 60% من مجموع الشعب الأردني، وهو ما تؤيده مصادر أوروبية وأمريكية. غير أن طريقة توزيع الدوائر الانتخابية لا تسمح لهم مطلقاً بتشكيل أغلبية برلمانية، وفي انتخابات سنة 1997 كان عدد الفلسطينيين 13 نائباً من أصل 80 نائباً أي نحو 16.25%. وقد انتقدت مصادر أوروبية وأمريكية هذا الأمر، ودعت إلى انتخابات تعبر بشكل أفضل عن حقيقة التركيبة السكانية. ولكننا لا يمكن أن نسلم بحسن نوايا هذه المصادر، لأنها تريد أن يكون ذلك جزءاً من خطة التوطين، والوطن البديل للاجئين في الأردن، مع أننا في الوقت نفسه نؤمن أن الفلسطينيين والأردنيين شعب واحد وجسد واحد، وأن تحقيق العدالة للجميع حق طبيعي، ولا يعني التنازل عن الحقوق الأخرى.

وفي الأردن عشرة مخيمات للاجئين هي:

1 ـ الحسين	2 ـ البقعة	3 ـ الوحدات
4 ـ الطالبية	5 ـ الزرقاء	6 ـ ماركة (حطين)
7 ـ إربد	8 ـ الحصن (عزمي المفتي)	9 ـ جرش
10 ـ سوف		



وأكبر هذه المخيمات هو مخيم البقعة يليه مخيم الوحدات، ولا تزيد نسبة من يقيمون داخل المخيمات عن 18.2% (أي 247816) من عدد اللاجئين الفلسطينيين في الأردن المسجلين لدى الأونروا سنة 1999 والبالغ عددهم مليوناً واحداً و 612 ألفاً و 742 شخصاً[140]، وتظهر الخريطة التالية مخيمات اللاجئين في الأردن:

وتعد حالة اللاجئين الفلسطينيين في لبنان الأشد صعوبة ومعاناة، إذ أجبر على الخروج من شمال فلسطين إلى لبنان في أثناء حرب 1948 حوالي مائة ألف فلسطيني وأنشئ لهم 15 مخيماً رسمياً. ولم تكن الأحوال السياسية وطبيعة التركيبة السكانية تسمح باستيعاب اللاجئين على الشكل الذي تم في الأردن. فالنظام السياسي في لبنان مبني على أساس نسب وتوازنات طائفية محددة بين المسيحيين وخصوصاً الموارنة، والسنة و الشيعة والدروز. ولم يكن دخول الفلسطينيين، وهم من أهل السنة في التركيبة اللبنانية مُرحباً به، خصوصاً من الطائفة المارونية، التي تتمتع بنفوذ سياسي مميز يخولها رئاسة الدولة وعدداً من المناصب الحساسة. وعلى أي حال، لم يكن الفلسطينيون يرغبون في الاندماج والتوطين، لكنهم كانوا يرغبون في الحياة الكريمة وظروف عمل ومعيشة معقولة تمكنهم من الوقوف على أقدامهم، وتركيز جهودهم لتحرير أرضهم المغتصبة، غير أن السلطات اللبنانية ظلت أمداً طويلاً تتبنى سياسة ترى أن حالة المعاناة والمعيشة المزرية للاجئين تصب في منع سياسة التوطين في الخارج، وفي أن تظل أعين اللاجئين متجهة نحو العودة إلى فلسطين لحل مشاكلهم. ولذلك منح الفلسطينيون وثائق سفر لبنانية تخولهم حق الإقامة، لكنها تمنعهم من أية حقوق سياسية.

كما منعوا من حق التجنس بالجنسية اللبنانية مهما طالت المدة وحتى لمن يولد هناك، وقد قامت الحكومة اللبنانية بإعطاء الجنسية لنحو خمسين ألف لاجئ في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين لكونهم أساساً من المسيحيين، أو لوجود صلة نسب سابقة لهم بعائلات لبنانية، كما وحرم الفلسطينيون من سبعين نوعاً من الوظائف والمهن في لبنان شملت كل الوظائف الحكومية تقريباً فضلاً عن الوظائف الطبية والتمريض والصيدلة والهندسة والمحاماة وغيرها. ووصلت معدلات البطالة بين الفلسطينيين في لبنان إلى ما يزيد 40%، ولا يحق للفلسطينيين التمتع بخدمات الحكومة الصحية

والتأمين الاجتماعي، كما أن نسبة ضئيلة جداً منهم تُقبل في المدارس الحكومية. ويمنع الفلسطينيون من سقف منازلهم المتواضعة بغير ألواح الزينكو كما يمنعون من بناء طابق ثانٍ لبيوتهم، مما أوجد حالة من الاكتظاظ الرهيب في المخيمات مع الزمن، أدت لنـزوح الكثيرين خارجها. وحتى سنة 1971 كانت أغلبية البيوت غير مزودة بشبكة مياه، وحتى سنة 1980 كان لا يزال نصفها دون شبكة التصريف الصحي (مجاري)، وتصل نسبة الفلسطينيين تحت خط الفقر في لبنان إلى 79% وسط العائلات التي يكون عددها 3 أفراد أو أقل، وترتفع إلى 96% ـ 98% في العائلات الأكبر من ذلك[141].

إن مثل هذه السياسات لم تثمر سوى المرارة في نفوس اللاجئين، الذين توقعوا من إخوانهم العرب على الأقل معاملة إنسانية كالتي يعامل بها أي مقيم في أي بلد أجنبي. ولذلك، ازدادت معدلات الهجرة بين اللاجئين إلى أوربا الغربية وأستراليا وأمريكا، مما عرضهم لتحديات التذويب وفقدان الهوية بشكل أكبر، وتظهر الخريطة التالية مخيمات اللاجئين في لبنان.



وبعد حرب 1967 وسقوط الضفة الغربية وقطاع غزة في يد الاحتلال الصهيوني نشطت حركة المقاومة الفلسطينية في أوساط اللاجئين في لبنان، وتمكنت الفصائل الفلسطينية من السيطرة الفعلية على المخيمات، وبدأت عملياتها العسكرية من جنوب لبنان ضد الكيان الصهيوني، واستطاعت فرض نفسها فرضاً على السلطات اللبنانية بعد العديد من الاشتباكات والصدامات المسلحة. ورغم أن "اتفاق القاهرة" في نوفمبر 1969 أعطى الفلسطينيين حق التسلح ومهاجمة الكيان الصهيوني من الحدود اللبنانية، إلا أن حالة التوتر ظلت السمة الرئيسية في العلاقة بين الطرفين. وحاول الكيان الصهيوني تأزيم هذه العلاقة دائماً عبر هجمات الطيران وقصف المنشآت اللبنانية وقتل المدنيين، وعبر الحملات العسكرية المنظمة واحتلال أجزاء من لبنان سنة 1978 لإقامة حزام أمني، وكذلك 1982 لتدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها، وعبر

دعم القوات المعادية للفلسطينيين وخصوصاً حزب الكتائب الماروني، وجيش لبنان الجنوبي العميل للصهاينة بقيادة سعد حداد ثم انطوان لحد. وجاءت الحرب الأهلية اللبنانية (1975 ـ 1990) لتزيد من تأزيم الوضع وتعقيده، فدخل الفلسطينيون في حروب متواصلة منهكة مع أطراف الصراع كافة، حيث كانت تزداد درجة العداء أو تتبدل التحالفات مع جهة أو أخرى حسب تطور الأحداث.

وكان من أمثلة معاناة اللاجئين أن الكيان الإسرائيلي قام بأكثر من ثلاثة آلاف غارة على الفلسطينيين واللبنانيين خلال الفترة (1968 ـ 1974)، وفي سنة 1974 دمَّرت الطائرات الحربية الإسرائيلية مخيم النبطية للاجئين بالكامل، وفي سنة 1976 حاصرت قوات الكتائب وحلفاؤها مخيم تل الزعتر 53 يوماً حتى انتهى الأمر بتدميره وإخلاء سكانه بعد مقتل ثلاثة آلاف شخص معظمهم من المدنيين. وفي الاجتياح الإسرائيلي لجنوب لبنان في مارس 1978 قتل أكثر من ألفي فلسطيني ولبناني معظمهم من المدنيين، أما الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982 فقد أدى لمقتل 19 ألف مدني فلسطيني ولبناني. وخلال ثلاثة أسابيع من هذا الهجوم تم تدمير 70% من مخيم الرشيدية، وتم تدمير مخيم عين الحلوة (أكبر مخيم فلسطيني) بالكامل، وما تبقى من منازل تولت البلدوزرات الصهيونية مسحه عن الأرض. وحاولت القوات الصهيونية منع الفلسطينيين من إعادة بناء منازلهم لقرب مخيماتهم من فلسطين، وسعت إلى دفعهم شمالاً، لكن محاولاتها فشلت، وأعاد الفلسطينيون البناء في المواقع نفسها. ومنذ 1982 اضطرت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وآلاف من الفدائيين الفلسطينيين للانسحاب من لبنان تحت ضغط الغزو الصهيوني، وتسبب رفع حمايتهم عن المخيمات إلى وقوع مجازر صبرا وشاتيلا الشهيرة، حيث تعرض فلسطينيون ولبنانيون أبرياء عزل لعملية ذبح منظمة قتل فيها على مدى يومين 16 ـ 17 سبتمبر 1982 أكثر من 3000 شخص. وفي حرب المخيمات التي شنتها حركة أمل على مخيمات اللاجئين في مناطق بيروت وجنوب لبنان، وقامت بمحاصرتها مدة سنتين مايو 1985 ـ إبريل 1987 تم تدمير 80% من المنازل في مخيم شاتيلا و50% من مخيم برج البراجنة وقتل نحو 2500 شخص. وكانت معاناة هائلة اضطرت اللاجئين لأكل الحشائش والقطط، ومات عديدون بسبب نقص الأدوية، ومع ذلك فشلت أمل في السيطرة على المخيمات[142].

لقد كان ثمناً بالغاً ذلك الذي يدفعه اللاجئون الفلسطينيون في لبنان تمسكاً بكرامتهم وإنسانيتهم وحقهم في الدفاع عن أنفسهم والسعي لتحرير أرضهم. لقد أعطى انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية سنة 1990 فرصة للفلسطينيين لالتقاط أنفاسهم، كما شكلت الانتفاضة الفلسطينية المباركة 1987 ـ 1993 عنصراً مشجعاً ودفعة معنوية كبيرة، وفتحت الساحة بشكل أكبر لانتشار التيار الإسلامي بينهم خصوصاً بعد التجربة السلبية للكثيرين مع فصائل المقاومة العلمانية واليسارية. غير أن اتفاقات أوسلو في سبتمبر 1993 بين م.ت.ف والكيان الصهيوني زادت من مخاوف الفلسطينيين من أن تنسى قضيتهم أو يتم توطينهم في لبنان أو الأردن أو العراق وغيرها، ولا زال التعلق بفلسطين والعودة إليها هو القاسم المشترك لكل الفلسطينيين في لبنان على اختلاف توجهاتهم.

ويبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين المسجلين لدى الأونروا في لبنان 370.144 سنة 1999، ووفق الزيادة الطبيعية للفلسطينيين فإن عددهم سنة 2001 هو 395.742 شخصاً، وسنة 2002 هو 409.197 شخصاً. وقد تزايدت في السنوات الأخيرة حالات الهجرة بين فلسطينيي لبنان إلى أوربا الغربية وخصوصاً الدول الإسكندنافية وإلى كندا وأستراليا إثر تسهيل هذه الدول لهؤلاء سبل الهجرة بقصد تذويبهم وتوطينهم.

ويقيم الفلسطينيون في لبنان الآن في 12 مخيماً رسمياً، فضلاً عن وجودهم في تجمعات لا تعدّها الأونروا رسمية أو في مدن وقرى لبنان المختلفة، ويقيم 54.4% من اللاجئين المسجلين لدى الأونروا في المخيمات، وهذه المخيمات هي: الرشيدية، البرج الشمالي، البص في منطقة صور، وعين الحلوة، والمية ومية في منطقة صيدا، أما في منطقة بيروت والجبل فهي برج البراجنة، وشاتيلا، ومار إلياس، وضبية، وويفل (الجليل)، وفي منطقة الشمال البداوي، و نهر البارد.

وأكبر هذه المخيمات مخيم عين الحلوة حيث يسكنه نحو 70 ألفاً يليه مخيم نهر البارد 30 ألفاً[143].

ويختلف الوضع في سوريا عنه في الأردن و لبنان إذ إن السلطات السورية منحت اللاجئين الفلسطينيين فيها حقوق المواطنة العادية كافة، سوى الحقوق السياسية، كما لم تمنحهم الجنسية السورية واكتفت بمنحهم وثائق سفر. فللفلسطينيين في سوريا حق العمل والتملك والتجنيد الإجباري، ويعيشون بشكل عام في ظروف حياتية مشابهة لتلك التي يعيشها السوريون.

على الرغم من أن علاقات السلطات السورية مع منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها اتسمت بالتذبذب، وشهدت درجات من الصعود والهبوط طوال المدة الماضية، إلا أن السلطات السورية وخصوصاً تحت حكم حافظ الأسد، وحزب البعث ظلت ممسكة بزمام الأمور، ولم تخرج المخيمات في سوريا عن دائرة السيطرة، كما أن العمل النضالي الفلسطيني عبر الحدود السورية ضد الصهاينة كان يرجع بشكل أساسي إلى مدى رغبة السلطات السورية وسماحها بذلك.

وهناك في سوريا عشرة مخيمات رسمية للاجئين الفلسطينيين:

1 ـ خان الشيخ 2 ـ ذا النون 3 ـ سبينة

4 ـ حندرات 5 ـ جرمانا 6 ـ النيرب

7 ـ مخيم العائدين (حمص) 8 ـ مخيم العائدين (حماة) 9 ـ مخيم العائدين(درعا)

10 ـ مخيم العائدين (اللاذقية).



ولا يقيم في هذه المخيمات سوى 29.2% من اللاجئين الفلسطينيين، ورغم أن أكبر تجمع فلسطيني موجود في مخيم اليرموك حيث يقيم نحو 120 ألفاً إلا أن الأونروا لا تعده مخيماً رسمياً، رغم أنها تقدم خدماتها له![144]، وتظهر الخريطة التالية مخيمات اللاجئين في سوريا.

وتعد مصر من دول الطوق، غير أن أعداد الفلسطينيين فيها محدودة مقارنة مع سوريا ولبنان والأردن، إذ يقيم على أرضها نحو 49 ألف فلسطيني ، وكانت مصر قد وضعت قطاع غزة الفلسطيني تحت إدارتها منذ 1948 وحتى 1967، لكنها لم تقم بضمه رسمياً إليها، ولم تمنح الفلسطينيين الجنسية المصرية، وإنما منحتهم وثائق سفر مصرية لا تعطيهم حق الإقامة في مصر، وعليهم الحصول على تأشيرة دخول إلى مصر إذا رغبوا في ذلك، وهي أحياناً ما تستغرق شهوراً. ويحمل كل مواطني غزة هذه الوثائق، خصوصاً قبل إصدار السلطة الفلسطينية لجوازاتها، ولعل عدد حاملي هذه الوثائق يزيد عن مليون ونصف من المقيمين في غزة والخارج، وبسبب هذه الإجراءات وبسبب الأوضاع الاقتصادية في مصر معظم الفترة الماضية، فإن أعداد الفلسطينيين فيها ظلت محدودة.

وفي خارج دول الطوق كانت الكويت حتى عام 1990 تضم أحد أكبر التجمعات الفلسطينية في العالم إذ وصلت تقديرات الأعداد فيها إلى نحو 430 ألف نسمة. وقد فتحت الكويت صدرها لأبناء فلسطين خصوصاً في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وتزايدت أعدادهم بشكل كبير من 37 ألفاً سنة 1961 إلى 204 آلاف سنة 1975. وأسهم الفلسطينيون بشكل فعال في نهضة الكويت وازدهارها في كافة القطاعات الإدارية الحكومية والقطاع الخاص، وقد جذب الفلسطينيين إلى الكويت ما وجدوه من تفهم وحسن عشرة لأهلها، ومن هامش حريات واسعة، ومجلس أمة منتخب

وصحافة نشطة، ومن فرص العمل الشريف، ومن أمن واستقرار قلّما وجدوه في غيرها. وتمتعت التيارات الفلسطينية المختلفة بهامش تحرك جيد وسط الفلسطينيين دونما تدخل حكومي يذكر، إلا فيما يحفظ أمن البلد واستقراره. لذلك، لم يكن غريباً أن تنشأ حركة فتح وتترعرع في الكويت، وأن تبرز العديد من قيادات حماس في الخارج من الكويت نفسها، وفتح وحماس هما أقوى حركتين فلسطينيتين. ولم يعش الفلسطينيون في مخيمات في الكويت، ولكن كان هناك مراكز تجمع سكاني قوي مثلوا فيه الأغلبية الساحقة مثل النقرة وحولي وخيطان والفروانية. ولا يعني هذا أن كل الفلسطينيين عاشوا مستويات حياة مرتفعة كما يظن البعض، غير أن أوضاعهم كانت بشكل عام أفضل من أوضاع إخوانهم في لبنان وسوريا وقطاع غزة. ومع ذلك، فإن أغلبية الفلسطينيين كانت تعمل في الأنشطة الخدمية والوظائف الوسطى وتحصل إجمالاً على كفايتها الشهرية. وكانت معظم الأسر تعيش في شقق في بنايات سكنية ويسكن في الشقة الواحدة المكونة من غرفتين وصالون عادة عائلة من حوالي 8 ـ 10 أفراد.

وقد بدأت أحوال الفلسطينيين منذ مطلع الثمانينيات في التراجع، نتيجة تراجع الأوضاع الاقتصادية في الكويت بسبب انخفاض أسعار النفط، ونتيجة لتبني سياسة التكويت، ومحاولة ضبط العمالة الوافدة، وعانت العائلات الفلسطينية خصوصاً من مشاكل تعليم الأبناء، بعد أن لم يعد يسمح لهم بدخول المدارس الحكومية الكويتية إلا لمن ولد في الكويت، ومن التكاليف الكبيرة المترتبة على إرسال أبنائهم إلى الخارج للحصول على التعليم الجامعي، بعد أن وصل الحد الأدنى لقبول الطلبة غير الكويتيين في أواخر الثمانينيات في الجامعة الوحيدة في الكويت إلى نحو 94% في شهادة الثانوية العامة. كما لم يسمح لمن جاوز الـ21 من عمره بالإقامة في الكويت إلا لمن يملك إقامة عمل ، مما عرض آلاف الطلبة الدارسين في الخارج إلى إنهاء إقامتهم في الكويت وتشتت عائلاتهم. وعانت العائلات الفلسطينية (وعائلات الوافدين بشكل عام) من ارتفاع الإيجارات السكنية، التي كانت تقتطع في أحيان كثيرة أكثر من نصف رواتبهم الشهرية، خصوصاً لمن تزوج وحاول الحصول على سكن خلال الثمانينيات.

وقد كان الاجتياح العراقي للكويت في أغسطس 1990 نقطة تحول كبرى بالنسبة للجالية الفلسطينية هناك، حيث اضطر نحو 200 ألف للنـزوح في أثناء الاحتلال العراقي للكويت كما اضطر نحو 200 ألف آخرون للنـزوح بعد عودة الحكم إلى يد الكويتيين، ولم يبق في الكويت إلا 37 ألفاً، (حسب إحصاءات 1998)، وهناك تقديرات كويتية بأن أعدادهم هي بحدود 60 ألفاً في سنة 1999[145]، ويبدو أن تحسن العلاقات مع الأردن سيفتح الباب من جديد لقدوم الذين يحمل أغلبهم جوازات سفر أردنية، فضلاً عن الأجواء الإيجابية التي أوجدتها انتفاضة الأقصى منذ سبتمبر 2000 حيث تفاعل الكويتيون معها بشكل كبير.

بين التوطين والعودة

يصر فلسطينيو الشتات أجمعهم على حقهم في العودة إلى فلسطين ولم تثنهم عشرات السنوات من اللجوء والبعد عن الوطن وظروف القهر والمعاناة ومحاولات التذويب والتوطين.. لم تثنهم عن تعلق

قلوبهم بالأرض المقدسة، فلا زال لاجئو 1948 يربون أحفادهم وأبناء أحفادهم على هذا الأمل ويعلمونهم أنهم أبناء تلك القرية أو المدينة من أرض فلسطين، ولازال الكثير منهم يحتفظون بمفاتيح بيوتهم القديمة وشهادات امتلاك الأرض و"القواشين". ولا تزال المخيمات نفسها تقسم إلى أجزاء حسب قرى ومدن أولئك الذين استقروا فيها. ووصل الأمر بنسبة غير قليلة من أبناء المخيمات رفض تحسين الخدمات في مخيماتهم خوفاً من أن يكون ذلك جزءاً من عملية توطينهم، والشعب الفلسطيني مسيس بطب يعته ولمعظم الفلسطينيين انتماءات وميول لاتجاهات سياسية وحركية فلسطينية، وقد كان دور فلسطينيي الشتات قيادياً بارزاً في إنشاء المنظمات الفدائية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وقيادة التحرك السياسي الفلسطيني طوال العقود الماضية الأربعة.

وحتى الآن أفشل الفلسطينيون 243 مشروعاً للتوطين خارج فلسطين[146].

ومن المشاريع التي أسقطها الفلسطينيون مشاريع التوطين في العراق وسوريا ولبنان، ومشروع جونسون ومشروع الرمدان، ومشروع سميث ـ بروتي، ومشروع باروخ، ومشروع سيناء، ومشروع كين، ومشروع همفري، ومشروع روجرز وغيرها[147].

وفي استطلاع الرأي للاجئين في سوريا مثلاً رفض 99% من حيث المبدأ أي مشروع للتوطين أو التهجير أو التجنيس، وطالب 98% بالعودة إلى قريته أو مدينته الأصلية في فلسطين، ولم يمانع سوى 1% من العودة إلى مناطق محررة في الضفة الغربية وغزة[148].

ويصر الصهاينة في مفاوضات الحل النهائي مع السلطة الفلسطينية على رفض حق العودة للاجئي 1948 وعدم تحمل أي مسؤولية تجاههم، ويماطلون بشأن نازحي الضفة الغربية وقطاع غزة. ويهدد ذلك بفشل أي تسوية سلمية مستقبلية، حتى وإن قبلتها السلطة الفلسطينية، فإنها ستحمل عناصر فشلها في ذاتها، بسبب الظلم الذي ستلحقه بالملايين الذين سيقلبون الطاولة على أي تسوية من هذا النوع.

وقد زاد الحديث مؤخراً عن الفلسطينيين في لبنان حيث تُعدّ حالتهم أصعب العقبات في طريق التسوية، وأشير إلى استعدادات أوروبية وكندية لاستقبال 150 ألف لاجئ فلسطيني من لبنان، ويبدو أن تسهيلات الهجرة لتلك البلدان تزايدت في السنوات الماضية بهدوء، ودون صخب حيث هاجر الكثيرون وخصوصاً من الشباب، كما أشارت تقارير إلى تسهيلات بدأ تنفيذها في مخيمات اللاجئين في الأردن[149].

المجازر التي تعرض لها الشعب الفلسطيني

كان الإرهاب ـ ولا يزال ـ جزءاً أساسياً من الفكر الصهيوني المستند إلى جذور عقائدية. فإن توراة اليهود المحرّفة والتلمود يمجدّان استخدام القوة والعنف وسحق غير اليهود. وتصور التوراة المحرفة كيف أن بني إسرائيل عندما دخلوا أريحا قتلوا كل من فيها من ذكر

وأنثى وطفل وامرأة وشيخ بحد السيف. ويتعلم اليهود الصهاينة هذه النماذج الآن ويعدُّونها مثالاً يحتذى، حيث تتضاءل القيمة الإنسانية لغير اليهود الذين خُلقوا ـ حسب عقائد اليهود المحرفة ـ لخدمة اليهود.

ولم يكن بالإمكان إنشاء كيان يهودي خالص على أرض فلسطيني دون ارتكاب مذابح وحملات تهجير قسري لأغلبية السكان العرب الذين يقيمون في البلاد منذ آلاف السنين. وقد تكررت الإشارة إلى التخلص من العرب بأشكال مختلفة في كتابات ومذكرات كبار زعماء الصهيونية وقادة الكيان الصهيوني أمثال هرتزل، ووايزمن، وبن جوريون، وبيجن، وإسحق رابين ... وغيرهم[150]. وعندما أصدرت الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين كان من المفترض أن يعيش على أرض الدولة اليهودية المقترحة 498 ألف يهودي و497 ألف عربي أي أنها ستكون دولة ثنائية القومية مناصفة تقريباً بين الطرفين. وكان من المتوقع بسبب الزيادة الطبيعية للسكان العرب التي تفوق كثيراً الزيادة الطبيعية لليهود أن يصبح العرب أغلبية واضحة خلال بضع سنوات، مما يفقد المشروع الصهيوني جوهر الفكرة التي قام لأجلها. ولذلك سعى الصهاينة منذ البداية إلى تجاوز العقبة عبر وسيلتين الأولى: إرهاب العرب وإجبارهم على الرحيل، والثانية: تشجيع الهجرة اليهودية إلى الكيان "الإسرائيلي" حتى لو اضطروا لإرهاب اليهود في البلاد العربية، بارتكاب جرائم يظهر أن العرب قد نفذوها، لإشعار اليهود أنه لم يعد لهم مكان هناك.

وفي أثناء حرب 1948 ارتكب اليهود الصهاينة 34 مجزرة لتنفيذ مخططهم في فلسطين. وكانت أبرز المجازر وأشهرها مجزرة "دير ياسين"[151] وقد نفذت هذه المجزرة عصابتا الأرغون (التي يتزعمها مناحيم بيجن) وشتيرن بالتنسيق مع الهاجاناه في ليلة وصباح 10 إبريل 1948. وتقع قرية دير ياسين على الطريق المؤدية إلى القدس، وقد قام الصهاينة بذبح وقتل 254 رجلاً وامرأة وطفلاً (وفي بعض التقديرات 360) بأسلوب وحشي.

ونستطرد قليلاً في ذكر قصص من مذبحة دير ياسين كأحد نماذج الإرهاب الصهيوني. ففي ذلك اليوم بقي عند "حياة البلبيسي" في المدرسة 15 طفلاً وطفلة، فقامت بتحويل المدرسة إلى مركز إسعاف لأنها مسئولة الصليب الأحمر (لم يكن هناك هلال أحمر لأن فلسطين كانت تحت الاحتلال البريطاني) في دير ياسين. وظنّت أنها تحمي نفسها والأطفال بذلك. وأخذ الجرحى بالتوافد عندها. وعند الظهيرة جاء اليهود الصهاينة وأجهزوا على الجرحى، وقتلوا جميع الأطفال وقتلوها. ثم وضعوا الجميع على شكل كومة جثث فوقها جُثتها. وأسرعت فتاة يهودية وخلعت علم الصليب الأحمر عن باب المدرسة وغرسته عميقاً في كومة الجثث والجميع يصفق لها إعجاباً بما تفعل.

أما "الحاج إسماعيل عطية" وهو عجوز في الـ 95 من عمره، فبعد أن قتلوه جرُّوه من رجليه وسط الشارع وأخذوا يرقصون حوله ويصيحون. وكانت زوجته تحمل حفيدها الوحيد عند البيت فجاءت فتاة يهودية

تحمل بيدها بلطة فضربت الطفل على رأسه، فتطاير نخاعه، والتصق بالجدار، ثم قتلت الجدة، وأخذت ترقص فوق الجسدين القتيلين.

وأخذوا "صالحية" وهي شابة، فقتلوا طفلها ذو السنتين أمام عينيها، ثم وضعوها في حلقة، وأخذوا يرقصون حولها، ويمزقون ثيابها قطعة قطعة. وفي النهاية عاجلتها إحدى الفتيات اليهوديات بعدة طعنات في وجهها وصدرها وبطنها، وكانت حاملاً في الشهر السابع.

وقد قبضوا على شيخ في التسعين، ورموه من فوق بيته، واستخدموه هدفاً متحركاً يحاولون اقتناصه في الهواء. وحينما وقع على الأرض، قضوا عليه بأحذيتهم. وقتلوا امرأة اسمها "خالدية" كانت توشك على الولادة، وشقوا بطنها بسكين، ولما حاولت إحدى نساء القرية إخراج الطفل من أحشاء أمه قتلوها أيضاً[152].

وقد فاخر مناحيم بيجن (الذي أصبح رئيساً لوزراء الكيان الإسرائيلي 1977 ـ 1983، والذي حاز على جائزة نوبل للسلام!!) بهذه المذبحة، وعدَّها سبباً مهماً في إنشاء الدولة اليهودية وتهجير العرب، فقال: "... أصيب العرب بهلع قوي لا حدود له بعد أخبار دير ياسين، فأخذوا يفرون للنجاة بأرواحهم ...، فمن أصل 800 ألف عربي كانوا يعيشون على أرض إسرائيل الحالية لم يتبق سوى 165 ألفاً" ... "ما وقع في دير ياسين وما أذيع عنها ساعدا على تعبيد الطريق لنا لكسب الظفر في معارك حاسمة في ساحة القتال. وقد ساعدتنا أسطورة دير ياسين بصورة خاصة على إنقاذ طبرية وغزو حيفا" ... "كان لمذبحة دير ياسين أثر بالغ في نفوس العرب يساوي ستة أفواج من الجنود"[153].

وقد تكرر نموذج دير ياسين في القرى العربية الأخرى في أثناء حرب 1948، حيث وقعت مذابح عديدة بنفس البشاعة كما في الطنطورة، وناصر الدين، وبيت داراس وغيرها. وقد اعترف المؤرخ "الإسرائيلي" أريبه يتسحافي، وهو باحث في الجيش الإسرائيلي بذلك قائلاً: "إذا أجملنا الحقائق ندرك أن مجزرة دير ياسين كانت إلى حد بعيد طابعاً مألوفاً لاحتلال قرية عربية، ونسف أكثر عدد من المنازل فيها، وقد قُتل في هذه العمليات الكثير من النساء والأطفال والشيوخ"[154].

وتوالت المذابح الصهيونية بعد ذلك بين حين وآخر، ففي ليلة 14 ـ 15 أكتوبر 1953 حدثت مذبحة "قبية"، وهي قرية عربية في الضفة الغربية هاجمها نحو 600 جندي صهيوني بقيادة الإرهابي أريل شارون (الذي أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد). وقد أدى الهجوم الليلي إلى استشهاد 67 من سكان القرية المدنيين ووقوع أعداد كبيرة من الجرحى. كما أدى إلى تدمير 56 منـزلاً ومسجد القرية ومدرستها وخزان مياهها. وتعمد الصهاينة تدمير البيوت على السكان، حتى إن امرأة شوهدت تجلس بجانب كومة من أنقاض منـزلها الذي برز من بين ركامه أيدٍ وأرجل صغيرة هي أشلاء أولادها الستة، بينما كانت جثة زوجها الممزقة بالرصاص ملقاة في الطريق المواجه للبيت[155].

وفي 10 أكتوبر 1956 نفذ الصهاينة مذبحة "قلقيلية" حيث قتلوا نحو سبعين من سكان هذه البلدة وأوقعوا خسائر مادية كبيرة.

وفي 29 أكتوبر 1956 وقعت مذبحة "كفر قاسم" وهي قرية عربية في فلسطين المحتلة سنة 1948. إذ أعلن الصهاينة حظر التجول في ذلك اليوم على القرية اعتباراً من الساعة الخامسة مساء دون أن يعلم فلاحوها العاملون في الحقول بذلك. وعندما بدأ الفلاحون بالعودة كانت الأوامر قد صدرت بإطلاق النار بقصد القتل، مما أدى لاستشهاد 49 فلسطينياً بينهم 15 طفلاً فضلاً عن عشرات الجرحى. وقد حاول الصهاينة التستر على جريمتهم فقاموا بمحاكمة الفاعلين حيث سُجن عدد منهم لفترات قصيرة. أما العقيد سيخار شدمي الذي أصدر الأوامر فقد قُدِّم للمحاكمة سنة 1959، وكانت عقوبته التوبيخ ودفع غرامة مقدارها قرش "إسرائيلي" واحد!![156] وكأن روح كل فلسطيني لا تساوي أكثر من جزء ضئيل من القرش وفق القضاء "الإسرائيلي".

وفي مجزرة مخيم خان يونس في 3 نوفمبر 1956 قتل الصهاينة 250 من سكانه المدنيين، ثم عادوا فقتلوا 275 مدنياً آخرين من المخيم نفسه في 12 نوفمبر 1956، كما قتلوا في اليوم نفسه أكثر من مائة مدني من سكان مخيم رفح للاجئين[157].

ونفذ الصهاينة مجزرة "السموع" في 13 نوفمبر 1966 حيث استشهد نحو 18 شخصاً وجرح 134 آخرين[158].

وعندما احتل الصهاينة في حرب 1967 الضفة الغربية وقطاع غزة قاموا بتشريد 330 ألف فلسطيني، واعترف أحد الجنود الصهاينة الذين رابطوا على نهر الأردن أنه قد صدرت لهم أوامر واضحة وصريحة بقتل المدنيين الذين يحاولون العودة إلى الضفة الغربية وقال "كنا نقتل الأحياء إذا وجدناهم، ونقتل الجرحى حتى لو كانوا نساءً أو أطفالاً. وأثناء خدمتي العسكرية، وبعد انتهاء الحرب بمدة طويلة كنا نطلق النار دائماً في منطقتنا، وفي كل ليلة كان يسقط قتلى، وفي صباح كل يوم كنا نجد بينهم جرحى ما نلبث أن نقضي عليهم".

وقد ذكر الضابط الصهيوني إيلي ليفي وهو برتبة نقيب قصة تشير إلى طريقة تفكير وعمل القيادة "الإسرائيلية"، فذكر أنه في أثناء حرب 1973 اقتحم وعدد من جنوده قرية في هضبة الجولان جنوبي القنيطرة، وجمعوا سكانها القلائل في ساحة كبيرة. وفجأة جاء الجنرالين رفائيل إيتان وأبيغدور بنغال، وسأل إيتانُ مندهشاً الرائدَ غوري ماذا ستفعلون بهم؟ فقال الرائد: أعتقد أننا سنطلب منهم العودة إلى منازلهم. فصرخ إيتان: ماذا؟ ألن تطلقوا النار عليهم؟! إنهم جميعاً جنود سوريون يتخفون بزيٍّ مدني، وأقسم على ذلك. فتدخل النقيب إيلي ليفي وقال: ولكن بينهم نساء وأطفالاً. فردّ عليه إيتان: يُخيّل إليك ذلك!! عليكم أن تطلقوا النار عليهم، وتقتلوهم جميعاً. فقال إيلي: أهذا أمر يا سيدي؟ قال إيتان: نعم هو كذلك. فقال إيلي: أريد أمراً خطياً بذلك!! فقال إيتان بسخرية: إنك لا تريد أن تقاتل، لقد خاب ظني فيك أيها الشاب!![159] وقد كان رفائيل إيتان هذا يشغل قائد فرقة مدرعات في الجولان في حرب 1973، ثم أصبح قائد المنطقة الشمالية 1974 ـ 1977، ثم أصبح رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلي 1978 ـ 1983 حيث تولى قيادة الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982. وهو صاحب عبارة شهيرة يذكر فيها أن الفلسطينيين في الأرض المحتلة هم "صراصير مخدَّرة في قنينة"!![160]

وفي أثناء الاجتياح "الإسرائيلي" للبنان في صيف 1982، وبعد أقل من أربعة أسابيع على بدايته (5 ـ 30 يونيو 1982) استشهد نحو 15 ألف مدني وقال أحد الأطباء الكنديين العاملين في صيدا إن 50% من الشهداء هم من الأطفال دون سن 13 سنة. وأشارت تقديرات أخرى إلى أنه مع منتصف أغسطس 1982 كان قد استشهد نحو 19 ألفاً، بينما جرح حوالي 80 ألفاً آخرين[161]. وقد ذكر المقدم الإسرائيلي إيتان كليبنوت في شهادته التي نشرتها جريدة هعولام هزيه في 7 يوليو 1982 بأن هناك ضابطاً وجنوداً تعمدوا قتل مدنيين عزلاً وأبرياء داخل المخيمات الفلسطينية وقال إنه يذكر جيداً بأن الجنود أطلقوا النار بأمر من ضباطهم الكبار على عجزة فلسطينيين ونساء وأطفال داخل الملاجئ في مخيم عين الحلوة. وقال "لقد شاهدت أطفالاً فلسطينيين يبكون ويصرخون بعد أن قتل الجنود أمهاتهم على مرأى منهم. كما أن بعض الجنود ألقوا قنابل حارقة داخل ملاجئ عين الحلوة، وكان فيها عشرات السكان المدنيين الذين لم يخرج منهم أحد"[162].

وفي 16 ـ 18 سبتمبر 1982 نظم الصهاينة بقيادة أريل شارون ورفائيل إيتان وأمير دوري مذابح صبرا وشاتيلا وأوكلوا مهمة التنفيذ لمليشيات الكتائب، ومليشيات النمور التابعة لكميل شمعون، وحراس الأرز التابعة لإيتان صقر، ورجال جيش لبنان الجنوبي العميل التابعين لسعد حداد، وكلها مليشيات مارونية. فقد احتل الصهاينة بيروت الغربية في 15 سبتمبر، وفي السادسة مساء من اليوم التالي بدأ تنفيذ المجزرة التي استمرت نحو 40 ساعة. وزود الصهاينة ـ الذين حاصروا المكان ـ المليشيات المجرمة بوسائل الإنارة، وراقبوا عمليات الذبح كمن يجلس في الصف الأول من المسرح. وقد أدت هذه المذابح إلى استشهاد 3297 معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ واستخدمت الفؤوس والبلطات والسواطير والسكاكين لتهشيم الرؤوس وقطعها، والتمثيل بالأجساد، فضلاً عن اغتصاب النساء والفتيات. وتلذذ المجرمون خصوصاً بقتل الأطفال والتمثيل بهم. ووجدت في أحد البيوت جثة طفل رضيع قطعوا أعضاءه، ثم صفّوها بعناية على شكل دائرة ووضعوا الرأس في الوسط[163].

لقد كانت مذابح مخيمي صبرا وشاتيلا من المذابح المروعة التي اهتز لها الضمير الإنساني، والتي لم تستطع القوات الصهيونية والكتائبية التستر على أهوالها. وسارع الكيان الصهيوني كعادته بتشكيل لجنة تحقيق في محاولة لتلميع صورته إعلامياً وتبرئة ساحته وساحة قادته. وقد اكتفت اللجنة بتوجيه اللوم لشارون. لكنه سرعان ما عاد وزيراً للإسكان، ثم انتخب رئيساً لوزراء الكيان الصهيوني في فبراير 2001.

وكان اندلاع الانتفاضة المباركة في الضفة الغربية وقطاع غزة فرصة للكيان الصهيوني لقتل المدنيين، فاستشهد في سنواتها الست 1987 ـ 1993 ما مجموعه 1540، وجرح 130 ألف، واعتقل 116 ألفاً آخرين. وقد شملت قائمة الشهداء 268 طفلاً و127 امرأة حسب تقدير مؤسسة التضامن الدولي لحقوق الإنسان[164]. وفي أثناء هذه الانتفاضة ارتكبت القوات الصهيونية ـ ضمن ما ارتكبت ـ مذبحة المسجد الأقصى في 8 أكتوبر 1990 إذ هبَّ المسلمون للدفاع عن المسجد الأقصى عندما حاولت جماعة يهودية تسمى "أمناء جبل الهيكل" وضع حجر الأساس للهيكل اليهودي الثالث في ساحة الحرم.

وتدخل الجنود الصهاينة وأخذوا بإطلاق النار على المصلّين. دون تمييز مما أدى إلى استشهاد 21 وجرح 150 آخرين[165].

وفي صلاة فجر الخامس عشر من رمضان 1414هـ الموافق 25 فبراير 1994 قام ضابط الاحتياط الصهيوني باروخ جولدشتاين باقتحام مسجد الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل، حيث بدأ بحصد المصلين الساجدين بأسلحته الرشاشة، بينما ساعده عدد من المستوطنين في تعبئة الذخيرة. وكان يحاصر الحرم الإبراهيمي عدد كبير من الجنود وحرس الحدود الصهاينة يقدرون بـ300، وقد قام هؤلاء الجنود بإطلاق النار على المسلمين الذين هاجموا جولدشتاين بأجسادهم وقتلوه، كما قاموا بإطلاق الرصاص على المسلمين الخارجين من المسجد وعلى الناس الذين حضروا لإسعاف إخوانهم، ولحقوا بالمصابين والمسعفين إلى أبواب المستشفيات، وقتلوا المزيد. وتشير الإحصاءات الرسمية إلى استشهاد 29 فلسطينياً وجرح أكثر من 300 آخرين. وجولدشتاين هو ضابط (طبيب!!) احتياط برتبة نقيب، وهو مهاجر من نيويورك في الولايات المتحدة. وكان يَعدُّ العرب مثل "الوباء ... إنهم الجراثيم التي تنقل إلينا الأمراض"، وكان متديناً، يَعدُّ مثل هذا العمل "تقرباً إلى الله". وقد عدّه اليهود المتدينون "قديساً"، ولا زال قبره مزاراً ومحجاً لهؤلاء اليهود[166].

وعندما أعلنت السلطات الصهيونية في 24 سبتمبر 1996 عن افتتاح نفق تحت المسجد الأقصى (موازٍ لأساسات الجدار الغربي للمسجد)، هبّ المسلمون من جديد في موجات احتجاج عارمة، بينما بالغ الصهاينة في القمع والتنكيل واستخدموا الطائرات المروحية. وقد استشهد 62 فلسطينياً وجرح نحو 1500، وكان بين الشهداء نحو 15 من الشرطة الفلسطينية الذين اضطروا للرد، بسبب هجمات الصهاينة على مناطق السلطة الفلسطينية[167].

وتمثل انتفاضة الأقصى التي اندلعت منذ 28 سبتمبر 2000 نموذجاً للتضحية الفلسطينية وللإرهاب الصهيوني. فقد استخدم الصهاينة كل ما في أيديهم من وسائل البطش والدمار من الأسلحة الرشاشة والصواريخ والطائرات المروحية وطائرات الـ إف16 الحربية والرصاص المحرم دولياً ... في مواجهة شعب أعزل مصمم على الحرية والتحرير. واضطر الفلسطينيون إلى اللجوء إلى تفجير أنفسهم في عمليات استشهادية في التجمعات الصهيونية أحدثت نوعاً من توازن الردع مع الصهاينة.

وتشير تقديرات مركز المعلومات الفلسطيني إلى أنه بعد مضي عام على انتفاضة الأقصى فقد استشهد (حتى 31 يناير 2003) نحو 2272 فلسطينياً وأصيب نحو 35 ألفاً بجراح[168]. أما تقديرات وزارة الصحة الفلسطينية فترتفع تقديراتها للفترة نفسها إلى نحو 2800 شهيد، بينهم حوالي 530 طفلاً ويافعاً دون الثماني عشرة سنة[169].

وقد ازدادت شراسة الحملة الصهيونية لسحق الانتفاضة، في شهري مارس وإبريل 2002، وقامت بتنفيذ مجازر بشعة، كان أبرزها مذبحة مخيم جنين التي ذكرت العديد من التقديرات الفلسطينية أنه قد

استشهد فيها حوالي 500 فلسطيني، خلال النصف الأول من شهر إبريل 2002، غير أنه لم تظهر أرقام دقيقة حتى لحظة كتابة هذه السطور، ولم يكشف حتى الآن إلا عن نحو 57 شهيداً، كما أشير إلى وجود نحو 250 مفقوداً.

وقامت بتدمير مباني المخيم على ساكنيها، في الوقت الذي منعت فيه السلطات الصهيونية وسائل الإعلام من الاقتراب، حتى لا يطلع العالم على حقيقة ما يجري. وقد جرت في الوقت نفسه مذبحة مماثلة في نابلس استشهد فيها نحو سبعين فلسطينياً. وفي أثناء حملتها على مدن وقرى الضفة الغربية، في تلك الفترة، قامت بتدمير معظم البنية التحتية الفلسطينية بما فيها مؤسسات السلطة الفلسطينية التعليمية والصحية والأمنية، وبمصادرة وسرقة الكثير من محتوياتها. كما احتلت رام الله وسيطرت على مقر ياسر عرفات، الذي حوصر مع عدد من مساعديه في بعض غرف المقر. وقام الصهاينة بتدمير سيارات الإسعاف، بل وباستخدامها في "اصطياد" الفلسطينيين، ومنعت فرق الإسعاف من الوصول إلى المصابين، الذين نزفت دماؤهم حتى استشهدوا، كما منعت لأيام عديدة دفن جثث الموتى، وقد انتقد تيري رود لارسن مبعوث الأمم المتحدة الخاص إلى الأراضي الفلسطينية بحدة الحكومة الإسرائيلية، ووصف الدمار الذي ألحقته بمخيم جنين (بعد أن تجول بنفسه فيه يوم 18 إبريل 2002) بأنه "أبشع من أن يُصدَّق"، ووصف المخيم بأنه "دُمِّر تماماً، كما لو أن زلزالاً قد ضرب المنطقة"، كما انتقد الحكومة الصهيونية لمنعها دخول فرق الإغاثة إلى جنين طوال أحد عشر يوماً[170].

وهكذا، فإن الإرهاب هو جزء طبيعي من الأيديولوجية الصهيونية، وعقلية التجمع الاستيطاني والقيادة الحاكمة في الكيان الإسرائيلي.

هوامش الفصل

---

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية، إشراف أحمد المرعشلي (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984)، ج3، ص474-475.

[2] حول التقسيمات الإدارية لفلسطين في العهد الإسلامي، انظر: المرجع نفسه، ج1، ص119-124.

[3] عجاج نويهض، رجال من فلسطين (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1980)، ص314-315.

[4] الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص124، ومصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج1، ق1، ط2 (بيروت: دار الطليعة، 1973)، 15-21.

[5] حول جغرافية فلسطين، انظر: صلاح الدين البحيري، "جغرافية فلسطين"، في المدخل إلى القضية الفلسطينية، تحرير جواد الحمد، سلسلة دراسات، رقم 21 (عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 1997)، ص15-24.

[6] رواه البخاري ومسلم وابن ماجة وأبو داود.

[7] حديث حسن رواه الطبراني.

[8] رواه البخاري.

[9] محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، 1969)، ج1، ص265.

[10] رواه البخاري ومسلم والنسائي.

[11] رواه أبو داود وابن ماجة بسند صالح.

[12] رواه أبو داود.

[13] سورة الإسراء: 1.

[14] سورة الأنبياء: 70.

[15] إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1969)، ج3، ص184-185.

[16] سورة الأنبياء: 80.

[17] ابن كثير، مرجع سابق، ج3، ص187.

[18] سورة سبأ: 18.

[19] ابن كثير، مرجع سابق، ج3، ص533.

[20] سورة المائدة: 20.

[21] مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج1، ق1، ص343.

[22] كما في الحديث الذي رواه أحمد على شرط البخاري.

[23] انظر مثلاً: مصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين (بيروت: دار الطليعة، 1979)، ص21-22، وص30-32.

[24] رواه مسلم.

[25] رواه مسلم.

[26] فضائل الشام ودمشق للربعي، تخريج محمد ناصر الدين الألباني (دمشق: المكتب الإسلامي، د.ت)، ص5.

[27] حديث صحيح، رواه أحمد وابن ماجة.

[28] حديث صحيح، رواه الطبراني.

[29] حديث صحيح، أخرجه الحاكم وأبو نعيم في الحلية.

[30] رواه الطبراني، وقال الهيثمي: فيه أرطاة بن المنذر، وبقية رجاله ثقات.

[31] رواه أحمد بهذا النص، ورجاله ثقات إلا مهدي بن جعفر الرملي، فقد وثقه ابن حبان ويحيى بن معين وضعفه البخاري.

[32] سفر التكوين 12/1، نقلاً عن سمير أيوب، وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني (بيروت: دار الحداثة للطباعة النشر، 1984)، ج1، ص29.

[33] سفر التكوين، 13/14، نقلاً عن المرجع نفسه، ج1، ص31-32.

[34] سفر التكوين، 5/15، نقلاً عن المرجع نفسه، ج1، ص32.

[35] سورة آل عمران: 67-68.

[36] سورة البقرة: 136.

[37] سورة المائدة: 20.

[38] سورة الأعراف: 157.

[39] سورة الصف: 6.

[40] سورة المائدة: 109.

[41] سورة المائدة: 60.

[42] انظر: عمر سليمان الأشقر، العقيدة في الله، ط5 (الكويت: مكتبة الفلاح، 1984)، ص256-261.

[43] سورة المائدة: 4.

[44] سورة آل عمران: 181.

[45] سورة التوبة: 30.

[46] انظر: محمد علي الزعبي، دقائق النفسية اليهودية (بيروت: د.ن، 1968)، وانظر أيضاً: بولس حنا سعد، همجية التعاليم الصهيونية (بيروت: دار الكتاب العربي، 1969)، وتوفيق الواعي، اليهود: تاريخ إفساد وانحلال ودمار (بيروت: دار ابن حزم، 1995).

[47] مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، ج9، ق2(1)، ص41-50.

[48] سورة المائدة: 70.

[49] محمد الزعبي، مرجع سابق، ص75.

[50] ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم 1220ق.م-1359م: منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي، ط4 (بيروت: دار النفائس، 1984)، ص59.

[51] سورة البقرة: 124.

[52] الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص13-19، وص361-362، وج3، ص 271-281.

[53] حول تاريخ فلسطين القديم وبني إسرائيل في فلسطين، انظر مثلاً: ظفر الإسلام خان، مرجع سابق، ص35-124، والموسوعة الفلسطينية، ج1، ص37، وص238، وج3، ص184-186، وص271-281، وج4، ص174.

[54] انظر عبد الوهاب المسيري "يهود العالم" في دليل إسرائيل العام، تحرير صبري حريس وأحمد خليفة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1996)، ص477-489.

[55] حول يهود الخزر، انظر مثلاً: أسماء فاعور، فلسطين والمزاعم اليهودية (بيروت: دار الأمة، 1995)، ص235-241.

[56] ظفر الإسلام خان، مرجع سابق، ص98.

[57] انظر المرجع نفسه، ص117-134.

[58] حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909، ط2 (بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر، 1980)، ص82-84.

[59] انظر: هند أمين البديري، أراضي فلسطين: بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ (القاهرة: جامعة الدول العربية، 1998)، ص163-260؛ ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، (القاهرة: دار الكتاب العربي، 1959)، ص11؛ وعبد العزيز محمد عوض، مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث: 1831-1914 (بيروت: مكتبة المحتسب-المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1983)، ص62؛ ومحمد النحال، سياسة الانتداب البريطاني حول أراضي فلسطين العربية، ط2 (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1981)، ص87.

[60] حول تفصيلات استيلاء اليهود على الأراضي في فلسطين 1917-1948 انظر: هند البديري، مرجع سابق، خصوصاً الفصل الثالث ص143-277، والموسوعة الفلسطينية، ج1، ص557-563، وج4، ص 662.

[61] انظر: غازي السعدي، من ملفات الإرهاب الصهيوني في فلسطين (2): مجازر وممارسات 1936-1983 (عمان: دار الجليل، 1984)، وإبراهيم أبو جابر "المجتمع العربي في إسرائيل" في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص427، وص457-459. والمركز الفلسطيني للإعلام، أخبار يوم 29 مارس 2000 www.palestine-info.org.

[62] استفاد الباحث من عدد من المراجع والتقارير المنشورة في الصحف للوصول إلى الأرقام المشار إليها في الفقرة. انظر مثلاً: خالد عايد "الوجود الاستيطاني في الأراضي المحتلة"، في دليل إسرائيل العام، ص351-404، والموسوعة الفلسطينية، ج1، ص222-227.

[63] انظر: خالد عايد "الوجود الاستيطاني في الأراضي المحتلة"، في دليل إسرائيل العام، ص376-377.

[64] عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ط9 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1985)، ص41-42.

[65] المرجع نفسه، ص43-67.

[66] المرجع نفسه، ص49.

[67] انظر" الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص180، وهند البديري، مرجع سابق، ص187-237.

[68] انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص561-562، وهند البديري، مرجع سابق، ص239-248، وصالح أبو يصير، مرجع سابق، ص465-485.

[69] انظر: هند البديري، مرجع سابق، ص249-259، ومحمد عرابي نخلة، تطور المجتمع في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني 1920-1948 (الكويت: ذات السلاسل، 1983)، ص144.

[70] انظر نص الفتوى في: وثائق الحركة الفلسطينية 1918-1939: من أوراق أكرم زعيتر، أعدتها للنشر بيان نويهض الحوت (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1984)، ص381-391.

[71] انظر: بيان الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917-1948 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981)، ص294-296، وعيسى السفري، فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، ط2 (القدس: منشورات صلاح الدين، 1981)، ص 230، ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص34-35، والموسوعة الفلسطينية، ج3، ص562.

[72] تنشر الدراسات والصحف الكثير عن ممارسات الصهاينة ضد الأوقاف الإسلامية. وما ذكر هنا، على سبيل المثال، نشر في جريدة الرأي العام، الكويت، 22 إبريل 1986، والوطن، الكويت، 16 ديسمبر 1985، واللواء، الأردن، 10 إبريل 1986. ولمزيد من التفصيلات حول الأوقاف الإسلامية في الأراضي المحتلة سنة 1948 يمكن الرجوع إلى دراسة هامة باللغة الإنجليزية، وهي:

Michael Dumper, Islam and Israel: Muslim Endowments and the Jewish State (Washington: Institute for Palestine Studies, 1994).

[73] الرأي العام، 22 ديسمبر 1985.

[74] انظر: رفيق النشتة، وإسماعيل ياغي، تاريخ مدينة القدس (عمان: دار الكرمل، 1984)، ص94، وهنري كتن، فلسطين في ضوء الحق والعدل (بيروت: 1970)، ص45.

[75] انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص522.

[76] النتشة، مرجع سابق، ص157.

[77] حول هذه الفترة عن تهويد القدس، انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص521-527، وإبراهيم أبو جابر وآخرون "قضية القدس ومستقبلها، "في المدخل إلى القضية الفلسطينية (عمان: مركز دارسات الشرق الأوسط، 1997)، ص544-568. وجريدة الدستور، 18 يونيو 1997.

[78] حول نسب الملكية في القدس، انظر: إبراهيم أبو جابر وآخرون، مرجع سابق، ص541، وص557. ورفيق النتشة، مرجع سابق، ص98.

[79] هناك الكثير من المصادر التي تحدثت عن عمليات تهويد منطقة الأقصى والحفريات تحته والاعتداءات عليه، انظر حول الفقرتين السابقتين مثلاً في: إبراهيم أبو جابر، مرجع سابق، ص564-568، والموسوعة الفلسطينية، ج3، ص522-523، والأخبار اليومية، مثلاً في: جريدة الخليج 13 فبراير 2000، و 27 يوليو 2000، و 9 سبتمبر 2000، و 8 و 17 يناير 2001، والمركز الإعلامي الفلسطيني (http:/www.palsetine-info.org) بتواريخ 23 مارس 2000، و 2، 6 إبريل 2000.

[80] غطت الجرائد اليومية تلك الأحداث، انظر الأخبار في الأيام التالية للأحداث، مثلاً في: جريدتي الرأي والدستور.

[81] حول القدس في الأمم المتحدة، انظر مثلاً: الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص548-553.

[82] الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص362.

[83] انظر بالتفصيل في المرجع نفسه، ج1، ص37، وج23، ص273-279، وج4، ص174، كما سبقت الإشارة إلى كتاب تاريخ فلسطين القديم لظفر الإسلام خان، والذي ينصح بقراءته حول هذا الموضوع.

[84] الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص218-219، وص401-402.

[85] المرجع نفسه، ج1، ص362-366، وج3، ص253. وحول تفصيلات القبائل العربية في فلسطين انظر كتاب: مصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين.

[86] حسان حلاق، مرجع سابق، ص82-84.

[87] لا تتفق معظم المصادر على أرقام دقيقة محددة حول أعداد السكان سنة 1918، وإن كانت الفروقات بينها بسيطة وغير ذات أهمية، وتقديرات أعداد اليهود في مصادر تتراوح بين 7% إلى 10% من السكان، والأرقام المشار إليها هي ما يراه الباحث أقرب إلى الصحة بناء على دراسة مقارنة للعديد من المصادر.

انظر مثلاً: النحال، مرجع سابق، ص87، ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص11. وانظر أيضاً: تقرير لجنة بالين P.C. Palin التي شكلتها السلطات البريطانية للتحقيق في انتفاضة موسم النبي موسى التي اندلعت 4-10 إبريل 1920 والمحفوظ في: F.O.371/5121، ص3.

[88] انظر: محمود ميعاري "التركيب السكاني"، في دليل إسرائيل العام، ص42.

[89] الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص558.

[90] المرجع نفسه، ج1، ص559-560.

[91] Salman Abu Sitta, Palestinian Right to Return (London: The Palestine Return Centre, 1999), p.16.

[92] انظر: نشرة العودة، ع65، يوليو 1999، وكليفورد رايت، حقائق وأباطيل في الصراع العربي الإسرائيلي، ترجمة عبد الله عريقات وعبد الله عيّاد، (عمان: دار الناصر، 1992)، ص36، وجريدة الأنباء (الكويت)، 3 فبراير 1986.

[93] تخضع أعداد الفلسطينيين عادة لتقديرات، وليس للإحصائيات الدقيقة. وهناك إحصائيات وتقديرات سنوية محددة للفلسطينيين في الكيان الإسرائيلي مع ملاحظة أنهم يضمّون إليهم فلسطينيي منطقة القدس الشرقية (لأن الكيان أعلن ضمها رسمياً إليه) وهم يقدرون بنحو 200 ألف، وقامت السلطة الفلسطينية بعمل إحصاء للسكان في الضفة والقطاع سنة 1997 وهي عادة ما تضم سكان القدس الشرقية.

أما إحصاءات فلسطينيي الخارج فأرقامها تقديرية بحسب اجتهادات الباحثين، ويمكن الوصول إلى معرفة الأرقام التقديرية للفلسطينيين لكل عام من خلال احتساب الزيادة السنوية لأعدادهم والتي يبلغ معدلها 3.4% تقريباً. انظر التفصيلات في الصفحات التالية.

[94] كليفورد رايت، مرجع سابق، ص23-24.

[95] المرجع نفسه، ص25.

[96] كليفورد رايت، مرجع سابق، ص24، وص31.

[97] المرجع نفسه، ص26، وانظر النص نفسه ونصوص أخرى لويتز في:

Nur Masalha, The Expulsion of the Palestinians (U.S.A.: Institute for Palestine Studies, 1993), pp.131-2.

[98] كليفورد رايت، مرجع سابق، ص26-29. وانظر: الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص585.

[99] المرجع نفسه، ص32.

[100] Abu Sitta, op.cit, p.27.

[101] إبراهيم أبو جابر، "المجتمع العربي في إسرائيل" في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص429.

[102] المرجع نفسه، ص427.

[103] Abu Sitta, op.cit., p.16-24.

[104] كليفورد رايت، مرجع سابق، ص15 نقلاً عن صحيفة صنداي تايمز اللندنية، 15 يونيو 1967.

[105] المرجع نفسه، ص85، نصّا شاحاك ودايان ذُكرا نقلاً عن جريدة الجارديان (مانشستر)، 14 نوفمبر 1973.

[106] المرجع نفسه، ص82.

[107] المرجع نفسه، ص89.

[108] إبراهيم أبو جابر، "المجتمع العربي في إسرائيل" في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص427، وص459.

[109] انظر: إيليا زريق، "أوضاع الفلسطينيين في إسرائيل" في دليل إسرائيل العام، ص338.

[110] إبراهيم أبو جابر، "المجتمع العربي في إسرائيل" في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص429.

[111] المرجع نفسه، ص427.

[112] انظر :إيليا زريق، "أوضاع الفلسطينيين في إسرائيل" في دليل إسرائيل العام، ص317-347. وكليفورد رايت، مرجع سابق، ص 88.

[113] إبراهيم أبو جابر، "المجتمع العربي في إسرائيل" في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص427.

[114] أحمد يوسف، الحركة الإسلامية داخل الخط الأخضر: فلسطينيو 1948 (الولايات المتحدة: المؤسسة المتحدة للنشر والتوزيع)، ص8-9.

[115] أحمد خليفة "الأحزاب السياسية" في دليل إسرائيل العام، ص 172-174، وإبراهيم أبو جابر، "المجتمع العربي في إسرائيل" في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص442-447.

[116] أحمد خليفة "الأحزاب السياسية" في دليل إسرائيل العام، ص 174-176، وإبراهيم أبو جابر، "المجتمع العربي في إسرائيل" في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص448-449.

[117] أحمد يوسف، مرجع سابق، ص24-25.

[118] حول نتائج الانتخابات "الإسرائيلية" لسنة 1999 انظر مثلاً: إبراهيم أبو جابر "الانتخابات الإسرائيلية: قراءة في اتجاهات التصويت وعوامل النصر والخسارة"، مجلة فلسطين المسلمة، يوليو 1999.

[119] أحمد يوسف، مرجع سابق، ص27-28.

[120] انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص559-560، وجورج قصيفي، الرهان الديمغرافي في فلسطين (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1990)، ص13.

[121] انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص559.

[122] Don Peretz, The West Bank: History, Politics, Society and Economy (Boulder: West View, 1986), p.80.

[123] ديفيد جليمور، المطرودون، ترجمة شاكر إبراهيم (القاهرة: مدبولي، 1993)، ص141.

[124] جريدة الأنباء، 3 فبراير 1986.

[125] جريدة الاتحاد، الإمارات العربية المتحدة، 8 نوفمبر 1999. وتقديرات السكان لسنة 2001 متوافقة تقريباً مع ما أعلنه حسن أبو لبدة رئيس الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، أنه في نهاية سبتمبر 2001 كان عدد سكان الضفة مليونين و210 آلاف، وسكان القطاع مليوناً و120 ألفاً، انظر جريدة الخليج، 29 سبتمبر 2001.

[126] تعد نسبة 3.4% هي نسبة الزيادة العامة المعتادة للشعب الفلسطيني، وهي على أية حال نسبة تقريبية لعلها الأقرب للصواب ولكن لا بد من الإشارة إلى أن هذه الأرقام تعد أرقاماً متحفظة بالنسبة إلى قطاع غزة بالذات والذي يعد من أكثر المناطق تزايداً للسكان في العالم حيث ترتفع النسبة إلى نحو 4% سنوياً، ووفق تقديرات الزيادة بـ 4% فإن عدد سكان القطاع في سنة 2001 هو 1.194.426، وفي 2003 يكون 1.291.891، وفي 2005 يكون 1.397.309، والله أعلم.

[127] مها عبد الهادي، الأوضاع الاقتصادية والفرص المتاحة: الأوضاع الاقتصادية والإنسانية في الضفة الغربية وقطاع غزة (عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 1999)، ص14-16.

[128] جريدة الخليج، 3 مارس 2000.

[129] انظر: نبيل السهلي، "سكان الضفة والقطاع" في جريدة الشرق الأوسط، 14 أغسطس 1996.

[130] انظر: جريدة الخليج، 10 مارس 2001، ومقال عبد الغني الشامي "تقرير إحصائي فلسطيني رسمي" في العودة، سبتمبر 1998.

[131] حول الأوضاع التعليمية في الضفة والقطاع، انظر: محمد حلاج، التربية والتعليم الفلسطينيان في الأراضي المحتلة، وعبد الفتاح الجيوسي، فلسطين المحتلة: الصمود والتحدي (عمان: دار الكرمل، 1988)، ص84-88، وص103-106. وجريدة الرأي العام، الكويت، 14 يوليو 1986.

[132] انظر: العودة، سبتمبر 1998، وجريدة الرأي العام، 15 يوليو 1986.

[133] سمير يوسف، "الوضع الصحي في الضفة الغربية والقطاع كارثة حقيقية"، في جريدة الدستور، 31 أكتوبر 1993.

[134] الجيوسي، مرجع سابق، ص112-113.

[135] جريدة الخليج، 17مايو 1998.

[136] المرجع نفسه.

[137] انظر مجلة المجتمع، ع1378، 30 نوفمبر 1999.

[138] جريدة الخليج، 4 إبريل 2000.

[139] مجلة المجتمع، ع1378، 3 نوفمبر 1999.

[140] المرجع نفسه.

[141] انظر مثلاً حول اللاجئين الفلسطينيين في لبنان: الكتيب الذي أعدته مؤسسة الدراسات الفلسطينية:

The Institute for Palestine Studies, Palestinian Refugees in Lebanon (Beirut: IPS, 1999)

[142] Ibid

[143] Ibid

[144] انظر مقال نبيل السهلي "اللاجئون الفلسطينيون في سوريا: حقائق ديموغرافية"، في جريدة الاتحاد، 8 يناير 2000، ومجلة المجتمع، ع1378، 30 نوفمبر 1999. وانظر حول اللاجئين: تيسير عمرو "مشكلة اللاجئين والنازحين الفلسطينيين"، في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص593-614.

[145] حول التقديرات الكويتية للعدد، انظر: المجتمع، ع1378، 30 نوفمبر 1999.

[146] انظر: مقابلة أسعد عبد الرحمن مع جريدة الخليج، 4 إبريل 2000.

[147] انظر: العودة، 1 فبراير 1999، و 15 ديسمبر 1999، وجريدة الخليج، 9 ديسمبر 1999.

[148] جريدة الخليج، 9 يناير 2000.

[149] انظر مثلاً: السبيل (الأردن) 16 مايو 2000.

[150] انظر مثلاً حول الإرهاب الصهيوني والتخلص من العرب في: الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص113-115، وص185-192.

[151] انظر حول مذبحة دير ياسين في: المرجع نفسه، ج2، ص432-435.

[152] حول قصص حياة البلبيسي والحاج إسماعيل وصالحية وغيرهم، انظر كتاب: عاصم الجندي، دير ياسين.

[153] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص435.

[154] انظر: جواد الحمد، المجازر الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني 1948-2000، ط3 (عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 2000)، ص 17.

[155] المرجع نفسه، ص24.

[156] المرجع نفسه، ص27-31

[157] المرجع نفسه، ص83.

[158] المرجع نفسه.

[159] غازي السعدي، أحاديث الغزاة، ص63.

[160] دليل إسرائيل العام، ص526.

[161] www.passia.org/index-pfacts

[162] غازي السعدي، أحاديث الغزاة، ص87.

[163] جواد الحمد، المجازر الصهيونية، ص35-47.

[164] انظر: صوت الشعب، 8 ديسمبر 1993، والأسواق (الأردن)، 25 مارس 1996.

[165] جواد الحمد، المجازر الصهيونية، ص54.

[166] المرجع نفسه، ص63-75.

[167] انظر: صحف الرأي، والقدس العربي، والخليج، 25-29 سبتمبر 1999، www.passia.org/index-pfacts

[168] www.pnic.gov.ps

[169] الخليج، 16 فبراير 2003.

[170] تحدثت جميع وسائل الإعلام عما حدث في جنين ومخيمها، ونقلت تصريحات لارسن، انظر مثلاً: الخليج، 19 إبريل 2002.

المشروع الصهيوني
والكيان الإسرائيلي

الفصل الأول

الحركة الصهيونية والفكر الصهيوني

الديانة اليهودية:

تقوم الديانة اليهودية حسبما يذكر اليهود أنفسهم على جملة أصول:

1. عقيدة توحيد الله.

2. عقيدة الاختيار الإلهي لبني إسرائيل، شعب الله المختار، أبناء الله وأحباؤه.

3. عقيدة توريث الأرض المقدسة فلسطين لإبراهيم عليه السلام ونسله من بني إسرائيل.

4. عقيدة المخلص المنتظر أو المسيا أو الماشيح كما يسمونه[1].

وحسب التيار اليهودي العام، وكما ذكر موسى بين ميمون، والذي يُعدُّ أحد أعظم علمائهم وفقهائهم، فإن اليهود يؤمنون بأن الله واحد ليس له مثيل، وأن العبادة تليق به وحده، وأنه مُنـزّه عن التجسيد وعن أعراض الجسد، وأنه الأول والآخر، وأنه عالمٌ بأحوال البشر. وأنه يجازي الذين يحفظون وصاياه ويعاقب من يخالفها، وأن هناك حياة بعد الموت. وأن اليهود يؤمنون بشريعة موسى، وأنها غير قابلة للنسخ. كما يؤمنون بعقيدة المخلّص المنتظر. ولا تزال الأصول الثلاثة عشر للدين اليهودي، التي ذكرها موسى بن ميمون، تمثل مرجعاً أساسياً لليهود لفهم دينهم[2]. غير أن دراسةً أكثر دقة لعقائد اليهود وفرقهم وتوراتهم وتلمودهم مع العودة إلى ما ذكره الله سبحانه وتعالى عنهم في القرآن الكريم، ستظهر مدى التشويه الذي لحق بمفهوم التوحيد، ومدى تحريف التصور عن الله سبحانه، كما سنرى في الصفحات التالية.

ويدعي اليهود أن عقيدتهم هي عقيدة القلة المثالية المختارة، وأن الرسالة اليهودية العالمية هي نشر السلام بين بني الإنسان، وتنحصر العقيدة اليهودية في بني إسرائيل وحدهم، أي أن هناك تطابقاً بين العقيدة والقومية. وحسب اختيار التيار العام لليهودية والمتبني في الكيان اليهودي فإن اليهودي هو المولود لأم يهودية بغض النظر عن إيمانه أو تدينه[3].

أما الكتب المقدسة عند اليهود فهي:

أولاً : العهد القديم (تناخ) Tenakh ويتكون من 39 سفراً، والقسم الأول منها هو التوراة Torah، وهو الأسفار الخمسة الأولى، والقسم الثاني هو أسفار الأنبياء Nebee- im، ويتكون من 21 سفراً، والقسم الثالث هو الصحف والكتب Ketubim، ويُعنى بالحِكَم - والأمثال والمزامير والأخبار التاريخية الخاصة باليهود بعد خراب الهيكل وبه 12

سفراً. وتنسب جمع هذه الأسفار إلى عزرا الكاتب عام 444 ق.م، أي بعد وفاة موسى عليه السلام بما يزيد عن 700 سنة.

ثانياً: التلمود Talmud، ومعناه التعاليم أو الشرح والتفسير وهو مجموعة من الشرائع المدنية والاجتماعية اليهودية المتوارثة، ويتكون من المشنا Mishna أي التثنية، أو الإعادة، وتعني في العبرية الحفظ والتعليم، وهي تشكل النص أو المتن، و القسم الثاني هو الجيمارا Gemara وتعني الإتمام وهي تمثل الشرح أو التفسير، وقد جمعت المشنا حوالي سنة 200م[4].

وقد تعرضت اليهودية للتحريف والتبديل عبر التاريخ، ذلك أن الله سبحانه لم يتعهد لهم بحفظ توراتهم، وعاش اليهود معظم فترات تاريخهم تحت دول وحضارات مختلفة حاولت فرض هيمنتها عليهم، وتأثروا بالثقافات والتقاليد المتعددة التي عايشوها، في أزمان وبقاع شتى.

وفضلاً عن التيار الذي حاول المحافظة على الأصول التي أشرنا إليها، فإنه قد ظهرت فرق أخرى خصوصاً في الفترة 200 ق.م - 1000م، وأبرزها:

1. **القراؤون Karaites وظهروا في العراق في القرن الثامن الميلادي، وهم لا يعترفون بشرعية التلمود، ويلتزمون بحرفية نصوص التوراة.**

2. **الفريسيون Pharisees، وهم يمثلون الجماهير الشعبية، وهم الذين يؤكدون على الزهد وصفاء النفس، ويرى فيهم اليهود آباءهم الروحيين. وهم يؤمنون بالتوراة والتلمود ويؤكدون على العيش وفق تعاليم التوراة دون التزام بحرفية نصوصه، وعُرفوا بجرأتهم في الاجتهاد والاستنباط، ويؤمنون بالبعث واليوم الآخر، وقد اتهمهم عيسى عليه السلام بالنفاق وأكل المال الحرام حسب أناجيل النصارى.**

3. **الصدوقيون Sadducees وهم يمثلون الطبقات الغنية المتنفذة والارستقراطية. وترجع بداياتهم إلى عهد الحكم الفارسي (القرن 6-4 ق.م)، وكان منهم كبار الكهنة (الحاخامات والأحبار)، الذين احتكروا الحكم في أمور الدين والدنيا عند اليهود منذ الحكم الفارسي. وهؤلاء ينكرون البعث الجسماني ويوم القيامة، كما ينكرون الملائكة والروح، ويرفضون العمل بالتلمود، لكنهم يتمسكون بحرفية شديدة بالتوراة ، ويرفضون كل أمر لم يثبت بنص بوصفه بدعة مستحدثة. وتصورهم للألوهية تصور قومي ، فالإله هو رب إسرائيل حصراً وهم شعبه، وشجع إنكارهم للبعث أفرادهم على الانغماس في اللهو والترف والإباحية.**

4. **الأسينيون Essenes وهؤلاء يمثلون ظاهرة دينية اجتماعية أقرب إلى الرهبنة المسيحية، فيعيشون حياة الزهاد القائمة على الجمع بين العبادة وإلغاء الملكية الخاصة وشيوعية المال واشتراك الجميع فيه كل حسب حاجته. وقد أنشأوا لأنفسهم تجمعات اشتراكية**

في أماكن متفرقة قائمة على التعاون في العمل والاشتراك في الانتاج والمال، وتعود نشأتهم إلى فترة المسيح عليه السلام[5].

وفي الواقع المعاصر ينقسم اليهود إلى قسمين رئيسين من الناحية الدينية[6]:

القسم الأول: يهود قوميون، أي على أساس الانتماء العرقي، وهم يرون أن يهوديتهم تكمن في قوميتهم وفي أسلوب حياتهم، وميراثهم الثقافي الاجتماعي، وهؤلاء فقدوا صلتهم بالعقيدة اليهودية والتعاليم الدينية ، ويوصفون بأنهم ملحدون أو علمانيون، ويذكر المسيري أن هؤلاء يمثلون أكثر من نصف يهود أمريكا، وأن نسبتهم أكثر من ذلك في يهود الاتحاد السوفييتي (سابقاً).

القسم الثاني: يهود يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة اليهودية، وهم ينقسمون بدورهم إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

1. اليهودية الأرثوذكسية: وهي وارثة اليهودية الحاخامية أو التلمودية، وهي امتداد للصيغة اليهودية التي سادت بين الجماعات اليهودية في القرون الوسطى وحتى أواخر القرن التاسع عشر، وهي الصيغة الرسمية المعتمدة في الكيان اليهودي الصهيوني في فلسطين، وأتباعها يؤمنون بالتوراة وأنها مرسلة من الإله، وأن كل ما جاء فيها ملزم.

2. اليهودية الإصلاحية: وهي التي تَحدّت اليهودية الحاخامية ، وأتباعها يمثلون مدرسة الاستنارة Haskalah التي تحكِّم العقل في كل شيء، وتحاول أن تفصل بين ما هو ديني فتحترمه وتلتزم به، وبين ما هو قومي فترفضه، ولذلك كانت ترفض فكرة العودة إلى فلسطين وفكرة المسيح المنتظر، كما ترفض فكرة الشعب اليهودي وتدعو إلى اندماج اليهود في البلاد التي يعيشون فيها. وأبرز روادها موسى مندلسون Moses Mendelssohn، وقد ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر. وفي منتصف القرن التاسع عشر كانت هذه الحركة قد فشلت في اجتذاب اليهود إليها في أوروبا، وبعد ذلك وجدت لنفسها متسعاً في أمريكا. ومن الملفت للنظر أن هناك يهوداً إصلاحيين في أمريكا ينتمون الآن إلى الحركة الصهيونية، ولهم نسبة تمثيل عالية فيها، أي أن هؤلاء حافظوا على الدور المحوري للعقل، لكنهم عادوا لإعطاء ولاءهم ودعمهم للكيان الصهيوني في فلسطين.

3. اليهودية المحافظة: وهي تحاول أن تجمع بين اليهودية الأرثوذكسية وبين اليهودية الإصلاحية وقد تزعمها ساباتو موریاس Morias (1823 - 1901). وسلمون شيختر Shechter (1830- 1915)، وهي تؤمن بالوحي السماوي لبني إسرائيل، وتتخذ موقفاً إيجابياً من فكرة العودة وإقامة الدولة اليهودية، كما تؤمن بالبنية العامة للتقاليد المتوارثة عن الحاخامات، لكنها تحتفظ بحق تفسيرها وتأويلها تبعاً للمصلحة ومقتضيات العصر. وهي على سبيل المثال تقبل الجمع بين الجنسين في الصلوات، وأداء جزء من الصلاة بالإنجليزية، وإدخال آلة الآرغن إلى المعبد، والذهاب للكنيس بالسيارة أو أي وسيلة آلية وهو ما لا تجيزه الأرثوذكسية.

ويرفض المحافظون عقيدة البعث ويوم القيامة، وهناك مدرسة كبيرة داخل اليهودية المحافظة دشنها مردخاي كابلان M.Kaplan ترى أن العقيدة اليهودية تعبيرٌ عن الروح الثابتة للشعب اليهودي، وأنها جزء من الإرث الحضاري العام التي تعد العقيدة أحد عناصره، شأنها في ذلك شأن اللغة والأدب وسائر الفنون. وبذلك يكون الشعب اليهودي هو مصدر الدين، ويكون الدين عبارة عن فولكلور قابل للتطور، شرط أن يصدر عن صميم الشعب اليهودي. وهي صورة تلغي بذلك مفهوم الألوهية وقيمة التشريع الإلهي. وبشكل عام تؤمن اليهودية الإصلاحية والمحافظة بحق المخلوق في التصرف وفق ما عليه العقل أو مقتضيات العصر، فيغير ويبدل الشرائع، بل ويسقطها أحياناً، ولذلك فهم لا يلتزمون الوصايا والنواهي ولا شعائر السبت، إلا الطعام الشرعي وعلى نحو جزئي ومن قبيل الفلوكلور. وقد أباحت اليهودية المحافظة والإصلاحية ترسيم النساء حاخامات، وأباحتا الشذوذ الجنسي بين الذكور والإناث، بل ويرسم الشواذ والسحاقيات حاخامات. ويذكر د. المسيري أن الأغلبية الساحقة من اليهود في العالم هي إثنية أو إصلاحية أو محافظة.

تُرى ما الذي يجمع بين هؤلاء؟ إنه باختصار شعورهم جميعاً بأنهم يهود!!

إن أولئك الذين يؤمنون بالتوراة والتلمود وحياً إلهياً، أو أولئك الذين يرونها مجموعة من الخرافات والأساطير يتفقون في النهاية أنها هي التي شكلت الوعي الجمعي العام لليهود، وكانت العامل الحاسم في تشكيل معالم حياتهم عبر العصور. وهناك شعور عام لدى اليهود أنهم فئة خاصة من البشر، لكنهم يختلفون في تفسير ذلك، إن كان بسبب تميزهم الديني واختيار الله لهم، أو بسبب ما يرونه "إمكانات خاصة وعبقرية"، تميزوا بها عن غيرهم، أو بسبب حَمْلِ اليهود أنفسهم لبذور العدواة ضدهم أينما حلُّوا، بحيث كانوا دائماً جسماً غريباً مرفوضاً من غيرهم. إن هذا الشعور بأنهم فئة خاصة أدى إلى تكريس ظاهرة الخوف والشك في الآخرين، فضلاً عن الاستعلاء عليهم، مما دفع عامة اليهود إلى التعاون للحفاظ على أمنهم وتحقيق مصالحهم، من خلال السعي إلى السيطرة على المؤسسات السياسية والاقتصادية والإعلامية في البلاد التي يعيشون فيها. ولجأوا إلى العمل الهادئ الخفي لتحقيق هذه المصالح، لأنهم يعلمون أن قلتهم العددية تمنعهم من العمل المكشوف الصارخ، وقد تثير العداء ضدهم.

اليهود في القرآن

يلفت نظر قارئ القرآن الكريم العدد الكبير من الآيات والمساحة الضخمة من المصحف التي تتحدث عن اليهود أو بني إسرائيل. فالآيات التي تتناول يعقوب (إسرائيل) عليه السلام وأولاده، الأسباط (ومنهم يوسف عليه السلام)، وموسى عليه السلام وقصته مع فرعون وبني إسرائيل، وكذلك قصص داود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، كثيرة جداً. ولعل مجموع هذه الآيات لا يقل عن نصف القرآن الكريم تقريباً. وفي هذه الآيات الكثير من العبر والعظات والخبرات والتجارب والدروس التي ينتفع بها المؤمنون في أمورهم الإيمانية والتربوية والسياسية والخُلقية. كما تكشف الأخلاق والطبائع العامة لليهود، ووسائل التعامل معهم[7].

وقبل أن نخوض في تفاصيل أخلاقهم وأوصافهم، فإننا نُنبِّه إلى ما درج عليه العديد من الكتاب المسلمين عند الحديث عن اليهود بما يفهم منه القارئ أن هذه الصفات والأخلاق هي صفات فطرية أو "جينية" تولد معهم ويتوارثونها، ولا سبيل إلى تغييرها فيهم، وأنهم كلّهم كذلك. ويطرحون ذلك بوصفه الفهم الشرعي السليم. ويبدو لنا ـ والله أعلم ـ أن هذا يخالف الفهم الشرعي السليم، وذلك بناء على النقاط المختصرة التالية:

ـ قوله صلى الله عليه وسلم «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[8]. فالأصل أن المولود يولد على فطرة التوحيد، أما الدِّين فيكتسبه من أبويه أو من محيطه الاجتماعي.

ـ أن الإسلام دعا اليهود إلى الدخول فيه والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وهي دعوة مفتوحة قائمة إلى يوم القيامة. قال تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ﴾[9]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[10]. وقد دخل في الإسلام عدد من اليهود الذين أصبحوا من كرام الصحابة مثل عبد الله بن سلام، وأم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب، ولو كان اليهود "مفطورون" على الكفر وغير قابلين للتغيير لما دعاهم الإسلام لدعوته، ولما دخل أمثال هؤلاء في دينه، ولجاز للبعض أن يتهمهم بالنفاق وإخفاء الكفر.

ـ إن الخطاب القرآني لقوم معينين أو لوصفهم لا يُقصد منه دائماً أنه يشمل الجميع ودون استثناء لأحد. وإنما قد يشير إلى سلوك عام في فئة معينة قد يكون لها شواذها. كما أن هذا السلوك أو بعض الصفات قد تختلف من زمان إلى آخر ومن مكان إلى آخر. فقد كان سلوك بني إسرائيل مع موسى عليه السلام مثالاً للجبن والخوف والعجرفة، فلما كتب الله عليهم التيه أربعين سنة نشأ جيل جديد صلبٌ من بني إسرائيل أنفسهم، هو الذي قاده نبي الله يوشع عليه السلام وانتصر بهم على أعدائه. وليس كل بني إسرائيل في عهود ما قبل الإسلام كفار سيئون فقد خرج من بينهم الأنبياء والأولياء والشهداء.

والخطاب القرآني العام ينسب الفعل إلى من قام به، وإلى من وافق عليه، أو سار على دربه، على أساس الانتماء للجماعة التي قامت بالفعل. فقد خاطب القرآن يهود المدينة بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ﴾[11] مع أنهم لم يقوموا بأنفسهم بقتل أي نبي، وتعدَّد الخطاب لهم باتخاذ العجل: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾[12] ورفع جبل الطور فوق رؤوسهم ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾[13] وغير ذلك. والقرآن هنا لا يحدّد أشخاصاً بعينهم وإنما يخاطبهم بحكم الانتماء إلى الفئة التي قامت بالفعل ومن سار على دربها.

ويبدو لنا أن الصفات الذميمة التي ذكرها القرآن في حق اليهود مرتبطة بمدى التزامهم بمجموعة التعاليم المحرفة المذكورة في التوراة والتلمود، وما رسخ في وعيهم وقلوبهم من تراث وتقاليد تؤكد على عقلية الاستعلاء والشعب المختار وغير ذلك. وهم يتفاوتون في هذه الصفات حسب إيمانهم الديني، وتأثيرات البيئة والتراث عليهم. ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما يؤيد هذا التفاوت فقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْه بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾[14] واليهود من أهل الكتاب طبعاً، وهم بالتالي يتفاوتون في درجات الأمانة.

وعلى ذلك، فإن الرؤية الإسلامية لليهود ليست رؤية منغلقة معادية من زاوية عنصرية، كما فعل الغرب النصراني أو أوربا بعقائدها العنصرية والقومية والتي أحدثت ما يسمى بـ "العداء للسامية"، وهو العداء لليهود لمجرد أنهم يهود. فالرؤية الإسلامية رؤية عالمية منفتحة مبنية على التسامح ومراعاة الحقوق الدينية والمدنية لأتباع الديانات الأخرى. وبالتأكيد، فإن المسلمين يحبون في الله ويبغضون في الله، ويوالون الله ورسوله، ويبرؤون مما سوى ذلك. ولكن ذلك لا يمنعهم من العدل، وإعطاء الحقوق، وحفظ الحرمات. ولذلك، وجد اليهود الأمن والحماية تحت رعاية الدولة الإسلامية، بينما كانوا يعانون من التمييز والاضطهاد في أوربا وغيرها. غير أن هذا، لا يعني أن نُسِّلم لليهود بأية حقوق في فلسطين أو أرض الإسلام، وإنهم ـ أو غيرهم ـ عندما يحتلون أرضنا فيجب قتالهم، واسترداد حقوق المسلمين.

ولا يمنع ما سبق من ملاحظة أخيرة، هي أن السلوك اليهودي العام ـ كما يشهد الواقع ـ ما زال على عدائه للمسلمين. وأن الغالبية الساحقة لليهود تؤيد المشروع الصهيوني في فلسطين، واغتصاب أرض المسلمين. ولا تزال الكثير من المعاني التوراتية المحرفة والتلمودية والتراث العنصري تؤثر بعمق في تفكيرهم وتعاملهم ونظرتهم للآخرين.

لقد كانت حروب المسلمين طوال القرون الماضية متركزة على الصراع مع دول أوربا المسيحية الصليبية. ولم ينشغل المسلمون طوال تاريخهم (بعد العهد النبوي) بحرب اليهود. ولم يفعلوا ذلك إلا بعد ما جاء اليهود الصهاينة أنفسهم غاصبين محتلين لأرض المسلمين. إن سماحة الإسلام وإنسانيته جعلت رسول الله r يقف من مجلسه عندما مرّت به جنازة يهودي، وعندما ذكر له أنها جنازة يهودي، قال: «أليست نفساً»؟![15] وقد عاقب عليه السلام بني قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر على ما اقترفوه بحق الإسلام والمسلمين. لكن

ظلَّت لليهود من أهل الذمة أحكامهم وحقوقهم الدينية والمدنية الكاملة. وتوفي عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير أخذها عليه السلام رزقاً لعياله[16].

وعلى أي حال، فإن سوء الفهم الذي ذكرناه ناتج عن حالة "التعميم" التي يتعامل بها بعض العلماء والمفكرون عندما يتحدثون عن اليهود وبني إسرائيل. أي أنهم يتعاملون مع الظاهرة العامة أو الغالبة على اليهود كما يحاول أي باحث عندما يصف المظاهر العامة لقوم أو حزب أو طائفة من الناس، فيوصف العرب مثلاً بالكرم، ويوصف الإنجليز بالدهاء، واليابانيون بالجد والمثابرة، وهكذا. وعندما تتم مراجعة هؤلاء العلماء فإنك تجدهم يفرقون تماماً بين اليهود بوصفهم أهل كتاب وذمة وبين اليهود المعتدين الغاصبين، كما يفرقون بين أنبياء بني إسرائيل وصالحيهم، وبين من أصرُّوا على الكفر. وإنما لجأنا للإشارة إلى هذا الأمر هنا لكثرة ما أخذت تردده الدعاية الصهيونية ـ الغربية من اتهام الإسلام والمسلمين "باللاسامية" والعنصرية وفق التعريفات الغربية لهذه المعاني.

أما نظرة القرآن الكريم لليهود فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أولاً: اليهود أو بنو إسرائيل قبل الإسلام صنفان: صنف مؤمنون صالحون وصنف ظالمون عصاة فاسقون. وقد مدح القرآن مؤمنيهم كما ذمّ فاسقيهم. ولا يتعامل القرآن مع بني إسرائيل أو اليهود بوصفهم جنساً أو قوماً، يُقبل بأكمله أو يُرفض بأكملة، وإنما باعتبارهم أفراداً ينتمون إما إلى معسكر الإيمان أو معسكر الكفر. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[17]. وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا . وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[18].

ثانياً: إن الظاهرة الغالبة على بني إسرائيل السابقين كانت الكفر والعصيان. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾[19]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[20]. وقال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[21]. وقال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[22].

ثالثاً: ذمَّ الله سبحانه عدداً من سلوكيات وأخلاق تلك الفئة الغالبة من اليهود، وكشف العديد من صفاتها حتى يتنبه المؤمنون في التعامل معها:

1. شدة العداوة للمؤمنين وبغضهم: قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[23]. وقال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ . هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ

قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ[24]. وقال تعالى: وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ[25].

2. قتل الأنبياء والرسل: قال تعالى: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ[26]. وقال تعالى: أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ[27].

3. تحريف التوراة وتزييف كلام الله والافتراء عليه: قال تعالى: أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[28]. وقال تعالى: مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ[29]. وقال تعالى: وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[30]. وقال تعالى: الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء[31]. وقال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ[32].

4. اتخاذ الآلهة والوقوع في الشرك: فقد عبدوا العجل، قال تعالى: وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ[33]. وقال تعالى: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ[34]. وقال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ. وقال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ[35].

5. نشر الفتنة والفساد: قال تعالى: كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ[36].

6. الغيرة والحسد وعدم حب الخير للمؤمنين: قال تعالى: إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا[37]. وقال تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم[38].

7. نقض المواثيق والعهود: قال تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ[39]. وقال تعالى: أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ[40]. وقال سبحانه: فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً[41].

8. الاستهزاء بالدين وشعائره: قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء[42].

9. أكل الربا والمال الحرام: قال تعالى: وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ[43].

وقال تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾[44].

10. قسوة القلوب: قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[45]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[46].

11. الجبن وحب الحياة: قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[47]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ ... ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[48]. وقال تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ﴾[49].

12. وحدتهم ظاهرية وحقيقتهم اختلاف: قال تعالى: ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[50].

13.الذلة والمسكنة: قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾[51]. قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾[52].

رابعاً: نبه الله سبحانه إلى أن الصراع مع اليهود مستمر وأن عدواتهم دائمة: قال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾[53]. وقال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾[54].

خامساً: أشار سبحانه إلى مرحلتين من علو بني إسرائيل في الأرض كما في فواتح سورة الإسراء يرافقه فساد كبير. قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[55].

سادساً: ذكر الله سبحانه أن ضرراً وأذى سيصيب المؤمنين بسبب كيد هؤلاء اليهود وعلوهم، ولكنه ضررٌ عارض سينتهي بالتزام المؤمنين بدينهم وتحقيق وعد الله سبحانه لهم بالنصر. قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾[56]. وخاطب سبحانه بني إسرائيل مخبراً لهم عما سيفعله المؤمنون بهم ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾[57].

وهناك رأيان لهما وجاهتهما في فهم العلو اليهودي الحالي إن كان هو العلو الأول أو الثاني. فيرى كثيرون أن العلو الحالي هو العلو الثاني، لكن يختلفون في العلو الأول، فيرى بعضهم أنه كان في أثناء دولة بني إسرائيل في فلسطين، التي قضى عليها الأشوريون والبابليون (قُضي على مملكة إسرائيل سنة 722ق.م على يد الملك الأشوري سرجون الثاني، وقضي على مملكة يهودا سنة 586ق.م على يد الملك البابلي نبوخذ نصر). ويرى آخرون أن العلو اليهودي الأول كان في عهد النبي r عندما قُضي عليهم في المدينة وخيبر.

وهناك من يرى أن العلو اليهودي الحالي هو العلو الأول مدللين أن علو بني إسرائيل أيام داود وسليمان عليهما السلام لم يكن فساداً ولا إفساداً، وبعد ذلك كان شأن اليهود ضعيفاً غير مؤثر بين الحضارات والأمم سواء عندما استمرت مملكتهم أو حكمهم الذاتي في فلسطين، أو حتى في العهد النبوي إذ كان شأنهم ضئيلاً مقارنة بفارس والروم وغيرها، وإن تحقق فيه فساد إلا أنه لم يشمل الأرض. أما الآن فيرون أن فسادهم وإفسادهم يشمل الأرض كلها، من خلال قوتهم ونفوذهم الدولي، وتأثيرهم في مراكز القرار في أقوى دول العالم.

جذور ظهور المشروع الصهيوني

لقد بدأت معالم مشروع إنشاء الدولة اليهودية على أرض فلسطين بالاتضاح وفق برنامج ورؤية محددة عندما أنشأ اليهود بقيادة ثيودور هرتزل المنظمة الصهيونية العالمية في بال بسويسرا، في 27-29 أغسطس لعام 1897، حيث انعقد مؤتمرها الأول، وقرر العمل على إنشاء هذه الدولة.

تُرى؟ ما الذي جعل اليهود ينتبهون لأنفسهم فجأة، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ليبدءوا السعي لإنشاء كيانهم الغاصب في فلسطين؟ ما الذي دفعهم إلى العمل السياسي المبرمج بعد أن انقطعت صلتهم عملياً بفلسطين منذ سنة 132م، أي قبل ذلك بألف و 800 عام تقريباً؟، ولم يبق من الذكرى سوى تاريخ مضطرب مشوش إلى جانب الشعوب والحضارات العظيمة التي حكمت المنطقة، ولم يسكن هذه الأرض قبلهم سوى أقلية قليلة لا يؤبه لها عاشت كغيرها من الطوائف في ظل التسامح الإسلامي. بل، وما الذي يدفع يهود الخزر "الأشكناز"، وهم 80% من يهود العالم في عصرنا، إلى التفكير في فلسطين دولة ووطناً، وهم لا يرتبطون بها تاريخياً على الإطلاق، فلا هم من أحفاد بني إسرائيل القدامى، ولا هم سكنوا هذه الأرض أو استوطنوها قبل ذلك أبداً؟!وذلك حسبما تشير دراسات عدد من الباحثين اليهود أنفسهم أمثال آرثر كوستلر وغيرهم. ويبرز تساؤل آخر عن كيفية تحول عقلية اليهود الذي كانوا يؤمنون طوال الفترة الماضية أنهم استحقوا الشتات بسبب خطاياهم، وأن عليهم انتظار قدوم المسيح الخاص بهم "الماشيح"، أو "المسيا"، وعند ذلك يجوز لهم الذهاب والاستقرار في فلسطين لإقامة كيانهم؟

إنه لا يمكن توضيح كل ذلك إلا بفهم عدد من التحولات الهامة التي حدثت في التاريخ الأوروبي الحديث خصوصاً منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وكان أبرزها:

1. ظهور البروتستانتية وانتشار "الصهيونية غير اليهودية"[58]: فقد أحدثت البروتستانتية بوصفها حركة إصلاح ديني بعثاً للفكر العبري اليهودي، عندما ركزت على الإيمان بالعهد القديم "التوراة"، والإيمان بأن اليهود سيُجمعون في فلسطين من جديد للإعداد لعودة المسيح المنتظر، الذي سيقوم بتنصيرهم، وبالتالي يبدأ عهد يمتد لألف سنة من السعادة.

وقد تطور الاهتمام بالتوراة بين البروتستانت (الذين شكلوا أغلبية السكان في بريطانيا والولايات المتحدة وهولندا ونصف سكان ألمانيا. .)، باعتبارها كلمة الله والمرجع الأعلى للسلوك والاعتقاد. ومن خلال قراءتهم للتوراة التي طبعت ونشرت بكل اللغات الأوروبية ارتبطت فلسطين في الأذهان بكونها "أرض الشعب المختار "اليهود"، وأصبح اليهود بالنسبة إليهم هم " الفلسطينيون" الغرباء الموجودون في أوروبا؟!، وفي سنة 1621 ظهر أول كتاب معروف في بريطانيا حول توطين اليهود في فلسطين لمؤلفه البريطاني السير هنري فنش، H. Finch بعنوان البعث العالمي الكبير أو عودة اليهود.

وقد تكرس هذا الأمر في عقائد الأوروبيين وفكرهم وأدبهم وفنهم، وظهر في كتابات مشاهيرهم أمثال: مارتن لوثر M. Luther (1483- 1546)، وإسحاق نيوتن I. Newton (1643- 1727)، وجان جاك روسو J. Rousseau (1712-1778)، وبريستلي J. Priestly (1733- 1804)، وغيرهم. وهذا أصبحت فكرة ضرورة إعادة فلسطين لما يسمى أصحابها "اليهود" شائعة.

وقد ظهرت انعكاسات هذه الفكرة (فضلاً عن الروح الصليبية)، في أذهان القادة البريطانيين السياسيين والعسكريين الذين تولوا احتلال فلسطين 1917- 1918، وإعطاء وعد لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين من أمثال رئيس الوزراء لويد جورج، وملك بريطانيا جورج الخامس وقائد القوات البريطانية التي احتلت فلسطين اللنبي، وعَدَّت شخصيات بريطانية نفسها بمثابة "الأداة التي أرسلها الرب لتحقيق الوعد وإرجاع الأرض المقدسة إلى بني إسرائيل".

وهذا ما يعرف بالصهيونية غير اليهودية، حيث وجدت الفكرة الصهيونية أرضاً خصبة وبيئة مناسبة واستعداداً شعبياً وسط مسيحيي أوروبا خصوصاً البروتستانت لقبولها ونموها وتحققها.

2. التغيرات السياسية في أنظمة الحكم الأوروبية: خدمت الثورةُ الفرنسية (ضد الحكم الملكي سنة 1789) اليهودَ بشكل مباشر وغير مباشر. فقد أخذت تتغير طريقة تعامل أنظمة الحكم الأوروبي مع اليهود الذين كانوا يُعاملون باستحقار أو كفئة من الدرجة الثانية، ويسكنون في أحياء خاصة بهم "جيتو". فشهد القرن التاسع عشر في أوروبا الغربية والوسطى عملية "تحرير" لليهود، وتحطيم أنظمة الجيتو، ومعاملة اليهود كمواطنين كاملي الأهلية و الحقوق بشكل مساو للآخرين. وانعكس ذلك إيجاباً على قدرة اليهود في اختراق هذه المجتمعات، وتحسين مكانتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وتأثر اليهود منذ أواخر القرن الثامن عشر بما يعرف بحركة الاستنارة "الهسكلا"، في أوساطهم. وكان أبرز مُنظِّريها موسى مندلسون M. Mendelssohn (1726- 1786)، وهوفيلسوف يهودي ألماني. وقد دعت هذه الحركة إلى أن يحاول اليهود الحصول على حقوقهم المدنية كاملة عن طريق الاندماج في المجتمعات التي يعيشون في وسطها، ويكون الولاء للبلاد التي ينتمون إليها وليس "لقوميتهم الدينية". ويرون أن ذلك ممكن بفصل الدين اليهودي عن القومية اليهودية، حتى تتلاءم مع الأنظمة العلمانية في أوروبا. وقد استمرت هذه الحركة قوية حتى 1880، وأسهمت من جهتها في إنهاء أنظمة الجيتو،

والانعزالية اليهودية، والاستفادة من الإمكانات الأوروبية المتاحة، وزيادة النفوذ اليهودي[59].

وفوق ذلك فقد تمكن اليهود من خلال سيطرتهم على المنظمات الماسونية من ضمان قدر أكبر من النفوذ على رجال السياسة والاقتصاد والإعلام في عدد من البلدان مثل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. بل وتمكن يهود الدونمة من اختراق المؤسسات العثمانية والسيطرة على حزب الاتحاد والترقي الذي قام بإسقاط السلطان عبد الحميد الثاني، وتسبب بشكل كبير في إنهاء الطابع الإسلامي للدولة العثمانية، بل وإلغاء الخلافة نفسها فيما بعد.

3. انتشار الظاهرة القومية في أوروبا: فقد انتشرت الحركات القومية في أوروبا وأصبح كل مجتمع أوروبي يؤكد على قوميته الخاصة ويبرز مزاياها، واختلافها عن الآخرين، فتوحَّد الألمان تحت زعامة بسمارك، وتوحَّد الإيطاليون تحت زعامة كافور، وركزت القوميات الألمانية والسلافية (الروسية خصوصاً) على الروابط العضوية، وكانت ترى تميّزها عن غيرها والاختلافات - وليس المساواة - مسألة جوهرية، وبالتالي صنف اليهود في ألمانيا والمناطق السلافية في أوروبا الشرقية وروسيا على أنهم "أغيار" غرباء مما منع من فرص اندماجهم. وقد زاد من تفاقم الوضع تضاعف أعداد السكان اليهود خصوصاً في أوروبا الشرقية (بولندا بالذات)، بشكل طرح مشكلة الفائض السكاني اليهودي وإمكانية استيعابه. وقد خدمت الظاهرة القومية في أوروبا الفكرة الصهيونية في اتجاهين

الأول: أن اليهود أنفسهم أخذوا يتساءلون عن كيفية تحقيق هويتهم القومية، ووجدوا أن هذا غير ممكن ما لم يتجمعوا من شتاتهم على أرض محددة "فلسطين"، حتى تكتمل مواصفات دولتهم القومية، لأنهم وضعهم في أوروبا هو وضع "شعب بلا أرض".

الثاني: أسهمت ظاهرة القومية في فشل حركة الهسكلا "التنوير" أو الاندماج في أوروبا الشرقية، مما شجع اليهود على البحث عن بدائل أخرى، سواء بالانكفاء على الذات وانتظار المخلص "المسيح المنتظر"، أو المشاركة في الحركات الثورية في سبيل تغيير الأوضاع، أو بالهجرة إلى أوروبا الغربية وأمريكا، أو بالسعي لتحقيق قوميتهم الخاصة.

4. ظهور "اللاسامية" ونشوء المشكلة اليهودية: وهي مرتبطة بالنقطة السابقة، إذ إن الوضع في روسيا أسهم بشكل أساسي في تفجير المشكلة اليهودية ، فلم يتفاعل يهود روسيا كثيراً مع حركة التنوير "الهسكلا"، وقاوموا عمليات الدمج والتحديث الروسية التي تميزت بالفوقية، والتي نفذت عن طريق القسر والإرهاب، والتي لم تعتمد المساواة أساساً لإنهاء انعزالية اليهود وحياة الجيتو. ثم إن الطبيعة اليهودية المحافظة المتشككة أسهمت في تفاقم الوضع هناك. كما أن مشاركة اليهود بفاعلية في قيادة الحركات الثورية اليسارية زادت من عداء السلطات القيصرية الملكية الروسية ضدهم، وانفجرت العداوة ضدهم بشكل مكشوف إثر اغتيال قيصر روسيا الكسندر الثاني سنة 1881، والتي اتهم فيها اليهود. فبدأت موجة من

الإجراءات العديدة القاسية ضد اليهود سميت اللاسامية، أي توجيه العداء لليهود لكونهم ينتمون إلى العرق السامي، وصاحب هذه الإجراءات أحياناً أحداث دموية، مثل مذابح كيشينيف، ومن أمثلة القوانين التي أخذت تصدر تباعاً: حق السكان الروس في طرد اليهود من قراهم، واليهودي الذي يغادر قريته لا يسمح له بالعودة، ومنع تشغيل اليهود في المناطق الريفية، واليهودي الذي يهجر مهنته للعمل في التجارة يسقط حق إقامته في روسيا، وتحريم إقامة اليهود في موسكو، وحرمان اليهود من حق الانتخاب والترشيح لمجالس البلديات. وقد أدى كل ذلك إلى ظهور ما يعرف بـ" المشكلة اليهودية"، إذ إن ملايين اليهود أصبحوا يبحثون عن فرصة للخلاص مما هم فيه، كما تمكنوا من تحويل عواطف يهود أوروبا الغربية وأمريكا نحوهم، وبدأت أعداد هائلة من اليهود في الهجرة إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية والجنوبية[60].

وبلغ عدد اليهود الذين تركوا بلدانهم الأصلية (خصوصاً روسيا وأوروبا الشرقية)، خلال الفترات 1881- 1914، نحو مليونين و 367 ألفاً، تمكن 28 ألفاً منهم من النفاذ إلى فلسطين، رغم الإجراءات العثمانية لكبح هجرتهم[61]. ووجدت الحركة الصهيونية في هذه الأجواء فرصة خصبة للعمل بالدعوة إلى أنه لا يمكن حل مشكلة اليهود بمجرد الهروب منها (الهجرة)، و لكن الحل الجذري يكمن في إقامة كيان آمن مستقل يحكمه اليهود أنفسهم، و أيدت أوروبا الغربية هذه الفكرة تخفيفاً من عبء الهجرة اليهودية إلى أرضها، واستجابة لعواطفها الدينية البروتستانتية، وتحقيقاً لأهداف سياسية واستراتيجية أخرى.

وعلى ذلك فإن العداء لليهود في أوروبا أسهم بشكل لا يقل عن العواطف المؤيدة لليهود في تأسيس الحركة الصهيونية، لأنه أوجد مشكلة فعلية يجب السعي مباشرة وبسرعة لحلها، وقد تمكن اليهود من استثمار ذلك بشكل كبير، وكان على أهل فلسطين والعالم الإسلامية أن يدفعوا فاتورة مشاكل اليهود ومعاناتهم في أوروبا؟!!

5. بروز العوامل الاستراتيجية والسياسية: كان نابليون بونابرت N. Bonaparte (1769- 1821) أول رجل دولة يقترح إقامة دولة يهودية في فلسطين سنة 1799، وذلك في أثناء حملته المشهورة على مصر، وبمناسبة هجومه على فلسطين وحصار عكا. ورغم أن نص البيان الذي أصدره لليهود تهيمن عليه الروح الدينية، إلا أن بعض الباحثين يرون أن ذلك كان ينسجم مع اهتمامه السياسي في الاستفادة من اليهود في خططه الاستعمارية[62]. وقد فتحت حملة نابليون على مصر وفلسطين عيون بريطانيا على المنطقة فافتتحت قنصلية لها في القدس، كلفتها بتوفير الحماية لليهود بشكل عام وليس لليهود البريطانيين فقط[63]. وعندما تمكنت بريطانيا من السيطرة على قبرص 1878 وعلى مصر 1882 أصبحت الدولة الاستعمارية الوحيدة التي لها قواعد في شرق البحر المتوسط، وكان لقناة السويس أهمية كبرى كشريان حيوي للمواصلات البريطانية مع مستعمراتها في الهند وجنوب شرق آسيا وغيرها، وخشية من بروز خطر إسلامي على هذه المصالح أو قدوم أي استعمار منافس (فرنسي، ألماني، روسي..) إلى المنطقة، ظهرت أهمية احتلال فلسطين لتأمين الجناح الشرقي لقناة السويس وقد أشار إلى الجانب الاستراتيجي عدد من قادتهم

ومفكريهم وكتابهم، من أمثال كتشنر، وكيرزون، ولويد جورج، وثومبسون[64].

6. فكرة الدولة الحاجزة وإضعاف العالم الإسلامي وإبقائه مفككاً: وهي مرتبطة بالنقطة السابقة لما لهذا الأمر من أهمية استراتيجية كبرى لدى الدوائر الغربية، لكننا وضعناها في نقطة منفصلة لأن لها أبعاداً دينية وتاريخية وحضارية.

فقد عاش العالم الإسلامي وأوروبا المسيحية ثلاثة عشر قرناً من الصراع والتنافس والحروب، سواء كان ذلك على الجبهة الإسلامية البيزنطية، أو الحروب الصليبية، أو الصراع على الأندلس (إسبانيا والبرتغال)، أو الصراع العثماني الأوروبي، وبشكل عام كانت الكفة راجحة بأيدي المسلمين طوال أحد عشر قرناً، وكان الأوروبيون لا يكادون يفرحون بسقوط دولة مسلمة إلا وتظهر مكانها دولة أشد قوة، وما كانوا يسددون ضربة للعالم الإسلامي، إلا ويجدون أن المسلمين يستوعبون الصدمة ويقومون بحيوية متميزة برد الصاع صاعين وتحقيق نجاحات أكبر. فما أن انتهت دولة الراشدين التي فتحت الشام ومصر وأرمينيا من أيدي النصارى، حتى قامت الدولة الأموية التي فتحت شمال إفريقيا والأندلس وجنوب فرنسا. وبعد قيام الدولة العباسية تم فتح صقلية، واستوعب المسلمون صدمة الحروب الصليبية فقامت الدول النورية والأيوبية والمملوكية بتدمير الصليبيين ودحرهم. وجاء العثمانيون ليفتحوا آسيا الصغرى (الأناضول) والقسطنطينية، وليسقطوا الامبراطورية البيزنطية، ويفتحوا بلاد شرق أوروبا مما بدا رداً عملياً على سقوط الأندلس، وإبرازاً للحيوية الإسلامية المتدفقة، والتي ظلت على ألَقها وريادتها حتى القرن الثامن عشر.

لقد كان هناك دائماً دولة للمسلمين تكون القوة الأولى في العالم، أو أحد القوى الكبرى على الأقل، ويبدو أن الضعف العثماني وتفكك قوة المسلمين وتأخرهم الحضاري، خصوصاً في القرن التاسع عشر، قد أعطى الغرب الأوروبي المثقل برصيد تاريخي من الخصومة والعداء فرصةً ذهبية لا تعوض، فكان السؤال البارز هو كيفية ضمان ألا تظهر قوة إسلامية كبرى تحل مكان الدولة العثمانية حال سقوطها، وتهدد من جديد مصالح الغرب ومطامعه؟؟، ولذلك كانت هناك فكرة الدولة الحاجزة التي تغرس في قلب العالم الإسلامي وعند نقطة اتصال جناح العالم الإسلامي في آسيا بجناح العالم الإسلامي في إفريقيا، بحيث يفصل بينهما كيان غريب معاد يمنع أي وحدة أو نهضة إسلامية محتملة، ويكون رأس رمح لضرب أي نمو حضاري قوي في المنطقة. أو على الأقل فإنه سيشغل العالم الإسلامي بمشكلة طويلة معقدة تستنـزف طاقاته وجهوده وتبقيه إلى أبعد مدى ممكن في فلك التبعية والضعف و الحاجة للعالم الغربي. وكما سيكون الغرب بحاجة ماسة لهذا الكيان لخدمة هذه الأهداف، فإن هذا الكيان سيكون بدوره بحاجة ماسة للغرب لضمان وجوده ونموه واستمراره، مما يوجد علاقة تحالف استراتيجي راسخ بين الطرفين يكون شعارها ضمان ضعف وتفكك وتخلف العالم الإسلامي.

وقد تكرست فكرة الدولة الحاجزة في توصية مؤتمر لندن الاستعماري الذي عقد سراً في لندن خلال الفترة 1905- 1907، بدعوة من حزب المحافظين البريطاني واشتركت فيه مجموعة من كبار علماء التاريخ، والاجتماع والجغرافيا، والزراعة والبترول والاقتصاد، وناقش سبل تحقيق المصالح الغربية والهيمنة على المنطقة الإسلامية وغيرها. ورفع المؤتمر توصياته إلى رئيس الوزراء البريطاني آنذاك (كامبل بنرمان C. Bannerman) وقد أكد فيها أن إقامة حاجز بشري قوي وغريب في منطقة شرقي البحر المتوسط وعلى مقربة من قناة السويس، قوة عدوة لشعب المنطقة، وصديقة للدول الأوروبية ومصالحها، هو التنفيذ العملي العاجل للوسائل والسبل المقترحة[65].

وقد أدركت الحركة الصهيونية أن مشروعها في إنشاء دولة يهودية في فلسطين لن يكتب له النجاح إلا برعاية دولة كبرى وحمايتها، ولذلك عرضت مشروعها هذا في ضوء المصالح التي يمكن أن تجنيها القوى الاستعمارية الكبرى، وهو ما أكده رئيس المنظمة الصهيونية العالمية هرتزل لوزير المستعمرات البريطاني جوزيف تشمبرلن عندما التقاه سنة 1902 وقال له إن قاعدتنا يجب أن تكون في فلسطين، والتي يمكن أن تكون "دولة حاجزة" بحيث تؤمن المصالح البريطانية[66].

وهكذا، فإن تضافر العوامل السابقة مجتمعة هيأ الظروف المناسبة لبدء المشروع الصهيوني وإكسابه طبيعة عملية لينشأ بعد ذلك ما يعرف بـ"القضية الفلسطينية".

المنظمة الصهيونية العالمية

الصهيونية هي حركة سياسية تسعى لحل المشكلة اليهودية عن طريق ما يسمى "إعادة" توطين اليهود في فلسطين "أرض الميعاد"، وإنشاء الدولة اليهودية فيها[67]. وحسب مصطلحات الصهاينة أنفسهم فإنها "حركة وطنية لإعادة الشعب اليهودي إلى وطنه، واستئناف السيادة اليهودية على أرض إسرائيل. وإن اليهود من كل الاتجاهات يميناً ويساراً، متدينين وعلمانيين تجمعوا لتشكيل الحركة الصهيونية وعملوا معاً لتحقيق أهدافها"[68].

ويحمل التعريف الصهيوني للحركة الصهيونية الكثير من التضليل، فهي لا تنطبق عليها مفاهيم الحركات الوطنية التي تنبع وسط شعب موجود في أرض معينة ويواجه تحديات داخلية أو خارجية. كما أن لفظة الشعب اليهودي تحمل تضليلاً كبيراً، فاليهود بتشكيلهم الحالي ينتمون إلى عرقيات وقوميات مختلفة، وأغلبيتهم الساحقة من يهود الخزر الذين يعودون إلى قبائل تركية تترية قديمة، فضلاً عن يهود العرب والفلاشا السود وغيرهم والتضليل نفسه ينطبق على مصطلح "أرض إسرائيل" الذي يلغي نحو أربعة آلاف عام من التاريخ المعلوم،لم تكن فيه الأرض تعرف بهذا الاسم، ولم تكن تحت سيادة اليهود، وإذا ما أراد اليهود الخزر العودة إلى أوطانهم، فلربما كان الأولى بهم التحدث عن مناطق شمال القوقاز بين البحر الأسود وبحر قزوين.

وعلى أي حال، فإن كلمة صهيونية قد تحولت إلى مصطلح سياسي على يد الكاتب النمساوي ناثان برنباوم N.Brinbaum (1864- 1937) ليعبر عن تحول النـزعات والتطلعات الدينية اليهودية التقليدية - التي بدأت في الظهور منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي - إلى حركة سياسية[69]. وقد كان ذلك سنة 1893 عندما نشر كتابه باللغة الألمانية:" الإحياء القومي للشعب اليهودي في وطنه بوصفه وسيلة لحل المشكلة اليهودية"، ويُرجع آخرون هذا المصطلح إلى برنباوم نفسه عندما استخدم اللفظة لأول مرة في مقال كتبه سنة 1886 بعنوان التحرر الذاتي Selbest – Emanzipation.[70]

مفكرو الصهيونية وروادها الأوائل:

انقطع آخر تواجد لليهود على جزء من أرض فلسطين يحتمل صبغة سياسية في سنة 135م، ومنذ ذلك الوقت ا حتفظ متدينو اليهود بنوع من الصلة والأشواق الروحية، التي لم تكن تعبر عن نفسها بأكثر من الزيارة أو الهجرة الفردية، مستفيدة من سماحة الإسلام والحكم الإسلامي، الذي بدأ سنة 636م، ودون أن تمثل إطلاقاً مشروعاً سياسياً، أو أدنى خطر على هوية الأرض وسكانها المسلمين.

وكان شبتاي زفي Shabbetai Tzvi (1626 - 1676)، الذي ولد في أزمير في تركيا وعاش في رحاب الدولة العثمانية، وادعى أنه المسيح الذي ينتظره اليهود، من أوائل من دعا إلى تجديد الهيكل في القدس، وإلى تحطيم قيود الذل والانحطاط واحتلال المركز اللائق بين أمم العالم، وتكوين لجنة تمثل اليهود في 15 بلداً، وتتخذ القرارات لتنفيذ هذا المشروع، بحيث يكون واجباً على اليهود جميعاً قبولها والخضوع لها، ودعا إلى أن يتم ذلك بالتنسيق مع فرنسا، أما الأرض التي دعا إلى استعادتها فهي فلسطين وإقليم الوجه البحري من مصر. ودعا اليهود " ألا يدخروا وسيلة أو تضحية في سبيل الوصول إلى هذه الغاية، أي الرجوع إلى بلادنا حيث يمكن أن نعيش في ظل شرائعنا الخاصة". غير أن الدولة العثمانية سجنته فأعلن إسلامه لكنه ظل على وفائه ليهوديته[71].

أما الحاخام يهودا القالي (القلعي) (1878 - 1798) Alkalai المولود في سرايبفو (عاصمة البوسنة)، فقد تصور في سنة 1843 أن الحل العملي "لاسترجاع" الأرض المقدسة هو في الدعوة لعقد جمعية عامة كبرى لليهود، وإقامة صندوق قومي لشراء الأراضي وإقامة صندوق مماثل لجباية الضرائب من اليهود. كما دعا إلى "عودة" اليهود كلهم، ولكن بشكل تدريجي متأن حتى يتم إعداد الأرض وتحضيرها، وهي الآراء التي تبنتها ونفذتها الحركة الصهيونية فيما بعد. كما دعا القالي إلى تشكيل مجلس للحكماء يكون باستطاعته فرض طاعته واحترامه على اليهود[72].

وكان الحاخام زفي هيرش كاليشر Zevi H. Kalischer (1795- 1874) الذي عاش في بروسيا (ألمانيا سابقاً) أحد رواد الصهيونية الكبار، قضى معظم حياته في تورن في بولندا، وفي عام 1862 نشر كتابه "البحث عن صهيون" Drishot Tziyon وكان أول كتاب يظهر في شرق أوروبا يتحدث عن الاستيطان الزراعي اليهودي في فلسطين. وقد أكد فيه أن بداية الخلاص اليهودي هي بالجهد الإنساني، وكسب موافقة الأمم على جمع اليهود في الأرض

المقدسة، وأن العمل في الأرض المقدسة هو جهد مقدس، وقد حث على الاستيطان في فلسطين وإقامة منظمة تتولى ذلك[73].

أما موزس هس Moses Hess (1812 ـ 1875) فهو ألماني بدأ حياته يسارياً اشتراكياً مقرباً من كارل ماركس، غير أن فشل ثورة 1848 في ألمانيا وتأثره بالفكر القومي الإيطالي دفعه إلى نشر كتابه "روما والقدس" Rome and Jerusalem the last National Question سنة 1862. ويعدّه بعض الكُتّاب واضع الأساس الفلسفي للصهيونية، وهو يتساءل إذا كان للإيطاليين وطنيتهم فلماذا لا يكون ذلك لليهود، وإذا كان عدلاً تحرير روما فلماذا لا يكون ذلك للقدس. وهو يؤمن أن لكل شعب معناه الروحي ومهمته في التاريخ، وهو يرى أن اليهود لا يستطيعون تحقيق رسالتهم إلا من خلال نهضة قومية على قطعة أرض، وعليهم أن يحققوا ذلك على "أرض الميعاد"[74].

ومن رواد الصهيونية الكبار الروسي البولندي[75] ليو بنسكر Judah Leib (Leon) Pinsker (1821-1891) مؤسس وزعيم حركة أحباء صهيون Hibbat Zion، أصدر كتابه "التحرر الذاتي" بالألمانية Autoemanzipation، حيث دعا إلى إيجاد قومية يهودية تتيح لهم العيش على أرض واحدة محددة، كما دعا إلى إقامة منظمة مركزية، أو شركة مساهمة لشراء الأراضي[76].

ويعد ثيودور هرتزل Benjamin Ziv (Theodor) Herzl، (1860- 1904) والد الحركة الصهيونية ومؤسسها الفعلي، وهو يهودي مجري نمساوي[77]، ولد في بودابست، وقد بدأ حياته اندماجياً (أي مؤيداً لحركة الاستنارة "الهسكلا"، وعمل في الصحافة، لكنه تحول للصهيونية عام 1894. وفي فبراير 1896 نشر كتابه "الدولة اليهودية" باللغة الألمانية Der Judenstaat، ونظر للمسألة اليهودية بوصفها مسألة قومية، ودعا إلى إقامة جمعية لليهود وشركة يهودية، ورأى أن إنشاء الدولة اليهودية هو الجواب الحقيقي لمشكلة "اللاسامية" والعداء ضد اليهود، غير أن شخصية هرتزل الديناميكية العملية جعلته ينطلق لتحقيق ما كتبه على أرض الواقع، فكان إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية[78].

وبالطبع فهناك مفكرون ورواد صهاينة آخرون لا مجال للحديث عنهم من أمثال: آحاد هاعام (آشر جينـزبرغ)، (1856- 1927)، Ahad Ha’am، وأهارون ديفيد جوردن A. Gordan (1856- 1922)، وليلينبلوم Y. Lilienblum، وسمولنسكين P. Smolenskin (1842- 1885).

وتعد جمعيات أحباء صهيون أحد الإرهاصات السياسية التي وفرت قواعد عريضة ومتينة للمنظمة الصهيونية العالمية في شرق أوروبا خاصة. وقد بادر لتأسيس أول جمعية لأحباء صهيون الحاخام صموئيل موهيليفر (1824 - 1898) سنة 1882 ثم توالت فروعها في الانتشار، و التفت حول المفكر الصهيوني ليو بنسكر وانتخبته في مؤتمرها الأول عام 1884 رئيساً لها. وتجلى عملها في دعم حركة الاستيطان اليهودي في فلسطين وتشجيع الهجرة وإقامة المستوطنات، وتمكنت من تحقيق موجة الهجرة الأولى في الثمانينيات من القرن التاسع

عشر، وإنشاء المستعمرات الصهيونية الأولى في فلسطين، أمثال بتاح تكفا، وريشيون لازيون، وروش بيناه، وزخرون يعقوب، والجديرة. وكان معظم هؤلاء المهاجرين اليهود من روسيا وبولندة، غير أن هذه الجمعيات التي غلب عليها الطابع الديني لم تفلح في تشكيل منظمة عالمية متماسكة، لكن 260 فرعاً لها انضمت للمنظمة الصهيونية العالمية عند إنشائها مما شكل عنصر إثراء كبير ودفعة هائلة للمشروع الصهيوني[79].

إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية:

لم يضف هرتزل كثيراً إلى أطروحات أحباء صهيون لكنه تجاوزهم وتفوق عليهم تنظيمياً، وعَدَّ منذ البداية منظمته "دولة على الطريق"، وتصرف كرؤساء الدول والحكومات، واختلف عن أحباء صهيون في أنه رفض فكرة أن المشروع الصهيوني من خلال عملية متقطعة لإنشاء المستعمرات، وإنما عبر استقلال سياسي كامل لهذه العملية أي بوجود هيئة تمثيلية سياسية لليهود، ثم إنه ربط نجاح المشروع بوجود دعم وحماية من القوى الكبرى أو أحدها، وهو ما يعرف بالصهيونية السياسية.

وقد انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في 29- 31 آب/أغسطس 1897 في مدينة بال Basel بسويسرا بحضور 204 مندوبين من معظم أرجاء العالم (ثلثهم من روسيا)، وتم انتخاب هرتزل رئيساً. وفي بال تم الإعلان عن إقامة المنظمة الصهيونية العالمية World Zionist Organization (W.Z.O.) ، وتم وضع البرنامج الصهيوني التي ستقوم هذه المنظمة بتنفيذه. وتم تلخيص هدف الصهيونية في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، يضمنه القانون العام: أي برعاية وقبول عالمي. ولتحقيق هذا الهدف تم تلخيص البرنامج في الخطوات الأربع التالية:

1. تشجيع استيطان العمال الزراعيين والصناعيين اليهود في فلسطين.

2. تنظيم اليهود، وتوثيق الصلات بينهم، عبر مؤسسات مناسبة، على الصعيدين المحلي والعالمي، كل منها حسب قوانين البلد المعني.

3. تنمية الحس والوعي القومي اليهودي، وتعزيزهما.

4. المباشرة في اتخاذ خطوات تمهيدية للحصول على موافقة الدول حيث يكون ذلك ضرورياً، لتحقيق هدف الصهيونية[80].

وقد ظل هرتزل رئيساً للمنظمة الصهيونية حتى وفاته في 3 يوليو/ تموز 1904. وانعقدت في عهده ستة مؤتمرات صهيونية، وخلال سنة واحدة من إنشاء هذه المنظمة تضاعف عدد الجمعيات اليهودية المنتمية إليها ثمانية أضعاف (800%)، ثم استمرت في الاتساع. وتشكلت الأجهزة الإدارية للمنظمة من:

1. المؤتمر الصهيوني الذي يعد السلطة العليا للحركة الصهيونية ويشارك فيه المندوبون المنتخبون من قبل الأعضاء في مختلف أنحاء العالم، وينعقد مرة في السنة، (أصبح ينعقد مرة كل أربع سنوات بعد ذلك)، وهو الذي ينتخب رئيس المنظمة والمجلس العام واللجنة التنفيذية.

2. المجلس العام: وهو السلطة العليا التي تنوب عن المؤتمر الصهيوني في حالة غيابه.

3. اللجنة التنفيذية: وهي قيادة المنظمة ويتم انتخابها من أعضاء المجلس العام (لجنة العمل الكبرى).

وقد اتسع الشكل التنظيمي للحركة الصهيونية وتعقد مع مرور الزمن، غير أن المؤسسات الأساسية الثلاث السابقة ظلت على حالها مع اختلاف في الأعداد وبعض الصلاحيات. وخلال عهد هرتزل تم إنشاء البنك الصهيوني (صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار)، والصندوق القومي اليهودي (الكيريت كايمت)، الذي هدف لاستملاك الأراضي، وشركة بنك أنجلو- فلسطين فرعاً للصندوق القومي[81].

وقد ركز هرتزل جهده في تحقيق دعم سياسي عالمي للمشروع الصهيوني في فلسطين، وقام باتصالات واسعة شملت قيصر ألمانيا والسلطان العثماني وملك إيطاليا، ووزراء ومسئولين بريطانيين ونمساويين وروس، وبابا روما، فضلاً عن عدد كبير من الشخصيات السياسية وأصحاب البنوك والأثرياء، لكنه مات دون أن يحقق هدفه في رعاية دولة كبرى لمشروعه.

ولم تنفع مقابلاته مع السلطان عبد الحميد (مايو 1901، فبراير ويوليو 1902) في إقناعه بفتح باب الهجرة إلى فلسطين، حيث أصر السلطان على تحديد الهجرة، وأن تكون في أجزاء من الدولة العثمانية من غير فلسطين، وأن تكون بإشراف عثماني. وبذلك أدرك هرتزل أن طريقه إلى فلسطين مسدود ما دام العثمانيون هناك[82].

وقد اضطر هرتزل بسبب المصاعب العملية التي واجهها إلى التفكير في حلول مؤقتة لعلاج المشكلة اليهودية، ففكر في استعمار قبرص بوصفها خطوة في اتجاه فلسطين، ولكنه ووجه بمعارضة قوية خصوصاً من أحباء صهيون فعدل عن الفكرة. كما ناقش مع تشمبرلن J. Chamberlain وزير المستعمرات البريطاني في 1902 مشروع الاستيطان في العريش في منطقة سيناء (حيث كانت مصر تحت الاستعمار البريطاني منذ 1882)، ووافق تشمبرلن على دراسة احتمالات ذلك لكن المشروع جوبه بمعارضة مصرية وعثمانية قوية أفشلت المشروع. وفي عام 1903 عرض تشمبرلن على هرتزل الاستيطان في شرق إفريقيا (مشروع أوغندة)، وقد وافق عليه هرتزل كارهاً، وقدم توصية للمؤتمر الصهيوني السادس 1903 بقبوله بوصفه خطوة مرحلية ومؤقتة، دون التخلي عن فلسطين. وفي أجواء انتشار حمى الاستعمار العالمي في ذلك الوقت، رأى هرتزل أن يحصل اليهود على مستعمراتهم أولاً ليستخدموها منطلقاً وأساساً يقفون عليه للحصول على فلسطين، وقد لقي معارضة شديدة في المؤتمر لكنه نجح في تمرير القرار بأغلبية 295 صوتاً مقابل 178 معارضاً و 78 ممتنعاً، وتقرر إرسال بعثة استكشافية إلى أوغندا. غير أنه قد تم استبعاد هذا المشروع نهائياً بعد وفاة هرتزل في المؤتمر الصهيوني السابع الذي عقد في 1905، وتقرر التركيز فقط على فلسطين، ومن الجدير بالذكر أنه قد ظهرت مشاريع استيطانية

يهودية أخرى في ليبيا والأرجنتين والإحساء (شرق السعودية) وغيرها، لكن البوصلة ظلت مصوبة في النهاية نحو فلسطين[83].

وإذا كان هرتزل قد فشل في تحقيق أهدافه الكبرى فإن إنشاءه للمنظمة الصهيونية العالمية يعد بحد ذاته إنجازاً كبيراً. ثم إنه نجح من خلال اتصالاته الدبلوماسية في جعل المشكلة اليهودية قضية عالمية، كما تمكن من تثبيت مكانة وأهمية هذه المنظمة في أعين عدد من الحكومات الأوروبية، فضلاً عن حلِّه لعدد من مشكلات اليهود في روسيا والنمسا، متعلقة بهجرتهم أو تنظيم أعمالهم هناك.

==

هوامش الكتاب

[1] عرفان عبد الحميد فتّاح، اليهودية: عرض تاريخي والحركات الحديثة في اليهودية (عمان: دار عمار، 1997)، ص14-15.

[2] المرجع نفسه، ص87-89.

[3] المرجع نفسه، ص15-18.

[4] المرجع نفسه، ص71-86.

[5] المرجع نفسه، ص93-107.

[6] حول تقسيمات اليهود، انظر: المرجع نفسه، ص145-168، وعبد الوهاب المسيري، "يهود العالم"، في دليل إسرائيل العام، ص472-473.

[7] حول اليهود في القرآن الكريم، انظر مثلاً: محمد عبد السلام محمد، بنو إسرائيل في القرآن الكريم، ط2 (الكويت: مكتبة الفلاح، 1998)، وصلاح الخالدي، حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية، ط2 (لندن: فلسطين المسلمة، 1995)، وانظر حول اليهود وتاريخهم وممارساتهم: توفيق الواعي، اليهود: تاريخ إفساد وانحلال ودمار (بيروت: دار ابن حزم، 1995).

[8] رواه البخاري، وأحمد، وابن حبان.

[9] سورة البقرة: 41.

[10] سورة المائدة: 69.

[11] سورة البقرة: 91.

[12] سورة البقرة: 92.

[13] سورة البقرة: 93.

[14] سورة آل عمران: 75.

[15] رواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد، وورد في مصنّف ابن أبي شيبة ومسند ابن الجعد.

[16] كما ورد في صحيح البخاري، وابن حبان، والترمذي، وابن ماجة، وموطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد.

[17] سورة السجدة: 23-24.

[18] سورة النساء: 160-162.

[19] سورة المائدة: 66.

[20] سورة آل عمران: 110.
[21] سورة آل عمران: 113.
[22] سورة البقرة: 88.
[23] سورة المائدة: 82.
[24] سورة آل عمران: 117-118.
[25] سورة البقرة: 120.
[26] سورة المائدة: 70.
[27] سورة البقرة: 87.
[28] سورة البقرة: 75.
[29] سورة النساء: 46.
[30] سورة آل عمران: 75.
[31] سورة آل عمران: 181.
[32] سورة المائدة: 64.
[33] سورة البقرة: 51.
[34] سورة الأعراف: 167.
[35] سورة التوبة: 30.
[36] سورة المائدة: 64.
[37] سورة آل عمران: 120.
[38] سورة البقرة: 109.
[39] سورة البقرة: 83.
[40] سورة البقرة: 100.
[41] سورة المائدة: 13.
[42] سورة المائدة: 57.
[43] سورة المائدة: 62.
[44] سورة النساء: 161.
[45] سورة المائدة: 13.
[46] سورة البقرة: 74.
[47] سورة البقرة: 96.
[48] سورة المائدة: 22-24.
[49] سورة الحشر: 14.
[50] سورة الحشر: 14.
[51] سورة البقرة: 61.
[52] سورة آل عمران: 112.
[53] سورة البقرة: 217.
[54] سورة المائدة: 82.
[55] سورة الإسراء: 4.
[56] سورة آل عمران: 111.
[57] سورة الإسراء: 7.

[58] انظر بالتفصيل حول الصهيونية غير اليهودية في: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية: جذورها في التاريخ الغربي، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة، رقم 96 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر 1985).

[59] حول حركة الاستنارة "الهسكلا"، انظر: عرفان عبد الحميد، مرجع سابق، ص149-162. وعبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص79-108.

[60] انظر عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص88-91، و ص96-99.

[61] وليم فهمي، الهجرة اليهودية إلى فلسطين (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974)، ص36.

[62] ريجينا الشريف، مرجع سابق، ص106-107.

[63] المرجع نفسه، ص122-123، وانظر أيضاً:

Albert Hyamson, Palestine under the Mandate 1920-1948 (Great Britain: Methuen, 1950), pp.7-8.

[64] انظر ريجينا الشريف، مرجع سابق، ص145، وكامل خلة، مرجع سابق، ص41، و ص59، وبربارة حداد، "المواقف البريطانية في فلسطين بين عامي 1918-1920"، مجلة شئون فلسطينية، ع17، يناير 1973، ص116-118، وتقرير بيل، ص32.

[65] ملف وثائق فلسطين، ج1، ص121.

[66] سمير أيوب، مرجع سابق، ج1، ص208.

[67] عبد الوهاب المسيري ، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص198.

[68] انظر: www.us-israel.org/jsourse/zionism

[69] عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص198.

[70] انظر: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، إعداد مركز الأبحاث والجيش اللبناني، سلسلة الدراسات، رقم34 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1973)، ص51.

[71] سمير أيوب، مرجع سابق، ج1، ص61-63.

[72] المرجع نفسه، ج1، ص68-69، و 80-82، وانظر أيضاً:

www.wzo.org.il/home/portrait/alkalai

[73] انظر: أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، 1882-1982، ط2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990)، ص 27-28، وعرفان عبد الحميد، مرجع سابق، ص182. وانظر:

www.wzo.org.il/home/portrait/

[74] عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص122، وسمير أيوب، مرجع سابق، ج1، ص84-85، و Howard M. Sachar, The Course of Modern Jewish History (New York: Vintage Books, 1990), p.306.

[75] كانت بولندا الحالية تحت الحكم الروسي القيصري، ولذلك يوصف يهود بولندا خصوصاً في القرن التاسع عشر بأنهم يهود روس. وقد وُلد بنسكر في مدينة أوديسا Odessa.

[76] أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص30، وانظر:

Sachar, op.cit., p.307-308.

www.wzo.org.il/home/portrait/pinsker

[77] كانت النمسا والمجر متحدة في إمبراطورية واحدة تحت حكم عائلة آل هابسبورغ الذين سقط حكمهم في الحرب العالمية الأولى 1914-1918. وفي الاعتبارات المعاصرة يُعدُّ هرتزل مجرياً حيث إن بودابست هي عاصمة المجر (هنغاريا).

[78] أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص30-32.

[79] المرجع نفسه، ص32-33، وإلياس شوفاني، "المؤسسة الصهيونية"، في دليل إسرائيل العام، ص410-411.

[80] أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص34-35، وشوفاني، "المؤسسة الصهيونية"، في دليل إسرائيل العام، ص412-413.

[81] حول الهيكل التنظيمي للمنظمة الصهيونية ومؤسساتها، انظر: أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص42-50، و ص74-76، و ص84-92، وشوفاني، "المؤسسة الصهيونية"، في دليل إسرائيل العام، ص430-454.

[82] أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص51-52، وحسان حلاق، مرجع سابق، ص352، ومذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتعليق محمد حرب عبد الحميد (القاهرة: دار الأنصار، 1978)، ص11، و ص65، وخيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908-1918 (بيروت: مركز الأبحاث، 1973)، ص403.

وانظر أيضاُ: Sachar, op.cit., p.319.

[83] حول مشاريع الاستيطان الصهيوني خارج فلسطين، انظر: أمين محمود عبد الله، مشاريع الاستيطان الصهيوني خارج فلسطين (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984). وعبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص144، و أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص52-53.

مسار المنظمة الصهيونية العالمية حتى قيام الكيان الصهيوني 1948:

انتخب ديفيد ولفسون D. Wolffsohn (1856- 1914) خلفاً لهرتزل خلال المدة (1905- 1911) وهو من مواليد ليتوانيا، لكنه استقر في ألمانيا منذ 1881 حيث أصبح رجل أعمال ناجحاً، وقد سار على خط سلفه بالتركيز على دعم دولي للمشروع، لكنه لم يستطع أن يملأ الفراغ الذي تركه هرتزل. كما أن صعوبة الحصول رسمياً على الدعم المنشود قد أسهمت في بروز تيار "الصهيونية العملية"، والذي ظهرت بداياته منذ أيام هرتزل، والذي يركز أكثر على المبادرة العملية وبوسائل شتى للهجرة والاستيطان في فلسطين، وبناء الحقائق على الأرض. كما ظهر حاييم وايزمن Chaim Weizmann (1874- 1952)، بأطروحته التوفيقية بين الصهيونية السياسية والصهيونية العملية، فدمج بين الخطين، حيث أعلن أنه "يجب أن نتطلع إلى البراءة [الدعم الدولي]، لكن تطلعاتنا ستتحقق من خلال نشاطنا العملي في أرض إسرائيل". وسيراً في الاتجاه العملي فقد تم تمت الموافقة على اقتراح واربورج بتبني "سياسة التغلغل الاقتصادي"، المعتمد على العمل الصهيوني بصورة منظمة. وتأسس مكتب فلسطين في يافا سنة 1908 ليتولى توجيه العمل الاستيطاني الزراعي، وأنشئت شركة تطوير أراضي فلسطين، كما بدأ إنشاء مدينة تل أبيب.

ويعد المؤتمر الصهيوني العاشر سنة 1911 نقطة تحول، إذ سيطر الصهيونيون العمليون على قيادة المنظمة وأجهزتها، وانتخب أوتو واربورج (1871- 1937) Otto Warburg، وهو ألماني رئيساً للمنظمة، واستمر رسمياً في رئاستها حتى عام 1921. وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى سنة 1914، استفاد الصهاينة من ضعف الدولة العثمانية، وتفشي الفساد الإداري فيها، ثم من انقلاب حركة الاتحاد والترقي (الممالئة لليهود والحركة الصهيونية) على السلطان عبد الحميد سنة 1908، فهاجر إلى فلسطين خلال الفترة 1882- 1914 نحو 55 ألف يهودي[84].

وقد أحدثت الحرب العالمية الأولى فوضى في الجهاز الإداري الصهيوني، حيث وجدت قيادات العمل ومؤسساته نفسها متوزعة على بلدان متحاربة، وكان مكتب قيادة الحركة الصهيونية في ألمانيا، حيث عول صهاينة وسط أوروبا على انتصارها في الحرب، وأجروا مفاوضات معها، بدعوى الحصول على الدعم اليهودي و الأمريكي، مقابل ضغطها على حليفتها الدولة العثمانية، لإقامة الوطن اليهودي في فلسطين. ولم تكن اللجنة التنفيذية المكونة أساساً من روس وألمان قادرة على العمل الجماعي، حيث كانت ألمانيا وروسيا دولتان متحاربتان. كما انقطعت صلة مكتب القيادة بروسيا والدولة العثمانية وباقي العالم الغربي. وتعرض المشروع الصهيوني في فلسطين لهزة كبيرة مع ظهور دلائل متزايدة على ممالأة الصهيونية لبريطانيا وحلفائها ضد العثمانيين والألمان، ونَقَص عدد اليهود من 85 ألفاً سنة 1914 إلى 55 ألفاً سنة 1918.

وبينما فقدت قيادة المنظمة الصهيونية في ألمانيا فاعليتها ، برز نجم الأستاذ الجامعي الروسي الأصل الدكتور حاييم وايزمن، الذي كان يقيم في بريطانيا، وقام بدور زعيم الأمر الواقع للمنظمة الصهيونية، ونصّب مع رفاقه هناك لجنة سداسية انضم إليها اثنان من أعضاء اللجنة التنفيذية. وسعى إلى التفاوض مع بريطانيا لتبني المشروع الصهيوني مقابل دعم اليهود لها في الحرب، واستخدام نفوذهم في أمريكا لدفع الولايات المتحدة للمشاركة في الحرب إلى جانب بريطانيا. كما برز في الوقت نفسه لويس برانديس Louis Brandeis (1856- 1941)، الذي قاد صهيونيي أمريكا. ومن خلال الدورين اللذين لعبهما وايزمن وبرنديس والتنسيق بينهما، نجحت المنظمة الصهيونية في استصدار وعد بلفور من بريطانيا، 2 نوفمبر 1917 بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، والذي حظي بموافقة حلفاء بريطانيا في الحرب (الولايات المتحدة التي دخلت الحرب في مارس 1917، وفرنسا وإيطاليا)[85].

وقد توافق الاحتلال البريطاني لفلسطين (1918- 1948) تقريباً مع زعامة وايزمن الفعلية للمنظمة الصهيونية (1921- 1946). وقد بدأ المشروع الصهيوني يسترد عافيته وينطلق إلى آفاق أرحب، بعد أن حصل على البراءة الدولية التي كان يحلم بها هرتزل، وبعد أن توفرت الإمكانات العملية للتنفيذ باحتلال بريطانيا - التي تبنت المشروع - لفلسطين، وبسقوط الدولة العثمانية. وقامت بريطانيا بحرمان أبناء فلسطين من حقوقهم السياسية، وبسحق ثوراتهم وانتفاضاتهم، وأدمجت وعد بلفور في صك انتدابها على فلسطين، والذي أقرته عصبة الأمم سنة 1922، ليصبح التزاماً دولياً. كما فتحت بريطانيا أبواب الهجرة والاستيطان اليهودي وبناء المؤسسات السياسية

والاقتصادية والتعليمية والاجتماعية الصهيونية في فلسطين، وغضت الطرف عن التشكيلات العسكرية السرية لليهود، الذين أصبحوا عملياً دولة داخل دولة، وبذلك وضعت بريطانيا الكرة في الملعب الصهيوني، وأصبح الأمر يعتمد أساساً على قدرة الحركة الصهيونية على إقناع اليهود بالهجرة والاستيطان في فلسطين.

ولم تفوت الحركة الصهيونية الفرصة، فقد ذهبت لجنة صهيونية برئاسة وايزمن إلى فلسطين في إبريل 1918، وشكلت جهازاً إدارياً لليهود فيها، استوعب أمور السياسة والاستيطان، والإغاثة والزراعة والتجارة والصناعة والهجرة والمالية والتعليم والعمل. وفي مؤتمر لندن في يوليو 1920، أقر تعيين وايزمن رئيساً للمنظمة، وقرر إنشاء مكتب مركزي للهجرة اليهودية، كما تقرر إنشاء الصندوق التأسيسي لفلسطين (الكيريت هايسود)، المختص بشؤون الهجرة والاستيطان والتعليم وإنشاء المؤسسات والمشاريع الاقتصادية والخدمات الاجتماعية. وفي المؤتمر الصهيوني الثاني عشر في سبتمبر 1921 تحولت زعامة وايزمن إلى زعامة رسمية، وبلغ عدد أعضاء المنظمة الصهيونية 770 ألفاً[86].

وكان صك الانتداب البريطاني على فلسطين قد أشار إلى إنشاء "وكالة يهودية" تمثل اليهود بشكل عام، وقامت المنظمة الصهيونية عملياً بدور الوكالة خلال 1922- 1929. لكن الحركة الصهيونية أرادت أن تلائم نفسها مع صك الانتداب، بتشكيل وكالة يهودية موسعة تمثل اليهود من صهاينة وغير صهاينة، مما يهيئ لها فرصة قبولٍ سياسي بريطاني ودولي أفضل. وقد رأت في ذلك فرصة لتوسيع دائرة نفوذها وتمثيلها لليهود في العالم بإدخال عناصر يهودية مؤثرة (غير منتمية تنظيمياً للحركة الصهيونية) في الوكالة، مما يؤدي إلى مشاركة هؤلاء في المشروع الصهيوني، فيصبحون عملياً صهيونيين وإن لم يكونوا أعضاء عاملين في المنظمة. ثم إن ذلك سيُمكّنها من امتصاص أية معارضة يهودية للحركة الصهيونية، فضلاً عن تجنيد أموال أثرياء اليهود من غير الأعضاء.

وبالفعل، فقد تم إنشاء الوكالة اليهودية الموسعة سنة 1929 بحيث تتم مناصفة مقاعد مجلس الوكالة (السلطة العليا للوكالة)، واللجنة الإدارية (تقابل المجلس العام في المنظمة الصهيونية)، واللجنة التنفيذية (تقابل اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية)، بين المنظمة الصهيونية وبين اليهود غير المنتمين إليها. وقد حرصت المنظمة الصهيونية على أن تكون الوكالة أداة طَيّعة بيدها، عبر مجموعة من الإجراءات والقواعد التي ضمنت ذلك، فهناك مثلاً رئيس واحد للمنظمة وللوكالة، واللجنة التنفيذية للوكالة هي عملياً بيد أعضاء اللجنة التنفيذية الصهيونية. وأصبحت الإشارة إلى المنظمة الصهيونية تعني شكلياً مجموع النشاطات الصهيونية خارج فلسطين، والإشارة إلى الوكالة اليهودية تعني شكلياً مجموع النشاطات الصهيونية داخل فلسطين. ومن خلال إنشاء هذه الوكالة تم استقطاب عناصر يهودية شهيرة غير أعضاء في المنظمة، أمثال: البريطاني هربرت صمويل، والأمريكي لويس مارشال، وألبرت أينشتاين العالم الألماني الذي يحمل الجنسية الأمريكية وغيرهم. وقد كان الكثير من هؤلاء زعماء سياسيين ورجال أعمال وعلماء وأصحاب بنوك لم تُمكّنهم ظروفهم ومواقعهم من الانخراط في الحركة الصهيونية، كما لم يكن من

السهل على الحركة الصهيونية استيعابهم في أطرها دون أن تتخلى قيادتها عن العديد من مواقعها لأمثال هؤلاء. ويبدو لي أن جُلّ هؤلاء صهاينة قلباً وقالباً، لكم بقاءهم في مواقعهم كان استثماراً أفضل للمشروع الصهيوني. إذ إن جوهر الصهيونية هو دعم إنشاء الوطن اليهودي في فلسطين، وهو ما كان يفعله هؤلاء من منتمين وغير منتمين، وقد استمرت الوكالة مظلة صهيونية وأداة من أدواتها، وتزايد التداخل والانصهار بينهما حتى أصبحا مرة ثانية مع نهاية الحرب العالمية الثانية تعبيرين لشيء واحد. وفي عام 1947 لم تعد المنظمة الصهيونية بحاجتها للديكور اليهودي المتمثل بالوكالة، فأصبحا عملياً شيئاً واحداً إلى أن أعيد تشكيل الوكالة سنة 1968[87].

وقد زادت عملية الهجرة والاستيطان المنظمة من قوة الجماعات اليهودية المهاجرة إلى فلسطين، وأصبح لها تأثير أكبر على المنظمة الصهيونية العالمية وتحديد سياستها وتمكن التيار العمالي اليهودي بقيادة ديفيد بن جوريون David Ben- Gurion (1886- 1973) من فرض نفسه وتحقيق نفوذ واسع بين يهود فلسطين، وتكرست قوة بن جوريون ورفاقه عندما انتخب عضواً في اللجنة التنفيذية في المؤتمر 18 في 1933، كما أعيد انتخابه سنة 1935 حيث أصبح قطباً مركزياً فيها، و انتخب في 1937 رئيساً للجنة التنفيذية في فلسطين[88].

وقد كانت فترة منتصف الثلاثينيات فترة ذهبية للهجرة اليهودية، إذ هاجر إلى فلسطين خلال الفترة 1933- 1936 ما مجموعه 187.671 يهودياً[89]، وكان أخطر ما فيها هو نوعية المهاجرين، إذ توافقت تلك الفترة مع صعود النازية في ألمانيا، وتمكن هتلر من الوصول إلى الحكم. واستفادت الحركة الصهيونية من ذلك في دفع اليهود الألمان للهجرة إلى فلسطين، وعقدت مع هتلر اتفاقية سرية لترحيل اليهود "اتفاقية هعفاراه" سنة 1933، فهاجرت أعداد كبيرة من اليهود الألمان المتميزين من رجال الأعمال والأثرياء والعلماء في شتى التخصصات مما أعطى دفعة كبيرة للمشروع الصهيوني[90]. ولولا أن الثورة الفلسطينية الكبرى 1936- 1939 عوقت هذه الهجرة لكانت النتائج أكثر كارثية.

وقد تعرض المشروع الصهيوني في فلسطين إلى الانتكاس، عندما اضطرت بريطانيا في مايو 1939، تحت ضغط الثورة الفلسطينية، إلى إصدار كتابها الأبيض، بالتعهد بالموافقة على إنشاء دولة فلسطينية خلال عشر سنوات، وتحديد الهجرة اليهودية في السنوات الخمس التالية لإصدار الكتاب الأبيض بـ 75 ألفاً، وبمنع الهجرة بعد ذلك إلا بموافقة فلسطينية، وبوضع قيود مشددة على انتقال الأراضي لليهود[91].

وعلى الرغم من أن يهود أوروبا عانوا من السياسات الهتلرية النازية ضدهم خلال الحرب العالمية الثانية 1939- 1945، إلا أن المشروع الصهيوني في فلسطين كان هو المستفيد الأول من ذلك، إذ إن المنظمة الصهيونية العالمية تابعت عملها بصورة فعالة، ووجدت في الاضطهاد النازي مبرراً ودافعاً قوياً للدعاية للمشروع اليهودي في فلسطين. وتمكنت من تضخيم صورة المعاناة اليهودية، وجعلها عقدة

أساسية في الشعور واللاشعور الغربي، الذي أصبح يلتمس التكفير عن "ذنوبه" من خلال إنشاء دولة لليهود في فلسطين. وربما لقي بضعة مئات من الآلاف من اليهود حتفهم نتيجة السياسات النازية، لكن الرقم تم تضخيمه إلى ستة ملايين حتى أخذ صورة "الرقم المقدس"، الذي يتهم ويحاكم ويسجن منكره، حتى لو كان بناء على أبحاث أكاديمية موثقة، كما حدث في فرنسا[92].

لقد لقي أكثر من 52 مليون إنسان حتفهم في هذه الحرب (التي كان أساسها صراعاً على المصالح بين القوى الأوروبية) منهم 22 مليون روسي، فلماذا تم التركيز - ولا يزال- على اليهود وحدهم بوصفهم ضحايا الحرب؟

وظل السؤال الذي لم يجد جواباً: لماذا يدفع الفلسطينيون المسلمون فاتورة اضطهاد أوروبا لليهود؟، وعلى أي حال، فإن الحركة الصهيونية نقلت مركز ثقلها خلال الحرب العالمية الثانية من لندن إلى واشنطن (الولايات المتحدة)، التي أصبحت القوة الأقدر على رعاية المشروع الصهيوني، والتي خرجت بعد الحرب العالمية كأقوى قوة بشرية في العالم. وكان مؤتمر بلتيمور Biltmore الصهيوني في 8 مايو 1942 العلامة الفارقة لنقل مركز الثقل، وتم فيه صياغة سياسة صهيونية جديدة، ركزت على إقامة الدولة اليهودية، ورفض الكتاب الأبيض لسنة 1939، وإقامة جيش يهودي...، وقد وجد البريطانيون في الضغط الأمريكي عليهم لإلغاء الكتاب الأبيض فرصة للتملص من التزاماتهم تجاه الفلسطينيين، فأعلن وزير الخارجية البريطانية بيفن Bevin في 14 نوفمبر 1945 التخلي عن الكتاب الأبيض لتفتح أبواب الهجرة مرة أخرى لليهود[93].

وعندما أعلنت بريطانيا عن عزمها على مغادرة فلسطين نشطت أمريكا والاتحاد السوفييتي في الضغط على الأمم المتحدة لاتخاذ قرار بتقسيم فلسطين، فكان قرار 181 في 29 نوفمبر 1947 بتقسيم فلسطين لدولتين يهودية (54% من الأرض)، وعربية (45 % من الأرض) و 1% منطقة دولية. وبذلك اتخذ إنشاء الكيان اليهودي الصهيوني "شرعية دولية"، وبناء عليه أعلن اليهود دولتهم "إسرائيل"، في مساء 14 مايو 1948، والتي توسعت بما شنته من عدوان، وبما لقيته من دعم أمريكي روسي غربي لتشمل 77 % من أرض فلسطين، ولتشرد 800 ألف فلسطيني من وطنهم. وتمكن الكيان الصهيوني من دخول عضوية الأمم المتحدة التي اشترطت عليه للموافقة على العضوية السماح بعودة اللاجئين الفلسطينيين، وهو ما تجاهله هذا الكيان طوال المدة الماضية.

وقد ظل وايزمن رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية حتى سنة 1931، ثم تولى الرئاسة ناحوم سوكولوف 1931 - 1935، ثم عاد وايزمن للرئاسة حتى سنة 1946. وكان المؤتمر الصهيوني الـ22 الذي انعقد في 9 ديسمبر 1946، هو آخر مؤتمر صهيوني قبل إنشاء الكيان اليهودي، وبلغ عدد أعضاء المنظمة الممثلين في المؤتمر مليونين و 159 ألفاً، مما يشير إلى درجة النفوذ الواسع التي تمتعت به المنظمة، ومع ذلك فإن المنظمة فشلت في انتخاب رئيس لها بسبب الخلافات الداخلية وخصوصاً بين بن جوريون ووايزمن، وقام المجلس الصهيوني العام بتعيين لجنة تنفيذية ائتلافية برئاسة بن جوريون الذي تزايدت

هيمنته الفعلية على المنظمة. وخلال هذه الفترة 1946 - 1956 مثل بن جوريون زعامة الأمر الواقع للمنظمة دون أن ينتخب رئيساً رسمياً لها. وأصبحت اللجنة التنفيذية التي يرأسها بن جوريون، أشبه بالحكومة اليهودية المؤقتة. وقام بن جوريون بنفسه بإعلان إنشاء الدولة اليهودية وأصبح أول رئيس لوزرائها، واستدعى وايزمن ليكون أول رئيس للكيان الصهيوني (وهي رئاسة فخرية غير ذات صلاحيات حقيقية)[94].

مسار المنظمة الصهيونية العالمية 1948- 2000:

حققت المنظمة الصهيونية هدفها بإنشاء كيان لليهود في فلسطين وبرز بذلك سؤال واضح عن مبرر وجود هذه المنظمة، وما هو موقعها بالنسبة إلى الكيان الصهيوني؟ وما هي الأدوار التي يمكن أن تلعبها؟!

كان بن جوريون وتيار صهيونيي الداخل أو "إسرائيل" يَعدُّون المنظمة الصهيونية مجرد "السقالة" (التي تستخدم في البناء) والتي لم يعد لها لزوم بعد إكمال بناء الدولة. وكان يرى أن الصهيونية الحقة هي التي تعني الهجرة إلى فلسطين والاستيطان فيها. وركّز هذا التيار على مركزية "إسرائيل" في الحياة اليهودية، واستقلالها عن هيمنة المنظمة الصهيونية. أما تيار صهيونيي الخارج، وخصوصاً في الولايات المتحدة فكان يرفض فكرة الانتماء للصهيونية ويعني ويستلزم الهجرة إلى فلسطين، رغم إيمانه بأهمية ذلك، وكان يؤكد أن المنظمة الصهيونية هي التي صنعت "إسرائيل"، وهي قادرة بحكم وجودها في الخارج على القيام بمهمات صهيونية لازمة لا تستطيعها الدولة، بسبب الاعتبارات السياسية والدبلوماسية والدولية الخاصة بأي دولة.
وبالتالي، فلا بد للمنظمة الصهيونية من المشاركة في صنع القرار السياسي الداخلي والخارجي للدولة، وبالذات في مجال تمثيل يهود الشتات، والتحدث باسم "إسرائيل" سياسياً، كما أنه لا بد من تحقيق المساواة بين "إسرائيل" والمنظمة الصهيونية العالمية، التي يجب أن تمنح وضعاً خاصاً يضمن لها التأثير في عمليات التخطيط والتنفيذ الصهيونية والإسرائيلية[95].

ولم تنكسر حدة التوتر بين الطرفين إلا سنة 1968 عندما حُسمت المعركة لصالح تيار صهيونيي الداخل، واستقال ناحوم جولدمان من رئاسة المنظمة. ولكن حالة التوتر و الجدل لم تكن تعني شلل العمل ، وإنما أمكن التوصل دائماً إلى حلول توفيقية، وظل الجميع ناشطين في دعم المشروع الصهيوني. وبشكل عام فقد استفاد بن جوريون وتياره من إمكانات الدولة ومؤسساتها ومن التعاطف العالمي مع اليهود، ليفرض ما يريد، وفي سنة 1954 تمكن هذا التيار من تثبيت هيمنته الفعلية وظل تيار صهيونيي الخارج يتراجع تدريجياً إلى أن أصبحت المنظمة الصهيونية سنة 1968 أداة في يد "إسرائيل". وقد عقدت المنظمة الصهيونية العالمية مؤتمرها الـ23 لأول مرة في القدس عام 1951، وأقر برنامج "القدس"، الذي أعاد تحديد مهام المنظمة الصهيونية العالمية والتي تمثلت في "توطيد دعائم إسرائيل"، وتجميع "المنفيين" اليهود في "أرض إسرائيل"، وتنمية وحدة الشعب اليهودي. ووافق المؤتمر على تحقيق أعلى درجات التنسيق بين المنظمة و"إسرائيل"، وإعطاء المنظمة وضعاً قانونياً

خاصاً في الدولة العبرية بحيث تتابع أعمال الاستيطان واستيعاب يهود "الشتات" وتطوير البلاد[96].

وقد انتخب جولدمان رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية سنة 1956 وظل في منصبه حتى 1968، وعلى الرغم من اختلافه مع تيار الداخل، إلا أنه قدم مع صهيونيي الخارج خدمات كبرى للكيان الصهيوني. وسعى ورفاقه لعدم ذوبان يهود "المنفى" في مجتمعاتهم، وأن يشكلوا مراكز قوى تخدم المشروع الصهيوني والدولة اليهودية. ويُعدُّ ازدهار يهود المنفى أمراً مهماً ليشكلوا الدرع الواقي "لإسرائيل" والمعين المغذي لها من الخارج ضمن هدف شامل هو تأمين بقاء الشعب اليهودي.

وبعد المؤتمر الصهيوني الـ27، الذي عقد في القدس في 9 - 19يونيو 1968، تكرست المنظمة الصهيونية بوصفها تابعاً وأداة للكيان الصهيوني، وخفت حدة نقدها وشكواها ورضيت بدورها خصوصاً بعد نجاح "إسرائيل" في حرب 1967 واحتلالها لما تبقى من أرض فلسطين (الضفة والقطاع)، فضلاً عن الجولان السورية وسيناء المصرية[97].

وباستقالة جولدمان من رئاسة المنظمة في ذلك المؤتمر لم يتم انتخاب رئيس للمنظمة بعد ذلك وحتى آخر مؤتمر عقدته في ديسمبر 1997، واكتفي باختيار رئيس للجنة التنفيذية حيث تولى هذا المنصب لويس بنكوس حتى وفاته سنة 1973، وخلفه آرييل دولستين رئيساً بالوكالة إلى أن انتخب بنحاس سابير في 1974 وحتى وفاته 1975، ثم عاد دولتسين رئيساً بالوكالة حتى انتخاب يوسف الموجي في 1976، وعاد دولستين للمرة الثالثة رئيساً بالوكالة سنة 1977، وتم تثبيته رئيساً رسمياً في المؤتمر الصهيوني 1978. واستمر في الرئاسة حتى سنة 1987. ثم تولى المنصب سيمحا دينتس 1987 - 1994، ثم خلفه أبراهام بورغ 1994 - 1997[98]، ثم تولى رئاسة اللجنة التنفيذية بعده سالاي مريدور منذ ديسمبر 1997.

ومنذ سنة 1968 سلبت "إسرائيل" المنظمة الصهيونية من أهم اختصاصاتها وهو "استيعاب المهاجرين"، عندما استحدثت وزارة الاستيعاب. كما تقرر في المؤتمر الـ27 إعادة فصل الوكالة اليهودية عن المنظمة الصهيونية العالمية، وبدأ ذلك فعلياً منذ يونيو 1971. غير أن الفصل ظل شكلياً لأنه تركز أكثر على توزيع الاختصاصات، بينما ظل رئيس اللجنة التنفيذية للمنظمة هو نفسه رئيس الوكالة، وتولت الوكالة اليهودية التركيز على شؤون جمع التبرعات والهجرة والاستيطان والتنظيم، أما المنظمة الصهيونية فتولت شئون التمثيل والتربية والإعلام الصهيوني والثقافة[99].

ويمثل يهود الكيان الصهيوني ويهود أمريكا نحو ثلثي مندوبي المؤتمر الصهيوني (38% ليهود الكيان الصهيوني، و 29% ليهود أمريكا) والباقي ليهود العالم، ويمثل يهود الكيان الصهيوني حسب نسبة تمثيل أحزابهم في الكنيست الإسرائيلي، أما باقي البلاد فتختار مندوبيها وفق الشكل الذي يناسبها شريطة عدم التعارض مع أساليب الديمقراطية. وقد انخفضت نسبة عضوية اليهود في المنظمة الصهيونية العالمية بعد إنشاء الكيان الصهيوني، لتشكل ما معدله 10%

من يهود العالم[100]، وهي على أية حال نسبة لا يستهان بها، قياساً بأي تجمع ذي طبيعة دينية أو قومية بالنسبة إلى المحيط الذي ينتمي إليه. وتبقى هي نسبة عالية لتجمع سلبته "إسرائيل" معظم صلاحياته ومبررات وجوده.

الفكر الصهيوني (الأيديولوجية الصهيونية)

يختلف الباحثون العرب والمسلمون في النظر إلى حقيقة الصهيونية، فبعضٌ ينظر إليها بوصفها إفرازاً من إفرازات الاستعمار الغربي وأداة من أدواته، وبعضٌ يراها مشروعاً اقتصادياً غربياً، والبعض يرى فيها وسيلة يهودية - أوروبية لحل المشكلة اليهودية في العالم الغربي، والبعض يراها تعبيراً عن الأماني الدينية أو القومية أو الثقافية اليهودية، ويرى كثير من أبناء التيار الإسلامي أن الصهيونية ببساطة هي اليهودية نفسها بما تحمله من جذور عداء وصراع مع الإسلام.

وابتداء نرى أن الأفكار السابقة لا تخلو من بعض الحقيقة، أو كثيرها. ولكننا نحاول البدء بالإجابة عن السؤال التالي: هل فعلاً أن الصهيونية هي الديانة اليهودية نفسها ؟ والصحيح - كما يظهر لنا - أن الصهيونية ليست هي الديانة اليهودية نفسها ، لأن الصهيونية:

أولاً: حركة قائمة على الجهد البشري الذي يمكن أن يفهم الدين اليهودي أو يتعامل معه، وفق أشكال ودرجات متفاوتة، فكما أننا لا نستطيع القول أن الإخوان المسلمين أو السلفيين هم أنفسهم دين الإسلام، وكما لا نستطيع أن نقول أن حزب الكتائب المسيحي اللبناني أو الحزب الديمقراطي المسيحي الألماني هما المسيحية ذاتها، فكذلك لا نستطيع أن نقول أن الصهيونية هي اليهودية.

ثانياً: ليس كل من يعمل لمصلحة اليهود هو يهودي متدين ملتزم بتعاليم دينه بالضرورة، لأن هناك من يخدم أبناء دينه بدوافع الانتماء القومي أو الحضاري..، وقد يكون علمانياً فاسداً في المعايير الدينية لملته. ولتوضيح الأمر أكثر مع إدراكنا للفارق، فإن حزب رابطة عموم مسلمي الهند الذي قاده محمد علي جناح للانفصال عن الهند وإقامة دولة باكستان الإسلامية ونجح في ذلك سنة 1947، كان عدد لا يستهان به من أعضائه علمانيين أو غير متدينين. وربما كان لديهم عاطفة صادقة تجاه المسلمين بأن يقيموا دولتهم ويديروا أمورهم بأنفسهم، ولكنهم لم يكونوا معنيين كثيراً بتطبيق الشريعة الإسلامية في باكستان، فأنشأوا نظاماً علمانياً، وهو ما سبب المعارضة الإسلامية في باكستان، بزعامة أبو الأعلى المودودي حتى سجن، وكاد يصل الأمر إلى إعدامه. وكذلك الأمر بالنسبة للحركة الصهيونية التي انتهت إليها معظم الأطياف الدينية والعلمانية واليسارية والثقافية اليهودية.

ثالثاً: ليست الصهيونية مقصورة على اليهود وحدهم إذ إن هناك تيارات كبيرة وقيادات مؤثرة في الأوساط المسيحية، وخصوصاً البروتستانت، تؤمن بالصهيونية وتسعى لخدمتها وإنجاح مشروعها، ولعل ذلك يفسر جزءاً من الدعم البريطاني والأمريكي للمشروع الصهيوني، حيث الأغلبية البروتستانتية في البلدين.

رابعاً: لأن بعض اليهود الذين لا يؤمنون بالصهيونية، وهم وإن كانوا قلة قليلة إلا أنهم موجودون، من أمثال جماعة "ناتوري كارتا" التي ترفض الاعتراف بالكيان الصهيوني، لأنهم يرون انتظار المسيح

الخاص باليهود "الماشيح"، أو "المسيا"، ويؤمنون أن عودة اليهود مرتبطة بالإرادة الربانية، ولا يجوز فرضها أو التعجيل بها.

ويخشى بعض أبناء التيار الإسلامي أن مثل هذا الفصل بين اليهودية والصهيونية سيُميِّع التأصيل العقائدي للمعركة مع اليهود الذي احتلوا فلسطين، وليس الأمر كذلك.

فأولاً: إن المعركة حسب المفهوم الإسلامي يجب أن تكون عقدية مستندة إلى الإيمان والجهاد في سبيل الله، بغض النظر عن طبيعة الغاصب أو خلفياته القومية والعقدية، فاحتلال أي أرض للمسلمين من أي عدو كان يستوجب الجهاد، ولو احتل فلسطين أناس ينتمون لأديان أخرى (كما حدث مع الصليبيين) فالجهاد واجب، والمعركة العقدية قائمة، حتى لو كانوا بوذيين أو هندوس أو مجوس أو غيرهم. كما أن الجهاد واجب لو احتلها أناس ينتمون لقوميات ودول غير مسلمة سواء كانوا بريطانيين أو فرنسيين أو صينيين أو أمريكان أو حتى من الإكوادور.

وثانياً: لأننا عندما نقاتل اليهود المحتلين فإننا لا نقاتلهم، من الناحية الشرعية، فقط لكونهم يهوداً، وإنما لأنهم اغتصبوا أرضنا، وانتهكوا حرماتنا، وشردوا أهلنا، فوجب قتالهم لما ارتكبوه من ظلم وإجرام، ولأنهم اختاروا أن يكونوا محاربين. أما اليهود، بوصفهم أتباعاً للديانة اليهودية، فلهم أحكامهم المتعلقة بأهل الذمة في الإسلام. وما داموا مسالمين خاضعين ، فلهم الأمان وحماية دولة الإسلام. وهذا لا ينفي عقيدة الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله المطلوبة من كل مسلم، وهذا ما جرت عليه الحضارة الإسلامية طوال 1400 سنة، والتي أعطتهم الحرية الدينية، ووفرت لهم المأوى والأمان، عندما كانت أوروبا المسيحية تضطهدهم وتذبحهم. أما ما ذكر في القرآن حول بني إسرائيل واليهود وصفاتهم وعداوتهم للذين آمنوا، فهو ما يستوجب المزيد من الحذر والحيطة من احتمال تآمرهم، ومن باب كشف عقائدهم المنحرفة، وإقامة الحجة عليهم. وأما ما ذكره القرآن والسنة من إشارات على علوهم في الأرض وإفسادهم، وحرب المسلمين لهم، فإنها مُبشّرات ومبيّنات تزيد المؤمنين يقيناً بعدما رأوا هذه الأيام صدق ما ذكره القرآن والسنة، كما تزيدهم إيماناً بتحقيق باقي المبشرات بإنجاز النصر عليهم، بعد أن يبذل المسلمون الأسباب ويرتقوا للمستوى الذي يؤهلهم لذلك.

ومع ذلك فإن هذا الصراع سيبقى ذا طعم وطبيعة مختلفة عن غيره، أولاً: بسبب طبيعة العدو وما يحمله من إرث تاريخي مليء بالعداء والخصومة، وثانياً: بسبب طبيعة الأرض التي هي أرض مقدسة مباركة في نظر المسلمين، مما يجعل لها مكانة خاصة، تجعلهم دائماً مدفوعين لتحريرها وإنقاذ أقصاها وقدسها من الغاصبين. وهما في الحالتين محفزات تزيد المسلمين إصراراً على حقهم، وتضحية في سبيل مقدساتهم، وهو صراع لن ينتهي ما دام هناك قرآن يتلى، يكشف طبيعة العدو الغاصب، ويزيدنا ارتباطاً بالأرض المقدسة.

إن القضية في جوهرها هي أن اليهود اغتصبوا أرض فلسطين، وبالتالي يجب محاربتهم وإعادة الحق إلى أصحابه، ومن المفيد أن نعرف خلفياتهم ومنطلقاتهم وخلافاتهم، وارتباطهم بالعالم الغربي

والمشاريع الاستعمارية، لكن هذا لن يُغيِّر من جوهر المسألة. غير أنه مهمٌ للغاية في تحديد الوسائل المكافئة للصراع، ومعرفة عقلية الخصوم وعناصر القوة والضعف لديهم، وتجاوز الأوهام والتعميمات، ووضع الخطط المناسبة لإدارة المعركة. كما يفيد في تصنيف درجات الضلوع والمساندة والتأييد في جبهة الخصوم وحلفائهم (عقدية، اقتصادية، سياسية واستراتيجية).

وبغض النظر عن الخلفيات الأيديولوجية للمدارس المنتمية للحركة الصهيونية، فإن جوهر الفكرة نفسها يستند إلى ادعاءات دينية، فالفكرة الصهيونية تستند على أساس أن:

1. اليهود جنس مستقل، وأمة مستقلة من دون الأمم، وهي فكرة ذات جوهر ديني، وليس جوهراً قومياً. فما الذي يجمع اليهودي الخزري الروسي باليهودي اليمني باليهودي الإيراني واليهودي الفلاشا .. وغيرهم، سوى رابطة الانتماء للدين بغض النظر عن درجة الالتزام بالدين نفسه.

2. حق اليهود في فلسطين، وهي فكرة ذات جوهر ديني أيضاً، وقد يختلف اليهود إن كان هذا الحق بناء على وعد رباني، أو حقاً تاريخياً، أو حقاً قومياً، أو ثقافياً أو روحياً. لكن هذه الفكرة انغرست في "الوجدان" اليهودي، وإن وجدت تعبيرها في أشكال مختلفة. وإن اليهودي المتدين والعلماني والشيوعي والقومي، وكذلك اليهودي الأبيض والأسود، كما اليهودي العالم والجاهل والباحث الأكاديمي مستعد لأن يلغي من إدراكه حقيقة وجود شعب آخر متجذر في هذه الأرض منذ (4500) عام، وأن يتجاوز ألفي سنة من الانقطاع اليهودي عن هذه الأرض ليؤكد هذه المقولة.

ويعلم اليهود أن المناقشة العلمية الهادئة وحقائق التاريخ تهدم مقولاتهم القومية التاريخية، لكن الأمر لا يهمهم بقدر ما يهمهم إيمانهم هم "بحقهم" هذا. ولذلك لا يبقى سوى الرجوع إلى الأساس الديني الغيبي الذي انغرس في عقليتهم حتى وإن عبروا عنه بتعبيرات أخرى، ويحتمل أنهم استخدموا تعبيرات علمانية وقومية لثلاثة أسباب:

1. لاختلاط وتماثل ما هو ديني وقومي لديهم، لأن قومية اليهودي هي دينه، أي أن الانتماء القومي هو انتماء ديني أساساً.

2. لأنه يغلب على اليهود عدم التدين وعدم الالتزام، والانحلال من التعاليم.

3. لأنهم أرادوا أن يقدموا مشروعهم اليهودي في فلسطين في ضوء المصالح الغربية الاستعمارية، والتي كانت تستند في ذلك الوقت إلى أيديولوجيات علمانية وقومية، وذلك حتى يضمنوا الدعم والمساعدة من العالم الغربي، بتحقيق درجة من التماثل الفكري والحضاري معه.

أما كيف يكون هناك أناس مخلصون لليهود عاملون ليل نهار لخدمة قومهم، وغير متدينين في الوقت نفسه. فقد كثر في هذا الزمان من يخدم قومه بدوافع وطنية أو قومية. ثم إن هذا يجب أن يفهم بالرجوع إلى مفاهيم التدين والكفر والإيمان لدى اليهود، وهي تختلف في جوهرها عن الطريقة التي يعيش بها المسلمون حالات التدين لديهم. فإذا كان الأساس الذي قام عليه الإسلام هو التوحيد "الشهادتين" بهما يدخل المسلم في هذا الدين، وبإنكارهما يخرج. فإن الأساس الذي يفصل بين إيمان اليهودي وكفره ليس مرتبطاً بالإيمان بربه أو

التوراة، وإنما بالولاء لليهود وعدم خيانتهم. وقد يفعلون المنكرات والموبقات، ويستهزئون بربهم وشرائعهم، ولكنهم يبقون في حكم شريعتهم يهوداً ما داموا على الانتماء والولاء للجماعة اليهودية. ولا عجب في هذا من قوم قتلوا أنبياءهم، وافتروا على الله سبحانه وتعالى وحرفوا شرائعهم، وسعوا في الأرض فساداً، وتولى أحبارهم بأنفسهم الريادة في ذلك. وانظر كيف تآمر مجلسهم الديني الأعلى على المسيح عليه السلام لقتله، كما تآمر أحبارهم على محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة على الرغم من تأكدهم من نُبوته. إن الموازين هنا مختلفة، فالكذب جائز على غير اليهودي وكذلك سرقة ماله بل وقتله إن أمكن، وفي التلمود أمثلة عديدة على ذلك.

أما لماذا الولاء والانتماء هو الأساس؟ فلأن طبيعة نظرة اليهودي إلى نفسه وجماعته مختلفة تماماً عن نظرته للآخرين. فاليهود يؤمنون أن روح الله "تعالى الله عما يقولون" حلّت في شعبه اليهودي (عقيدة الحلول)، وبالتالي فهم يؤمنون أنهم شعب مقدَّس مختلف، أو كما هو معروف من قولهم أنهم" شعب الله المختار"، أو أنهم ﴿أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾[101]. واليهودية في أساسها دين منغلق على أصحابها لا تسعى للتوسع والانتشار، ويعتقدون أن ربهم "يهوه" هو إلههم الخاص بهم وليس لباقي الأمم. وأن الله خلق الأمم الأخرى "الجوييم" أو "الأغيار" على شكل بشر حتى يأنس بهم اليهود، مع حقهم بأن يفعلوا بهم ما يريدون، ومن هنا جاء التطابق بين العقيدة والقومية لدى اليهود، وأن الهوية اليهودية ترتكز على النسب أكثر منه على الاعتقاد الديني، وأنها دين جماعية عرقية معينة. ولا فرق عند اليهودي بين دينه وقوميته، ولا معنى لأحدهما دون الآخر، فالديانة اليهودية قومية، كما أن القومية اليهودية دين، ولا زال التيار العام لليهود والمعتمد رسمياً في الكيان الصهيوني هو الذي يُعرف اليهودي بأنه المولود من أم يهودية[102].

ثم إن نظرة اليهود إلى مسألة القداسة فيما يتعلق بالله والأنبياء تختلف عن الكيفية التي ينظر بها غيرهم. فإذا كان اليهود شعباً "مقدساً" مختاراً، فإن الله - تعالى عما يقولون - يفقد الكثير من قداسته، فالله في نظرهم يُخطئ ويبكي ويندم ويتعلم التلمود ويلعب مع الحوت، ويحلف الأيمان ويحنث ويتحلل منها، ويناقش الحاخامات في المسائل ويغلبونه[103].

كما أن الأنبياء يفقدون الكثير من مكانتهم واحترامهم، فهم غير منـزهين، ويرتكبون الموبقات فينسب اليهود إلى يعقوب عليه السلام السرقة والرشوة والخداع والسكوت عن زنا ابنتيه وأولاده، بل والشرك بربه. وينسبون إلى داود عليه السلام الزنا بزوجة أحد جنوده ثم التسبب بقتل هذا الجندي. كما ينسبون إلى سليمان عليه السلام أن نساءه أوقعنه في الوثنية، وأنه أشرك بربه بتقربه إلى عشتروت إلهة الصيدونيين[104].

وهكذا، فعندما يفقد الرب وأنبياؤه قداستهم بينما يبقى الشعب مقدساً، فماذا نتوقع؟، ما هي القدوة والنموذج الذي سيحتذي به هذا الشعب؟ وما هي المعايير الأخلاقية التي ستحكمه؟ إن موازيين التّدين ودرجاته ستكون ذات اعتبارات ودلالات مختلفة. وصحيحٌ أنه سيكون هناك يهود سيركزون على الجانب القومي، وآخرون على الجانب

الثقافي...، غير أن إطار الولاء والانتماء للجماعة اليهودية سيبقى المحك الفاصل لديهم.

إن أول حاخام أكبر لليهود في فلسطين "ابراهام اسحق كوك" (1868- 1935 ،Abraham Kook) الذي عُدَّ أكبر قوة موجهة في الحياة العامة لليهود في عصره، كان يؤمن أن الحركة القومية [أو الصهيونية بتعبير آخر] على الرغم من اتجاهاتها العلمانية البادية على أتباعها، فإنها في التحليل النهائي والأخير ليست إلا حركة دينية في جوهرها وحقيقتها، وأنها تصدر أصلاً عن نزعة دينية "هي الصفة الراسخة لليهود التي اختصوا بها من بين الأمم الأخرى". ويرى أن هذه الحركة القومية هي "حركة روحية خالصة على الرغم من نزعتها العلمانية وميول قادتها التي لا تعكس ظاهرياً روحاً متدينة". ويرى أن السلوك اللاديني البادي للعيان ليس كفراً أو جحوداً وزيغاً عن الدين، بقدر ما هو عدم اكتراث نتيجة قصور في الفهم، أو عجز في الإدراك. وقد أظهر كوك قدراً كبيراً من التفهم والتسامح وحسن المعاشرة معهم لاعتقاده أن " الأرض المقدسة من حيث كونها مظهراً لكل الكمالات الإلهية السامية، سوف تلعب دورها الروحي في تصحيح سلوك هؤلاء المقصرين ظاهرياً"[105]. وقد تمتع كوك بنفوذ واسع في صفوف اليهود الأرثوذكس، وبذل جهداً استثنائياً لإقناعهم بالانضمام للصهيونية[106].

إن الفكرة المركزية في الأيديولوجية الصهيونية هي الامتزاج والتداخل الكامل بين القداسة والقومية، وهي تعبر عن نفسها في الإنسان والمكان والزمان، وأهم عناصرها الإنسان أي الإنسان المقدس أو الشعب اليهودي المقدس. وستجد أن رؤية اليهود بوصفهم شعباً مقدساً تتكرر في مقولات هرتزل "الليبرالي"، وبن جوريون العمالي الاشتراكي، وبورخوف الشيوعي، وإن كانت تتخفى دائماً تحت "ديباجات" مراوغة[107].

وكان الحاخام الأكبر كوك يقول: "إن الله قد حلّ في الأمة، وبذا أصبحت إسرائيل مشبعة بروح الله، بروح الاسم المقدس"، ويقول:" إن كل ممتلكات إسرائيل القومية العزيزة على قلوب اليهود - الأرض واللغة والتاريخ والعادات - إن هي إلا أوعية لروح الرب"، وإن "روح إسرائيل وروح الله هما شيء واحد"[108]. أما الحاخام شختر فكان يقول:" عندما وجدت إسرائيل نفسها وجدت إلهها"[109]. وفي رأي الحاخام أيوجين بورويتس فإن ثمة تمازجاً كاملاً بين الله والشعب، ولذلك فحرب 1967 لم تكن مسألة عسكرية بل مسألة لاهوتية، وإن ما كان مهدداً في هذه الحرب، لم يكن دولة إسرائيل أو حتى الشعب اليهودي" وإنما الله نفسه"!!![110].

وكان الحاخام لاناو يشير إلى أن البرنامج الصهيوني يدور حول فكرة واحدة" وكل القيم الأخرى إن هي إلا أداة في يد هذا المطلق"، ثم حدد هذا المطلق بأنه الأمة (الشعب اليهودي)[111].

ولا يختلف هذا الطرح عما ذكره التلمود من أن أرواح اليهود تتميز عن باقي الأرواح بأنها "جزء من الله كما أن الابن جزء من والده"[112]. ولذلك فحسب التلمود فإنه إذا ضرب شخصٌ غير يهودي يهودياً فكأنه" ضرب العزة الإلهية"، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهود وباقي الشعوب[113].

ويذكر المسيري أن ما يسمى "لاهوت البقاء" أو "لا هوت ما بعد أوشويتس" هو الذي يسيطر الآن على التفكير الديني اليهودي. وهو لاهوت ينطلق من القول أن الله قد هجر اليهود أو حتى خانهم "فهو إله شرير"، أو أنه غير موجود أساساً "لاهوت موت الله"، ومع هذا فالشعب اليهودي شعب مقدس (حتى لو مات الله أو خان) - تعالى الله عما يقولون - وأن قداسته لا تنبع من أي مصدر خارج نفسه، وبالتالي واجب الشعب الأساسي هو "البقاء"، وليس إعلان كلمة الحق أو نشر المحبة.... [114].

وبالتالي هل يمكن أن ننظر إلى ملحدي وعلماني اليهود بالدرجة نفسها التي ننظر بها إلى ملحدي وعلمانيي المسلمين مثلاً. وبعبارة أخرى: إن حالة المسخ والتشويه الذي تعرضت له العقيدة اليهودية أفرزت بالضرورة أمثال تلك الاختلالات في أتباعها، فإن تنكر أحدهم لربه أو تعاليم دينه فإنه لا يفعل شيئاً كبيراً (كما ينظر المسلمون للمسألة)، ما دام هذا اليهودي على ولائه وانتمائه لهذا "الشعب المقدس"، وهو بذلك يقوم بمهمة "دينية" - وإن لم يكن متديناً - لأن الشعب أصبح مصدر القداسة، وأصبح الدين اليهودي هو التعبير الديني عن روح الأمة اليهودية، وليس العكس.

والحركة الصهيونية قدمت نفسها امتداداً لليهودية وليس نقيضاً لها، واستخدم الصهاينة وحتى الملاحدة منهم مقولات دينية [115]، وتعاملوا مع دينهم اليهودي بروح أكثر إيجابية وانفتاحاً من تلك التي أظهرها من ألحد من المسلمين والنصارى. وكان ماكس نوردو Max Nordau القيادي الصهيوني الكبير (والذي كان مقرباً إلى هرتزل، وعمل رئيساً أو نائباً لرئيس عدد من المؤتمرات الصهيونية) يُعدُّ ملحداً، ولكنه عدّ الدين "مصدراً لطاقة بناء كاملة". وكان جابوتنسكي V. Jabotinsky يعد ملحداً أيضاً - وهو مؤسس الصهيونية التنقيحية والأب الروحي لبيغن وتجمع الليكود - وقد تحدث عن نفسه بوصفه بنَّاءً يسهم في بناء معبد جديد لربه الذي أسماه "الشعب اليهودي". أما نحمين سيركين القيادي الصهيوني الاشتراكي فأشار إلى اليهودي المقدس بوصفه نبياً وشهيداً بل ومسيحاً مصلوباً!! وتحدث الملحد موشيه ليلينبلوم قائلاً إن "الأمة كلها أعز علينا من كل التقسيمات المتصلبة . . . فلا مؤمنون ولا كفار، لأننا كلنا مقدسون سواء كنا غير مؤمنين أو أرثوذكسيين"[116].

وهكذا فإن هذا المفكر الصهيوني رغم إلحاده إلا أنه لا يزال يعدّ نفسه مقدساً!! وقد حاول المفكر الصهيوني كلاتزكين توضيح الأمر فقال إن اليهودية "تعتمد على الشكل لا على المضمون"، وهذا الشكل الأساسي - كما يقول- هو تخليص الشعب اليهودي للأرض، أما المضامين الروحية والفكرية فهي تختلف بشكل راديكالي وهذا لا يهم لأن "مضمون الحياة نفسه سيصبح قومياً عندما تصبح أشكالها قومية"[117]. ولا يهتم بن جوريون - المؤسس الفعلي للكيان الصهيوني وأول رئيس وزراء - إن كان مَنْحُ اللهِ أرضَ كنعان لليهود حقيقة إلهية أم لا، بل المهم عنده أن هذه الأسطورة مغروسة في وجدان الشعب اليهودي، ويجب أن تبقى سارية المفعول، حتى ولو ثبت غير ذلك"[118]. أي أن مصدر الشرعية عنده ليس بالضرورة الوحي الإلهي وإنما الشعب " الذي حلت فيه الروح الإلهية"، ويكفي أن يقتنع الشعب بذلك ليصبح هذا أمراً مشروعاً وحقاً لا نزاع فيه.

إن الحديث بعد ذلك عن وجودية هرتزل وعلمانيته الصارمة، التي وصلت حد الإلحاد حتى أنه تعمد إنتهاك الشعائر اليهودية عندما زار القدس ، أو عن استهزاء ماكس نوردو بالتوراة وقوله إنها "طفولية بوصفها فلسفة، ومقززة بوصفها "نظاماً أخلاقياً"، أو عن تلذذ حاييم وايزمن أحياناً بمضايقة الحاخامات بشأن الطعام المباح شرعاً ...[119] إن الحديث عن ذلك كله وغيره ينبغي أن يوضع في إطاره المحدود، فهؤلاء لم يفعلوا شيئاً كبيراً قياساً إلى ما نسبوا فعله إلى ربهم وأنبيائهم، ولأن هؤلاء في نهاية الأمر وفي خلاصة التحليل خدموا التطلعات اليهودية الدينية في فلسطين، وسعوا إلى إنقاذ بني دينهم (قومهم) والارتقاء بهم وبناء دولة لهم. كما اتسعت حركتهم الصهيونية للتيارات الصهيونية الدينية وغيرها، كما اتسعت دولتهم الصهيونية بعد ذلك لهذه التيارات لتعبر عن نفسها، بحرية وتشارك في القيادة السياسية، وتفرض شروطها حسب ما يتيح لها وزنها في النظام الانتخابي الديمقراطي الحر. وبالتالي فإن شيوعية أو علمانية هؤلاء لم تكن "إقصائية" أو "استئصالية"، وإنما متعايشة بل ومتكاملة مع غيرها. وظلت خدمة "الشعب المقدس" هي الرابطة التي تجمعهم، ولذلك لم تخل الوزارة الإسرائيلية منذ إنشاء الكيان الصهيوني 1948 وحتى الآن من وزراء يمثلون الأحزاب الدينية، ويمسكون بوزارات حساسة كالداخلية والتعليم.

ومن جهة أخرى، فإن رؤية الأيديولوجية الصهيونية للأرض هي نموذج للتماثل مع اليهودية، وعلى الرغم من أن الحركة الصهيونية في البدايات الأولى، ولأسباب براغماتية عملية لم تمانع في أن تحصل على "مأوى مؤقت"، في غير فلسطين (في أوغندة 1903)، ريثما يتسنى لها الحصول على فلسطين، إلا أنها سرعان ما حسمت أمرها (في 1905) بالتركيز فقط على فلسطين. والفكر اليهودي-الصهيوني يركز على الارتباط العضوي بين الله والشعب والأرض، وحسب الحاخام حاييم لانداو:" إن روح شعبنا لا تستطيع التعبير عن نفسها إلا إذا عادت الحياة القومية إلى أرضنا من جديد"، لأن "القبس الإلهي لا يؤثر في شعبنا إلا وهو في أرضه"[120]. وعندما سئل موشيه دايان (رئيس الأركان ووزير الدفاع ووزير الخارجية سابقاً في الدولة الصهيونية) بخصوص دعاوى الصهاينة الدينية والتاريخية في فلسطين المحتلة قال:" هذا أساس الوجود الإسرائيلي، إنه واحد من العناصر الثلاث التي تشكل إسرائيل وهي الشعب اليهودي والكتاب المقدس وأرض اليهود"، ولذلك "إذا اجتمعت التوراة وأمة التوراة فلا بد أن تكون معها أرض التوراة"[121].

ويؤكد الحاخام هاكوهين فيشمان ميمون أول وزير للشئون الدينية في "إسرائيل" أن الصلة بين الشعب اليهودي وأرضه المقدسة هي سر من الأسرار الدينية وأن "اليهود وهم في الشتات لهم صلة مباشرة بها ، صلة سماوية وأبدية". وينبني على ذلك أن وجود الفلسطينيين في نظر اليهود الصهاينة هو وجود هامشي وغير معتبر، ولا قيمة لعدده ولا للمدة التي قضاها في فلسطين، حتى لو كانت أضعاف ما عاشه اليهود أنفسهم. وعلى حد تعبير الرئيس الأمريكي المتصهين كلينتون فإن مشكلة فلسطين تكمن في أن اليهود عندما رجعوا إلى وطنهم وجدوا أن هناك شعباً آخر!![122]

ومن هنا جاءت مقولات وشعارات اليهود "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، كما كانت تذكر بصياغة أخرى " أرض مقدسة بلا شعب مقدس،

لشعب مقدس بلا أرض مقدسة"[123]. وإذا كانت العبارة الثانية تعترف ضمناً بوجود شعب في فلسطين إلا أنها تنـزع عنه الحق لأنه غير مقدس، وعليه أن يسلمها للشعب المقدس ليعود إلى أرضه المقدسة.



المؤتمر الصهيوني الثاني 1898



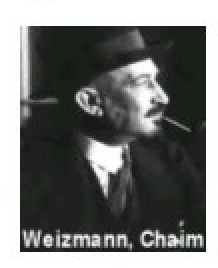
إعلان دولة الكيان الإسرائيلي في مساء 14 مايو 1948



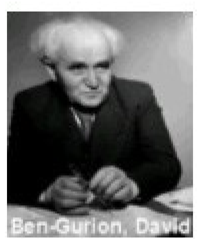
أرئيل شارون وشمعون بيريز



ثيودور هرتزل: مؤسس المنظمة
الصهيونية العالمية وأول رئيس لها



حاييم وايزمان
رئيس المنظمة الصهيونية العالمية
1920–1931 و 1935-1946
وأول رئيس للكيان الصهيوني



ديفيد بن غوريون
زعيم المنظمة الصهيونية العالمية
1946-1956
أول رئيس وزراء للكيان الصهيوني

الاتجاهات والمدارس الصهيونية:

يظهر للدارس أن الاتجاهات الأيديولوجية الصهيونية ـ على الرغم مما يبدو عليها من خلاف - إلا أنها تلعب أدواراً متكاملة، ولها في نهاية المطاف نسق أيديولوجي واحد. إذ يؤمن جميع الصهاينة بـ" فكرة العودة إلى أرض الميعاد لتأسيس دولة يهودية، تعبر عن الروح الخالدة للشعب اليهودي، وتكون حلاً للمشكلة اليهودية"، وهذه نقطة البداية والنهاية لهم جميعاً، والركيزة التي تستند عليها تحالفاتهم، أما المحتوى الاجتماعي للدولة فهي مسألة غير ملحة ومؤجلة[124].

وهناك أربعة اتجاهات ومدارس صهيونية تتفرع عنها اتجاهات وانقسامات أخرى، فهناك:

المدرسة الأولى: الصهيونية السياسية: وزعيمها الأول هرتزل، وهي التي سعت إلى تحويل المشكلة اليهودية إلى مشكلة سياسية دولية. وترى أن اليهود شعب ذو قومية محددة، وهو غير قادر على الاندماج في المجتمعات الأخرى، ولا يمكن حل مشكلته إلا بأن يصبح شعباً مثل كل الشعوب، ولن يحصل ذلك إلا عن طريق تهجير اليهود إلى فلسطين، ليعيشوا في وطن يهودي تحكمه دولة صهيونية، ولا يمكن تنفيذ هذا الطموح إلا بإشراف المجتمع الدولي وبمساندة القوى

الكبرى، ومن أهم دعاة هذه المدرسة جاكوب كلاتزكين (1882 - 1948)، وماكس نوردو[125].

وتعد الصهيونية التنقيحية أو المراجعة استمراراً للصهيونية السياسية ويعد فلاديمير جابوتنسكي V. Jabotinsky ، المنظّر الأساسي لها. وهي تُغلّب الجانب القومي على الجانب الديني، كما تؤكد على العنف وسيلة للتعامل مع الفلسطينيين. وهي ذات توجهات ليبرالية رأسمالية، وتتمثل أساساً في تحالف الليكود في الكيان الصهيوني، ويعد بيغن وشامير ونتنياهو وشارون امتداداً لهذه المدرسة[126].

المدرسة الثانية: هي الصهيونية العمالية "الاشتراكية": وهي تدّعي أن التركيب الاجتماعي والحضاري اليهودي مختلف عن غيره، وبالتالي فهو غير قادر على الاندماج مع الأوساط الأخرى. وتدعو إلى برنامج عمل قائم على تحقيق الأهداف الصهيونية على أسس اشتراكية. وداخل هذه المدرسة هناك تيار بوروخوف (1881 - 1917) Ber Borochov، الذي حاول توظيف المنهج الماركسي لخدمة الرؤية الصهيونية والذي أكد على حتمية الحل الصهيوني، لتزويد الطبقات اليهودية الهامشية بقاعدة إنتاج!! [قاعدة الإنتاج هنا هي أرض فلسطين!!]. وهناك تيار ناحام سيركين (1868- 1924) N. Syrkin الذي ركز على العنصر الخلقي، ووحدة الرؤية اليهودية.

وهناك تيار أهارون جوردون (1856- 1922) A. Gordon الذي ركز على الجانب النفسي، وإلى اقتحام الأرض والعمل.

وقد شاعت أفكار سيركين وجوردون بالذات في الأوساط العمالية اليهودية. وعلى أكتاف هذا التيار قام البناء الاقتصادي والسياسي الفعلي للكيان الصهيوني، فقد ركز على الجانب العملي في الهجرة والاستيطان وبناء المؤسسات والقوة العسكرية فكان من نتاجه تـأسيس الهستدروت والمستوطنات الزراعية (الكيبوتسات)، وقوات الهاجاناه، وهي الأدوات التي استخدمت لإنشاء الدولة الصهيونية[127].

وهذا التيار هو الذي قاد الكيان الصهيوني منذ إنشائه سنة 1948 وحتى سنة 1977 من خلال حزب الماباي Mabai وحلفائه، وما عرف فيما بعد بتكتل حزب العمل، وتتمثل قيادته التاريخية في بن جوريون وموشيه شاريت، وجولدا مائير وليفي أشكول واسحق رابين وشمعون بيريز، وقد نزل في انتخابات سنة 1999 تحت لافتة "إسرائيل واحدة" بزعامة إيهود باراك.

المدرسة الثالثة: الصهيونية الدينية: وهي تُغلّب الجانب الديني على الجانب القومي، وتسعى لتطبيق الشعائر اليهودية والشرائع السماوية والاحتكام إلى التوراة. وهي قسمان: القسم الأول: رأى أن الصهيونية السياسية على الرغم من علمانيتها الظاهرة إلا أنها ستسهم بالضرورة في خدمة القيم الدينية. وأنها في التحليل النهائي ليست إلا حركة دينية في حقيقتها وجوهرها، وقد انضم هذا القسم للمشروع الصهيوني منذ بداياته، ومن رُوّاده الأوائل الحاخام كاليشر، والحاخام موهيليفير (1924 - 1898) وكذلك اسحق كوك ولانداو، وأخذ هذا التيار شكله المنظم سنة 1902 بتأسيس حركة مزراحي "مركز روحي". ولخصت رؤيتها في شعار "التوراة والعمل". والامتداد الحزبي

الحالي لهذا التيار يتمثل في حزب المفدال "الحزب القومي الديني"، ومن أبرز قادته حاييم شابيرا، ويوسف بورغ، ويتسحاق رفائيل، وزفولون هامر، وقد انشق عنه سنة 1981 حزب تامي، كما انشق عنه سنة 1983 حزب مَتْساد[128].

أما القسم الثاني من الصهيونية الدينية: فقد رفض الصهيونية في البداية، بل وحاربها بوصفها مخالفة لتعاليم اليهودية، وكفراً ومروقاً من الدين وتخريباً للأسس الروحية والمادية للطوائف الروحية في العالم، وتمرداً على المشيئة الإلهية، وتعود بداية تكتل هذا التيار إلى سنة 1909، وأنشأ هذا التيار لنفسه حزب "أغودات إسرائيل" سنة 1912. لكنه مع مرور الوقت تبنى الهجرة والاستيطان وتعاون مع المؤسسات الصهيونية، ورأى أن "وعد بلفور" يتسق مع الوعد الإلهي، وسحب معارضته لقيام دولة يهودية، ويشارك باستمرار في الانتخابات والحكومات الائتلافية سواء العمل أو الليكود. وفي الوقت نفسه، يرفض الاعتراف من ناحية دينية بـ"إسرائيل" دولةً يهوديةً، ولا يعترف بعلمها ونشيدها ورموزها ومناسباتها الوطنية، ويرفض خدمة شبانه في الجيش الإسرائيلي !! ومع ذلك يتسع صدر الدولة الصهيونية له ولأمثاله؟! ومن الرموز القديمة الأولى لهذا الحزب يتسحاق هاليفي، وإسحق ليفين. وقد تعرض هذا الحزب لعدة انشقاقات، ومن عباءته خرجت أحزاب شاس سنة 1984، و ديجيل هاتوراه سنة 1988[129].

المدرسة الرابعة: الصهيونية الثقافية: وهي ترى أن الخطر الحقيقي الذي يهدد استمرارية اليهودية هو فقدان اليهود للإحساس بالوحدة والترابط وضعف تمسكهم بقيمهم وتقاليدهم. وهي تركز على توفر المناخ النفسي الملائم لليهود، وتجمّع اليهود في فلسطين لتكون المركز الروحي لليهودية، وإحياء قيمها وثقافتها. والفرق بينها وبين المدرسة الدينية أنه على الرغم من أن كليهما يؤمن بالقيم اليهودية، إلا أن الصهيونية الدينية ترى أن مصدر هذه القيم هو الله، أما الصهيونية الثقافية فترى أن القيم جزء من التراث والثقافة المرتبطة بإنجازات وبتاريخ الشعب اليهودي، أي أن الشعب هو مصدر القداسة. أي أنها ركزت على الجانب الداخلي في المشكلة اليهودية سبيلاً للإحياء اليهودي، وقدمت القومية اليهودية في هيئة رومانسية، ويطلق عليها بعض الكُتَّاب صهيونية عضوية Organic.

وأبرز دعاة الصهيونية الثقافية هو آشر جينـزبرغ (1856 - 1927) Aser Ginsberg ، المشهور بآحاد هاعام Ahad Ha'am، ثم مارتن بوبر، وهذه الصهيونية ليس لها أحزاب محددة في الكيان الصهيوني، لأنها تعبر عن موقف يمكن أن يتبناه أي صهيوني، كالاهتمام باللغة العبرية والثقافة اليهودية[130].

وبشكل عام فإن الحركة الصهيونية أثبتت مرونة في استيعاب هذه التيارات التي يظهر عليها التناقض، كما أثبتت التيارات إمكانية التعايش في أجواء الخلاف، بل والاستفادة من تناقضاتها لخدمة المشروع الصهيوني، وظلت الأفكار السياسية (اشتراكية، ليبرالية، شيوعية . .) مضامين فكرية مضافة إلى بنية الأيديولوجية الصهيونية يمكن حذفها أو الاستغناء عنها أو عن بعضها عند الحاجة دون أن تتأثر البنية الأساسية. فمثلاً نجد أن حزبي المباي الاشتراكي والمبام اليساري حافظا على تحالف "إسرائيل" مع أمريكا والغرب، وأيدا

التدخل الأمريكي في فيتنام، ووافقا على الاستثمارات الأجنبية الخاصة في "إسرائيل"، وتحالفا مع الأحزاب الدينية في الحكم. والليبراليون والرأسماليون يتحالفون مع الأحزاب الدينية ، ويأتلفون مع الأحزاب الاشتراكية ، ويقبلون عدداً من السمات الاشتراكية للدولة، كالكيبوتسات، ومؤسسة الهستدروت، ودور الدولة في القطاع العام..، كما أن الأحزاب الدينية مستعدة للمشاركة في الحكم، وتحقيق مكاسب حسب حجمها ، ولا تُصرّ عاجلاً على تطبيق تعاليمها الدينية[131].

وهكذا فإن الصهيونية الحقة تمزج بين جميع التيارات (صهيونية توفيقية)، فهي تتحرك دبلوماسياً لتنال التأييد "سياسية"، ويُوجِدُ المستوطنون حقائق على أرض الواقع تجعل التراجع عنها مستحيلاً (عملية)، وتجمع الضرائب وتشجع الرأسمال اليهودي (التنقيحية والمراجعة)، وتزود التنظيمات العمالية بالمساعدات (عمالية اشتراكية)، وتعبر عن فلسفة قومية (لا دينية)، وتقدم نفسها على أنها التعبير الوحيد عن اليهودية والمدافع عن التراث اليهودي (دينية)[132].

الفصل الثاني

الكيان اليهودي الصهيوني ويهود العالم

النظام السياسي في الكيان الصهيوني:

جرى الإعلان عن إنشاء الكيان الصهيوني "إسرائيل" في مساء 14 مايو 1948، حيث تمكن خلال حرب 1948 من احتلال 20770 كم2 أي نحو 77% من أرض فلسطين. وكان عدد السكان اليهود في ذلك الوقت 650 ألفاً. وقد تمكن من احتلال باقي فلسطين في حرب 1967 كما احتل مرتفعات الجولان السورية وسيناء المصرية. وضم إليه رسمياً كلاً من القدس الشرقية والجولان السورية لتصبح المساحة الكلية التي يدعيها لكيانه 21946كم2، وليصبح عدد سكانه في نهاية عام 2000 (حسب إحصائيات المكتب المركزي للإحصاء في الكيان الصهيوني) حوالي ستة ملايين و 369 ألفاً، بينهم أربعة ملايين و 955 ألف يهودي أي 77.8% من السكان، وهناك نحو 201 ألفاً لم يحددوا دينهم ولعل معظمهم من أصول يهودية. أما السكان العرب فيبلغ عددهم مليوناً و 188.7 ألفاً، أي 18.66% من السكان[133]. واسم الكيان الصهيوني رسمياً "دولة إسرائيل"، ويسمونها بلغتهم العبرية "مدينة يسرائيل" Madinat Yisrael، ونظام الحكم برلماني ديمقراطي، والعاصمة الرسمية المُدَّعاة هي القدس منذ سنة 1950. ولا يوجد للكيان الصهيوني دستور رسمي مكتوب، ربما حتى يتجنبوا الخلاف مع بعضهم حول الهوية العلمانية أو الدينية للدولة، وكذلك حتى يتجنبوا تحديد حدود الدولة اليهودية، إذ إن الكيان الصهيوني لم يحدد حدوده الرسمية بعد، مما يكشف عن مطامع مستقبلية في التوسع وضم الأراضي. والصهاينة يفرقون بين "دولة إسرائيل" و"أرض إسرائيل" Eretz Yisrael، ويعتقدون أن دولتهم لا تشمل "أرض إسرائيل" كافة، بل ويعد الكثير منهم بلداً كالأردن أرضاً إسرائيلية محتلة من العرب!!، وظل ذلك جزءاً من برامج حزب الليكود حتى انتخابات سنة 1992.

وتتركز السلطات في يد رئيس الوزراء، أما رئيس الدولة فهو منصب رمزي لا يملك سوى صلاحيات شكلية. وهناك مجلس تشريعي واحد "برلمان"، منتخب هو الكنيست Knesset ، ويملك صلاحيات تشريعية واسعة، وسلطات رقابية قوية على أداء الحكومة. وعدد أعضاء البرلمان "الكنيست" منذ إنشاء الكيان الصهيوني وحتى الآن 120 عضواً. وتتم طريقة الانتخاب على أساس أن كل الكيان الإسرائيلي دائرة انتخابية واحدة، وتحصل الأحزاب على مقاعدها في الكنيست بحسب نسبة الأصوات الكلية التي تحصل عليها (مثلاً: 25% تساوي 30 مقعداً وهكذا). ويُضعف هذا النظام من فرص فوز المستقلين أو الشخصيات ذات القاعدة المحلية الصغيرة، بينما يعطي فرصاً أفضل للعمل الحزبي المنظم في إطار قطري، لكن هذا النظام يُضعف من فرص حصول أي حزب على الأغلبية المطلقة لعدد المقاعد وبالتالي فإنه سيضطر للتحالف مع أحزاب أخرى للحصول على الثقة. وهذا يضعف من فرص الاستقرار السياسي، كما يعطي للأحزاب الصغيرة قدرة أكبر على فرض شروطها على الأحزاب الكبيرة، في سبيل تشكيل الحكومة. وهذا ما تفعله الأحزاب الدينية عادة، والتي شاركت

في كل الحكومات الإسرائيلية منذ إنشاء هذا الكيان. ومن الجدير بالذكر أن أياً من الأحزاب الإسرائيلية لم يحصل على الأغلبية المطلقة في الكنيست منذ أول انتخابات سنة 1949 وحتى آخر انتخابات سنة 1999[134].

ومنذ سنة 1949 وحتى 1996 كان الحزب الذي يفوز في الانتخابات يقرر رئيس الوزراء من بين الفائزين في عضوية الكنيست، ولكن منذ عام 1996 صار يتم انتخاب رئيس الوزراء مباشرة من الناخبين، حتى وإن لم يحصل حزبه على أكبر عدد من المقاعد في الكنيست، وعلى هذا الأساس تم انتخاب نتنياهو 1996، ثم باراك 1999، ثم شارون في فبراير 2001. وعلى ما يظهر فإنه سيتم العودة إلى النظام السابق مرة أخرى في الانتخابات القادمة.

الأحزاب السياسية:

يتسم النظام الحزبي في الكيان الصهيوني بعدة سمات:

1. كثرة الأحزاب وتوالي ظهور أحزاب جديدة، ففي انتخابات سنة 1992، شاركت 25 قائمة انتخابية بعضها مركب من ثلاث أحزاب. وتعكس كثرة الأحزاب التباينات والاختلافات الدينية والقومية والاجتماعية والاقتصادية بين اليهود (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى).

2. كثرة الانشقاقات والاندماجات بين الأحزاب، حيث يجد المرء نفسه وكأنه أمام لعبة الحل والتركيب!!، وقد يخرج أفراد أو مجموعات لينضموا إلى حزب آخر، ويشكلوا حزباً جديداً، ثم ليعودوا للتحالف مع رفاقهم السابقين أو خصومهم، بل والاندماج ثانية. وحتى الأحزاب الكبيرة تتحالف أو تندمج أو تَفضّ الشراكة مع غيرها بين فترة وأخرى، حسب أحوال بورصة الانتخابات. غير أن هذه اللعبة عادة ما تتم ضمن تيارات متشابهة إلى حد ما (عمالية - يمينية- دينية).

3. معظم الأحزاب الكبيرة والقديمة ليست أحزاب سياسية فقط، وإنما لها أنشطة اجتماعية واقتصادية وتعليمية وطبية واسعة النطاق، ويعود ذلك إلى خلفيات أدوارها في الهجرة والاستيطان قبل إنشاء الكيان الصهيوني، و هي عندما تتولى الحكومة فإنها لا تتورع عن تقديم الدعم والخدمات لمؤسساتها، مثل المخصصات المالية للهستدروت والكيبوتسات، أو لشبكات التعليم الديني.. وغيرها[135].

4. الدور العسكري والأمني في الحياة السياسية، فالجيش يشارك في الانتخابات والمؤسسات الأمنية لها دور أساسي في صناعة القرار السياسي، وفوق ذلك، فإن العسكريين حال تقاعدهم سرعان ما يتحولون إلى قادة سياسيين نشطين في العمل الحزبي، ويتم استيعابهم بسهولة في الأحزاب حيث يتبوءون مناصب رفيعة، أمثال موشيه دايان وإسحق رابين وشارون وباراك ورفائيل إيتان ونتنياهو وغيرهم كثير.

5. قدرة الأحزاب على التعايش والوصول إلى حلول وسط، حيث كل شيء تقريباً قابل للمساومة بين المتدينين والعلمانيين واليساريين واليمينيين..

وحسب التقسيمات التقليدية فإن الأحزاب الإسرائيلية تنقسم إلى ثلاثة معسكرات هي

1- اليسار   2- اليمين   3- والأحزاب الدينية.

وهذا التقسيم لا يرتبط بالضرورة بالأطروحات الاشتراكية أو الليبرالية، بل يرجع أساساً إلى الموقف من ثلاث قضايا أساسية هي: مصير المناطق العربية المحتلة، وعلاقة الدين بالدولة، والنظام الاقتصادي. ولذلك نرى حزب شينوي يدرج مع قائمة اليسار مع أن طرحه ليبرالي (يميني)، كما نجد حزب تسوميت يدرج مع أحزاب اليمين مع أن طرحه أقرب إلى حزب العمل (اشتراكي)، لأن تصنيف حزبي شينوي وتسوميت تم أساساً بناء على موقفهما من قضية الأراضي العربية المحتلة، كما أن الكثير يصنف الأحزاب العربية في قائمة اليسار على الرغم من البون الشاسع بينهما[136].

أما أهم أحزاب معسكر اليسار فهو "حزب العمل"،[137] ويمكن عدّه استمراراً لحزب مباي، الذي ظل الحزب الأقوى في الساحة الإسرائيلية حتى سنة 1968، عندما اتحد هذا الحزب مع حزبي أحدوت هفعودا بوعالي تسيون، ورافي، وهما حزبان كانا قد انشقا أصلاً عن هذا الحزب. وتوالى على قيادة حزب العمل بعد تشكيله سنة 1968 جولدا مائير، وتبادل اسحق رابين وشمعون بيريز المواقع على قيادة الحزب بين 1974 - 1996، ثم تولى رئاسته إيهود باراك إلى أن استقال بعد هزيمته في الانتخابات في 6 فبراير 2001، وشارك هذا الحزب في انتخابات 1999 تحت قائمة جديدة اسمها إسرائيل واحدة (يسرائيل آخات).

ويتبنى الحزب سياسات أكثر ميلاً للاشتراكية (المختلطة بعناصر ليبرالية)، ويبدو في الظاهر أكثر ميلاً إلى تسوية سلمية مع الفلسطينيين والعرب، لكنه لا يختلف عن الأحزاب الإسرائيلية الأخرى في سياسة الاستيطان وضم الأراضي، والموقف من القدس عاصمة موحدة للكيان الصهيوني وكذلك في تحقيق الاعتبارات الأمنية..، ويبدو أكثر قدرة على المراوغة واللعب السياسي في الوقت الذي ينشط فيه لتثبيت حقائق يهودية جديدة على الأرض. وعلى الرغم من أنه يطرح نفسه حزباً يسارياً اشتراكياً فإنه يحظى في أوساط الطبقة المتوسطة بتأييد أكبر مما يحظى به في أوساط الطبقة العاملة، لأن أغلبية اليهود الغربيين (الأشكناز) تميل للتصويت له بينما يميل اليهود الشرقيون (السفارديم) (وهي الطبقات الأكثر فقراً)، إلى التصويت لأحزاب اليمين وحزب شاس الديني.

وقد ظل تيار حزب العمل يحكم الكيان الصهيوني 1948 - 1977، ثم شارك في حكومات وحدة وطنية مع الليكود في فترات متقطعة 1984 - 1992، وتولى الحكم بنفسه 1992 - 1996، ثم 1999 - 2001. وقد حصل هذا الحزب على 44 مقعداً في انتخابات 1992، و 34 مقعداً في انتخابات 1996، و 26 مقعداً في انتخابات 1999، مما يشير إلى تضاؤل نفوذ الحزب وتفتت الأصوات على مجموعة أخرى من الأحزاب الصغيرة.

ومن الأحزاب المحسوبة على معسكر اليسار حركة ميرتس Meretz. [138] بمعنى "الحيوية"، وهي تكتل يجمع ثلاثة أحزاب هي مبام (تأسس سنة 1948)، وراتس (تأسس 1973)، وشينوي (تأسس 1974)، وهي خليط من الديمقراطية والاشتراكية (مبام)، والليبرالية

(شينوي)، والوسط (راتس)، وقد تشكلت سنة 1992، ويجمعها رؤيتها للتسوية السلمية مع العرب. وبرنامجها السياسي يدعو لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره في منطقة الضفة والقطاع، ووقف الاستيطان، على أن تكون القدس عاصمة موحدة لـ"إسرائيل"، مع عمل ترتيبات أمنية صارمة في المناطق التي سيتم الجلاء عنها، وقد حصلت هذه الكتلة على 12 مقعداً في انتخابات 1992، و9 مقاعد في انتخابات 1996، و 10 مقاعد في انتخابات 1999. ويظهر أن شينوي عاد للانفصال عن هذا التجمع سنة 1999 ونزل لوحده وفاز بستة مقاعد.

أما معسكر أحزاب اليمين فيتكون أساساً من الليكود [139] Likud (التكتل)، وهو حزب تأسس سنة 1973 من تكتل حزبي حيروت (الحرية)، والليبرالي (الأحرار)، الذين كانا متكتلين في كتلة غاحل منذ 1965 فضلاً عن حزبين صغيرين هما المركز الحر والقائمة الرسمية، وكذلك مجموعة كانت تنتمي إلى حركة "أرض إسرائيل الكاملة". وقد دعا إلى هذا الاتحاد الجنرال أرييل شارون إثر استقالته من الجيش سنة 1973 وانضمامه لحزب الأحرار. والحزب الأقوى في هذا التجمع هو حزب حيروت الذي كان يرأسه مناحيم بيغن منذ سنة 1948 وحتى 1983، وقد أسسته العصابات الإرهابية المعروفة بـ "إيتسل"، (إرغون تسفائي ليئومي أي المنظمة العسكرية القومية)، وقد تمكن حيروت من ابتلاع باقي أحزاب التكتل ودمجها فيه منذ 1985. والنقطة المركزية في برنامج الليكود السياسي تتمثل في "حق الشعب اليهودي في أرض إسرائيل الكاملة"، وهو بالتالي يعد أكثر تشدداً في موضوع التنازل عن أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة للفلسطينيين، ويؤيد الاستيطان ويدعمه بقوة. ويظهر ميلاً أكبر للعدوانية والعنف. وفي الناحية الاقتصادية يمثل التيار الليبرالي - الرأسمالي. وقد تمكن الحزب من الحكم 1977- 1984، ثم اضطر لمشاركة حزب العمل في الحكم 1984- 1992، ثم عاد للحكم 1996- 1999. ورغم أن الحزب حصل على مقاعد أقل من حزب العمل سنة 1996، إلا أن انتخاب "الإسرائيليين" المباشر لنتنياهو زعيم الليكود أعطى المجال لليكود للحكم.

وقد عانى الليكود من انقسامات أضعفت قوته كانسحاب ديفيد ليفي (وزير الخارجية في حكومة شامير)، وتأسيسه حركة غيشر Gesher سنة 1996، (ثم عاد للتحالف مع الليكود) ثم تحالف مع العمل ثم انسحب منه!!، وعانى الليكود من انسحاب اسحق مردخاي وزير الدفاع في حكومة نتنياهو وتأسيسه حزب المركز Merkaz سنة 1999، حيث نزل في الانتخابات منفرداً وفاز بستة مقاعد. وقد حصل الليكود على 32 مقعداً في انتخابات 1992 وانتخابات 1996، وفي انتخابات 1999 حصل على 19 مقعداً فقط، مما يؤكد ظاهرة تفتت الأحزاب الكبيرة.

ويوجد في معسكر اليمين أحزاب أخرى صغيرة[140]، أهمها حزب تسوميت (مفترق الطرق)، Tsomet، الذي تأسس برئاسة رئيس أركان الجيش الإسرائيلي الأسبق روفائيل إيتان، وحزب هتحيا (البعث)، الذي تأسس سنة 1979 برئاسة يغال نئمان رئيس جامعة تل أبيب وقتئذ، وحزب موليدت (الوطن)، الذي تأسس سنة 1988 برئاسة اللواء احتياط رحبعام زئيفي، والأحزاب الثلاثة هذه أشد تطرفاً من الليكود وأكثر وضوحاً وشراسة في العداء ضد الفلسطينيين، ويدعو

موليدت مثلاً بشكل مكشوف لطرد طوعي للفلسطينيين من الضفة والقطاع، ووضعهم تحت ظروف لا تحتمل بحيث يؤدي ذلك إلى خروجهم.

ومن الأحزاب التي يمكن أن توضع في خانة اليمين حزب "إسرائيل باعالياه" (إسرائيل والهجرة)، والذي يتكون أساساً من المهاجرين الروس الجدد برئاسة ناتان شارانسكي، والذي حصل في انتخابات 1996 على سبعة مقاعد وفي 1999 حصل على ستة مقاعد، وهو يؤكد على دعم الهجرة والاستيطان.

أما الأحزاب الدينية فقد شكّلت عادة القوة الثالثة في البرلمان، وأمكنها وضعها، الذي يمكن أن يتأرجح للتحالف مع اليسار أو اليمين، وترجيح كفة على أخرى، من فرض شروطها في كثير من الأحيان على الأحزاب الكبيرة، ولكن بدرجة معقولة لا تؤدي إلى تحالف الحزبين الكبيرين وبالتالي إهمالها.

ومن أقدم الأحزاب الدينية حزب المفدال "الحزب القومي الديني"[141]، الذي تشكل سنة 1956 امتداداً لمزراحي وهبوعيل همزراحي. وشارك جميع الحكومات الائتلافية مع حرب المباي/العمل حتى 1977، وكان يتولى تقليدياً وزارتي الأديان والداخلية، وكان يركز على القضايا ذات الطابع الديني وخدمة جمهور المتدينين اجتماعياً وصحياً وتعليمياً، ويقلل من التدخل في الأمور ذات الصلة بالأمور السياسية والاقتصادية والأمنية. لكنه مع صعود الليكود للحكم بدأ يتحول إلى حزب متطرف سياسياً وقومياً يضع على رأس اهتماماته فكرة "ارض إسرائيل الكبرى". وفي العقود الثلاثة الأولى من قيام الكيان الصهيوني كان الحزب يحصل على 10 - 12 مقعداً ، لكنه تعرض لانشقاقات في الثمانينات من القرن العشرين أضعفته (انشقاق مجموعات شكلت حزبي تامي ومتساد)، فانخفض عدد مقاعده إلى 6 مقاعد سنة 1992، و9 مقاعد سنة 1996، و5 مقاعد سنة 1999، والحزب يتشكل أساساً من اليهود الغربيين الأشكناز، وهو برئاسة اسحق ليفي.

ومن الأحزاب الدينية القديمة حزب "أغودات إسرائيل"[142] الذي أشير إليه سابقاً، وهو حزب لم تزد قاعدته الانتخابية منذ إنشاء الكيان الصهيوني عن 2 - 6 مقاعد، وقرارات الحزب المهمة يتخذها "مجلس حكماء التوراة". والحزب أقرب إلى اليمين المتشدد في برنامجه السياسي، لكن عدداً كبيراً من زعمائه النافذين وعلى رأسهم الحاخام اليعزر شاخ مستعدون للقبول بالتخلي عن أجزاء من أرض "إسرائيل" في الوقت الراهن، على أساس أنه لا يوجد ما يشير إلى أن عملية الخلاص الإلهي - بقدوم الماشيح - قد بدأت حسب اعتقادهم، وقد انشق عن هذا الحزب حزب ديجيل هاتوراه (لواء التوراة) سنة 1988، لكن الحزبين أخذا في النـزول في تحالف واحد (يهودت هاتوراه) منذ 1992، حيث حصلا على 4 مقاعد، وفي 1996 على 4 مقاعد أيضاً، وفي 1999 على 5 مقاعد، ويقود هذا التحالف مئير بوروش.

وفي سنة 1984 تشكل حزب شاس[143] "شومري توراه سفارديم" أي السفارديون المحافظون على التوراة، بانشقاق عن حزب أغودات إسرائيل. وقد تم ذلك بتشجيع من الحاخام شاخ، والحاخام عوفاديا

يوسف الحاخام الأكبر السابق لليهود السفارديين احتجاجاً على سيطرة اليهود الغربيين (الأشكناز) على الحزب. ويسعى شاس لإرساء قواعد الدولة والمجتمع على أسس التوراة، ولكنه أكثر انفتاحاً و"اعتدالاً" في التعامل مع الأحزاب السياسية العلمانية وغير المتدينة، وهو يتحدث بشكلين، الأول: لهجة دينية متزمتة ، و الثاني: صوت طائفي يمثل السفارديين، مُركزاً على الارتباط بالتقاليد وليس على أداء الفرائض، وقد تمكن شاس من النمو بشكل سريع على حساب الحزب القومي الديني وحزب الليكود، ليزيد عدد مقاعده من مقعدين سنة 1984 إلى ستة مقاعد سنة 1992، إلى عشرة مقاعد سنة 1996، إلى 17 مقعداً سنة 1999، ليقترب من الحجم الذي تملكه الأحزاب الكبرى (26 العمل، و 19 الليكود).

وهناك فئة رابعة من الأحزاب في الكيان الصهيوني وهي ما يمكن أن يطلق عليه الأحزاب العربية[144]، ويجمع هذه الأحزاب أمرين، الأول: الدعوة إلى تحصيل الحقوق المدنية الكاملة والمساواة التامة للأقلية العربية في الكيان الصهيوني (الأرض المحتلة عام 1948)، وهي تمثل نحو 20% من السكان، والثاني: تأييد انسحاب الصهاينة من الضفة الغربية والقطاع، وإنشاء دولة فلسطينية مستقلة عليها. لكننا يجب أن ننبه إلى أن حجم هذه الأحزاب الانتخابي لا يمثل بدقة حقيقية ميول الأقلية العربية أو توازن القوى داخلها، لأن هناك فئات عربية لا تزال ترفض المشاركة في النظام السياسي الإسرائيلي، وتقاطع الانتخابات، وعلى رأسها الفصيل الأوسع في الحركة الإسلامية الذي يرأسه الشيخ رائد صلاح،حيث أن له قاعدة جماهيرية لا يستهان بها، وكذلك حركة أبناء البلد ذات التوجهات الوطنية.

أما أقدم الأحزاب المحسوبة على الوسط العربي فهو حزب راكاح (حداش) وهو حزب شيوعي تعود جذوره إلى سنة 1919 عندما أسسه مجموعة من اليهود، وبدأ بعض الفلسطينيين العرب يدخلونه منذ العشرينيات لكنه تعرض لعدة أزمات، كان أهمها خروج معظم الجناح العربي عنه وتأسيس عصبة التحرر الوطني سنة 1943. وبعد قيام الكيان الصهيوني وحد الشيوعيون هناك صفوفهم تحت اسم الحزب الشيوعي الإسرائيلي (ماكي)، والذي اعترف بالكيان الصهيوني وقرار التقسيم. ولأنه أيّد الحقوق المدنية للفلسطينيين في أرض 1948 فقد ظهر حزباً مدافعاً عن الأقلية العربية وسط الأحزاب الصهيونية الأخرى، وأصبحت غالبية أعضائه من العرب. وقد انقسم هذا الحزب سنة 1965 حيث شكل الشطر ذو الأغلبية العربية حزب راكاح بقيادة توفيق طوبي ومئير فلنر، بينما ضَمُر الشطر ذو الأغلبية اليهودية حتى اختفى. وفي سنة 1977 شكل الحزب قائمة الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة (حداش)، ومع أواخر الثمانينيات أخذ يتأكد الطابع العربي لهذا الحزب وإن بقيت فيه أقلية يهودية ضئيلة. وكان العصر الذهبي لهذا الحزب هو فترة السبعينيات من القرن العشرين إذا حصل في سنة 1973 على 37% من الأصوات العربية وفي سنة 1977 على 51% من هذه الأصوات. غير أنه أخذ بالتراجع، وفي أواخر التسعينيات فَقَدَ مركزه كحزب أول في الوسط العربي. ويرأس الحزب محمد بركة، وقد حصل الحزب على ثلاثة مقاعد سنة 1992، وخمسة مقاعد سنة 1996 (بالتحالف مع التجمع الوطني الديمقراطي)، وثلاثة مقاعد سنة 1999.

وفي سنة 1984 تشكلت القائمة التقدمية للسلام وهي حزب مكون من مجموعات عربية ويهودية برئاسة محمد ميعاري ومتتياهو بيليد، وقد فازت بمقعدين في انتخابات 1984 وبمقعد واحد في انتخابات 1988، وعانت من خلافات بين أعضائها العرب واليهود أدت لانسحابات كثيرة من الطرفين، وتحولت منذ أوائل التسعينيات إلى حزب عربي صغير لم يفز بأي مقعد سنة 1992.

وكان الحزب الديمقراطي العربي هو أول حزب عربي صرف منذ نشأته، وقد أسسه سنة 1988 عبد الوهاب الدراوشة الذي كان عضواً في حزب العمل الإسرائيلي، وممثلاً له في الكنيست. وهو لا يختلف كثيراً في برنامجه السياسي عن راكاح والقائمة التقدمية في السعي لتحقيق الحقوق الكاملة للعرب في الكيان الصهيوني، وإقامة الدولة الفلسطينية على أرض الضفة والقطاع. وقد حصل في انتخابات 1988 على مقعد واحد، ثم على مقعدين سنة 1992، ثم إنه تحالف مع جناح من الحركة الإسلامية (عبد الله نمر درويش، وعبد المالك دهامشة)، في انتخابات 1996، باسم القائمة العربية الموحدة التي فازت بأربعة مقاعد، واستطاعت القائمة أن تبرز في انتخابات 1999 كأقوى ممثل للصوت العربي وتفوز بخمسة مقاعد.

وهناك التجمع الوطني الديمقراطي (بلد) بزعامة عزمي بشارة الذي تحالف سنة 1996 مع حداش، لكنه نزل في انتخابات 1999 متحالفاً مع أحمد الطيبي مستشار ياسر عرفات وقوائم أخرى صغيرة وفاز بمقعدين.

أما أبرز ملاحظاتنا على اتجاهات الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة وأداء الأحزاب:

1. هناك اتجاه نحو تفتت الكتلتين الكبيرتين العمل والليكود، وضعف تدريجي لقاعدتهما الحزبية (انظر الجدول)، وهو يشير إلى نوع من عدم الاستقرار السياسي، كما أن هذا يمكن أن يدفع الحزبين للتحالف حتى لا يدفعا ثمناً باهظاً للأحزاب الصغيرة.

2. هناك ازدياد في نفوذ الأحزاب الدينية، وخصوصاً حزب شاس الذي أخذ يقترب من معايير الأحزاب الكبرى، وهذا لا يعكس فقط ازدياد التطرف لدى المجتمع الإسرائيلي، وإنما يعكس أيضاً ازدياد حالة الانقسام بين اليهود الشرقيين (السفارديين)، واليهود الغربيين (الأشكناز).

3. إن تبادل المواقع وضعف أو قوة بعض الاتجاهات الصهيونية لا تعني تحولاً كبيراً في نظرة اليهود للصراع العربي الإسلامي معهم، فالاستراتيجيات لا تزال متشابهة تقريباً، خصوصاً لدى الأحزاب المؤثرة.

4. هناك تراجع واضح في نفوذ الأحزاب الصهيونية في الوسط العربي الذي أخذ يعطي أصواتاً أكثر للأحزاب العربية المحلية، وفي انتخابات 1999 كان هناك 13 عربياً في الكنيست (9 للقوائم العربية ، واثنين لحزب العمل، وواحد لميرتس، وواحد لليكود)، وتتمتع بعض الأحزاب الصهيونية بوضع أفضل وسط الدروز مقارنة بالعرب من المسلمين السنة والنصارى، كما يمكنها الحصول على أعداد لا بأس بها من الأصوات العربية، والجدول التالي يبين نتائج أهم الأحزاب الإسرائيلية في آخر ثلاثة انتخابات[145]:

	العمل	الليكود	شاس	المفدال	القومي الديني	ميرتس	إسرائيل بعالياه	حداش	القائمة العربية الموحدة	شينوي	المركز	أحزاب أخرى
الكنيست الثالث عشر سنة 1992	44	32	6	6	4	12	-	3	-	-	-	13
الكنيست الرابع عشر سنة 1996	34	32	10	9	4	9	7	5	4	-	-	6
الكنيست الخامس عشر سنة 1999	26	19	17	5	5	10	6	3	5	6	6	29
الكنيست السادس عشر سنة 2003	19	38	11	5	6	6	2	3	2	15	-	13

وإذا أردنا أن نوضح الفروقات والاختلافات بين الأحزاب الصهيونية في نظرتها لحل القضية الفلسطينية، فإننا نلاحظ أن تيار حزب العمل ومن على يساره يركزون أكثر على المحافظة على نقاء الدولة اليهودية، بحيث تحتفظ الدولة بأغلبية ساحقة يهودية. بينما يركز تيار الليكود على المحافظة على "أرض إسرائيل" دون تفكيكها. وفي الحالتين يُفضِّل التياران الحصول على الأرض دون ضم السكان العرب لكيان الدولة اليهودية حتى لا تفقد صبغتها. وفي الحالتين ينشط الحزبان في عمليات الاستيطان والضم التدريجي للأرض وتهويدها. وفي الوقت الذي يسعى حزب العمل لتلميع صورة الكيان الإسرائيلي في الخارج وإظهارها بوجه حضاري ديمقراطي، فإن هذا الأمر لا يشكل أولوية لليكود إذا ما تعارض ذلك مع تحقيق برنامجه على الأرض، وهو مطمئن إلى السند الأمريكي، وإلى النفوذ اليهودي "ولوبياته" المنتشرة في العالم. وبينما يُبدي حزب العمل استعداداً أكبر للانسحاب من معظم أراضي الضفة والقطاع في التسوية النهائية، حفاظاً على الطبيعة اليهودية للدولة، فإن الليكود ومن على يمينه يراهنون على التمسك بأكبر قدر ممكن من الأراضي، والمحافظة على هوية الدولة اليهودية من خلال وضع الفلسطينيين في ظروف اقتصادية واجتماعية ومعنوية لا تمكنهم من الثبات على الأرض وتضطرهم للهجرة التدريجية.

وبينما يستقرئ حزب العمل مخاطر وجود الكيان الصهيوني في أجواء معادية من حوله ستؤدي في النهاية مهما طال الزمن إلى اقتلاعه وتدميره، عندما يمتلك العرب والمسلمون أسباب القوة، فإنه يسعى لعقد تسوية تنهي حالة العداء وتضمن وجوده كياناً طبيعياً في المنطقة. ويسعى لتحقيق الرؤية التوسعية الصهيونية من خلال هيمنة اقتصادية في المنطقة، دون ضرورة احتلالها أو التوسع العسكري فيها، لإدراكه أن الحقائق السكانية الديموغرافية، والأوضاع السياسية إقليمياً ودولياً لا تسمح بمثل هذا التوسع. أما تيار الليكود فإنه لا يستعجل التسوية، لأنه يرى أن الظروف الحالية تعمل لصالح الكيان الصهيوني، وبالتالي فلا يزال هناك متسع لتحقيق شروط أفضل، وانتزاع مكاسب أكبر، وبناء حقائق على الأرض، يستحيل بعد ذلك التراجع عنها.

أما التيار الديني الصهيوني فإن فيه من يؤيد توجه حزب العمل على أساس أن قدسية الإنسان اليهودي مقدمة على قدسية الأرض، فيجوز السلام والانسحاب من الأرض لمنع سفك الدم اليهودي. كما يؤكد على عدم ضرورة التمسك بكل الأرض لأن مسيحهم المنتظر "المسيا" لم يظهر بعد، كما لم تظهر بوادر قدومه إلى الآن). وهناك اتجاه آخر يميل إلى حزب الليكود مؤكداً على قدسية الأرض وعدم جواز التنازل عنها.

الأوضاع السكانية في الكيان الصهيوني

حسب تقديرات المكتب الإسرائيلي المركزي للإحصاء (وهو مؤسسة حكومية رسمية) فإن عدد سكان الكيان الصهيوني (الأراضي المحتلة سنة 1948، وشرقي القدس، والجولان) بلغ في يناير 2002 ستة ملايين و 514 ألفاً[146]، ويشمل هذا العدد نحو 190 ألف مستوطن

يهودي في الضفة الغربية و20 ألفاً في الجولان، و6500 في قطاع غزة، و190 ألفاً في شرقي القدس.

ويوزع الجدول التالي التركيبة السكانية في الكيان الإسرائيلي حسب أرقام المكتب الإسرائيلي المركزي للإحصاء في نهاية سنة 2000 (بالألف)[147]:

الفئة	يهود	عرب			غير محدد الدين	مسيحيون آخرون	آخرون عرب	المجموع
		مسلمون	مسيحيون	دروز				
العدد بالألف	4955.4	970	111.4	103.8	201.5	23.7	3.5	6369.3

وربما كان معظم أولئك الذين لم يحددوا دينهم من أصول يهودية، وعادة ما يقوم الكيان الإسرائيلي بضم أعدادهم إلى عدد اليهود في إحصاءاته تحت بند يهود وآخرون. وعلى الرغم من أن الكيان الصهيوني مضى على تشكيله أكثر من ثلاث وخمسين عاماً إلا أن معظم اليهود الذي يعيشون الآن في فلسطين المحتلة ولدوا خارجها كما يوضح الجدول التالي (حسب إحصاءات كتاب الحقائق العالمي الذي تنشره المخابرات الأمريكية (CIA) في يوليو 2000)[148]:

	مواليد فلسطين المحتلة	مواليد آسيا	مواليد إفريقيا	مواليد أمريكا وأوروبا
العدد	1.215.230	736.150	853.000	1.875.427
النسبة	25.97%	15.73%	18.23%	40.7%

أي نحو ثلاثة أرباع اليهود في الكيان الصهيوني مهاجرون عاشوا في بلدان أخرى، وحملوا جنسياتها وجوازاتها قبل أن يأتوا إلى فلسطين، مع ملاحظة أن معظم أبناء الربع الباقي ممن ولدوا في فلسطين يعودون إلى آباء أو أجداد هاجروا إلى فلسطين، وبعبارة أخرى فإن المجتمع اليهودي مجتمع مصطنع لم تضرب جذوره بعد في الأرض، هذا فضلاً عن أن النسب المشار إليها تدل على الاختلافات العرقية والمذهبية والثقافات في تركيبة المجتمعات اليهودية القادمة إلى فلسطين. كما أن هذا يبين أن الهجرة اليهودية ظلت العامل الأكثر حسماً في الحفاظ على الطبيعة اليهودية للدولة، إذ هاجر إلى فلسطين المحتلة منذ إنشاء الكيان الصهيوني 1948 وحتى سنة 2000

نحو مليونين و 800 ألف يهودي[149]، ولو جمعنا أعداد هؤلاء فضلاً عن ذرياتهم لأدركنا أن اليهود لو استمروا في نموهم الطبيعي (650 ألفاً سنة 1948) لما زادت أعدادهم الحالية عن نحو مليون ونصف تقريباً.

لقد قدم انهيار الاتحاد السوفييتي خدمة هائلة في تثبيت دعائم الكيان الصهيوني سكانياً إذ هاجر إليه منذ 1989 وحتى مايو 2000 مليون يهودي من روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة[150].

ويبدو أنه قد كان لانتفاضة الأقصى أثر سلبي على معدلات الهجرة اليهودية إلى الكيان الإسرائيلي، إذ حسب الإحصاءات الرسمية "الإسرائيلية" انخفضت الهجرة اليهودية من 76766 يهودياً سنة 1999 إلى 60196 سنة 2000 إلى 43580 سنة 2001، وبلغت في الأشهر الأربعة الأولى من سنة 2002 ما مجموعه 9940 بانخفاض بنسبة 30% عن الهجرة في الفترة نفسها من سنة 2001[151].

ومن جهة أخرى فإن 28 % فقط من اليهود في فلسطين هم دون سن الخامسة عشر، أما المعدل السنوي للزيادة السكانية فهو 1.58%، ومعدل المواليد السنوي 19.12 لكل ألف، أما معدل الوفيات فهو 6.22 لكل ألف، أما معدل خصوبة المرأة الإسرائيلية فهو2.57 طفل لكل عائلة، وهو بين ثلث إلى نصف خصوبة المرأة الفلسطينية في الأرض المحتلة عام 1948[152]. ولو استمر الوضع على حاله لتحول اليهود إلى أقلية مع مرور الزمن، لكنهم يحافظون على الفارق من خلال معدلات الهجرة العالية إلى الكيان الصهيوني.

الأوضاع الاقتصادية في الكيان الصهيوني

حسب إحصاءات 2000 فقد حقق الكيان الصهيوني ناتجاً قومياً مقداره 110.2 بليون دولار أمريكي، وبلغت نسبة النمو للعام نفسه 5.9%، أما المعدل السنوي لدخل الفرد فبلغ 18900 دولار أمريكي وهو من أعلى الدخول في العالم. وتبلغ قوة العمل مليونان و 400 ألف تتوزع على قطاع الخدمات 31.2%، والصناعة 20.2%، والمال والأعمال 13.1%، و التجارة 12.8%، والبناء 7.5%، وغيرها، أما الزراعة وصيد الأسماك والغابات فلا تزيد عن 2.6% ، أما نسبة العاطلين عن العمل فتبلغ 9.1%[153].

وتشير ميزانية سنة 2000 إلى إيرادات مقدارها 40 بليون دولار أمريكي وإلى نفقات مقدارها 42.4 بليون دولار أمريكي. وتبلغ قيمة الصادرات السنوية (حسب سنة 2001) نحو 29058.8 مليون دولار أمريكي، والواردات 33303.2 مليون دولار أمريكي، وأكبر شريك تجاري تصدر إليه وتستورد منه هو الولايات المتحدة الأمريكية (38.2% من الصادرات و20.1% من الواردات حسب سنة 2001)، وتبلغ قيمة الديون الخارجية "لإسرائيل" 38 بليون دولار (حسب إحصاءات 2000)، وتتلقى دعماً سنوياً اقتصادياً وعسكرياً من الولايات المتحدة يبلغ ثلاثة بليونات ومائة مليون دولار أمريكي[154].

أما أهم الصادرات الإسرائيلية فهي الآليات والأجهزة الكهربائية والكمبيوتر، والجواهر والأسلحة والكيماويات والفواكه الحمضية، ومن الملفت للنظر أن الكيان الصهيوني هو من أكبر مصدري الألماس في العالم، رغم أنه لا توجد إطلاقاً مناجم للجواهر في فلسطين!. إذ يستورد الصهاينة ما تزيد قيمته عن بليون دولار أمريكي سنوياً من

الألماس، ويقومون بتصنيعها وتصدير ما قيمته أكثر من ستة بلايين دولار أمريكي سنوياً، (انظر الجدول المرفق) وهي الصنعة التي ارتبط بها اليهود منذ قرون كثيرة.

ويسعى الكيان الصهيوني لكسر حاجز المقاطعة العربية والإسلامية لمنتجاته ومصنوعاته، من خلال عقد العلاقات الدبلوماسية وبرامج التطبيع. وعلى الرغم من أن الشعوب العربية والإسلامية ترفض شراء المنتجات الإسرائيلية، إلا أن الصهاينة يحتالون على ذلك من خلال إعادة التصدير من عدد من البلدان مثل قبرص وسنغافورة، أو من خلال وكلاء عرب ومسلمين يتولون الترويج لمنتوجاتهم، وتشير بعض التقديرات إلى أن الكيان الصهيوني يصدر سنوياً ما قيمته 300 - 500 مليون دولار إلى الدول العربية[155].

إن أبرز نجاحات الاقتصاد الإسرائيلي وهو يدخل القرن الواحد والعشرين هو نجاحه في مضاعفة الناتج القومي بنحو سبعة أضعاف خلال سبعة عشر عاماً (15.3 بليون إلى 110.2 بليون دولار أمريكي خلال الفترة من 1983-2000)، وتمكنه من كبح جماح التضخم وتحقيق نسبة نمو مرتفعة خلال التسعينيات، وهو لم يعد تحت رحمة المساعدات الأمريكية والهبات الخارجية التي كانت تشكل نحو 25% من دخله القومي (حوالي 4 بليون سنة 1983)، لتصبح أقل من 4% فقط في سنة 2000، وإن ظل مبلغ المساعدة نفسه دونما تغير[156]. وبلا شك فقد استفاد الكيان الصهيوني من حالة التسوية السلمية مع مصر والأردن و م.ت.ف في تثبيت نفسه، وبناء شبكة علاقات سياسية واقتصادية واسعة، بعد أن كان يعاني من العزلة ومن حالة الحرب.

ويوضح الجدول التالي أهم الصادرات الإسرائيلية حسب مكتب الإحصاء الإسرائيلي الرسمي بالمليون دولار الأمريكي[157]:

	1990	1999	2000
صادرات زراعية	657.2	782.3	702.1
أقمشة وملابس	733.2	1136.1	1144.1
كيماويات ومنتجات كيماوية	1490	2987.3	3470.9
مصنوعات بلاستيكية ومطاطية	363	1028.5	1069.9
آليات ومعدات	628.4	1012.9	1124
إلكترونيات وكهربائيات	909.2	4225	7341
معدات صناعية للتحكم والرقابة	729.3	1709.8	1948.9
مجوهرات (ألماس)	3236.1	6441.6	7939.9
ألماس غير مصنع	271.1	1327	1721.9
ذهب، فضة، ومجوهرات أخرى	339.6	463.6	472.6
صادرات أخرى	2569.4	3902.5	4468.5
مجموع الصادرات	11926.6	25016.6	31403.8
صادرات مرتجعة (معظمها ألماس)	- 476.7	- 2238.5	- 3063
مجموع صافي الصادرات	11499.9	22778.1	28340

وعلى الرغم من أن هناك جزءاً مرتجعاً من صادرات الألماس قيمته 452.7 مليون دولار سنة 1990، و 2238.5 مليون دولار سنة 1999، و 2856.1 مليون دولار سنة 2000[158]. إلا أن صادرات الألماس ظلت الأولى والأهم في القائمة الإسرائيلية وكانت صادرات الألماس تشكل 42.3% من مجمل الصادرات الإسرائيلية لسنة 1970[159]، إلا أن النسبة أخذت بالانخفاض التدريجي مع تزايد صادرات الكيماويات والكهربائيات، غير أنها لا تزال تمثل نحو ربع (25%) الصادرات الإسرائيلية.

وتشير الإحصاءات الرسمية الإسرائيلية (حسب المكتب الإسرائيلي المركزي للإحصاء) أن مجموع الصادرات لسنة 2001 كان 29058.8 مليون دولار (أي أقل بـ 2372 مليون دولار عن سنة 2000)، وهذا يعكس أثر انتفاضة الأقصى، ليس فقط في إيقاف نمو الاقتصاد الإسرائيلي وإنما في تراجعه أيضاً. كما تشير إحصاءات الصادرات في الأربعة أشهر الأولى لسنة 2002 إلى تراجع بقيمة 760.8 مليون دولار عن صادرات الأشهر الأربعة الأولى لسنة 2001.

وتعد الصناعات العسكرية من أهم الصناعات في الكيان الصهيوني، وهي مرتبطة بطبيعته الاستيطانية العدوانية القائمة على الاغتصاب والقهر، وتوجد مصانع متطورة تنتج طائرات ودبابات وصواريخ وأسلحة خفيفة، فضلاً عن الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية، التي يتسم إنتاجها بالسرية الشديدة، ويستفيد الكيان الصهيوني من درجة التنسيق العالية مع الصناعات العسكرية الصهيونية، وسماح الأمريكان له بالاطلاع على الكثير من أسرارها. وهناك شركات كبرى تتبع وزارة الدفاع، وشركات خاصة أخرى لها صلات وثيقة بهذه الوزارة. وتشير بعض التقديرات إلى أن هناك نحو 120 ألف عامل في هذه الصناعات، كما تشير التقديرات إلى أن نصف عدد العلماء والمهندسين مرتبط بصورة أو بأخرى بصناعة السلاح[160]. والمهم في الأمر أن الكيان الصهيوني جاد في تحصين نفسه، وضمان تفوقه الساحق في المجالات العسكرية على البلاد العربية مجتمعة. ولا تظهر الصادرات العسكرية بشكل واضح في الصادرات الإسرائيلية، غير أن المؤسسات المتخصصة، وما تنقله وسائل الإعلام الصهيونية تشير إلى أن الكيان الصهيوني يحتل المرتبة الخامسة في قائمة أكبر مصدر للسلاح في العالم، بعد الولايات المتحدة وروسيا والصين وفرنسا، حيث بلغت قيمة العقود التي تم توقيعها عام 1999 ما يزيد عن ألفي مليون دولار أمريكي. وتستطيع الصناعات الإسرائيلية أن تنافس الدول الكبرى خصوصاً في الأسلحة الخفيفة، ومعدات الحرب الإلكترونية وأجهزة التنصت والتشويش والرؤية الليلية، وفي إدخال تحسينات على الطائرات الموجودة[161].

الأوضاع العسكرية

على الرغم من صغر القاعدة البشرية الصهيونية في فلسطين (حوالي خمسة ملايين) إلا أن الكيان الصهيوني حافظ على قوة عسكرية ضخمة، تمكنه وفق الاعتبارات المادية من هزيمة الدول العربية مجتمعة، ذلك لأنه يعلم أن وجوده بوصفه قوة محتلة في وسطٍ مُعادٍ مرتبط بمدى قوته العسكرية. ويعتمد الكيان الصهيوني فكرة عسكرة المجتمع فالتجنيد والتدريب يبدأ منذ سن الخامسة عشر من خلال المنظمات شبه العسكرية، ثم من سن 18 - 21 تكون الخدمة العسكرية الإلزامية، ثم خدمة الاحتياط من سن 21- 49 سنة، والتجنيد الإلزامي يشمل الإناث والذكور. وفي سنة 2000 كان عدد الرجال اللائقين للخدمة العسكرية (سن 15 - 49) مليوناً و 227 ألفاً، ومن النساء مليوناً و192 ألفاً[162]. وبسبب التكاليف الباهظة للجيوش الكبيرة المتفرعة، فقد سعت الاستراتيجية الصهيونية إلى التركيز على ثلاثة جوانب:

1- جيش عامل محدود، وجيش احتياط كبير (جيش رادع في حالة السلم، وشعب مُجيّش في الحرب).

2- تأهيل وتدريب نوعي للجنود، بحيث يحافظون على لياقة ومعنويات عالية، ويتقنون استخدام الأسلحة ومهارات القتال المختلفة.

3- توفير أفضل الأسلحة، وأرقى التقنيات العسكرية وأكثرها دماراً، لتعوض أي نقص محتمل في الأعداد.

وحسب الإحصاءات شبه الرسمية، فقد حافظت القوات العسكرية على أعداد متقاربة خلال العشرين سنة الماضية، وتشير الأرقام إلى أن الجيش الصهيوني العامل المتفرغ يبلغ نحو 178 ألف جندي، منهم 136 ألفاً قوات برية، و 33 ألفاً قوات جوية، و9 آلاف قوات بحرية. أما قوات الاحتياط فتبلغ 427 ألفاً، وهي قوات ذات تجهيز عالٍ، إذ يمكن أن يتم تعبئتها بشكل كامل، ودخولها بفعالية في الخدمة خلال أربعة أيام. أما أصحاب الأعمار 18- 39 من قوات الاحتياط، فوحداتهم جاهزة بنسبة 80 - 90% ويمكن تعبئتهم جميعاً خلال 48 ساعة. وعلى الرغم من ضخامة الجيش اليهودي الصهيوني حسب الإحصاءات غير الرسمية (605 ألف عاملين واحتياط) إلا أن مؤشرات التجنيد الإلزامي للرجال والنساء، ومن هم في عمر الخدمة العسكرية، تؤكد إمكانية تجنيد ما يزيد عن مليون مقاتل بسهولة خلال الحرب. كما تجب الإشارة إلى وجود وحدات عسكرية خاصة تسمى الناحال، وهي تجمع بين العمل العسكري والاستيطان الزراعي في المستوطنات الاستراتيجية والحدودية، وهي مكونة من 7500 جندي، وكذلك وحدات حرس الحدود المكونة من 6 آلاف جندي[163].

وهناك عوامل أثّرت في تحديد الاستراتيجية العسكرية الصهيونية أهمها العامل الجغرافي، فمساحة فلسطين المحتلة صغيرة (27 ألف كم2)، وشكلها طولي ضيق وحدودها طويلة، وهناك العامل البشري، فعدد السكان محدود وضئيل بالنسبة للعرب والمسلمين، والعامل الثالث وجود الكيان الصهيوني اليهودي في وسط مُعادٍ، سواء من حيث المنطقة التي تحتلها، أو الشعوب التي حولها. وقد أضعف ذلك قدرة القوات الصهيونية على المناورة، وعلى تحمل الحروب الطويلة، كما أن أية هزيمة حاسمة ربما تعني نهاية الدولة نفسها، ولذلك أقام الكيان الصهيوني اليهودي استراتيجية عسكرية على الأسس التالية:

1- عسكرة المجتمع اليهودي في فلسطين، ورفع كفاءة المقاتل ونوعية السلاح.

2- الحرب الوقائية: بالسعي إلى استباق أي معركة محتملة والمبادأة فيها.

3- الردع: بمنع الخصم من مباشرة القتال وذلك باستخدام أساليب مختلفة غير القتال، أي منع الدول العربية المحيطة و م.ت. ف عن التفكير أو العمل على إلغاء الكيان الصهيوني .

4- التفوق: بالسعي إلى الحفاظ على ميزان للقوى يحفظ "لإسرائيل" تفوقها العسكري على البلاد العربية مجتمعة. وضمان ذلك من خلال التعهدات والاتفاقات الاستراتيجية مع الولايات المتحدة بالحفاظ على هذا الميزان.

5- نقل المعركة إلى أرض "العدو".

6- إيجاد عمق استراتيجي من خلال بناء المستوطنات العسكرية، واحتلال أراضي الخصم (مثلاً: الجولان وسيناء) وإيجاد الأحزمة الأمنية مثل جنوب لبنان.

7- المرونة: حيث تتمتع الوحدات المقاتلة بمرونة عالية، وتمتلك زمام المبادرة والاستقلالية في القرارات التكتيكية، حتى لا يهدر الوقت وتضيع الفرص.

8- الإقلال قدر الإمكان من الخسائر البشرية، بالاعتماد إلى أقصى حد على القوة النارية والحرب الآلية والطيران[164].

وعلى ذلك فإن الكيان الصهيوني قائم أساساً على نظرية الأمن والعنف وإمكانية الحرب في أي لحظة، ولذلك تبنى مبادئ الحرب القائمة على الهجوم والدفاع والمفاجأة وسرعة الحركة وحرب الصاعقة.

وتشير التقديرات الرسمية إلى أن النفقات العسكرية لسنة 1999 بلغت ثمانية مليارات و 700 مليون دولار، وهو ما يساوي 9.4% من "الناتج القومي الإسرائيلي"[165]. غير أن مؤسسات الدراسات الاستراتيجية المتخصصة تذهب إلى أن الإنفاق أعلى من ذلك. لاستبعاد عدد من النفقات العسكرية من الظهور في الميزانية. كما يشير إلى ذلك المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن IISS، والذي قدر النفقات العسكرية الصهيونية لسنة 1997 بـ11 ملياراً و 700 مليون دولار[166]. وكانت النفقات العسكرية مقارنة بالناتج القومي قد وصلت إلى قمتها في منتصف السبعينيات من القرن العشرين، حيث وصلت إلى نحو 32.8% خلال 1973 - 1975، وفي النصف الأول من الثمانينيات كان معدلها 23.2%،[167] وانخفضت النسبة في التسعينيات إلى نحو 12%، والسبب الرئيس في ذلك الانخفاض لا يعود إلى تخفيض النفقات نفسها وإنما إلى تضاعف الناتج القومي عدة مرات، فبعد أن كان مثلاً في سنة 1983 يساوي 15300 مليون أصبح في سنة 2000 يساوي 105000 مليون دولار. ولو طبقنا النسب لوجدنا أن النفقات العسكرية قد زادت ولم تنخفض. ثم إن حالة التسوية السلمية مع مصر والأردن و م.ت. ف قد قلّلت عملياً من احتمالات الحرب الشاملة، وأعانت الكيان الصهيوني على إعطاء نسب أعلى للاقتصاد والتنمية. وعلى أي حال، فإن الإحصاءات تشير إلى مجموع النفقات العسكرية لدول الطوق مجتمعة (مصر وسوريا والأردن ولبنان)، سنة 1997 بلغ ستة بلايين و 72 مليوناً، أي نصف النفقات العسكرية الإسرائيلية تقريباً، وذلك حسب أرقام المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن IISS، ويبين الجدول التالي ضخامة الإنفاق العسكري الصهيوني (وفق إحصاءات 1997) مقارنة بدول الطوق العربي:

لبنان	الأردن	سوريا	مصر	الكيان الصهيوني	
55	104	320	450	178	عدد الجيش بالألف
676	496	2200	2700	11700	النفقات العسكرية بالمليون

دولار					
النفقات العسكرية لكل فرد من السكان بالدولار	1983	42	147	110	200

والأرقام التي نشرها الكتاب السنوي للمخابرات الأمريكية حول بلدان العالم لسنة 2000 لا يظهر أية فروقات ذات معنى عما في الجدول السابق، ولم نستطع الاعتماد عليه لأنه يعتمد الميزانيات المعلنة فقط لهذه الدول .

وتقدر القوة العسكرية الإسرائيلية بـ 742 طائرة مقاتلة، و 253 طائرة هليوكبتر، و93 طائرة نقل، و 136 طائرة تدريب، و 3895 دبابة، و 5300 ناقلة، و 1925 قطعة مدفعية، و 58 قطعة بحرية، و3 غواصات، و11 سفينة إنزال[168]. ولا تكمن أهمية هذه الأسلحة في عددها، وإنما في نوعيتها فهي تمثل أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية عالمياً، بسبب الدعم الأمريكي، وتستطيع التعامل بسهولة مع الـ"ستوكات" الموجودة في البلاد العربية، مهما كان عددها. وقد قامت الولايات المتحدة في سنة 2000 باستكمال تزويد القوات الإسرائيلية بـ 25 طائرة مقاتلة هجومية بعيدة المدى من طراز (ف-15)، كما تعاقدت على تزويد هذه القوات بـ 50 مقاتلة إضافية جديدة متعددة الأغراض (ف- 16 ف فالكون) يتم تسليمها سنة 2001، كما حصلت القوات الإسرائيلية مع نهاية سنة 2000 على ثلاث غواصات هجومية من ألمانيا ماركة "دولفين"، وذلك حسب التقرير السنوي الذي أصدره المعهد الدولي للدارسات الاستراتيجية في لندن.

وللكيان الصهيوني قدرات نووية كبيرة ، فمنذ عام 1960 تم إنشاء مفاعل ديمونا النووي بمساعدة فرنسية. وتشير التقديرات إلى امتلاك الصهاينة نحو 200 قنبلة نووية. وتتبنى الدولة الصهيونية سياسة الغموض التام تجاه الأسلحة النووية وترفض الكشف عنها ، لكنها تسكت عن تسريبات إعلامية على وجود أسلحة كيماوية وبيولوجية. ويتعامل الكيان الصهيوني مع هذا النوع من الأسلحة باعتباره الملاذ الأخير لما فيه من آثار كارثية على الجميع، وذلك لقرب مواقع الخصوم من التجمعات السكانية اليهودية الصهيونية نفسها[169].

ويشعر القارئ العربي والمسلم بالمرارة والأسى وهو يقرأ مثل هذه المعلومات، والحقيقة أن اليهود الصهاينة يبذلون جهودهم ليل نهار لتثبيت أنفسهم وتوسيع رقعتهم، وتحقيق العلو في الأرض، بينما تفتقد القيادات العربية والإسلامية روح التحدي والمبادرة، والثقة في شعوبها، والسعي الجاد للتحرير. وفي الوقت نفسه يجب أن نعلم أن لدينا من مقومات النهضة ما يكفي، لو استخدم بصورة سليمة، لتحقيق النصر بإذن الله، كما أن لدى الكيان الصهيوني من عوامل الضعف ما لو تم التعامل معه بصورة مناسبة لأدى ذلك إلى تفتته وانحلاله.

وقد سعى الكيان الصهيوني إلى تثبيت أسطورة الجيش الذي لا يقهر في العقلية العربية والإسلامية حيث خاض معارك سهلة خصوصاً في 1948، و 1956 و 1967. لكن سبب نجاحه الحقيقي كان يكمن في عناصر الضعف العربي المعنوية والمادية، وعدم توافر إرادة القتال وتوفير أسبابه لدى القيادات العربية. وقد تحطمت أسطورة الجيش الذي لا يقهر في حرب أكتوبر 1973 عندما أثبت المقاتل العربي كفاءته في ظروف أفضل. وفشل هذا الجيش في حصار بيروت 1982 بعد أن صمد المقاتل الفلسطيني ثمانين يوماً فيها، كما خرج هذا الجيش بطريقة مخزية من جنوب لبنان تحت ضربات حزب الله والمقاومة الإسلامية هناك وذلك في مايو 2000، بعد أن عاش مرعوباً يقيم في قرى محصنة، فإذا ما تنقل أصبح أهدافاً متحركة للمقاومة. وعانى هذا الجيش والأجهزة الأمنية في قلب فلسطين المحتلة ولا زال يعاني من ضربات المقاومة الإسلامية والوطنية الفلسطينية.

إن توفير الطاقة البشرية أو بتعبير آخر الحرص على الحياة هو أحد الأسس الاستراتيجية الصهيونية اليهودية، وهي نقطة ضعفه. فإذا ما ووجه بشعب مجاهد يفضل عيشة العزيز وموت الكريم، ويسعى للشهادة في سبيل الله فإن ذلك بداية العد التنازلي لنهاية الكيان اليهودي الصهيوني.

وتشير تقارير ودراسات حديثة إلى حالة من الترهل والتسيُّب في الجيش الإسرائيلي، فتذكر جريدة معاريف الإسرائيلية في عددها الصادر يوم 19 سبتمبر 2000 أنه منذ شهر إبريل 2000 وحتى منتصف سبتمبر 2000 تم تسجيل ما لا يقل عن 4500 حالة فرار وتهرب من الخدمة في الجيش الإسرائيلي، وأن هناك قلقاً شديداً يسود الهيئات القيادية في الجيش بسبب تفاقم هذه الظاهرة في السنوات الأخيرة[170]. وساق أحد الضباط الكبار مثلاً على حالة الترهل فقال: "استدعينا مؤخراً مائة جندي من أفراد الاحتياط للمناورة ...، فقط ثلث الذين تم استدعاؤهم أتوا ... لقد بتنا في وضع نتوسل فيه أمام جنود الاحتياط أن يأتوا للخدمة لكنهم مع ذلك لا يأتون". وانتقدت مجلة نتيف الإسرائيلية اليمينية في عددها الصادر في ديسمبر 2000 الجيش الإسرائيلي قائلة "إنه ترهل وشاخ، وفقد صلاحيته وأنه واهن الروح والعقل، يقف متستراً بورقة التوت". وترى أن إمكانية تجنيد 400 ألف من الاحتياط ما هي إلا "سخافة تامة". وهناك تقارير أخرى حول حالات الانتحار وتعاطي المخدرات والأمراض النفسية المتفشية في هذا الجيش، فضلاً عن العلاقات اللاأخلاقية مع المجندات واستغلالهن جنسياً[171].

وعلى أي حال، فإن هذا يعد انعكاساً لحالة المجتمع اليهودي - الصهيوني في فلسطين الذي يريد أن يستمتع وفق الأنماط الغربية، وأن ينعم بالأمن والاستقرار في الوقت نفسه. لذلك فإن صيحات الجهاد ونماذج الاستشهاد هي أشد ما يؤرقه، وفي الوقت نفسه فلا ينبغي المبالغة في التهوين من شأن العدو الصهيوني وجيشه، لأن الحالة العربية والإسلامية الرسمية تمثل للأسف أوضاعاً أشد تخلفاً وضعفاً.

إن القوة والأمن هي الركيزة التي يستند عليها الوجود الصهيوني، وعندما حُذِّرت جولدا مائير رئيسة وزراء الكيان الصهيوني (1968-

1973) يوماً من ضغط الرأي العام العالمي قالت ساخرة: "وهل لهذا الرأي دبابات!!". وكان رئيس أركان الجيش الإسرائيلي ووزير الدفاع والخارجية فيما بعد موشيه دايان يقول: "ليس لإسرائيل سياسة خارجية، وإنما سياسة دفاعية فقط". أي أن الكيان الصهيوني يضع سياسته الخارجية في خدمة مفهومه الأمني، الذي يشكل المحور المنطلق لما عداه من الأمور[172].

اليهود في العالم

يمكن تقسيم اليهود من الناحية الإثنية العرقية إلى ثلاث مجموعات[173]:

1. السفارديم: وهم أساساً يهود الأندلس (إسبانيا والبرتغال)، الذين يتحدثون لغة "اللادينو" وحينما طردوا من هناك، إثر سقوط الحكم الإسلامي، اتجهوا إلى الدولة العثمانية واليونان وشمال إفريقيا. وللسفارد طريقتهم الخاصة في الصلاة والطقوس الدينية. وقبل ظهور المشكلة اليهودية في أواخر القرن التاسع عشر، كان السفارديم يمثلون الطبقة الأرستقراطية الثرية بين اليهود، وكانوا قد نجحوا في تشكيل شبكة تجارة دولية، واستقر عدد منهم في غرب أوروبا، وقاموا بدور أساسي في تطوير الرأسمالية الغربية، وبرز من بينهم الفيلسوف اسبينوزا B.de Spinoza ورئيس الوزراء البريطاني ديزرائيلي B. Disraeli.

2. يهود الشرق والعالم الإسلامي: وهؤلاء يختلفون عن السفارديم بخلفياتهم الثقافية والتاريخية، لكنهم عادة ما يشار إليهم خطأً بأنهم سفارديم. ويعود السبب إلى أن كثيراً منهم يتبعون النهج السفاردي في العبادة، ولعل هناك سبباً آخر هو أن كثيراً من يهود السفارديم هاجروا إلى العالم الإسلامي، وتطبعوا بأجوائه، واختلطوا بغيرهم من اليهود. ومن أهم فئات يهود العالم الإسلامي والشرق يهود البلاد العربية أو اليهود المستعربة، كيهود العراق واليمن الذين كانت لهم مجتمعاتهم القديمة هناك. وهناك جماعات صغيرة من يهود إيران، ومن يهود الأكراد، ومن يهود جبال الأطلس من البربر، كما أن هناك يهوداً هنوداً وصينيين.

3. الأشكناز Ashkenaz وهؤلاء أساساً هم يهود شرق أوروبا (روسيا وبولندة)، الذين يتحدثون اللغة اليديشية ولهم طريقتهم المميزة في العبادة والأزياء وقص الشعر. وهم الذين حدث بينهم "الانفجار السكاني" في القرن التاسع عشر حتى صاروا أغلبية ساحقة. وبينهم ظهرت المشكلة اليهودية الحديثة وجميع الحركات اليهودية الحديثة (استنارة ، إصلاحية، محافظة). وحتى الصهيونية التي انضم إليها بعد ذلك السفارديم ويهود العالم الإسلامي. وهم الذين يسيطرون سياسياً واقتصادياً على الكيان الصهيوني، كما أصبحت لهم الغلبة والنفوذ وسط اليهود في غرب أوروبا وأمريكا.

وأشكناز باللغة العبرية هي ألمانيا، حيث يُنسب إليها هؤلاء اليهود، غير أن هناك عدداً من الدراسات ومنها دراسات لباحثين وعلماء يهود، تنسب معظم يهود الأشكناز إلى يهود الخزر الذين تعود أصولهم إلى قبائل تركية قديمة، سكنت جنوب روسيا، في المناطق الممتدة بين البحر الأسود وبحر قزوين" شمال القوقاز"، وأنشأت لنفسها مملكة

بين القرن السابع والعاشر الميلادي. وقد تهوّد يهود الخزر في منتصف القرن الثامن الميلادي. وحتى الموسوعات اليهودية تؤكد تهوَّد هؤلاء ولا تنفي احتمال أن تشتت يهود الخزر إثر سقوط مملكتهم أدى لهجرتهم إلى شرق أوروبا، واختلاطهم بالأقليات اليهودية هناك. ومن الدراسات المشهورة دراسة العالم اليهودي المعروف آرثر كوستلر A.Koestler التي نشرت 1976 بعنوان : "القبيلة الثالثة عشر: إمبراطورية الخزر وتراثها" The Thirteenth Tribe: The Khazar Empire & its Heritage ، والذي مات هو وزوجته سنة 1993 في لندن في ظروف غامضة، وذُكر أن سبب الوفاة هو عملية انتحار[174].

وحسب الموسوعة البريطانية وغيرها من المراجع، فإن يهود الأشكناز في نهاية القرن العشرين يشكلون الأغلبية الساحقة ليهود العالم، إذ يبلغ عددهم 11 مليوناً (83.33%)، أما السفارديم فيقدرون بـ (700) ألف (5.3%)، ويهود العالم الإسلامي والشرق يقدرون بنحو مليون ونصف (11.39%) من مجموع يهود العالم البالغ (13.2) مليوناً[175].

	سفارديم	يهود العالم الإسلامي والشرق	أشكناز
العدد	700.000	1.500.000	11.000.000
النسبة	5.3%	11.36%	83.33%

وكانت نسبة اليهود الأشكناز قد وصلت ذروتها في ثلاثينيات القرن العشرين، أي 91- 94% من يهود العالم البالغ عددهم سنة 1939 نحو 16 مليوناً وخمسمائة ألف. لكن هذه النسبة انخفضت بسبب الانعكاسات المباشرة للحرب العالمية الثانية على الأشكناز الذين يعيشون في أوروبا ومعاناتهم تحت الحكم النازي. واستمرت النسبة في الانخفاض في النصف الثاني من القرن العشرين بسبب انخفاض نسبة المواليد لدى هؤلاء لانعكاسات الثقافات الغربية عليهم، بينما استمر السفارديم ويهود الشرق في التزايد وفق معدلات أعلى[176].

وفي فلسطين كان 60% من يهودها سنة 1882 من السفارديم والشرقيين، لكن إنشاء المشروع الصهيوني اعتمد أساساً على هجرة يهود الأشكناز حيث وصلت نسبتهم إلى 77.7 % عند قيام الكيان الصهيوني سنة 1948، بينما انخفضت نسبة يهود السفارديم والشرق إلى 22.3%. لكن سرعان ما عوض يهود الشرق والسفارديم النسبة، فهاجر (567) ألفاً منهم إلى الكيان الصهيوني في الفترة (1948-1957) خصوصاً من اليمن والعراق والمغرب ومصر وليبيا. ومنذ الستينيات من القرن العشرين أصبحوا يشكلون الأغلبية في الدولة اليهودية، وساعدهم في ذلك نسبة المواليد العالية لديهم التي تزيد عن ضعف أمثالهم من الأشكناز. لكن الأشكناز تمكنوا من تعويض الفارق في التسعينيات من خلال الهجرة الروسية التي زاد مجموعها عن مليون يهودي. والتي تشير التقديرات إلى تقارب أعداد اليهود

الأشكناز مع أعداد السفارديم والشرقيين في الكيان الصهيوني مع تفوق بسيط ليهود الأشكناز[177].

وكانت غالبية يهود العالم حتى القرن الخامس عشر من السفارديم عندما بدأت الكفة بالرجحان لصالح الأشكناز، الذين تمتعوا بطفرة سكانية فبلغ يهود العالم في سنة 1800م نحو (2.5)مليون معظمهم (1.750.000) من أوروبا، منهم (1.2) مليون في بولندا وحدها، ثم إن أعداد اليهود زادت إلى عشرة ملايين (أي بنحو 3 أضعاف بينما زاد العالم بضعف واحد 850 مليون إلى 1700 مليون). وتركزت الزيادة السكانية اليهودية في شرق أوروبا، ويعود ذلك إلى تمتع اليهود بمستويات دخل أعلى ورعاية صحية أفضل، وإلى تماسكهم الاجتماعي وزواجهم المبكر، وعدم معاناتهم من الحروب أو من التجنيد الإجباري. وكانت زيادة أعداد اليهود في شرق أوروبا أحد أسباب ظهور المشكلة اليهودية، ومحاولة حل المشكلة "الفائض السكاني"، من خلال الهجرة أو إنشاء كيان خاص باليهود[178].

وتشير التقديرات المختلفة إلى أن أعداد اليهود في العالم في نهاية القرن العشرين هو بين 13- 14 مليوناً. ومعظم التقديرات الأقرب إلى الدقة تدور حول 13 مليوناً. ومنها المكتب المركزي للإحصاءات في الحكومة الإسرائيلية. ومن الملاحظ أن أعداد اليهود في العالم ظلت شبه ثابتة في الثلاثين سنة الماضية (1970- 2000)، رغم بعض التضارب في الأرقام. ومكتب الإحصاءات المركزي الإسرائيلي نفسه أعطى رقماً ثابتاً لأعداد اليهود بين 1970- 1996 هو 13 مليوناً، لكنه عاد لتعديل أرقامه بعد ذلك ليقول إن عدد اليهود سنة 1970كان (12) مليوناً و 630 ألفاً، وفي سنة 1998 بلغ 13 مليوناً و100 ألف[179].

وهناك مصادر أخرى تشير إلى تناقص فعلي في أعداد اليهود، فحسب الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي، كانت أعداد اليهود سنة 1967 تبلغ 13 مليوناً و838 ألفاً، تراجعت إلى 12 مليوناً و 963 ألفاً سنة 1984، أي أن اليهود فقدوا حوالي 875 ألفاً من أعدادهم، وهو ما يسميه عالم الاجتماع الفرنسي اليهودي جورج فريدمان "ظاهرة موت الشعب اليهودي"، غير أن الكتاب السنوي الأمريكي اليهودي لسنة 1994 يشير إلى انخفاض ضئيل جداً خلال السنوات العشر التالية، ويذكر أن أعداد اليهود سنة 1992 كانت 12 مليوناً و913 ألفاً[180].

وبغض النظر عن التضارب في الأرقام، فإن اليهود بشكل عام يُواجهون حالياً أزمة سكانية، حتى إن بعض الدراسات الحديثة التي نشرها أكاديميون متخصصون تتوقع أن عدد اليهود سنة 2080 سيكون بحدود 15 مليوناً، بزيادة مليونين فقط خلال ثمانين عاماً، وتعود أسباب انخفاض أعداد اليهود أو عدم تزايدهم إلى:

1- تزايد معدلات ذوبان اليهود واندماجهم في البلدان والمجتمعات التي يعيشون وسطها (خارج الكيان الصهيوني)، حيث يُخفي الكثير هويتهم اليهودية، أو يتنصرون ليكونوا أكثر قبولاً من المجتمعات الغربية، وتقدر أعداد اليهود الذي أخفوا هوياتهم الحقيقية في الاتحاد السوفييتي السابق بمليون ونصف تقريباً.

2- الزواج المختلط بدرجة لم يشهدها يهود العالم من قبل، حيث تصل النسبة في الولايات المتحدة إلى ما يزيد عن 50%، وأكثر من

ذلك في الاتحاد السوفيتي السابق، حيث يتزوج رجال يهود من غير اليهوديات، وبذلك يخسر أبناؤه الصفة العرقية لتعريف اليهودي (الذي يجب أن يكون لأم يهودية). كما تزايدت أعداد اليهوديات المتزوجات من غير اليهود حيث يحرص الأزواج في كثير من الحالات على اتّباع أبنائهم لمذاهبهم. وسواء تزوج رجال اليهود أو نسائهم زيجات مختلطة فإن نسلهم في الغالب ينشأ غير يهودي أو غير مكترث باليهودية. كما أن نسب أولئك الذي يتهوّدون أو اللاتي يتهوّدْن بسبب تلك الزيجات لا تعوض نسب المتنصرين منهم للسبب نفسه.

3- انخفاض نسبة المواليد اليهود بحيث تعد من أدنى النسب في العالم، إذ إن معدلها السنوي هو 16 لكل ألف، وهو مقارب لنسبة الوفيات. والمرأة اليهودية في الكيان الصهيوني تنجب ما معدله 2.8 من الأطفال، أما في الولايات المتحدة فتنجب ما معدله 1.5 طفل ويعود ذلك إلى أسباب أهمها:

- تفشي قيم المنفعة واللذة والأنانية التي ترى في الأسرة والأبناء أعباء وقيوداً.
- الزواج المتأخر.
- تزايد أعداد الشاذين جنسياً من ذكور اليهود وإناثهم.
- تفسخ الأسرة اليهودية وتزايد نسب الطلاق[181].

وحتى في الكيان الصهيوني نفسه فإن نسب الطلاق تصل إلى ربع أو ثلث حالات الزواج. وتشير إحصاءات مكتب الإحصاءات المركزي الإسرائيلي لعام 1998 إلى أن 38% من النساء الحوامل في الكيان الإسرائيلي غير متزوجات وأن 32% من هؤلاء الحوامل تحت سن 19 عاماً[182]. وبشكل عام، فإن هذه الأسباب هي انعكاس لتأثير القيم الغربية وحضارتها على اليهود، حيث تتفشى مثل هذه الظواهر، والتي أسهم اليهود أنفسهم في إيجادها.

وإذا ما حاولنا التعرف على توزع اليهود في العالم، فإننا سنجد أن معظم أعدادهم تتركز في الولايات المتحدة (خمسة ملايين و 800 ألف)، وفي الكيان الصهيوني (أربعة ملايين و 847 ألفاً)، أي نحو 81.9% من يهود العالم، ويُظهر الجدول التالي أعداد اليهود في العالم حسب إحصاءات المؤتمر اليهودي العالمي - وهو من أهم المؤسسات الصهيونية - في كتابه الصادر سنة 1998[183]:

كندا	أوكرانيا	روسيا	فرنسا	إسرائيل	الولايات المتحدة	
360	400	550	600	4847	5800	العدد بالألف
هنغاريا	استراليا	جنوب إفريقيا	البرازيل	الأرجنتين	المملكة المتحدة	

العدد بالألف	300	250	130	106	100	80

وفي كُلٍّ من روسيا البيضاء وألمانيا 60 ألفاً، وفي كُلٍّ من المكسيك وبلجيكا 40 ألفاً، ولكُلٍّ من إيطاليا وأوزبكستان وفنـزويلا 35 ألفاً، وفي كُلٍّ من الأورغواي وأذربيجان ومولدافيا وهولندا 30 ألفاً، وفي كُلٍّ من إيران وتركيا 25 ألفاً، وهناك نحو 262 ألفاً آخرين موزعين على باقي دول العالم، أي أن مجموع يهود العالم حسب إحصاءات المؤتمر اليهودي العالمي يساوي 14 مليوناً و 260 ألفاً تقريباً، ومن الواضح أن هذه التقديرات تزيد كثيراً عن تقديرات خبراء اليهود أنفسهم في الكيان الإسرائيلي.

وربما يعود السبب في تفاوت التقديرات إلى صعوبة الوصول إلى إحصاءات رسمية دقيقة لليهود في كل بلدان العالم على اختلاف ظروفها السياسية والاجتماعية والقانونية، كما يعود إلى ذوبان وتَخفِّي اليهود، وإعراضهم عن ذكر صفتهم الدينية اليهودية حسب المصالح التي يرتؤونها، وقد يكون من الأسباب أن المؤتمر اليهودي العالمي راعى نسب الزيادة الطبيعية لليهود حسب معدلات المواليد، ولم يحتسب النسب العالية من حالات الذوبان والاندماج أو من حالات الزواج المختلط.

ولتوضيح النموذج بشكل أفضل، نسوق بعض إحصاءات الكتاب السنوي لليهود الأمريكان لسنة 1998 حيث يُقدِّر هذا المصدر عدد اليهود في أمريكا بخمسة ملايين ونصف، ويذكر أن من بين هؤلاء نحو مليون ومائة ألف يقولون أنهم دون دين (نحو 20% من يهود أمريكا)، ويضيف أن 52 % من اليهود الذي تزوجوا بعد 1985 تزوجوا من غير يهوديات، وأن ثلثي يهود أمريكا لا يمانعون من زواج أبنائهم من غير يهوديات، وأن 41% من أبناء الزواج المختلط يصبحون غير يهود، بينما 31% يصبحون دون دين بالمرة، ويحافظ 24% فقط على انتمائهم اليهودي[184].

ومن الملفت للنظر أن معظم يهود العالم الذين يعيشون خارج الكيان الإسرائيلي يعيشون في المدن الرئيسية في الولايات المتحدة، وعواصم العالم الغربي ومدنه الكبرى، فهناك خمسة ملايين و 275 ألفاً يعيشون في 16 مدينة ، ففي نيويورك وحدها يعيش مليون و 750 ألفاً ، وفي باريس 350 ألفاً (58.3% يهود فرنسا)، وفي لندن 200 ألف (66.7% من يهود المملكة المتحدة)، وفي مدينتي تورنتو ومونتريال الكنديتين يعيش 275 ألفاً (76.4% من يهود كندا)، وفي بيونس آيرس عاصمة الأرجنتين 180 ألفاً (72% من يهود الأرجنتين)[185]. أي أن التركيز ينصب على مدن المال والأعمال والتأثير السياسي والإعلامي، مما يسهل على اليهود تحقيق درجات أعلى من الثراء والتأثير على السياسة العامة للدولة.

النفوذ اليهودي العالمي

إن الحديث عن النفوذ اليهودي العالمي ودرجات تأثيره في ميادين السياسة والإعلام والاقتصاد هو من القضايا التي تشغل اهتمامات الكثير من العرب والمسلمين. ويركّز الكثير من كتاب وأبناء الحركات الإسلامية على هذا الموضوع سعياً لتنبيه المسلمين على مخاطره، ودفعاً لهم للتحرك الفعال المضاد لمواجهته. غير أن الحديث عن النفوذ اليهودي قد اتخذ أحياناً درجات من المبالغة تعتمد الانتقائية في الطرح وتُقدِّم اليهود وكأنهم "قدر الله الغالب"!!، وكأنهم يتحكمون في كل شيء، ويديرون كل شيء، ضمن مؤامرة دولية متكاملة بدقة، وبعد ذلك يرتاح هؤلاء المسلمون إلى تحليلات وتعميمات وسوء تقدير تؤدي بهم وبكثير من المسلمين إلى أجواء من اليأس والإحباط من مواجهة تلك المؤامرة. وهذا ما يطرب له اليهود فرحاً في النهاية، عندما تتضخم صورتهم إلى درجة تبعث اليأس والهزيمة في نفوس غيرهم. ولسنا نريد أن نُهوِّن من شأن النفوذ اليهودي العالمي المعاصر، فهو حقيقة واقعية وهي تعبر بشكل عام عن حالة علوهم في الأرض التي وعدهم الله سبحانه وتعالى إياها، وهي تعبر بشكل طبيعي عما تيسر لهم في واقعنا المعاصر من قدرة عالية على التنظيم والتماسك والتعاون في رعاية مصالحهم والقدرة على اختراق المجتمعات التي يعيشون فيها، والنجاح في تحقيق درجات عالية من التعليم، وجمع الثروات واستخدامها سياسياً واقتصادياً وإعلامياً لرعاية مصالحهم وحمايتها.

وهذا الجهد البشري الذي قاموا به تنطبق عليه سنن الله سبحانه بإعطاء الناس في الدنيا على قدر جهودهم، وأنه يعطي من متاع الدنيا لمن يحب ومن لا يحب. إن اليهود لم يجلسوا متثائبين أو ناموا متعطلين، ولكنهم عملوا بدأب ليل نهار، ووفق كل الطرق الممكنة، بغض النظر عن حلها أو نظافتها، ليصلوا إلى ما يريدون. وعلا شأنهم بحبل من الله وحبل من الناس ، والله سبحانه يرى ذلك ويعلمه، ويقدر الأمور بلطفه وحكمته ليظهر علوهم وبروزهم. ولعل الله قدر في حكمته أن الكيان اليهودي الصهيوني في فلسطين، وأن هذا العلو سيكون "الحقنة المؤلمة" التي ستحفز المضادات الحيوية في جسم الأمة الإسلامية المنهوك، الذي رقد قروناً من التخلف والتمزق، لتبعث فيها روح التحدي والحيوية والنشاط، لتقوم بتحرير الأرض المقدسة، وتقوم بقيادة البشرية من جديد، في حضارة تسلم وجهها لله، وتقوم على معاني الإيمان، وتتكامل فيها الجوانب الروحية والمادية.

إن أفضل وسيلة لوضع الأمر في إطاره الصحيح هي فهمنا لجزء من آية في القرآن الكريم، فعندما ادعى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، رد الله عليهم مباشرة في تتمة الآية قائلاً: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾[186]، فاليهود في بداية الأمر ونهايته بشر ممن خلق. تنطبق عليهم سنن الله سبحانه ويعتريهم الضعف والقصور والنسيان والخلاف وسوء التقدير للأمور، بل ويتسببون لأنفسهم أحياناً بالكوارث والمشكلات وعداء الآخرين. ويُذكرنا القرآن ببعض جوانب قصورهم :

ـ ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[187].

ـ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾[188].

ـ ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[189].

وهذه جوانب وصفات لا يمكن لأصحابها أن يُمكّنوا معها (وفق سنن الله سبحانه)، من قيادة البشرية وحضارتها. فالتفرق إيذان بذهاب الريح والقوة، والذليل المتمسكن لا يمكن أن يكون رائداً قائداً، والحريص على الحياة لا يستطيع دفع تكاليف الصراع والمغالبة حتى النهاية، وهناك جوانب أخرى ذكرها القرآن:

- ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾[190].
- ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[191].
- ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾[192].
- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[193].

وهي صفات ومسلكيات تودي بمن يتبناها ويستخدمها، وتؤجج عداء الآخرين ضده، وتجعل الآخرين في حالة من الغضب والتحفز لاقتناص الفرصة للانتقام ممن امتص دماءهم بالربا، وأشعل الفتنة في أوساطهم، ونكث عهوده، وقسا عليهم. ولعل لهذا صلة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[194]، فكلما أفسدوا وأشعلوا الفتنة، كلما جاء من يقمعهم ويعذبهم.

وعلى ذلك فإن العلو اليهودي حالة مؤقتة وليس حالة دائمة، لأنها تحمل عناصر فسادها في ذاتها. ولأنها لا تملك مشروعاً حضارياً إنسانياً يخرج البشرية من تيهها وضياعها. ولأنها قائمة على الغصب والظلم، ودولة الظلم ساعة أما دولة الحق فإلى قيام الساعة. ولأن أمور الناس إنما تستقيم بالعدل، فإذا ذهب العدل فقد آذنت الدولة بالزوال.

ومن الناحية التاريخية نجد أن غالبية اليهود في أوروبا كانت تشتغل في الوظائف الهامشية غير الإنتاجية، وفي المهن البسيطة، فقد كان 86.5% من يهود روسيا يعملون تجاراً ومرابين، وسيطر اليهود على عملية الربا في أوروبا في الفترة من القرن الثاني عشر وحتى الخامس عشر، وكانت نسبة اليهوديات العاملات في الدعارة في مدن أوروبا أعلى بكثير من نسبة اليهود في المجتمعات الأوروبية. وقد جرّت عليهم مثل تلك الأعمال - فضلاً عن رؤية المسيحية التقليدية عنهم كقتلة للمسيح - بُغضَ عامة الناس، وفضلاً عما سبق فإن مشاركة نسب عالية من اليهود في الحركات الثورية في روسيا (فضلاً عن عوامل أخرى أشرنا إليها سابقاً)، قد جر عليهم غضب السلطات القيصرية في روسيا، فاتخذت إجراءات كثيرة ضدهم كانت إيذاناً بظهور المشكلة اليهودية في أوروبا[195].

وفي ألمانيا اعتقد هتلر وكثير من الألمان أن اليهود هم سبب خسارة الألمان في الحرب العالمية الأولى، و أنهم من خلال نفوذهم المالي والصناعي والإعلامي ومشاركتهم في الحركات الثورية قد امتصوا دماء الألمان، وجرُّوا عليهم الويلات. ولسنا نناقش ما إذا كان هتلر محقاً أم لا، ولكننا نذكر أن مهارة اليهود وحكمتهم وخبراتهم وتخطيطهم لم تنفعهم، وتعرضوا لعمليات تصفية بشعة نالت مئات الآلاف منهم.

وما أردنا أن نقوله من هذا الاستطراد أن اليهود بشر يخطئون ويصيبون ، وقد ينقلب كيدهم وتخطيطهم في نحرهم، كما أنهم ليسوا جميعاً على قلب رجل واحد، وعندهم كما عند غيرهم من عوامل الضعف و القصور ما ينبئ بدوران الدائرة على من يتآمر منهم على الإسلام وأهله.

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما رأى حصون خيبر وقلاعها العشرين قد قال :"الله أكبر، خربت خيبر"، وهو يعلم أنها أقوى حصون الجزيرة العربية، فإن على المسلمين أن يقتدوا بنبيهم عليه السلام، ويكبروا مستبشرين خيراً وهم يرون العلو اليهودي الحالي في الأرض، فهم إن ساروا على طريق نبيهم وبذلوا الأسباب فإن هذا العلو إلى زوال، ثم إن شرط انتصار المسلمين عليهم كما في فواتح سورة الإسراء مرتبط بحصولهم على العلو، فيكون العلو نفسه بشارة لما هو قادم بإذن الله من اتحاد المسلمين وقوتهم وانتصارهم.

إن سر النجاح الكبير الذي حققه اليهود في دوائر النفوذ في العالم المعاصر لا يعود إلى طبيعة ذاتية، أو إلى تركيبة جينية خاصة باليهود. وإلا فلماذا تعرضت مجموعاتهم إلى الفشل والاستضعاف "والبهدلة"، طوال القرون الخمس والعشرين الماضية؟، كما أنه لا يعود بالضرورة إلى حجم الأموال والثروات التي امتلكوها، فقد كان هناك دائماً من هو أغنى منهم. إن الأمر الذي يبدو لنا، بعد تقدير الله مرتبط بقدرة العديد من جماعاتهم على العمل السري و العلني المنظم، ودرجة التنسيق العالية بينهم، وقدرتهم على استثمار ما لديهم من أموال في السيطرة على وسائل الإعلام والتأثير في القرار السياسي، ثم في نجاحهم في طرح قضاياهم ومصالحهم في ضوء مصالح الآخرين وبما يتوافق معها. كما أن حالة عداء أو استعداء الآخرين ضد اليهود جعلت الكثيرين منهم يشعرون بالخوف والقلق وفقدان الشعور بالأمان، وهذا أدى بدوره إلى حالة تماسك دفاعي في أوساطهم، مما أعانهم على تحقيق درجات أعلى من العمل المنظم.

إن طبيعة منهجنا في هذا البحث لا تمكننا من التفصيل والإطناب، ولذلك فسنكتفي بما نرى أنه يؤدي الغرض والصورة المرادة:

النفوذ اليهودي في أمريكا:

يقدر عدد اليهود في أمريكا بنحو 5.5 - 5.8 ملايين، أي 2% من سكان الولايات المتحدة، ومعظمهم هاجر إلى الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وأغلبيتهم الساحقة من يهود الأشكناز القادمين من شرق أوروبا، وينتمي ثلثهم تقريباً إلى اليهودية الإصلاحية أو المحافظة، ويعرف 10% أنفسهم بأنهم أرثوذكس، بينما يقول 24% أنهم مجرد يهود.

تنبع قوة يهود أمريكا في أنهم تمكنوا من تحقيق درجات عالية من التأثير توازي أضعاف حجمهم السكاني، ويمكن أن نجمل كيفية تحقيقهم لذلك بأبرز النقاط التالية:

أولاً: اليهود من أكثر الأقليات ثراء في العالم، ومع ذلك فإنهم لا يسيطرون إلا على نحو 10 - 12% من الاقتصاد الأمريكي، ويتركز نفوذهم خصوصاً في الصناعات الخفيفة والمواد الاستهلاكية، ولذلك فإن قوتهم لا تكمن في السيطرة الاقتصادية العامة، وإنما في

استثمار ثرواتهم بطريقة مؤثرة سياسياً وإعلامياً. فهم يُعدّون الممولين الكبار لحملات الرئاسة الأمريكية حيث يقومون بتمويل 60% من تكاليفها وخصوصاً في الحزب الديمقراطي، وهذا يوازي 30 ضعف حجمهم السكاني. ولأن حملات الرئاسة الأمريكية باهظة التكاليف (بمئات الملايين)، فإن على أي مرشح أن يسترضي هؤلاء للحصول على دعمهم، وهذا ينطبق أيضاً على مرشحي مجلس الشيوخ والنواب، وإن بتكلفة مادية أقل.

وفي الحزب الديمقراطي الأمريكي مثلاً، كان أكثر من 60% من الأموال التي حصل عليها كارتر وكلينتون في حملات الرئاسة من اليهود. وكان هناك أكثر من سبعين يهودياً من أصل 125 يهودياً في المجلس المالي الوطني للحزب الديمقراطي في أيام الرئيس كارتر 1977- 1981، وكذلك فإن أكثر من 60% من الأموال التي حصل عليها نيكسون (عن الحزب الجمهوري)، ليفوز بانتخابات 1972 كانت من اليهود. وفي حفلة واحدة أقامتها الممثلة اليهودية المشهورة بربارة سترايسند في منتصف سبتمبر 1996 جمعت 3.5 مليون دولار لتمويل انتخاب كلينتون، حيث حضر الحفل 700 شخص كانت قيمة اشتراك كل واحد منهم بين خمسمائة إلى 12 ألف دولار[196].

إن اليهود يستثمرون هذه الأموال بسخاء لتحقيق مصالحهم وفرض شروطهم كدعم الكيان الصهيوني اليهودي في فلسطين، ومحاربة ما يسمونه الأصولية الإسلامية وغيرها.

ثانياً: يتمتع يهود أمريكا بقدرة عالية على التنظيم وتكوين مجموعات الضغط، فاليهود بشكل عام منظمون في مؤسسات وهيئات نشطة وفعالة، وتتعاون في خدمة قضاياها الكبرى وفق أفضل وسائل الاتصال والضغط والإقناع، وضمن استيعاب كامل للعقلية الأمريكية وطرق التعامل معها. وقد ذكر أحد علماء الاجتماع البارزين ".. أن تكون يهودياً هو أن تنضم لجمعية يهودية"!!.

ومن أبرز جماعات الضغط اليهودية اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة "إيباك"، AIPAC، التي تأسست عام 1954 وتضم 4500 شخصية من كبار الشخصيات اليهودية في المجتمع الأمريكي، ويشارك في عضويتها أكثر من 50 ألف عضو يتبرع كل منهم على نحو سنوي منتظم بمبالغ من 25 دولاراً إلى 5000 دولار. وتُصدر صحيفة نير إيست ريبورتس Near East Reports (أي تقارير الشرق الأدنى)، وتُصدر ملحقاً بعنوان "الحقائق والأكاذيب"، وبه متابعات مختصرة للصراع العربي الإسرائيلي، وغالباً ما يكون هذا هو المصدر الأساسي للمعلومات بالنسبة لأعضاء الكونجرس الأمريكي (مجلسي النواب والشيوخ). وتدفع اللجنة تكاليف إرسال 400 نسخة مجانية أسبوعياً لأعضاء الكونجرس وكبار المسؤولين ووفود الدول إلى الولايات المتحدة. ولها هيكل تنظيمي فعال وسمعة قوية، وهي تستخدم الوسائل العقلية والعاطفية، كما تستخدم أساليب الرشاوى والتهديد والابتزاز والفضائح.

وقد أصبح اشتراك الرؤساء الأمريكيين وكبار رجال الدولة والأحزاب في الاجتماع السنوي لإيباك أمراً معتاداً ، حيث يقومون بالتسابق لإلقاء كلمات التأييد والدعم للوبي اليهودي وللكيان الصهيوني.

وفي 1980 كان هناك 342 منظمة مرتبطة بالحركة الصهيونية أو موالية لها حسبما أشار الكتاب السنوي لليهود الأمريكيين سنة 1980، ومن بين هذه المنظمات 67 منظمة صهيونية سياسية تعمل مباشرة لصالح الكيان الإسرائيلي، فضلاً عن المنظمات الدينية والثقافية والاجتماعية ومنظمات العلاقات العامة. وينجح اللوبي اليهودي عادة في منع صفقات الأسلحة مع البلاد العربية والإسلامية، إذا رأى أن الأسلحة يمكن أن تشكل خطراً على الكيان الصهيوني أو تُخلُّ بالتفوق العسكري الساحق لـ"إسرائيل" على البلاد العربية. وقد حدث ذلك في صفقات أسلحة نجح اللوبي في منعها في الثمانينات مع السعودية 17 بليون دولار، والكويت بـ 1.9 بليون دولار، ومع الأردن حيث منع بيع طائرات ف- 16 وصواريخ هوك. وبعد ذلك، وخصوصاً في عهد كلينتون، أصبحت وزارتا الخارجية والدفاع الأمريكيتين تنسقان مع اللوبي الصهيوني لمعرفة مدى ما يُسمح به قبل أن تشرعا في عقد صفقات الأسلحة مع البلدان العربية[197].

ثالثاً: لليهود حضور إعلامي قوي وسيطرة على الكثير من وسائل الإعلام الأمريكية، فهم يملكون أو يديرون أهم ثلاث شبكات تلفزيونية أساسية: ABC ، NBC، CBC، ورغم أنه يوجد في الولايات المتحدة نحو 1759 صحيفة يومية و668 صحيفة أسبوعية ، إلا أن اليهود يركزون على أهم الصحف المؤثرة، فلهم نفوذ قوي في أكثر الصحف اليومية توزيعاً وهما "وول ستريت جورنال"، و "الديلي نيوز"، وهم يملكون "نيويورك تايمز" اليومية وهي أحد أشهر الصحف الأمريكية. أما جريدة الواشنطن بوست التي يترأس مجلس إدارتها اليهودي "لاري إسرائيل"، ويسيطر عليها اليهود منذ 1933، فتكمن أهميتها في انتشارها في أوساط الأجهزة الحكومية حيث تحظى بتأثير قوي، ويمتلك اليهود أقوى مجلتين أسبوعيتين في أمريكا والأشهر على مستوى العالم وهما "التايم"، والنيوزويك، ويملك "التايم" اليهودي جون مئير، وتوزع 4.5 مليون نسخة أسبوعياً، أما النيوزويك فيسيطر عليها اليهود منذ 1973 عندما اشتراها مالكوم ماير، ويرأس تحريرها اليهودي ليستر بيرنشتاين، ورئيس مجلس إدارتها ومديرها التنفيذي كلاهما يهوديان. كما يسيطر اليهود على أحد أهم مجلات الاقتصاد في العالم بزنس ويك، فضلاً عن سيطرتهم على مجلات الدعارة والخلاعة مثل بلاي بوي وكيو.

ولليهود سيطرة واسعة على شركات السينما الأمريكية والتي تعد الأهم في العالم مثل شركة فوكس التي يملكها اليهودي وليام فوكس، وشركة بارامونت التي امتلكها اليهودي لويس ماير، وشركة مترو جولدن ماير، التي نشأت عن اندماج شركة مترو التي امتلكها لويس ماير وشركة جولدن التي امتلكها اليهوديان صمويل جولدن وأدولف زوكور، كما يسيطر اليهود على شركة يونيفرسال التي يملكها اليهودي كارل ليمل.

وتخدم شركات السينما عادة الدعاية الصهيونية اليهودية، وتشوه صورة الإسلام والمسلمين والعرب، وتسهم في صناعة التوجهات السياسية والفكرية بطرق مؤثرة. وفي كثير من الأحيان يتم إبراز ممثلين يهود كأبطال للسينما العالمية وفي مقدمة أبطال السينما اليهود:

وودي ألين، وبوب هوب، وفرانك سيناترا، وميكي روني، وجاك ليمون، وبول نيومان، وآل باسينو، وكيرك دوغلاس، وغاري غرانت، وجورج سيجال، وبيرت رينولدز، ومن النساء اليهوديات: إليزابيث تايلور، وآن بنكروفت، وبربارة سترايسند،وشيلي دوفال، وكاري فيشر، وسوزان أنسباك، وجيرالدين شابلين، وغيرهم كثير ممن يخرج كل عام ونحتاج ردحاً من الزمن لمعرفة أصله اليهودي. ومن أشهر المخرجين اليهود ستيفن سبيلبرغ صاحب أكثر الأفلام شهرة وربحاً مثل "آي ـ تي"، و"حديقة الديناصورات"، وفيلم "قائمة شندلر"، الذي يبرز معاناة اليهود في العهد النازي وحصل على عدد من جوائز الأوسكار، وفيلم "مغيرو تابوت العهد القديم" الذي يصور المسلمين عملاء للنازية، وبائعي لذة للأجانب.

وبالتأكيد، فإن لوسائل الإعلام هذه نفوذ هائل خصوصاً في أنظمة الحكم الليبرالي الديمقراطي الغربي، وتستفيد من ظروف الحريات الواسعة لتوجيه الرأي العام، وممارسة الضغط والتشهير ونشر الفضائح ضد أولئك الذين يمكن أن يعارضوا المصالح اليهودية والصهيونية. وهي ذات تأثير مرعب على رجال الدولة والسياسيين الذين يسعون لاسترضائها، لأنهم لا يملكون القدرة على تحجيمها أو إيقافها[198].

رابعاً: لليهود حضور علمي وثقافي واسع يضاهي أضعاف حجمهم، وعامة يهود أمريكا جامعيون، وتذكر دراسة أعدها البروفيسور روبنشتاين W. Rubinstein إنه من بين خمسمائة قيادي على مستوى أمريكا هناك 57 يهودياً. ونسبتهم الأعلى هي وسط قادة الإعلام إذا تصل إلى 25.8%. ويضيف أن 45% من بين أبرز 172 شخصاً من كبار المثقفين والمفكرين على مستوى أمريكا هم من اليهود (أي 77 شخصاً)، وأن هذه النسبة ترتفع إلى 56% وسط أبرز علماء العلوم الاجتماعية، وإلى 61% في الإنسانيات (العلوم الإنسانية). ويضيف أنه من بين أبرز عشرين عالماً ومفكراً أمريكياً كان هناك 15 يهودياً، وذلك حسب تصنيف أعده مفكرون وعلماء آخرون سنة 1970.

وهؤلاء اليهود يسهمون بشكل قوي في توجيه الثقافة والرأي العام ومناهج التدريس والتربية، ومعظم هؤلاء لا يهتم بإبراز هويته اليهودية، بل يحرص أحياناً على إخفائها، ليكون أكثر قبولاً وتأثيراً في المجتمع.

خامساً: يستفيد اليهود من طريقة التصويت في الانتخابات الأمريكية لمضاعفة قوتهم وتأثيرهم الانتخابي، فلأنهم جماعات منظمة متعلمة، فإنهم يشاركون في الانتخابات بنسبة 92% في مقابل 54% بين عامة الأمريكيين فتتضاعف نسبتهم الانتخابية. واليهود أكثر الأقليات تركزاً في المدن، حيث تتضاعف القدرة على التأثير فهم 16% من سكان مدينة نيويورك، و31% من كل سكانها البيض. وفي نظام انتخاب رئيس أمريكا فإن الرئيس الذي يفوز في أي ولاية ولو بنسبة 51% فإنه يحصل على كل مقاعدها (أصواتها) الانتخابية. إذ أن لكل ولاية عدد من المقاعد يمثلها في المجمع الانتخابي العام حسب عدد سكانها الذين يحق لهم الانتخاب، ويتركز اليهود في الولايات المهمة ذات المقاعد الأكثر مثل نيويورك وفلوريدا وكاليفورنيا ، ويكفي أن يكونوا عنصر ترجيح لهذا المرشح أو ذاك ليضمن الفوز بجميع مقاعد

الولاية، مما يجعل الصوت اليهودي ذا حساسية وأهمية خاصة لكل مرشح[199].

ومن الناحية العلمية فإن غالبية اليهود (نحو 70%) يعطون أصواتهم للحزب الديمقراطي، لأنه يعبر بشكل أفضل عن مصالح الأقليات. غير أن اليهود ذوي تأثير فعال في كلا الحزبين الجمهوري والديمقراطي من خلال عضويتهم النشطة فيهما، وتبرعاتهم المالية، وشبكة علاقاتهم الواسعة مع دوائر الضغط والنفوذ فيهما. وفي صراع المرشحين لضمان الفوز بترشيح حزبهم، تحدث منذ البداية عمليات التصفية "والفلترة" لكل مرشح داخل كل حزب، بحيث لا يتقدم للأمام إلا من أعطى تعهدات أفضل وأكثر ليهود أمريكا والمصالح الصهيونية الإسرائيلية، وعند ذلك لا يهتم اليهود كثيراً أيّ مرشح فاز أو حصل على الرئاسة، لأن كليهما قد تمت "فلترته" منذ البداية.

سادساً: يحذر اليهود جداً من إثارة النصارى الأمريكان ضدهم، ويفضلون ممارسة تأثيرهم بشكل هادئ ودون ضجيج، ومن وراء ستار. ويحرص كثير منهم على أن لا يبرز هويته أو أصوله اليهودية، ويستفيدون من أجواء الثقافة الأمريكية العامة التي لا تركز على هذه المسائل بقدر تركيزها على المصلحة والمنفعة واللذة. ولديهم مؤسسات ترصد توجهات الرأي العام حول العداء لليهود وما يسمونه "اللاسامية". ويسعون لسحق أي شخصية أمريكية تجرؤ على مواجهتهم أو عدائهم علناً، ويكفي توجيه تهمة "اللاسامية" لأحدهم لتقضي على مستقبله السياسي.

وقد خطا اليهود خطوات إلى الأمام في ممارسة أشكال مكشوفة من النفوذ السياسي في عقد التسعينيات من القرن العشرين (تحت إدارة كلنتون)، ربما لاطمئنانهم الشديد لاستقرار أوضاعهم، ووصل الأمر إلى قمته عندما رشح الحزب الديمقراطي يهودياً أرثوذكسياً متديناً لمنصب نائب الرئيس الأمريكي لانتخابات سنة 2000.

ومع ذلك، فإن النفوذ المكشوف وجد معارضة قوية من عدد من الدوائر والشخصيات اليهودية التي حذرت من احتمالات بروز العداء ضد اليهود بسبب ذلك.

لقد أحاط الرئيس الأمريكي كلنتون (يناير 1993 - يناير 2001) نفسه بمجموعة كبيرة من اليهود، فوزيرة الخارجية مادلين أولبرايت يهودية (ادعت أنها اكتشفت أصلها اليهودي مؤخراً بعد أن حصلت على المنصب!!؟)، ووزير الدفاع وليام كوهين ووزير الخزانة روبرت روبن، ووزير الزراعة دان جليكمان، ومدير وكالة الاستخبارات المركزية CIA جورج تينت كلهم من اليهود. هذا بالإضافة إلى أن سبعة من أصل أحد عشر عضواً في مجلس الأمن القومي الأمريكي كانوا يهوداً. بالإضافة إلى عشرات الشخصيات الكبيرة في البيت الأبيض والسفارات وغيرها. وحتى الطاقم الأمريكي الذي تولى متابعة عملية السلام العربية الإسرائيلية، فإن معظم أفراده من اليهود أمثال دينس روس، وهارون ميلير، ومارتن أنديك. وكان من النماذج الملفتة للوفد الفلسطيني عشية توقيع اتفاق الخليل (أوائل 1997) أنه عندما قام اليهود لأداء صلاتهم، لم يبق منتظراً في زاوية الغرفة سوى صائب عريقات وجميل الطريفي عضوي الجانب الفلسطيني، أما الباقي من إسرائيليين وأمريكيين فكانوا عشرة من اليهود؟؟[200].

سابعاً: يستفيد اليهود من كون 70% من نصارى أمريكا من البروتستانت الذين يؤمنون بالعهد القديم (التوراة)، ويدعمون إنشاء الكيان الصهيوني وفق خلفيات دينية مرتبطة بقدوم المسيح، وبداية العهد الألفي السعيد، مما أشرنا إليه سابقاً. وهم ينسقون مع صهاينة النصارى في خدمة المشروع الصهيوني، ولهؤلاء النصارى نفوذ قوي على السياسة الأمريكية وفي الحزبين الجمهوري والديمقراطي.

وعندما خطب الرئيس الأمريكي بل كلينتون في الكنيست الإسرائيلي في 27 أكتوبر 1994 عبر عن هذه التوجهات، وقال لهم إن الأمريكيين "أعجبوا من خلال كل معتقد ديني بكم وساندوكم، إن بقاء إسرائيل هام جداً ليس لمصالحنا فحسب، بل لكل القيم العزيزة علينا"، وختم قائلاً:" ينبغي أن تدركوا أن مسيرتكم هي مسيرتنا، وأن أمريكا ستقف إلى جانبكم الآن وإلى الأبد".

لقد استطردنا في الحديث عن النفوذ اليهودي في أمريكا لأن أمريكا هي القوة الكبرى في واقعنا المعاصر، ولأنها تتولى بنفسها إدارة شئون الصراع العربي الإسرائيلي، والتسوية السلمية. ولا مجال بعد ذلك للقول بحيادية أمريكا أو نزاهتها، ولقد عبر بات بيوكانان الزعيم اليميني في الحزب الجمهوري، والذي رشح نفسه للرئاسة وواجه معارضة اللوبي اليهودي الصهيوني، عن النفوذ اليهودي قائلاً:" لقد أصبح الكونجرس مثل الضفة الغربية التي تحتلها إسرائيل"![201]. كما نُقل عن الرئيس الأمريكي جورج بوش (1989 - 1993) قوله:" إنني رجل يشعر بالضعف والانعزال، وهو يخاصم قوة عملاقة تتمثل في اللوبي الصهيوني"[202].

النفوذ اليهودي في الاتحاد السوفييتي (روسيا):

اليهود لا يشكلون سوى 7 بالألف (0.7%) من السكان، ومع ذلك فلهم نفوذ ضخم، وسنكتفي بذكر إشارات لضيق المساحة المتاحة. يعود النفوذ الكبير في الاتحاد السوفييتي السابق (روسيا) إلى بدايات الثورة الشيوعية فهناك دلائل على أن تمويل هذه الثورة سنة 1917 جرى على يد أثرياء يهود، أمثال اليهودي الأمريكي جاكوب شيف، وفيلكس واربورغ وغيرهم. وعندما تشكّل المكتب السياسي الأول للثورة الشيوعية كان من بين اعضائه السبعة أربعة من اليهود (تروتسكي، وكامينيف، وسوكولنكوف، وزينونيف)، أما لينين فيذكر أنه نصف يهودي، بينما ستالين متزوج من يهودية. وتشكلت أول حكومة شيوعية من 22 وزيراً كان من بينهم 17 يهودياً. وفي قيادة الدولة والحزب الشيوعي كان هناك 425 يهودياً من بين 532 شخصاً أي 80% [203]. لقد كانت الثورة الشيوعية في أحد أشكالها رداً من اليهود الروس على اضطهاد روسيا القيصرية لهم.

وقد قام العملاء اليهود بتوجيه من الحركة الصهيونية، بتزويد الاتحاد السوفييتي بأسرار القنبلة النووية والمواد اللازمة لصناعتها مقابل دعم ستالين للمشروع الصهيوني في فلسطين. وكان اليهودي الصهيوني أوبنهايمر قد عين مديراً لمركز لوس آلاموس في الولايات المتحدة حيث تم تصنيع القنبلة النووية، وتولى بنفسه تنسيق إيصال الأسرار النووية للروس خلال الفترة 1942- 1944. وعندما انعقد مؤتمر يالطا لتوزيع دوائر النفوذ في العالم على القوى المنتصرة في الحرب العالمية الثانية، عرّف الرئيس الأمريكي روزفلت نفسه للزعيم

السوفييتي ستالين بأنه صهيوني، وسأله إن كان هو صهيونياً أيضاً، فقال ستالين "من حيث المبدأ نعم"[204].

وقد وقف الروس بقوة إلى جانب الأمريكان خلف قرار تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة سنة 1947، وعندما جاءت أول سفيرة "لإسرائيل" للاتحاد السوفييتي، وهي الروسية جولدا مائير (التي أصبحت رئيسة للوزراء فيما بعد 1968 - 1974)، استقبلت بحفاوة، وطُلب منها إعداد قوائم بأسماء اليهود السوفيات الذين تحتاجهم "إسرائيل" لترسيخ وجودها[205]. ولا داعي للتذكير بأن المشروع الصهيوني نشأ أساساً في أوروبا الشرقية وخصوصاً روسيا وبولندة، وأن المهاجرين اليهود الذين أنشأوا الكيان الصهيوني جاءوا أساساً من هناك.

ومع أن نسبة اليهود انخفضت مع توالي هجرتهم، في الاتحاد السوفييتي إلى أقل من نصف بالمائة (0.5%) فإنه استناداً إلى إحصائيات 1983 كان اليهود يشكلون 44% من مجموع مرشحي ودكاترة العلوم، و14% من العدد الإجمالي للكتاب السوفييت، و 23% من الموسيقيين، و14% من الأطباء، وكانوا ممثلين في القيادات السياسية بنسبة 10 -20% من هذه القيادات[206].

ومع انحلال الاتحاد السوفييتي وتفككه منذ أواخر الثمانينات من القرن العشرين، هاجر إلى الكيان الصهيوني أكثر من مليون يهودي (1989 - 2000) يحمل عشرات الآلاف منهم أرقى التخصصات العلمية، ومن بينهم آلاف من علماء الذرة مما أسهم في ترسيخ الكيان الصهيوني. ومن جهة أخرى، سعى اليهود للهيمنة على الحياة التجارية والمالية في روسيا، وبرزت مثلاً مجموعة "موست بنك" التي يملكها فلاديمير غوسينسكي رئيس مؤتمر المنظمات اليهودية في روسيا، وصاحب أكبر مؤسسة إعلامية غير حكومية، وعلى رأسها القناة التلفزيونية الأكثر أهمية وشهرة NTV. وقد تحدث مدير الديوان الرئاسي السابق نيكولاي يغوروف عن تعاظم النفوذ اليهودي وقال إن هناك وضعاً غير طبيعي تسيطر من خلاله مجموعة "موست" على الكرملين، ويُطرد من ديوان الرئاسة كل من ليس محسوباً على المجموعة، والتي تحالفت مع تاتيانا ابنة الرئيس يلتسين ومدير الديوان تشوبايس[207].

وقد عين يلتسين "بوريس بيريزوفسكي" نائباً لسكرتير مجلس الأمن القومي الروسي في أكتوبر 1996، وهو يحمل الجنسية الإسرائيلية، وقد كشفت جريدة ازفستيا أصله اليهودي. وبيريزوفسكي يرأس مجلس إدارة عدة مؤسسات صناعية ومالية ضخمة، ويملك أكثر من ربع أسهم مؤسسة التلفزيون القومي[208]. ويستفيد اليهود من حالة الإرباك والانهيار الذي حل بروسيا لتقوية نفوذهم، بينما يراقب كثير من الروس الأوضاع بقلق، وتتعالى الأصوات الآن لتدارك الأمر.

أما بريطانيا فيكفي أنها كانت عملياً وراء إنشاء المشروع الصهيوني، وكانت بريطانيا مركز الحركة الصهيونية العالمية وراعيتها منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الحرب العالمية الثانية، وكان من أبرز صهاينتها النصارى الكبار لويد جورج وبلفور ووينستون تشرشل.

إن النفوذ اليهودي الصهيوني قديم متجذر في بريطانيا وسياستها، وقد وجد تعابيره في القرن التاسع عشر في سياسات وأنشطة وزير

الخارجية بالمرستون (1784 - 1865)، وفي نفوذ عائلة روتشيلد اليهودية، وفي وصول اليهودي الأصل دزرائيلي إلى رئاسة الوزراء.

ومن اللمحات السريعة التي نشير إليها إنشاء اليهودي جوليوس رويتر وكالة أنباء رويتر في منتصف القرن التاسع عشر وسيطرة اليهود عليها، وامتلاك اليهود لأهم الصحف البريطانية "التايمز"، و"الصنداي تايمز"، و"صن"، و"نيوز أف ذا وورلد"، و"سيتي ماجازين"، وكلها تمتلكها عائلة مردوخ اليهودية. كما يمتلك اليهود الديلي تلغراف التي أسسها اليهوديان موريس ليفي، وليفي لاوس عام 1855. ويمتلك اليهودي ليفونت 280 داراً للسينما في بريطانيا وحدها، كما يتربع اللوريد لوغريد على إمبراطورية الإنتاج التلفزيوني البريطاني ، ويملك شركة ATV للإنتاج التفلزيوني، كما يملك أعرق مسارح بريطانيا مثل المسرح الملكي، ودوري لين، وفكتوريا بالاس، وأبوللو وغيرها، ويملك اليهودي سيدني برنشتاين شركة جرانادا التي تعد أحد أشهر شركات الإنتاج التلفزيوني في بريطانيا[209].

وفي حكومة رئيسة الوزراء البريطانية مارغريت تاتشر، التي هيمنت على السياسة البريطانية 1979- 1991، كان عناك عدد من الوزراء اليهود مثل وزير المالية نيجيل لاوسون ووزير التجارة لورد يونج، ووزير التعليم كيث جوزيف، ووزيرة الدولة للشئون الصحية أدونيا كوري، ومستشار تاتشر السياسي ديفيد هارت[210]، وفي حكومة جون ميجر (رئيس الوزراء 1991 - 1997) كان وزير الخارجية مالكولم ريفكند، ووزير الداخلية مايكل هوارد يهوديان[211].

وهناك نفوذ سياسي اقتصادي يهودي ضخم في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وكندا والأرجنتين وغيرها، وهو ما لا يسعنا المجال لتغطيته.

لقد كان هذا النفوذ العالمي انعكاساً طبيعياً للجهود الدؤوبة التي بذلها اليهود، وعلى المسلمين ألا يجلسوا يائسين مبهوتين نادبين حظوظهم ، وإنما عليهم السعي بإصرار وثبات لإدراك ما فاتهم، لأن سنن الله لا تجامل أحداً.

هوامش الكتاب

[84] حول المنظمة الصهيونية في الفترة 1904-1914، انظر: أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص69، وشوفاني، "المؤسسة الصهيونية"، في دليل إسرائيل العام، ص417-420.

[85] حول المنظمة الصهيونية العالمية في الفترة 1914-1918، انظر: أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص70-72.

[86] المرجع نفسه، ص72-77، و ص81-82.

[87] حول الوكالة اليهودية، انظر: المرجع نفسه، ص92-104، و ص 110-113، و ص192، وشوفاني، "المؤسسة الصهيونية"، في دليل إسرائيل العام، ص445-447، ومحمد عبد الرؤوف سليم، نشاط الوكالة اليهودية لفلسطين: منذ نشأتها وحتى إقامة دولة إسرائيل 1922-1948 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982).

[88] انظر، شوفاني، "المؤسسة الصهيونية"، في دليل إسرائيل العام، ص427-428.

[89] انظر: عمران أبو صبيح، مرجع سابق، ص18.

[90] انظر: علي محافظة، العلاقات الألمانية الفلسطينية: 1841-1945 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981)، ص195-208.

[91] See: Palestine: Statement of Policy. May 1939, Cmd.6019 (London: H.M.S.O., 1939).

[92] انظر مثلاً: مناقشة روجيه جارودي لحقيقة التضخيم اليهودي لمعاناتهم في كتابه: الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ط2 (بيروت: دار الشروق، 1998)، ص200-223.

[93] انظر: فلاح علي، مرجع سابق، ص141، و ص181، و ص195-197، و ص203-205، وحرب فلسطين 1947-1948 (الرواية الإسرائيلية الرسمية)، ص26، و ص87، و أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص116-117.

[94] انظر: أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص123-125.

[95] المرجع نفسه، ص129-139.

[96] المرجع نفسه، ص144-145، وانظر: ص166-174.

[97] انظر: المرجع نفسه، ص175-185.

[98] انظر: المرجع نفسه، ص198، وشوفاني، "المؤسسة الصهيونية"، في دليل إسرائيل العام، ص459-461.

[99] أسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص193-194.

[100] انظر: المرجع نفسه، ص200-206.

[101] سورة المائدة: 18.

[102] انظر: عرفان عبد الحميد، مرجع سابق، ص16-17.

[103] انظر: محمد عبد السلام، مرجع سابق، ص124-132، وعمر سليمان الأشقر، العقيدة في الله، ط5 (الكويت: مكتبة الفلاح، 1984)، ص256-261.

[104] انظر: محمد عبد السلام، مرجع سابق، ص225-227، وعرفان عبد الحميد، مرجع سابق، ص38، ومحمد علي الزعبي، دقائق النفسية اليهودية (بيروت: د.ن، 1968)، وبولس حنا مسعد، همجية التعاليم الصهيونية (بيروت: دار الكتاب العربي، 1969).

[105] عرفان عبد الحميد، مرجع سابق، ص189-191.

[106] المرجع نفسه، ص193.

[107] عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ط2، ص124، و ص127. (اعتمد الباحث على الطبعة الأولى للكتاب المكونة من جزأين، لكنه اضطر أحياناً للرجوع للطبعة الثانية (ط2)، وهي مختصرة في كتاب واحد، وعندما لا يشير إلى ط2، فإن المقصود هو الطبعة الأولى من الكتاب).

[108] المرجع نفسه، ج1، ص229-230.

[109] المرجع نفسه، ج1، ص231.

[110] المرجع نفسه، ج1، ص231.

[111] المرجع نفسه، ط2، ص109.

[112] صالح محمود صالح، الإنسانية والصهيونية والتلمود (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1982)، ص16.

[113] المرجع نفسه، ص21.

[114] عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ط2، ص128-129.

[115] المرجع نفسه، ص116-117.

[116] المرجع نفسه، ص109.

[117] المرجع نفسه.

[118] المرجع نفسه، ج1، ص118-119.

[119] المرجع نفسه، ج1، ص215.

[120] المرجع نفسه، ج1، ص244.

[121] المرجع نفسه، ج1، ص246.

[122] نشر تصريح كلينتون هذا في الصحف، انظر: الخليج، 9 يناير 2001.

[123] المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص187.

[124] المرجع نفسه، ج1، ص213.

[125] المرجع نفسه، ج1، ص200، وانظر: Gideon Shimon, The Zionist Ideology (Hanover (U.S.A.) University Press of New England for Brandeis Studies, 1995), p.86.

[126] المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص201-202.

[127] المرجع نفسه، ج1، ص203-205.

[128] المرجع نفسه، ج1، ص207، وأحمد خليفة، "الأحزاب السياسية"، في دليل إسرائيل العام، ص157-159.

[129] المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص207، وأحمد خليفة، "الأحزاب السياسية"، في دليل إسرائيل العام، ص160-166.

[130] المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص209، وانظر أيضاً:

Shimoni, op.cit., p.120, and www.wzo.org.il./home/portrait/ahad

[131] المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص213.

[132] المرجع نفسه، ج1، ص212.

Central Bureau of statistics, Government of Israel, [133] in: www.cbs.gov.il/yarhon/bl_e.htm, and .www.cbs.gov.il/yahran/e2-e

وهي إحصائية تضم سكان القدس الشرقية (حوالي 200 ألف فلسطيني)، وسكان الجولان (حوالي 30 ألف سوري)، أي أن فلسطينيي الأرض المحتلة 1948 يبلغ عددهم نحو مليون و 200 ألف. وتشير تقديرات المخابرات الأمريكية إلى أن عدد السكان في منتصف سنة 2000 كان خمسة ملايين، و 843 ألفاً بينهم أربعة ملايين و 680 ألف يهودي، أي بنسبة 80.1% من السكان، انظر:

www.cia.gov/cia/publications/factbook/geos/is.html(CIA world fact book 2000)

[134] حول نظام الحكم في الكيان الإسرائيلي، انظر: إلياس شوفاني، "نظام الحكم"، في دليل إسرائيل العام، ص91-121.

[135] انظر: أحمد خليفة، "الأحزاب السياسية"، في دليل إسرائيل العام، ص126-129.

[136] المرجع نفسه، ص128-129.

[137] حول حزب العمل، انظر: المرجع نفسه، ص130-135، ونافذ حسنة، الأحزاب الصهيونية في 100 عام (إسلام أباد: معهد الدراسات السياسية، 1997)، ص21-55، ونرمين غوانمة، إسرائيل: الأحزاب السياسية وتطلعاتها (بيروت: الدار المتحدة للنشر، 1995) ص219-286.

[138] حول "ميرتس" والأحزاب المؤتلفة داخله، انظر: أحمد خليفة، "الأحزاب السياسية"، في دليل إسرائيل العام، ص135-141، ونافذ حسنة، مرجع سابق، ص55-57.

[139] حول "الليكود"، انظر: أحمد خليفة، "الأحزاب السياسية"، في دليل إسرائيل العام، ص141-146.

[140] حول الأحزاب اليمينية الصغيرة، انظر: المرجع نفسه، ص147-156.

[141] حول "المفدال"، انظر: المرجع نفسه، ص157-160.

[142] حول "أغودات إسرائيل"، انظر: المرجع نفسه، ص160-163.

[143] حول "شاس"، انظر: المرجع نفسه، ص164-166.

[144] حول الأحزاب العربية، انظر: المرجع نفسه، ص166-178، ونافذ حسنة، مرجع سابق، ص130-145.

[145] الجدول مركب من عدة مصادر، انظر حول انتخابات الكنيست الثالث عشر والرابع عشر وما قبلهما في: نافذ حسنة، مرجع سابق، ص68، و ص103، و 124، و ص145، و أحمد خليفة، "الأحزاب السياسية"، في دليل إسرائيل العام، ص1،و ص143-144، و ص160، و ص163، و ص166، و ص170، و ص172، و ص174. وغازي

السعدي، الأحزاب والحكم في إسرائيل (عمّان: دار الجليل، 1989)، ص90-91.

وحول انتخابات الكنيست الخامس عشر، انظر: فلسطين المسلمة، تموز (يوليو)، 1999، وانظر:

.www.agora.stm.it/elections/election /Israel

.www.cnn.com/WORLD/election.watch/meast/Israel

[146] .www.cbs.gov.il/yarhon/b1_e

[147] www.cbs.gov.it/yarhan/bl-e

[148] www.cia.gov/cia/publications/factbook/goes/is.html(CIA world fact book 2000)

[149] هاجر إلى الكيان الإسرائيلي منذ 1948 وحتى نهاية 1988 نحو مليون و 900 ألف، انظر، عمران أبو صبيح، مرجع سابق، ص19، وهاجر إليه منذ 1989 وحتى مايو 2000 مليون مهاجر آخر، انظر: الخليج، 8 مايو 2000.

[150] الخليج، 8 مايو 2000.

[151] .www.cbs.gov.il/yahran/e2-e

[152] :CIA world fact book 2000, in

www.cia.gov/cia/publications/factbook/geos/is.html

[153] Ibid

[154] Ibid

[155] .www.Palestine-info.org, 30 Apr. 2000

[156] :See: CIA world fact book 2000, in

www.cia.gov/cia/publications/factbook/geos/is.html

[157] Central Bureau of statistics, Government of Israel, Exports by Economic Activity, 8,7, in: www.cbs.gov.il/yarhon

[158] Ibid

[159] فضل النقيب، "الاقتصاد" في دليل إسرائيل العام، ص197.

[160] المرجع نفسه، ص205-206، ومحمد زهير دياب، "المؤسسة العسكرية"، في دليل إسرائيل العام، ص306.

[161] انظر: عبد الوهاب المسيري، "صناعة السلاح في التجمع الاستيطاني الصهيوني"، في الخليج، 12 يونيو 2000.

[162] :CIA world fact book 2000, in

www.cia.gov/cia/publications/factbook/geos/is.html

[163] انظر: محمد زهير دياب، "المؤسسة العسكرية"، في دليل إسرائيل العام، ص299-300.

[164] انظر المرجع نفسه، ص291-294.

[165] :CIA world fact book 2000, in

www.cia.gov/cia/publications/factbook/geos/is.html

[166] The Military Balance, 1998/99, International Institute for Strategic Studies, London.

[167]فضل النقيب، "الاقتصاد"، في دليل إسرائيل العام، ص204.

[168] محمد زهير دياب، "المؤسسة العسكرية"، في دليل إسرائيل العام، ص298-300.

[169] انظر: المرجع نفسه، ص300-305، وانظر: الخليج، 14-15 إبريل 2000. وحسب مجلس الدفاع عن الموارد الطبيعية في واشنطن، فإن "إسرائيل" تملك 290 رأساً نووياً، وتأتي خامساً بعد أمريكا وروسيا وفرنسا والصين، أما بريطانيا فلديها 200 رأس نووي فقط. انظر: مجلة الوسط، 29 نوفمبر 1993.

[170] نقلاً عن فلسطين المسلمة، أكتوبر 2000.

[171] انظر: السبيل، الأردن، 2 يناير 2001.

[172] انظر: محمد زهير دياب، "المؤسسة العسكرية"، في دليل إسرائيل العام، ص287.

[173] حول هذا التقسيم، انظر: عبد الوهاب المسيري، "يهود العالم"، في دليل إسرائيل العام، ص470-472.

[174] انظر حول الخزر أيضاً في: www.khazaria.com

[175] www.Britanica.com/bcom/article

[176] انظر: المسيري، "يهود العالم"، في دليل إسرائيل العام، ص 479، والموسوعة الفلسطينية، ج1، ص257-258.

[177] انظر الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص257-258، وانظر أيضاً:

www.media.be/cn, & www.Britanica.com/bcom/article

[178] المسيري، "يهود العالم"، في دليل إسرائيل العام، ص478-479، وخالد القشطيني، تكوين الصهيونية، ص98.

[179] www.cbs.gov.il/shnaton/st 02-3.g.f.

[180] انظر: المسيري، "يهود العالم"، في دليل إسرائيل العام، ص 482.

[181] حول الأسباب المشار إليها، انظر: المرجع نفسه، ص480-482.

[182] www.cbs.gov.il/s

[183] World Jewish Congress (WJC) (U.S.A.: Learner Publications, 1998), in www.us-israel.org/jsource/Judaism/Jew pop.html.

[184] http//boundaries.org/spring99/stats.htm.

[185] World Jewish Congress (WJC) (U.S.A.: Learner Publications, 1998), in www.us-israel.org/jsource/Judaism/Jew pop.html.

[186] سورة المائدة: 18.

[187] سورة الحشر: 14.

[188] سورة البقرة: 61.

[189] سورة البقرة: 96.

[190] سورة النساء: 57.

[191] سورة المائدة: 42.

[192] سورة المائدة: 64.

[193] سورة المائدة: 13.

[194] سورة الأعراف: 167.

[195] المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، ج1، ص89-116.

[196] جريدة الحياة، لندن، 8 أكتوبر 1996.

[197] حول "ثانياً"، انظر بالتفصيل في: ياسر زغيب، إيباك (بيروت: دار الندى، 1998). وانظر أيضاً: مجلة استراتيجيا، ديسمبر 1982، وجريدة القبس (الكويت)، 20 يوليو 1988.

[198] حول النفوذ الإعلامي اليهودي في أمريكا، انظر: زياد أبو غنيمة، السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، ط2 (عمان: دار عمار، 1989)، ص23-24، وص33-45، وص51-77. وجريدة العرب اليوم (الأردن)، 13 يونيو 1997.

[199] انظر: عبد الوهاب المسيري، "أسطورة الصوت اليهودي"، في القبس، 20 أكتوبر 1988.

[200] انظر: المجتمع، 7 ديسمبر 1996، وياسر زغيب، مرجع سابق، ص92-94، وجريدة القدس العربي، لندن، 5 يناير 1997.

[201] مجلة المجلة، 3 مارس 1996.

[202] نقل هذا التصريح في سياق الأخبار التي نُشرت في 20 مايو 2000 حول عزم جورج بوش الابن أن يخطب في ايباك في 22 مايو 2000، وأن يلتقي رئيس وزراء الكيان الصهيوني باراك، لتفادي ما حصل لأبيه عندما حاول الضغط على "إسرائيل". انظر:

www.Palestine-info.org/news, 20 May 2000

[203] انظر: عبد الله التل، الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، ط2 (بيروت: المكتب الإسلامي، دون تاريخ)، ص42-45.

[204] الدستور، 5 سبتمبر 1996.

[205] المرجع نفسه.

[206] مجلة الشراع (لبنان)، 28 نوفمبر 1988.

[207] الرأي، 26 أكتوبر 1996.

[208] الرأي، 31 أكتوبر 1996.

[209] انظر: زياد أبو غنيمة، مرجع سابق، ص25-32، وص68-69، وص 79-80، وص145-151.

[210] الرأي العام، 12 ديسمبر 1988.

[211] الرأي، 17 أغسطس 1996.

المقاومة المسلحة ضد المشروع الصهيوني والكيان الإسرائيلي 1920 - 2001

يستعرض هذا الفصل مجمل الانتفاضات والثورات والحروب ضد إقامة المشروع الصهيوني على أرض فلسطين. وقبل أن نشرع في ذكر التفصيلات، نضع للقارئ بعض الملامح العامة المتعلقة بالموضوع:

1. كان هناك وعي مبكر بخطورة المشروع الصهيوني، وكانت مقاومة هذا المشروع سياسياً أو عسكرياً قديمة قِدَم هذا الوعي، وقِدَم المشروع الصهيوني نفسه.

2. تـدرجت مقاومة المشـروع الصـهيوني قـوة (في أثنـاء الاحتلال البريطاني 1917 ـ 1948)، بحسب ازدياد الخطورة العملية لهذا المشروع من هجرةٍ يهودية واستيطان وبناءٍ للمؤسسات.

3. أثبت شعب فلسطين استعداده للتضحية والمبادرة والعطـاء، بل وفي أحيان عديدة كانت المبـادرة الشـعبية تفـرض نفسـها على القيادة السياسية، وتدفعها للجهـاد، وبعبـارة أخـرى فـإن شـعب فلسطين كان يقود قيادته نحو الثورة والمقاومة.

4. إن المشاركة العربية والإسلامية في الدفاع عن فلسطين كـانت محـدودة وضـعيفة، وارتبطت أساسا بثلاثة حـروب كبـيرة، أدّت اثنتـــــان منها إلى كـــــوارث حقيقيـــــة. ذلك أن البلاد العربية والإسـلامية كـانت تعـاني من الاسـتعمار ونفـوذه،كما عـانت بعد ذلك من قياداتها السياسـية، ومن السياسـات الإقليمية المحلية الــتي لا تعطي أولوية كــبرى للقضــية الفلســطينية، فضلا عن الخلافات والصراعات بين بلدان العرب والمسلمين.

5. إنه لم يحـــدث - حـــتى الآن - أن عُبِّئت طاقـــات الأمة العربية والإســـلامية بشـــكل وحـــدوي منهجي جـــاد متكامـــل، متسم بالاستمرارية، في مواجهة المشروع الصهيوني.

6. إنه منذ زيـارة أنـور السـادات للكيـان الصـهيوني في نوفمـبر 1977، وتوقيع اتفاقية تسـوية سـلمية مع الكيـان الصـهيوني (كـامب ديفيد سـبتمبر 1978)، فـإن محاربة الـدول العربية والإسلامية ومقاومتها للمشـروع الصـهيوني قد فقـدت زخمهـا، وأخذت تعاني من التفسخ والضعف.

7. إن الاتجاهات والحركات الإسلامية التي كان لها دور مشهود في المقاومة في النصف الأول من القـرن العشـرين، عـادت لتلعب دورها المتميز من جديد في عقدي الثمانينات والتسعينيات. لكن دورها ظل شـعبياً بشـكل أساسـي، لأنها لم تنجح في الوصـول إلى القيـادة السياسـية، وخصوصا على السـاحة الفلسـطينية، وفي دول الطوق.

8. إن جذوة المقاومة المسلحة لم تنقطع على الإطلاق منذ البداية وحـتى الآن، وإن اتخـذت أشـكالاً وحركـاتٍ واتجاهـاتٍ مختلفـة. وكان هناك دائما من يصوب البندقية على المشروع الصـهيوني، أو على الأقل من يعد بندقيته لذلك.

المقاومة في أثناء الاحتلال البريطاني لفلسطين 1917 - 1948

ترجع أولى علامـات المقاومة الفلسـطينية المسـلّحة إلى سـنة 1886 (أي قبل الاحتلال البريطـاني بـ31 عامـاً)، عنـدما هـاجم الفلاحـون المطـرودون من الخضـيرة وملبس (بتـاح تكفـا) اليهـود في قـراهم المغتصبة التي أُجْلُوا عنها رغمـاً عنهم، بعد أن اشـتراها المسـتوطنون اليهـود من ملاك كبـار. وقد دفع ذلك السـلطات العثمانية إلى فـرض قيود مشددة على الهجرة والاستيطان اليهودي. وتزايد بعد ذلك الوعي بمخاطر المشروع الصهيوني، فقد احتج وجهاء القدس المسـلمين ضد رشـاد باشا متصـرف القـدس في مـايو 1890 عنـدما أبـدى محابـاة للصهاينة، وقدموا عريضة لـرئيس وزراء الدولة العثمانية في 24 يونيو 1891 طالبوا فيها بمنع هجرة اليهود الـروس إلى فلسـطين، وتحـريم استملاكهم للأراضي فيها. وكان لكتابـات وأنشـطة المصـلح الإسـلامي الشـيخ محمد رشـيد رضا والسياسي الفلسـطيني يوسف الخالـدي ومفتي القدس محمد طاهر الحسيني، وممثلي منـاطق فلسـطين في

البرلمان العثماني أمثال روحي الخالدي وسعيد الحسيني، وصحف الكرمل وفلسطين والمنادي وغيرها، كان لها أدوار في زيادة الوعي، وتعبئة الجماهير ضد المشروع الصهيوني، قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914.[1]

احتل البريطانيون سنجق القدس (جنوب ووسط فلسطين) في ديسمبر 1917، وأكملوا احتلال شمال فلسطين في سبتمبر 1918. ولكنهم دخلوا فلسطين كقوة حليفة للثورة العربية التي قادها الشريف حسين، ولذلك لم يَلْقوا مقاومةً من أبناء فلسطين، على اعتبار وعودهم للعرب بالحرية والاستقلال. لكن تَنكُّرِ بريطانيا لعهودها، وإعطائها وعد "بلفور" لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين، فَتحَ الباب عريضاً لمقاومة المشروع الصهيوني والاستعمار البريطاني. غير أن الفترة 1917 ـ 1929 اتسمت بتبنِّي قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية للمقاومة السياسية السلمية، لأن المشروع الصهيوني لم يأخذ أبعاداً خطيرة بَعدُ (كان اليهود 8% من السكان سنة 1918، ويملكون 2% فقط من أرض فلسطين)، ولأنه كان لا يزال هناك أمل بأن تَعدِل بريطانيا عن موقفها (أقرت عصبة الأمم رسميا الانتداب البريطاني على فلسطين سنة 1922)، فضلا عن ضعف الفلسطينيين، وقلة خبرتهم في مواجهة بريطانيا "العظمي"، التي كانت أكبر قوة استعمارية في العالم.

كانت أولى بوادر مقاومة المشروع الصهيوني إنشاء جمعية "الفدائية" أوائل 1919 وقد تكونت لها فروع في يافا والقدس وغزة ونابلس وطولكرم والرملة والخليل، وتولى زعامتها في البداية محمد الدباغ، ثم محمود عزيز الخالدي، واستمرت بأشكالَ مختلفةٍ حتى سنة 1923. وكان من الشخصيات الموجهة لها في الخفاء الشيخ سعيد الخطيب، والحاج أمين الحسيني، والشيخ حسن أبو السعود، والشيخ محمد يوسف العلمي. ونشطت في تجنيد الأعضاء وسط الجندرمة والشرطة الفلسطينية. ورغم أنه تم القبض على كثير من عناصرها، إلا أنه يظهر أن أفرادها شكَّلوا عناصر تحريض مهمة في انتفاضة موسم النبي موسى في القدس في أبريل سنة 1920.[2]

وخلال الفترة ديسمبر 1919 ـ مارس1920، وقعت هجمات عربية على المستعمرات اليهودية في الجليل الأعلى حيث دُمِّرت مستعمرات المطلة وتل حاي وكفر جلعادي، واضطر اليهود للفرار.[3]

انتفاضة موسم النبي موسى، القدس أبريل 1920:

تعد هذه الانتفاضة أولى الانتفاضات الشعبية في فلسطين، وقد حدثت الشرارة الأولى لهذه الانتفاضة بينما كانت وفود القرى محتشدة في القدس يوم 4 أبريل 1920 للمشاركة في هذا الموسم الديني السنوي.وقد خطب في هذه الحشود عدد من رجالات فلسطين مثل موسى كاظم الحسيني والحاج أمين الحسيني وعارف العارف ... فألهبوا حماس الجماهير. وفي هذه الأثناء، يظهر أن أحد اليهود قد أهان العلم الإسلامي لأهل الخليل، وقام بتلويثه، فهاجمه المتظاهرون وضربوه. ثم تفجر الموقف واتسعت الاشتباكات لتشمل مدينة القدس، وفرضت السلطات البريطانية الأحكام العرفية، وحاولت السيطرة على الوضع،لكن ذيول الأحدث استمرت حتى 10 أبريل 1920.[4]

أسـفرت هـذه الانتفاضة عن مقتل خمسة يهـود وجـرح 211 آخـرين بينهم 18 إصابة خطيرة. أما من العرب فقد استشـهد أربعة وجـرح 24 آخرين، كما جرح سبعة جنود بريطانيين.[5]

ورغم أن هـذه الانتفاضة بـدت انفعـالاً عفويـاً، إلا أنه من الواضح أن عدداً من القيادات الوطنية والجمعيات والمنظمـات الـتي يقودونها قد قامت بدور تحريضي، ونسّقت بشكل منظم الهجمات ضد اليهود. وكان للحاج أمين الحسيني دور بارز في ذلك، حيث ذكر أحد معاصريه (عجاج نـويهض) أنه "في موسم النـبي موسى كـان للحـاج أمين اليد المـدبرة الحكيمة في إعطـاء اليهـود أول درس"؛ وقد حُكم على الحـاج أمين وعلى عارف العارف، بعد أن اسـتطاعا الهـرب، بالسـجن غيابيـاً لمـدة عشر سنوات، لكن المندوب "السامي" البريطـاني أصـدر عفـواً عنهما بعد ذلـك، في محاولة لتهدئة الأوضـاع. وإثر هـذه الانتفاضة قـامت السـلطات البريطانية بإقالة موسى كـاظم الحسـيني من رئاسة بلدية القـدس، حيث تفـرغ لقيـادة الحركة الوطنية الفلسـطينية حـتى وفاته سـنة 1934، وقد عيَّنت مكانه راغب النشاشـيبي في رئاسة البلديـة، لتلعب منذ ذلك الـوقت ورقة الصـراع العـائلي (حسـينية ونشاشـيبية)، والتي انعكست سلباً على حركة المقاومة طوال الاحتلال البريطاني.[6]

انتفاضة يافا: مايو 1921

عاش شـعب فلسـطين أجـواء من الغضب وخيبة الأمل إثر زيـارة وزير المسـتعمرات البريطـاني ونسـتون تشرشل إلى فلسـطين في 28 مارس 1921، والذي أكد بشكل قـاطع دعم بريطانيا للـوطن القـومي اليهودي، وكان لقاؤه بالوفد العربي الفلسطيني في القـاهرة في 22 مارس، وفي القدس في 28 مارس مخيباً للآمال. كما قمعت الشـرطة بعنف مظاهرة قامت في حيفا في 28 مارس وقتلت اثنين من العرب، ومنعت المظاهرات ... مما أثار جواً من التوتر.[7]

وقد وقعت شـرارة الانتفاضة عنـدما اعتـدت مجموعة من الشـيوعيين اليهود ــ المحتفلين بعيد العمـال في أول مـايو1921 على المسـلمين القـاطنين في حي المنشـية في يافا وحـدث إطلاق نـار على المـارة العـرب، صـدر - على ما يبـدو - من منـزل للمهـاجرين اليهـود شـرقي شـارع العجمي. فهـاجم العـرب منـزل المهـاجرين اليهـود وقتلـوا 13 يهوديـاً وجرحـوا 24 آخـرين من أصل مائة يقيمـون فيه معظمهم من الشـباب. ثم اتسـعت الاشـتباكات والأحـداث لتغطي أجـزاء عديـدة من شمال فلسطين، ولتستمر جذوتها حتى منتصف مايو1921.[8]

واستفاد اليهود من وجود أفراد الكتيبة اليهودية الذين تسلموا البنـادق بحجة الدفاع عن تل أبيب، لكنهم ما لبثوا أن تسـرّبوا منها إلى شـوارع وأسواق يافا وأخـذوا يطلقـون النـار على العـرب وهم يلبسـون الـزي العسـكري البريطـاني. وتظـاهر أهل يافا مطـالبين السـلطات بـإحلال جنود هنود مكان البريطانيين لأن العـرب لا يسـتطيعون التفريق بينهم وبين اليهود، وقد استجابت السلطات جُزئياً لطلبهم.[9]

ومع اتسـاع الانتفاضة خـارج يافـا، قـام ثلاثة آلاف عـربي بمهاجمة مستعمرة بتاح تكفا، وقد تصدت لهم قوة بريطانية من فوج الفرسـان الهنـدي الثـامن وسـاعدها الطـيران البريطـاني الـذي قـام بقصف المهاجمين وقد فقد العـرب في هـذا الهجـوم 28 شـهيداً و15 جريحـاً وفقد اليهود 4 قتلى و12 جريحا.[10] وفي يوم 6 مايو هـاجم حـوالي 400 عربي مستعمرة الخضيرة وأحرقوا منـزلين، وكان يمكن أن تـدمر المستعمرة لولا تدخل الطـيران البريطـاني، الـذي قصـفهم وأجـبرهم على الانسـحاب.[11] وفي اليـوم نفسـه، هـاجم حـوالي 600 عـربي

مستعمرة رحوبوت، لكن الجيش البريطاني استطاع الوصول في الوقت المناسب، والدفاع عنها. كما هاجم العرب مستعمرتي كفر سابا وعين حاي (اللتين هرب أهلهما إلى بتاح تكفا)، وأوقعوا فيهما الكثير من الدمار.[12]

ومن جهة أخرى، قام اليهود بأسر العرب الموجودين عندهم في مستعمرة بتاح تكفا وقتلوا خمسين مسلماً. ووجد بين القتلى المسلمين من قُتل حرقاً بماء الفضة، وبالآلات القاطعة، ومن شُوِّه وعذب قبل قتله، وكان بين الشهداء أطفال ونساء وبنات هتكت أعراضهن وبقرت بطونهن، وجُرِّدن من ملابسهن، وبلغت هذه الأخبار حد التواتر وثبتت بتقارير الأطباء.[13]

وحسب الإحصاءات الرسمية البريطانية قتل من اليهود 47 وجرح 146، وقتل من العرب 48 وجرح 73.[14] ويبدو أن هذه الأرقام أقل من العدد الحقيقي، ففي اليومين الأولين فقط قُتل من اليهود 40 وجرح 130، كما يظهر أن الإحصائية لم تشمل الشهداء العرب الخمسين الذين قُتلوا في مستعمرة بتاح تكفا. وربما انفرد سامي الجندي بذكر أن شهداء العرب بلغوا 157 وأن جرحاهم وصلوا إلى 705، وأن قتلى اليهود وجرحاهم يزيد عن ذلك.[15] وقد اعترف تقرير اللجنة الملكية البريطانية أن معظم الإصابات وسط العرب كانت على أيدي القوات البريطانية.[16] وذكر تقرير بريطاني آخر أن معظم إصاباتهم كانت برصاص البريطانيين أو اليهود، وأن معظم إصابات اليهود كانت بالسكاكين والعصي على أيدي العرب.[17]

وقد ظهر أيضاً الأداء المتحيز للسلطات البريطانية من خلال الإجراءات القضائية التي اتخذها النائب العام "نورمان بنتويش" - وهو بريطاني يهودي صهيوني كان يتولى أمور القضاء والعدالة في فلسطين - حيث أحال القضايا المتعلقة بالفظائع التي ارتكبها الصهاينة إلى المحاكم كقضايا شخصية بسيطة.[18]

وكان يمكن لهذه الانتفاضة أن تتفاعل وتتسع لولا أن موقف الزعامات السياسية الفلسطينية مال إلى تهدئة الوضع. وقام عدد من الوجهاء ورؤساء البلديات بتهدئة الجماهير. وقدَّرت السلطات البريطانية "خدمات" رؤساء بلديات القدس وطولكرم ويافا وقاضي القدس ومفتيا عكا وصفد فمنحتهم وسام عضو الإمبراطورية M.B.E. وحتى موسى كاظم - رئيس اللجنة التنفيذية التي تُمثل قيادة الحركة الوطنية- قام بنفسه بجولة لتهدئة الوضع، لأن القيادة كانت لا تزال تأمل بحل سياسي، ولم تكن في وضع يؤهلها لأي عمل ثوري.[19]

ومن جهتها، قامت السلطات بعمل استرضائي، إذ أوقفت الهجرة اليهودية مؤقتاً اعتباراً من 14مايو1921. وألقى المندوب السامي هربرت صمويل بيانا في 3 يونيو 1921 ذكر فيه أن بريطانيا لن تفرض على شعب فلسطين سياسة تجعلهم يعتقدون أنها مناقضة لمصالحهم الدينية والسياسية والاقتصادية.[20] وقد نشر هذا جواً من الارتياح في الوسط العربي، غير أنه لم يكن عملياً سوى وسيلة لتهدئة الأمور وترتيب الأوضاع، ليمضي المشروع الصهيوني بوسائل أكثر احترافاً ونجاحاً. وقد اعترف السكرتير العام للحكومة "ديدز" أن الغالبية العربية شعرت بعد ذلك بأشهر بأن الحكومة البريطانية "مقيدة اليد والقدم"، وأن هذا البيان مجرد ذرٍّ للرماد في العيون، وأن الشقة قد اتسعت بين العرب والإدارة البريطانية، التي أصبحوا يرونها والصهيونية شيئاً واحداً.[21]

ثورة البراق: أغسطس 1929

لم تحدث ثـورات على مـدى واسع بعد ثـورة يافا وحـتى ثـورة الـبراق. ولكن حدثت بعض الأحداث المتفرقة مثل مظـاهرة القـدس في ذكـرى وعد بلفــور في 2نوفمــبر1921، الــتي أدت إلى مقتل خمسة يهــود واستشـهاد ثلاثة من العـرب وإصـابة 36 من الطـرفين.[22] وفي 20 مـارس 1924، كـان اليهـود يحتفلـون بعيد المسـاخر، وأشـركوا في مساخرهم زي العلمـاء المسـلمين مما أثـار حفيظة المسـلمين، فقُتل يهودي وآخر مسلم، وجرح يهودي واثنان من المسلمين.[23] وفي 25 مارس 1925 أضربت فلسطين إضرابا شاملا بمناسبة زيارة بلفور إلى فلسطين.[24] وكان من أسباب حالة الهدوء خلال 1922-1928 تراجع معـدلات الهجـرة اليهوديـة، وحالة الانقسـام والتفكك الـتي شـهدتها الحركة الوطنية الفلسطينية.

وحائط البراق هو الحائط الغـربي للمسـجد الأقصـى، ويسـميه اليهـود حائط المبكى، وكان المسلمون يسمحون لليهود بزيـارة المكـان الـذي هو وقف إسـلامي من بـاب التسـامح الـديني. وقد حـدث أول تصـعيد خطير بشأن حائط البراق في 23 سـبتمبر 1928 عنـدما حـاول اليهـود تغيـــير حالة الأمر الواقـــع، وتحويل المكـــان إلى ما يشـــبه الكـــنيس اليهودي. فأسس المسلمون في 30 سبتمبر "لجنة الـدفاع عن الـبراق الشريف". وعقدوا في القدس مؤتمراً إسـلامياً في الأول من نوفمـبر 1928، حضرته وفود من الأردن والعراق ولبنان وسوريا والهند، وقرر المؤتمر تشكيل "جمعية حراسة المسـجد الأقصى والأمـاكن الإسـلامية المقدسة".[25]

ثم حدث تصـعيد يهـودي آخر في 15أغسـطس1929 حيث نظم اليهـود مظـاهرات في القـدس اتجهت إلى حائط الـبراق وهنـاك رفعـوا العلم الصهيوني، وأنشدوا نشيدهم الوطني، وشتم خطبـاؤهم رسـول الله r والإسلام والمسـلمين. وقـام المسـلمون في اليـوم التـالي بمظـاهرة مضادة من المسجد الأقصى. وحدث شجار بين العرب واليهــود في 17 أغسـطس زاد الأوضـاع تـوتراً. ثم وقعت صـدامات واسـعة بعد صـلاة الجمعة يوم 22 أغسطس في القدس. ولم تكد أخبـار هـذه الصـدامات تصل إلى النــاس حــتى عمت المظــاهرات والصــدامات جميع أنحــاء فلسطين واستمرت بشكل عـنيف أسـبوعاً كـاملا، غـير أن جـذوتها لم تنطفئ إلاّ بعد أيام أخرى تالية.[26]

وفي 24 أغســطس قــام العــرب في الخليل بمهاجمة الحي اليهــودي فقتلـوا أكـثر من سـتين يهوديـاً وجرحـوا أكـثر من خمسـين آخـرين، وتمكنت الشـــرطة من الحـــؤول دون وقـــوع مذبحة هائلة لليهـــود، فاصطدمت بالمتظـاهرين،[27] وذُكر أنها قتلت عشـرة منهم وجـرحت آخرين.[28] وفي يوم 29 أغسطس هـاجم العـرب الحي اليهـودي في صـفد فقتلـوا عشـرين وجرحـوا 25 آخـرين.[29] وفي الفـترة من 24 أغسـطس وحـتى 2 سـبتمبر هـاجم العـرب الكثـير من المسـتعمرات اليهوديـة، ودمـروا سـتة منها تـدميراً كـاملاً. وهـوجم اليهـود في يافا وبيسان. وتحولت فلسطين إلى سـاحة قتـال، ولم تسـتطع السـلطات البريطانية الإمساك بزمام الأمور إلاّ في 28 أغسطس، عنـدما اكتملت التعزيزات العسكرية.[30]

أسـفرت هـذه الثـورة عن مقتل 133 يهوديـاً وجـرح 339 آخـرين، معظمهم أصيب على أيـدي العـرب. واستشـهد من العـرب 116 وجـرح 232 معظمهم على يد الشـــرطة والجيش البريطـــاني.[31] وكـــانت الإصـابات بين البريطـانيين نـادرة جـداً، لأن الثـورة كـانت موجهة ضد اليهود فقط. وقد سِيق إلى المحاكمة حوالي 1300 شخص 90% منهم

من العــرب.[32] واتهم العــرب مــرة أخــرى مســؤول "العدالــة" في فلسطين اليهودي "بنتويش" بالظلم والتحيز الفاضح. وذكـروا أنه أخذ يتهم العرب بالعشرات، ويُفرج عن اليهـود حـتى القتلة بكفالة وبـدون كفالة، وأنه أفرج عن مجرم يهودي متهم بقتل أربعة من العرب، أحرق أحـدهم حرقـاً.[33] وقد جـرت محاولة لاغتيـال بنتـويش، أصـيب على إثرها في فخـذه، ثم إن السـلطات البريطانية أعفته من منصـبه سـنة 1931.[34] وقد نفذت السلطات البريطانية ثلاثة أحكام بالإعـدام على ثلاثة من العرب هم عطا الزير، ومحمد جمجوم، وفـؤاد حجـازي. وكـان استشـهادهم في 17يونيو1930، يومـاً مشـهوداً في تـاريخ فلسـطين عـرف بــ"الثلاثــاء الحمـراء". وقد أبـدى الثلاثة ضـروباً من الشـجاعة والثبات عند التقدم إلى حبل المشـنقة، وطلب الزير وجمجـوم "حنـاء" ليخضـــبوا أيـــديهما، وهي عــــادة عربية في منطقتهما للدلالة على الاغتباط بالموت، وأنشدوا وأنشد أهل فلسطين معهم:

إننا نهـــــــــوى الظلاما	يا ظلام الســجن خيِّم
نـــــــــور فجر يتســـــامى[35]	ليس بعد الليل إلاّ

كـانت هـذه الثـورة أولى الثـورات الـتي تشـمل كل فلسـطين، لكنها اسـتهدفت كسـابقتيها اليهـود فقط وليس البريطـانيين، حيث كـان لا يـــزال بعض الأمل في أن يغـــير البريطـــانيون مــــواقفهم. ولكن الفلسطينيين أدركـوا تمامـاً بعد هـذه الثـورة أن المشـروع الصـهيوني تحميه الحراب البريطانية، وأن صـراعهم يجب أن يوجه بالدرجة الأولى ضد بريطانيا نفسها.

وقد اتخذت هذه الثورة بُعداً إسلامياً واضحاً من خلال سعي المسـلمين للدفاع عن حرمة المسجد الأقصى وحقهم في حائط الـبراق. كما ثبت بعد ذلك أن الحـاج أمين الحسـيني (مفـتي فلسـطين ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى) كان وراء التخطيط والإعداد السـري لهـذه الثـورة.[36]

ثورة الكف الأخضر: 1929 ـ 1930

كـانت الكف الأخضر هي أولى المجموعـات الثورية ظهـوراً بعد ثــورة البراق. وقد تركز نشاطها في شمال فلسطين وخصوصاً في قضــاءي صفد وعكا. وبدأت هذه المجموعة بـ 27 رجلاً من الثوار الذين شــاركوا في ثورة البراق، والذين هربوا من قبضة السلطات الأمنية. وقد انضم إليهم عشرات آخـرين ليصل عـددهم إلى نحو ثمـانين رجلاً، وقد لاقـوا تعاطفا واســعا من الســكان. وقــامت هــذه المجموعة بهجمــات على اليهود وضد الشرطة، ونشـطت خلال الفـترة من أكتـوبر إلى ديسـمبر 1929. وقد تولى قيادتها أحمد طافش.

وقد قــامت الســلطات البريطانية بعمليــات مسح شــاملة، وبتســـيير الــدوريات الراجلــة، وتفــتيش القــرى، وقــام الطــيران البريطــاني بالمساعدة في عمليات المسح الجـوي. كما تم التعـاون مع السـلطات الفرنسـية وقـوات حـدود شـرق الأردن في عمليـات الملاحقـة، الـتي استمرت بشكل مكثف طوال شهري يناير وفـبراير 1935. وتمكنت من القبض على أحمد طافش في شرق الأردن في 27 يناير 1930.

ولم تستطع هذه المجموعة الثورية من الاستمرار بسبب ما تعرضت له من حملات، ولأن الزعامات السياسية الفلسطينية لم تتبن أسلوبها في العمل، ولم تدعمها، ولم تتعاون معها.[37]

انتفاضة أكتوبر 1933:

أخذت الهجرة اليهودية تتزايد بشكل خطير منذ مطلع الثلاثينيات، ونشطت الحركة السياسية الفلسطينية، وتزايد الوعي بأن بريطانيا هي "أصل الداء وسبب البلاء"، حيث تأكد للفلسطينيين أن مشكلتهم هي أساساً مع بريطانيا، وركَّزت على ذلك حملات حزب الاستقلال وجمعيات الشبان المسلمين. وطالبت اللجنة التنفيذية العربية-التي تمثل العرب الفلسطينيين سياسياً - بوقف الهجرة، وهدّدت بتبني سياسة اللاتعاون مع السلطات. وعندما رفضت السلطات البريطانية الطلب، قررت اللجنة تصعيد الموقف بتسيير المظاهرات دون إذن السلطات. وقررت الإضراب العام في فلسطين يوم 13 أكتوبر 1933، وإقامة مظاهرة كبرى في القدس، بحيث تتوالى بعد ذلك المظاهرات في مدن وقرى فلسطين، وتُضرب البلاد في كل مرة تحدث فيها المظاهرات. وألزمت اللجنة التنفيذية أعضاءها بتقدم المسيرات، وأصدرت بياناً أكدت فيه أن"عرب فلسطين قد يئسوا يأساً تاماً من الحكومة، فهم لا يخاطبونها في شيء، ولا يطلبون منها شيئاً".[38]

وفي يوم 13 أكتوبر أضربت فلسطين وخرجت مظاهرة كبيرة من المسجد الأقصى بقيادة اللجنة التنفيذية، وقامت الشرطة بتفريق المتظاهرين بالقوة مما أدى إلى وقوع 11 جريحاً بينهم خمسة من الشرطة.[39]

وفي يوم 27 أكتوبر عمّ الإضراب فلسطين، وخرجت مظاهرة كبيرة في يافا بعد صلاة الجمعة بقيادة اللجنة التنفيذية، وحاولت الشرطة تفريق المتظاهرين، إلا أن الأمر تحوّل إلى مواجهاتٍ عنيفةٍ، أدّت - حسب المصادر البريطانية - إلى مقتل 14 عربياً بالرصاص وجرح العشرات. بينما ذكر بيان اللجنة التنفيذية أن ثلاثين قد قتلوا وجرح مائتين. واعتقلت السلطات 12 من القادة الفلسطينيين، بينهم ثلاث أعضاء في اللجنة التنفيذية، وأصيب موسى كاظم الحسيني -رئيس اللجنة- بكدمات، وذُكر أنه تُوفي متأثراً بهذه الإصابة في مارس 1934.[40]

وقد أحدثت "مجزرة يافا" ردود فعل غاضبة، فقامت مظاهرات عنيفة في مدن فلسطين، واستمر الإضراب العام أسبوعاً كاملاً. وحدثت مواجهات مع الشرطة في حيفا ونابلس والقدس. وحسب الإحصاءات العربية فقد استشهد في القدس ويافا وحدهما 35 وجرح 255.[41] أما المصادر البريطانية فأشارت إلى استشهاد ما مجموعه 26 عربياً وجرح 187 آخرين، بينما قتل شرطي واحد.[42]

وكان من الواضح أن مشاعر العداء ضد بريطانيا قد وصلت حداً كبيراً، وكانت هذه أولى المواجهات العامة الموجهة مباشرة ضد بريطانيا وسياستها. وقد حاول المندوب "السامي" البريطاني تهدئة الوضع قُبيل أحداث يافا عندما اجتمع باللجنة التنفيذية في 25 أكتوبر، لكن أحد أعضائها نقل له طلب كثير من الناس أن يخبروه أنه "ليس لدينا ما نخسره، لقد فقدنا الثقة بالحكومة، لقد فقدنا أرضنا، فقدنا كل شيء، ولن نبالي بما سيحدث لنا".[43]


عبد القادر الحسيني


الشيخ عز الدين القسام


الحاج أمين الحسيني

استشهاد الشيخ عز الدين القسام: نوفمبر 1935

نتحدث في مكـان آخر من هـذا الكتـاب عن جماعة القسـام"الجهاديـة" ودورها، غير أننا نكتفي هنا بالتركيز على إعلان الشيخ القسام الثـورة في فلسـطين. فبعد نحو عشر سـنوات من التنظيم والإعـداد السـري الجهادي، قـرر الشـيخ القسـام إعلان الثـورة في نوفمـبر 1935. وقد توافق ذلك مع الازديـــاد الهائل في الهجـــرة اليهودية والاســـتيطان، وتهريب اليهود للسلاح بكميات ضـخمة، فضـلاً عن ازديـاد الرقابة على القســام ورفاقـه. وتلخصت خطة القســام في الخــروج إلى القــرى، وحضّ الناس على شراء السلاح، والاستعداد للثورة. وقد خرج القسـام مجاهداً في الجبـال في شـمال فلسـطين مع نفر من أصـحابه، بعد أن بـاع بيتـه، وبعد أن بـاع أصـحابه حلي زوجـاتهم وبعض أثـاث بيـوتهم، ليشتروا بها البنادق والرصاص.

وقد فقد القسام وإخوانه عنصر المباغتة عندما كُشف أمرهم ومكانهم قبل أوانـه، حيث كـانوا يخططـون للهجـوم على إحـدى المسـتعمرات اليهودية "بيت ألفـا". وبعد فجر يـوم20نوفمـبر1935، طَـوّقت قـوات كبيرة من الشرطة تقدر ب400 رجل - مُعظمُهم من الإنجليز - القسامَ وعشرةً من إخوانـه، في أحـراش بلـدة يعبـد، واسـتمرت المعركة أربع ساعات ونصف. وحسب المصادر العربية فإن البريطـانيين خسـروا 15 رجلاً، لكن التقـارير البريطانية تشـير إلى مقتل شـرطي واحد وجـرح آخر. وقد استشهد في هذه المعركة الشيخ القسـام نفسه واثنـان من رفاقه، كما قُبض على ستة آخرين.[44]

ولا تنبع أهمية الحادثة من الاشـــــــتباك نفسه أو من عـــــــدد القتلى والجـرحى، وإنما من أن استشـهاد القسـام قـدم نموذجـاً عمليـاً في التضحية والفـداء لأحد كبـار العلمـاء في فلسـطين. وكـان استشـهاده علامة فارقة في تاريخ فلسطين الحـديث، وأحـدث تَغيّـراً أساسـياً في مسار الحركة الوطنية الفلسـطينية. إذ أنه كـرس البـديل الجهـادي بعد سـنوات من العمل السياسي غـير المجـدي. وألهبت حركته وتضـحيته الحماس "وصارت مثلاً رائعاً للجرأة والجهاد العلني ضد الإنجليز"،[45] "وقامت البلد وقعدت، واهتزت أيما اهتزاز، وزُلزلت أيما زلـزال".[46] وأطلق شعب فلسطين على القسـام لقب "أبو الوطنيـة".[47] وكـان القسـام محقـاً قبل استشـهاده، عنـدما قـال قبل ابتـداء المعركة أنه وإخوانه عبـارة عن عـود ثقـاب "كـبريت" سيشـعل الثـورة في البلاد. فاستشـهاد القسـام لم يكن نهاية حركتـه، بل بداية الثـورة.[48] وقد شارك في جنازة القسام ثلاثون ألفا من مختلف أرجاء فلسطين، وبلغ حماس الجماهير مداه وترددت صيحاتها بالانتقام.[49]

الثورة الفلسطينية الكبرى 1936- 1939:

تعد هـذه الثـورة من أعظم الثـورات في تـاريخ فلسـطين في القـرن العشرين وقد عبّـرت عن روح التضـحية والفـداء والمصـابرة والإصـرار على الحقوق التي تميز بها أبنـاء فلسـطين. وتمكنت هـذه الثـورة في بعض مراحلها من الســـــــيطرة على كل الريف الفلســـــــطيني، بل والسـيطرة على عـدد من المـدن، بينما انكفـأت السـلطات البريطانية في بعض المدن المهمة. وقدّمت هذه الثورة نموذجاً عالمياً هو أطـول إضراب يقوم به شعب كامل عبر التاريخ حيث استمر 178 يومـا. وربما لو كـــان الأمر مقتصـــرا على الصـــراع بين شـــعب فلســـطين وبين الاســتعمار البريطــاني لنــالت فلســطين حريتها واســتقلالها منذ تلك الثورة، إذا ما قارنا هذه الثورة بثورات الشعوب التي نالت اســتقلالها. ولكن وجود العامل اليهودي-الصهيوني وتأثيره القوي داخل فلســطين وفي بريطانيا والدول الكبرى جعل الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً، وفـرض أن تتسع دائرة مشروع التحرير إلى الدائرة العربية والإسلامية.

وتنقسم الثـــورة إلى مرحلـــتين، كـــانت بينهما مرحلة توقف أشـــبه "بالهدنة المسلحة" المشوبة بالتوتر.

المرحلة الأولى من الثورة: أبريل - أكتوبر 1936

لم تُلق جماعة "الجهادية" (القساميون) السلاح بعد استشـهاد قائـدها، فقامت باختيار قائد جديد هو الشيخ فرحان السعدي - على الـرغم من كونه في الخامسة والسـبعين من عمـره - إلا أنه كـان لا يـزال مقـاتلاً صلباً نشطاً مشهوراً بدقته في إصابة الهدف. وقد عملت هذه الجماعة على تهيئة الظروف لانطلاقة أقوى وأوسع.

وقد تفجّـرت الشـرارة الأولى للثـورة الكـبرى في فلسـطين يـوم 15 أبريل 1936، عنـدما قـامت مجموعة قسـامية بقيـادة الشـيخ فرحـان السـعدي بقتل اثـنين من اليهـود وجـرح ثـالث على طريق نـابلس-طولكرم. وقد ردّ اليهود باغتيال اثنين من العرب في اليوم التـالي، ثم حـدثت صـدامات واسـعة بين العـرب واليهـود في منطقة يافا يـوم 19أبريل أدت إلى مقتل تسعة يهود وجرح 45 آخرين،وقتل من العـرب اثنان وجرح 28.[50] وساد البلاد جو شديد من التـوتر، أعلنت الحكومة

على إثره منع التجول في يافا وتل أبيب كما أعلنت حالة الطوارئ في كل فلسطين.[51]

وفي 20 أبريل شُكِّلت في نابلس لجنة قومية غير حزبية، كـان وقودها الدافع مجموعة من الشبان المثقفين في مقدمتهم أكرم زعيـتر. وقد دعت اللجنة إلى الإضراب العام في فلسطين، على أن يسـتمر إلى أن تعلن الحكومة البريطانية استجابتها للمطالب الوطنيـة.[52] وقد لقي الإضراب استجابة واسعة، وتشـكلت لجـان قومية في أنحـاء فلسـطين لتأمين الإضراب وإنجاحـه، وتجـاوبت الأحـزاب العربية الفلسـطينية مع الإضراب وأيدته. ثم ما لبثت-تحت الضغط الشعبي- أن وحـدت القيـادة الفلسطينية بتشكيل "اللجنة العربية العليا" في 25 أبريل والتي وافق الحاج أمين الحسيني على رئاستها. وهكذا نزل الحـاج أمين لأول مـرة منذ 16 عاما إلى ميـدان المعارضة المكشـوفة للسـلطات البريطانيـة. وقد قررت اللجنة العليا الاستمرار في الإضراب، وأكـدت على مطـالب الشعب الفلسطيني المعروفة بإيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسـطين، ومنع انتقـــال الأراضي العربية إلى اليهـــود، وإنشـــاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي.[53]

وهكذا، دخلت فلسطين في إضراب شامل استمر ستة أشهر، وأصيبت فيه مظاهر العمل والنشاط التجـاري والصـناعي والتعليمي والـزراعي والمواصلات في جميع المدن والقـرى بالشـلل.[54] وقد زاد من حـدة الإضراب تبنّي الفلسطينيين سياسة "العصيان المدني" بتنفيذ الامتناع عن دفع الضرائب اعتباراً من 15 مـايو.[55] وأخذ الوضع الفلسـطيني يأخذ شكل الثورة الشاملة مع مرور الـوقت، فأخـذت العمليـات الثورية المسلحة التي بدأت محدودة متفرقة-في الانتشار والتوسع حتى عمت معظم أرجاء فلسـطين، وبلغ معـدلها خمسـين عملية يوميـاً،[56] وزاد الثـــوار حـــتى بلغـــوا حـــوالي خمسة آلاف،[57] معظمهم من الفلاحين الذين يعودون إلى قراهم بعد القيـام بمسـاعدة الثـوار الـذين تفرغـوا تماماً. وبعد جهود سرية قام بها الحاج أمين ورفاقه، حدث تطور نوعي في الثورة، وذلك بقدوم تعزيزات من الثوار العرب من العراق وسوريا وشـــرق الأردن بلغت حـــوالي 250 رجلاً. وكـــان على رأســـها القائد العسكري المعـروف فـوزي القـاوقجي الـذي وصل في 22 أغسـطس وتـــولى بنفسه القيـــادة العامة للثـــورة، ونظم الشـــؤون الإدارية والمخابرات، وأقام محكمة للثورة، وأسس غرفة للعمليات العسكرية.[58] وقد اعترفت القيادة العسـكرية البريطانية في تلك المـدة بتحسن تكتيكات الثوار، مشيرة إلى أنهم أظهروا علامـات على فعالية القيـادة والتنظيم.[59]

ولم تنفع الوســـائل السياســـية والعســـكرية البريطانية في إيقـــاف الإضـراب والثـورة، بما في ذلك إعلان بريطانيا في 18 مـايو إرسـال لجنة ملكية "لجنة بيـــل" للتحقيق في أســـباب "الاضـــطرابات"، ورفع التوصـــيات لإزالة أي"ظلامـــات مشـــروعة"، ومنع تكرارهـــا.[60] ولم تتوقف المرحلة الأولى من الثـورة الفلسـطينية الكـبرى والإضـراب إلا في 12 أكتوبر 1936 إثر نداء وجهه زعماء السـعودية والعـراق وشـرق الأردن واليمن لأهل فلسـطين بــ"الإخلاد إلى السـكينة حقنـاً للـدماء، معتمـــدين على حسن نوايا صـــديقتنا الحكومة البريطانيـــة، ورغبتها المعلنة لتحقيق العـــدل، وثِقُـــوا بأننا سنواصل الســـعي في ســـبيل مساعدتكم".[61]

بلغت عمليات المجاهدين في هذه المرحلة من الثورة حوالي أربعة آلاف. ويبدو أن السلطات البريطانية تكتمت كثيرا على خسائرها وخسائر الأطراف الأخرى، لتُهوِّن من شأن الثورة، فذكرت أنه قُتل من اليهود 80 وجرح 288، وقتل من الجيش والشرطة البريطانية 35 وجرح 164، فيما قتل من العرب 193 وجرح 803. وحسب عزة دروزة فإن عدد قتلى العرب زاد عن 750 وعدد الجرحى زاد عن 1500.[62] واستدل مكتب الإحصاء الفلسطيني على "كذب البيانات الرسمية" بأنه بعد أقل من شهرين من بدء الإضراب بلغ عدد قتلى الجنود الذين دفنتهم إدارة الصحة في نابلس 162 جندياً.[63] وقد بلغت خسائر الحكومة البريطانية بسبب الإضراب 3.5 مليون جنيه استرليني عدا خسائر توقف التجارة والسياحة، وهو ما يوازي ميزانية فلسطين لسنة كاملة في ذلك الوقت.[64] وقُدّرت خسائر العرب بعدة ملايين من الجنيهات، رغم أن كل ما جاءهم من إعانات خارجية لم يصل إلى 20 ألف جنيه. وبلغ عدد المنكوبين العرب 300 ألف (ثلث الشعب الفلسطيني). بينهم 40 ألفا من مدينة يافا وحدها.[65]

مرحلة التوقف المؤقت للثورة: أكتوبر 1936 - سبتمبر 1937

دخلت فلسطين بعد توقف الإضراب في شبه هدنة مؤقتة، بانتظار نتائج توصيات اللجنة الملكية "لجنة بيل"، التي أرسلت للتحقيق في مطالب أهل فلسطين. وقد حافظ الثوار على درجة من التوتر يسهل معها انتقال البلاد إلى الوضع الثوري السابق، في حالة عدم تحقيق المطالب العربية. ولذلك، فقد استمرت عمليات المجاهدين ذات الطابع الفردي كالنسف والقنص والاغتيالات السياسية. وقد اعترفت الحكومة البريطانية بمقتل 97 شخصا بينهم 9 جنود بريطانيين، وجرح 149 بينهم 13 من الشرطة والجيش خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام 1937.[66]

وقد أوصت اللجنة الملكية في خلاصة تقريرها - الذي رفعته للحكومة البريطانية في 22 يونيو 1937، ونشرته الحكومة في 7 يوليو - بتقسيم فلسطين إلى دولتين، واحدة عربية وأخرى يهودية، على أن تبقى الأماكن المقدسة وممر إلى يافا تحت الانتداب البريطاني، وقد اجتاحت البلاد موجة من السخط أدّت إلى تفجُّر المرحلة الثانية من الثورة.

المرحلة الثانية من الثورة: سبتمبر 1937 - سبتمبر 1939

كان حادث اغتيال أندروز Andrews حاكم لواء الجليل-على يد جماعة القسام يوم26 سبتمبر 1937 - المؤشر البارز على بدء المرحلة الثانية من الثورة الفلسطينية.وقد عُدَّ مقتل أندروز صدمة كبيرة للسلطات البريطانية إذ كان أول اغتيال لشخصية مدنية كبيرة، وعُدَّ إعلاناً صريحاً للثورة ضد الحكم البريطاني.[67] ويبدو أن حكومة فلسطين كانت مستعدة تماماً للقيام بإجراءات ثورية قمعية قاسية، وكان من الواضح وجود روح من التوافق بين السلطات المدنية والعسكرية لاعتماد أسلوب الشدة والقوة لسحق أي "اضطرابات" من جذورها ... ولذلك لم تتردد هذه المرة - اعتباراً من الأول من أكتوبر 1937 - من حل اللجنة العربية العليا، وإبعاد بعض أفرادها إلى جزر سيشل، وإقالة المفتي من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى،وحل اللجان القومية والقيام بحملة اعتقالات واسعة.[68]

وكـان متوقعـاً بالنسـبة لمؤيـدي سياسة "القبضة الحديديـة" الـذين انتقـدوا بمـرارة "عجـز" السـلطات المدنية في ثـورة1936، أن يـؤدي أسلوب السلطة الجديد إلى سحق الثورة في مهدها. ولكن الذي حـدث كان عكس ذلك تماما، فقد تفجرت ثورة كبرى اسـتمرت أربعة أضـعاف تلك المدة التي عاشتها المرحلة الأولى من الثورة ...،ولم تتوقف هذه الثورة إلاّ بعيد اندلاع الحرب العالمية الثانية في أواخر سنة 1939.

ففي يـوم فـرار الحـاج أمين الحسـيني إلى لبنـان في 14 أكتـوبر استؤنفت العمليات الجهادية بشكل واسع.[69] ورغم محاولات الجيش سـحق هـذه الثـورة بكل الوسـائل، إلا أنها اسـتطاعت الاسـتمرار والانتشـار، وعاشت فلسـطين جـواً من الثـورة الوطنية العارمة الـتي حظيت بدعم شعبي هائل. وفي صـيف 1938 وصـلت الثـورة إلى قمة نفوذها، وخضعت لهيمنتها منـاطق واسـعة، خصوصا شـمال فلسـطين ووسـطها، وتحطمت الإدارة المدنية في معظم منـاطق فلسـطين. واقتحم الثـوار العديد من المـدن المهمـة، وكـانوا يسـيرون وهم مسلحون تمامـاً في شـوارع نـابلس دون خـوف، وأظهر الثـوار قـدرة جيـدة على التنظيم وفعالية في "حـرب العصـابات"، وشـكلوا محـاكم للفصل في القضايا، وعاقبوا بحسم السماسرة والجواسيس والعملاء.[70] وأصـبح قـادة الثـوار بمثابة الحكـام الإداريين في منـاطقهم ... وعندما كان يَحلُّ القائد في قرية كانت تـزدحم بأهل القـرى المجـاورة ووفود المدن القريبة"وتقام فيها الـولائم والحفلات، وتنشد الأهـازيج، وترسل الزغاريـد، كـأن النـاس في عـرس أو عيـد، غـير مبـالين ولا متحسبين، كأنه لم يكن للحكومة وجود.[71] وزادت أعداد الثـوار حـتى بلغت حوالي عشرة آلاف، غير أن عدد المتفـرغين منهم تمامـاً للثـورة لم يكن يزيد على ثلاثة آلاف، وكـان هنـاك ألف يعملـون في المـدن، والبـاقي من الفلاحين الـذين يقومـون بنجـدة إخـوانهم في المعـارك عنـدما تسـتدعي الحاجـة.[72] وبلغ من شـدة الثـورة أن وزير المستعمرات عدَّ فلسطين "أصعب بلد في العـالم"،[73] ووصف مهمة المندوب السـامي والقائد العـام للقـوات البريطانية بأنها "أشق مهمة واجهت السلطات البريطانية في أية بلاد أخرى بعد الحرب العظمى".[74]

وشُـكّلت في سـوريا ولبنـان "لجنة الجهـاد المركزيـة" تحت إشـراف وتوجيه الحـاج أمين، وتـولى إدارتها الفعلية في دمشق محمد عـزة دروزة، وقد اهتمت اللجنة بتوجيه الثورة وإمدادها وإسعاف منكوبيها.[75] أما قيـادة الثـورة في فلسـطين فقد تولاها الفلسـطينيون أنفسهم، وأبدى العديد من قادتهم مهارة كبيرة، غـير أن قـادة الثـورة لم يتوحدوا جميعا تحت قائد واحد، بسبب وجود شيء من التكافؤ جعل من الصعب قيادة أحـدهم للجميـع. لكن جماعة القسـام اسـتطاعت أن توحد تحت قيادة أبي إبراهيم الكبير -وبمساعدة عدد من إخوانه أعضاء الجماعة كيوسف أبو درة ومحمد الصالح وأبو إبراهيم الصغير وسليمان عبد القـادر - منـاطق شـمال فلسـطين وقسـماً من منـاطق نـابلس وقسماً من منطقة القـدس الشـمالية، وهي من أكـثر المنـاطق الـتي تركزت فيها الثورة. وبرز من القادة أيضا عبد الرحيم الحـاج محمد في منطقة طولكرم الشرقية، وكان يعرف في بعض مراحل الثورة بالقائد العام، كما برز عارف عبد الرزاق في منطقة طولكرم الغربيـة، وتـولى حسن سلامة قيادة منطقة اللد، وتـولى عيسى البطـاط قيـادة منطقة الخليل، كما تولى عبد القادر الحسيني قيادة منطقة القدس.[76]

وقد اتخذت هذه الثـورة طابعـاً إسـلامياً جهاديـاً عامـاً من خلال الـدور العظيم لجماعة القسام في شمال فلسطين ووسطها، وحركة الجهـاد المقدس بقيـادة عبد القـادر الحسـيني في منـاطق القـدس والخليـل، ومن خلال القيادة السياسية لمفـتي فلسـطين الحـاج أمين الحسـيني للحركة الوطنية الفلسطينية، وكذلك عبد الرحيم الحاج محمد المشهور بتدينه والتزامه ... وغـــيرهم، وفي التعميم على محـــاكم المجاهـــدين بالحكم بكتاب الله وسنة رسوله.[77]

وكانت أحلك الأيام الـتي واجهت السـلطات البريطانية ومخابراتها هي صيف 1938، إذ قُضي على الجواسيس في معظم المنـاطق، ولم تجد السلطات ما تفرق به بين الثوار في المـدن عن غـيرهم سـوى اعتبـار كل لابس للكوفية والعقـال ثـائرا، (وكـان هـذا غطـاء الـرأس المعتـاد للفلاحين) فتقوم السلطات بملاحقتـه. ولـذلك أصـدر الثـوار أمـراً في أغسـطس 1939 لأهل المـدن الفلسـطينية بنـــزع الطربـوش (غطـاء الـرأس في المـدن)، ولبس الكوفية والعقـال، وذلك إعلانـاً للتضـامن التـام مع الثـوار ورمـزا لكـون الجميع ثـواراً. وما أن صـدر الأمر حـتى سارع أهل فلسطين إلى الاستجابة فزال الفارق الظاهري بين الثـــوار وغيرهم، وزال الطربوش نهائياً، مما أدهش السـلطات، الـتي فـوجئت أن شعبا بكامله ينـزع لباس رأسه، الذي هو من تقاليده الموروثة.[78]

وقد اضـطرت السـلطات البريطانية إلى إرسـال تعزيـزات عسـكرية ضـخمة يقودها أفضل قـادة بريطانيا العسـكريين أمثـال ديل Dill، وويفل Wavell، وهـنينج Haining، ومـونتجمري Montgomery. وقـامت عملياً بإعـادة احتلال فلسـطين قرية قريـة، مسـتخدمة كافة وسـائل البطش والـدمار والعقوبـات الجماعيـة، ومسـتعينة بكافة الوسائل الحديثة لجيش من أقوى جيـوش العـالم من طـيران ودبابـات ومـدافع وغيرهـا. واسـتمرت الحملة عنيفة قاسـية خصوصـاً من شـهر أكتوبر 38 وحتى شهر أبريل 1939. وخلال عام واحد (نوفمبر 1938 - نوفمبر 1939). كانت القوات البريطانية قد قامت باحتلال 2088 قرية وتفتيشـها.[79] أي أن كل قرية في فلسـطين احتلت وفتشت بما معدله مـرتين، لأن مجمـوع قـرى فلسـطين يبلغ حـوالي ألف قريـة. ولذلك فقد عـانت الثـورة من حالة من الـتراجع والضـعف خصوصا منذ أبريل 1939. حيث فقـدت الكثـير من زخمهـا، واستشـهد الكثـير من قادتها بينما اضطر آخرون للانسحاب. غـير أن جـذوة الثـورة اسـتمرت بالانطفاء التدريجي حتى أواخر سنة 1939.

وحسب الإحصـائيات البريطانية فـإن مجمـوع العمليـات الـتي قـام بها الثوار خلال فترة 1936-1939 كانت كما يلي:[80]

السنة	1936	1937	1938	1939
مجموع العمليات	4076	598	4969	952

ولا يظهر أنه توجد إحصـائيات رسـمية دقيقة حـول الإصـابات في المرحلة الثانية من الثورة لكن تقدير أحد القادة السياسيين المؤرخين المعايشين لتلك الأحـداث، وهو محمد عـزة دروزة، وكـان يتـولى إدارة اللجنة المركزية للجهاد في أثناء الثورة،يذكر أن إصابات اليهـود كـانت نحو 1500 ربعهم إن لم يكن ثلثهم من القتلى، وهو قـريب من الإحصائيات الرسمية اليهودية، وقَـدَّر الإصـابات في الجيش والشـرطة

البريطانية بــ1800 قتيل وجـريح، بينما قَـدَّر قتلى العـرب بثلاثة آلاف وجرحاهم بسبعة آلاف.[81]

توقفت هذه الثورة نتيجة إعادة احتلال بريطانيا "العظمى" لفلسطين، ونتيجة تنسيقها وتعاونها الميـداني مع اليهـود في فلسـطين. وكـذلك بسبب حالة الإنهاك والإعياء والانهيار الاقتصـادي الـتي أصـابت شـعب فلسطين طيلة ثلاث سـنوات ونصـف، دون أن يجد عونـاً جـاداً من بلاد العــرب والمســلمين، الــتي كــانت هي الأخــرى تــرزح تحت النفــوذ الاســتعماري. وبســبب استشــهاد كثــير من قــادة الثــورة، ثم بســبب الخلافـات الداخلية الفلسـطينية الحزبية والعائلية الـتي ظهـرت أواخر مراحل الثورة، واستثمرتها بريطانيا بشكل يسئ إلى الثورة ويضعفها.

على أن هـذه الثـورة أجـبرت بريطانيا على إصـدار كتابها الأبيض[82] في مــايو 1939 الــذي وعــدت فيه باســتقلال فلســطين خلال عشر ســنوات، وبإيقـاف الهجـرة اليهودية بعد خمس سـنوات، ووضع قيـود مشددة على انتقال الأراضي لليهود، وقد كـان ذلك أحد العوامل الـتي أسهمت في تهدئة الثورة.

الحرب العربية الإسرائيلية

حرب 1948:

تمثل هــذه الحــرب أحد أكــبر مآسي التــاريخ الفلســطيني والعــربي والإسلامي الحـديث والمعاصـر، إذ إنها الحـرب الـتي أدت إلى سـقوط 77% من أرض فلســــطين تحت الاحتلال الصـــــهيوني وإنشــــاء كيانه"الإسرائيلي" عليها، وتشريد نحو ثلثي شعب فلسطين.

ولا تستطيع بضـعة وريقـات أن تغطي أحـداث هـذه الحـرب - المأسـاة الــتي كتب حولها الكثــير من الكتب والدراســات،لكننا نأمل أن نقــدم صورة عامة تتوافق مع منهجنا في كتابة هذا الكتاب، والــذي يميل إلى التركيز والاختصار ووضع اليد على المفاصل الهامة للأحداث.

كانت هذه الحرب نتيجة مباشرة لقرار الاستعمار البريطاني الانسـحاب من فلســطين وإيكــال الأمر إلى الأمم المتحــدة، الــتي أصــدرت تحت ضغط القوتين العظميين آنذاك (الولايات المتحدة والاتحاد السـوفيتي) قرار رقم 181 بتاريخ 29 نوفمبر 1947 بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية (45%) ويهودية (54%) ومنطقة دولية (1%).

ولا يمكن فهم تطــورات الحــرب ونتائجها إلا بتصــور أوضــاع القــوى المختلفة ذات العلاقة، وفيما يلي أبرز ملامحها:

فلسطينياً:

- خرج شعب فلسطين منهكـاً من ثورته الكـبرى ضد بريطانيـا، وعـانى من الحكم العســكري الصــارم طيلة الحــرب العالمية الثانية 1939-1945.

- افتقد شعب فلسطين القيادة السياسية والعسكرية المحلية الميدانية المتماسكة، ذات القدرة الفاعلة على الحشد والتعبئة والتنظيم.

- افتقد شعب فلسطين البناء المؤسسي العسكري والاقتصادي القادر على مواجهة الأحداث، لأسباب متعددة أهمها، سياسات الاستعمار البريطاني.

- عانت القيادة السياسية من مشاكل جمة داخل فلسطين وخارجها، فالعديد من القادة لم يكن قادراً على دخول فلسطين كالحاج أمين نفسه زعيم فلسطين، الذي كانت له مشاكله أيضاً مع بلاد كالأردن والعراق، واللتان سعتا لتجاوزه وتهميش دوره، كما لم يكن حراً في حركته داخل مصر نفسها.

- كان قرار الدول العربية هو تولي أمر تحرير فلسطين بنفسها، وإلزام الفلسطينيين بما يرتأونه، وفق قرارات الجامعة العربية وقادة هذه الدول. ولذلك خرج القرار السياسي والعسكري عملياً من أيدي الفلسطينيين.

- عانى الفلسطينيون من ضعف مُريع في التسليح، فضلاً عن الضعف الشديد في الإمكانات الاقتصادية التي يمكن أن تسهم في شراء الأسلحة، وفضلا عن حظر الدول الكبرى وصول هذه الأسلحة إليهم، فإن الدعم العربي كان هزيلاً جداً. وعلى الرغم من أن المقرر لأبناء فلسطين كان قليلاً، إلا أن الحكومات العربية لم تعطهم منه سوى رُبعِهِ، وكان الكثير من هذا الربع غير صالح للاستعمال!![83] وقد زاد الأمر مأساوية أن بعض الجيوش العربية قامت بنزع أسلحة الفلسطينيين ـ بدل تسليحهم ـ بحجة المحافظة على الأمن والنظام.[84]

عربياً:

- كانت البلاد العربية إما مستقلة حديثاً، ولم يشتد عودها بعد، أو لا تزال تحت بعض أشكال النفوذ الاستعماري، بحيث لم تكن كاملة الحرية في قرارها السياسي.

- كانت الجيوش العربية قليلة الخبرة، لم تخض حرباً حقيقية قبل ذلك، وكان معظم ضباط أحدها (45 من أصل 50) من البريطانيين.[85] كما لم تكن تملك معلومات كافية من فلسطين، بل إن بعضها جاء للحرب دون خرائط كالجيش العراقي، وكانت معلوماتها ضعيفة، إن لم تكن منعدمة، عن القوات الصهيونية وإمكاناتها.

- رغم أن الدول العربية قررت تولي زمام الأمر بنفسها، إلا أنها لم تحشد ولم تعبِّئ كافة طاقاتها للمعركة، وتعامل البعض معها وكأنها نزهة عسكرية، مهونين تماماً من شأن القوات اليهودية التي أساءوا تقديرها. ولم تكن المعركة بالنسبة لها معركة مصير بقدر ما كانت مساعدة بلد شقيق.

- عانت الجيوش العربية من ضعف التنسيق الميداني، وعدم وجود قيادة عسكرية مشتركة ذات صلاحيات حقيقية.

- أصدر قائد الجيش الأردني (الجنرال البريطاني جلوب) أوامر مشددة لجيشه بعدم تجاوز خطوط التقسيم التي فرضتها الأمم المتحدة، أي أنه أراد أن يثبت قرار التقسيم بدلاً من تحرير فلسطين.

- نجح اليهود إلى حد ما في زرع بذور الشك بين الفلسطينيين وبعض قادة الجيوش العربية، إذ إن اليهود العرب لبسوا ملابس الفلسطينيين ليوهموا الجيوش أن الفلسطينيين ضدهم، فقام هؤلاء بنزع أسلحة

الفلسـطينيين وتحييـدهم، ولم يكلّفـوا أنفسـهم عنـاء بعض الترتيبـات الأمنية لمواجهة الأمر بطريقة أفضل.

- كـان تسـليح الجيـوش العربية ضـعيفاً مقارنة بـاليهود. خصوصا بعد حظر الدول الكبرى تصدير الأسلحة إليهم في أثناء الحرب.[86]

صهيونياً - يهودياً:

- تمكن المشروع الصهيوني من بناء مؤسساته السياسية والاقتصـادية والعسـكرية والتعليمية والاجتماعية وتنميتها طيلة فـترة الاحتلال البريطاني.

- كـانت القيـادة الصـهيونية حاضـرة بشـكل فاعل وميـداني، وتتمتع بقدرات قيادية وتنظيمية وتعبوية عالية.

- اسـتفادت القيـادة الصـهيونية من دعم الـدول الكـبرى السياسي والاقتصادي والعسكري، واستثمرت بفاعلية انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية،كما استخدمت معاناة اليهود في الحـرب كقضـية رابحة للحصول على الدعم بإنشاء الدولة.

- أمكن لليهود تعبئة جيش قوي مدرب متماسك حسن التسـليح من 60 -70 ألف جندي منذ بداية الحرب. واستفادوا من خبرة الفرقة اليهودية التي شاركت في الحرب العالمية الثانية والمكونة من 26 ألف جندي.[87]

- كانت المعركة بالنسبة لليهود معركة حيـاة أو مـوت، ولـذلك تم تعبئة كافة الطاقـات الممكنة للمعركة في فلسـطين، ومن خلفها يهـود العالم ودوائر نفوذهم.

- كـانت أوضـاع اليهـود الاقتصـادية،وعلاقـاتهم السياسـية تُمكّنهم من شراء حاجاتهم من الأسلحة المتطـورة. فقد اشـتروا من الإنجلـيز قبل خروجهم من فلسطين 24 طائرة وألفَ سيارة نقل كبيرة. كما اشتروا كميـات ضـخمة من الأسـلحة التشـيكية (بـإذن وتوجيه من الاتحـاد السوفيتي) منها 40 طـائرة مقاتلـة. كما اشـتروا ثلاث طـائرات قاذفة من الولايات المتحدة من نوع ب - 17.[88]

دولياً:

- بعد ثلاثين عامـاً من الاحتلال البريطـاني، نجحت بريطانيا في تنمية المشـروع الصـهيوني ورعايتـه،في الـوقت الـذي سـحقت فيه شـعب فلسـطين وأضـعفته، ومنعت نمو مؤسسـاته السياسـية والاقتصـادية والعسكرية واستقرارها.

- حظي الكيان الصهيوني بدعم القوتين العظميين (الولايـات المتحـدة والاتحاد السوفيتي). وتم تجهيز الظروف الدولية بشكل يضمن التفوق الصهيوني وقيام دولته.

- استخدمت بريطانيا نفوذها على الـدول العربيـة، وخصوصـاً في مصر والأردن والعراق، ومارست ضغوطها بشـكل كبـير بحيث لا يتجـاوز دور جيـوش هـذه البلـدان الخطـوط الحمـراء للسياسة البريطانيـة، كما ضـغطت ضد قـدوم المجاهـدين والمتطـوعين العـرب إلى فلسـطين، وخصوصا الإخوان المسلمين من مصر.

- تم تنفيذ قـرار حظر بيع السـلاح على الجـانب العـربي دون الجـانب اليهودي.

أما مـيزان القـوة العسـكرية العددية فقد ظل طـوال الحـرب لصـالح الكيـان الصـهيوني، الـذي كـان أكـثر عـدداً وأفضل انضـباطاً وتـدريباً وتسـليحاً من مجمـوع الجيـوش العربية والمتطـوعين. ورغم أن هنـاك تقديرات متفاوتة ومختلفة في المصادر حول الأعـداد، إلا أننا يمكن أن نوجز تطورها بالشكل التالي (بناء على دراسة د. هيثم الكيلاني):[89]

	القوات العربية بالألف	القوات اليهودية بالألف
مرحلة ما قبل دخول الجيـوش العربية (ديســمبر 47- مـــايو 1948)	12	60
المرحلة الأولى من القتـــــال (عند دخول الجيوش العربية)	21	67
المرحلة الثانية من القتـــــال (عند نهايات الحرب)	40	106

أما القـوات العربية النظامية فكـانت تتكـون من جيـوش سـبعة دول. وحسب تقرير مؤرخ هذه "النكبة" عارف العارف، فقد بلغ عــدد الجيش المصري في البداية 6000، والجيش السوري 1500، والجيش العراقي 1500، والجيش الأردني 4500، والجيش السـعودي 1500، والجيش اللبناني 1000.[90] وزاد عدد الجيش المصـري بعد ذلك إلى 20 ألـف، كما تضـاعفت مـرة أخـرى-على ما يبـدو- أعـداد الجيـوش السـورية والعراقية والأردنية فيما بعد.أما اليمنيون فكانت مشاركتهم رمزية.

أما القوات العربية غير النظامية فكانت تتكون أساسا من:

ـ جيش الجهاد المقدس: وهو الجيش الـذي شـكلته القيـادة السياسـية الفلســطينية "الهيئة العربية العليا لفلســطين" بقيــادة عبد القــادر الحسيني الذي استشهد في معركة القسطل في 8 أبريل1948. وكان أساساً جيشاً فلسطينياً من 5 ـ 7 آلاف مقاتل، تسانده فئة أخرى من المقاتلين المقيمين في قراهم،والذين يسـتدعون عند الحاجـة، وكـان مجموعهم نحو عشرة آلاف.[91]

وقد كـان هـذا الجيش ضـعيف التسـليح والتـدريب، وأسـهمت خلافـات الأنظمة العربية مـع"الهيئة العربية العليـا" في عـدم تحويل الكثـير من الأسـلحة والأمـوال الـتي يتم التـبرع بها إلى هـذا الجيش، الـذي كـان بأمس الحاجة إليها. ولقد صـرخ عبد القـادر الحسـيني قبل استشـهاده بيـومين في وجه رئيس اللجنة العسـكرية العربية الـذي رفض التعـاون معه وتزويده بالسلاح "أنتم خـائنون، أنتم مجرمـون، سيسـجل التـاريخ أنكم أضـعتم فلســطين"[92] وهــانحن كُتَّاب التــاريخ نحفظ شــهادته للتاريخ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد تـوزع هـذه الجيش في كثـير من مـدن وقـرى فلسـطين، وقـام بالكثير من العمليات البطولية الناجحـة، لكن إمكاناته المحـدودة حرمته من الدور الذي يمكن أن يقوم به،كما أن تداخل قيـادات المنـاطق بينه وبين جيش الإنقاذ، ووجود قائدين يعملان بشـكل مسـتقل في منطقة واحدة كان له عواقب وخيمة.[93]

ـ جيش الإنقاذ: تأسس هذا الجيش بقرار من الجامعة العربيــة، وقوامه متطوعين من مختلف البلدان العربية. وبلغ عدد الذين تقدموا للتطــوع فيه حــوالي عشــرة آلاف، أما الــذين دخلــوا فلســطين فعليا ضــمن تشكيلاته فكانوا حوالي 4630 مقاتلا.وقد تولى القيـادة الميدانية لهـذا الجيش فـــوزي القــاوقجي. وقد تركز عمله في شـــمال فلســطين ووسطها، وقد شارك في هذا الجيش أخلاط من الناس من عســكريين محــترفين ومتطــوعين غــير متــدربين، ومن رجــال دفعهم الإيمــان والوطنية للتضــــحية، ومن آخــــرين كــــانوا للأسف من المتبطلين والمتكســبين وأصـحاب السـوابق ممن أسـاءوا إلى هـذا الجيش، وإلى أهل فلسطين عنـدما قـاموا بنهب وسـرقة العديد من القـرى والمـدن التي جاءوا للدفاع عنها، كما حدث في يافا. وعانت قيـادة هـذا الجيش من سوء الإدارة والتسيب واللامسئولية، ووجهت أصابع اللوم والاتهام إلى القـاوقجي نفسـه. ومع ذلـك، فـإن هـذا الجيش خـاض كثـيراً من المواجهات الضارية مع الصهاينة.[94]

ـ الإخـوان المسـلمون: مثلت مشـاركة الإخـوان المسـلمين في حـرب فلســطين ســنة 1948 أحد النمــاذج المتمــيزة للحركـات والتنظيمــات العربية الإســلامية الــتي كســرت الطــوق الإقليمي، وعــبرت عمليــاً وجهادياً عن روح الأمة الواحـدة. فقد شـاركت تنظيمـات الإخـوان في مصر وسـوريا والأردن والعـراق بفعالية في التعبئة الجماهيريـة، وفي جمع التبرعات، وجمع السلاح والقتال في فلسطين.

وقد أفردنا مبحثاً خاصـاً في نهاية هـذا الفصل لدراسة النمـوذج الـذي قدمه الإخوان المسلمون بوصفه نموذجاً إسلامياً شعبياً.

مجريات الحرب:[95]

بدأت المرحلة الأولى من الحرب منذ صدور قرار التقسـيم 29 نوفمـبر 1947، وحتى انتهاء الانتداب البريطاني، ودخول الجيـوش العربية في 15 مايو 1948. وفي هذه الفـترة تحمل الفلسـطينيون العبء خصوصا من خلال "الجهـــاد المقـــدس"، فضـــلاً عن متطـــوعي جيش الإنقـــاذ والإخوان المسلمين وغيرهم.

وقد تمكن أبنــاء فلســطين من الثبــات وتحقيق انتصــارات وإنجــازات مهمة، دفعت الولايات المتحدة في شهر مارس 1948 إلى التفكير في التراجع عن تأييد قرار التقسيم، غير أنه في الوقت الذي كـان اليهـود يُحسِّـنون أوضـاعهم بالتجنيد واسـتيراد كميـات ضـخمة من الأسـلحة المتنوعة والمتطورة، كانت أسـلحة الفلسـطينيين تتنـاقص وذخـيرتهم تنفد. وقد أخذ الوضع بالتدهور خصوصا في شـهر أبريـل، وبالـذات بعد استشهاد عبد القادر الحسـيني في معركة القسـطل في 8 أبريـل، ثم قيام العصابات الصهيونية بمجزرة دير ياسين في مساء 9 إبريل وحتى ظهر اليـــوم التـــالي، والـــتي أدت إلى استشـــهاد 253 من الرجـــال والأطفـــال والنســـاء، حيث أثـــار ذلك حالة من الـــذعر في أوســـاط الفلسطينيين. وتتابع سقوط مدن فلسطينية مهمة مع عمليات تهجـير جمـاعي للفلسـطينيين، فسـقطت مـدن: طبريا في 19 أبريـل، وحيفا في 22 أبريل، وبيسان وصفد في 12 مايو، ويافا في 14 مايو.

وبشكل عـام فقد حافظ أهل فلسـطين على نحو 80-ـ 82% من أرض فلسطين حتى لحظة دخول الجيوش العربية.

ويصعب تتبع خطوات المعارك خلال هذه الحـرب لكن الجيـوش العربية حققت في البداية نجاحـات لا بـأس بهـا، وتمكن الجيش المصـري من السيطرة على خط: المجدل- الفالوجة - بيت جـبرين - الخليـل، وخـط: أسدود - القسطينة، وعَزَل المستعمرات الصهيونية في النقب. وتحرك الجيش الأردني لـــيركز قطاعاته في وسط فلســطين في منـــاطق القدس ورام الله واللد والرملة على بُعد نحو 10كم من تل أبيب، بينما تركز الجيش العراقي في مناطق جنين ونابلس وطـولكرم ووصل إلى مسافة 10كم شرق نتانيا. وسيطر الجيش السوري على سـمخ شـمال شرقي فلسـطين، فيما تركز جيش الإنقـاذ في منـاطق الجليل الأعلى شمال فلسطين. وأصبح وضع اليهود سـيئاً في جنـوب فلسـطين لكنه تحسن بعض الشـيء في شـمالها بسـيطرتهم على عكا في 17 مـايو 1948.

وتمكن اليهــود (في أثنـــاء فـــرض الهدنة الأولى (11 يونيو - 8 يوليو 1948) بقــــرار مجلس الأمن الـــدولي) من إعــــادة تنظيم قـــواتهم وتطويرها كماً وتدريباً وتسليحاً، وتسلموا 40 طـائرة تشـيكية وأسـلحة ضخمة، بينما أغلق باب شـراء السـلاح دوليـاً في وجه العـرب. وعنـدما اندلعت الجولة الثانية من القتال في 9ـ 17 يوليو 1948، تمكن اليهود من توسيع دائرة احتلالهم فاحتلوا خلال ثلاثة أيام مـدينتي اللـدفي 10 يوليو، والرملة في 12يوليو، مُوسِّعين احتلالهم وسط فلسطين شـرقاً بضم قرى بير معين والبرج والحديثة وبيرنبالا وقوله ومجـدل يابـا. كما احتل اليهـود أجـزاء من شـمال فلسـطين، فضـموا خلال هـذه المـدة القصيرة مناطق الناصرة في 15يوليو، وشفا عمرو وكفر ياسـيف،كما حسنوا مواقعهم في منطقة القدس فاحتلوا، قرية المالحة.

ثم بــدأت الهدنة الثانية بقــرار من مجلس الأمن في 18 يوليــو، حيث استفاد منها اليهود في تحسين مـواقعهم وتوسـيع احتلالهم. وفي 15 أكتــوبر شن اليهــود حملة جديــدة ركــزت على الجنــوب، فاســتطاعوا السـيطرة على التلال المحيطة بعـراق المنشـية، وسـقطت الحليقـات في أيديهم في 20 أكتوبر وبالتالي انفتح الطريق أمـامهم إلى النقب، ليتصـلوا بالمسـتعمرات اليهودية الـتي كـانت معزولة هنـاك. ووجـدت القـوات المصـرية نفسـها معزولة في المجـدل وأسـدود فقـامت في الأسبوعين التاليين بالانسحاب منهما، وبسقوط عـراق السـويدان في 9 نوفمبر، اكتمل طوق القـوات اليهودية حـول الفالوجـة، حيث حوصر نحو أربعة آلاف من الجيش المصــري بقيــادة العميد سـعيد طه (كــان جمـال عبد الناصر تحت إمرته ضـمن المحاصـرين في الفالوجـة). وقد ثبتت الفالوجة في وجه الحصار والهجمات المختلفة، إلى أن انسـحبت بشــرف بعد عقد الهدنة مع مصر في 24 فــبراير 1949. وبينما كــانت هذه المعارك دائرة قام اليهود بهجوم على بـئر السـبع في 18 أكتـوبر وتمكنـــوا من احتلالها في 21 أكتـــوبر 1948. وبـــذلك انفتح أمـــامهم الطريق إلى احتلال بـاقي النقب، فـاحتلوا العسـلوج في 15 ديسـمبر. وكان يوجد في باقي أراضي النقب وحـدات أردنية صـغيرة تم تجاوزها بسهولة في حملة سريعة قامت بها القوات اليهودية في الفترة من 6 -ـ 10 مـارس 1949، حيث وصـلت إلى موقع أم الرشـرش على خليج

العقبة في 10 مارس، والذي أنشأ عليه الكيان الصهيوني ما يعرف الآن بميناء ومدينة إيلات.

أما الجيب العربي الذي ثبت في أقصى شمال فلسطين فقد تم احتلاله في الفترة 29 -ـ 31 أكتوبر 1948، وهو يضم قرى كوكب وعيلبون وسخنين والرامة وترشيحا وسعسع شمالاً باتجاه الحدود اللبنانية.

وبذلك أكملت القوات اليهودية احتلالها 77% من أراضي فلسطين (20700 كم مربع) مقيمة عليها كيانها الصهيوني"إسرائيل".

وبعد أن وقعت مصر اتفاقية الهدنة في 24 فبراير 1949، تبعتها لبنان في 23 مارس، ثم الأردن في 3 أبريل، ثم سوريا في 20 يوليو 1949.

ومن الملاحظ أن اليهود عانوا من صعوبات بالغة ووجدوا أنفسهم في أوضاع حرجة في الستة أشهر التي سبقت دخول الجيوش العربية، وفي الشهر الأول لدخول هذه الجيوش. لكنهم بعد ذلك تمكنوا من تحقيق انتصارات مهمة، وسهلة أحياناً كاحتلال باقي شمال فلسطين، واللد والرملة، واحتلال النقب الذي يشكل لوحده نحو نصف مساحة فلسطين.

لقد قاوم الفلسطينيون بضراوة وبكل ما يملكون، وهناك في كل مدينة وقرية قصص ثبات وبطولة وتضحية، وحكايات مؤلمة من انعدام السلاح أو فساده أو نفاذ الذخيرة، أو سوء إدارة المعركة من الجيوش العربية... وغيرها.

وقد ارتكب اليهود 34 مذبحة في أثناء هذه الحرب وأجبروا حوالي 800 ألف فلسطيني على الهجرة وترك ديارهم من أصل مليون و290 ألف فلسطيني عربي أي أن نحو 60% من شعب فلسطين وجد نفسه لاجئا بعد هذه الحرب.[96] وهاهم بعد 53 عاما من التهجير القسري محرومون من العودة إلى أراضيهم.

هوامش الكتاب

---

[1] انظر: الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص 41-67.

[2] See: Report on the Arab Movement & Zionism, by J. Camp, 12 Aug 1919, F.O. 371/4182, Yeshoa Porath, The Emergence of the Palestine National Movement, 1918-1929 (London: Frank Cass, 1974), p. 129.

[3] انظر: كامل خلة، مرجع سابق، ص 230-232، وانظر أيضاً: تقارير حول هذه الهجمات في ملفات الخارجية البريطانية F.O. 371/5117.

[4] انظر: خليل السكاكيني، مرجع سابق، ص 193، وانظر:

Frances Newton, Fifty Years in Palestine (London: Cold Harbour Press, 1948), p. 133-135.

[5] Palin Report, p. 75, F.O. 371/5121.

[6] انظر: تقرير بيل، ص 234، وعجاج نويهض، مرجع سابق، ص 319.

[7] الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص 142-144، وكامل خلّة، مرجع سابق، ص 250.

[8] وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص 72، وانظر أيضاً:

Disturbances in May 1921: Report of the Commission of Inquiry with Correspondence Relating There to Oct. 1921, Cmd. 1540 (London: H.M.S.O., 1921), p. 60. (Hereafter referred to as Haycraft Report).

[9] انظر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص 62، وانظر:

Haycraft Report, pp. 30-33, and Report on Political Situation in Palestine for the Month of May 1921, H. Samuel to Churchil, 6 Jun. 1921, F.O. 371/6375.

[10] Haycraft Report, pp. 38-41, and Dispatch, Samuel to Churchil, 15 May 1921, AIR5/1243.

[11] Haycraft Report, pp. 5-16.

[12] Ibid, pp. 36-41.

[13] وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص 73-74، ووثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية 1918-1939، إعداد عبد الوهاب الكيالي، ط2 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1988)، ص 20-21.

[14] Haycraft Report, p. 60.

[15] سامي الجندي، عرب ويهود: العداء الكبير (بيروت: دار النهار للنشر، 1968)، ص 61.

[16] تقرير بيل، ص 65-66.

[17] See: The Situation Palestine, Memorandum by S. Of S. Colonies to the Cabinet, 9 Jun. 1921, Enclosing a Report by C.D. Brunton, 13 May 1921, Secret, F.O. 371/6375.

[18] وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص 73.

[19] كامل خلة، مرجع سابق، ص 256، وانظر:

Report on the Political Situation in Palestine for the Month of May 1921, F.O. 371/6375.

[20] انظر نص كلمة صمويل في ملف: F.O. 371/6375.

[21] Letter, Deeds to Shuckburgh, 22 Nov. 1921, C.O. 537/852.

[22] كامل خلة، مرجع سابق، ص 273.

[23] عمر أبو النصر بالاشتراك مع إبراهيم نجم وأمين عقل، جهاد فلسطين العربية: فصول تبحث في تاريخ القضية الفلسطينية وما طرأ عليها من تطور وتحول منذ النضال العربي الأول وحتى الثورة الحاضرة (يافا (فلسطين): دون ناشر، 1936)، ص 260، وإحسان النمر، قضية فلسطين في دورها البلدي (نابلس (فلسطين): جمعية

عمـال المطـابع التعاونيـة، دون تـاريخ)، ص 112، وانظر أيضـاً: P.D., Commons, Vol. 171, Col. 1796.

[24] كامل خلة، مرجع سابق، ص 399-404، وانظر:

P.D., Commons, Vol. 182, Col. 1804, and Vol. 183, Col. 564.

[25] انظـر: الكيـالي، وثـائق المقاومـة، ص 119-126، ومحمد عـزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص 20-21، وعيسى السفري، فلسطين العربية بين الانتـداب والصـهيونية، ط2 (القـدس: منشـورات صلاح الدين، 1981)، ج1، ص 122.

[26] انظر: الكيالي، وثائق المقاومة، ص 141-141، والكيـالي، تـاريخ فلسطين الحديث، ص 202، وأميل الغوري، فلسطين عبر ستين عاماً، ص 115.

[27] Report of the Commission on the Palestine Disturbances of Aug. 1929, March 1930, Cnd. 5350 (London: H.M.S.O., 1930), p. 64 (Hereafter referred to as Shaw Report).

[28] جريدة الشورى (مصر)، 18 سبتمبر 1929.

[29] Shaw Report, p. 65.

[30] انظر: كامل خلّة، مرجع سابق، ص 455، وانظر:

Shaw Report, p. 65, and Report on Palestine Riots 23 Aug. - 11 Sep. 1929, by Group Captain P.H.L. Play fair, 26 Dec. 1929, pp. 14-20, p. 29, p. 41, p. 49, AIR5/1243.

[31] Shaw Report, p. 65.

[32] تقرير بيل، ص 250.

[33] جريدة الشورى، 9 أكتوبر 1929.

[34] جريدة الشورى، 30 إبريل 1930، وانظر:

Norman Bentwich, Mandate Memories: 1918-1948 (London: The Hogarth Press, 1965), pp. 136-137.

[35] جريدة الشورى، 25 يونيو 1930، وكامل خلـة، مرجع سـابق، ص 484-485.

[36] انظر: أميل الغوري، فلسـطين عـبر سـتين عامـاً، ص 135-136، وإحسان النمر، مرجع سابق، ص 193، وبيان الحوت، مرجع سابق، ص 231، وأيضاً: Porath, The Emergence, p. 271.

[37] حول الكف الأخضر:

Report on Safad Gang, 1930, C.O. 733/190/5, & Summary of Items of Interest, Air H.Q., Palestine Command, Jan. & Feb. 1930, AIR5/1245.

[38] انظـر: الكيـالي، وثـائق المقاومـة، ص238-239، ومحمد دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص 30.

[39] وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص 378، وانظر:

Resume of Operations for Oct. 1933, Air H.Q., 23 Nov. 1933, AIR5/1246,. & Report of the Commission Appointed by His Excellency the High Commissioner for Palestine by Notification No. 1561 Published in the Official Gazette,

Extraordinary, 7 Feb. 1934. (Hereafter referred to as Murison Report).

[40] انظر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص 379-381، ومحمد عــزة دروزة، فلســطين وجهــاد الفلســطينيين، ص 31-32، وزهــير المارديني، مرجع سابق، ص 79. وانظر:

Murison Report, & Tel. H.C. to S.of.S. Colonies, 27 Oct. 1933, C.O. 733/239/5.

[41] Murrison Report.

[42] الكيالي، وثائق المقاومة، ص 341-344.

[43] Note of an Interview Granted by H.C. to Members of the Arab Executive, 25 Oct. 1933, C.O. 733/239/5 Part 2.

[44] حــول حركة القســام واستشــهاده، انظر مثلاً: صــحبي ياســين، الثـورة العربية الكـبرى في فلسـطين: 1936-1939 (القـاهرة: وزارة الثقافـــة، مؤسسة التـــأليف والنشر ودار الكتـــاب العـــربي، 1967)، ومحسن صالح، التيار الإسلامي في فلسطين، ص 231-317، وسـميح حمـودة، الـوعي والثـورة: دراسة في حيـاة وجهـاد الشـيخ عز الـدين القسام (عمّان: دار ابن رشد، 1984).

[45] محمد عـــزة دروزة، العـــدوان الإســـرائيلي القـــديم والعـــدوان الإسـرائيلي الحـديث على فلسـطين وما جاورها (بـيروت: دار الكلمـة، 1980)، ج2، ص 52.

[46] محمد نمر الخطيب، من أثر النكبة (دمشــق: المطبعة العموميــة، 1951)، ص 88.

[47] كامل خلة، مرجع سابق، ص 594.

[48] عبد الستار قاسم، الشيخ المجاهد عز الدين القسام (بيروت: دار الأمة للنشر، 1984)، ص 106.

[49] أكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية: 1935-1939 "يوميات أكرم زعيتر"، ط3 (بـيروت: مؤسسة الدراسـات الفلسـطينية، 1980)، ص 32.

[50] انظـر: يوميـات أكـرم زعيـتر، ص 53-56، وبيـان الحـوت، مرجع سابق، ص 331-332، وانظر أيضاً:

Dispatch on the Disturbances in Palestine, 19 Apr. to 14 Sep. 1936, by Air Vice-Marshal R.E.C. Peirse, submitted to Air Ministry, 15 Oct. 1936, W.O. 32/4177, p. 13. Hereafter referred to as Peirse Dispatch.

[51] تقرير بيـل، ص 126، ووثـائق الحركة الوطنية الفلسـطينية، ص 412.

[52] يوميات أكرم زعيتر، ص 60-63.

[53] نفس المرجع، ص 64-77، ووثائق المقاومة الفلسطينية العربية، ص 378-379، وانظر:

Periodical Appreciation Summary, No. 9/36, C.I.D. 6 May 1936, F.O. 371/20018.

[54] محمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص 39-40.

[55] يوميات أكرم زعيتر، ص 99-100، وانظر: Peirse Dispatch, p. 20.

[56] محمد عــزة دروزة، القضــية الفلســطينية في مختلف مراحلها (بيروت: المكتبة العصرية، 1959) ج1، ص 128-129.

[57] J. Marlowe, Rebellion in Palestine (London: The Cresset Press, 1946), p. 156.

[58] انظـر: فلسـطين في مـذكرات القـاوقجي: 1936-1948 (الجـزء الثـاني)، إعـداد خيرية قاسـمية (بـيروت: مركز الأبحـاث ودار القـدس، 1975)، ص 20-22.

[59] Peirse Dispatch, p. 94.

[60] تقرير بيل، ص 7-8.

[61] وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص 458.

[62] انظر: يوسف رجب الرضيعي، ثورة 1936 في فلسـطين: دراسة عسكرية (بـيروت: مؤسسة الأبحـاث العربيـة، 1982)، ص 61، ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص 43.

[63] عن ثورة فلسـطين سـنة 1936: وصف وأخبـار ووقـائع ووثـائق، إعـــداد مكتب الاســـتعلامات الفلســـطيني بمصر (القـــاهرة: اللجنة الفلسطينية العربية، ديسمبر 1936)، ص 43.

[64] الرضيعي، مرجع سابق، ص 62.

[65] محمد عــزة دروزة، فلســطين وجهــاد الفلســطينيين، ص 44، ومكتب الاستعلامات الفلسطيني، ص 28.

[66] يوميات أكرم زعيتر، ص 286.

[67] Yeshoua Porath, The Palestinian Arab National Movement: From Riots to Rebellion 1929-1939 (Great Britain: Frank Carr, 1977), p. 235.

[68] محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية، ج1، ص 187-188.

[69] Report on the operations carried out by the British force in Palestine and Trans-Jordan in Aid of the Civil Power for 12 Sep. 1937 to 31 Mar. 1938, by R.P. Wavell sent to Under S. of S. War, 7 Apr. 1938, Secret, p.1, W.O. 32/9401, and Resume of Operations: for Oct. 1937, Air H.Q., 23 Nov. 1937, AIR 5/1247.

[70] انظـر: محمد عـزة دروزة، القضـية الفلسـطينية، ج1، ص 193-207، وانظر أيضاً:

Tel, H.C. to S. of S. Colonies, 25 May 1938, Secret, Most Immediate, C.O. 733/36/1, Militry Intelligence Summary, No. 19/38, 23 Sep. 1933, C.O. 733/81/9, and Dispatch, H.C. to S. of S. Colonies, 24 Oct. 1939, Secret, C.O. 935/21.

[71] محمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص 53-54.

[72] صــبحي ياســين، حــرب العصــابات في فلســطين (القــاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ودار الكتـاب العـربي، دون تـاريخ)، ص 75-77، وقد قــدر مــارلو عــددهم بـــ15 ألفــاً. انظــر: Marlowe, op. cit., p. 194.

[73] زهير المارديني، مرجع سابق، ص 284.

[74] يوميات أكرم زعيتر، ص 427.

[75] محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية، ج1، ص 209.

[76] المرجع نفسه، ص 211-212.

[77] انظر حـول الطـابع الإسـلامي للثـورة في: محسن صـالح، التيـار الإسلامي في فلسطين، ص 354-360.

[78] يوميات أكرم زعيتر، ص 440، وجريدة الشباب، مصر، 21 سبتمبر 1938.

[79] Tel., General Officer Commander to W.O., 18 Nov. 1939, Secret, C.O. 733/404/2.

[80] انظـر: الرضـيعي، مرجع سـابق، ص 61-62، وص 69، وص 73، وص 78.

[81] محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية، ج1، ص 220.

[82] Palestine: Statement of Policy, May 1939, Cmd. 6019 (London: H.M.S.O., 1939).

[83] محمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص 80.

[84] انظر مثلاً: شكيب الأموي، شهادة من الميـدان: وثـائق عن حـرب فلسطين 1948 (تونس: الـدار التونسـية للنشـر، 1980)، ص 41-47، وكامل الشـريف، الإخـوان المسـلمون في حـرب فلسـطين (الزرقـاء (الأردن): مكتبة المنار، 1984)، ص 50-51، وص 53، وص 55.

[85] انظر: عارف العارف، مرجع سابق، ج6، ص 225.

[86] حـــول الوضع العـــربي في حـــرب 1948 انظـــر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسـكرية للحـروب العربية الإسـرائيلية (بـيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991)، ص 71-72، وص 103-153.

[87] انظر: المرجع نفسه، ص 75-76، وعرب فلسـطين 1947-1948 (الرواية الإسرائيلية الرسمية)، ص 18.

[88] الكيلاني، مرجع سابق، ص 74-76، وص 82، ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص 88-89.

[89] الكيلاني، مرجع سابق، ص 76.

[90] عارف العارف، مرجع سابق، ج2، ص 342.

[91] الكيلاني، مرجع سابق، ص 70.

[92] صالح أبو يصير، مرجع سابق، ص 349.

[93] انظـر: بيـان الحـوت، مرجع سـابق، ص 615-616، ومحمد أمين الحسـيني، حقـائق عن قضـية فلسـطين، ط2 (القـاهرة: مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين، 1957)، ص 91.

[94] انظـر: الكيلاني، مرجع سـابق، ص 68، وكامل الشـريف، مرجع سـابق، ص 28، وصـالح أبو يصـير، مرجع سـابق، ص، ومحمد محمـود الصواف، معركة الإسـلام أو وقائعنا في فلسـطين بين الأمس واليـوم (لبنان: دون ناشر، 1969)، ص 158-159.

[95] حول مجريات حرب 1948، انظر: الكيلاني، مرجع سابق، ص 77-78، ومحمد عزة دروزة، فلسـطين وجهـاد الفلسـطينيين، ص 82-89، وصالح أبو يصير، مرجع سابق، ص ، وانظر:

Chaim Herzog, The Arab-Israeli Wars: War & Peace in the Middle East (New York & London: Random House, 1982), pp. 17-108.

[96] Salman Abu Sitta, Palestinian Right to Return (London: Palestinian Return Centre, 1999), p. 16 & p. 27.

حرب 1956:

أحدثت حرب 1948 هزة كبيرة في الواقع العربي فتوالت الانقلابات العسكرية في سوريا، وأنهت ثورة الضباط الأحرار في 23 يوليو 1952 العهد الملكي في مصر، واغتيل الملك عبد الله ملك الأردن في 20 يوليو 1950، وقام الملك حسين بطرد رئيس أركان الجيش الأردني جلوب باشا وبتعريب الجيش الأردني في مارس 1956.

وقامت الدول العربية بعقد اتفاقية الدفاع المشترك في 13 أبريل 1950، أتبعتها بعدد من اتفاقات الدفاع الثنائية والثلاثية بين بعضها خلال سنتي 1955-ـ 1956. وسعت مصر وسوريا إلى كسر الاحتكار الغربي لتصدير الأسلحة، فعقدتا كلٌّ على حدة سنة 1955 صفقات أسلحة مع تشيكوسلوفاكيا.

ثم إن مصر كانت تسيطر على خليج العقبة، وزادت من فعاليتها الرقابية سنة 1955 على كل السفن التي تدخل هذا الخليج، ومنعت الملاحة "الإسرائيلية" فيه، وبذلك شلّت الحركة التجارية لميناء "إيلات" نافذة الكيان الإسرائيلي إلى دول آسيا وشرق أفريقيا. كما فرضت مصر قيوداً - على مرور السفن في قناة السويس - من شأنها تشديد الحصار الاقتصادي على الكيان الإسرائيلي. كما نشطت العمليات الفدائية الفلسطينية عبر قطاع غزة ــ وبدعم مصري - ضد الكيان الإسرائيلي خلال الفترة 1955-1956. كل ذلك أثار مخاوف وانزعاج الكيان الإسرائيلي الذي سعى لاقتناص أي فرصة لتوجيه ضربة إلى مصر.

وفي الوقت نفسه، كانت الولايات المتحدة قد عرضت على مصر قرضا مالياً لبناء السد العالي ذي الحيوية الكبرى للاقتصاد المصري. لكن رفض مصر لإقامة حلف بغداد (الذي انضمت إليه العراق وتركيا وإيران وباكستان) والذي استهدف ربط مصالح المنطقة بالقوى الغربية، ومواجهة "الخطر الشيوعي"، مع إبعاد الأنظار عن الخطر الصهيوني- الإسرائيلي الذي يربض في قلب المنطقة، أدّى إلى سحب أمريكا عرضها في 19 يوليو 1956. وحتى تقوم مصر بتوفير الأموال اللازمة لبناء السد العالي، أعلن جمال عبد الناصر في 26 يوليو 1956 تأميم الشركة العالمية لقناة السويس. مما شكل ضربة كبيرة للمصالح الاقتصادية البريطانية. وكانت فرنسا - من جهتها - منزعجة من الدعم المصري للثورة الجزائرية ضدها.[97]

وقد اتفق الكيان الإسرائيلي مع بريطانيا وفرنسا على توجيه ضربة إلى مصر، تؤدي للاحتلال الإسرائيلي لسيناء، والاحتلال البريطاني الفرنسي لقناة السويس. وقد انبنت الخطة، التي وقعت عليها الأطراف الثلاثة في سيغر (قرب باريس) في 23 أكتوبر 1956، على أن تبدأ القوات "الإسرائيلية" بشن هجوم واسع في 29 أكتوبر بهدف الوصول إلى قناة السويس. ثم تقوم بريطانيا وفرنسا بإصدار إنذار مشترك في اليوم التالي يطالب القوات المصرية والإسرائيلية بالانسحاب مسافة عشرة أميال (16كم) عن جانبي القناة، وبسماح مصر لبريطانيا وفرنسا باحتلال مؤقت لعدد من النقاط الرئيسية فيها، بحجة حماية الملاحة الدولية. وإذا ما رفضت مصر- وبالطبع سترفض -

ستقوم القوات البريطانية والفرنسية بإنزال قواتها في القناة، والهجوم على مصر لإجبارها على الرضوخ.[98]

بدأ الكيان "الإسرائيلي" هجومه في 29 أكتوبر 1956 بعملية إنزال جوي لقوات المظليين في ممر متلا على بُعد 65كم شرقي قناة السويس.وحدثت معارك محدودة شرقي القناة، لكن صدور الإنذار البريطاني الفرنسي في 30 أكتوبر، ورفض مصر له أوجد الذريعة التي يحتاجانها، فبدأت بريطانيا وفرنسا في 31 أكتوبر عدوانهما على مصر، وخصوصا المطارات والموانئ، وتم تدمير جزء كبير من الطيران المصري. وقررت مصر من جهتها التركيز على حماية القناة ومثلث بورسعيد - القاهرة - السويس، فأمرت الجيش المصري بالانسحاب من قطاع غزة وسيناء والتركز غربي قناة السويس. وتمكن الكيان الإسرائيلي دون صعوبة من احتلال غزة خلال 31 أكتوبر - 3 نوفمبر 1956، ومن احتلال سيناء خلال ثمانية أيام (29 أكتوبر - 5 نوفمبر 1956).

وصدر قرار الأمم المتحدة في 2 نوفمبر بإيقاف الحرب وانسحاب قوات الغزو البريطاني الفرنسي من الأراضي المصرية، وانسحاب الكيان الإسرائيلي إلى ما وراء خطوط الهدنة.ورغم أن هذه القوات تلكأت في تنفيذ القرار إلا أن الضغط السوفيتي - الأمريكي اضطرهما لذلك، فانسحبت القوات البريطانية-الفرنسية في 22 ديسمبر 1956، وأكملت القوات الإسرائيلية انسحابها في 6 مارس 1957. وقد تعهدت مصر في المقابل بمنع عمليات الفدائيين من قطاع غزة، ووافقت على وضع قوات دولية على حدودها. كما ضمنت "إسرائيل" بتعهد القوى الكبرى حق الملاحة البحرية في خليج العقبة، وكذلك الطيران الجوي فوقه.[99]

كانت هذه الحرب إيذانا بانتهاء العهد الاستعماري البريطاني - الفرنسي في المنطقة، ووراثة أمريكا والاتحاد السوفيتي لحلبة التنافس فيها. ورغم أن هذه الحرب كشفت مدى تطور القوة العسكرية الإسرائيلية، وعجز الجانب المصري (في ظل المعادلات الدولية) عن حماية نفسه،فضلا عن تحرير فلسطين، فإن هذه الحرب جندت تعاطفا عربياً وإسلامياً واسعاً مع مصر، وأظهرت القيادة المصرية وخصوصا عبد الناصر "أبطالا" في المقاومة والدفاع عن الحقوق العربية، وبرز نجم عبد الناصر كأمل للجماهير العربية في النصر والتحرير.

حرب 1967:

لم يكن الكيان الإسرائيلي سعيداً بمساحة الأرض التي أقتطعها من فلسطين في حرب 1948، وكان يرغب في المزيد من التوسع لفتح الباب بشكل أكبر أمام الهجرة والاستيطان اليهوديين. كما كان يفتقد الشعور بالأمان في حدوده مع البلدان العربية التي يبلغ طولها 981 كيلومتراً، وكانت بعض المدن الساحلية تبعد حوالي 15كيلومتراً عن الحدود مع الضفة الغربية مما يسهل ضرب العمق "الإسرائيلي".

ومن جهة أخرى، فإن الإعلام العربي، وخصوصا المصري الناصري، كان يبالغ في الإمكانات العسكرية العربية، ويعد الجماهير العربية التي كانت تنتظر بصبر وحماس بإلقاء اليهود في البحر وتحرير فلسطين. غير أن الإستراتيجية العسكرية المصرية ظلت منذ حرب 1956 وحتى 1967 إستراتيجية دفاعية وليست هجومية، بخلاف ما كان يتحدث به الإعلام المصري صباح مساء. وحتى الخطة الدفاعية "قاهر" التي وضعتها القيادة المصرية في ديسمبر 1966 لم يطبق منها إلا جزء بسيط، إذ إن القسم الأكبر من ميزانية الدفاع كان يذهب إلى اليمن فلا يبقى إلا القليل لتحصين سيناء.[100]

ولم تكن الأوضاع الداخلية العربية ولا العلاقات العربية ـ العربية لتبعث على السرور، فقد عانت الشعوب العربية من أزمات فقدانها للحريات السياسية، ومن الفساد السياسي والاقتصادي، ومن الإعلام الموجه، وعاش عبد الناصر هاجس ملاحقة الإسلاميين، وضربهم وخصوصاً الإخوان المسلمين. وتم تقديم البديل الإيديولوجي الاشتراكي - القومي والذي لم ينجح في خطط التنمية، ولا في تحقيق أساس نهضوي عربي، ولا في تفجير طاقات الأمة بشكل يتوافق مع عقيدتها وتراثها وثقافتها. وإذا كانت الجماهير العربية قد عاشت لحظات من النشوة والحماس عندما تحققت الوحدة المصرية - السورية (الجمهورية العربية المتحدة) في فبراير 1958، فإنها سرعان ما صدمت عندما حدث الانفصال في سبتمبر 1961. واستنـزف الجيش المصري والميزانية المصرية في حرب اليمن ودعم الثورة فيها منذ 1963. وقد شهدت البلاد العربية نوعا من التضامن السياسي الظاهري خلال 1964 ـ 1965، حيث بدأت مؤتمرات القمة العربية بالانعقاد منذ يناير 1964. غير أن الخلاف سرعان ما دب بينها منذ 1966 وعادت الحرب الإعلامية لتكون مادة الإذاعات والصحف خصوصا في دول الطوق. وقد صادق الرؤساء والملوك العرب في يناير 1964 على تشكيل القيادة الموحدة لجيوش البلدان العربية، وتم تعيين الفريق المصري علي علي عامر قائداً عاماً، لكن الخلافات العربية منذ 1966 عطلت عمل هذه القيادة، كما افتقد عدد من البلدان العربية للجدية في التعامل معها. فإما أنها لم تلتزم بأوامرها، أو أنها لم تدفع نصيبها في الميزانية، أو أنها رفضت دخول قوات عربية أخرى إلى أراضيها، مما عطل تنفيذ عمل هذه القيادة وخططها.[102]

وكان إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية سنة 1964، وبدء حركة فتح عملياتها العسكرية منذ مطلع 1965 من العوامل التي دفعت الكيان الصهيوني لسرعة التحرك ومحاولة فرض واقع جديد، يضمن له التوسع والأمن، ويجر البلاد العربية إلى التسوية السلمية وفق الشروط "الإسرائيلية". وكان لقيام الكيان الصهيوني بمشروع تحويل مياه الأردن الذي بات معروفا للعرب منذ 1963، وضرب الصهاينة وتدميرهم لكل المشروعات العربية المقابلة لتحويل النهر، كان له أثره في ازدياد التوتر.[103]

بدأ الكيان الصهيوني تصعيد الأوضاع قبل عام من الحرب، فهاجم قرية السموع قرب الخليل في الضفة الغربية، وقام بمذبحة راح ضحيتها حوالي 200 شهيد. كما حدث تسخين متبادل على الجبهة السورية حيث كان الصهاينة يقومون بطلعات جوية لقصف المواقع السورية، بينما كانت المدفعية السورية تقصف المستوطنات اليهودية المجاورة. وتزايدت التهديدات "الإسرائيلية" لسوريا، وتواترت الأخبار عن حشود

"إسرائيلية" على الحدود السورية خصوصا في أوائل مايو 1967.[104]

وقامت مصر، وفق اتفاقية الدفاع المشترك مع سوريا، بالإعلان عن عزمها الدخول في الحرب منذ أول دقيقة إذا ما تعرضت سوريا للهجوم. وتبع ذلك إجراء مصري بطلب سحب قوات الأمم المتحدة عن خطوط الهدنة مع الكيان الإسرائيلي فانسحبت في 23 مايو 1967، وقامت مصر في 23 مايو بإغلاق مضائق تيران (خليج العقبة) في وجه الملاحة الإسرائيلية، مما كان يعني عملياً أن مصر تجهز "لمعركة المصير" مع الكيان الإسرائيلي. غير أن الفرقتين العسكريتين اللتين حركتهما مصر إلى سيناء لم يكونا يكفيان بالكاد للدفاع عن الحدود المصرية، فضلاً عن تحرير فلسطين. وبتعبير آخر فإن الإجراءات التي كانت تتخذ على الأرض لم تكن متوافقة مع المواقف السياسية الحادة ولا التصريحات الإعلامية النارية. وكرر الرئيس المصري قبل الحرب بأيام استعداد بلاده للحرب ... "إذا أرادت إسرائيل الحرب، فأهلا وسهلاً ... " لن نتركهم ليقرروا الوقت ويقرروا المكان ... علينا أن نستعد لننتصر ... وقد تمت هذه الاستعدادات ... ونحن على استعداد لمواجهة إسرائيل".[105]

وكانت الولايات المتحدة تعلم تفصيلات الهجوم"الإسرائيلي" المرتقب، والذي أعطته الضوء الأخضر، وأسهمت في تضليل الجانب المصري حول الاستعدادات "الإسرائيلية"، واستطاعت الحصول على تعهدات مصرية بألا تكون مصر البادئة في الحرب.[106] بل وصل الأمر بعبد الناصر أن يعلن بنفسه"نترك المبادأة والضربة الأولى لإسرائيل"،[107] وبذلك ضمن الكيان "الإسرائيلي" أن يكون صاحب الضربة الأولى. وقدمت الولايات المتحدة ضمانات لـ"إسرائيل" بحمايتها إذا ما تعرضت للخطر، كما وفّرت لها المعلومات اللازمة من خلال وسائلها الاستخباراتية والأقمار الصناعية. أما الاتحاد السوفيتي الذي كان يُعدُّ حليفاً لمصر، فإنه ضغط أيضاً على مصر بألا تكون البادئة في الحرب،ولم يساعدها في الحصول على المعلومات اللازمة عن التحشدات الإسرائيلية.[108]

كانت هناك قناعات كافية لدى "الإسرائيليين" والأمريكان والروس أن عبد الناصر لا يريد الحرب، بل وغير مستعد فعليا لها، على الأقل من خلال حساب تحركات الجيش المصري واستعداداته. لقد كان قرار الحرب "إسرائيلياً" وبغطاء أمريكي.

بدأت "إسرائيل" الحرب[109] صباح 5 يونيو 1967 بقصف تسعة مطارات مصرية على شكل موجات متعاقبة بين كل موجة وأخرى عشر دقائق، وخلال ثلاث ساعات (8:45صباحا - 12ظهراً) كان قد تم تدمير 80% من الطيران العسكري المصري وهو قابع على المدرجات دونما حركة. ويشير حسين الشافعي، نائب الرئيس المصري في ذلك الوقت، إلى وجود "مؤامرة" أو"خيانة" على مستوى عال في الجانب المصري. ويدلّل على ذلك بأنه رأى بنفسه الطائرات العسكرية المصرية المدمرة وهي مصفوفة بجانب بعضها وكأنما كانت معدة للتدمير حسبما ذكره في حديث لبرنامج شاهد على العصر الذي بثه تلفزيون الجزيرة القطري في نوفمبر 1999 .

وعلى أي حال، فقد تم إخراج سلاح الجو المصري من المعركة منذ الساعات الأولى، كما تم تدمير معظم سلاح الطيران السوري والأردني بنفس الطريقة، ومنذ الساعات الأولى للحرب مع الأردن وسوريا. وبذلك فقدت الجيوش العربية غطاءها الجوي، وأصبحت وحداتها العسكرية البرية ودباباتها ومدرعاتها فريسة سهلة للطيران "الإسرائيلي".

وقد تمكنت القوات البرية "الإسرائيلية" منذ ظهر 5 يونيو من اختراق الحدود المصرية، وتغلبت على المقاومة المحدودة التي واجهتها في غزة ورفح وخروبة وأبو عجيلة وبير جفجافة وغيرها،وتقدمت باتجاه قناة السويس. وفي الساعة الثامنة من مساء اليوم الثاني للمعركة (6يونيو) أصدر القائد العام للقوات المصرية عبد الحكيم عامر أمراً بالانسحاب من سيناء، على أن يتم خلال ليلة واحدة!!

وأعلنت مصر مساء 7 يونيو قبولها لوقف الحرب، وأبلغته إلى الأمين العام للأمم المتحدة، بينما استكملت "إسرائيل" احتلالها لسيناء في 8 يونيو 1967.

وفي الجبهة الأردنية بدأت المعارك في 5 يونيو بعد أن دمرت الطائرات الإسرائيلية 32 طائرة هوكر هنتر (هي كل سلاح الطيران الأردني) في مدرجاتها في مطاري عمان والمفرق. وحدثت معارك في مناطق القدس وجنين وقباطية والخليل،ومع مساء 6 يونيو كانت الدفاعات الأردنية قد انهارت، وصدرت الأوامر بالانسحاب إلى شرق الأردن وفي 7 يونيو كان الكيان الإسرائيلي قد أنهى احتلاله للضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية. ودخل جنوده حرم المسجد الأقصى وهم يهزجون"محمد مات ... خلف بنات" أي يقصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويصرخون "يالثارات خيبر" معلنين انتقامهم لهزيمة اليهود على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر سنة 629م - 7هـ، قبل نحو 1340سنة .

أما المعارك على الجبهة السورية، فبدأت في 9 يونيو بعد فراغ القوات الإسرائيلية من جبهتي مصر والأردن، وانتهت في 10يونيو باحتلال الصهاينة الجولان السورية. وكان ذلك صدمة كبرى لما تتمتع به الجولان من مزايا استراتيجية وإمكانات تحصينية هائلة بوصفها منطقة جبلية، ولأن القيادة السورية كانت تتوعد الصهاينة بمصير أسود إذا اندلعت الحرب، بل وصل الأمر بإعلامها حدّاً جعل أحد أهازيجه تقول إن طائرات الميغ "تتحدى القدر"[110] بينما ظهر مقال في افتتاحية مجلة جيش الشعب السورية في 25 أبريل 1967 يدعو إلى "خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد ... الذي يؤمن أن الله والأديان ... وكل القيم التي سادت المجتمع السابق، ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ"!!![111] لقد كانت الاستهانة بعقيدة الأمة وتراثها إشارة إلى حالة الخواء وضعف إرادة القتال التي يعانيها هؤلاء.

كانت هذه هي المعركة - الكارثة التي انتظرتها الجماهير العربية بشوق وشغف مدة 19 عاما، وصحت على هول الصدمة التي نبهتها

إلى حجم التضليل والخداع الذي كان يمارسه الإعلام العربي وقياداتهم السياسية.

وفيما يلي قائمة بما أمكن معرفته من خسائر الأطراف المشاركة في الحرب، فقد كانت خسائر القوت المصرية حوالي 10 آلاف من القتلى والمفقودين، وأسر 5500، ودمرت 80% من أعتدة الجيش المصري بينها 800 دبابة، و450 مدفعاً، 10 ألاف مركبة 305 طائرات (من أصل 360 طائرة) وخسرت القوات الأردنية 6049 قتيلاً و792 جريحا و150 دبابة، وخسرت القوات السورية حوالي ألف قتيل و560 أسيراً و60 طائرة (من أصل 120 طائرة) و70 دبابة، كما استولى الصهاينة على 150 دبابة. وبلغ عدد قتلى القوات الإسرائيلية حسب هيرتزوج 764 منهم 338 على الجبهة المصرية و285 على الجبهة الأردنية و141 على الجبهة السورية. وبلغ عدد الجرحى الصهاينة (حسب الموسوعة الفلسطينية) حوالي 800 على الجبهة المصرية، و1453 على الجبهة الأردنية، و306 على الجبهة السورية.[112] كما خسر الصهاينة 26 طائرة قتال و10 طائرات نقل على كل الجبهات.[113]

أما أبرز نتائج حرب 1967 فكانت:

1. **احتلال "إسرائيل" لما تبقى من فلسطين أي الضفة الغربية (5878 كم مربع)، وقطاع غزة (363 كم مربع)، واحتلالها لسيناء المصرية (61198كم مربع) والجولان السورية (1150كم مربع)، ليصبح مجموع الأرض التي يسيطر عليها الكيان الصهيوني 89359 كم مربع.**
2. **تشريد نحو 330 ألف فلسطيني.**
3. **سيطرة الكيان الإسرائيلي على منابع مياه الأردن، وفتح مضائق تيران وخليج العقبة للملاحة "الإسرائيلية".**
4. **تشكيل الكيان الإسرائيلي لخطوط دفاع جديدة، وتوفير عمق إستراتيجي يَسهُل الدفاع عنه بشكل أفضل.**
5. **فرضُ احتلال جديد للأراضي العربية، جَعَلَ هدف العرب فيما بعد استرجاع هذه الأراضي المحتلة سنة 1967، وليس تحرير فلسطين المحتلة سنة 1948.**
6. **تدمير القوات العسكرية لمصر والأردن وسوريا.**
7. **انكشاف ضعف القيادات العربية،وانعدام التنسيق فيما بينها، وعدم جديتها في تحرير فلسطين.**
8. **ظهور المقاومة الفلسطينية المسلحة وتعاظمها وبروز الهوية الوطنية الفلسطينية التي قرّرت أن تأخذ زمام المبادرة بعد أن تبين لها مدى الضعف العربي.**

حرب أكتوبر 1973:

أحدثت حرب 1967 جُرحاً غائراً في الكرامة العربية، فحــاولت الأنظمة العربية اسـتيعاب الصـدمة وتـوقي غضب الجمـاهير، فـاجتمع الزعمـاء العرب في الخرطوم في 29 أغسطس - 1 سبتمبر 1967 معلنين أن لا صلح ولا مفاوضـات ولا اعـتراف بالكيـان الإسـرائيلي،وتعهـدت الـدول العربية بــدعم دول الطــوق لإعــادة بنــاء قواتها المســلحة. ووجــدت الأنظمة العربية نفســـها - راضــــية أو راغمة - تفتح المجـــال للعمل الفـدائي الفلسـطيني، الـذي نشط بقـوة خصوصا في الفـترة 1967-1970 عــبر ســاحات دول الطــوق. ودخلت مصر وســوريا في حــرب

استنــزاف مع الكيـان الإسـرائيلي خصوصا في الفـترة من أغسـطس 1968 إلى أغسطس 1970، أسهمت إلى حد ما في إعادة الثقة ورفع المعنويـات لـدى الجيشـين المصـري والسـوري، بعد أن تمت مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية والقيـام بعـدد من الهجمـات التكتيكيـة. وحسب هيرتزوج فقد خسر الصـهاينة في حـرب الاستنــزاف نحو 500 قتيل و 2000 جريح.[113]

غير أن حرب الاستنـزاف لم تؤد إلى تسـخين الوضع بما يكفي لتـدخل دولي يجبر الكيان الإسرائيلي على الانسـحاب. مما جعل تفكـير قيـادة الأنظمة العربية يـتركز على شن حـرب محـدودة محسـوبة الخطـوات، لعلها تعيد الوضع إلى حدود ما قبل حـرب 1967 سـواء بنصر عسـكري أو بضــغط دولي ينشأ عن تحريك الوضع في المنطقــة، بعد أن أرادت "إسرائيل" وأمريكا تجميد الوضـع، ليحقق عامل الـزمن أقصى درجـات الفائدة للكيان الإسرائيلي.

لقد كان واضحا منذ البداية أن هدف العرب من حرب أكتـوبر هو "إزالة آثـار عـدوان 1967"، وليس تحرير فلسـطين والقضـاء على الكيـان الصهيوني.

شـكلت القيادتـان السياسـيتان المصـرية والسـورية "المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصـرية - السـورية المشـتركة". وعينتا الفريق أول أحمد إسماعيل علي، القائد العـام للقـوات المسـلحة المصـرية، قائـداً عاما للقوات المسلحة الاتحادية (مصر وسوريا)، ورئيساً للمجلس بـدءاً من 10 ينـاير 1973. وتـولى هـذا المجلس الإعـداد والتخطيط للحـرب. وفي 25 فـبراير 1973 اجتمع الرئيسـان السـوري والمصـري في بـرج العـرب غـرب الإسـكندرية واتخـذا قـراراً بـالحرب. وقد سـميت خطة الحرب"خطة بدر"، حيث انتُهى من إعداد تصـوراتها في صـيف 1973.[114] وفي 24 سبتمبر 1973 لاحظ "الإسرائيليون" وجـود اسـتعدادات سـورية - مصــرية للحــرب، وتم اتخــاذ حالة التــأهب الأدنى، وأخــذت التقارير تتولى لدى القيادة "الإسرائيلية" لكنها كانت لا تزال تشك في جدية الهجوم وتوقيته، وقامت في 3 أكتوبر بـدعوة الاحتيـاط، وأعلنت حالة التأهب في 5 أكتوبر. وتأكد لدى القيادة "الإسـرائيلية" أن سـوريا ومصر ستشـنان الحـرب في 6 أكتـوبر لكنها كـانت مـترددة في توجيه الضربة الأولى. وعندما اندلعت الحرب في السـاعة بعد ظهر 6 أكتـوبر لم تفاجأ بها القيـادة الإسـرائيلية، لكن كـان من الظـاهر أنه كـان لها وقع المفاجأة على القـوات الإسـرائيلية، خصوصا في قنـاة السـويس، مما يدل على أن الإجراءات الإسرائيلية لم تكن جادة بما يكفي لـدخول لحرب.[115]

بــدأت الحــرب بهجــوم 300 طــائرة مصــرية وســورية ضد المواقع الإسرائيلية، وفتحت آلاف المدافع في الوقت نفسه نيرانها على طول جبهات القتال في قناة السويس والجولان. واندفعت القوات المصرية لتحطيم خط الدفاع الإسرائيلي شرقي القناة "خط بارليف" في بضعة ســاعات، رغم أنه يعد من أقــوى وأعقد خطــوط الــدفاع العسـكرية. ونجحت القــوات المصــرية خلال ثلاثة أيــام في الزحف لمسـافة 12-15كم على الامتـداد الشـرقي لقنـاة السـويس. غـير أنها قـامت في الفترة من 9-13 أكتوبر "بوقفة تعبوية" أدت لهدوء نسبي على الجبهة المصرية المشتركة. وحسب الخطة المصرية - السورية المشتركة كـان

ينبغي على القـوات المصـرية الاسـتمرار في الزحف للسـيطرة على منطقة ممـرات متلا والجـدي بعمق 50كم تقريبـاً شـرقي القنـاة، ثم تطـوير الهجـوم بعد ذلك شـرقاً حسب تحسن ظـروف القتـال. لكن القيـادة المصـرية (الـتي كـانت تشـهد بعض الخلافـات في الـرؤى العسـكرية) أخفت نيتها عن سـوريا بـالتوقف على عمق حـولي 12 كم فقط، لأنها تـرى أن شـبكة الحماية الصـاروخية المضـادة للطـائرات لا تكفي أكـثر من هـذا المـدى لتغطية تقـدم القـوات المصـرية. وبسـبب الضغط السـوري قـامت القـوات المصـرية باسـتئناف هجومها في 14 أكتوبر لكنها منيت بخسائر جسيمة، ففقدت حوالي 250 دبابـة، بعد أن ابتعـدت عن المظلة الصـاروخية، فقـررت في نهاية اليـوم العـودة إلى مواقعها.

اسـتفادت القـوات الإسـرائيلية من الوقفة التعبوية المصـرية، ومن الجسر الجـوي الأمـريكي الـذي زودها بكميـات هائلة من الأسـلحة المتطورة، فأعادت ترتيب قواتها، وأخذت زمام المبادرة الإستراتيجية. وقامت مسـاء 15 أكتـوبر بتنفيذ خطة "القلب القـوي" الـتي اشـتهرت باسم "الغزالة"، والـتي تُنسب إلى الجـنرال أرييل شـارون. وقبل فجر 16 أكتوبر تمكنت بقيادة شارون من اختراق الخطوط المصرية وعبـور قناة السويس، وفتح "ثغرة الدفرسوار" غربي القناة، إلى الجنوب من مدينة الإسماعيلية. وعندما صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النـار كـان أقصى عمـق"إسـرائيلي" غـربي القنـاة يبلغ 25-30كم. غـير أن القوات "الإسرائيلية" تابعت هجومها، فاستكملت تطويق قوات الجيش الثـالث المصـري شـرقي القنـاة، واسـتولت على مينـاء الأدبية جنـوب غربي السويس، ووصلت إلى نقطة الكيلومتر 101، أي 101كم شرقي القـاهرة. وتم توقيف إطلاق النـار نهائيا في 28 أكتـوبر 1973.[116] ولـولا المقاومة الشـعبية البطولية للشـيخ حافظ سـلامة وإخوانه لسقطت مدينة السويس نفسها.

وعلى الجبهة السورية، حقق الهجـوم السـوري نجاحـات أولية سـريعة فـاخترق خط الـدفاع الإسـرائيلي بعمق 20كم داخل هضـبة الجـولان، وجرت معارك ضارية، غير أن تفوق القوات الجوية "الإسرائيلية" ساعد القوات البرية على صد الهجوم السوري. وتحولت القوات الإسـرائيلية إلى الهجوم المضاد في 8 أكتـوبر، وبعد يـومين كـانت قد اسـتعادت ما فقدته في الجـولان. وأخـذت تهـاجم منـاطق شـمال شـرق الجـولان، وتمكنت من احتلال ما عـرف "بجيب سعسـع" الـذي ذُكر أنه شـمل 39 قرية سورية لم تكن محتلة من قبل وبمساحة 551كم مربـع، ووصـلت القوات الإسرائيلية إلى مسافة 25كم من دمشق. ووصلت إلى سـوريا قـوات عراقية وأردنية للمسـاعدة، وقـامت سـوريا بـالتجهيز لهجـوم مضـاد، غـير أنه ذُكر أن موافقة مصر على قـرار مجلس الأمن بوقف الحـرب في 22 أكتـوبر قد فاجأ السـوريين، مما اضـطرهم لإيقـاف الحرب. وبعد ذلك اسـتؤنفت حـرب استنـزاف اسـتمرت نحو 80 يوما (13 مـارس ــ 31 مـايو 1973) لتتوقف حين تم التوقيع على اتفاقية فصل القوات.[117]

وعقدت مصر اتفاقية فك الاشتباك مع الكيان الإسرائيلي في 18 يناير 1974 نصّت على انسحاب القـوات الإسـرائيلية من غـربي القنـاة إلى مسـافة تبعد 20-30كم من شـرقي قنـاة السـويس، واحتفـاظ مصر بقوات محدودة في الأراضي التي استرجعتها شرقي القناة (بعمق 8 -

12كم). وفي 21 فبراير 1974 كانت القوات الإسـرائيلية قد انسـحبت من غربي القنـاة "ثغـرة الدفرسـوار". وعُقـدت اتفاقية فصل القـوات بين سـوريا والكيـان الإسـرائيلي في 31 مـايو 1974، وبنـاء عليهـا، انسـحبت الإسـرائيلية القـوات من جيب سعسع (551كم مربـع)، الـذي احتلته في حرب 1973، ومن مدينة القنيطرة وبعض ما حولها، والـتي احتلتها سنة 1967 (112كم مربع).[118]

وقد أظهرت الدول العربية تضامناً قويـاً مع مصر وسـوريا في الحـرب وأرسـلت تسع دول عربية قـوات عسـكرية محـدودة للمشـاركة في الحـرب. واسـتخدام العـرب لأول مـرة سـلاح النفـط، فقـررت الـدول العربية المنتجة للنفط في اجتماعها في الكويت في 17 أكتوبر 1973 تخفيض إنتاجها بنسـبة 5% شـهرياً وتطـبيق حظر كامل على تصـدير النفط إلى الولايـات المتحـدة وهولنـدا. وفي 22 أكتـوبر قـرر وزراء النفط زيـادة نسـبة خفض الإنتـاج إلى 25%. وحرصت الـدول النفطية في قراراتها ألا تتضـرر الـدول المؤيـدة للعـرب من حظر النفـط. وقد أدى حظر النفط إلى مواجهة الـدول الغربية أزمة شـديدة في الإنتـاج والتصنيع وشـئون الحيـاة اليوميـة، وولّـدت مخـاوف كبـيرة من أزمـات اقتصادية حادة في تلك البلدان. ولفتت انتباه مواطـني الـدول الغربية إلى دعم بلدانهم للظلم الذي يقع في فلسطين، وإلى انعكاسات هـذه القضية على حياتهم اليومية. ورغم أن الحظر النفطي اسـتمر أشـهراً قليلة إلا أنه كـان ذا تـأثير فعـال.[119] واسـتفادت الـدول العربية النفطية من تضاعف أسعار النفط مرات عديدة في مضـاعفة إيراداتها وتحسين اقتصادياتها.

ولا تجنح المصادر العربية لذكر خسائر الحرب، وخصوصا خسائر الجانب العربي، وقد قدّرت مصادر غير عربية عدد قتلى الكيان الإسـرائيلي بـــ 2552 قـتيلا، والمصـريين 7700 شـهيداً، والسـوريين 3500 شـهيداً. وقال هيرتزوج إنه على الجبهة السـورية قتل 772 "إسـرائيلياً" وجـرح 2453 وأسر 65، ودمرت 250 دبابة "إسرائيلية"، وأنه تم تدمير 1150 دبابة 222 طـائرة سـورية، أما على الجبهة المصـرية فتم تـدمير 292 طائرة مصرية،وقال إنه تم تدمير 102 طائرة إسرائيلية على الجبهتين السـورية والمصـرية.[120] وقـالت الموسـوعة - الفلسـطينية إن الإسرائيليين خسروا في الأيـام الأولى خمسة آلاف قتيل و400 أسـير و800 دبابة و120 طائرة.[121]

وكان من أبرز نتائج حرب 1973:

1. كسر أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر، وتحطيم نظرية الأمن الإسـرائيلية، وإثبـات إمكـان اسـتعادة أجـزاء من الأراضي المحتلة على الأقل بالقوة العسكرية.
2. أخذ العـرب زمـام المبـادرة، والانتقـال من الـدفاع إلى الهجـوم الإستراتيجي، وإثبات كفاءة وشجاعة المقاتل العربي.
3. تحقيق قـدر عـال من التضـامن العـربي، من خلال المشـاركة العسكرية، ومن خلال استخدام سلاح النفط.
4. تحقيق شعور بالثقة بالنفس،وارتفاع المعنويات بعد سنوات من الهزيمة والإحباط.
5. اسـتخدام الأنظمة العربية - خصوصا مصر - النتـائج السـابقة لتحريك الأوضاع السياسية، ومحاولة الوصول إلى تسوية سلمية

مع الكيــان الإســرائيلي، تضــمن عــودة الأراضي المحتلة ســنة 1967.

المقاومة الفلسطينية 1949 - 2001

أولا: مرحلة المد القومي العربي 1949- 1967

علق الفلسطينيون آمالهم بتحرير فلسـطين-في هـذه المرحلة بشـكل عام على الأنظمة العربيـة، وخصوصا مصر بزعامة جمـال عبد الناصـر، وكان شعار "الوحدة طريق التحرير" هو الشعار البراق لهـذه المرحلـة. وقد تم تغـييب دور القيـادة الوطنية الفلسـطينية بزعامة الحـاج أمين الحسـيني،في الـوقت الـذي ضُـمَّت فيه الضـفة الغربية إلى الأردن، ووضع قطـاع غـزة تحت الإدارة المصـرية. غـير أن شـعور العديد من الفلسطينيين في النصف الثاني من هذه المرحلة بعـدم جدية الأنظمة العربية في عملية التحرير دفعهم إلى إنشـاء منظمــات فدائية وطنية كـــان أبرزها حركة فتح، كما أن الأنظمة اضـــطرت لفتح المجــــال للفلسـطينيين للتعبـير عن "كينـونتهم" وهـويتهم ضـمن أطر يمكن ضبطها ومتابعتها فكان إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية سـنة 1964 بدعم مصري. والحـديث عن هـذه المنظمـات والتنظيمـات موجـود في فصل آخر من هذا الكتاب.

لقد كـان هـول الصـدمة عظيمـاً على الفلسـطينيين إذ وجد 800 ألف منهم (60% من شـعب فلسـطين) أنفسـهم لاجـئين مشـردين بعد أن فقدوا ما يملكون. وعاش معظمهم في خيام بالية دون عمل أو مصـدر رزق في ظروف اقتصادية وصحية واجتماعية ونفسية قاسـية. وكـانوا يعرفون أرضـهم ومسـاكنهم الـتي طـردوا منها بدقة فما كـانوا بحاجة لخرائط توضح لهم الطريق إليهـا، وكـانوا ينظـرون بحسـرة وألم عـبر حدود الهدنة مع الكيان الصهيوني. ولذلك تمـيزت الفـترة 1949-1956 بكثرة عمليات اختراق الحدود الفردية لاسترجاع ممتلكات للعـائلات، أو للانتقام من الصـهاينة الغاصـبين. واتخـذت المقاومة الفلسـطينية في هذه المرحلة أشكالاً بسيطة محدودة التأثير، بانتظار دور عربي حاسم. وتزايد الانتمـاء الفلسـطيني للمنظمـات الـتي ترفع شـعارات التحرير سـواء كـانت قومية ناصـرية أو بعثيـة، أو إسـلامية (إخـوان مسـلمون وتحرير)، أو يسارية وشيوعية.

لقد كانت عمليات اختراق الحدود كثـيرة جـداً خصوصا قبل عـام 1957 لدرجة أنها كـانت تتم بشـكل شـبه يـومي، وبالـذات عـبر قطـاع غـزة والضـفة الغربيـة. وتشـير التقـارير الـتي كـانت ترسـلها السـفارات البريطانية في تل أبيب وعمـان والقـاهرة، والـتي كـانت تحصل عليها عن طريق مصــادرها الخاصة أو عن طريق لجــان مراقبة الهدنــة، إلى كثرة هذه العمليات وإلى شكاوى "إسرائيلية" مُرَّة بسـببها، فينقل أحد التقــارير أن حــوادث الاخــتراق الحــدودي من جهة الأردن فقط ســنة 1952 بلغت 1533 (بمعـدل 4.1 حـادث يوميـاً) وكـان منها 14 حـادث قتــل، و37 حــادث "نهب"، و252 صــداماً (مســلحاً)، و1077 حـــادث "سـرقة"، و142 "محاولة سـرقة" و11 عملية "تخـريب". وقد أدى ذلك إلى وقــوع 207 قتلى و94 جريحــا، وتم القبض على 1851 شخصــاً [122]. وأشار تقرير آخر إلى أن حوادث اخـتراق حـدود الهدنة من جهة الأردن من ديسـمبر 1953 - نوفمـبر 1954 بلغ 725 حادثـاً.[123] كل هذا رغم أن جلـوب باشا رئيس أركـان الجيش الأردني كـان يؤكد دائما أن الأجهزة العسكرية والأمنية تفعل ما بوسعها لمنع هذه الاختراقـات.

[124] وسجل المفتش العام للشرطة الإسرائيلية مثلاً في الفترة من سبتمبر 1954 - فبراير 1955 تسعة حوادث قتل و140 حالة "نهب وسرقة" عن طريق قطاع غزة.[125]

ويبدو أن عمليات الاختراق الحدودي اتخذت أبعاد أكثر تنظيماً منذ أوائل سنة 1953 بتولي مجموعات فدائية فلسطينية منظمة عمليات فدائيــة. ونُقل عن تقرير للسفارة البريطانية في تل أبيب في 14 أبريل 1953 أن الاختراق الحدودي من قطاع غزة هو عمل بعض المنظمات السياسية المتطرفة، وأن الحكومة المصرية لا تشجعها، ولكنها لا تعمل ما يكفي لمنعها.[126] وظهرت بعد ذلك في تواريخ مختلفة إشارات إلى دور الإخوان المسلمين في العمليات واعتراف السلطات المصرية بذلك.[127]

وحسب تصريح أدلى به بن جوريون رئيس الوزراء الإسرائيلي في الكنيست في مارس 1956 فإن عدد الإصابات الإسرائيلية بسبب الحوادث الحدودية سنة 1951 بلغ 137 إصابة، وفي سنة 1952 بلغ 147 إصابة، وسنة 1953 بلغ 162 إصابة، وسنة 1954 بلغ 180 إصابة، وسنة 1955 بلغ 258 إصابة.[128] أما حسين أبو النمل فينقل إحصائية تذكر أن عدد قتلى الإسرائيليين منذ توقيع وقف إطلاق النار في مارس 1949 وحتى حرب اجتياح القطاع وسيناء في آخر أكتوبر 1956 قد بلغ 1176 قتيلاً.[129]

وفي قطاع غزة، حيث كان الإخوان المسلمون يشكلون القوة الشعبية الأولى حتى سنة 1955، شكلوا تنظيما سرياً جهادياً كانوا ينتقونه من بين عناصرهم. ويظهر لكاتب هذه السطور بعد مقابلات عديدة أجراها أن هذا التنظيم كان على علاقة بالنظام الخاص للإخوان المسلمين المصريين. وكان يتولى توجيهه كامل الشريف من منطقة العريش وكان صلة الوصل محمد أبو سيدو حيث يتولى مسؤولية التنظيم وإيصال الأوامر إلى أفراده في القطاع الذي كان مقسوماً إلى ثلاثة أقسام. وكان أبو جهاد خليل الوزير مسؤولاً في منطقة غزة (شمال القطاع)، (خ.أ) في خان يونس (المنطقة الوسطى)، ومحمد يوسف النجار في رفح (جنوب القطاع). وقد نفذ هذا التنظيم عدداً من العمليات الفدائية خصوصاً التعاون مع البدو عن طريق عبد الله أبو مريحيل ومحمد حسن الأفرنجي. وقد استفاد الإخوان من وجود ضباط مصريين إسلاميين في الجيش المصري قاموا بتدريبهم سراً من أمثال عبد المنعم عبد الرؤوف.[130]

ومن العمليات المهمة التي أثارت دوياً كبيراً عملية الباص في 17 مارس 1954 حيث هاجمت مجموعة فدائية باصاً إسرائيلياً على طريق إيلات - بير السبع، قرب معاليه أكربيم مما أدى إلى مقتل 11 إسرائيلياً وجرح 3 آخرين. وقد عدَّها رئيس الوزراء الإسرائيلي عملية عسكرية مدبرة بعناية، وأشارت التحقيقات إلى أن مركز المجموعة الفدائية هو القسيمة جنوب شرقي العريش في سيناء، وأشير إلى احتمال أن يكون الإخوان المسلمون وراءها، كما وضعت احتمالات أخرى كأن تكون من تدبير جماعة المفتي الحاج أمين ...[131]

وكانت العمليات الفدائية تُقابل بردود فعل متغطرسة من الكيان "الإسرائيلي"، فيقوم بارتكاب المذابح وقصف المدنيين.وقد أحدثت مذبحة غزة، التي قامت بها القوات الصهيونية في 28 فبراير 1955

وقتلت 39 شـهيدا وجـرحت 32 آخـرين، أحـدثت انتفاضة عارمة في القطاع في الأول من مارس 1955 تطالب الحكومة المصـرية بإعطـاء الحرية للعمل الفـدائي الفلسـطيني، وتوفـير السـلاح.[132] ووافقت الحكومة المصـرية تحت هـذا الضـغط، ووضـعت العمل الفـدائي تحت إشراف الضابط المصري مصطفى حافظ الذي قام بواجبه خـير قيـام. وقد تـدفق الآلاف للتطـوع، غـير أنه تم انتقـاء العناصر ذات الخـبرات القتالية والمعرفة بـالأرض، وزاد عـدد الفـدائيين العـاملين عن ألـف. وقـاموا بعمليـات يومية خاطفـة، وأحيانا بعمليـات كبـيرة واسـعة. وقد نشط هـذا العمل بـدءاً من شـهر سـبتمبر 1955 وحـتى أكتـوبر 1956. وكان من أبرز العمليات: العملية التي شارك فيها أكثر من 300 فدائي توغلوا حـتى عمق 47كم ووصـلوا إلى مسـافة 15كم إلى الجنـوب من تل أبيب. وقد قسموا أنفسهم إلى مفارز متعـددة، قـامت بـالكثير من العمليـات، وأثـارت الـرعب في الكيـان الإسـرائيلي، وقد تواصـلت عملياتهم أسبوعاً كـاملاً 6-ـ 13 أبريل 1956. وقد استشـهد مصـطفى حافظ في 14 يوليو 1956 نتيجة انفجار طرد ملغوم، أرسـله له رجـال الموساد "الإسرائيلي" عن طريق عميل مزدوج.[133]

وقد توقف العمل الفـــدائي عن طريق قطـــاع غـــزة إثر الاحتلال "الإسرائيلي" للقطاع وسيناء (آخر أكتـوبر 1956 -ـ 6 مـارس 1957)، وبعد تعهد الرئيس عبد الناصر بإغلاق الحدود في وجه الفدائيين.

وكـان المصـريون قد حـاولوا في أثنـاء فـترة تبـنيهم للعمل الفـدائي تصـعيد هـذا العمل عن طريق حـدود الأردن وسـوريا ولبنـان، وأشـارت التقـارير إلى تجنيد حـوالي 200 فـدائي في الأردن، وإلى دور الملحق العســكري المصــري في الأردن في ذلــك، وإلى وجــود شخصــيات فلسطينية تتولى تنظيم هذا العمل خصوصاً في منطقة الخليـل، وإلى دعم المفتي الحاج أمين لهذا العمل، وإلى تمويل السعودية وتشجيعها للعمل الفدائي. ومن الملفت للنظر أن العمليـات الفدائية قد نشـطت عن طريق الضـفة الغربية إثر الاحتلال الإسـرائيلي للقطـاع، وتحـدثت التقـارير عن قـدوم ألفي شـاب إلى منطقة الخليل أعمـارهم تـتراوح بين 18-ـ 25 سنة ويفترض أنهم جـاهزون كاحتيـاط للوحـدات الفدائية العاملة في الأردن.[134] واشتكت جولدا مـائير في خطابها في الأمم المتحدة في 17 يناير 1957 أنه حدث منذ 3 ديسـمبر 1956 حـوالي 30 هجومـاً على الكيـان الإسـرائيلي. وقـالت مـذكرة أعـدتها الخارجية البريطانية في 12 مارس 1957، أن عدداً أكبر من العمليات حدث في الأسابيع الستة الماضية معظمها عن طريق الأردن.[135]

ويبـدو أنه بعد التعهد المصـري بـإغلاق البـاب في وجه العمل الفـدائي والانسـحاب الإسـرائيلي من القطـاع في مـارس 1957، وبعد ضـبط الأمـور أمنيـاً بشـكل أقـوى في الأردن إثر حـدوث المحاولة الانقلابية الفاشـلة ضد الملك في العـام نفسـه، وقيـام الأردن بحظر أنشـطة الأحزاب السياسية، فإن العمل الفدائي تعـرض لانتكاسة كبـيرة، ودخل في حالة من الجمود، جعلت الفلسطينيين يتطلعون إلى أشكال جديدة من العمل الفدائي.

وتعد الفـــترة 1957-ـــ 1964 فـــترة مخـــاض في تـــاريخ المقاومة الفلســـــطينية، إذ أخـــــذت تظهر العديد من المنظمـــــات الفدائية الفلسـطينية كـان أبرزها حركة فتح الـتي أنشـأها ابتـداء وانحـاز إليها

رجال الإخوان المسلمين الراغـبين في تفجـير الثـورة ضـمن مشـروع وطني فلسـطيني، والجبهة القومية لتحرير فلسـطين المعروفة باسم "شـباب الثـأر" وهي تنظيم إقليم فلسـطين التـابع لحركة القومـيين العــرب، والــتي بــدأت عملياتها في نوفمــبر 1964، وجبهة تحرير فلسطين بزعامة أحمد جبريل التي بدأت عملياتها حـوالي 1965. ومنذ انطلاقة العمليات المسلحة لحركة فتح، وحتى حرب يونيو 1967، قـام جناحها العسكري "العاصفة" بشنِّ 200 عملية مسلحة.[136]

وقد اتهمت الأنظمة العربية الفــدائيين بالعمالة والرجعيــة، ومحاولة جرها للحرب مع العدو قبل الأوان، وقامت بملاحقة أفرادها وسـجنهم، ومنعهم من التحرك والعمـل. وسُـجن ياسر عرفـات في سـجن المـزة السوري 51 يوماً، وعذب بعض الفدائيين وماتوا في السجون العربية.[137]

وعندما أنشئت منظمة التحرير الفلسطينية سـنة 1964 قـامت بإنشـاء جيش التحرير الفلسـطيني على أسس الجيـوش النظاميـة، ووضـعت 85% من موازنتها لهــذا الجيش، وتم تــدريب عــدد من الكــوادر في الكليات العسكرية العربية، وبعض الـدول الصـديقة. وفي البلاد العربية التي رحبت بوجـود هـذا الجيش، تم تكـوين وحـدات عسـكرية اعتمـدت أساسـاً على الـدول المضـيفة في أمـور التـدريب والتسـليح والـدعم المـالي. وسُـمِّيت وحداته العسـكرية في سـوريا باسم قـوات حطين، وفي قطــاع غــزة باسم قــوات عين جــالوت، وفي العــراق باسم القادسية، أما الأردن ولبنان فرفضتا الوجود الفلسطيني المسلح. وقد وصل حجم جيش التحرير إلى ستة آلاف رجل، غير أن هـذا الجيش من الناحية العملية لم يكن أكثر من وحدات عسكرية في الجيوش السورية والمصــرية والعراقية تشــرف عليه م.ت.ف اســمياً، وســعت الأنظمة العربية إلى تأكيد ولاء أصحاب الرتب العالية لها. ولم يخض هذا الجيش أية أعمال عسكرية، بسبب طبيعته النظامية حتى اندلاع حــرب 1967.[138]

ثانيا: مرحلة 1967- 1987

اختلفت "تضـاريس ومناخـات" عمل المقاومة الفلسـطينية في هـذه المرحلة بحيث يمكن تجزئتها إلى مراحل أصــــغر. فقد ســــمّى أحد الباحثين المرحلة حتى سنة 1970 بمرحلة "الطوق الكامـل" حيث كـان العمل الفدائي يسـتخدم كافة الحـدود العربية مع الكيـان الإسـرائيلي، والمرحلة 1970ـ 1982 مرحلة "الطوق المنقوص" حيث عملت أساساً من خلال الحدود اللبنانية، بعد أن خسرت قدرتها على العمل من خلال الحـدود الأردنية والمصـرية، ولم تسـتفد إلا بشـكل ضـئيل من الحـدود السورية، والمرحلة 1982ـ 1987، مرحلة "الطـوق المفقـود" بعد أن أجبرت على الخروج من لبنان.[139] غير أن ما يجمع هذه الفــترة في مرحلة واحدة كونها تمثل الإصـرار الفلسـطيني على خيـار المقاومـة، وتمركُز عمل المقاومة وقيادتها في خارج فلسطين المحتلة.

كــانت الفــترة 1967ـــ 1970 هي الفــترة الذهبية للعمل الفــدائي الفلســطيني والثــورة الفلســطينية، فقد أخذ الفلســطينيون زمــام المبـادرة في مواجهة المشـروع الصـهيوني، بعد أن انكشف لهم مـدى ضــعف الأنظمة العربية إثر هزيمة 1967. واضــطرت الأنظمة تفاديــاً لموجــات الغضب الشــعبي لإفســاح المجــال أمــام العمل الفــدائي

الفلسطيني، الذي استطاع أن يبني قواعد قوية وواسعة خصوصــاً في الأردن ولبنـــان. واســـتطاعت المنظمـــات الفدائية بقيـــادة حركة فتح الوصول إلى قيادة منظمة التحرير الفلسـطينية، حيث تـولى رئاسـتها منذ فبراير 1969 ياسر عرفات.

وقد كانت هناك حـوالي ثلاثين منظمة فدائية ذات أيـديولوجيات وطنية وقومية واشـتراكية وشـيوعية. ولم يتـوفر للإسـلاميين منظمة فدائية بسبب الأجواء العدائية ضدهم، لدرجة أنه تم سحق منظمة حاول الحـاج أمين الحسيني إنشاءها، غير أن العديد من الإسلاميين عملوا من خلال فتح.

وكانت معركة الكرامة في 21 مارس 1968 إنجازاً مادياً ومعنوياً كبيراً للعمل الفـدائي الفلسـطيني وخصوصا "فتح" حيث قتل 70 إسـرائيلياً وجرح أكثر من 100 آخرين فيما استشهد نحو مائة فـدائي، واستشـهد من الجيش الأردني الذي شارك بفعالية 60 شهيداً وجرح 65 آخــرون.[140] وقد اندفع بعد هذه المعركة الـتي أثبتت فعالية العمل الفـدائي، وإمكانية كسر التحـدي الصـهيوني عشـرات الآلاف للتطـوع. وخلال 48 سـاعة كـان قد طلب خمسة آلاف شـخص الانضـمام إلى فتح، فقبلت 900 فقط حسب إمكانياتها ومعاييرهـــا. وأخـــذت العمليـــات الفدائية تتطـور نوعـاً وكمـاً من 12 عملية شـهرياً سـنة 1967، إلى 52 عملية شــهرياً ســنة 1968، إلى 199 عملية ســنة 1969، إلى 279 عملية شهريا في الأشهر الأولى من سنة 1970.[141]

وأسّس الإخوان المسلمون معسكرات الشيوخ في الأردن 1968-1970 حيث عملـوا تحت غطـاء حركة فتح مع احتفـاظهم باسـتقلالية إدارية داخليــة. وقد تم تــدريب حــوالي 300 رجل توزعــوا على ســبع قواعد فدائيــة. ورغم محدودية إمكانــاتهم ومشــاركتهم فقد قــدموا نمــاذج متميزة في عمليات قوية كـالحزام الأخضر 31 أغسـطس 1969، ودير ياسين 14 سبتمبر 1969، وسيد قطب 28 أغسطس 1970، واستشهد منهم 13 رجلاً.[142]

وفي فــترة الســبعينيات من القــرن العشــرين، وجد العمل الفــدائي الفلسطيني نفسه مستنـزفاً في معمعة الخلافات مع الأنظمة العربية. إذ فقد قاعدة وجوده في الأردن، بعد الاشتباكات المسـلحة العنيفة مع الجيش الأردني في ســـــبتمبر 1970 ويوليو 1971. وعـــــانى العمل الفـدائي من الحـرب الأهلية اللبنانية (1975ـ 1990) حيث اسـتهدفت القـوى الـتي فجـرت تلك الحـرب، ممثلة بحـزبي الكتـائب والوطنـيين الأحرار المسيحيين، الوجـود الفـدائي الفلسـطيني أساسـاً. كما عـانى الفدائيون من تذبذب العلاقات مع سـوريا، ومن تـدهورها مع مصر منذ منتصف الســـبعينيات، مما أضـــعف قـــدرتهم على الفعل النضـــالي العســـكري. غـــير أن المقاومة الفلســـطينية تمكنت من الاحتفـــاظ بقاعـدتها في لبنـان حـتى سـنة 1982، واسـتمرت في عملياتها عـبر الحدود اللبنانية، وإن كانت بمعدلات أقل.

ومن العمليات النوعية الـتي تجـدر الإشـارة إليها عملية سـافوي الـتي قامت بها فتح في تل أبيب في 6 مارس 1975 وأدت إلى مقتل وجرح خمسين جندياً وخمسين مدنياً، وعملية كمـال عـدوان الـتي قـامت بها فتح أيضا بقيــادة دلال المغــربي في 11 مــارس 1978، مما أدى إلى مقتل 37 وجرح 82 من الصهاينة. وبرزت الجبهة الشعبية في عمليـات

اختطـاف الطـائرات خصوصا سـنة 1970 والـتي أثـارت دويّـاً عالميـاً واسعاً، وقام أفرادها - بالتعاون مع الجيش الأحمر اليابـاني - بـالهجوم على مطار اللد (المطار الرئيس في الكيان الإسـرائيلي) في 30 مـايو 1972، مما أدى إلى مقتل 31 وجـــرح 80 آخـــرين. ونفـــذت الجبهة الشـعبية - القيـادة العامة عملية الخالصة في 11 أبريل 1974 مما أدى إلى مقتل 18 إسـرائيلياً وجـرح 15 آخـرين، كما نفـذت الجبهة نفسـها عملية الطـــائرة الشـــراعية في نوفمــــبر 1987. ونفـــذت الجبهة الديموقراطية عمليـات مهمة مثل عملية ترشـيحا في 15 مـايو 1974 الـتي أدت إلى مقتل 27 إسـرائيلياً وجـرح الكثـير، وعمليـات بيسـان وطبرية وعين زيف والقدس.[143]

وقامت منظمة أيلول الأسود (التي يشتبه بصلتها السـرية بحركة فتح) بعدد من العمليات التي أحدثت دويا عالمياً، لأنها اسـتهدفت المشـروع الصـهيوني ومؤيديه في العـالم، خصوصا في الفـترة 1971-ـ 1973. وكــان من أبـــرز عملياتها عملية ميــونيخ في 5 ســبتمبر 1972 الــتي اسـتهدفت الرياضـيين الإسـرائيليين في دورة الألعـاب الأولمبية بغية مبادلتهم بأسرى في السجون الإسرائيلية. وقد أدت العملية إلى مقتل 11 رياضياً إسرائيلياً واستشهاد خمسة فدائيين.[144]

وفي أواخر السبعينيات، وبعد أن أخذ التيار الإسلامي يستعيد شـعبيته، ظهر تنظيم "أســرة الجهــاد" في الأرض الفلســطينية المحتلة ســنة 1948 والذي قـام بعشـرات العمليـات إلى أن قضي عليه سـنة 1980. كما بــدأ الإخــوان المســلمون بالإعــداد الســري للعمل المســلح، لكن انكشـــاف الأمر ســـنة 1984 أدى للقبض على زعمـــاء التنظيم وعلى رأسهم الشيخ أحمد ياسـين. وأخـذت حركة الجهـاد الإسـلامي بـالتكون منذ مطلع الثمانينيـات وتنفيذ العمليـات، وقـام تنظيم سـرايا الجهـاد بتنفيذ عمليات نوعية أهمها عملية بـاب المغاربة في 16 أكتـوبر 1986 والتي أوقعت حوالي ثمانين إصابة في جنود العدو الصهيوني.

وكانت المواجهات العسكرية العنيفة مع العدو الصهيوني أحد السـمات البارزة للفترة 1970-ـ 1982 خصوصاً على الساحة اللبنانيـة. فقد ظل الكيان الصـهيوني يقـوم بعمليـات متواصـلة ضد قواعد الفـدائيين في لبنـان، بل وضد المـدنين وقـراهم ومحاصـيلهم ليوجد جـواً من العـداء للثورة، وليحـاول معاقبة أولئك الـذين يـدعمونها. أما بالنسـبة لقـوات الثـورة الفلسـطينية، فقد كـان أعـداد أفرادها في لبنـان (من مختلف المنظمات الفدائية) بحـدود 12-ـ 15 ألف مقاتـل،[145] وكـانت تتمتع بإرادة قتال عاليـة، ومرونة في الحركـة، وخـبرة في حـرب العصـابات، كما وفرت لنفسها تسليحاً خفيفاً ومتوسـطاً متناسـباً مع وجودها في بلد عربي مضيف.

وكان من أبرز الحملات الإسرائيلية على الفدائيين في لبنان الهجمـات المتتابعة على منطقة العرقـوب 1970-ـ 1972، وعملية اغتيـال ثلاث من قيادات منظمة التحرير في بيروت في 10 أبريل 1973،وهم محمد يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر. وفي الفترة 14-ـ 21 مارس 1978 شنت القوات الإسرائيلية عملية اجتياح واسعة للجنوب اللبناني. وقد وجـوبهت بمقاومة فلسـطينية عنيفة اسـتخدمت أسـلوب حـرب العصابات. غير أن القوات الإسرائيلية أقامت شـريطاً "أمنيـاً" حـدودياً

في جنوب لبنان على طول الحدود مع فلسطين المحتلة، ونصّبت الرائد اللبناني المنشق سعد حداد قائداً للشريط، حيث أعلن فيما بعد في 19 أبريل 1979 ما أسماه "دولة لبنان الحر" التي كانت في حقيقتها منطقة استعمار صهيوني بوجه لبناني عميل، يسعى لحماية اليهود في شمال فلسطين المحتلة. وقد استشهد في عملية الاجتياح هذه حوالي 700 لبناني وفلسطيني معظمهم من المدنيين.[146]

وقد أثبتت المقاومة الفلسطينية جدارتها وكفاءتها في معركة الشقيف في 19 أغسطس 1980 عندما تمكنت من صد هجوم إسرائيلي يبلغ 15 ضعف عددها، ويتفوق عليها بكافة أنواع الأسلحة، وقد تكبد العدو خسائر كبيرة أجبرته على الانسحاب.[147] وفي الفترة 10-ـ 24 يوليو1981 قامت الطائرات والمدافع "الإسرائيلية" بقصف وحشي متواصل للمدن والقرى وقواعد الفدائيين في منطقة النبطية، شملت 46 مدينة وقرية مما أدى لاستشهاد 150 وجرح 600 آخرين. وقد ردت المقاومة الفلسطينية بقصف مدفعي وصاروخي على نحو 30 قاعدة عسكرية ومستعمرة وبلدة "إسرائيلية" شمال فلسطين المحتلة، وعلى مواقع جيش لبنان الجنوبي العميل. وقد ثبتت المقاومة بقوة، وردت بعنف، مما اضطر الإسرائيليين لتوقيف حملتهم، والاعتراف بفشلهم.[148]

هوامش الكتاب

---

[97] حول الظروف والأسباب التي أدت إلى حرب 1956، انظر: الكيلاني، مرجع سابق، ص 159-178.

[98] المرجع نفسه، ص 191-192.

[99] حول مجريات حرب 1956 ونتائجها، انظر: المرجع نفسه، ص 185-190، وانظر أيضاً: Herzog, op. cit., pp. 111-141.

[100] الكيلاني، مرجع سابق، ص 266.

[101] انظر: المرجع نفسه، ص 221-231، وص 264-270.

[102] المرجع نفسه، ص 220، وص 261-263.

[103] المرجع نفسه، ص 231.

[104] المرجع نفسه، ص 259-260.

[105] المرجع نفسه، ص 226-228.

[106] المرجع نفسه، ص 276.

[107] المرجع نفسه، ص 224-226.

[108] حول مجريات حرب 1967، انظر: المرجع نفسه، ص 237-247، والموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 170-178، وانظر: Herzog, op. cit., pp. 145-191.

[109] انظر: محمد بن عبد الغني النواوي، رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي، ج1: مؤامرة الدويلات الطائفية (دون مكان: دون ناشر، 1983)، ص 398.

[110] المرجع نفسه، ص 397.

[111] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 174-177، و Herzog, op. cit., pp. 165, p. 183.

[112] الكيلاني، مرجع سابق، ص 239.

[113] Herzog, op. cit., p. 220، وانظر حول حرب الاستنزاف في: الكيلاني، مرجع سابق، ص 319-348.

[114] حول الاستعداد المصري - السوري للحرب، انظر: الكيلاني، مرجع سابق، ص 351، وص 377-381.

[115] حول التأهب "الإسرائيلي"، انظر: عبد الستار قاسم، وغازي ربابعة، "الحروب الإسرائيلية"، في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص 298-304.

[116] حول الحرب على الجبهة المصرية، انظر: الكيلاني، مرجع سابق، ص 363-368، وص 435-447، والموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 191-194، وانظر: Herzog, op. cit., pp. 231-284.

[117] حول الحرب على الجبهة السورية، انظر: الكيلاني، مرجع سابق، ص 368-372، والموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 188-191، والنواوي، مرجع سابق، ص 452، وانظر: Herzog, op. cit., pp. 285-307.

[118] الكيلاني، مرجع سابق، ص 448-452.

[119] المرجع نفسه، ص 389-390، والموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 194-195.

[120] Herzog, op. cit., p. 306, pp. 310-311.

[121] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 193.

[122] انظر هذا التقرير في ملف: F.O. 371/104779.

[123] انظر التقرير في: F.O. 371/111098.

[124] انظر مثلاً: Tel., British Embassy (Amman) to F.O. no. 465, 1 Confidential, F.O. 371/115908.

[125] F.O. 371/115897.

[126] انظر التقرير في: F.O. 371/104779.

[127] انظر مثلاً: رسالتين من السفارة البريطانية في القاهرة إلى الخارجية البريطانية بتاريخ 14 ديسمبر 1954، و26 يناير 1955، ورسالة من السفارة البريطانية في تل أبيب إلى الخارجية البريطانية في 8 فبراير 1955، محفوظة في ملف: F.O. 371/115896، وانظر ملف: F.O. 371/111107.

[128] Dispatch, British Embassy (Tel Aviv) to Lloyd, 10 Mar. 1956, F.O. 371/121773.

[129] حسين أبو النمل، قطاع غزة 1948-1967: تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية (بيروت: مركز الأبحاث (م.ت.ف)، 1979)، ص 66.

[130] ضمن هذه المقابلات: مقابلة مع محمد الخضري، جدة، 15 سبتمبر 1998، وفوزي جبر، الكويت، 20 نوفمبر 1999، وخ. أ.، 17 سبتمبر 1998 (اعتذر عن الإشارة إلى اسمه الصريح).

[131] انظر ملفات: F.O. 371/111077, 111098-111100.

[132] الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص 397.

[133] الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص 393-396، وأبو النمل، مرجع سابق، ص 101-123.

[134] حول التقارير البريطانية المتعلقة بهذا الموضوع، انظر ملفات: F.O. 371/115904, 115909-115911، وهي تتحدث عن التطورات سنة 1955، وانظر ملفات: F.O. 371/121776, 128160 وهي تتحدث عن التطورات سنة 1956.

[135] F.O. 371/128157.

[136] انظــر: هلينا كوبــان، المنظمة تحت المجهــر، ترجمة ســليمان الوزني (لندن: دار هاي لايت، 1984)، ص 221، ورياض نجيب الـريس ودينا حبيب نحاس، المسار الصعب: المقاومة الفلسطينية: منظماتهـا، أشخاصها، علاقاتها (بيروت: دار النهار، 1976)، ص 37، وص 49، وص 241.

[137] رياض الريس، مرجع سابق، ص 40.

[138] المرجع نفســه، ص 101-102، والموســوعة الفلســطينية، ج2، ص 117-121، وج3، ص 314-315.

[139] الكيلاني، مرجع سابق، ص 473.

[140] هناك إحصاءات متضـاربة حـول خسـائر الأطـراف المختلفة في المعركة، انظر مثلاً: الموسوعة الفلسـطينية، ج3، ص 638، والكتـاب السنوي للقضية الفلسطينية لعـام 1968، ص78-81، وص119-121، ورياض الريس، مرجع سابق، ص42.

[141] صلاح خلف، مرجع سابق، ص 96-98.

[142] انظر: محسن صالح، الطريق إلى القدس، ص 196-198.

[143] انظر حول هذه العمليات في: الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص 489-490، وص 539-540، وج2، ص 313-314، وج3، ص 661-662، وج4، ص 42.

[144] انظــر: المرجع نفســه، ج4، ص 414، وريــاض الــريس، مرجع سابق، ص 85-62.

[145] الكيلاني، مرجع سابق، ص 493.

[146] حول اجتياح جنوب لبنان سنة 1978، انظر: المرجع نفســه، ص 486-487، وعبد الســتار قاسم وغــازي ربابعــة، "الحــروب العربية الإسرائيلية"، في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص 309.

[147] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 638-641.

[148] الكيلاني، مرجع سابق، ص 487-488.

حرب 1982:[149]

هــدف الكيــان الإســرائيلي من حــرب 1982 إلى ضــرب المقاومة الفلسطينية في لبنان وتدمير بنيتها العسكرية، والقضاء على مشـروع الثورة الفلسطينية بتحرير فلسطين من خلال الكفاح المسـلح، وجرّها إلى مشاريع التسوية وفق الشروط والمعايير "الإسـرائيلية"، خصوصـاً وأن الأنظمة العربية هجـرت الخيـار العسـكري أو لم تعد تـراهن عليـه. واستفاد الكيان الإسرائيلي من ظروف خروج مصر من الصراع العربي - الإسـرائيلي بعد توقيعها اتفاقيـات كـامب ديفيد في سـبتمبر 1978، ومن انشـغال العـرب بـالحرب العراقية ــ الإيرانيـة، فضلا عن الـدعم الأمريكي للكيان الإسرائيلي الذي ازداد قوة في ولاية الرئيس ريغان.

وقد ادعى الكيـان الإسـرائيلي أن هـدف الحـرب هو تحقيق "سـلامة الجليل" أي حماية المستوطنات اليهودية في شمال فلسـطين المحتلة من الصواريخ والعمليات الفلسـطينية. مع العلم أنه لم تحـدث عمليـات من هـذا النـوع منذ 24 يوليو 1981 وحـتى 4 يونيو 1982. بينما قـام الكيان الإسرائيلي في الفترة نفسـها بخـرق المجـال الجـوي اللبنـاني 2125 مرة، وخرق المياه الإقليمية اللبنانية 652 مرة، فضـلاً عن بعض حوادث الانتهاك براً.

بدأ الاجتياح "الإسرائيلي" للبنان في 4 يونيو 1982 واشترك فيه 125-150 ألف جنـدي (من أصل 170 ألفـاً هم قـوام الجيش "الإسـرائيلي" العامل) تساندهم 1600 دبابة، و1600 ناقلة جنود مدرعة، و600 مدفع وراجمة صواريخ، والقوات الجوية والبحرية، أي أنها كانت حـرب اقتلاع للوجود العسكري الفلسطيني، في جو من الاطمئنان إلى عـدم وجـود أي تحـرك عـربي جـاد، فـتركت الحـدود شـبه فارغة مع البلاد العربية الأخرى.

وقد تمكنت القـوات "الإسـرائيلية" من اجتيـاح جنـوب لبنـان ووسـطه بسرعة كبـيرة تسـاندها القـوى الكتائبيـة، وفي يـوم 9 يونيو كـانت قد وصلت إلى مشارف بيروت. وقد حـاولت القـوات السـورية المتمركـزة في البقاع والشـوف التصـدي لهـا، لكن القـوات "الإسـرائيلية" تمكنت من تدمير شبكة الصواريخ السـورية، وأسـقطت في معـارك جوية مائة طـائرة عسـكرية سـورية فانكشـفت القـوات السـورية البرية أمـام الطيران الإسرائيلي، واضطرت القوات السورية للانسـحاب بعيـداً عن محاور القتال منذ 11 يونيو.

وقد استمرت معركة بيروت 65 يومـاً (9 يونيو - 12 أغسـطس 1982). ووصـلت القـوات "الإسـرائيلية" إلى طريق بـيروت دمشـق، ودخلت بـيروت الشـرقية في 11 يونيو حيث قصر الرئاسة في بعبـدا، وحيث وجدت ترحيباً من تحالف القـوات اللبنانية الكتائبيـة. وقد أكملت حلقة حصـارها على بـيروت الغربية في 14 يونيو حيث تجمع فيها نحو 12-13 ألف مقاتل فلسطيني واللواء السوري الـ85. وقد قررت المقاومة الفلسـطينية الصـمود، وقـدمت نموذجـاً لملحمة بطوليـة، فشل العـدو خلالها وعلى مدى شهرين من احتلال رقعة صغيرة هي منطقة بـيروت الغربية، رغم شراسة القصف والحصار ومحاولات الاقتحام والهجمـات براً وبحراً وجواً، واستخدام أحدث وأشد وسائل الـدمار. وفي 30 يونيو كان قد استشهد نحو 15 ألف مدني من جراء الغزو الإسرائيلي.

وقد اضطرت القـوات "الإسـرائيلية" للموافقة على وقف إطلاق النـار في 12 أغسـطس 1982، بعد أن فشـلت في احتلال بـيروت الغربيـة. غير أن القوات "الإسـرائيلية" حققت أهـدافها بشـكل عـام. إذ اقتضت الترتيبات خروج المقاومة الفلسـطينية وقيـادة م.ت.ف من لبنـان بعد أن تجمعت في بيروت، مما أدى إلى خروج حـوالي 11 ألف فلسـطيني مقاتل (نحو 8300 من المنظمـــات الفدائية 2600 من جيش التحرير الفلسطيني و175 جريحاً) وذلك وفق ترتيبات تضمن سلامتها، وقد تم ذلك في الفـترة 21 ـــ 31 أغسـطس 1982، حيث توجه المقـاتلون الفلسـطينيون إلى معسـكرات في سـوريا والعـراق وتـونس واليمن

(الشـــمالي والجنـــوبي) والجزائر والســـودان. ولم تحـــترم القـــوات "الإسرائيلية" تعهداتها، فقد اقتحمت بيروت الغربية بعد أسـبوعين من خــروج المقاومة الفلســطينية، وأشــرفت بنفســها على تنفيذ قــوات الكتائب والوطـنين الأحـرار وغـيرهم من القـوى المسـيحية المتعصـبة لمـذابح صـبرا وشـاتيلا في 16-ـ 18 سـبتمبر 1982 والـتي أدت إلى استشهاد نحو 3500 فلسطيني ولبناني من المدنيين الأطفال والنساء والشيوخ ...

أَدّت حرب 1982 إلى استشهاد وجرح نحو 55 ألف فلسطيني ولبناني، وإلى تـــدمير معظم البنية التحتية للمقاومة الفلســـطينية في لبنـــان بحيث لم تعد تشـكل خطــراً جــاداً على الكيــان الصــهيوني، ووجــدت م.ت.ف نفسها بعيدة عن فلسطين، محرومة من العمل العسكري في دول الطوق.[150] وكسب تيار "الواقعية" في م.ت.ف دفعـات جديـدة باتجاه تبني الحلول السلمية، وأخذ تركـيز م.ت.ف ينصب بعد ذلك على النضـــال السياســـي. وعـــانت من محـــاولات فـــرض الهيمنة عليها أو تجاوزها، كما عانت من الاختلافات الداخليـة، ووقع انشـقاق في حركة فتح بزعامة أبو موســى. ورغم البطــولات الــتي أبــداها المقـــاتلون الفلســطينيون، فــإن حــرب 1982 كشــفت عن اختراقــات وتــرهلات ونقــاط ضـعف في جسد الثــورة، كما دفعت إلى مراجعة الايديولوجية التي يجب أن ينبني عليها الصراع مع العدو.

ولم تــدم ســعادة الكيــان الصــهيوني بتحقيق أهدافــه، إذ ســرعان ما ظهـــرت المقاومة اللبنانية ممثلة خصوصا بحـــزب اللـــه، حيث حـــولت الجنــوب اللبنـــاني إلى ســاحة حــرب تــوالت فيها العمليــات اليومية وسقوط القتلى "الإسـرائيليين". فقد جـرى اغتيـال الـزعيم الكتـائبي بشير الجميل الذي نصـبته "إسـرائيل" رئيسـاً على لبنـان بعد أيـام من انتخابه. وتم تدمير مقر القيادة العامة للقوات "الإسرائيلية" في صـور في 12 نوفمبر 1982 حيث قتل 75 عسكرياً "إسرائيلياً"، وهوجم مقر الحاكم العسكري الإسرائيلي في صـور في 4 نوفمـبر 1983 وقتل 19 إسرائيلياً. وأفشلت القوى الوطنية الإسلامية الوجود المشبوه للقوات متعددة الجنسيات في لبنـان، فـدمرت السـفارة الأمريكية في بـيروت في 18 أبريل 1983 وقتلت 80 شخصــاً، ودمــرت مقر قيــادة القــوات الأمريكية في 23 أكتــوبر 1983 وقتلت 239 جنــدياً. كما ضــربت مقر قيادة القوة الفرنسية في 23 أكتوبر و21 ديسمبر 1983 مما أدى إلى مقتل 71 جنـدياً. وتمكنت المقاومة من إفشـال الاتفـاق بين الحكومة اللبنانية والكيان الإسـرائيلي الـذي وُقِّع في 13 مـايو 1983، حيث تم إسقاطه في 5 مارس 1984، لأنه اتفاق ينتقص من الحقـوق اللبنانية الكاملة في السـيادة والاسـتقلال. كما أخـذت المقاومة الفلســطينية تعـود شـيئاً فشـيئاً إلى لبنـان - وإن بدرجة أقل مما سـبق - وتتـولى القيام ببعض العمليات والدفاع عن المخيمات الفلسطينية.[151]

وقد اضطرت القوات الإسرائيلية للانسـحاب في 4 سـبتمبر 1983 إلى خط نهر الأولي، ثم قررت في 14 يناير 1985 تحت الضربات القاســية للمقاومة إلى الانســـحاب من كثـــير من المنـــاطق على ثلاث مراحل أتمتها في يونيو 1985، وأبقت قواتها فقط في الشــريط الحــدودي، الذي عهدت بإدارته إلى عميلها إنطوان لحـد. وهو شـريط في جنـوبي لبنان يتاخم الحدود مع فلسطين وبعمق 5 ــ 20كم داخل لبنـان.[152] وقد تــوالت ضـربات المقاومة للقـوات الإسـرائيلية وعملائها في هـذا الشريط حتى تم تحريره في 24 مايو 2000.

ثالثاً: مرحلة 1987-2001:

كانت أبرز مظاهر المقاومة المسلحة للمشروع الصهيوني في هذه المرحلة الانتفاضة المباركة، وانتفاضة الأقصى، وهزيمة الكيان الإسرائيلي في جنوب لبنان وانسحابه. وتميزت هذه المرحلة بأن القوى الفلسطينية الأساسية التي تبنت المقاومة المسلحة طوال العشرين سنة السابقة ممثلة في قيادة م.ت.ف وحركة فتح قد جنحت إلى خط التسوية السلمية. بينما ظهرت فصائل فلسطينية جديدة تبنت العمل العسكري وفق منظور إسلامي جهادي، وبرعت في تنفيذ العمليات العسكرية في الداخل. فتحولت حماس قيادة الفعاليات الجهادية وإلى جانبها - وإن بدرجة أقل - حركة الجهاد الإسلامي.

وكان من مظاهر هذه المرحلة أن مركز الثقل في المقاومة المسلحة انتقل إلى الداخل الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد أن كان متركزاً في الخارج. وفيما يلي أبرز مظاهر المقاومة المسلحة.

الانتفاضة المباركة:

حدثت شرارة الانتفاضة المباركة في يوم 9 ديسمبر / كانون أول 1987 إثر استشهاد أربعة عمال فلسطينيين في حادث دهس متعمد في اليوم الذي سبقه. وقد قررت حركة الإخوان المسلمين منذ تلك الليلة المشاركة في الانتفاضة وتوجيهها، فبدأت -بترتيبها- المظاهرات العارمة بعد صلاة الفجر 9 ديسمبر من مسجد مخيم جباليا، وسقط الشهيد حاتم أبو سيس، ثم سقط الشهيد رائد شحادة في مظاهرة أخرى قرب مستشفى الشفاء. (وأصدر الإخوان المسلمون بيانهم الأول باسم حركة المقاومة الإسلامية "حماس" في 13 ديسمبر 1987 التي عدّوها امتداداً لهم وجناحهم الضارب). وتوالى سقوط الشهداء واتسعت المظاهرات لتعم أرجاء الضفة والقطاع وليشارك فيها كافة أبناء الشعب.[153] وتميزت هذه الانتفاضة بأربعة مظاهر:

الأول: أن أهل "الداخل" المحتل (الضفة والقطاع) أخذوا زمام المبادرة النضالية الجهادية، بعد أن كانت بيد العمل من "الخارج".

الثاني: أن التيار الإسلامي شارك بقوة وعنف وفاعلية، وبرز على ساحة المواجهة بحجم منظم مؤثر.

الثالث: أنها شملت كافة قطاعات الشعب الفلسطيني واتجاهاته وفئاته العمرية.

الرابع: أنها اتسمت بالجرأة والتضحية، والمشاركة الواسعة للأطفال والفتيان والنساء، وبالمظاهر النبيلة من إيثار وتعاون وشهامة، وبالقضاء على مظاهر العمالة والفساد من خمور ودور لهو ...

وتميزت المرحلة الأولى من الانتفاضة بالمواجهات الشعبية الواسعة والإضرابات، والمظاهرات، ومقاطعة الإدارة المدنية الصهيونية، وتنظيف المجتمع من العملاء ومروجي الفساد والمخدرات. وبعد نحو أربع سنوات أخذت تبرز المرحلة الثانية التي شهدت تنامي العمليات المسلحة ضد الصهاينة مع تراجع الأنشطة الجماهيرية الواسعة. وقد عدّت حركة فتح وحلفاؤها في م.ت.ف اتفاقية أوسلو (سبتمبر 1993) نهاية للانتفاضة فأوقفت فاعلياتها، أما الجهات الأخرى وخصوصا

حماس والجهـاد الإسـلامي فقد اسـتمرتا في فاعلياتهمـا، بل وصـعّدتا من عملياتهما الجهاديـة. غـير أن تشـكيل السـلطة الفلسـطينية في الأرض المحتلة في مايو 1994 أفقد الانتفاضة كثـيراً من وهجهـا، كما أفقدها المشـاركة الشـعبية الجماهيرية اليوميـة، فاقتصر الأمر بشـكل أكبر على أعضاء الحركات والتنظيمات.

ومن جهة أخـــرى، عـــدّت م.ت.ف الانتفاضة رافعة لها من محـــاولات العــزل والتهميش والتجــاوز، فسـعت لتوظيف الانتفاضة في تحقيق إستراتيجيتها للوصول إلى تسوية سلمية مع الكيـان الصـهيوني تـؤدي إلى انســحابه من الضــفة الغربية وقطـــاع غـــزة، وإقامة الدولة الفلسـطينية على أراضـيها. فبعد أسـبوعين من بـدء الانتفاضة دعت م.ت.ف إلى إضراب عـام يـوم 21 ديسـمبر 1987، وبـدأت صـور ياسر عرفــات وشــعارات المنظمة بــالظهور. وشــكلت م.ت.ف "القيــادة الوطنية الموحدة للانتفاضة" التي شـاركت فيها فتح والجبهة الشـعبية والجبهة الديموقراطيـة، وصـدر بيانها الأول في 8 ينـاير 1988.[154] وهكذا بدأ يتنـازع قيـادة الانتفاضة تيـاران هما التيـار الإسـلامي وتيـار م.ت.ف باستراتيجيات مختلفة وأهداف متباينة، ولكن بفعاليات جهادية نضالية متشابهة تقريبا ضد العدو، تمثلت في المظـاهرات والإضـرابات وقـذف الصـهاينة بالحجـارة وقنابل المولوتـوف الحارقة ... وغيرهـا. وكـانت الجمـاهير تسـتجيب لكلا التيـارين، وتلـتزم بالإضـرابات الـتي يدعوان إليها.

وقد قـام الكيـان الإسـرائيلي بـإجراءات لا مثيل لها لقمع الانتفاضـة، فاستخدم الرصـاص الحي، ورصـاص الدمـدم المحـرم دوليـاً، وأسـاليب تكسـير عظـام المتظـاهرين، ومختلف أشـكال تعـذيب الأسـرى، ومنع السفر، وقطع المواصـلات والاتصـالات الهاتفيـة، ومصـادرة الهويـات، وهدم المنازل، وقام بمصـادرة الأراضي في الضـفة والقطـاع بوتـيرة عاليـة، حيث بلغت المصـادرة خلال سـنوات الانتفاضة 457834 دونمـاً (وهي مسـاحة تزيد عن مسـاحة كل قطـاع غـزة بنحو 94كم مربــع). وشـملت الإجـراءات الإسـرائيلية الحصـار التمويـني وإغلاق الأسـواق وإتلاف المحاصـيل الزراعيــة، ومحــاولات كسر الإضــرابات التجاريــة. وتعرضت المؤسسات التعليمية والصحية الفلسطينية لعمليـات الإغلاق والمداهمة، فضلا عن انتهاك حرمة المساجد.[155]

وحسب إحصائية أعدتها م.ت.ف فإن السنوات الست الأولى للانتفاضة (ديســـمبر 1987 - ديســـمبر 1993) قد شـــهدت استشـــهاد 1540 فلسطينياً، وبلغ عدد الجرحى 130 ألفـاً، كما اعتقل حـوالي 116 ألفـاً لمدة مختلفـة.[156] وكـان من بين شـهداء الانتفاضة 353 طفلاً دون السادسة عشر من العمر.[157]

وتعد الانتفاضة المباركة من أروع وأنبل ما شهده تاريخ فلسـطين، بل والتاريخ الإنساني، عندما واجه شعب أعزل بأطفاله ونسـائه وشـيوخه إحـدى أعـتى وأقسى القـوى في العـالم، والمدججة بأحـدث أسـلحة البطش والـدمار. وانشَـدَّ العـالم إليه مُعجبـاً ومبهـوراً بــ"العين الـتي تحدَّت المخرز" وبالحجر الذي واجه الرصاصة والدبابـة. وكـان من أبـرز إنجازات الانتفاضة:

- أثبتت للكيـــان الإســـرائيلي فشل كافة أســـاليبه في تركيع وإذلال الشـعب الفلسـطيني . وأثبتت للعـالم أن هنـاك شـعباً مظلومـاً، أرضه محتلة، ويريد أن يعيش حراً مستقلاً.

- فضـحت الوجه القـبيح للكيـان الإسـرائيلي، وكشـفت زيف ادعاءاته المتعلقة بالمدنية والديموقراطيــة، وأظهرته قــوة اغتصــاب وإجــرام وقهر للآخرين.

- وجهت الانتفاضة ضــــربة قوية لمظــــاهر الاحتلال ومؤسســـــاته، وخصوصا الجواسيس والعملاء المتعاونين مع جهـاز المخـابرات، وتمت تصفية نحو 900 منهم.

- عـــالجت الانتفاضة بكثـــير من النجـــاح مظـــاهر الفســـاد الخُلقي والاجتماعي، وتضاعفت مظاهر التدين، وتحقق قـدر عـال من التكافل والــتراحم والإيثــار، وظهر جيل جديد من الشــباب والفتيــان، يمتــاز بالشجاعة والثقة بالنفس والاستعداد للتضحية والاستشهاد.

- عـادت القضـية الفلسـطينية لتتصـدر قائمة الاهتمامـات الدوليـة، ولتثبت أنها تستعصي على الضياع أو الذوبان.

- أظهرت الانتفاضة قوى جديدة، أصبحت ذات تأثير فاعل في الساحة الفلسطينية ممثلة بحماس والجهاد الإسلامي.

وقد كان من نتائج الانتفاضة أن عاد الوهج والألق لـــ م.ت.ف وقيادتها مرة أخرى، وفرضت نفسها على الساحة من جديد.

انتهت الانتفاضة المباركة بتوقيع م.ت.ف لاتفاقية أوســـلو (ســـبتمبر 1993)، وبدء مرحلة الحكم الذاتي في أجزاء من الضفة والقطاع (مايو 1944). غـير أن حمـاس والجهـاد الإسـلامي اسـتمرتا في فعالياتهما الجهادية وعملياتهما العسكرية النوعية، وخصوصـاً الاستشـهادية. فقد ردَّت حمــاس على مذبحة الحــرم الإبــراهيمي (فــبراير 1994) بخمس عمليات عنيفة، وردت على استشهاد يحيى عياش (الذي كـان مهندسـاً لعمليات أدت لمقتل 70 صهيونياً وجرح 340 آخرين) بعدة عمليات في 25 فبراير ـ 4 مارس 1996، هزت الكيان الصـهيوني وأفقدته صـوابه، واستدعت عقد مؤتمر دولي بمشاركة الدول الكبرى بهـدف ما أسـموه "محاربة الإرهاب".[158] ورغم محاربة السلطة الفلسـطينية والكيـان الإسـرائيلي (بالتعـاون مع المخـابرات الأمريكيــة) بكل شراسة وعنف للقوى المجاهدة، فقد تمتعت حماس بثقل جماهيري واسع، وكـان لها الدور الأكبر في الاستمرار في العمليات العسكرية، وإلى جانبها حركة الجهاد الإسـلامي الـتي قـامت بالعديد من العمليـات النوعية المتمـيزة التي أفقدت العدو صوابه.

هبّة الدفاع عن الأقصى:

يقوم المسلمون في فلسـطين بالسـهر على حماية المسـجد الأقصى ورعايته، إذ إن الاحتلال اليهودي - الصهيوني يستهدف تـدمير المسـجد الأقصى وبناء الهيكل مكانه. وهناك 25 منظمة يهودية متطرفة تسعى لتحقيق هذا الغـرض. وعـادة ما يجتمع المسـلمون بـالآلاف للـدفاع عن حرمة الأقصى (وهم لا يملكـون إلاّ حجـارتهم ولحـوم أجسـادهم) كلما حاول اليهود انتهاك حرمته.

ففي 8 أكتوبر 1990 حاولت جماعة "أبناء الهيكل" اليهودية وضع حجر الأسـاس لبنـاء الهيكل اليهـودي في سـاحة المسـجد الأقصـى، فقـام

المسلمون يدافعون عن حرمته، مما أدى لاستشهاد 34 وجرح 115 آخرين، بعد أن تمكنوا من إفشال المخطط اليهودي.[159]

وفي 24 سبتمبر 1996 قامت السلطات اليهودية بافتتاح نفق أسفل المسجد الأقصى، مما أدى إلى انتفاضة غضب عارمة شملت مدن وقرى فلسطين، ووقعت اشتباكات واسعة مع الشرطة والجيش الإسرائيلي، الذي استخدم الأسلحة المختلفة وطائرات الهيلوكبتر لقمع الانتفاضة. وتدخلت الشرطة الفلسطينية للدفاع عن الفلسطينيين ضد الهجمات الإسرائيلية، واستمرت الأحداث ثلاثة أيام 25 - 27 سبتمبر 1996، مما أدى لاستشهاد 62 فلسطينياً وجرح 1600 آخرين، وقتل 14 جندياً إسرائيلياً وجرح 50 آخرين.[160]

تحرير جنوب لبنان: 24 مايو 2000

نجح الكيان الإسرائيلي في احتلال شريط حدودي في جنوب لبنان في مارس 1978 (أكثر من 10%من مساحة لبنان) سعيا لإقامة منطقة أمنية عازلة تمنع ضرب الأهداف الصهيونية في شمال فلسطين المحتلة. ورغم صدور قرار مجلس الأمن رقم 425 بتاريخ 19 مارس 1978 القاضي بانسحاب الكيان الإسرائيلي من جنوب لبنان، إلا أن الكيان أصر على استمرار الاحتلال، ودعم إقامة جيش لبنان الجنوبي العميل ... وقد توسع الصهاينة في الاحتلال عندما اجتاحوا جنوب ووسط لبنان سنة 1982، لكن سرعان ما اضطروا للتراجع إلى منطقة "الحزام الأمني" سنة 1985 بسبب ضربات المقاومة اللبنانية.

وقد برز "حزب الله" في عمليات المقاومة بشكل رئيسي، وإلى جانبه قوى المقاومة الإسلامية والوطنية. وحولوا حياة الجنود الإسرائيليين وجيش العملاء إلى جحيم لا يطاق. وتمكن حزب الله من تحقيق نظام أمني واستخباراتي راقٍ أعانه على توجيه ضربات عنيفة ومفاجئة لقوى الاحتلال. واعترف جدعون عزرا أحد الخبراء الصهاينة أن "حزب الله أصبح أول قوة عربية تتغلب على "إسرائيل" في مجال الاستخبارات".[161] وقد استفاد حزب الله من دعم إيران له في مجالات التدريب والتمويل والتسليح. وتكون ذراعه العسكري من ستة آلاف مقاتل، وتتبعه وحدات هندسية، واستخبارات ميدانية، ومدفعية، وطبية. كما استطاع حزب الله العمل في بيئة شعبية مؤيدة، خصوصاً وسط القاعدة الشيعية حيث بنى شبكة خدمات تعليمية واجتماعية ودينية واسعة، كما تكفل بعائلات الشهداء والجرحى والمعتقلين، فضلاً عن امتلاكه لمحطة راديو وتلفزيون ومجلات أسبوعية ومواقع إنترنت، تخدم كلها بشكل منهجي فكر الحزب، وتبث روح المقاومة.[162]

وقد قام الكيان الصهيوني بمئات الهجمات على مواقع حزب الله وقوى المقاومة لكنه فشل من اقتلاع جذوة المقاومة التي كانت ترد من جهتها بقصف المستعمرات اليهودية في شمال فلسطين. وفي سنة 1993 قامت القوات الإسرائيلية بهجوم شامل تحت اسم "عملية تقديم الحساب" توغلت فيه في الجنوب اللبناني، وهاجمت مواقع حزب الله براً وبحراً وجواً، لكنها لاقت مقاومة عنيفة، واضطرت للانسحاب تحت ضربات حرب العصابات، وبناء على اتفاق شفوي على أساس ألا يطلق حزب الله أو القوات الإسرائيلية النار على المدنيين.

واســتمر حــزب الله في عملياته ضد المواقع العســكرية الإســرائيلية وجيش العملاء، وعادة ما كانت القوات "الإسرائيلية" تقوم بــالرد فــإذا ما أصابت قـذائفها المـدنيين كـان حـزب الله يضـرب الأهـداف المدنية الإسرائيلية. وعندما ضاق الكيان "الإسرائيلي" ذرعاً قــام بحملة قصف كبـيرة تحت اسم "عناقيد الغضـب" 11-27 إبريل 1996 اسـتخدم فيها الطائرات والمـدافع والبحرية ولكن دون زحف بـرِّي، ووجهت ضـرباتها للمدنيين والمنشآت العامة فضلاً عن حزب اللـه، وارتكبت مجـزرة قانا عندما أطلقت صواريخها على ملجأ للمدنيين فقتلت أكـثر من مائة من الأبريـاء. وقد فشـلت "عناقيد الغضـب" في تحقيق أهـدافها، واضـطر الكيـان الإسـرائيلي للموافقة على عـدم ضـرب المـدنيين، بينما خـرج حزب الله أكثر قوة، واستمر في عملياته ضد الأهداف العسكرية.

وتحول بذلك جنوب لبنان إلى عبء أمني كبير على الكيان الإسرائيلي، وتحول الجنود الصـهاينة إلى أهـداف متحركة لعمليـات المقاومـة. ولم ينفع جيش العملاء المكـون من ثلاثة آلاف عنصر والـذين تزيد ميزانيته عن مائة مليــون دولار في حماية الأمن الإسـرائيلي فضــلاً عن حماية نفسه. ولذلك قرر الكيـان "الإسـرائيلي" الانسـحاب، حيث خـرجت آخر فلوله من الجنـوب اللبنـاني في 24 مـايو 2000. وكـان ذلك أبلغ درس على قيمة العمل العســـكري والـــروح الجهادية في إجبـــار الكيـــان الإسرائيلي على الرضوخ والانسحاب، ولولا ذلك لظل هنــاك لما له من أطمــاع تاريخية توسـعية في المنطقــة. غــير أن منطقة صـغيرة هي مـزارع شـبعا ظلت محتلة ولا تـزال ضـربات المقاومة توجه إلى العـدو هناك.

انتفاضة الأقصى: 28 سبتمبر 2000 – يناير 2003

لقد كـــانت زيـــارة الإرهـــابي أريبل شـــارون زعيم حـــزب الليكـــود الاسـتفزازية إلى حـرم المسـجد الأقصى في 28 سـبتمبر 2000 هي الشرارة التي فجرت الانتفاضـة، وكـان واضـحاً أن ثمة مباركة وتأييـداً من رئيس الحكومة الصهيونية باراك للزيارة حيث زوده بستمائة جنـدي لمرافقتــه، واسـتنفر 3000 جنـدي وشـرطي في القـدس وأحيائهـا. وصـــمم المســـلمون على الـــدفاع عن الأقصـــى، حيث ســـقط في المواجهات الأولى خمسة شهداء، وجرح أكثر من مائة.

وكـانت عناصر اشـتعال الوضع وأسـباب تفجـيره جـاهزة، فقد وصـلت مفاوضـات التسـوية السـلمية إلى طريق مسـدود، وتأكـدت الأطمـاع الصــهيونية اليهودية في القــدس والمســجد الأقصــى، وظهر التعنت الإسرائيلي في قضايا اللاجئين والمستوطنات، واسـتمر الصـهاينة في مصادرة الأراضي وتوسيع المستوطنات. ولم يكونوا مستعدين للتنازل، ولا لتنفيذ القــرارات الدوليــة، عنــدما يتعلق الأمر بالقضــايا الجوهرية الحاسمة.

وبدا لباراك أن "الحل الوحيد الـذي لاح في الأفق كـان دفع الوضع إلى الإنفجـار"، كما قـال بنفسه في اجتمـاع سـري في 25 أكتـوبر 2000 [163]. ولعله أراد إظهار مزيد من التصـلب، وتحقيق مزيد من الشـعبية وسط المجتمع الصهيوني، واستثمار ذلك في وقف عملية التســوية أو إدخالها في أزمات متتالية، في الوقت الذي تزداد فيه عمليات الهجـرة اليهودية ومصــادرة الأراضي والاســتيطان، ليتســنى تحقيق مزيد من

الضغط على السلطة الفلسطينية، التي أثبتت السنوات الماضية قابليتها للتنازل والتراجع، وتخفيض سقف مطالبها.

لكن الصهاينة وُوجهوا ببركان غضب عارم ليس في فلسطين وحدها، وإنما في العالم الإسلامي أجمع، وحيثما وجدت الجاليات الإسلامية، وأبطل الله سبحانه وتعالى حسابات الصهاينة ومكرهم، وبرز الأقصى عصياً على الخضوع والاغتصاب عندما استعدّت الملايين أن تفديه ــ والأرض المباركة ــ بأرواحها، وأفرزت الانتفاضة عدداً من الحقائق والمؤشرات أهمها:

الأولى: أن الأمة الإسلامية لا تزال حية، رغم الجراح التي أثخنتها، وأن روح المقاومة والصمود والاستعداد للبذل والتضحية لم تخمد. فقد خرجت المظاهرات بعشرات الآلاف بل بمئات الآلاف في بلدان العالم الإسلامي، من الرباط في أقصى المغرب وحتى جاكرتا في أقصى المشرق الإسلامي،كلها تهتف للأقصى والقدس وفلسطين، وتطالب بالجهاد، وتقدم ما لديها من تبرعات ودعم. فكانت لحظات رائعة من أخوة الإسلام ووحدة الأمة. وظهرت تجليات الإمكانات الكبرى لهذه الأمة لتحقيق النصر لو سلكت طريق الجهاد.

الثانية: أن قضية فلسطين ــ بأرضها المباركة وبقدسها وأقصاها ــ قضية تجمع المسلمين وتوحدهم، بل وتكون سبباً في تجاوز خلافاتهم والتركيز على العدو الصهيوني المشترك. وأن هذه القضية غدت القضية المركزية للعالم الإسلامي، فلا قضية تجمعهم كهذه القضية، ولا عدو يجتمعون ضده كهذا العدو.

الثالثة :وجهت الانتفاضة ضربة قاسية لمشروع التسوية السلمية والتطبيع مع العدو، وبرز الخيار الجهادي كخيار أمثل.

الرابعة: أن هذه الانتفاضة انعكست على طريقة تفكير الناس وأسلوب حياتهم اليومي، فاشتد العداء للمشروع الصهيوني، واشتد العداء ضد أمريكا، وتكرست الروح الجهادية وروح التكافل، وتجاوبت الجماهير مع دعوات مقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية، حتى غيّر الملايين من أسلوب طعامهم وشرابهم اليومي، ومن لباسهم ووسائل تنقلهم واتصالاتهم وترفيههم، فكانت مدرسة تربوية اجتماعية شعبية، ربما احتاجت حركات الإصلاح سنوات للوصول إلى مثل نتائجها. فانخفضت مثلاً مبيعات مطاعم الوجبات السريعة (مكدونالدز، و K.F.C) بنحو 80% في السعودية، وانخفضت مبيعات مشروبات البيبسي كولا بنسبة 46% في مصر (وذلك حسب بعض التقديرات التي نشرت في نوفمبر 2000)، واتجه الناس للمأكولات والمشروبات الشعبية، بل واضطرت الشركات الأجنبية الأمريكية لإنزال إعلانات عدم العلاقة بالكيان الصهيوني، بل والتبرع لضحايا الانتفاضة، كما حدث مع مطاعم مكدونالدز التي تبرعت بريال سعودي لكل وجبة طعام، لعلاج جرحى الانتفاضة[164]. وتحولت مطاعم الوجبات السريعة الأمريكية إلى محلات مهجورة في كثير من الأماكن، وذلك بعد أن كانت تشهد إقبالاً متزايداً قبل الانتفاضة[165]. واعترف السفير الأمريكي في السعودية بخسارة بلاده لمئات الملايين من الدولارات في النصف الأول من سنة 2002 نتيجة حملات المقاطعة في السعودية. وتردد في شهر فبراير 2003 أن شركة كوكاكولا تدرس الانسحاب من

السوق المصرية نتيجة خسارتها أكثر من نصف رأسمالها بسبب حملات المقاطعة[166].

الخامسة: أن التسوية السلمية قائمة على الظلم والغصب، وأن جماهير الفلسطينيين والعرب والمسلمين ترفض التنازل عن حقوقها في الأرض المقدسة، وأنها لا تأمل من الغاصب الصهيوني سلاماً ولا خيراً، وأنها ترى في الجهاد الوسيلة الأنجع لاسترداد الحقوق.

السادسة: برزت أهمية الإعلام ودوره في التعبئة، إذ تمكن المسلمون من كسر الطوق الإعلامي الغربي المتصهين، من خلال الفضائيات العربية، وخدمات الانترنت والبريد الإلكتروني، وخصوصاً في المراحل الأولى من الانتفاضة.

ومن جهة أخرى، فقد تميزت هذه الانتفاضة بالمشاركة الشعبية الواسعة في كل أرجاء فلسطين المحتلة، وبمشاركة كافة التيارات الفلسطينية. كما تميزت في الوقت نفسه، بشدة القمع الصهيوني الذي تمادى في قتل الأطفال والأبرياء واستخدام الأسلحة المحرمة دولياً، وانكشفت سوءات أدعياء السلام "الصهاينة" الذين تباروا في سحق الانتفاضة المباركة.

وقد ثبت أبناء فلسطين ثباتاً بطولياً طوال الانتفاضة، ولا يزالون. وعلى الرغم من اختلاف المصادر في التحديد الدقيق لخسائر الانتفاضة وأعداد الضحايا، إلا أننا نختار هنا أرقام مركز المعلومات الوطني الفلسطيني التابع للسلطة الفلسطينية، وهي تميل إلى التوسط والاعتدال. وتشير إحصاءات هذا المركز إلى أن عدد شهداء الانتفاضة منذ اندلاعها في 29 سبتمبر 2000 وحتى 31 يناير 2003 كان 2271 شهيداً، بينهم 401 تحت سن الثامنة عشر. أما عدد الجرحى فبلغ خلال الفترة نفسها 33637 جريحاً. انظر الجدول المرفق المستخلص من إحصاءات مركز المعلومات الوطني الفلسطيني[167]:

	الشهداء			الجرحى		
	الضفة الغربية	قطاع غزة	المجموع	الضفة الغربية	قطاع غزة	المجموع
29/9 - 31/12/2000	193	126	319	6575	4798	11373
سنة 2001	342	253	595	7927	3660	11587
سنة 2002	803	479	1282	8010	1895	9905
شهر يناير 2003	34	41	75	602	170	772
المجموع	1372	899	2271	23114	10523	33637

أما تقديرات وزارة الصحة الفلسطينية للفترة نفسها (29 سبتمبر 2000 ـ 31 يناير 2003) فتزيد عن 2800 شهيد، بينهم أكثر من 530 شهيداً دون سن الثامنة عشر. وتضيف إحصاءات وزارة الصحة إلى

قائمتها الشـهداء الـذين لم يُسـجّلوا رسـمياً، والمرضى الـذين تُوفُّوا نتيجة منع الصهاينة سيارات الإسعاف من نقلهم للمستشفيات[168].

وقد تعمد الصـــــهاينة إطلاق النـــــار بقصد القتل وليس لتفريق المظاهرات، أو مجرد مواجهة حجارة المنتفضين، فـذكرت التقـارير أن 65% من الإصابات كانت في الجزء العلوي من الجسد، أي في الـرأس والرقبة والصـدر والبطن، وأن 40% من الإصـابات كـانت باسـتخدام أسـلحة محرمة دوليـاً مثل رصـاص الدمـدم الـذي يتفجر في الجسـد، ورصاص 500، و 800 الذي يستخدم عادة ضد الدبابات!!، وكانت نسبة 40% من الإصـابات ليـافعين وأطفـال تحت سن 18 سـنة[169]. كما تبـنى الصـهاينة سياسة الاغتيـال السياسي لنشـطاء الانتفاضـة، حيث استشهد من جراء ذلك حتى نهاية ديسـمبر 2002 نحو 180 فلسـطينياً من مختلف الفصـائل الفلسـطينية[170] مثل جمـال منصـور وجمـال سليم من قيادات حماس، ومثل أبو علي مصطفى الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وتشير التقديرات إلى أن الاقتصـاد الفلسـطيني (الناشئ المنهـك) قد خسر في السـنتين الأولـيين للانتفاضة نحو 11.7 مليـار دولار، أي بمعـدل خسـارة يزيد عن 16 مليـون دولار يوميـاً. وأن النـاتج المحلي انخفض بنسبة 70%، وارتفعت نسبة البطالة من 11% قبل الانتفاضة إلى 65% وتصل إلى 85% في حـالات الإغلاق والحصـار. كما تشـير التقديرات ذاتها إلى أن معدلات الفقر وصلت إلى 70%[171]. وفضلاً عن ذلك فقد قام الصهاينة بتدمير - أو إلحاق أضرار كبـيرة - بـأكثر من 11 ألف منـزل، واجتثوا مئات الآلاف من الأشجار المثمرة.

غير أن كافة الأساليب القمعية لم تفلح في قمع الانتفاضة التي أخذت طابعاً عسكرياً زاد قـوة مع تطـور الأحـداث، وتعمد الكيـان الصـهيوني أسلوب التعتيم الإعلامي، وإخفاء خسائره الحقيقية، وعـدم الإعلان إلا عما لا يمكن إخفـاؤه، وإعطـاء أرقـام أقل للحفـاظ على معنويـات المجتمع الصهيوني وجنوده، وعلى الثقة بالقيادة الصـهيونية، وإشـعار المجاهدين أن فعالياتهم وعملياتهم غير مؤثرة، فضلاً عن إضعاف روح التفاعل العربي والإسلامي مع القضية.

وقد شـاركت الفصـائل الفلسـطينية كافة في العمليـات العسـكرية. وتمـيزت حركة حمـاس بـدورها البـارز وبعملياتها الاستشـهادية الـتي أحدثت دويـاً هـائلاً، وزعـزعت الأمن في الكيـان الإسـرائيلي حيث نفذ معظمها في فلسـطين المحتلة سـنة 1948. وحـتى نهاية ينـاير 2003 حـدثت نحو 90 عملية استشـهادية نفـذت حمـاس أغلبها وأكثرها أثـراً. كما نفذت كل من كتائب شهداء الأقصى التابعة لفتح وسـرايا القـدس التابعة لحركة الجهـاد الإسـلامي مجموعة من هـذه العمليـات. وقد بلغ عدد قتلى الكيان الإسرائيلي من العمليات الاستشهادية 297 قتيلاً من أصل 724 قتلوا في الفترة 29 سبتمبر 2000 وحـتى 31 ينـاير 2003[172]، أي بنسـبة 41% من مجمـوع القتلى. وقـدمت كتـائب شـهداء الأقصى عـدداً من الاستشـهاديات اللاتي نفـذن عمليـات استشـهادية أمثال وفاء إدريس وآيات الأخرس. وركزت كتائب شهداء الأقصى على عمليات إطلاق الرصاص ضد المستوطنين وقوات الاحتلال في الضـفة والقطـاع. وكـان لحركة الجهـاد الإسـلامي دورها المتمـيز من خلال

مجموعة من العمليات القوية المؤثرة، كما نفذت الجبهتان الشعبية والديموقراطية عدداً من العمليات. ومن العمليات التي تستحق الإشارة عملية اغتيال وزير السياحة الإسرائيلي "رحبعام زئيفي" وهو جنرال سابق في الجيش، ومن أشد الصهاينة تطرفاً. وقد نُفذت هذه العملية بجرأة وبراعة منتقمة لاغتيال أمينها العام أبو علي مصطفى.

ويوضح الجدول التالي الخسائر البشرية الإسرائيلية خلال الفترة 29 سبتمبر 2000 وحتى 31 يناير 2003[173]:

	جنود	مدنيين	المجموع
القتلى	218	506	724
الجرحى	1469	3593	5062

وقد بلغت عدد عمليات المقاومة الفلسطينية في سنة 2001 نحو 10400 وفي سنة 2002 نحو 5400 عملية، لكن العمليات الاستشهادية على قلتها النسبية كانت الأكثر أثراً. وينبغي الإشارة إلى أن كثيراً من الإصابات في صفوف "المدنيين" الإسرائيليين هي في الحقيقة إصابات في جنود احتياط، إذ إن كل اليهود تقريباً في فلسطين المحتلة فوق سن الـ 18 يخضعون للتدريب العسكري الإجباري، سواء كانوا من الرجال أم النساء. أما الأغلبية الكبرى للشهداء الفلسطينيين فهي من المدنيين.

وعلى الرغم من أسلوب الردع العنيف الذي تبنّاه الصهاينة، فإن هذه الانتفاضة قد أدت إلى سقوط حكومة حزب العمل الإسرائيلي بزعامة باراك، وهزيمة باراك الساحقة في انتخابات رئاسة الوزراء الإسرائيلية 6 فبراير 2001، حيث اختار الصهاينة رجلاً أكثر دموية وتطرفاً، ومشهوراً بمذابحه ضد الفلسطينيين، هو أرييل شارون زعيم الليكود. ثم إنهم أعادوا اختيار شارون وحزبه في انتخابات 28 يناير 2003 ليستمر في سياسته القمعية الدموية، في محاولة يائسة لسحق الانتفاضة.

وفقد المجتمع الصهيوني شعوره بالأمن، وأصبح الصهاينة يتجنبون ركوب الحافلات، ويخففون من التسوق قدر الإمكان، لئلا يحدث انفجار في أي لحظة وفي أي مكان. وتبخرت أحلامه في فرض شروطه المهينة على العرب والمسلمين، وارتفعت جدران العداء والدماء من جديد لتوقف مد التسوية والتطبيع وتركيع المنطقة للمشروع الصهيوني. كما أعاد الكيان الصهيوني إلى أذهان العالم صورة وجهه البشع من جديد، وتحول نموذج استشهاد الطفل محمد الدرة -الذي رآه العالم- إلى كابوس يفضح الحقد والوحشية الصهيونية.

وقد عاني الكيان الصهيوني من تدهور وضعه الاقتصادي، والذي كان يشهد ازدهاراً كبيراً قبل بدء الانتفاضة. فقد تعطّلت السياحة تقريباً وهي التي تمثل ثاني أكثر مصدر للدخل. وحسب تقرير رسمي صادر عن دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية فإن سنة 2002 كانت الأسوأ من الناحية الاقتصادية في تاريخ الكيان الصهيوني منذ خمسين عاماً (سنة 1953). وذكر التقرير أن الناتج المحلي الإجمالي تراجع بنسبة

1% سنة 2002، استمراراً لانخفاض بنسبة 0.9% سنة 2001 مقارنة بارتفاع 7.4% سنة 2000[174]، وارتفعت نسبة البطالة إلى 10.5% سنة 2002 ويتوقع أن ترتفع إلى 12% سنة 2003. وارتفع عدد الإسرائيليين تحت خط الفقر إلى 20% أي نحو مليون و 200 ألف. وانخفض المعدل السنوي لإنتاج الفرد بنحو ثلاثة آلاف دولار (من 18600 سنة 2000 إلى 15600 سنة 2002). وحسب تقرير القسم الاقتصادي في اتحاد المستقلين "لاهاف" فقد أغلق في سنة 2002 نحو خمسين ألف متجر كما يتوقع إغلاق عشرات الآلاف من المشاريع التجارية والمتوسطة سنة 2003[175]. وحسب بعض التقديرات فإن مجموع الخسائر الاقتصادية الإسرائيلية خلال السنتين الأوليين للانتفاضة بلغت نحو 8 مليارات دولار أي نحو 11 مليون دولار يومياً.

وهكذا فإن الفرق الجوهري الذي أحدثته الانتفاضة هو أن الشعب الفلسطيني لم يعد الجهة الوحيدة التي تدفع ثمن الاحتلال والغطرسة الصهيونية من شهداء وجرحى ودمار، وإنما أصبح الكيان الإسرائيلي يدفع غالياً ثمن احتلاله وظلمه، وهو ما يذكرنا بقوله تعالى: "إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون"[176].

لقد أحدثت هذه الانتفاضة هزة عميقة في الكيان الصهيوني، وأصابته في صميم القاعدتين اللتين بنى عليهما وجوده المادي، وهما الأمن والازدهار الاقتصادي. وأخذ عشرات الآلاف من اليهود يحزمون حقائبهم ويغادرون الكيان الصهيوني إلى أوربا وأمريكا وأستراليا، وأظهرت استطلاعات الرأي العام أن أكثر من 25% من اليهود في فلسطين يفكرون جدياً في المغادرة وترك البلاد. وأظهر استطلاع أجرته صحيفة الجيروزالم بوست الإسرائيلية يوم 29 نوفمبر 2002 أن 69% من الإسرائيليين يعيشون حالة الخوف من التعرض لإصابات أو الموت بسبب العمليات الاستشهادية[177]. وفي المقابل، فإنه على الرغم من قسوة المعاناة الفلسطينية فقد أظهر استطلاع للرأي نشر في 18 ديسمبر 2002 أن 80% من الفلسطينيين يؤيدون استمرار الانتفاضة، وأن 63% يؤيدون العمليات الاستشهادية[178].

ولا زال الكيان الصهيوني بقيادة الإرهابي شارون مصرّاً على قمع الانتفاضة، وإلغاء مكاسبها. وقد استفاد مؤخراً من أجواء انشغال العالم بأحداث تدمير مبنى التجارة العالمي في نيويورك في 11 سبتمبر 2001، وما تلاه من هجوم أمريكا وحلفائها على أفغانستان، ومحاولة القضاء على حركة طالبان وبن لادن... استفاد من ذلك ليستخدم أشرس ما في جعبته من قتل وتدمير وتخريب. لكن الخشية الحقيقية على هذه الانتفاضة تأتي من وسط الشعب الفلسطيني، وبشكل أكثر تحديداً من احتمالات تعاون السلطة الفلسطينية مع الكيان الصهيوني في وأد الانتفاضة بحجة العودة إلى طاولة المفاوضات، وإمكانية تحقيق مكاسب سياسية.

المقاومة الشعبية العربية والإسلامية للمشروع الصهيوني

الإخوان المسلمون في حرب 1948 نموذجاً

كان هناك تعاطف شامل وواسع لدى شعوب العالم العربي والإسلامي مع محنة إخوانهم في فلسطين. وطوال تاريخ القضية في القرن

العشرين شكلت الشعوب أدوات ضغط على حكوماتها للسعي لتحرير فلسطين ومواجهة المشروع الصهيوني. وأسهمت كثير من المؤسسات الشعبية في العديد من المظاهرات، وإصدار البيانات، وإقامة مؤتمرات التضامن والتوعية، وفي جمع التبرعات. لكن الإطار الشعبي كان عادة ما يَتْرك (أو يجبر على تَرْك) الفعل العسكري لجيوش الأنظمة العربية. وكانت عادة ما تحدث مبادرات فردية تشارك مُتطوعةً ضمن فصائل العمل الفلسطيني.

وقد اخترنا الحديث عن نموذج الإخوان المسلمين في مشروع المقاومة لأن الإخوان استطاعوا منذ مرحلة مبكرة في أوائل الأربعينيات الانتشار التنظيمي في عدد من الأقطار العربية، بحيث امتلكوا القاعدة الأساسية لمشاركة عربية ــ إسلامية متعددة الجنسيات، مما لم يتوفر لغيرهم من معظم الاتجاهات والأحزاب. ولأن قضية فلسطين كانت قضية جوهرية محورية في فكر واهتمامات الإخوان في تلك الفترة وحتى الآن. ولأنهم أسهموا بشكل مباشر، وعلى نحو جادّ وفعال، ليس في العمل الدعائي والتعبوي وجمع التبرعات فقط، وإنما في المقاومة المسلحة والعمل العسكري. وربما كان أكثر ما يلفت النظر، أن مركز قيادة العمل والتحرك الجهادي وروحه الدافعة أتت أساساً من مصر وليس من فلسطين. أي لم تكن مشاركتهم رمزية ضمن إطار فلسطيني، وإنما كانت مشاركة واسعة في إطار عربي إسلامي، كان الإخوان الفلسطينيون جزءاً منه، بل وتابعاً لقيادات من جماعتهم من جنسيات أخرى، في إطار روح وحدوية متماسكة. كما أن النموذج الإخواني ظل نموذجاً شعبياً لم يصل إلى سدّة الحكم، ولم يستفد مباشرة من أدوات السلطة لإنشاء أحزاب أو حركات محسوبة على نظام حكمه.

وتكمن أهمية التجربة الإخوانية في إثبات روح الأمة الواحدة، وإمكان توسيع دائرة الصراع ضد العدو الصهيوني، وتعبئة طاقات الجماهير العربية والإسلامية باتجاه التحرير. ولعل الحزب القومي السوري وحزب البعث قد سعيا للمشاركة في حرب 1948، ولكن مشاركتهما كانت محدودة قياساً إلى حجم مشاركة الإخوان وأثرهم، ولذلك أيضاً مِلْنا للتركيز على نموذجهم.[179]

نشأة حركة الإخوان المسلمين وطبيعتها:

أسس الشيخ حسن البنا حركة (الإخوان المسلمين) في مارس عام 1928 في مدينة الإسماعيلية في مصر.[180]

وقد أراد الشيخ حسن البنا من تأسيس هذه الحركة إحياء معاني الإسلام الصحيحة في النفوس، والالتزام بتعاليمه عقيدة وسلوكاً ومنهج حياة، وبناء الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة، وتخليص البلاد الإسلامية من الاستعمار بكافة أشكاله، وإقامة الخلافة الإسلامية الواحدة على بلاد المسلمين، وسيادة العالم.[181]

وقد اكتسبت جماعة الإخوان المسلمين من خلال هذا الطرح فهماً متكاملاً وشاملاً للطرح الإسلامي، بحيث شمل جوانب الحياة المختلفة، حيث أبدى الإخوان اهتماماً بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجهادية، بالإضافة إلى الجوانب العبادية والعقدية، فهي حسب تعبير مؤسسها الشيخ البنا "دعوة سلفية .. وطريقة سنية .. وحقيقة صوفية .. وهيئة سياسية .. وجماعة رياضية

.. ورابطة علمية ثقافية .. وشــركة اقتصــادية .. وفكــرة اجتماعيــة"،[182] كما عبر عن هذا الفهم الشـعار الـذي يـردده الإخـوان دائمـاً في لقاءاتهم وأنشطتهم: الله غايتنـا، الرسـول قـدوتنا، القـرآن دسـتورنا، الجهاد سبيلنا، الموت في سبيل الله أسمى أمانينا.[183]

وكان من الطبيعي بنـاءً على هـذا الفهم أن يهتم الإخـوان المسـلمون بقضـايا المسـلمين المختلفة فيــذكر الشــيخ حسن البنا "إن كل أرض يقــال فيها لا إله إلا الله محمد رســول الله هي جــزء من وطننــا، له حرمته وقداســـته، والإخلاص له والجهـــاد في ســبيل خـــيره"، ولأن فلسطين كانت أسخن القضايا الإسـلامية الحساسة في ذلك الـوقت ــ وما تزال ـ فقد أولاها الإخوان المسـلمون دائمـاً "المقـام الأوفى في عنايتهم واهتمامهم".[184]

الإخوان المسلمون وقضية فلسطين:

وقد بدأ اهتمام حركة الإخوان بقضية فلسطين يبرز بشكل واضح أمام عامة الناس مع انفجار الثورة الكبرى في فلسـطين (1936 ــ 1939). فلقد نشط الإخوان المسلمون في الدعاية الإعلامية لقضية فلسـطين في مصر نشاطاً كبيراً فشـكلوا لجنة لمسـاعدة فلسـطين، ودعـوا إلى مشـروع "قـرش فلسـطين" لـدعم أهل فلسـطين وثـورتهم، وطبعـوا المنشورات التي تهـاجم الإنجلـيز وسياسـتهم في فلسـطين، وركـزوا في مجلتهم (النــذير) على خدمة قضــية فلســطين وإبرازها إعلاميــاً، واستفادوا من منابر المسـاجد للـدعوة للقضـية، وأرسـلوا الطلاب في الصــيف إلى أنحــاء القطر المصــري للــدعوة للفكر الإســلامي وإلى مساعدة فلسطين، كما دعوا إلى مقاطعة المحلات اليهودية في مصر، ووزعـوا كتـاب "النـار والـدمار في فلسـطين" (الـذي أصـدرته اللجنة العربية العليا) بشـكل واسع في مصر فكـان له أثر إعلامي عظيم، كما دعوا إلى القنوت في الصلاة من أجل فلسطين، كما أرسلوا الرســائل والبرقيـــات إلى المســئولين في الدولة وأصـــحاب النفـــوذ للتـــدخل لمساعدة فلسطين، والعمل الجاد على حل قضيتها.[185]

وعندما انعقد المؤتمر العـربي لنصـرة قضـية فلسـطين في "بلـودان" في 10 سبتمبر 1937 أبـرق حسن البنا باسم الإخـوان المسـلمين في مصر إلى المؤتمر برقية يعلن فيها استعداد جماعة الإخوان المسلمين للدفاع عن فلسطين بدمائهم وأموالهم.[186]

ونظم "الإخوان" وجمعية الشبان المسـلمين مظـاهرة كـبرى في مصر في يونيو 1938 لنصـرة فلسـطين، وقد اصـطدمت بالشـرطة مما أدى إلى اعتقــال 34 من المتظــاهرين،[187] كما نظمـوا مظـاهرة كـبرى بمناسـبة وعد بلفـور في نوفمـبر 1938، شـملت جميع أرجـاء مصـر، فكانت تنبيهاً قوياً للشعب المصري على أهمية قضية فلسطين.[188]

ويبدو أن الإخوان المسلمين المصريين قد شاركوا بشـكل محـدود في الثورة الكبرى في فلسطين (1936 ـ 1939)، فيذكر كامل الشريف أن عــدداً من شــباب الإخــوان قد اســتطاعوا التســلل إلى فلســطين والاشـتراك مع المجاهـدين في جهـادهم خاصة في منـاطق الشـمال.[189] (حيث جماعة القسـام)، كما يبـدو أن المفـتي (الحـاج أمين) قد شهد بصحة هذا الكلام،[190] وفي مقابلة للبـاحث مع الـدكتور عصـام الشــربيني يــذكر أن الــدكتور إبــراهيم أبو النجا (عضو مكتب الإرشــاد لجماعة الإخوان سابقاً) أخبره أن الإخوان في مصر قد احتفلوا بذهاب بعض الإخوان إلى فلسطين للجهاد في الثـورة الفلسـطينية الكـبرى (1936 ـ 1939)،[191] كما أن في حديث محمود عبد الحليم عن قضـية أحمد رفعت ما يشير إلى اتصال الإخوان بمجاهدي فلسطين والتنسيق

معهم،[192] وعلى هذا فنحن لا نستبعد مشاركة الإخوان بشكل فردي في الثورة الكبرى.

ويذكر الإخوان المسلمون عادة أن أهم أسـباب إنشـاء النظـام الخـاص داخل جماعة الإخوان هو مشاركة أعضائه في الجهاد لتحرير فلسـطين من الانتداب البريطاني، وإفشـال المخطط اليهـودي في بنـاء الـوطن القومي على أرضها، وقد كـان أعضـاء هـذا النظـام ـ الـذي أنشئ في مطلع الأربعينيـات ـــ يُختـارون من خلاصة الإخــوان، وينظمــون في عضويته في سرية تامة، ويتم تربيتهم على معاني الجهـاد، ويخضـعون لتدريبات بدنية شاقة والتدريب على السلاح.[193]

نشأة حركة الإخوان في فلسطين:

كانت أولى الإشارات عنـدما بـدأ الإخـوان نشر دعـوتهم في فلسـطين في أغسطس 1935 عندما زارها عبد الرحمن الساعاتي ومحمد أسـعد الحكيم، ولقيا ترحيباً هناك من الحاج أمين، حيث قاما بنشر دعـوتهم.[194] وخلال الحـــرب العالمية الثانية (1939 ـــ 1945) زادت زيـــارات الإخوان لفلسطين، وأخذ عـدد من أبنـاء فلسـطين ينضـمون للإخـوان، غير أن تشكيل فروع للإخـوان لم يتم ـ على ما يظهر ـ إلا بعد انتهـاء الحـرب، حيث خفّت ظـروف القهر والتشـديد البريطـاني، ونشـطت الحركة السياسية الفلسطينية. ويبدو أن أول فروع الإخوان إنشاءً كان فرع غزة برئاسة الحاج ظافر الشوا، ثم تأسس فرع يافا برئاسة ظافر الدجاني، أما فرع القدس فقد أنشئ سنة 1945، ثم جرى حفل افتتاح ممـيز له في 5 مـايو 1946 وحضـره الـزعيم الفلسـطيني جمـال الحسيني، وأنشئ فرع حيفا برئاسة الشيخ عبد الـرحمن مـراد، وتتـابع إنشـاء الفـروع في قلقيليـة، واللـد، ونـابلس، وطـولكرم، والمجـدل، وسلواد، والخليل، حتى زادت الفروع عن عشرين فرعاً.[195]

وقد نشطت جماعة الإخوان في فلسطين في مجالات الدعوة والتربية والتوعية الإسـلامية، والتعريف بـالخطر الصـهيوني، والمـؤامرة على فلسطين، والتعبئة للجهاد.

وقد عقد الإخوان الفلسطينيون مؤتمراً عاماً في حيفا في 18 أكتـوبر 1946 حضره ممثلون عن لبنـان والأردن. وقد حملت القـرارات أبعـاداً تنظيمية داخلية وسياســية محلية وخارجية تؤكد الـــوعي والتفاعل السياسي مع الأحداث. وقد جاءت في القرارات:

1. **اعتبـــار حكومة فلســطين مســؤولة عن الوضع السياسي المضطرب.**
2. **تأييد الجامعة العربية.**
3. **تأييد مطالب مصر بالجلاء ووحدة النيل.**
4. **عرض قضية فلسطين على مجلس الأمن.**
5. **تأييد المشاريع التي ترمي إلى إنقاذ الأراضي.**
6. **عدم الاعتراف باليهود الطارئين على البلاد.**
7. **تعميم شعب "الإخوان المسلمين" في فلسطين.[196]**

وبعد عام من انعقاد المؤتمر السابق عقد الإخوان المسـلمون مـؤتمراً آخر كبـيراً في حيفا في 27 أكتـوبر 1947 ومن بين القـرارات الـتي اتخذها المؤتمر:

1. **يعلن الإخــوان المســلمون تصــميمهم على الــدفاع عن بلادهم بجميع الوسائل. واستعدادهم للتعاون مع جميع الهيئات الوطنية في هذا السبيل.**
2. **يعلن المــؤتمرون باسم هيئة الإخــوان المســلمين في ســائر الأقطـــار الممثلـــة، اســـتنكارهم لكل محاولة تعلل العـــرب والمســلمين بتحقيق الأهــداف الوطنية عن طريق مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحـدة، بعد أن أسـفرت المحـاولات الكثـيرة عن حقيقة هــذه المنظمــات الدوليــة، وأنها ليست إلا ثوبــاً خالصــاً لمطامع الدول الكبرى المستعمرة.**
3. **يعلن المـؤتمرون أن هيئة الإخـوان المسـلمين سـتحمل نصـيبها كاملاً من تكاليف النضال.**
4. **يعلن منــدوبو الإخــوان المســلمين في شــرق الأردن أنهم على استعداد كامل لحمل نصيبهم في تحرير فلسطين.**
5. **يجــدد المــؤتمر البيعة على أن يكونــوا الجند الــبررة الصــادقين لــدعوة الإخـوان المسـلمين حـتى يتم الله نـوره، ويجمع شـمل المسلمين والعرب على كلمة الخير في ظل العزة والكرامة.**
6. **تــأليف مجــالس المنــاطق حسب النظــام الــذي وضـعه المكتب الإداري للإخوان المسلمين.**
7. **يبتهل المــــؤتمرون إلى الله تعــــالى أن ينجي مصر من وبــــاء الكوليرا، وأن يحقق [النصر] لجميع الشعوب الإسـلامية والعربية الشقيقة.**
8. **الاتصال بالهيئة العربية العليا للبحث في بعض الشــئون الوطنية العامة.[197]**

ونلاحظ في هــذه القــرارات مــدى جــديتها وقوتها ومتابعتها للأحــداث السياسية والواقعية، حيث كان للقرارات السياسية نصيب الأسد فيها، كما نلاحظ المضمون الجهادي الذي تمخضت عنه هذه القرارات، والتي كــانت متفوقة في مضــمونها وطبيعتها عن الاتجاهــات السياســية السائدة في تلك الفترة.

وقد نشط الإخــوان الفلســطينيون في تعبئة الجمــاهير للجهــاد ضد الإنجلــيز واليهــود، واعــترفت الرواية الإســرائيلية الرســمية لحــرب فلسطين 1947 ـ 1948 بذلك، حـتى إن المؤسسـات القومية اليهودية احتجت واشــتكت عليهم للســلطات البريطانيــة.[198] ولكن لا ينبغي المبالغة في قدرة الإخوان الفلسطينيين وإمكاناتهم. إذ كانوا جديــدين إلى حد ما على الســاحة، ولم يبلغ انتشــارهم حجمــاً سياســياً كبــيراً يــؤهلهم للتــأثير في القــرار السياسي الفلسـطيني المحليّ. وكـانوا بشكل عام أنصـاراً للحـاج أمين الحسـيني الـذي كـان صـديقاً شخصـياً للشيخ حسن البنا. كما أن إمكاناتهم كانت محدودة جداً مقارنة بما لدى اليهود أو بما تحتاجه فلسطين في عملية الدفاع عنها. غير أن هــذا لم يمنع أن يمثلـوا في تلك الفـترة حالة جهادية مضـحية واعيـة، ذات روح وطنية قوية منفتحة.

دور الإخوان المسلمين في حرب فلسطين 1947 ـ 1948:

شارك الإخـوان المسـلمون الفلسـطينيون في الجهـاد عنـدما انـدلعت حرب 1947 ــ 1948، إلا أن حداثة تنظيمهم وعـدم نمـوه واسـتقراره

بشــكل مناسب وقــوي جعلت مشــاركتهم محصــورة ضــمن قــدراتهم المحدودة وإمكاناتهم المتواضعة.

ومع ذلك فقد شكلت شُعب الإخوان في فلسـطين قـوات غـير نظامية منذ بداية الحرب، عملت في أمـاكن اسـتقرارها في الشـمال والوسط تحت القيادات العربية المحلية هناك (الـتي تتبع جيش الإنقـاذ أو جيش الجهاد المقـدس). وقد قـامت بغـارات ناجحة على مسـتعمرات اليهـود وطرق مواصلاتهم، على الرغم من الضعف الشـديد الـذي كـانت تعانيه سواء في التسليح أو التدريب، ولذلك لا نجد ذكراً رسمياً لدور الإخوان في هذه المناطق بشكل عام. أما في المناطق الجنوبية وخصوصاً غزة وبئر السبع فقد انضم العديد من إخوان فلسطين إلى قـوات الإخـوان (المصرية) الحرة بقيـادة كامل الشـريف، وشـاركوا بقـوة وفاعلية في معـارك فلســطين هنــاك. ويــذكر كامل الشــريف أن قــوات الإخــوان المصــرية الحــرة كــان معــدل عــددها 200 مجاهد في منــاطق جنــوب فلسطين، وأنها كان يشاركها الجهاد حوالي 800 مجاهد آخر من أبنــاء فلســطين، تحت قيادتهــا، حيث إن كثــيراً منهم تــأثروا بفكر الإخــوان المسلمين وأصبحوا منهم.[199]

وكــانت أنشط شــعب الإخــوان مشــاركة في الجهــاد شــعبة الإخــوان المســلمين في يافــا، وقد كــان هنــاك (تنظيم عســكري ســري خــاص) ضمن أعضـاء الإخـوان في يافـا، شـارك فيه عـدد محـدود من الإخـوان ممن يصــلحون لهــذا العمــل، ولم يكن بــاقي الإخــوان أعضــاء فيه أو يعلمون شيئاً عنه، وقد ظهر نشاطه الجهادي مع بداية الحرب.[200]

وعنــدما تشــكلت لجنة قومية في يافا مع بــدء الحــرب شــارك ضــمن قيادتها ممثل عن الإخوان المسلمين وهو رئيس الفـرع هنـاك (ظـافر راغب الـدجاني)، وقد ألفت هـذه اللجنة لجانـاً عديـدة لتعـنى بمختلف الشـــؤون في المدينـــة، وقد أســـندت مهمة إدارة اللجنة الاقتصـــادية لظـافر الـدجاني، الـذي كـان يشـغل أيضـاً رئاسة الغرفة التجارية في المدينة.[201]

وعنـــدما جـــاء كامل الشـــريف إلى منطقة يافا مع ســـرية من شـــباب الجامعـات، تـولى هو قيـادة مجاهـدي الإخـوان حيث تجمع تحت قيادته حـوالي 100 مجاهـد،[202] وتـولى كامل الشـريف قيـادة منطقة في يافا اسـمها (كـرم التـوت) وتقع بين يافا وتل أبيب، حيث تقع معـارك يومية بين المجاهـدين واليهـود. كما شـارك الإخـوان المجاهـدون في الهجوم على مستعمرة بتاح تكفـا، ثم ما لبث كامل الشـريف أن انتقل إلى منطقة النقب.[203]

ويــذكر عــارف العــارف أنه كــان للإخــوان المســلمين في يافا قــوات متحركة يبلغ عددها 30 مجاهداً بقيـادة حسن عبد الفتـاح والحـاج أحمد دولة، وكـان عنـدهم 30 بندقية ورشـاش و2 سـتن، وقد كـانوا يهبـون لنجدة المواقع كلما دعت الحاجة.[204]

ويقول يوسف عميرة إن الإخـوان تولـوا في أثنـاء الحـرب الـدفاع عن منــاطق البصة وتل الــريش والعجمي والنـــزهة في يافــا، فضــلاً عن المحافظة على الأمن داخل المدينـــة، كما يؤكد على الـــدور المشـــرف الــذي قــام به الإخــوان في يافــا، حيث كــان الالــتزام بالإســلام من سماتهم، وكان الدفاع والقتال عن إيمان بالله.[205]

وفي منطقة القدس شارك إخوان فلسـطين في القتـال مع إخـوانهم القادمين من البلاد العربية أو مع قوات الجهاد المقدس.

دور الإخوان المسلمين المصريين:

تذكر بيان نويهض أن اهتمام الإخوان المسلمين بتحرير فلسطين كـان اهتمامـاً صـادقاً ومرتكـزاً على الإيمـان الـديني العميـق.[206] ولأن الإخـوان في مصر قد أصـبحوا في تلك الفـترة من أنشط وأقـوى الاتجاهات فيها فقد كان لهم الدور الأكثر قـوة من بين إخـوان الـدول العربية المشاركين في حرب فلسطين.

فقبل إعلان الحرب، قام الإخوان في مصر بمهمة تهيئة الشعب لفكرة الجهاد، وانطلقوا في أرجاء القطر المصـري داعين للجهـاد في سـبيل الله لإنقـاذ الأرض المباركـة،[207] كما قـاموا بالعديد من المظـاهرات القوية والـتي كـان لها أثرها في زيـادة وعي الجمـاهير بقضـية فلسطين،[208] وقاموا بحملة لجمع التبرعـات لفلسـطين،[209] كما أخـذوا يجوبـون صـحراء مصر الغربية لتوفـير السـلاح من بقايا الحـرب العالمية الثانية للجهاد في فلسطين.[210]

وفي 9 أكتـوبر 1947 أبـرق الشـيخ حسن البنا إلى مجلس الجامعة العربية يقـول إنه على اسـتعداد لأن يبعث كدفعة أولى عشـرة آلاف مجاهد من الإخوان إلى فلسطين، وتقدم فـوراً إلى حكومة النقراشي طالبـاً السـماح لفـوج من هـؤلاء المجاهـدين باجتيـاز الحـدود ولكنها رفضت.[211] وفي 15 ديسمبر 1947م قام الإخوان بمظاهرة كـبرى، وممن خطب في هذه المظاهرة رياض الصالح، والأمـير فيصل بن عبد العزيز، وجميل مردم بك، وإسماعيل الأزهـري، وقد خطب أيضاً حسن البنا الـذي أكد "أن الإخـوان المسـلمين قد تـبرعوا بـدماء عشـرة آلاف متطـوع للاستشـهاد في فلسـطين ... وهم على أتم اسـتعداد لتلبية ندائكم".[212]

بدأ الإخوان المسلمون المصـريون بالتوجه فعلاً للجهـاد في فلسـطين منذ أكتوبر 1947م، أي قبل بدء الحرب في فلسطين بـأكثر من شـهر، وقد سـافرت أول كتيبة من الإخـوان بإمـارة محمد فـرغلي وقيـادة محمود لبيب،[213] لكن التضـييق الشـديد من الحكومة المصـرية على سـفر الإخـوان قد جعل مشـاركتهم محـدودة، وقد اضـطر الإخـوان للتحايل فاستأذنوا بعمل رحلة علمية إلى سـيناء، فـأذنت لهم الحكومة بعد إلحـاح شـديد ومن هنـاك انطلقـوا إلى فلسـطين. وأخذ الإخـوان يتسللون سراً حيث تجمعـوا في معسـكر النصـيرات، وأخـذوا يقومـون بالعمليـات الجهاديـة. وبهـذا بـدأت العمليـات الجهادية العسـكرية في صـحراء النقب وانضم للإخـوان الكثـير من المجاهـدين من عـرب فلسطين، حتى صاروا أضعاف عدد الإخوان أنفسهم فيما بعـد. وبـدأت حـرب عصـابات تُبشر بنجـاح رائـع، إلا أن الحكومة المصـرية طلبت من المركز العام للإخوان سـحب قواته من النقب، فـرفض فقطعت عنهم الحكومة الإمـدادات والتمـوين، وراقبت الحـدود، إلاّ أنهم وجـدوا من عرب فلسطين كل مساعدة وعون.[214]

ومن طريف ما يرويه عباس السيسي أنه زار مع أحد الضـباط معسـكر مجاهـدي الإخـوان المسـلمين في الـبريج، وكـان الحـارس على بوابة المعسكر فتى لا يتجـاوز الثالثة عشر من عمـره ومعه بندقيـة، فسـلما عليه وسأله الضابط عن اسمه:

فقال الفتى: قيس

فقال الضابط: وأين ليلاك يا قيس؟

فقال الفتى بكل ثقة: إن ليلاي في الجنة.

فذهلا من هذا الرد الـذي خشـعت له قلوبهمـا، وكـان في هـذا الكفاية للتعـــرف على المعنويـــات العالية الموجـــودة داخل المعســـكر قبل دخولهما!![215]

ولما اشـــتد الضـــغط على الحكومة المصـــرية ســـمحت للمتطـــوعين بالمشـــاركة في الجهـــاد تحت راية الجامعة العربيـــة، حيث تـــدربوا في معسـكر (هاكسـتب)، وكـان يشـرف على حركة التطـوع محمـود لـبيب وكيل الإخوان للشئون العسكرية، وتألفت ثلاث كتائب من المتطـوعين يقدر عددها بـ600 مقاتل، نصفهم تقريباً من الإخوان المسلمين، وقد طبعوا هذه الكتائب بطـابعهم الخـاص، وكـان أبـرز قـادة هـذه الكتـائب أحمد عبد العزيز وعبد الجواد طبالة.[216]

ولم يكْفِ معسكر هاكسـتب لاسـتيعاب المتطـوعين، إذ إن المتطـوعين كانوا عشرات الأضعاف بالنسبة للمشاركين، فأرسل الإخـوان 100 من أفرادهم ليتدربوا في معسكر (قطنا) في سوريا، وهم كل ما اسـتطاع المركز العام للإخوان أن يقنع الحكومة المصرية بقبوله.[217]

وقد سـافرت هـذه الكتيبة عن طريق مينـاء بورسـعيد في 10 مـارس 1948، وقبل مغادرتها خـــرجت بورســـعيد عن بكـــرة أبيها لتحيَّتهم وتـــوديعهم، وخطب البنا في الجميع ومما قاله "هـــذه كتيبة الإخـــوان المسلمين المجاهدة بكل عـددها وأسـلحتها تتقـدم للجهـاد في سـبيل الله ومقاتلة اليهود أعداء الإسلام والوطن. سـتذهب إلى سـوريا حـتى تنضم إلى باقي المجاهدين، حتى لا تكون فتنة ويكون الـدين كله للـه، وفي هذا فليتنافس المتنافسون".[218]

وقد استقبلت هذه الكتيبة في سوريا استقبالاً شعبياً كبيراً، وكان في مقدمة المسـتقبلين المـراقب العـام للإخـوان في سـوريا مصـطفى السباعي، وعمر بهاء الـدين الأمـيري، والشـيخ محمد الحامد وغـيرهم، وفي ظهر يـوم الثلاثـاء 23 مـارس سـافر حسن البنا إلى دمشق على متن طائرة لتفقد أحوال المتطوعين هناك.[219]

قام الإخوان المسلمون بدور مشرف في حرب فلسـطين اعـترف لهم به كل من كتب عن هـذه الحـرب،[220] وكـان لهم دور مشـهود في جنـوب فلسـطين في منـاطق غـزة ورفح وبـئر السـبع، حيث كـانوا يهاجمون المستعمرات ويقطعون مواصلات اليهود. ومن أبرز المعـارك التي شـاركوا فيها هنـاك معركة التبة 86 الـتي يـذكر العسـكريون أنها هي الـتي حفظت قطـاع غـزة عربيـاً، ومعركة كفـار ديـروم، واحتلال مسـتعمرة يـاد مردخـاي وغيرهـا، كما أسـهموا بـدور هـام في تخفيف الحصار عن القوات المصرية المحاصَرَة في الفالوجا. كما كان للإخوان المصريين مشـاركتهم الفعالة في معـارك القـدس وبيت لحم والخليل وخصوصاً صور باهر. وكـان من أبـرز المعـارك الـتي شـاركوا فيها في تلك المناطق معركة رامات راحيل، واسترجاع مار الياس، وتـدمير بـرج مسـتعمرة تل بيـوت قـرب بيت لحم، والـدفاع عن "تبة اليمن" الـتي سميت تبة الإخوان المسلمين نظراً للبطولة التي أبدوها ... وغيرهـا.[221]

وقد استشهد من إخوان مصر في معارك فلسطين حوالي مائة، وجرح نحو ذلك وأسر بعضـهم.[222] وكـانت وطـأة الإخـوان شـديدة على اليهود، وقد سئل موشي ديان بعد الحرب بقليل عن السـبب الـذي من أجله تجنب اليهود محاربة المتطـوعين في بيت لحم والخليل والقـدس فأجـاب "إن الفـدائيين يحـاربون بعقيـدة أقـوى من عقيـدتنا .. إنهم يريـدون أن يستشـهدوا ونحن نريد أن نبـني أمـة، وقد جربنا قتـالهم فكبـدونا خسـائر فادحة .. ولـذا فنحن نحـاول قـدر الإمكـان أن نتجنب الاشتباك بهم"،[223] وكتبت مجلة حائطية في الجامعة العبرية تعليقاً

تحت صورة للشيخ حسن البنا ذكرت فيه "إن صاحب الصورة كان من أشد أعداء إسرائيل، لدرجة أنه أرسل أتباعه عام 1948، من مصر ومن بعض البلدان العربية لمحاربتنا، وكان دخولهم الحرب مزعجاً لإسرائيل لدرجة مخيفة ..."،[224] ولذلك كان انتقام اليهود من الإخوان رهيباً إذا وقعوا أسرى في أيديهم، فقد كانوا يقتلونهم، ويشوهون أجسامهم.[255]

لقد كان من أشد المناظر التاريخية إيلاما أن مئات الإخوان المصريين الذين تمكنوا من المشاركة في المعارك وقاموا بأدوار بطولية، كان مصيرهم الاعتقال والسجون حتى قبل عودتهم إلى مصر، حيث تم حل جماعة الإخوان في مصر في ديسمبر قبل أن تنتهي المعارك، وقامت المخابرات المصرية باغتيال حسن البنا نفسه في 11 فبراير 1949 قبل قليل من توقيعها اتفاقية الهدنة مع الكيان الصهيوني لإنهاء الحرب.

دور الإخوان المسلمين السوريين:

قام الإخوان السوريون بدور مشهود خصوصاً في معارك منطقة القدس وقد تدربت كتيبة الإخوان السوريين في (قطنا) ثم سافرت إلى منطقة القدس وقد شارك من الإخوان السوريين حوالي 100 أخ، بقيادة المراقب العام للإخوان المسلمين في سوريا مصطفى السباعي، وقد اشتركوا ببسالة في معارك القدس مثل معركة باب الخليل التي أصيب فيها 35 منهم بجراح، وكان النصر معقوداً فيها للمجاهدين، ومعركة القسطل حيث شارك فيها فوجٌ، منهم عبدَ القادر الحسيني، ومعركة الحي القديم في القدس، ومعركة القطمون، ونسف الكنيس اليهودي الذي اتخذه اليهود مقراً حربياً وغيرها.[226]

وكان الدفاع عن مناطق القدس التالية: الشيخ جراح، المصرارة، سعيد وسعيد، من مسئولية الأخ عدنان الدبس، وكان الأخوان زهير الشاويش وكامل حتاحت مسئولين عن الدفاع عن القطمون. كما تألف من الإخوان السوريين فريق لحفظ الأمن والانضباط في المدينة بقيادة الشيخ ضيف الله مراد، ثم انضم إليه بعد انتهاء معارك القطمون الأخ زهير الشاويش، الذي طارد اللصوص والفجار وأغلق الخمارات وأندية القمار، وشعر السكان في المدينة بالأمن والطمأنينة إثر ذلك، وجاء وفد منهم يشكرون الإخوان على جهودهم. أما الإشراف على الاتصال بين المراكز وأمور السلاح والذخيرة فكان يشرف عليه الأخ لطفي السيروان،[227] وقد استشهد العديد من الإخوان السوريين في أثناء المعارك كما جُرح الكثيرون. وذكر السباعي أسماء عشرة منهم في نهاية حديثه عن دور الإخوان السوريين في حرب فلسطين.[228]

دور الإخوان المسلمين الأردنيين:

تفاعل سكان شرق الأردن مع حرب فلسطين، وشكل الإخوان المسلمون هناك لجنة لجمع التبرعات والمساعدات، كما فتحوا باب التطوع للمشاركة في الجهاد، وكان تجاوب الناس رائعاً، فيذكر محمد عبد الرحمن خليفة أنه عندما فتح باب التطوع في شعبة السلط سجل أكثر من ثلاثة آلاف شخص أنفسهم.[229]

وتكونت من إخوان منطقة عمان وما حولها سرية متطوعين تضم نحو 120 مجاهداً من الإخوان المسلمين، وسميت باسم سرية أبي عبيدة وقد تولى قيادتها الإخوانية الحاج عبد اللطيف أبو قورة المراقب العام للإخوان المسلمين في الأردن في تلك الفترة، أما قيادتها العسكرية فقد تولاها الملازم المتقاعد ممدوح الصرايرة، وقد دخلت

فلسطين في 14 إبريل 1948 وتمركزت في عين كارم وصور باهر.[230]

وقد خاضت هذه السرية عدة معارك واستشهد عدد من أفرادها مثل سالم المسلم وبشير سلطان.[231]

وفي إربد تولى مسئول شعبة الإخوان هناك السيد أحمد محمد الخطيب قيادة الإخوان فيها في حرب فلسطين، وبلغ مجموع من شارك معه في الجهاد من إخوان إربد وأهلها المتطوعين حوالي مائة مجاهد، بحيث كان يشترك في المعركة الواحدة من 20 ـ 25 مجاهداً.[232]

وكان إخوان إربد يقومون بمهاجمة المستعمرات القريبة من الحدود، ويرجعون إلى إربد ثانية بعد القيام بعملياتهم، وقد استشهد من إخوان إربد شهيدٌ واحد، كما أصيب أحمد الخطيب بجراح خطيرة حيث تماثل للشفاء بعد فترة طويلة.[233]

دور الإخوان المسلمين العراقيين:

بعد أسبوع واحد من قرار التقسيم أسهم الإخوان المسلمون في العراق بقيادة الشيخ محمد محمود الصواف بشكل فعال في تأليف (جمعية إنقاذ فلسطين) في بغداد، ولقد لبى نداء التطوع 15 ألفاً معظمهم ممن تدرب في الجندية أو الشرطة. وكان للإخوان المسلمين في تلك الفترة دور أساسي في تعبئة الجماهير للجهاد، وكانوا على رأس المظاهرات التي خرجت للتنديد بقرار تقسيم فلسطين، والتي اشترك فيها 200 ألف عراقي في بغداد.[234]

وتألف من المتطوعين للجهاد فوجا الحسين والقادسية وسرية المغاوير وغيرها، وكلما تدرب فريق منهم كانت الجمعية ترسله إلى اللجنة العسكرية في دمشق، وفي السابع من يناير 1948 وصلت أول سرية مغاوير إلى دمشق، وبعد أسبوع وصل فوجان آخران مع السلاح والعتاد. وبينما كانت الجمعية تستعد لإرسال فوج جديد تلقت إنذاراً من اللجنة العسكرية، بأن تكف عن إرسال المتطوعين حتى إشعار آخر!! كما أشار صالح جبر (بعد أن وقع معاهدة بورتسموث) بعدم إرسال أكثر من 500 متطوع، كما أن طه الهاشمي قال لرئيس الجمعية "إذا أرسلتم مدداً آخر من المتطوعين أعدتهم إلى بغداد على نفقة الجمعية!!" فاكتفت الجمعية بعد ذلك بإرسال التبرعات،[235] وقد كان الإخوان من أبرز وأنشط عناصر هذه الجمعية،[236] وقد وصلت كتيبتا الحسين والقادسية من متطوعي العراق (كل واحدة تتكون من 360 مقاتلاً) إلى فلسطين في مارس 1948.[237]

كما اشترك ضمن الأفواج التي ذهبت للجهاد الكثير من إخوان العراق الذين قاتلوا ضمن قوات جيش الإنقاذ، ورأوا الكثير من تخاذل وضعف وسوء إدارة قيادته وعلى رأسه فوزي القاوقجي، إلا أنهم بذلوا ما استطاعوا في المعارك التي شاركوا فيها خصوصاً في شمال فلسطين.[238]

هوامش الكتاب

---

[149] حول حرب 1982، انظر: المرجع نفسه، ص 491-507، وانظر: Herzog, op. cit., pp. 339-359.

[150] حسب المصادر "الإسرائيلية" فإن خسائر م.ت.ف حتى منتصف يوليو 1982 كانت ألف شهيد وستة آلاف أسير، وخسرت سوريا 370 شهيداً وألف جريح و250 أسيراً، كما خسرت سوريا 350-400 دبابة، و 86 طائرة مقاتلة، وخمس طائرات هليوكبتر، و19 منصة إطلاق صواريخ، وخسر الكيان الإسرائيلي 35-40 دبابة، وطائرة حربية واحدة، وطائرتي هليوكبتر، و300 قتيل، و1600 جريح. انظر: Herzog, op. cit., p. 353.

[151] حول هذه العمليات، انظر: الكيلاني، مرجع سابق، ص 498، وص 506.

[152] المرجع نفسه، ص 506-507.

[153] غسان حمدان، الانتفاضة المباركة: وقائع وأبعاد (الكويت: مكتبة الفلاح، 1989)، ص 36-38.

[154] انظر: البيان الأول في: أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو، الانتفاضة: مقدمات ونتائج، تفاعلات وآفاق (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1989)، ص 194-195.

[155] انظر مثلاً: جواد الحمد، "الانتفاضة الكبرى وتطور القضية الفلسطينية"، في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص 407-413.

[156] جريدة صوت الشعب، الأردن، 8 ديسمبر 1993.

[157] جواد الحمد، "الانتفاضة الكبرى وتطور القضية الفلسطينية"، في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص 410.

[158] انظر: الرأي 7 يناير 1996، والأعداد الصادرة في 26 فبراير - 5 مارس 1996، وفلسطين المسلمة، إبريل 1996، وقد نفذت حماس أربع عمليات انتقاماً لاستشهاد يحيى عياش أدت إلى مقتل 47 صهيونياً وجرح 105 آخرين (حسب المصادر "الإسرائيلية")، ونفذت الجهاد الإسلامي العملية الخامسة - بالتنسيق مع حماس - مما أدى إلى مقتل 14 صهيونياً وجرح 125 آخرين (حسب المصادر "الإسرائيلية").

[159] انظر: أخبار الصحف العربية، مثلاً: الرأي والدستور ليومي 9-10 أكتوبر 1990.

[160] غطت الصحف العربية اليومية هذه الانتفاضة، مثلاً: الرأي والدستور 25-29 سبتمبر 1996.

[161] الخليج، 23 فبراير 2000.

[162] انظر مثلاً: جريدة الأيام، فلسطين، 16 فبراير 2000، نقلاً عن يديعوت أحرونوت، 15 فبراير 2000.

[163] جريدة الخليج، 10 نوفمبر 2000.

[164] يمكن مراجعة التقارير المنشورة في الإنترنت في أشهر أكتوبر وديسمبر 2000 في Palistine-info.org، Islamonline.com، لقراءة العديد من النماذج والتقارير.

[165] انظر مثلاً حول الآثار القوية للمقاطعة في مصر في: الخليج، 27 ديسمبر 2002.

[166] انظر مجلة المجتمع، الكويت، 22 فبراير 2003.

[167] www.pnic.gov.ps

[168] حسب تصريح وزير الصحة الفلسطيني لقناة فلسطين الفضائية فإن عدد الشهداء حتى منتصف فبراير 2003 هو 2836 شهيداً، انظر الخليج، 16 فبراير 2003.

[169] الخليج، 11 ديسمبر 2000.

[170] www.pnic.gov.ps

[171] الخليج، 19 ديسمبر 2002.

[172] www.pnic.gov.ps

[173] Ibid، ذكرت جريدة معاريف الإسرائيلية في 8 يناير 2003 أن عـدد القتلى الإسـرائيليين بلغ 718 قـتيلاً و 4049 جريحـاً قُتل منهم 297 في العمليات الاستشهادية، وأن 213 قتيلاً و 1447 جريحـاً كـانوا من الجيش والشرطة. انظر:

www.palestine-info.info/arabic/palest-day/dailynews/2003/jam03/9-1/details.htm#2.

[174] انظر: www.cbs.gov.il، وانظر: قدس برس، نشرة بانوراما، 2 يناير 2003.

[175] قدس برس، نشرة بانوراما، 3 يناير 2003.

[176] سورة النساء: 104.

[177] نقلاً عن: http://news.bbc.co.uk, 30/11/02

[178] جريدة الخليج، 18 فبراير 2003.

[179] تعتمد المعلومات التي نضعها بين يدي القارئ هنا أساسـاً على جزء من فصل سبق وأن كتبنـاه، ونُشر ضـمن كتـاب: التيـار الإسـلامي في فلسطين، والذي سبقت الإشارة إليه.

[180] حسن البنا، مذكرات الـدعوة والداعيـة، ط5 (بـيروت ــ دمشـق: المكتب الإسلامي، 1983)، ص 28.

[181] حسن البنـــا، مجموعة رســـائل الإمـــام الشـــهيد حسن البنا (القاهرة: دار الشهاب، لا تاريخ)، ص 271 ـ 273.

[182] المرجع نفسه، ص 156 ـ 157.

[183] نفس المرجع، ص 271، 273 ـ 274.

[184] كامل الشريف، الإخـوان المسـلمون في حـرب فلسـطين، ط3 (الزرقاء، (الأردن): مكتبة المنار، 1984)، ص 31.

[185] محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ ــ رؤية من الداخل 1928 ـ 1948، (الإسكندرية: دار الدعوة، 1983)، ج1، ص 173 ــ 177، وحسن البنـا، مـذكرات الـدعوة والداعيـة، ص 207 ــ 215، 224 ـ 226، 226.

[186] أكرم زعيـتر، الحركة الوطنية الفلسـطينية 1935 ــ 1939 (من أوراق أكـــرم زعيـــتر)، مؤسسة الدراســـات الفلســـطينية، سلســـلة الدراسات، رقم 55 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسـطينية، 1980)، ص 322.

[187] المرجع نفسه، ص 403.

[188] محمود عبد الحليم، مرجع سابق، ص 177.

[189] كامل الشريف، مرجع سابق، ص 31.

[190] ريتشـــارد ميتشـــل، الإخـــوان المســـلمون، ترجمة محمـــود أبو السعود، تعليق صالح أبو رقيق (انديانا بوليس، (الولايات المتحدة)، دار النشر الأمريكية، 1980)، ص 142.

[191] عصام الشربيني، مقابلة، الكـويت: 16 أكتـوبر 1985. (الـدكتور عصـام الشـربيني أحد أعضـاء جماعة الإخـوان المسـلمين منذ عـام 1943).

[192] محمود عبد الحليم، مرجع سابق، ص 200 ــ 201. (أحمد رفعت: أحد أفراد "الإخوان" في مصر، وقد خرج من جمـاعتهم إثر فتنة وقعت كان هو من أسبابها، فأراد بعد ذلك الذهاب لفلسـطين للجهـاد فأشـار عليه الإخـوان بـأن يأخذ بنصـيحتهم فيلتحق بمن لهم به علاقة هنـاك فيزكونه لهم فرفض، وذهب باجتهاده فقتله المجاهدون الفلسطينيون ظناً منهم أنه جاسوس).

[193] المرجع نفسه، ص 258 ـ 260، وميتشل، مرجع سابق، هـامش ص 108.

[194] حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص 198 ـ 199.

[195] انظر: محسن صالح، التيار الإسلامي في فلسـطين، ص 438 ــ 445.

[196] بيان الحوت، مرجع سابق، ص 503.

[197] المرجع نفسه، ص 794.

[198] حرب فلسطين 1947 ــ 1948 (الرواية الإسـرائيلية الرسـمية)، ص 14.

[199] كامل الشريف، مرجع سابق، ص 64.

[200] كامل الشريف، مقابلة، عمّان، الأردن: 28 أكتوبر 1985.

[201] يوسف عميرة، مقابلة، الكويت: 6 نوفمبر 1985.

[202] عارف العارف، مرجع سابق، ج1، ص 227 ـ 229.

[203] يوسف عميرة، مقابلة، الكويت: 6 نوفمبر 1985.

[204] عارف العارف، مرجع سابق، ج1، ص 234.

[205] يوسف عميرة، مقابلة، الكويت: 6 نوفمبر 1985.

[206] بيان نويهض، مرجع سابق، ص 504.

[207] كامل الشريف، مرجع سابق، ص 34، وعبد العزيز علي، مقابلة، الكـويت: 27 سـبتمبر 1985. (عبد العزيز علي: أحد مجاهـدي الإخـوان المسلمين المصريين في حـرب 1948)، ومحمد علي الطـاهر، معتقل هاكستب: مـذكرات ومفكـرات (مصـر: المطبعة العالميـة، 1950)، ص 61.

[208] انظر مثلاً: محمود عبد الحليم، مرجع سـابق، ص 412، وعصـام الشربيني، مقابلة، الكويت: 16 أكتوبر 1985.

[209] عصام الشربيني، مقابلة، الكويت: 16 أكتوبر 1985.

[210] ريتشارد ميتشل، مرجع سابق، ص 151 ـ 152.

[211] عارف العارف، مرجع سابق، ج2، ص 398.

[212] محمود عبد الحليم، مرجع سابق، ص 412.

[213] صلاح شـادي، صـفحات من التـاريخ: حصـاد العمر (الكـويت: دار الشعاع، 1980)، ص 56.

[214] كامل الشـريف، مرجع سـابق، ص 40 ــ 41، 71 ــ 74، 126، وصلاح شادي، مرجع سابق، ص 63.

[215] عبـاس السيسـي، في قافلة الإخـوان المسـلمين (دون مكـان: دون ناشر، 1986)، ص 166.

[216] عارف العـارف، مرجع سـابق، ج2، ص 399، وكامل الشـريف، مرجع ســابق، ص 45، 78، وعبد العزيز علي، مقابلــة، الكــويت: 27 سبتمبر 1985.

[217] صلاح شادي، مرجع سابق، ص 63.

[218] عباس السيسي، مرجع سابق، ص 152 ـ 153.

[219] نفس المرجع، ص 153.

[220] زكريا سليمان بيومي، الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصـرية 1928 ــ 1948 (القـاهرة: مكتبة وهبـة، 1979)، ص 131.

[221] عن العمليـــات العســكرية للإخـــوان بالتفصـــيل انظـــر: كامل الشريف، مرجع سابق.

[222] صلاح شادي، مرجع سابق، ص 63.

[223] حلمي سلام، "كان الفـدائيون قـوة فأضـعناها"، مجلة المصـور، عدد 1351، 1 سبتمبر 1950، ص 19.

[224] زياد محمود علي، عداء اليهود للحركة الإسلامية (عمّان، الأردن: دار الفرقان، 1982)، ص 19 ـ 20.

[225] كامل الشريف، مرجع سابق، ص 39 ـ 40.

[226] انظــر: مصـطفى السـباعي، الإخــوان المســلمون في حــرب فلسطين، دار النذير، (دون مكان، دار النذير، 1985)، وعارف العارف، مرجع سابق، ج1، ص 326، 329، 435 ـ 437.

[227] مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص 27.

[228] المرجع نفسه، ص 28 ـ 57.

[229] محمد عبد الرحمن خليفة، مقابلـة، عمّـان (الأردن): 30 أكتـوبر 1985.

[230] سليمان موسى، أيام لا تنسى: الأردن في حرب 1948 (الأردن: مطبعة القوات المسـلحة الأردنيـة، 1982)، ص 44 ــ 45، ومحمد عبد الرحمن خليفة، مقابلة، عمان (الأردن): 30 أكتوبر 1985.

[231] سليمان موسى، مرجع سابق، ص 45.

[232] أحمد محمد الخطيب، مقابلة، عمّان (الأردن): 29 أكتوبر 1985.

[233] أحمد محمد الخطيب، مقابلة، عمّان (الأردن): 29 أكتوبر 1985.

[234] محمد محمــود الصــواف، مقابلــة، الكــويت: 2 ديســمبر 1985، وبيان الحوت، مرجع سابق، ص 612.

[235] بيان الحوت، مرجع سابق، ص 612 ـ 613.

[236] محمد محمود الصواف، مقابلة، الكويت: 2 ديسمبر 1985.

[237] حرب فلسطين 1947 ــ 1948 (الرواية الإسرائيلية الرسـمية)، ص 221.

[238] انظر لمزيد من المعلومـــات: محمد محمـــود الصـــواف، معركة الإسلام أو وقائعنا في فلسطين بين الأمس واليوم (لبنان، دون ناشر، 1969)، ص 158 ـ 175.

الفصل الثاني

منظمات وحركات التحرير الفلسطينية

أولاً - المؤسسات الناطقة باسم الشعب الفلسطيني:

شعب فلسطين جزء من الأمة العربية والإسلامية. وقبل ظهور الدول القُطرية في عالمنا العربي والإسلامي، كان شعب فلسطين ممثلاً بشكل طبيعي في بنية الدول الإسلامية التي تتابعت على حكم المنطقة من راشدين وأمويين وعباسيين ومماليك وعثمانيين ... ولم تكن هناك مشكلة هوية أو انتماء وذلك لشعور الجميع بالانتماء والولاء لأمة الإسلام، بغض النظر عن نظام الحكم. غير أن ظهور الأيديولوجيات القومية والوطنية، وسقوط الدولة العثمانية، ووقوع فلسطين ـ وغيرها من بلدان العالم الإسلامي ـ تحت الاستعمار، وقيام الاستعمار بتقطيع بلدان العالم الإسلامي إلى وحدات مختلفة، لها حدودها الخاصة التي تعزلها عن غيرها. كل ذلك جعل شعب كل منطقة يقوم بنفسه بأعباء مواجهة الاستعمار، فتشكلت لذلك حركات وطنية وإسلامية، قادت شعوبها نحو التحرر والاستقلال.

وعندما سقط الحكم العثماني في فلسطين نهائياً في سبتمبر 1918، اعتبر الفلسطينيون أنفسهم تابعين للحكومة العربية التي تشكلت في دمشق في مطلع أكتوبر 1918 بزعامة فيصل بن الشريف حسين. فقد كان الفلسطينيون ممثلين في المؤتمر السوري العام، وكان الكثير من رجالاتهم في دمشق، وكان منهم نواب في المؤتمر السوري الذي أعلن استقلال سوريا في 8 مارس 1920. وظلت فلسطين تُعدُّ "سوريا الجنوبية" طوال عهد الحكومة العربية في دمشق، إلى أن سقطت هذه الحكومة إثر معركة ميسلون في 24 يوليو 1920، وبِدْء الاستعمار الفرنسي على سوريا.[239]

وكان أول شكل تمثيلي لأبناء فلسطين هو "المؤتمر العربي الفلسطيني" الذي عَقَد باسم عرب فلسطين سبع دورات خلال 1919 ـــ 1928. ولأن الفلسطينيين كانوا تحت الاستعمار البريطاني ومحرومين من ممارسة حقوقهم السياسية، فقد كان هذا المؤتمر مؤسسة وطنية تشبه المجلس النيابي، تنبثق عنها قيادة هي "اللجنة التنفيذية" والتي كانت تمثل الفلسطينيين سياسياً. وفي المؤتمرين الأول (القدس 27 يناير ـ 9 فبراير 1919) والثاني (دمشق 27 فبراير 1920) جرى التأكيد على أن فلسطين جزء من سوريا، فضلاً عن رفض الهجرة اليهودية، والمطالبة باستقلال العرب ووحدتهم. ومنذ المؤتمر الثالث (حيفا 13 ـ 19 ديسمبر 1920) صار على الفلسطينيين لزاماً أن ينظموا أمورهم بالاعتماد على أنفسهم، بعد أن أحكم الاستعماريين البريطاني والفرنسي قبضتهما على المنطقة. فطالبوا بإنشاء حكومة وطنية في فلسطين، مسئولة أمام مجلس نيابي ينتخبه الشعب العربي. ومنذ ذلك المؤتمر، تولى رئاسة اللجنة التنفيذية موسى كاظم الحسيني الذي أصبح رسمياً زعيم الحركة الوطنية الفلسطينية إلى حين وفاته سنة 1934.[240]

وبسبب عوامل الضعف والتفكك التي أصابت الحركة الوطنية الفلسطينية خلال 1923 ـ 1928 فقد ضعفت فعالية المؤتمر العربي ولجنته التنفيذية. وفي الوقت نفسه، أخذت تبرز شخصية الحاج أمين الحسيني مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، الذي قاد الحركة الوطنية من وراء ستار. ومنذ 1932 أخذت تظهر الأحزاب

الفلسطينية، وكـان أولها حـزب الاسـتقلال ثم ظهـرت أحـزاب الـدفاع (النشاشيبية)، والعربي (حزب المفتي ـ الحسينية)، وغيرها.[241] غير أن الحـزب العـربي الـذي حظي بـدعم المفـتي كـان أقواها وأكثرها شعبية. ومع وفاة موسى كاظم تلاشى عملياً المـؤتمر العـربي، وحلت مكانه الأحزاب السياسية.

وعندما اندلعت الثورة الكبرى في إبريل 1936 شكَّلت الأحزاب العربية "اللجنة العربية العليـا" برئاسة الحـاج أمين الحسـيني (في 25 إبريل 1936) الـذي نـزل إلى الميـدان، وأخذ يتـولى قيـادة الحركة الوطنية مباشـرة، وليس من وراء سـتار كما كـان يحـدث من قبـل. وأصـبحت "اللجنة العربية العليا" هي الجهة التي تمثل الفلسطينيين وتطلعاتهم.[242]

وبعد أن انتهت الحـــرب العالمية الثانية أعـــاد الفلســـطينيون تـــرتيب أنفســهم، وشـكّلوا "الهيئة العربية العليـا"[243] برئاسة الحـاج أمين الحســيني في 11 يونيو 1946. وحظيت هــذه الهيئة بــدعم الهيئــات والأحزاب والفئات الفلسطينية، وبالتفاف الشعب الفلسطيني حولهـا، واعــترفت الــدول العربية بها ممثلة للفلســطينيين. غــير أن الهيئة العربية العليا عانت من عدم قدرتها على العمل المتناسب مع خطـورة المرحلة في داخل فلسطين، بسبب وجود الاستعمار البريطاني فيهـا، والذي منع عدداً من قياداتها من دخول فلسطين، وبالذات الحـاج أمين الحسيني. كما عانت اللجنة من مشـاكلها (ومشـاكل رئيسـها) مع عـدد من الأنظمة العربية وخصوصاً الأردن والعراق، وقامت الأنظمة العربية بفـــرض قراراتها وتوجهاتها على الهيئة وتجاهل قيادتها وتجاوزهــــا، بحجة أن قضـية فلسـطين قضـية عربيـة، وأن الأنظمة العربية تتـولى عملية التحرير. بينما كان عدد من الأنظمة العربية لا يزال تحت النفـوذ الاستعماري القوي لبريطانيا والنفوذ المتصاعد لأمريكا، واللتان تدخلتا بفعالية لتحديد سياسات هذه الدول، والخطوط الحمـراء لتحركها تجـاه فلسـطين. وحـتى عنـدما دخلت الجيـوش العربية فلسـطين في مـايو 1948 فإنها منعت الحاج أمين الحسيني من دخول فلسطين أو الوجود في الأمـاكن الـتي سـيطرت عليهـا، ولم تمكّن الأنظمة العربية الحـاج أمين ورفاقه من تـــولي تنظيم وقيـــادة الشـــعب الفلســـطيني في المنـاطق المحـررة، بل باشـرت بنفسـها نـزع أسـلحة الفلسـطينيين، وخصوصاً جيش الجهاد المقدس الذي نظمته الهيئة العربية العليا.

وكـانت الهيئة العربية العليا قد قـررت إنشـاء حكومة فلسـطينية لملء الفراغ الناتج عن انسحاب بريطانيا من فلسطين، وسـعت خلال أشـهر مارس وإبريل والنصف الأول من مايو 1948 لإقناع الحكومـات العربية بذلك، ولكن دون جدوى. وفي 23 سبتمبر 1948 قـامت الهيئة بـإعلان "حكومة عمـوم فلسـطين" في غـزة برئاسة أحمد حلمي عبد البـاقي. وقد أقرَّت الحكومات العربية ذلك، واعترفت بحكومة عموم فلسـطين، ما عـــدا حكومة الأردن. وتأكيـــداً لشـــرعيتها، قـــامت حكومة عمـــوم فلسطين والهيئة العربية العليا بالدعوة إلى مجلس وطني فلســطيني في غـزة في الأول من أكتـوبر 1948 برئاسة الحـاج أمين. وقد انعقد المؤتمر بحضور جمهـرة كبـيرة من الشخصـيات الفلسـطينية، حيث تم الإعلان عن شرعية الحكومة الجديدة، وتقرر إعلان استقلال فلسطين، وإقامة دولة حرة ديموقراطية ذات سيادة، بحـدودها الدولية المتعـارف عليها في أثناء الاحتلال البريطاني.

وقـــــــام ملك الأردن الملك عبد الله من جانبه بالســـــــعي لتمثيل الفلســطينيين، فانعقد بدعمه في عمــان في الأول من أكتــوبر 1948 مؤتمر في عمان برئاسة الشيخ سـليمان التـاجي الفـاروقي أنكر على مؤتمر غـزة تمثيله للفلسـطينيين. وانعقد في أريحا مـؤتمر في الأول من ديسمبر 1948 برئاسة محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل، تم الإعلان فيه عن وحــدة الأرضي الأردنية والفلســطينية، ومبايعة الملك عبد الله ملكاً على فلسطين. وفي آخر ديسمبر من العام نفسه، انعقد مؤتمرٌ ثالثٌ في رام الله ورابـعٌ في نـابلس، وقد أيـدا قـرارات مـؤتمر أريحـا. وقد أثـار موقف الأردن معارضة شـديدة في الأوسـاط العربية والفلسـطينية الرسـمية والشـعبية، غـير أن سـيطرة القـوات الأردنية على معظم ما تبقى من فلســطين (الضـــفة الغربيـــة) مكّنها من منع حكومة عموم فلسطين من ممارسة صلاحياتها، وتم في النهاية توحيد الضفة الغربية مع شرق الأردن في إبريل 1950.[244]

وعندما حاولت حكومة عموم فلسـطين ممارسة صـلاحياتها في قطـاع غزة، تدخلت السلطات المصرية، فنقلت الحاج أمين الحسـيني بـالقوة إلى القاهرة، وأجبرت عدداً من أعضـاء المجلس الوطـني على مغـادرة غزة إلى القاهرة. ثم ما لبثت أن أكرهت رئيس وأعضـاء حكومة عمـوم فلسـطين على الانتقـال إلى مصـر. وبقيت حكومة عمـوم فلسـطين قائمة في مصر دون أن تستطيع القيام بأي من الأعمال المنوطة بها، لا سـيما في الحقل السياسـي. وفرضت السـلطات المصـرية حصـاراً على دار الهيئة العربية العليا في القـاهرة، ووضـعت الحـاج أمين تحت رقابة مُشــدَّدة، حرمته من حرية العمل والتنقــل. ومع الــزمن، لم تعد حكومة عمــوم فلســطين غــير هيئة شــكلية ظلّت تبعث بممثلين عنها لحضــور اجتماعــات الجامعة العربيــة. أما الحــاج أمين والهيئة العربية العليا فقد عانيا من استمرار الحصـار والتجاهـل، واضـطر الحـاج أمين لمغادرة القاهرة سنة 1958 إلى لبنان، بسـبب الضـغط والتضـييق من عبد الناصر عليــه، وخصوصــاً لخلفيته الإسـلامية وعلاقاته المتمـــيزة بالإخوان المسلمين الذين كان عبد الناصر يلاحقهم ويسجنهم. وعملياً، فقد انتهى أي تـــــأثير للهيئة العربية العليا بإنشــــــاء منظمة التحرير الفلسطينية سنة 1964، وظهور العمل الفدائي الفلسطيني، وبوفـاة الحاج أمين الحسيني نفسه في 4 يوليو 1974، ولا يـزال لهـذه الهيئة مكتب صغير في عمان.[245]

منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف):[246]

كـانت فلسـطين ممثلة لـدى جامعة الـدول العربية منذ إنشـائها سـنة 1945. فقد مثَّلها في البداية موسى العلمي، ثم تــــــولى ذلك أحمد حلمي عبد البـــــــــاقي إلى حين وفاته ســـــــنة 1963. وفي أواخر الخمسـينيات وأوائل السـتينيات من القـرن العشـرين أخـذت السـاحة الفلسـطينية تمـوج بالحركـات والمنظمـات الفدائية والسياسـية الـتي تسعى لتحرير فلسطين. وكان نجاح الثورة الجزائرية سنة 1962 عاملاً مُحفِّزاً ونموذجـاً دفع الكثـير من الفلســطينيين للاعتقـاد بإمكـان أن يتولى أبنـاء القُطر الواحد عملية المقاومة والتحرير في الـوقت الـذي يتلقـون الـدعم والإسـناد من أشـقائهم العـرب. كما كـان فشل تجربة الوحــدة المصــرية ـــ الســورية 1958 ـــ 1961 عــاملاً آخر في دفع الفلسطينيين إلى عدم انتظـار تحقق الوحـدة العربيـة، وعـدم التعويل عليهــا، بــالنظر إلى واقع الأنظمة العربية وخلافاتهــا. وقد خشــيت

الأنظمة العربية ـ وخصوصاً مصر ـ أن يفلت زمام القضية الفلسطينية من يدها، فبادرت إلى محاولة إيجاد شكل مؤسسي تمثيلي للفلسطينيين، يستوعب الساحة الفلسطينية، ويُبقي الأمور تحت السيطرة قدر الإمكان.

ولم تعبأ الجامعة العربية - في دورتها الأربعين سنة 1963 - برأي الهيئة العربية العليا ولا حكومة عموم فلسطين في تعيين مندوب فلسطين لدى الجامعة. وعينت بنفسها أحمد الشقيري الذي حظي بدعم عبد الناصر، وقد أرفق بقرار اختياره تكليفه ببحث القضية الفلسطينية في جميع جوانبها، والوسائل التي تؤدي إلى دفعها في ميدان الحركة والنشاط. وعندما انعقد مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة في 13 يناير 1964 أصدر قراراً بإنشاء كيانٍ فلسطيني يُعبِّر عن إرادة شعب فلسطين، ويقيم هيئة تطالب بحقوقه، لتمكينه من تحرير أرضه وتقرير مصيره. ومن الجدير بالذكر أن الجامعة العربية كانت قد أقرَّت سنة 1959 فكرة إنشاء كيان فلسطيني، لكنه ظلَّ عرضة للتسويف والتأجيل، إلى أن أعيد إحياء الفكرة سنة 1963.

وقام أحمد الشقيري، مستفيداً من الدعم المصري، ومن حماسة الفلسطينيين لإنشاء كيان خاص بهم، بعمل ثلاثين جولة في مناطق التجمعات الفلسطينية. وقام خلال الجولة بوضع "الميثاق الوطني الفلسطيني" والنظام الأساسي "لمنظمة التحرير الفلسطينية"، وأجرى ترتيبات عقد مؤتمر فلسطيني عام في القدس، والذي انعقد في 28 مايو ـ 2 يونيو 1964، وقام الملك حسين بافتتاحه. وسمِّي هذا المجلس "المجلس الوطني الأول" وهو الذي أعلن إنشاء "منظمة التحرير الفلسطينية"، وانتخب أحمد الشقيري رئيساً لها، وأقر الميثاق القومي الفلسطيني، كما قرر إعداد الشعب الفلسطيني عسكرياً للقيام بدوره في تحرير وطنه، كما وافق على إنشاء الصندوق القومي الفلسطيني.

وقد أكد الميثاق القومي الفلسطيني[247] على عروبة فلسطين، وحق أبناء فلسطين في أرضهم، ورفض المشروع الصهيوني، ورفض الاعتراف بالدولة اليهودية الصهيونية، ورفض قرار تقسيم فلسطين. وأكد تصميم الشعب الفلسطيني على المضي قدماً على طريق الجهاد المقدَّس حتى يتحقق له النصر النهائي، واعتبر أن تحرير فلسطين وتحقيق الوحدة العربية هدفان متكاملان يؤدي أحدهما إلى تحقيق الآخر، ويجب أن يسيرا جنباً إلى جنب. وقد اتسم هذا الميثاق بروح قومية علمانية عكست الواقع السياسي والأيديولوجي العربي والفلسطيني في ذلك الوقت.

لم يكن مطلوباً من الشقيري أن ينشئ "الكيان" الفلسطيني، إذ كان مكلفاً فقط بتقديم دراسته وتوصياته عن الموضوع إلى مؤتمر القمة العربي الثاني. لكن الشقيري "تجاوز صلاحياته" ـ بدعم مصري ـ وأنشأ م.ت.ف على أرض الواقع، خشية أن تعود القضية إلى أدراج الجامعة العربية ومداولات لجانها و"يموت" المشروع مرة أخرى.

وقد عادت "إشكالية" حق تمثيل الفلسطينيين لتبرز مرة أخرى بإنشاء م.ت.ف. وتميز الأمر بحساسية شديدة خصوصاً بالنسبة إلى الأردن

التي يحمل غالبية الفلسـطينيين جنسـيتها، ويُشـكِّلون غالبية سـكانها. وقد اضطر الشقيري لطمأنة الملك حسين مراراً مؤكداً أن تركيز عمل م.ت.ف سـيكون على تحرير الأرض "غـرب" الضـفة الغربية (أي فلسطين المحتلة 1948). ومع ذلك فإن محاولات م.ت.ف إنشاء قوات فلسـطينية وتجنيد الفلسـطينيين في الضـفة الغربية قد لقي معارضة الأردن. ودخلت العلاقة بين م.ت.ف والأردن مرحلة من التـوتر والاتهامـات المتبادلة منذ 1966، مما أعـاق عمليـات تنظيم وتعبئة الفلسطينيين غربي الأردن وشرقيه.

وفي الـوقت نفسه نظـرت المنظمـات الفدائية الفلسـطينية (فتح وغيرها) إلى م.ت.ف نظرة شكٍّ وتوجُّس، وعدّتها نتـاج الواقع العـربي بضـعفه وتمزقه وخشـيت أن تكـون أداة لهيمنة الأنظمة العربية على الساحة الفلسطينية. ولذلك لم تنـدمج هـذه المنظمـات أو تشـارك في م.ت.ف، واكتفت "فتح" بتمثيل فـردي رمـزي في المجلس الوطـني كموطئ قدم، ولتكون على اطلاع بما يجري.[248]

وعلى الـرغم من الصـعوبات الكثـيرة إلا أن م.ت.ف نجحت في تثـبيت مؤسساتها، وأصبحت الجهة الأوسع تمثيلاً للشعب الفلسطيني.

وعندما حدثت كارثة حرب 1967 وضاع ما تبقى من فلسطين (الضـفة الغربية وقطاع غزة)، وانكشف الضـعف العـربي، وتبخـرت الآمـال في قيـادة عبد الناصـر، وفي الشـعارات القومية لتحرير فلسـطين، شَـعَرَ الفلسـطينيون بوجـوب أخذ زمـام المبـادرة والتخلص من حالة الهيمنة والوصاية العربية. واضـطرت الأنظمة العربية على أن توافق على فتح المجـال أمـام العمل الفـدائي الفلسـطيني، تنفيسـاً عن مشـاعر الجماهير، وتوجيهـاً لغضـبها وثورتها ضد العـدو الصـهيوني. ولـذلك تمَّ إعـادة النظر في م.ت.ف ودورها وقيادتهـا، واضـطر أحمد الشـقيري للاستقالة في 24 ديسمبر 1967 لإفساح المجال أمـام تحقيق الوحـدة الوطنية، ودخول المنظمـات الفدائية في المنظمـة. وقد تـولى يحـيى حمـودة رئاسة اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف بالوكالة خلفـاً للشـقيري، وبـدأ جهـوداً حثيثة لإعـادة صـياغة م.ت.ف والعلاقـات الداخلية الفلسطينية. ونجحت هـذه الجهـود بـدخول معظم المنظمـات الفدائية م.ت.ف وخصوصـاً حركة فتح، وبإعـادة صـياغة الميثـاق القـومي الفلسطيني ليحل مكانه "الميثاق الوطني الفلسطيني"، كما تم إعـادة تـرتيب عضـوية المجلس الوطـني الفلسـطيني ليتكـون من مائة عضو فقط. وبنـاء على ذلك عقد المجلس الوطـني الرابع في القـاهرة 7 ــ 17 يوليو 1968 حيث أقرّت هذه التغييرات، وتحقق للمنظمات الفدائية السيطرة على م.ت.ف. وفي المجلس الوطني الخـامس في القـاهرة 1 ــ 4 فـبراير 1969 تمت للمنظمـات الفدائية السـيطرة على قيـادة اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف، وتـولى ياسر عرفـات زعيم حركة فتح رئاسة المنظمة منذ ذلك الحين.[249]

وقد تمكنت م.ت.ف من انتزاع صـفة الممثل الشـرعي الوحيد للشـعب الفلسطيني في مـؤتمر القمة العـربي في الربـاط في أكتـوبر 1974. وفي الشهر التالي اسـتطاعت الحصـول على صـفة عضو مـراقب في الأمم المتحدة. وعندما أعلنت م.ت.ف استقلال فلسـطين في نوفمـبر 1988 اعترفت بها أكـثر من 120 دولة في العـالم، وحـوَّلت كثـير منها مكاتب م.ت.ف فيها إلى سفارات لدولة فلسطين رغم أن هـذه الدولة

لم تقم بعدُ على الأرض. وفي أعين الأنظمة العربية والأمم المتحدة لا تـــزال م.ت.ف تمثل الفلســـطينيين. غـــير أن قـــدرتها على تمثيل الفلســـطينيين كافة ظلّت أمـــراً نســـبياً، وتواجهه مشـــكلات عملية وميدانية في كثير من الأحيان، ومن ذلك:

1. **عــدم قــدرة م.ت.ف على تشــكيل مجلس وطــني فلســطيني منتخب شــعبياً، ويمثل بدقة الشــرائح المختلفة للفلســطينيين، لاســتحالة ذلك عمليــاً في البلاد العربية الــتي يمنع معظمها مثل تلك الممارسة.**
2. **دخــول وخــروج عــدد من المنظمــات الفدائية الفلســطينية مثل الجبهة الشــعبية لتحرير فلســطين الــتي انضــمت متــأخرة، ثم ما لبثت أن خرجت سنة 1974 مُشكِّلة "جبهة الــرفض" مع عــدد من الفصـــائل الأخـــرى. ثم تكـــررت عودتها أو مقاطعتها للمجلس الوطني أو للجنة التنفيذية بحسب التطورات السياسية.**
3. **وجود عدد من المنظمات الفدائية الفلسطينية التي تمثل أنظمة عربية معينة وتلــتزم بسياســاتها، وتتــأرجح علاقاتها بـــ م.ت.ف وفق علاقات النظام العربي نفسه مع م.ت.ف، مثل "الصاعقة" الــتي تتبع "البعث" الســوري، ومثل جبهة التحرير العربية الــتي تتبع "البعث" العراقي ...**
4. **ظهــور قــوى إســلامية فلســطينية تتمتع بحضــور شــعبي واسع (حماس والجهاد الإسلامي) ورفضها الانضمام إلى م.ت.ف.**
5. **خسارة م.ت.ف لقاعــدة وجودها في الأردن إثر أحــداث 1970 ــ 1971، ولقاعــدتها في لبنــان إثر الاجتيــاح "الإســرائيلي" ســنة 1982، وتراجع قـــــدرتها على التفاعل مع الحيـــــاة اليومية للفلسطينيين في الخارج.**
6. **دخول م.ت.ف في مسار التســوية الســلمية، وتوقيعها اتفاقــات أوســـلو ســـنة 1993، أوجد انقســـاماً شـــديداً في الشـــارع الفلسطيني، الذي وجدت قطاعات كبيرة منه أن م.ت.ف لم تعد تمثل طموحاته ولا همومه، بعد أن تنــازلت رســمياً عن 77% من أرض فلسطين للكيان الإسرائيلي، ونبذت الكفاح المسلح.**
7. **تشكيل السلطة الفلسطينية في مناطق الضــفة والقطــاع، نقل مركز الثقل في قيـــادة م.ت.ف إلى ســـلطة الحكم الـــذاتي، وهمَّش دور م.ت.ف السياسي، كما أضــعف بشــكل كبــير فعالية مؤسساتها المختلفة.**
8. **إن طريقة قيــادة رئيس المنظمة لـــ م.ت.ف، وتركز الســلطات في يديــه، وعــدم تشــجيع اســتقرار ونمو مؤسســات م.ت.ف وقيامها بدورها بفعالية وممارسة صلاحياتها ... أفــرغ كثــيراً من مؤسسات م.ت.ف من محتواها ورسالتها.**

هيكلية م.ت.ف:

أ. المجلس الوطني الفلسطيني:[250]

هو أعلى ســلطة في م.ت.ف، وهو يمثل المجلس النيــابي التشــريعي في الــدول، وهو الجهة الــتي تضع السياســات العامــة، وتضع الخطــط، وتتــابع أداء قيــادة م.ت.ف وتحاســبها. ويتكــون من منــدوبي الفصــائل الفدائية الفلســـــــطينية، وممثلي الاتحـــــــادات النقابية والطلابية والمســتقلين ... وكــان يفــترض في هــذا المجلس أن ينعقد مــرة كل سنة، لكن عدم وجود جهــات مضــيفة تســمح له بحرية القــرار ولقيادته

بحرية الحركة، وعدم سهولة تجميع الممثلين المشتتين على مواطن الشتات الفلسطيني، أَضْعَف من فرص اجتماعاته. ومنذ السبعينيات أخذ ينعقد مرة كل 3 ــ 5 سنوات، ولم تعد قيادة م.ت.ف تدعو هذا المجلس إلا لتمرير قرارات سياسية تم إعدادها سابقاً. كما تأثرت مصداقية المجلس التمثيلية للشعب الفلسطيني بشكل كبير عندما أخذت قيادة م.ت.ف تُدخل عناصر كثيرة موالية تحت بند المستقلين. وتضخمت أعداد أعضاء المجلس من مائة سنة 1968 إلى أكثر من خمسمائة في الثمانينيات، ووصل في المؤتمر الـ21 المنعقد في غزة في مايو 1996 إلى 604 أعضاء. وفي كثير من الأحيان كانت القرارات تؤخذ "بالتصفيق"!! وفقد المجلس مع الزمن قدرته على الرقابة والمحاسبة والمتابعة، وتحولت اجتماعاته إلى مظاهر احتفالية أكثر منها ممارسات تشريعية. وتتحمل قيادة م.ت.ف مسئولية تحويل المجلس إلى هذه الحالة "المريحة لها" التي جعلت منه أداة بيدها وليس العكس. وهذا من أسباب استنكاف التيار الإسلامي عن المشاركة في المجلس.

وكان من أهم محطات هذا المجلس مجلسه الوطني الـ12 (القاهرة 1 ـ 9 يوليو 1974) الذي أقر البرنامج السياسي المرحلي (برنامج النقاط العشر) الذي أقر لأول مرة أن يكون الكفاح المسلح وسيلة رئيسية للتحرير وليس الوسيلة الوحيدة. والمجلس الوطني الـ19 (الجزائر 12 ــ 15 نوفمبر 1988) الذي أعلن دولة فلسطين، واعترف لأول مرة بقرارات الأمم المتحدة 242 و338. والمجلس الوطني الـ21 الذي انعقد في غزة في مايو 1996 وقرر حذف جميع البنود المعادية للكيان الصهيوني من الميثاق الوطني الفلسطيني!!

ب. المجلس المركزي:[251]

في الدورة الحادية عشر للمجلس الوطني (6 ـ 12 يناير 1973) تقرر تشكيل مجلس مركزي بحيث يكون هيئة وسيطة بين المجلس الوطني واللجنة التنفيذية. وذلك لسدِّ الفراغ التشريعي والتوجيهي بسبب تباعد المدى الزمني للقاءات المجلس، ويتولى اتخاذ القرارات في القضايا التي تطرحها عليه اللجنة التنفيذية، ويُقرّ خُططها التنفيذية، ويتابع تنفيذها لقرارات المجلس.

وقد تشكل المجلس المركزي الأول من 32 عضواً مناصفة بين المنظمات الفدائية والكفاءات الفلسطينية غير المنتمية والاتحادات الشعبية. وكان يفترض أن يجلس مرة كل شهرين على الأقل، وأن يكون أداة ديناميكية فعّالة في مراقبة أداء م.ت.ف. وتطويره. ولكن مصير هذا المجلس لم يختلف كثيراً عن المجلس الوطني، إذ تمت مضاعفة أعداد أعضائه (وصل سنة 1990 عدد أعضائه إلى 108)، و"ترهّل" جسمه، وعانى بالتالي من مصاعب الاجتماع واتخاذ القرار ...، فبقيت القدرة على المبادرة، واتخاذ القرار بيد اللجنة التنفيذية، أو بالأحرى شخص رئيسها.

ج. اللجنة التنفيذية:[252]

تشبه اللجنة التنفيذية الحكومة أو السلطة التنفيذية في الأنظمة السياسية، وهي أعلى سلطة تنفيذية في م.ت.ف. وتكون دائمة الانعقاد وأعضاؤها متفرغون للعمل. وتتولى تنفيذ السياسات

والخطط والبرامج التي يُقرُّها المجلس الوطـني. وتتـولى مهـام تمثل الشـعب الفلسـطيني، والإشـراف على مؤسسـات م.ت.ف، وإصـدار اللـوائح والتعليمـات والقـرارات الـتي تنظم أعمـال م.ت.ف، وتُنفذ السياسة المالية لـ م.ت.ف، وتُعِدُّ ميزانيتها.

وفي المجـالس الوطنية الثلاث الأولى كـان النظـام يقتضي أن يقـوم المجلس بانتخـاب رئيس اللجنة التنفيذيـة، ثم يقـوم هو باختيـار بـاقي أعضـاء اللجنـة. ومنذ المـؤتمر الرابع أصـبح النظـام يقتضي أن ينتخب المجلس الوطني اللجنة التنفيذية، وتقوم هي باختيار الـرئيس من بين أعضائها. وعادة ما كان عدد أعضـاء اللجنة التنفيذية 15 عضـواً (ثمانية من الفصائل الفلسطينية وسبعة من المسـتقلين)، لكن العـدد زاد في المجالس الأخيرة إلى 18 عضواً.

ومن الناحية العمليـة، فـإن اللجنة التنفيذية تقـوم بـدورٍ محـوريٍ في عمل م.ت.ف، وهي تتولى السلطات الفعلية في المنظمـة، وعـادة ما تفـــرض سياسة "الأمر الواقـــع" على المجلس المركـــزي والمجلس الوطني، إذ تفعل ما تشاء ثم تعود لأخذ الموافقة و"البركة" من هـذين المجلسـين. ويمسك رئيس اللجنة التنفيذية بزمـام الأمـور، وعـادة ما يفرض على "التنفيذية" توجهاته وقراراته.

د. دوائر م.ت.ف:[253]

للمنظمة عـدد من الـدوائر تشـبه الـوزارات في الأنظمة السياسـية، وتقوم اللجنة التنفيذية بإنشاء هذه الدوائر، وعادة ما يتولى أحد أعضاء اللجنة التنفيذية مسئولية دائرة من الدوائر، وقد تتعـرض هـذه الـدوائر للتغيير والحذف والزيادة. أما أهم هذه الدوائر فهي:

1. أمانة السر.	2. الدائرة السياسية.
3. الدائرة العسكرية	4. الصندوق القومي.
5. دائرة شئون الوطن المحتل.	6. دائرة التربية والتعليم العالي.
7. دائرة العلاقات القومية.	8. دائرة الإعلام والثقافة.
9. دائرة التنظيم الشعبي.	10. دائرة الشئون الاجتماعية.
11. دائرة الشؤون الإدارية.

السلطة الوطنية الفلسطينية:

تشكلت السلطة الوطنية الفلسطينية بناء على اتفاق أوسلو (سـبتمبر 1993) مع الكيـان الإسـرائيلي. وهي تتـولى السـلطة في أجـزاء من الضـفة الغربية وقطـاع غـزة. وقد أخـذت هـذه السـلطة بُعـداً تمثيليـاً للفلسـطينيين في الضـفة والقطـاع، إذ تم شـعبياً في ينـاير 1996 انتخاب مجلس تشريعي من 88 عضـواً، كما تم انتخـاب رئيس السـلطة (ياسر عرفـات) مباشـرة من فلسـطيني الضـفة والقطـاع. ورغم أن المعارضة الفلسـطينية (حمـاس والجهـاد والشـعبية والديموقراطية وغيرها) قاطعت الانتخابـات، إلا أنها المـرة الأولى الـتي يمـارس فيها جزء كبـير من الفلسـطينيين حقوقـاً انتخابية سياسـية. ومع ذلك فـإن تمثيل السلطة للفلسـطينيين ظـلَّ محصـوراً بأبنـاء الضـفة والقطـاع، دون أن يشمل فلسطينيي الأرض المحتلة عام 1948، ولا فلسطينيي الخارج.

ثانياً - حركات المقاومة الفلسطينية حتى سنة 1956

جماعة القسام "الجهادية":[254]

الشيخ عز الـدين عبد القـادر مصـطفى القسـام، من مواليد بلـدة جبلة قضاء اللاذقية في سوريا سنة 1882، درس في الأزهـر، وعـاد ليكـون أحد دعاة الإسلام النشطين في بلدته في سوريا. كان من قادة الثورة السورية ضد الفرنسيين خلال الفـترة 1918 ــ 1920، وقد انتقل إلى فلسطين بعد توقفها، واستقر في حيفا.

عُرف الشيخ القسام بتقواه وورعه، وذكائه، وسعة علمه، وكان سلفي العقيدة محارباً للانحرافات والبدع، وكان قـدوة في سـلوكه وما يـدعو إليه. وكان القسام شجاعاً جريئاً ومن أكثر العلماء تطرقاً للجهاد، قال يومـاً وهو على المنـبر يخطب "رأيت شـباناً يحملـون المكـانس لكنس الشوارع، هؤلاء مدعوون لحمل البنادق، ورأيت شباناً يحملون الفرشاة لمسح أحذية الأجانب، هـؤلاء مـدعوون لحمل المسدسـات لقتل هـؤلاء الأجانب".

ولقد كـان القسـام متفـاعلاً مع الواقـع، ذا شخصـية اجتماعية منفتحة محببة، تحمل هموم الناس وتشاركهم أفراحهم وأتـراحهم، ولأنه كـان حسن السـيرة والعشـرة، ومحـدثاً لبقـاً وخطيبـاً بارعـاً، قـوي الحجـة، ومتواضعاً بعيداً عن الغرور، فقد كان لذلك أثره في أن يكون ذا شعبية كبيرة.

وقد جعلته هذه الصفات، فضلاً عن رصيد تجربته الجهاديـة، مـؤهلاً لأن يكون مؤسساً لتنظيم جهادي قوي له دوره المهم في تاريخ فلسـطين الحديث المعاصر.[255]

ترجع نشأة جماعة القسام إلى سنة 1925 عندما ابتدأ الشيخ عز الدين القسـام في إنشـاء تنظيم جهـادي سـري، يسـتمدُّ فهمه ومنهجه من الإسلام، ويَعدُّ الجهاد طريقـاً وحيـداً لإنقـاذ فلسـطين.[256] وقد عـدّ أميل الغـوري هـذا التنظيم "أخطر منظمة سـرية وأعظم حركة فدائية عرفها تـاريخ الحركة الوطنية الفلسـطينية بل تـاريخ الجهـاد العـربي الحـــــديث".[257] وقد أطلق على هـــــذا التنظيم اسم "المنظمة الجهاديـة"،[258] ولكن غلب عليه بعد استشـهاد القسـام اسم جماعة القسام أو القساميون،[259] وكان شعار التنظيم "هـذا جهـاد نصر أو استشهاد".[260]

وكـانت جماعة القسـام لا تقبل أي عضو إلا بعد انتقـاء وتمحيص، ولا تدخل في عضويتها إلا من كان "مؤمنـاً مسـتعداً أن يمـوت في سـبيل بلاده" ومن أهل الدين والعقيدة الصحيحة،[261] وقد استفاد القســام من وظيفته إمامـاً وخطيبـاً لمسـجد الاسـتقلال في حيفا منذ سـنة 1925، وكمأذون شرعي منذ سنة 1930، في الاتصال بالناس وانتقاء العناصر المناسـبة لجماعتـه. كما اسـتفاد من رئاسـته لفـرع جمعية الشبان المسلمين في حيفا كغطـاء مقبـول لحركته ونشـاطه وزياراته للقـرى، وإنشـاء فـروع لهـذه الجمعية في اللـواء الشـمالي، والـتي أصبحت غطـاءً مناسـباً لإخوانه المجاهـدين المحلـيين.[262] وتشـكلت

القيــادة الأولى للتنظيم القســامي ســنة 1928، وضــمت فضــلاً عن رئيسها القسام كلاًّ من العبد قاسم ومحمـود زعـرورة ومحمد الصـالح الحمد وخليل محمد عيسى. وكان مركزها حيفا، وكانت القيادة جماعية ومسـؤولة عن اتخـاذ كافة القـرارات المهمـة.[263] وبلغ عـدد أفـراد الجماعة سنة 1935 حوالي مائتي منتظم أكثرهم يشرف على حلقــات توجيهية من الأنصار، الذين يصل عددهم إلى ثمانمائة.[264]

وقد أنشأ تنظيم القسام خمس وحدات متخصصة تضمنت وحدة لشـراء السلاح، ووحدة للتدريب، ووحدة للتجسس على اليهود والإنجليز، وكان أفرادها بشـــكل عـــام ممن يشـــتغل في دوائر الحكومة وخصوصـــاً الشرطة، ورابعة للدعاية للثورة، وخامسة للاتصالات السياسـية.[265] أما ماليتها فقد اعتمدت على اشتراكات الأعضاء وتبرعات الموثوقين.[266] وكـــان من منهج التنظيم أن يتـــدرب جميع أفـــراده على حمل السلاح، بحيث يكونـون مسـتعدين لخـوض معـارك الجهـاد عند إعلانهـا، وكان على كل عضو أن يدبر أمر تجهيز نفسه بالسلاح.[267] ولم يكن حال أغلب الأعضاء ميسورة، إذ كانوا يكدون من أجل لقمة العيش ومع هذا "فقد منعوا أنفسـهم الخـبز من أجل ابتيـاع السـلاح" ومن أجل أن يعتمدوا على أنفسهم في العمل والإعداد.[268]

ويبدو أن انتقال جماعة القسام إلى مرحلة التسليح والتدريب كان في أواخر ســنة 1928،[269] وجـاءت ثـورة الـبراق في أغسـطس 1929 لتعزز الاتجاه العسكري لدى الجماعة، فأخذ القسـام يسـهم في عملية التــدريب بنفســه، والــتي شــملت رحلات ليلية وحركـات اسـتطلاعية وتمارين على إصابة الهدف.[270] وعندما أرادت الجماعة أن تعلن عن نفسها في نوفمبر 1935 كانت تملك حسبما ذكر صبحي ياسين ــ وهو أحد أعضائها ـ ألف قطعة سلاح وقاعدة تسـليح في منطقة اللاذقيـة.[271]

ورغم أن جماعة القســام لم تعلن عن نفســها إلا في وقت متــأخر، فإنها قامت بعدد من العمليات العسكرية خصوصاً في الفـترة 1930 ــ 1932 وقد بدت وكأنها عمليات فردية. ويبـدو أن هـذه العمليـات كـانت من باب كسر حاجز الخـوف لـدى أفـراد الجماعـة، وجس النبض وردود الفعل لدى العرب والإنجليز واليهود، وربما كـانت تعبـيراً عن الحمـاس والتفاعل مع القضــايا الوطنية ومحاولة تصــعيدها بما يتناسب وخطة الإعداد والتعبئة.

وفي نوفمــبر 1935 أعلنت جماعة القســام "الجهاديــة" الجهــاد، وقد اختفى القســام وعــدد من إخوانه في أواخر أكتــوبر، بعد أن بــاع بيته الوحيد في حيفـا، وبـاع أصـحابه حلي زوجـاتهم وبعض أثـاث بيـوتهم ليوفروا الرصاص والبنادق.[272]

وبعد فجر يــوم 20 نوفمــبر 1935 طـوقت قـوات كبـيرة من الشــرطة تقـدر بأربعمائة رجل ــ معظمهم من الإنجلـيز ــ القسـام وعشـرة من إخوانه في أحراش (يعبد) عند قرية الشيخ زيد. وقد بدأت المعركة في الخامسة والنصف صباحاً واستمرت أربع سـاعات ونصف السـاعة. وقد استشهد في هذه المعركة الشيخ عز الدين القسـام ويوسف الزيبـاوي ومحمد حنفي المصـــري، وقبض على نمر الســـعدي وأســـعد المفلح

اللذين أصيبا بجراح، كما قبض على عربي بــدوي ومحمد يوسف وأحمد جابر وحسن البابر.[273]

وكان لجماعة القسام شرف تفجير الثورة الكبرى 1936 ـ 1939[274] في عملية عنبتا ـــ نــور الشــمس في 15 إبريل 1936، والــتي قادها القائد الجديد للجماعة الشــيخ فرحــان الســعدي. كما كــان لها شــرف تفجير المرحلة الثانية من الثورة عنـدما قـامت في 26 سـبتمبر 1937 باغتيال أندروز الحاكم البريطاني لمنطقة الجليل. وأسهم القساميون في تنظيم وقيــادة الثــورة فشــارك ثلاثة منهم (من أصل ســتة) في عضوية القيادة العسكرية والـتي اختـارت في 2 سـبتمبر 1936 فـوزي القـاوقجي قائـداً عامـاً للثـورة الـذي اسـتمر في القيـادة حـتى نهاية المرحلة الأولى من الثورة في 12 أكتوبر 1936.

وقد تــولى قيــادة الثــورة في شــمال فلســطين القائد القســامي أبو إبراهيم الكبــير وكــان معظم قيادته من الحركة القســامية (أبو محمــود الصفوري، وسليمان عبد الجبار، وعبد الله الأصبح، وتوفيق الإبــراهيم، وعبد الله الشـاعر، ... وغـيرهم). وفي منطقة لـواء نـابلس المقسـمة إلى أربعة أقسام، كان هناك قائدان قساميان بارزان هما الشيخ عطية أحمد عوض والذي خلفه في منطقته الشيخ القسامي يوسف أبو درة، والشيخ محمد الصالح الحمد (أبو خالد) والذي خلفه في منطقته الشيخ القسامي عبد الفتاح محمد الحاج مصطفى. هذا بالإضــافة إلى منطقة يقودها عبد الرحيم الحاج محمد، وأخرى يقودها عارف عبد الرازق.

وبشكل عام فقد كان لجماعة القسام دورٌ أساسي في الثورة الكــبرى قيادةً وتوجيهاً وأفراداً وتضحيات.

وعندما أعلنت الحرب عامي 1947 ـ 1948 عاد القســاميون للمشــاركة في ميــادين الجهــاد من جديــد، وقد عمل معظمهم تحت توجيه الحــاج أمين الحســيني ضــمن جيش الجهــاد المقــدس، أو مع جيش الإنقــاذ بقيـادة فـوزي القـاوقجي. وقد ظل القسـاميون يعملـون بالـذات في منــاطق الشــمال كـأبي إبــراهيم الكبــير وأبي إبــراهيم الصـغير، وأبي محمـود الصـفوري، وسـرور بــرهم، ولكن هـذه المـرة لم يكونـوا هم القيــادات الموجهة المســيطرة المحركة للوضــع، وإنما كــانوا تــابعين لقيادات أعلى ـ كثيراً ما وضعتهم في ظروف صعبة ـ بحيث لم يتمكنوا من أداء واجبهم كما يشاؤون. شارك أبو إبــراهيم الكبــير ضـمن قيـادة فوج اليرموك الثـاني التـابع لجيش الإنقـاذ، والـذي كـان يتـولى قيادته أديب الشيشــكلي. وتــولى أبو إبــراهيم الصــغير العمل في منطقة الناصرة تابعـاً لجيش الجهـاد المقـدس. وتـولى أبو محمـود الصـفوري الدفاع عن شفا عمرو تحت إمرة الجهاد المقدس أيضاً.[275]

منظمة الجهاد المقدس:

كـان لعبد القـادر الحسـيني (ابن زعيم الحركة الوطنية في فلسـطين موسى كـاظم الحسـيني) دورٌ أساسـيٌ في إنشـاء هـذه المنظمة وقيادتهـا. وعبد القـادر من الشخصـيات الفلسـطينية المشـهورة بوطنيتها الصـادقة والتزامها الإسـلامي. وكـان قد درس في الجامعة الأمريكية بالقـاهرة، وفي حفلة تخرجه سـنة 1932 - قـام بتمزيق شـهادة التخـرج بعد أن اسـتلمها من رئيس الجامعة - على مـرأى من الحشد الكبـير الـذي حضر الحفل من رجـال السياسة والعلم والمكانة في مصـر. وصـرخ في وجه رئيس الجامعة قـائلاً: إني لست في حاجة إلى شهادة معهدكم الـذي هو معهد اسـتعماري تبشـيري .. وألقى في الحاضـرين كلمة عن الاسـتعمار والتبشـير وهتف لفلسـطين، وما لبث الجمهور المذهول أن قابله بعاصفة من التصـفيق الحـاد. ويعكس هـذا الموقف غيرته على الإسـلام ووطنيته وجرأتـه. وقد قـامت الجامعة بسحب شهادته، كما قامت السلطات المصرية ــ تحت ضـغط بريطـاني أمريكي ـ بطرده من مصر.[276]

وبعد أن عـاد عبد القـادر الحسـيني من مصر في يوليو 1932، أخذ يشـكل مع مجموعة من الشـباب الوطـني المتحمس تنظيمـاً سـرياً عسكرياً، يهدف إلى مقاومة السلطات البريطانيـة، وتحطيم المشـروع اليهـودي الصـهيوني، حيث تم تـرتيب أمـور هـذا التنظيم في مـارس 1934، برئاسة عبد القـادر الحسـيني، وأطلق عليه بعد ذلك اسم "منظمة المقاومة والجهـاد"، واتسع ليشـمل منـاطق مختلفة من فلسطين، غطّت 17 فرعاً في مدن فلسطين، ووصل عدد أعضائه إلى نحو 400 شخص، كما أوجد التنظيم سبعة مراكز سرية للتدريب.[277] وقد اصطبغ هذا التنظيم بالصبغة الوطنية، وشارك في عضويته العديد من النصارى، كان من أبرزهم أميل الغوري، وحنا خلف.[278]

ويذكر أميل الغوري، أن الحاج أمين الحسيني، كان يتـابع هـذا النشـاط السـري، دون أن يلاحظ أعضـاء التنظيم ذلـك، وفي صـيف 1935 دعا الحـاج أمين عبد القـادر الحسـيني وزملاءه المسـئولين، وطلب منهم توحيد جهودهم مع جهوده التنظيمية السرية التي كان يعدها هو أيضـاً، ويضـيف أنه نتيجة هـذا التوحيـد، تشـكلت "منظمة الجهـاد المقـدس" برعاية الحاج أمين وتحت إشرافه.[279]

ويضيف الغوري قـائلاً: أنه لما تشـكلت اللجنة العربية العليا لفلسـطين في إبريل 1936 برئاسة الحـاج أمين، تبنت اللجنة "منظمة الجهـاد المقدس"، فأصبحت بمثابة جهازها العسـكري، حيث أسـند الحـاج أمين قيادتها لعبد القادر الحسيني.[280]

وقد تولى عبد القادر الحسيني فعلياً قيـادة منطقة القـدس في أثنـاء الثورة الكبرى (1936 ــ 1939). وفي بداية الثـورة، اجتمع عبد القـادر ونفر من إخوانه المجاهـدين في منطقة القـدس، حيث أدى الجميع الصـلاة متضـرعين إلى الله تعـالى أن يأخذ بأيـديهم وينصـرهم على أعـدائهم، مؤكـدين أن هجـرتهم خالصة لله سـبحانه وتعـالى، وعـزمهم على ترك مدينة القدس والاعتصام بجبالها "لا تشـرداً ولا بطـراً، ولكن

حباً لله وجهاداً في سبيله، ونصرة للدين وذوداً عن الوطن، ودفاعاً عن الحرمات. والأعراض والحريات والمقدسات".[281]

وأخذت فصائل المجاهدين بقيادة عبد القادر الحسيني تهاجم القوات الإنجليزية وتجمعات اليهود، وتقطع طرق المواصلات في البلاد، وكان من أشد المعارك التي خاضها عبد القادر الحسيني معركة "حوسان ــ الخضر"، في 4 أكتوبر 1936، التي انتهت باستشهاد البطل السوري سعيد العاص، وأصيب فيها عبد القادر الحسيني نفسه، بجراح ثم أسر بعد ذلك. وقد وقعت بالقوات البريطانية خسائر كبيرة، وقبل أن تحاكم السلطة البريطانية عبد القادر بيوم واحد استطاع الهرب في 11 ديسمبر 1936 إلى العراق.[282]

ثم ما لبث عبد القادر الحسيني أن عاد للقدس في خريف 1937، بعد أن تدرب تدريباً عسكرياً في ألمانيا، وهناك رتب الفصائل وقاد أعمال الجهاد من جديد، وكان من أهم المعارك التي خاضتها فصائله، "معركة عرتوف الكبرى" في 14 أكتوبر 1937، ومعركة "بني نعيم الكبرى"، في 4 أكتوبر 1938، والتي أصيب فيها عبد القادر بجراح. ومع تغير ظروف الثورة، وزيادة البطش البريطاني، ونشوب الحرب العالمية الثانية، توقفت الثورة في منطقة القدس، وغادر عبد القادر الحسيني فلسطين إلى العراق.[283]

وفي ديسمبر 1947 أعادت الهيئة العليا لفلسطين تشكيل الجهاد المقدس باسم "جيش الجهاد المقدس" وبقيادة عبد القادر الحسيني نفسه. وكان هذا الجيش يمثل "الجيش الفلسطيني" الذي وضعت القيادة الوطنية الفلسطينية ثقلها فيه. وكان يتكون من 5 ــ 7 آلاف مقاتل، تساندهم فئة أخرى من المقاتلين المقيمين في قراهم والذين يستدعون عند الحاجة، ويبلغ مجموعهم نحو عشرة آلاف.[284]

وعلى الرغم من حماسة أفراد الجهاد المقدس وتضحياتهم، لكن هذا الجيش كان ضعيف التسليح والتدريب قياساً بإمكانات القوات اليهودية الصهيونية. وأسهمت خلافات الأنظمة العربية مع "الهيئة العربية العليا" في عدم تحويل الكثير من الأسلحة والأموال التي كان يتم التبرع بها إلى هذا الجيش، والذي كان بأمس الحاجة إليها.

توزعت قوات الجهاد المقدس على مختلف مناطق فلسطين، وخاضت معارك كثيرة ناجحة مثل معارك جوليس، والنبي داود، وأبو شريتح، ومجد الكروم، والكابري، والبروة، وبيت سوريك، والماصيون، وميكور حاييم. وقامت فرقة التدمير في الجهاد المقدس بنسف شارع هاسوليل في القدس الجديدة مما أدى إلى قتل وجرح المئات، كما فجرت شارع بن يهودا في القدس حيث أصيب أكثر من ألفي يهودي بين قتيل وجريح.[285]

وكان استشهاد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل في 9 إبريل 1948، أحد النماذج المشرفة للتضحية والجهاد في فلسطين، وكان له أثر بالغ على جيش الجهاد المقدس.

وعندما حدثت الهدنة الأولى بين الجيـوش العربية والكيـان الصـهيوني في يونيو 1948، وضعفت الإمكانـات العسـكرية للهيئة العربية العليـا، اضـطرت الكثـير من عناصر الجهـاد المقـدس إلى الانضـمام للجيش الأردني (1438 مجاهـداً)، وللجيش العـراقي (276 مجاهـداً)، والجيش المصري (150 مجاهـداً)، وجيش الإنقـاذ (600 مجاهـد). وظلت قـوات الجهـاد المقـدس قائمة إلى أن أصـدرت الحكومة الأردنية قـراراً بحلها في 18 ديسمبر 1948، لكنها ظلّت ترابط في أماكنها إلى أن أتاها أمر الحل من الهيئة العربية العليا في 15 مايو 1949.[286]

حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح":

تشير الدلائل إلى أن حركة فتح قد نشأت في البداية في أحضان حركة الإخوان المسلمين، وخصوصاً بين أفرادها من أبناء قطاع غزة. ويظهر أن عامة الإخوان كانوا يعدُّونها جـزءاً منهم أو على الأقل رصـيداً لهم. غير أن الطرفين اتخذا خط الانفصال والتمايز عن بعضـهما منذ صـيف 1963. واتخذت حركة فتح لنفسها خطاً وطنياً علمانياً ميَّزها عن كافة الأطراف والأيديولوجيات المتواجدة على الساحة.

ولكن المبادرة لإنشـاء هـذه الحركة لم تكن بقـرار من قيـادة الإخـوان الفلسطينيين، وإنما بين عدد من القيادات الوسطى الـتي كـانت تملك قدراً كبيراً من النشاط والتأثير في الأفراد، الذين كانوا ينظـرون إليها بـاحترام ويفترضـون (في جو العمل السـري) أن ما يصـدر عن هـذه القيـادات هو توجه الإخـوان، خصوصـاً أولئك الـذين يصـعب عليهم الاتصـال المباشر بالقيـادة كـأفراد الإخـوان في الكـويت وقطر والسعودية ... ويذكر عبد الله أبو عزة الذي كان في موقع قيادي بـارز في الإخوان في تلك الفـترة أن أبا جهـاد "خليل الـوزير" قـدَّم تصـوراً إلى زعيم الإخوان في القطـاع هـاني بسيسو يقضي بإنشـاء تنظيم لا يحمل لوناً إسلامياً في مظهـره، وإنما يركز على تحرير فلسـطين من خلال الكفـاح المسـلح، ونـوَّه أبو جهـاد في مذكرته أن هـذا سـيفتح الأبواب المغلقة بين الإخوان والجماهير بسبب حصار جمال عبد الناصر للحركة، وسوف يُبقي قضية فلسطين حية، ويجبر الـدول العربية على خوض الحرب. ولم تستجب قيادة الإخوان لهـذا التصـور، ولعلها أهملته فلم تـردّ عليـه. إذ إن التوجه العـام للقيـادة كـان يميل نحو الـتريث، والسلوك الأمـني الحـذر، والتركـيز على التربية سـعياً للمحافظة على الجماعة في أجـواء ملاحقة عبد الناصر لهـا.[287] وقـام عـدد من الإخوان ـ من ذوي المكانة والاحترام ـ ممن اقتنع بهذا التصـور بـدعوة إخوانهم للانضمام للحركة، وكان من بين هـؤلاء الـدعاة سـعيد المـزيّن (أبو هشـام) وغـالب الـوزير، وانضم إليهم عـدد من الإخـوان البـارزين أمثال سليم الزعنون، وصلاح خلف، وأسعد الصفطاوي، ومحمد يوسف النجار، وكمال عدوان، ورفيق النتشة.

وتشـير أحد المصـادر الإخوانية إلى أن القيـادة الأولى لفتح كـانت من خمسة هم أبو جهـاد خليل الـوزير وعبد الفتـاح حمـود ويوسف عمـيرة وسليمان حمد وياسر عرفـات. والأربعة الأوائل كلهم من الإخـوان، أما ياسر عرفات فكان يُعدُّ مؤيداً ومحسوباً على التيـار العـام للإخـوان، إذ شارك مع أفرادهم في حرب 1948، وتدرب في معسكراتهم في مصر أيـام المقاومة المصـرية للإنجلـيز لإجبـارهم على الخـروج من قنـاة السويس 52 ـ 1954، كما دعمه الإخوان لرئاسة رابطة طلبة فلسطين في مصر في منتصف الخمسينيات.[288]

ولكن كيف ينشأ تنظيم داخل تنظيم، وكيف يتبنى كثـير من هـؤلاء من أصـحاب الخلفيـات الإخوانية أطروحـات علمانية ..؟! ربما نسـتطيع توضيح الأمر باختصار في النقاط التالية:

1. **إن الانضمام للإخوان المسلمين حتى منتصف الخمسـينيات كـان أمراً سهلاً، وكان أشـبه بالاشـتراك في أحد الأندية أو الجمعيـات العامـة. وكـانت حركة الإخـوان حركة شـعبية مفتوحة اجتـذبت**

قطاعات واسعة من المجتمع وخصوصاً الشباب، بسبب دعوتها الأقرب إلى فطرة الناس، وبسبب مواقفها الوطنية ومشاركة أفرادها البطولية في حرب 1948، فضلاً عن نشاط أفرادها في الجوانب الاجتماعية والخيرية، ولذلك كانت الحركة الشعبية الأولى في قطاع غزة.

2. **كان أفراد الإخوان يتفقون على الأطر العامة للفكرة الإسلامية، ولكن لم يكن هناك تركيز على التربية الإيمانية والسلوكية ولا معاني الانضباط والطاعة لجميع الأفراد. وقد أسهم ذلك في انفضاض الكثيرين عن هذه الجماعة عندما تعرضت لضغط وملاحقة عبد الناصر لها منذ عام 1954. وقد ظل هؤلاء يحملون في تاريخهم أنهم يوماً ما كانوا في جماعة الإخوان، دون أن يعني ذلك الكثير بالنسبة إليهم. خصوصاً وأن كثيراً من هؤلاء كانوا من طلبة المدارس الذين لم تنضج أو تتشكّل شخصياتهم بعد.**
3. **انضم كثير من الأفراد إلى الإخوان باعتبارها حركة تمثل طموحهم الوطني ورغبتهم الملحّة في الجهاد لاسترداد فلسطين. وعندما لم تستطع هذه الحركة التعبير عن هذا المشروع ـ بسبب ظروفها الخاصة ـ فإنهم سعوا إلى إيجاد مشروع وطني يتجاوز هذه الظروف، ويلبي رغبتهم الملحّة في العمل الجهادي النضالي.**
4. **يبدو أن ظروف حركة الإخوان في أواخر الخمسينيات لم تمكنها من تحقيق قدر من التماسك والانضباط التنظيمي خصوصاً مع أفرادها في الخليج، مما سهَّل على الشخصيات التي انتمت لمشروع فتح أن تجند الكثير من هؤلاء.**
5. **حافظ الكثير من الإخوان الذين انضموا إلى فتح على تدينهم الشخصي، وعلى العديد من المراكز القيادية، لكنهم أعطوا الأولوية لتحويل الحركة إلى حالة شعبية وجبهة وطنية تضم كل من يرغب في المشاركة بغض النظر عن خلفياته العقدية والأيديولوجية.**

وحسب خالد الحسن ـ أحد أبرز قادة فتح ـ فإن أبا جهاد خليل الوزير هو الذي بدأ حركة فتح.[289] وأبو جهاد هو الذي قدم هذا المشروع لقيادة الإخوان، وكان من قادة التنظيم الإخواني السري العسكري الذي نظم عدداً من العمليات الفدائية في النصف الأول من الخمسينيات وكان يتولى مسئولية منطقة غزة وشمال القطاع، وكان يعمل تحت إشراف وتوجيه الأستاذ محمد أبو سيدو الذي كان صلة الوصل مع قيادة هذا العمل في العريش (الأستاذ كامل الشريف...).[290] ومنذ تأسيسها ظل أبو جهاد الرجل الثاني في فتح حتى استشهاده في إبريل 1988.

وعلى أي حال، فلا ينبغي للإخوان أن يبالغوا في نسبة حركة فتح إليهم، كما لا ينبغي لحركة فتح أن تتنكر لجذورها وبداياتها الأولى، فإذا كان الإخوان هم المحضن الذي خرجت منه الفكرة وبداياتها الأولى، فإن فتح لم تنشأ بقرار من قيادة الإخوان ولا وفق خططهم، كما أن مشروعها لم يحمل أيديولوجية الإخوان ولا الضوابط التي تضمن سيره كمشروع يخدم أهدافهم. وعندما طالبت قيادة الإخوان في غزة بالإشراف المباشر على فتح وأن تعيِّن بنفسها ثلاثة من بين

قادتها الخمسة، في صيف 1962، رفضت قيادة فتح ذلك، ونظرت بعين الشك إلى قدرة قيادة الإخوان في ظل ظروفها الصعبة على القيادة والتوجيه وتحقيق الطموحات. وهذا، وإن كان يدل على وجود صلة قوية بين الإخوان وفتح، إلا أنه يدل على أن قيادة فتح كانت تملك من الجرأة والثقة ما جعلها ترفض التوجيه، كما يدل أن فتح كانت قد اختطت منذ أمدٍ خطاً مستقلاً في التعبئة والتنظيم والعمل. وأمرت كلاً من فتح والإخوان أفرادهما منذ صيف 1963 بالتمايز إما لفتح أو الإخوان، وخسر كلا التنظيمين العديد من أفرادهما.

ومن الناحية التاريخية فيظهر أن فكرة فتح نشأت مع أبي جهاد ووسط رابطة طلبة فلسطين الدارسين في مصر سنة 1956، وعندما تخرَّج هؤلاء عملوا في أماكن عملهم الجديدة وعبر اتصالاتهم على إنشاء أنوية للحركة. ويبدو أن أول وأنشط هذه الأنوية كان في الكويت حيث ترجع بداية نشأته إلى أكتوبر 1957 وتحديداً في منطقة الصليبيخات، وكان من أوائل مؤسسي هذه النواة أبو جهاد وياسر عرفات ويوسف عميرة وسليمان حمد وعادل عبد الكريم وغيرهم. وقد أصدرت مجموعة الكويت مجلة "فلسطيننا" في لبنان في نوفمبر 1959 (واستمرت في الصدور حتى نوفمبر 1964)، وقد كان ذلك وسيلة جيدة للتعرّف والتواصل مع أولئك الذين يحملون الأفكار نفسها في البلدان الأخرى ودعوتهم للانضمام للحركة. وحسب أبو إياد صلاح خلف فإن أول اجتماع تأسيسي لممثلي الحركة كان في الكويت في 10 أكتوبر 1959. أما خالد الحسن فيذكر أنه قد تشكلت مجموعات مشابهة في السعودية (عبد الفتاح حمود)، وفي قطر (محمد يوسف النجار ومحمود عباس)، وفي العراق وغزة ودمشق وألمانيا وإسبانيا والنمسا، وأن ممثلي هذه المجموعات قد اجتمعوا في الكويت في سنة 1962 وتوحَّد الجميع في إطار حركة فتح. وربما يتحدث خالد الحسن عن مرحلة ثانية من التوسع والانطلاق لفتح.[291]

ويشير أبو إياد إلى أن اسم الحركة "فتح" والبرنامج السياسي للحركة قد تمت الموافقة عليه في عام 1958. وأنه كان في الكويت أكثر من 35 مجموعة أو منظمة فلسطينية، تم توحيد معظمها في فتح حوالي سنة 1961.[292]

الرؤية الفكرية والسياسية:

أتمت حركة فتح في مؤتمرها الثاني سنة 1968 صياغة وثيقة "مبادئ وأهداف وأساليب حركة فتح" وقد أقرت في المؤتمر الثالث سنة 1971، والرابع 1980 مع بعض التعديلات. غير أن حركة فتح منذ إنشائها ركزت على فكرة تحرير فلسطين، وتميزت بالتأكيد على الهوية الوطنية، واستقلالية القرار الفلسطيني، واستبعاد الأيديولوجيات من هوية الحركة، ليتوحد الجميع في معركة التحرير. ومن خلال استقراء مجمل أدبيات الحركة على مدى سنوات عديدة، يمكن اختصار مبادئها واستراتيجياتها ورؤيتها في النقاط التالية:[293]

1. **لا يمكن استرداد فلسطين إلا عن طريق الحرب الشعبية طويلة الأمد والنضال العسكري.**
2. **لمعركة التحرير الأولوية على أية تناقضات فكرية أو سياسية أو اجتماعية، ولا بد من استقطاب كل القوى الثائرة وتوحيدها في المعركة ضد الكيان الصهيوني، ولذلك لا بد من استبعاد الأيديولوجيات والمبادئ، حتى ينشغل الجميع بمعركة المصير. فلا أيديولوجيات إسلامية أو يسارية أو قومية، وإنما الهوية التي تجمع الجميع هي البندقية "هويتي بندقيتي".**
3. **تحرير فلسطين هو الطريق إلى توحيد الوطن العربي، (وليس الوحدة العربية هي الطريق إلى تحرير فلسطين).**
4. **ضرورة تحرير الإرادة الفلسطينية، والمحافظة على استقلاليتها في القرار وفي القتال، أي تحقيق "القرار الوطني الفلسطيني المستقل".**
5. **فتح حركة وطنية ثورية مستقلة.**
6. **معركة تحرير فلسطين واجب عربي وديني وإنساني.**
7. **الكيان الصهيوني مؤسسة عنصرية عسكرية متكاملة دخيلة وغازية، وإن قيام دولة فلسطينية عربية ديموقراطية ـ يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود بحقوق متساوية ـ على أنقاضه أمر حتمي.**

وقد أضاف المجلس الثوري لحركة فتح بعد حرب 1973 مبدءاً يقول إن للشعب الفلسطيني وحده حق ممارسة السيادة الوطنية على أي جزء من أرض فلسطين يتم تحريره.

وبشكل عام رفضت فتح أن يكون لها أيديولوجية أو عقيدة سياسية محددة، وفتحت المجال أمام مختلف الأفراد من كافة الأطياف الفكرية والسياسية (إسلامية ـ قومية ـ وطنية ـ يسارية ..) للانضمام إليها، ولهؤلاء أن يحتفظوا بفكرهم، ولكن عليهم ترك انتماءاتهم التنظيمية والحزبية السابقة. أي أن فتح أرادت أن تكون إطاراً جبهوياً يستوعب تناقضات المجتمع الفلسطيني، ويوجهه نحو الحرب مع العدو الصهيوني.

ولذلك نجد في قيادات فتح ورموزها شخصيات ذات خلفيات إخوانية "إخوان مسلمين" كما أشرنا سابقاً، أو من حزب التحرير مثال خالد

الحسن، ونمر صالح "أبو صالح"، ومحمـود مسـودة "أبو عبيـدة"، أو من حـزب البعث مثل فـاروق قـدومي، وسـميح أبو كويك "قـدري"، وخالد اليشرطي، ومحمد أبو ميزر "أبو حـاتم"، أو ذوي خلفيـات يسـارية مثل ماجد أبو شرار ... وبدا واضحاً أن ذوي الخلفيات الإخوانية كانوا لفـترة طويلة المجموعة القيادية الأكبر عـدداً، وشـكلوا قطبـاً اسـتأثر بمعظم المناصب الهامة خاصة في الشـؤون العسـكرية والمالية والتنظيميـة. وإن خفَّ أثرهم مع الـزمن باستشـهاد أعـداد منهم (عبد الفتـاح حمـود (أول شهيد من أعضاء اللجنة المركزية)، ومحمد يوسف النجار، وكمال عدوان، وأبو جهاد...) أو بخروج واعتزال ووفاة آخرين.[294]

وقد حافظ الصف القيادي الأول على قدر عالٍ من التماسك التنظيمي والـولاء لفتح. واسـتطاع توظيف الخلفيـات الفكرية المختلفة لأفـراده في تطوير العلاقات والاستفادة من اتجاهات وأنظمة متناقضة. بل إن هناك من يرى أن قيـادة فتح تقـوم بتنفيذ لعبة "تبـادل الأدوار" عنـدما يجنح البعض للتنـــازل أو التســاهل فيقـــوم آخـــرون بالتشـــدد وتعلو صرخاتهم بالنقد، ثم ما يلبث الجميع أن يتعاون بشـكل أو بـآخر لتنفيذ التوجه الجديـد. فمثلاً عنـدما قـامت المجموعة المتنفـذة في م.ت.ف بتوقيع اتفاق أوسلو في سبتمبر 1993 وجه أعضاء آخـرون في قيـادة فتح وم.ت.ف انتقادات عنيفة وقاسية للاتفاق (فاروق قدومي، هـاني الحسن، خالد الحســن، عبـاس زكي، صـخر حبش، محمد غـنيم، ومحمد جهاد ... وغيرهم) ففاروق قدومي الذي اعتـبر مسـيرة اتفـاق أوسـلو مسيرة عابثة،[295] شارك في اجتماعات اللجنة التنفيذية لـــ م.ت.ف، وفي أحد هذه الاجتماعات لو انسـحب لما اكتمل النصـاب الـذي أعطى الشرعية لبعض اتفاقات أوسلو. وهاني الحسن الذي عدَّ التسـوية وفق أوسـلو ضـرورة إسـرائيلية وضـرورة أمريكية وطـالب "بإسـقاط الخط السياسي لمدرسة العجز الذاتي"،[296] ما لبث أن تـولى بنفسه بعض أخطر الملفات التي أوكلها إليه عرفات في إطار التسوية. وقد أسـهم هذا النهج في استيعاب قيادة فتح التناقضات داخلها وامتصاص الغضب في قواعدها وفي أوساط الشعب الفلسطيني عامـة، وإشـعار الجميع بالاطمئنـان بـأن هنـاك من يُعبّر عن آرائهم في الصف القيـادي الأول. وبالتالي لا داعي لاتخاذ أية إجراءات أو تصـرفات حـادة. غـير أن هنـاك من يرى أن الأمر مرتبط بالسلوك الفـردي للـرئيس، وأن بـاقي قيـادة فتح مضطرة بعد أن يستبد بها الغضب، إما إلى مســايرة الواقع الجديد الـذي يفرضه عرفـات، "رعاية للتماسك والمصـلحة العامـة"، وإما إلى الحَرَد والانكفاء حتى يتم الوصول إلى صيغة استرضاء معينـة، وإما إلى الاستقالة والانعزال، وإما إلى الانشـقاق. وغالبـاً ما يلجأ الصف الأول إلى الصيغتين الأولى والثانية.

غـــير أن التنظيم الـــذي يفتقد إلى هوية عقدية محـــددة ســـيجد نفسه عرضة لعدد من المشاكل والتحديات:

1. **في غيـاب الهوية العقدية كثـيراً ما تلعب "المصـلحة" و"ضـغط الأمر الواقـع" أدواراً أكـبر، وتحـلّ الاعتبـارات التكتيكية مكـان الـرؤى الاسـتراتيجية. وبالتـالي تفقد المسـيرة بوصـلتها، وتحيد عن دربها، وتتحجم طموحاتها وأهدافها.**
2. **إن وجود رؤى فكرية مختلفة يوجد تعارضـات جدية في مفـاهيم وأســاليب التربية والتعبئة والتوجيـــه، وفي الطـــرح السياسي والإعلامي، وفي تحديد الأصـــدقاء والأعـــداء، وعقد التحالفـــات، وفي استيعاب الأحداث والتعامل معها، وفي اتخاذ القرارات.**

3. **إن الجذور الأيديولوجية والحزبية السابقة للأعضاء أوجدت مناخاً ملائماً للخلافات، ولنمو الكتل الداخلية والمجموعـات المحسـوبة على شخصـيات قياديــة، مما يهـدد بالانشــقاقات والصــراعات الداخلية.**
4. **وقد حـدثت النقـاط الثلاث السـابقة بشـكل أو بـآخر في "فتح"، وأصبح الزعيم أو "الختيار" ياسر عرفـات في النهاية هو النقطة الــتي تلتقي حولها عناصر فتح، مما أضــعف البنـــاء المؤسسي للحركة، وسمح لعرفات بهامش واسع في القيادة واتخاذ القرار السياسي والعسكري والمالي للحركة ولـ م.ت.ف.**

وقد تعرضت فتح إلى عـدد من الانشـقاقات والأزمـات طـوال الأربعين سـنة الماضـية، لكن ذلك لم يـؤثر على سـيطرتها على منظمة التحرير الفلسطينية، وعلى كونها العمود الفقري لها. كما ظلت الحركة الأكثر حضوراً على الساحة الفلسطينية مستفيدة من تجربتها النضــالية ومن الــدعم المـــالي الـــذي تـــوفره لها م.ت.ف (ومن بعد ذلك الســـلطة الفلسـطينية). ولا ينافسـها في الشـعبية الجماهيرية إلا تيـار الإخـوان المسـلمين الـذي تمثل بعد سـنة 1987 في حركة حمـاس. وعـادة ما تتبـــادل مع حمـــاس الســـيطرة على الجامعـــات والنقابـــات المهنية والبلديات. وفي انتخابات المجلس التشـريعي للحكم الـذاتي في ينـاير 1996 (التي قاطعتها حماس والمعارضة الفلسـطينية) فـاز ممثلو فتح بنحو 60 مقعداً من أصل 87 مقعداً.

ومن أبرز الأزمات والانشقاقات التي تعرضت لها فتح:[297]

1. **أزمة تنظيم الكـــويت 1965 ـــ 1966 عنـــدما أصـــدرت اللجنة المركزية العليا للحركة بتـاريخ 29 إبريل و2 مـايو 1966 قـراراً بســحب الثقة من "عضو الحركة الســابق محمد ياسر عرفـــات القــدوة الملقب بجرير رؤوف ـــ الــدكتور أبو عمــار ـــ وإحالته للتحقيق فوراً" حيث اتهمته بإعداد تقـارير كاذبـة، والتمـرد على القرارات الجماعية، وتحريض بعض القواعد على قيـادة الحركـة، واتباعه سياسة الاســتزلام ومحاولة شـراء ضـمائر المناضـلين، وإفشاؤه أسـرار الحركة لعناصر من خارجها ... وغـير ذلـك. وقد تم تطويق هـــذه الأزمة في نهاية 1966 على حســـاب خـــروج عضوين قياديين هما عادل عبد الكريم وعبد الله الدنان.**
2. **تمرد أبو عبيدة 1967 ـ 1968: امتد الوجـود المعـارض لعرفـات بامتـداد كتلة الكـويت إلى الأردن بعد حـرب 1967، واتخذ شـكلاً عسكرياً يقـوده أبو عبيـدة. وقـامت قيـادة الحركة بفصل تنظيم الكويت بمجمله، ثم حدثت مفاوضـات أدت إلى اتفـاق في إبريل 1968 بإلغــاء قــرار فصل أبي عبيــدة، وأن تتم دعــوة المجلس الثـوري للنظر في مواضـيع الخلاف ومحاسـبة القيـادة، وأن تتم دعــوة مــؤتمر الحركة في يوليو 1968 بحيث تنبثق عنه القيــادة العليا للحركة عن طريق الانتخـــاب. وقد نقل أبو عبيــــدة إلى السـودان، ثم توجه إلى القـاهرة، واعتقل في ظـروف غامضـة، وعّذب بشدة حتى أصيب بانهيار عصبي.**
3. **أزمة التنظيم في لبنان 1972: عندما انتقل عرفـات إلى لبنـان، وحاول إمساك زمام الأمور مباشـرة بيـده، حـدثت أزمة تنظيمية خصوصــاً مع معتمد إقليم لبنــان يحــيى عاشــور (أبو حمــدان) ،**

اتخـذت شـكل تمـرد مباشر واعتصـام في تل الزعـتر وعمليـات اعتقال وخطف وتصفية، حتى أحكم عرفات سيطرته.

4. **حركة فتح "المجلس الثوري": انشق عدد من قياديي فتح بقيادة صبري البنا (أبو نضال) ونـاجي علـوش، وأبو داود (محمد عـودة) متهمين القيــادة بــالانحراف عن خط التحرير الــذي تمثله فتح. وأنشأوا حركة فتح "المجلس الثوري"، وأعلنوا التزامهم بمبـادئ الحركة وأهدافها وبرامجها ونظامها الداخلي، ودعوا إلى "خوض الصـراع لإنقـاذ الحركـة". ومـارس هـذا التنظيم أحيانـاً أسـاليب الاغتيــال والتصــفية لعــدد من عناصر فتح الــذين يــرون أنهم يخرجون عن الخط الوطني، فاغتالوا عصام السرطاوي وأبو إياد صلاح خلف. ولقي هذا التنظيم دعماً من العراق وليبيا.**
5. **فتح "الانتفاضــة": وهو أبــرز الانشــقاقات عن فتح، وقــاده أبو موسى ونمر صالح (أبو صالح) في مايو 1983، ولعبت التداعيات التي نتجت عن الاجتياح الصهيوني للبنان سنة 1982، واعتراض العديـدين على التوجهـات السياسـية لقيـادة فتح وخصوصـاً نحو التســــوية، وعلى العديد من المســـــلكيات التنظيمية والمالية والعســكرية ... وقد أدى هـذا الانشــقاق إلى حــدوث صــدامات عنيفة بين الطرفين في النصف الثـاني من عـام 1983، ولقي هذا الانشقاق دعم ورعاية سوريا.**
6. **وقد مثلَّت المفاوضـــات الســرية الــتي أدت إلى توقيع اتفــاق أوســلو في ســبتمبر 1993 أزمة جديــدة لفتح، حيث جــرت دون علم واستشارة معظم قيادات فتح وم.ت.ف. ولقيت الاتفاقــات وتشكيل سلطة الحكم الـذاتي الفلسـطيني معارضة شـديدة من العديد من قيــادات فتح. وتعرضت فتح جماهيريــاً لأزمة التعامل مع إفرازات أوسلو وانعكاسـاتها، ففضـلاً عن ظهـور الكثـير من المعارضة والتــذمر داخل صــفوفها، فقد انحســرت شــعبيتها الجماهيرية خصوصاً في خارج فلسـطين، وبالـذات في مخيمـات اللاجئين الفلسطينيين.**

فتح والكفاح المسلح:

كان لفتح شرف تفجـير الثـورة الفلسـطينية المعاصـرة في ليلة الأول من ينـاير 1965، وصـدر البيـان الأول معبِّراً عن روح وطنية إسـلامية، ومما جاء فيه "اتكالاً منا على الله، وإيماناً منا بحق شـعبنا في الكفـاح لاسترداد وطنه المغتصب، وإيماناً منا بواجب الجهاد المقدس، وإيمانــاً منا بموقف العربي الثائر من المحيط إلى الخليج، وإيماناً منا بمــؤازرة شرفاء العالم، فقد تحركت أجنحة من قواتنا الضاربة ...".[298]

وقد عملت فتح في ظــروف صــعبة ووسط أجــواء الإيمــان بالخيــار الرسمي العـربي، وانتظـار جمـال عبد الناصر لتوجيه ضـربته المرتقبة إلى الكيان الصهيوني. وقد اتهمتها الأنظمة العربية بمحاولة جرِّها إلى المعركة مع الكيــــان الصــــهيوني قبل موعــــدها، وقبل اســــتكمال الاستعدادات اللازمة لهـا. وقـام نـاطق مصـري - بتوجيه من الحكومة - باتهـامهم بـأنهم متطرفو ومتعصبو الإخـوان المسـلمين الـذين تلقـوا تمــويلهم من الإمبريالية والمخــابرات الأمريكية CIA، واتهمهم أحد الأنظمة الخليجية بـأنهم شـيوعيون، كما اعتـبرهم أحمد الشـقيري ــ رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في ذلك الوقت ـ بأنهم أعداء حركة التحــرر الفلسـطيني!! وقد أمــرت "القيــادة العربية الموحــدة" الــتي

شكلتها الأنظمة العربية للتجهيز لتحرير فلسطين، في مارس 1965 بإيقاف أنشطة حركة فتح، وحاولت دول الطوق القبض عليهم ومنعهم من العمل، فسقط أو شهيد لفتح "أحمد موسى" برصاص قوات أحد الدول العربية بينما كان عائداً مع رفاقه من عملية فدائية نفذها ضد الكيان الصهيوني. واعتقل عرفات في سوريا في أواخر 1965 ثم أفرج عنه بعد أيام للاشتباه به في قضية تفجير خط النفط "التابلاين"، ثم اعتقل هو وأبي جهاد وأبو علي إياد وأبو صبري في فبراير 1966 مع سبعة أعضاء آخرين بتهمة الضلوع في مقتل اثنين من رجال العاصفة (الجناح العسكري لفتح) من ذوي الخلفيات البعثية. ثم أفرج عنهم إلا واحداً بعد التدخل لدى وزير الدفاع الجديد حافظ الأسد. وكان عرفات قد سُجن لأيام في لبنان سنة 1965. كما جرت اعتقالات أخرى لرجال فتح في الأردن (بما فيها الضفة الغربية) ولبنان وسوريا ومصر، وعذب بعض المعتقلين وماتوا في السجون العربية.[299]

وعلى أي حال، فقد استطاعت فتح تنفيذ حوالي 200 عملية عسكرية قبل حرب حزيران/ يونيو 1967.[300]

ومثَّلت مرحلة ما بعد حرب 1967 مرحلة ازدهار حقيقي ونمو متسارع لحركة فتح، إذ إن هزيمة الأنظمة العربية وضياع ما تبقى من فلسطين، أفقد الشارع الفلسطيني والعربي الثقة بهذه الأنظمة التي اضطرت لفتح المجال للعمل الفدائي الفلسطيني الذي اكتسب شعبية كبرى فلسطينياً وعربياً. ومنذ ذلك الوقت، مثّلت فتح العمود الفقري للثورة الفلسطينية. واخترق ياسر عرفات الحدود إلى الضفة الغربية المحتلة، ونظم خلايا المقاومة هناك حيث مكث أربعة أشهر، ويُعدُّ يوم 29 أغسطس 1967 الانطلاقة الثانية لفتح من خلال تفجير المقاومة المسلحة في الداخل.

وتُعد معركة الكرامة 21 مارس 1968 حدثاً فاصلاً في تاريخ فتح، إذ فتحت الباب أمام تدفق جماهيري هائل للانضمام إليها بعدما أبداه مقاتلوها من بطولة وصمود، وما أوقعوه من خسائر جسيمة في القوات الصهيونية الغازية، فخلال 48 ساعة تقدم لعضويتها خمسة آلاف قبلت منهم 900. وفي الشهر التالي أعلن ياسر عرفات متحدثاً رسمياً باسم فتح. وأخذت الحركة موقعها كأوسع الحركات جماهيرية في الشارع الفلسطيني.[301]

وفي الوقت نفسه تواصلت المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية وحركات المقاومة الفدائية وعلى رأسها فتح. وكانت فتح تنظر بعين الشك والريبة لطبيعة القائمين على م.ت.ف والراعين لها، ولطبيعة تركيبتها وحقيقة أهدافها. لكنها كانت لا ترى مانعاً من الاستفادة منها كواجهة لأنشطتها.

وقد وافقت فتح على دخول منظمة التحرير الفلسطينية بقصد "تثويرها"، وتمكنت في المجلس الوطني الرابع في يوليو 1968 من فرض شروطها بتغيير الميثاق القومي الفلسطيني ـ الذي يُعدّ دستور م.ت.ف ـ إلى الميثاق الوطني الفلسطيني، حيث اتخذ طابعاً أكثر وطنية وثورية. كما غيَّرت بُنية المجلس الوطني الفلسطيني ليقتصر عدد أعضائه على مائة فقط بعد أن كان في حدود 450. وفي المجلس

الوطـني الخـامس في فـبراير 1969 سـيطرت قيـادة فتح على قيـادة م.ت.ف وأصبح ياسر عرفات رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية.

ويبقى الجدال قائماً حول ما إذا تمكنت فتح من "تثـوير" المنظمـة، أم أن المنظمة تمكنت من "تسـييس" فتح. إذ إن أعبـاء تكـريس الهوية الوطنية الفلسـطينية، وإيجـاد مكانة لائقة لـ م.ت.ف كممثل شـرعي وحيد للشـعب الفلسـطيني عربيـاً ودوليـاً، والاضـطرار للـدخول في تشابكات وتناقضات الأوضاع السياسية العربية والدولية، والانجرار نحو تقديم مشـاريع وحلـول "واقعيـة" تحت الضـغوط المختلفـة، والسـعي للحفـاظ على "المكاسـب" السياسـية ... كل ذلك أسـهم في تفريغ المخزون الثوري للحركـة. وجعل عملها العسـكري محكومـاً بالعديد من المعايير والضوابط و"المحرمات" السياسية.

وعلى أي حـال، فقد تحملت فتح عبء الكفـاح المسـلح الفلسـطيني لفترة طويلة ومثلت الفترة 1968 ـ 1970 في الأردن مرحلته الذهبية، إذ نفـذت حـوالي 2000 عملية سـنة 1969. كما مثلت الفـترة 1970 ــ 1982 درجة لا بـأس بها وخصوصـاً في 1970 ــ 1975 قبل الانشـغال بمستنقع الحرب الأهلية اللبنانية. وانخفضت وتـيرة العمليـات إلى نحو 360 عملية سنة 1978.[302]

ويبدو أن حركة فتح تمكنت من استيعاب العديد من عناصرها المتشددة من خلال منظمة "أيلـول الأسـود" الـتي نفـذت عـدداً من العمليـات العنيفة والتي اسـتهدفت شخصـيات أردنية كاغتيـال وصـفي التل في 28 نوفمبر 1971، ونفـذت عـدداً من العمليـات الخارجية خصوصـاً ضد الصهاينة والمصالح الإسرائيلية في الخارج، وكان أبرزها عملية ميـونخ في 5 سـبتمبر 1972 حيث احتجـزت 11 رياضـياً ومـدرباً "إسـرائيلياً" كانوا يشاركون في دورة الألعـاب الأولمبيـة، وأدت العملية في النهاية إلى مقتل كل "الإسـرائيليين" المحتجـزين ورجل شـرطة ألمـاني، واستشهاد خمسة فدائيين واعتقال ثلاث فدائيين آخـرين. وقد رفضت فتح رسـمياً الاعـتراف بعلاقتها مع أيلـول الأسـود لكنها اعـترفت أن أغلب أعضائها "كانوا" من فتح. ويظهر أن صـلاح خلف "أبو إيـاد" كـان على صلة وطيدة بهذه المنظمة.[303]

ونفـذت فتح عـدداً من العمليـات الفدائية القوية في السـبعينيات مثل عملية سافوي في 6 مـارس 1975 في تل أبيب، وأدت إلى مقتل نحو خمسين جندياً وخمسـين مـدنياً صـهيونياً،[304] وعملية كمـال عـدوان في 11 مـارس 1978 الـتي أدت إلى مقتل 37 وجـرح 82 صـهيونياً.[305]

وتشـير إحصـاءات مؤسسة الشـؤون الاجتماعية ورعاية أسر الشـهداء في م.ت.ف في مطلع الثمانينيات إلى أن عـدد شـهداء فتح يبلغ 56% من مجموع شهداء الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، وإلى أن نسـبة الأسـرى من فتح في الأرض المحتلة هي بين 70 ــ 80% من مجموع الأسرى.[306] ولعلَّ هـذه النسـبة بقيت كما هي حـتى انـدلاع الانتفاضة المباركة في ديسـمبر 1987، عنـدما أخـذت "حمـاس" تـبرز كقوة كبرى موازية لفتح، بل واندفعت حماس أكثر في العمل الفدائي في التسـعينيات في الـوقت الـذي أخذ العمل الفـدائي "الفتحـاوي" بالانحسار لصالح مشروع التسوية السلمية الذي تبنته قيادتهـا. ويظهر

أن حركة فتح أخــذت تتبــنى من جديد العمل الفــدائي ضد الأهــداف الصهيونية منذ انـدلاع انتفاضة الأقصى في 28 سـبتمبر 2000 وأعلنت كتائب شهداء الأقصى التابعة لفتح عن العديد من العمليات الفدائية.

البنية التنظيمية وقيادتها:

تتكون البنية التنظيمية لفتح[307] من:

1. **المؤتمر العام: وهو السلطة العليا داخل الحركة، ويجب أن يعقد (من الناحية النظرية) مرة كل ثلاث أعوام، وقد سبق له الانعقاد بضعة مرات (الثاني 1968، الثالث 1971، الرابع 1980 ...) ولا يجتمع بانتظام لأسباب داخلية وخارجية.**
2. **المجلس الثوري: ويتكون من مسئولي وقادة الأجهزة والأقـاليم والقوات إلى جانب 25 عضواً منتخباً من المؤتمر العام وعشــرة أعضـاء من ذوي الكفايـات تضـمهم اللجنة المركزيـة، ومجمـوع أعضائه 120 عضواً.**
3. **اللجنة المركزية: وهي القيادة المركزية للحركة، ويقوم المؤتمر العام بانتخاب أكثر من ثلثي أعضائها، وتتكون من 18 عضواً.**

وتعرف القوات العسكرية لفتح باسم "قوات العاصفة" وتتــولى اللجنة المركزية تعيين قيادتها العامة.

وقد استشــهد معظم الأعضــاء التــاريخيين للجنة المركزية لحركة فتح أمثال عبد الفتاح حمود، ومحمد يوسف النجار، وكمـال عـدوان، وخليل الوزير، وصلاح خلف، وأبو الهول.

ومن الأعضــاء التــاريخيين في مركزية فتح ممن لا يزالــون يشــغلون مناصب فيها ياسر عرفـات، وفـاروق القـدومي، ومحمـود عبـاس (أبو مازن)، وسليم الزعنون. وانضم محمد غنيم (أبو ماهر) للجنة المركزية في أغسطس 1968، وهاني الحسن في مايو 1980، وفي أغسطس 1989 انضم إليها صقر حبش، وحكم بلعاوي، وانتصار الـوزير، والطيب عبد الرحيم، وأحمد قريع، والعقيد يوسف، ومحمد جهاد، وعباس زكي. وحـلَّ نبيل شـعث وعبد الله الإفـرنجي سـنة 1991 مكـان صـلاح خلف وأبي الهول إثر حـادث اغتيالهمـا. وفي 1994 انضم زكريا الأغا رئيس اللجنة العليا لفتح في قطــاع غــزة، وفيصل الحســيني رئيس اللجنة نفسها في الضـفة الغربية إلى اللجنة المركزية (تـوفي الحسـيني في الكويت في مايو 2001).

وقد انتقد عــدد من أعضــاء اللجنة المركزية اتفاقــات الحكم الــذاتي (أوسلو 1993 وما تلاها)، ورفض محمد غنيم وفـاروق قـدومي ومحمد جهاد دخول أراضي الحكم الـذاتي، وقـام محمد غـنيم في سـنة 1997 بتقديم استقالته من قيادة دائرة التعبئة والتنظيم في الحركة واكتفى بعضويته في المركزية.[308]

فتح والتسوية السلمية:

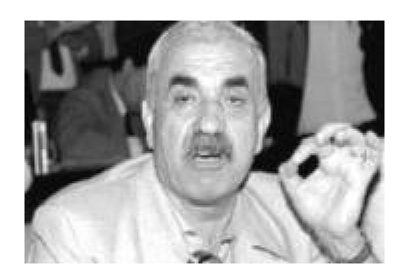
منذ أن ســيطرت فتح على م.ت.ف حــدث بينهما نــوعٌ من التمــاهي والتداخل بحيث أن سياسـات ومواقف كل منهما أصـبحت عمليـاً شـيئاً واحداً. وعلى ذلك فموقف فتح من التسـوية هو عمليـاً موقف م.ت.ف

نفسها. غير أن قيادة فتح وخصوصاً الميدانية حاولت الاحتفاظ بنوعٍ من المسافة الفاصلة بين الطرفين، حتى لا تتحمل فتح الأوزار والمساوئ والسلبيات الناتجة عن عملية التسوية وتشكيل السلطة الفلسطينية. وتَعَاملَ ياسر عرفات وقيادة السلطة الفلسطينية بشيء من المرونة مع قيادات فتح الرافضة لاتفاقيات أوسلو، أو الناقدة لممارسات سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني، مع ملاحظة أن معظم عناصر فتح في الداخل مستوعبة في مؤسسات السلطة الفلسطينية وأجهزتها الأمنية. وقد سعت فتح إلى التناغم مع الموقف التفاوضي الفلسطيني، ومحاولة تصليبه لتحقيق مكاسب أفضل، وليس إسقاطه. وقد ازداد هامش المرونة اتساعاً مع اندلاع انتفاضة الأقصى حيث قامت قيادات فتح الميدانية (أمثال مروان البرغوثي) بالمشاركة بالانتفاضة، وقامت بالتنسيق مع حماس وغيرها، لتفعيل الانتفاضة وتطويرها. كما قامت عناصرها بالعديد من العمليات الفدائية، رغم أن الموقف الرسمي لقيادة السلطة (التي هي قيادة فتح) يرفض هذه العمليات بل وعادة ما يُدينها.



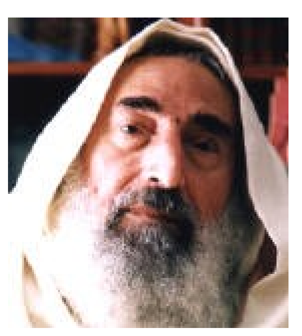
ياسر عرفات

رئيس حركة فتح ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ورئيس السلطة الوطنية الفلسطينية



جورج حبش

الأمين العام السابق للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين



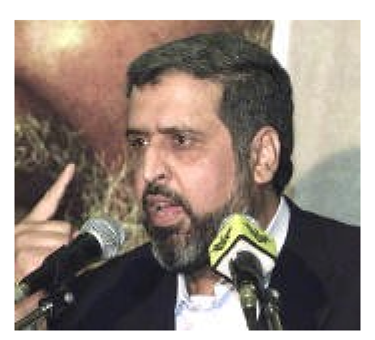
الشيخ أحمد ياسين

مؤسس حماس



خالد مشعل

رئيس المكتب السياسي لحركة حماس



رمضان عبد الله شلح
الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي

هوامش الكتاب

---

[239] انظر: عجاج نويهض، مرجع سابق، ص 314 ـ 315.

[240] انظر: الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص 104 ـ 107، 115 ـ 116، 138 ـ 139، 150 ـ 151، 166 ـ 167، 173 ـ 174، 197 ـ 198.

[241] كان للعائلات نفوذ كبير في العمل الوطني الفلسطيني في مرحلة الاحتلال البريطاني، وقد جرت عملية فرز واستقطاب شديد حول عائلتين مقدسيتين كبيرتين هما عائلتا الحسيني والنشاشيبي.

وقد أضر ذلك بالعمل الوطني والوحدة الوطنية الفلسطينية، إذ قدّم البعض مصالح عائلته ـ وفق معايير التنافس والحسد ـ على المصالح العامة وعلى مواجهة الاستعمار البريطاني والمشروع الصهيوني.

[242] انظر: بيان الحوت، مرجع سابق، ص 335 ـ 337، ويوميات أكرم زعيتر، ص 76 ـ 78، والموسوعة الفلسطينية، ج4، ص 27 ـ 30.

[243] حول الهيئة العربية العليا، انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج4، ص 556 ـ 561.

[244] انظر: المرجع نفسه، ج4، ص 377 ـ 379.

[245] حول حكومة عموم فلسطين، انظر: المرجع نفسه، ج2، ص 342 ـ 344.

[246] حول م.ت.ف، انظر بالتفصيل في: أسعد عبد الرحمن، منظمة التحرير الفلسطينية، والموسوعة الفلسطينية، ج4، ص 313 ـ 325.

[247] حول الميثاق الوطني الفلسطيني، انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج4، ص 404 ـ 406، وفيصل حوراني، الفكر السياسي الفلسطيني: 1964 ـ 1974: دراسة للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية (بيروت: مركز الأبحاث (م.ت.ف)، 1980)، ص 37 ـ 89.

[248] انظر مثلاً في: صلاح خلف، مرجع سابق، ص 73 ـ 75.

[249] انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج4، ص 98 ـ 103.

[250] حول المجلس الوطني، انظر: المرجع نفسه، ج4، ص 94 ـ 121.

[251] حول المجلس المركزي، انظـر: المرجع نفسـه، ج4، ص 321 ـــ 322.

[252] حـول اللجنة التنفيذيـة، انظـر: المرجع نفسـه، ج4، ص 318 ـــ 321.

[253] حول دوائر م.ت.ف، انظر: المرجع نفسه، ج4، ص 322 ـ 325.

[254] ما كتبنـاه هنا حـول جماعة القسـام يعتمد أساسـاً على المـادة الموجودة في كتابنا الذي سبقت الإشارة إليه الطريق إلى القدس، ص 143 ـ 146، ولمن يرغب في التفصيل يمكنه الرجوع إلى دراستنا عن القسام وحركته في كتابنا "التيار الإسلامي في فلسطين"، ص 227 ـــ 327، 361 ـ 388، 479 ـ 480.

[255] انظر حول شخصية القسام: محسن صالح، التيار الإسلامي في فلسطين، ص 231 ـ 247.

[256] صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص 23.

[257] أميل الغوري، مرجع سابق، ص 248، والتوكيد للباحث.

[258] عـوني العبيـدي، ثـورة الشـهيد عزالـدين القسـام وأثرها في الكفاح الفلسطيني (الزرقـاء (الأردن): مكتبة المنـار، دون تـاريخ)، ص 9.

[259] بيان الحوت، مرجع سابق، ص 317 ـ 318.

[260] سميح حمودة، مرجع سابق، ص 42.

[261] انظر: صبحي ياسين، الثورة العربية الكـبرى في فلسـطين، ص 31؛ ويوميات أكرم زعيتر، ص 30؛ ومحمد نمر الخطيب، مرجع سابق، ص 87.

[262] انظر: علي حسين خلف، تجربة الشيخ عز الدين القسام (عمان (الأردن): دار ابن رشد، 1984)، ص 44 ـ 47، 58 ـ 60، وسميح حمودة، مرجع سابق، ص 48 ـ 50.

[263] بيان الحوت، مرجع سابق، ص 324، وكامل خلـة، مرجع سـابق، ص 584.

[264] صبحي ياسين، حرب العصابات في فلسطين، ص 79، وصحبي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص 33 ـ 34.

[265] صبحي ياسين، الثـورة العربية الكـبرى في فلسـطين، ص 33 ـــ 34.

[266] إبـراهيم الشـيخ خليـل، "رسـالة من مجاهد قـديم: ذكريـات مع القسـام"، مجلة شـئون فلسـطينية، العـدد 7، مـارس 1972، ص 29، وبيان الحوت، مرجع سابق، ص 323.

[267] انظر: صبحي ياسـين، حـرب العصـابات في فلسـطين، ص 68، ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص 29.

[268] عبد الستار قاسم، مرجع سابق، ص 99.

[269] كامل خلة، مرجع سابق، ص 584.

[270] علي خلـف، مرجع سـابق، ص 53 ـــ 54، ومحمد نمر الخطيب، مرجع سابق، ص 88، وانظر:

S. Abdullah Schleifer, “The life and Thought of Izz-Iddin Al-Qassam”, The Islamic Quarterly, Vol. 23, No. 2, 1979, p. 75.

[271] صبحي ياسين، حرب العصابات في فلسطين، ص 70.

[272] عوني العبيدي، مرجع سابق، ص 42.

[273] انظـر: عبد السـتار قاسـم، مرجع سـابق، ص 64 ــ 67، وكامل خلة، مرجع سابق، ص 593 ـ 594، وانظر:

The Palestine Police Force, Annual Administrative Report, 1935 (Jerusalem: Government Printing Press, Undated), p. 40.

[274] حول دور القساميين في الثورة الكـبرى، انظـر: محسن صـالح، التيار الإسلامي في فلسطين، ص 361 ـ 388.

[275] حول دور القساميين في حرب 1948، انظر: المرجع نفسه، ص 479 ـ 480.

[276] عيسى خليل محســن، فلســطين الأم وابنها البــار عبد القــادر الحسيني (عمان: دار الجيل، 1986)، ص 141 ـ 144.

[277] أميل الغوري، فلسطين عبر ستين عاماً، ص 232 ـ 235.

[278] المرجع نفسه، ص 232.

[279] المرجع نفسه، ص 243 ـ 244، وأميل الغـوري، إظهـار حقـائق وتفنيد أباطيل: ردود على مقالات السيد قاسم الريماوي (دون مكـان: دون ناشر، 1974)، ص 21.

[280] أميل الغوري، إظهار حقائق وتفنيد أباطيل، ص 22.

[281] عيسى محسن، مرجع سابق، ص 171.

[282] المرجع نفسه، ص 171 ـ 176.

[283] المرجع نفسه، ص 177 ـ 195.

[284] الكيلاني، مرجع سابق، ص 70.

[285] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 125 ـ 126.

[286] المرجع نفسه، ج2، ص 126.

[287] عبد الله أبو عزة، مرجع سابق، ص 71 ـ 96.

[288] سليمان حمد، مقابلة، الكويت، 25 يناير 1986.

[289] Helena Cobban, The Palestinian Liberation Organisation: People, Power and Politics (U.S.A.: Cambridge Univ. Press, 1988), pp. 23-24.

[290] وذلك حسب شهادة اثنين من رفاق أبي جهـاد في هـذا العمـل، وهما فوزي جبر، مقابلة، الكويت، 20 نوفمبر 1999، ومحمد الخضري، مقابلة، جدّة، 15 سبتمبر 1998.

[291] حـول هـذه الفقـرة، انظـر: صـلاح خلـف، مرجع سـابق، ص 59، وسليمان حمد، مقابلة، الكويت، 25 يناير 1986، وانظر:

Alan Hart, Arafat: A Political Biography, 4th edition (Bloomington & Indianapolis (U.S.A.): Indiana Univ. Press, 1989), p. 123, pp. 556-557, and Cobban, op. cit., pp. 23-24.

[292] صلاح خلف، مرجع سابق، ص 59، 68.

[293] انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 206.

[294] انظــر: نزيه أبو نضــال، تاريخية الأزمة في فتح: من التأســيس إلى الانتفاضة (دون مكان: دون ناشر، 1984)، ص 17 ـ 20.

[295] انظر: جريدة الشرق الأوسط، 6 مارس 1995.

[296] الشرق الأوسط، 15 فبراير 1995.

[297] انظر حـول الانشـقاقات من 1 ــ 5 في: نزيه أبو نضـال، مرجع سابق، ص 39 ـ 60.

[298] انظر نص البيان في: رياض الريس، مرجع سابق، ص 37.

[299] حـول الاتهامـات الـتي وُجِّهت إلى فتح وحـول معاناتهـا، انظـر: صلاح خلف، مرجع سابق، ص 78 ـ 80، وريـاض الـريس، مرجع سـابق، ص 40.

[300] صلاح خلف، مرجع سابق، ص 83.

[301] المرجع نفسه، ص 96 ـ 97.

[302] انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 207.

[303] رياض الريس، مرجع سابق، ص 85 ـ 92.

[304] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 527 ـ 528.

[305] المرجع نفسه، ج3، ص 661 ـ 662.

[306] المرجع نفسه، ج2، ص 207.

[307] المرجع نفسه، ج2، ص 206 ـ 207.

[308] انظر: الشرق الأوسط، 29 إبريل 1997، والقدس العـربي، 18 مارس 1997.

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين:

تعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ بشكل أو بآخر ـ امتـداداً للفـرع الفلســطيني لحركة القومــيين العـــرب الـــتي نشـــأت في مطلع الخمسينيات في بيروت وكان من أبـرز مؤسسـيها جـورج حبش، الـذي أصبح أميناً عامـاً للجبهة منذ إنشـائها سـنة 1967 وحـتى سـنة 2000. وكان فـرع فلسـطين في حركة القومـيين العـرب قد شـكَّل في مـايو 1964 "الجبهة القومية لتحرير فلسـطين" وجناحها العسـكري "شـباب الثأر" الذي أخذ يمارس منذ نوفمبر 1964 العمل الفدائي، حيث قدَّمت أول شهدائها "خالد أبو عيشة" في 2 نوفمبر 1964.[309] ولكن يبـدو أن هذه البداية كانت متواضعة متقطعة ولم تستمر. وفي مـؤتمر حركة القوميين العرب المنعقد في سنة 1966 اتخذ قراران رئيسيان:

1. **إلحاق العناصر الفلسطينية في حركة القوميين العرب بمجموعة تسمى إقليم فلسطين، والموافقة على فكـرة الكفـاح المسـلح مع إرجاء البـدء بـه. وقد تـولى قيادتها جـورج حبش، ومعه أحمد اليماني (أبو ماهر)، وعبد الكريم حمد (أبو عدنان)، ووديع حداد.**
2. **تبني "الاشتراكية العلمية" طريقة عملٍ لحركة القوميين العرب.[310]**

وبعد حـــرب 1967 ســعى "إقليم فلســطين" في الحركة إلى تشــكيل إطـار جبهـوي يضم مختلف الفصـائل الفلسـطينية، لأنه كـان يـرى أن م.ت.ف بشكلها الرسمي لا تصلح أن تكون الإطـار المناســب. وقد نتج عن ذلك إنشاء "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" التي ضمَّت:

1. **الجبهة القومية لتحرير فلسطين "شباب الثأر".**
2. **منظمة أبطال العودة التي كـانت تنتمي بشـكل غـير مباشر إلى حركة القوميين العرب.**

3. **جبهة التحرير الفلسطينية التي كان يتزعمها أحمد جبريل.**

كما انضم إليها عدد من المستقلين، ومجموعة من الضباط الوحدويين. [311]

وصـدر البيـان السياسي الأول لهـذه الجبهة في 11 ديسـمبر 1967، واتخذت الجبهة طابعاً يسـارياً، وبـدت المنـافس الرئيسي لحركة فتح، ولكن سـرعان ما عصف بها انشـقاقان كبـيران أضـعفا قـدرتها على العمل الجبهـوي واسـتقطاب الشـارع الفلسـطيني. وكـان الانشـقاق الأول هو انسحاب عناصر جبهة التحرير الفلسطينية في أكتـوبر 1968 بزعامة أحمد جبريل الذي شكّل الجبهة الشـعبية ــ القيـادة العامـة. أما الانشـقاق الثـاني فقـاده نـايف حواتمة في 22 فـبراير 1969 والـذي شكل الجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين.

وقد أقرت الجبهة في أغسطس 1968 تبني الماركسية ـ اللينينية، مما أدى إلى خلافات واسعة داخلها، فبعضها اعترض على الفكرة (انشقاق أحمد جبريل) وبعضها استعجل تطبيقها (انشقاق نايف حواتمـة). غـير أن الجبهة الشـعبية صـنفت نفسـها بأنها منظمة "بورجوازيـة" تقـوم بــ"عملية التحـول" إلى تنظيم ماركسي ـــ لينيـــني. وفي مؤتمراتها التالية (فبراير 1969، مارس 1972، 28 إبريل ـ 3 مايو 1981) أكـدت تطلعها إلى اسـتكمال تحولها للماركسـية ــ اللينينيـة، واسـتمرت في تطبيق البرامج الملازمة لذلك.[312]

وحسب النظام الداخلي للجبهة فـإن مبادئها الأساسـية هي: المركزية الديموقراطيـة، والقيـادة الجماعيـة، ووحـدة الحـزب، والنقد الـذاتي، وجماهيرية الحـــزب والثـــورة، وأن كل عضو سياسي في الجبهة هو مقاتل، وكل مقاتل سياسي.[313]

وتـرى الجبهة أنه "لا يمكن أ، يكـون هنـاك ثـورة دون نظرية ثوريـة"، ولذلك فهي تركز على الفكر السياسي والرؤية الواضحة للعدو ولقوى الثورة، وعلى أساسـها يتم وضع اسـتراتيجية المعركـة. وحسب رؤيتها الماركسية فهي ترى أن:

1. **الكيـــان الصـــهيوني قاعـــدة بشـــرية مســـلحة تســـتند عليها "الإمبريالية" الاسـتعمارية الأمريكية والغربية للوقـوف في وجه حركة التحرر العربي.**
2. **الصـراع مع "الرجعية العربيـة" أمـرٌ رئيسي وليس أمـراً ثانويـاً، ولـذلك فهي لا تـؤمن بشـعار "عـدم التـدخل في شـؤون الـدول العربية".**
3. **ضـــرورة الربط المتبـــادل بين النضـــال الوطـــني الفلســـطيني والنضال القومي العربي، وتعتقد أنه من الخطأ تـذويب النضـال الفلسطيني في إطار النضال القـومي، كما أنه من الخطأ عـدم ربطه بالنضال القومي.**
4. **الثـورة الفلسـطينية جـزء من الثـورة العالمية على الإمبريالية والرجعية وممارسات النظام الرأسمالي العالمي.**

5. **حــــرب التحرير الشـــعبية طويلة الأمد هي الطريق الوحيـــدة للتحرير، وأن تحرير فلسطين لا يتم إلا بالقوة.**
6. **هدف الثورة تحرير فلسـطين وتشـييد دولة ديموقراطية شـعبية يتمتع فيها العرب واليهود بحقوق وواجبات متساوية.**
7. **الصــراع مع العــدو ليس قائمــاً على أســاس ديــني أو قــومي، وعملية تحرير فلسطين هي عملية تحرير "للجمـاهير اليهوديــة" التي حشدتها الإمبريالية والصهيونية، ولـذلك فمن الطـبيعي أن تتحــالف الثــورة الفلســطينية مع القــوى اليهودية المناهضة للإمبريالية والصهيونية.[314]**

المواقف السياسية:

نظرت الجبهة الشعبية في البداية نظرة سلبية لـــ م.ت.ف باعتبارها لا تملك عناصر البناء الثوري السليم وشروط الانتصـار. وعنـدما اسـتقال الشــقيري من قيـادة م.ت.ف وانفتحت باتجــاه ســيطرة المنظمــات الفدائية عليها، تخلّت الجبهة الشعبية عن سعيها لإيجاد "جبهة وطنيــة" بديلة وشــــاركت في المنظمة ممثلة بعشــــرة أعضــــاء في المجلس الوطـني الفلسـطيني الرابع (يوليو 1968) وسـعت في الـوقت نفسه إلى منافسة فتح على قيادة م.ت.ف. ولأنها لم تكن راضـية عن نسـبة عضويتها في المجلس فقد انسحبت من المنظمة خلال 1969 ـ 1970، ووافقت على أن تمثل رمزياً بعضو واحد في المجلس السابع (30/5 ــ 4/6/1970)، ثم عادت للمشاركة في المجالس التاليـة. ثم إنها قـامت بتعليق عضويتها في اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف سنة 1974، حيث رأت أن القيادة الفلسطينية ممثلة بحركة فتح فسّرت برنامج النقاط العشر الذي أقـره المجلس الوطـني الفلسـطيني الثـاني عشر (يوليو 1974) بشكل مغاير لما فهمته الجبهة، وأن قيادة فتح قبلته كستار للانحــراف عن الثورة والسير في خط الاستسلام. ولـذلك قـامت الجبهة الشـعبية ومعها جبهة النضال الشعبي والجبهة الشعبية ـ القيادة العامــة، وجبهة التحرير العربية بتشــكيل "جبهة الــرفض للحلــول الســلمية" في 10 أكتوبر 1974.[315]

عادت الجبهة الشعبية للمشاركة في قيادة م.ت.ف سنة 1979، ثم ما لبثت أن قاطعت الـدورة 17 للمجلس الوطـني في عمـان سـنة 1984 منادية بضرورة تحقيق وفاق وطني قبل عقده. وفي عام 1993 قامت بتعليق مشــاركتها في اللجنة التنفيذية لـــ م.ت.ف إثر توقيع اتفــاق أوســلو. ولكنها قــامت بالمشــاركة في جلســات المجلس الوطــني الفلسطيني الذي انعقد في غزة سـنة 1996 لتغيـير الميثـاق الوطـني الفلسـطيني بطلب من الكيـان الصـهيوني، وبـدأت تتقـارب مع قيـادة السـلطة الفلسـطينية منذ النصف الثـاني لعـام 1996 وانسـحبت من تحالف الفصائل العشر المعارضة لاتفاقات أوسلو.

وهكــذا لعبت الجبهة الشــعبية دور "الشــريك المنــافس" لفتح داخل م.ت.ف، وعنــدما عجــزت عن المنافسة تحــولت إلى دور "الشــريك المشــــاكس"!! لكن قيــــادة فتح تمكنت في النهاية من جرها إلى أن تكون أكثر طواعية، وأن تراعي شروط اللعبة.

وبالنسبة للتسوية السياسـية، فقد رفضت الجبهة الشـعبية في البداية كل المشاريع المطروحة، لكنها صـوتت سـنة 1974 إلى جـانب برنـامج النقاط العشر الذي يؤيد قيام سلطة وطنية على أي جـزء يتم تحريـره

أو ينسحب منه الصهاينة، والـذي يعـدُّ الكفـاح المسـلح وسـيلة رئيسـية للتحرير (وليس الطريق الوحيـد). غـير أنها سـرعان ما شـكّلت جبهة الـرفض، المشـار إليها سـابقاً، لأن البرنـامج كما فهمته فتح يتطلب الاعـتراف بالكيـان الإسـرائيلي، وإقامة علاقـات دبلوماسـية معهـا، والعيش مع العـدو ضـمن حـدود آمنـة. ثم تخلت عن جبهة الـرفض بعد ذلك بنحو أربع سـنوات، وعـدَّلت موقفها معتـبرة أن قيـام الدولة الفلسطينية هو خطوة تكتيكية نحو تحرير كامل فلسـطين. وفي سـنة 1985 رفضت الجبهة اتفـاق عمـان الـذي وقعته قيـادة م.ت.ف مع الأردن بإقامة كونفدرالية أردنية ـ فلسـطينية. وفي المجلس الوطـني التاسع عشر في نوفمـبر 1988 وافقت على مشـروع إعلان الدولة الفلسطينية الذي استند إلى قـرار الأمم المتحـدة (29 نوفمـبر 1947) رقم 181 بتقسيم فلسطين، لكنها صوتت إلى جانب رفض قرار الأمم المتحـدة رقم 242 (نوفمـبر 1967) القاضي بالتعامل مع قضـية فلسطين كقضـية لاجـئين. وفي سـنة 1991 رفضت مشـاركة م.ت.ف في مـؤتمر السـلام بمدريـد، كما رفضت اتفـاق أوسـلو سـنة 1993، وانضمت إلى تحالف الفصائل الفلسـطينية العشر الـذي نشأ لإسـقاط هذا الاتفـاق، لكنها انسـحبت منه بعد ذلك بنحو ثلاث سـنوات، واتخـذت خطـاً أكـثر مهادنة للسـلطة الفلسـطينية تحت ضـغط ظـروف أزمتها المالية وضـغط تيـار من القيـاديين في الـداخل والخـارج يـدعو إلى التعامل بـ"واقعيـة"، وإلى المشـاركة في السـلطة ووقف الكفـاح المسلح.

قيادة الجبهة وتواجدها الشعبي:

هنـاك ثلاث هيئـات قيادية مركزية هي المـؤتمر الوطـني وهو أعلى سلطة حال انعقاده وقد انعقد ست مرات كان آخرها في إبريل 2000، واللجنة المركزية وهي هيئة وسـيطة، والمكتب السياسي ويمثل القيادة التنفيذية للجبهة، ويتـولى رئاسة الجبهة أمين عـام.[316] وقد ظل جـورج حبش (مسـيحي أرثوذكسي من مواليد اللد سـنة 1926) أمينـاً عامـاً حـتى إبريل 2000 عنـدما قـدم اسـتقالته وخلفه أبو علي مصطفى في هذا المنصـب. وقد تمكّن الصـهاينة من اغتيـال أبي علي مصطفى في أغسطس 2001.

وكـانت الجبهة الشـعبية تعـدُّ الثانية من حيث الشـعبية الجماهيرية بين فصـائل م.ت.ف (بعد حركة فتح) حـتى ظهـور التيـار الإسـلامي منذ النصف الثاني للسبعينيات من القرن العشرين. والـذي تم التعبـير عنه بعد ذلك من خلال حركة حمـاس الـتي ظهـرت سـنة 1987. ولا تـزال تحصل في الانتخابات الطلابية واستطلاعات الرأي على 3 إلى 5% من الأصوات، ولها حضور أكثر تميزاً في الأوساط المسيحية الفلسطينية.

الكفاح المسلح:

شكلت الجبهة الشعبية ثـاني قـوة مسـلحة بين الفصـائل الفلسـطينية (إلى أن ظهرت حماس)، ونشطت داخل فلسطين خلال 1968 ـ 1973 خصوصـاً في قطـاع غـزة وجبـال الخليـل، إلى أن قتل الصـهاينة آخر زعمائها محمد محمـود الأسـمر المعـروف بــ"جيفـارا غـزة" في ربيع 1973. كما قامت بعمليـات هجومية عـبر الحـدود، ودافعت عن الوجـود الفلســطيني في المخيمــات في الأردن ولبنــان. غــير أن أكــثر ما اشتهرت به هو العمليات الخارجية وخصوصاً اختطاف الطائرات، وكـان أولها خطف طائرة "إسرائيلية" في يوليو 1968، أما أشـهرها فكـانت في سـبتمبر 1970، حين خطفت أربع طـائرات، ونقلت ثلاث طـائرات منها إلى ما أسمته "مطار الثورة" قرب الزرقاء، بعد أن نسفت إحداها في مطار القاهرة. وقد ارتأى الكثيرون أن هـذا أعطى المـبرر أو دفع السلطات الأردنية بعد ذلك بأيـام لمهاجمة قواعد الثـورة الفلسـطينية وتصفيتها. وقد لاقت عملياتها الخارجية شهرة واسعة وأجـبرت العـالم على الالتفـات للشـعب الفلسـطيني الـذي اقتلع من أرضـه، لكنها في الــوقت نفسه لاقت معارضة عالمية كبــيرة من الــدول اليســارية والشـيوعية كروسـيا والصـين فضـلاً عن الـدول الغربيـة، كما لقيت معارضة قوية في أوســاط الثــورة الفلســطينية نفســها. ورغم أنها أعلنت انتهاء هذا النوع من العمليات لكنها قامت بخطف طائرتين سنة 1973، وشاركت في هجوم على مصفاة للزيت في سنغافورة.[317]

وعلى أي حال، فقد مرَّت عمليات الجبهة الشعبية بمرحلة انحســار منذ منتصف الســبعينيات، غــير أن مقاتليها لا يزالــون يقومــون ببعض العمليات بين حين وآخر وخصوصاً بعد انـدلاع انتفاضة الأقصى في 28 ديسمبر 2000. وتعدُّ عملية اغتيالها لوزير السياحة الصهيوني رحبعــام زئيفي في أكتوبر 2001 من أبرز وأبرع العمليات، وقد نفذتها انتقامــاً لاغتيال الصهاينة للأمين العام للجبهة أبو علي مصطفى. وكان زئيفي جنرالاً في الجيش ويُعدُّ من أكثر الصهاينة تشدداً.

الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين:

تمثل هذه الجبهة انشقاق العناصر الأكثر يسـارية في معسـكر اليسـار الفلسطيني الذي كانت تمثله الجبهة الشعبية. وقد اتهم مؤسسو هـذه الجبهة رفـاقهم في الجبهة الشـعبية بـأنهم يميـنيون!! وحسب نـايف حواتمة فإنه ورفاقه نجحوا في فرض برنامج يساري واضح في مـؤتمر الجبهة الشعبية المنعقد في أغسـطس 1968 (في أثنـاء وجـود جـورج حبش في السـجن في سـوريا)، وانتخب المـؤتمر لجنة تنفيذية جديـدة سيطر عليها "اليساريون" (حواتمه ورفاقه) بنسبة عشرة إلى خمسـة. لكن "اليمينيين" (رفاق حبش) استخدموا القوة لإجبـارهم على التخلي عن النتيجــة، وقبــول قيــادة جديــدة غالبيتها الســاحقة من الجنــاح "اليميني" وبقي "اليساريون" ممثلين في النهاية بشخص واحد.[318]

وقد احتــدم الخلاف بين الطــرفين لعــدة أشــهر مما أدى في النهاية لانشقاق العناصر الأكثر يسـارية بقيـادة نـايف حواتمة (وهو أردني من مواليد السـلط سـنة 1935 لعائلة مسـيحية إنجيليـة) ومعه عبد الكـريم حمد (أبو عــــدنان) وقيس الســــامرائي (أبو ليلى). وأعلنت الجبهة الديموقراطية الشـــعبية لتحرير فلســطين في 22 فـــبراير 1969،

وحاولت الجبهة الشعبية تصفيتها، لكن حركة فتح قامت بحمايتها. وقد حذفت كلمة الشعبية من اسمها سنة 1975.

تبنت الجبهة الديموقراطية نفس البرنـــــامج السياسي والعقيـــــدة الأيديولوجية التي تبنتها الجبهة الشعبية في أغسطس 1968، غير أنها كـانت أكـثر "تطرفـاً" في تبـني الماركسـية ــ اللينينية وقد عبَّرت عن نفسها من خلال مجلة الهـدف. ويتهمها العديـدون بأنها سـبب رئيسي وراء جرِّ الثورة الفلسطينية إلى الصـدامات مع السـلطات الأردنيـة. إذ رفعت شـعار "كل السـلطة للمقاومـة" قبل معـارك أيلـول / سـبتمبر 1970 بأسابيع، وعقـدت في 22 أغسـطس 1970 مـؤتمراً طـالبت فيه بوضع حد لازدواجية السـلطة في الأردن وبإعطـاء الفـدائيين السـلطة التامــة، وخاضت عـدة اشــتباكات مع الجيش الأردني على أمل إرغــام "فتح" على الانضمام للمعركة. وعندما وقعت معارك أيلـول الــتي أدت إلى ضــــرب المقاومة الفلســـطينية في الأردن وحرمانها من العمل المســلح فيهــا، لم تــتردد الجبهة الديموقراطية في أن تنحي باللائمة على غيرهــــا، مدَّعية أن المقاومة دفعت ثمن ســــيطرة اليمين على غالبية قيـادات فتح!! وقـامت الجبهة الديموقراطية بعد هـذه الأحـداث بمراجعة "نقديــــة" لأدائهــــا. وقد أصــرَّت على منهجها الماركسي ـــ اللينيني، لكنها أخذت تتبنى سياسيات أكـثر "واقعيـة" تـراعي ــ حسب تقديرها ـ ظروف المرحلة وإمكانات الشعب الفلسطيني.[319]

وإذا كانت الجبهة الديموقراطية بسبب حجمها المحدود (تأتي ثالثـاً بعد فتح والشعبية في فصائل م.ت.ف) لم تستطع فرض ســيطرتها، فإنها على الأقل أسهمت في تحريك المبادرة السياسية الفلسطينية باتجــاه يقــترب من أطروحاتها "الواقعيــة" إذ دعت ســنة 1973 إلى "برنــامج مرحلي" لتحرير فلسطين، والذي كان أساساً لما تبنته م.ت.ف رسمياً بعد ذلك، فيما عرف ببرنـامج النقـاط العشر في المجلس الوطـني الــ 12.[320] وقـــامت في مرحلة مبكــرة منذ 1969 بالاتصـــال بقـــوى "اليسار الإسـرائيلي"، ثم تبعتها فتح بعد ذلك ثم تبنته م.ت.ف رسـمياً سنة 1977.

وقد شـاركت الجبهة الديموقراطية في أوَّل مجلس وطـني لــ م.ت.ف يعقد بعد تأسيســها (المجلس الوطــني الســادس 1969) وظلت على عضـويتها في المنظمــة، وحـافظت على علاقـات أوثق مع فتح، لكنها رفضت المشـاركة في المجلس الوطـني السـابع عشر الـذي عقد في عمان سنة 1984 حيث كانت الساحة تموج بتـداعيات الخـروج الفـدائي الفلسطيني من لبنـان، وانشـقاق أبو موسى وطـرد ياسر عرفـات من سـوريا، ومحاولة التخلص من أنصـاره في شـمال لبنـان، ثم ذهابه إلى مصر التي كان العـرب يقاطعونها بسـبب كـامب ديفيـد. وفي المجلس الوطني الــ 19 قبلت الديموقراطية إعلان الدولة الفلسـطينية وأيـدت تطــبيق القــرارات الدولية بما فيها قــرار 242. وقد اعترضت الجبهة الديموقراطية على مــــؤتمر مدريـــــد، وعلّقت عضــــويتها في اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف بسبب اتفاقات أوسلو (سبتمبر 1993). وشـاركت في تحالف الفصائل العشر، لكنها خالفت الكثير من سياسـات حمـاس إلى أن انفصلت عن هذا التحالف أواخر سـنة 1996. ويبـدو أنها عـانت من عقدة التوفيق بين رغبة قيادتها (حواتمــة) بالزعامة والتوجيه على خلفية دوره التـاريخي، وبين حجمها الصـغير وأيـديولوجيتها اليسـارية التي فقدت بريقها، وانحسرت عن الساحة الجماهيرية.

تعرضت الجبهة الديموقراطية للانشـقاق عنـدما خـرج عنها ياسر عبد ربه (أحد القيـاديين البـارزين) ومؤيـدوه في أواخر الثمانينيـات حيث حظي بـدعم وتأييد ياسر عرفـات، وقد أصـبح تنظيمه الـذي حمل اسم الجبهة الديموقراطية مقربـاً من فتح ثم من السـلطة الفلسـطينية. وحمل هذا التنظيم اسم "فدا" بعد اتفاقات أوسـلو، والـتي أيـدها إلى جانب فتح.

وقد تمـيزت قيادتها بنـوع من "البراجماتيـة"، وفي أواخر التسـعينيات جـرت محـاولات لـدمج الجبهـتين الشـعبية والديموقراطيـة، وتشـكلت القيادة الموحدة للجبهـتين، حيث سـعى حواتمة للهيمنة على الشـعبية في ظل مـرض زعيمها حبش وتقدمه في السـن، ولكن الـدمج لم يتحقق إلى الآن. ورغم معارضتها لاتفاقـات أوسـلو، إلا أن شخصـياتها قدموا طلبات لدخول مناطق الحكم الذاتي الفلسطيني، وعلى رأسهم حواتمة نفسه. وقـام حواتمة بمصـافحة رئيس الكيـان الإسـرائيلي في عمـان سـنة 2000. كما طـالبت الجبهة الديموقراطية بالمشـاركة في مفاوضات الحل النهائي بين السلطة الفلسطينية والكيـان الصـهيوني المستندة أساساً على اتفاقات أوسلو.

ومن الناحية العسكرية فإن البعض كان يعدُّها القـوة العسـكرية الثانية بعد فتح في أيام السبعينيات، ونفـذت عـدداً من العمليـات المشـهورة مثل عملية ترشـيحا في 15 مـايو 1974 والـتي أدت إلى مقتل 27 من الرهائن الإسرائيليين المحتجـزين وجـرح نحو 70 آخـرين.[321] وكـان للجبهة الديموقراطية دور في الدفاع عن المخيمـات الفلسـطينية في الأردن ولبنـان. ويقـوم رجالها على فـترات متباعـدة ببعض العمليـات داخل الأراضي المحتلة لكنها تفتقر للقـوة والنوعية مقارنة بعمليـات حماس والجهـاد الإسـلامي. وتمكنت في انتفاضة الأقصى الأخـيرة من تنفيذ عملية اقتحام نوعية لمستعمرة "إسرائيلية" في قطاع غزة.

الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة:[322]

ترجع جذور تشكيل هذه المجموعة إلى سـنة 1959، عنـدما أنشأ أحمد جبريل (وهو ضـابط فلسـطيني مُسـرَّح من الجيش السـوري) حركة فدائية صـغيرة اسـمها "جبهة تحرير فلسـطين". وفي منتصف 1965 بـدأت عملها العسـكري بعد أن تمكنت من توفـير ثلاث مجموعـات مقاتلـة. وسـقط أول شـهيد لها "خالد الأمين" في هجـوم على مستعمرة "ديشوم" في الجليل الأعلى.

توحدت هذه الجبهة مع "أبطال العودة" و"شباب الثأر" لتشكيل الجبهة الشـعبية لتحرير فلسـطين في ديسـمبر 1967، لكنها ما لبثت أن انفصـلت عنها في أكتـوبر 1968 احتجاجـاً على برنامجها السياسي الماركسـي، ولأنها تـرغب في التركـيز على العمل العسـكري دون الانشـغال في المتاهـات السياسـية. ومع ذلك فقد احتفظت باسم الجبهة الشـعبية مضـيفة إليها كلمـتي "القيـادة العامـة" للإشـارة إلى توجهها العسكري. وعبَّر برنامجها السياسي الصادر عن مؤتمرها الأول المنعقد في نهاية 1968 عن روح قومية عربيـة. وفي مؤتمرها الثـاني في سـبتمبر 1969 تبنت بالإجمـاع الاشـتراكية العلمية (الماركسـية) وتبنت برنامجـاً سياسـياً منطلقـاً منهـا. وعبَّرت عن نفسـها من خلال

مجلة "إلى الأمـام"، كما لا تـزال تمتلك "إذاعة القـدس" الـتي تبث من لبنان. ومنذ التسعينيات أخذت الجبهة في نبذ الماركسية، وأخـذت تتجه أكـثر نحو الخطـاب القـومي الإسـلامي، كما يلاحظ في خطابـات أحمد جبريل وإذاعة القدس.

وعنـدما تشـكلت م.ت.ف سـنة 1964 عـدَّتها "جبهة تحرير فلسـطين" لُعبة بيد الأنظمة العربية لاحتــواء التحركــات النضــالية الفلســطينية، ولكنها شاركت فيها اعتباراً من أول مجلس وطني ينعقد بعد انفصالها عن الجبهة الشعبية (المجلس السـادس في يونيو 1969). وفي 1974 شارك طلال نـاجي في اللجنة التنفيذية لــ م.ت.ف منـدوباً عنهـا. وقد اعترضت على برنــامج النقــاط العشــر، وانضــمت إلى جبهة الــرفض ولكنها لم تجمد عضويتها في قيـادة م.ت.ف. وفي سـنة 1983 دعمت الانشـــقاق داخل حركة فتح الـــذي تزعمه أبو موســـى، ثم قـــاطعت المجلس الوطني الـ17 الذي عقد في عمان سنة 1984، وشكَّلت - مع الجبهة الشعبية والصاعقة - جبهة الإنقاذ الوطني الفلسـطيني، وظلت منذ ذلك الحين على معارضـــتها القوية لقيـــادة م.ت.ف ومقاطعتها للمجلس الوطــني. ولا تــزال تعــارض التســوية الســلمية ومشــاريعها وشـاركت ضـمن تحـالف الفصـائل الفلسـطينية العشر الـذي تشـكل لمعارضة اتفاق أوسلو سنة 1993 ولا تـزال عضـواً في هـذا التحـالف. ولها علاقات حسنة بحماس والجهـاد الإسـلامي، وبكل من يشـارك في المقاومة المسلحة ضد الصهاينة.

وقد ركــزت القيــادة العامة على الفعل العســكري وقــامت بعــدد من العمليـــــات الجريئة مثل عملية الخالصة في 11 إبريل 1974، وأم العقـارب في 14 يونيو 1974. ونجحت سـنة 1979 في إرغـام الكيـان الصهيوني على إطلاق سراح 78 أسيراً فلسـطينيا مقابل الإفـراج عن أسير صـهيوني.[323] كما نجحت عـام 1985 في إطلاق سـراح 1150 من الســجناء والأســرى الفلســطينيين مقابل تســليم ثلاث جنــود صهيونيين كانوا أسرى لديها. وفي 25 نوفمبر 1987 نفذ الشهيد خالد أكر عملية الطائرة الشراعية التي أدت إلى مقتل سـتة جنـود صـهاينة، وكــانت أحد شــرارات تفجــير الانتفاضة الفلســطينية المباركة في 9 ديسمبر 1987. وقد حظيت هذه الجبهة بشكل عام بدعم سوريا وليبيا.

وقد تعرضت هــذه الجبهة لانشــقاق أحمد زعــرور الرجل الثــاني فيها سنة 1969 والذي شـكل منظمة فلسـطين العربيــة، كما انشـقت عنها مجموعة بقيـادة محمد عبـاس (أبو العبـاس) الـذي أطلق على تنظيمه اسم "جبهة التحرير الفلســطينية" وهو الاسم القــديم الأول لهـــذه الجبهـــة. وقد حظي أبو العبـــاس بـــدعم من العــراق ثم من فتح. وقد تعرضت الجبهة التي قادها أبو العباس هي الأخرى للانشـقاق فانفصل عنها أبو جابر آخر سنة 1983، وانقسمت على نفسها سنة 1983 إلى ثلاث أجنحة: جناح أبو العباس، وجناح طلعت يعقوب، وجناح عبد الفتاح غانم. وعـاد أبو العبـاس ليهيمن على الجبهة بعد وفـاة طلعت يعقـوب سـنة 1988، غـير أن انشـقاقاً آخر حـدث في سـنة 1993 على خلفية الموقف من اتفاقيـات أوسـلو، فانقسـمت إلى فصـيل مؤيد لأوسـلو بقيادة أبو العباس وآخر معارض لها بقيادة أبو نضال الأشقر.

وللجبهة الشعبية (القيادة العامة) تواجد عسـكري وسياسي في لبنـان وسوريا، غير أنها تفتقر للقاعدة الجماهيرية في الداخل.

طلائع حرب التحرير الشعبية (الصاعقة):[324]

تم تشكيل هذه المنظمة سنة 1967 بناء على قرار حزب البعث العربي السوري في مؤتمره التاسع بدمشق سـنة 1966، وبـالطبع فـإن هـذه المنظمة ذات توجه قـومي. ويـتركز تواجـدها في سـوريا وحيث يكـون النفـوذ السـوري في لبنـان. وكـانت تعـدُّ فصـيلاً كبـيراً في أواخر السـتينيات، وكـان لها تواجـدها في السـاحة الأردنية 1967 ــ 1970، وحـاولت إسـقاط نظـام الحكم في الأردن عن طريق بعض ضـباط الجيش الأردني. وقد كـان لها تمثيل قـوي في م.ت.ف، وتـولى زهـير محسن أمينها العـام رئاسة الـدائرة العسـكرية في المنظمـة. لكنها عبَّرت بشكل عام عن التوجهـات الرسـمية للحكومة السـورية فـوقفت مع انشـقاق أبي موسى (فتح الانتفاضـة) في مـايو 1983، ومع طـرد عرفات من سوريا 24 يونيو 1983، ومع حصار مخيمـات شـمال لبنـان وإرغـام عرفـات ومؤيديه على الانسـحاب من طـرابلس في ديسـمبر 1983.

وقد قاطعت الصاعقة المجلس الوطني السـابع عشر في عمـان سـنة 1984، وشـاركت في جبهة الإنقـاذ الفلسـطينية المناهضة لعرفـات وقيادة م.ت.ف، كما شاركت ـ ولا تزال تشارك ـ في تحـالف الفصـائل العشر المعارض لاتفاقيات أوسلو.

ورغم أن الصـاعقة مدعومة بإمكانـات سـوريا إلا أنها تفتقر للقاعـدة الشعبية في الداخل وفي مخيمات الفلسطينيين في الأردن.

جبهة التحرير العربية:[325]

تشـكلت في إبريل 1969 بتوجيه ودعم من العـراق، وانضـمت إليها كوادر حزب البعث العربي المـوالي للعـراق، وتـألفت أكثرية عناصـرها من أفراد من العراق ولبنان والأردن وأقلية من الفلسـطينيين، وتبنت الطـرح القـومي. ومنذ نشـأتها وحـتى أحـداث أيلـول / سـبتمبر 1970 استفادت من تواجد الجيش العراقي في الأردن. لكنها واجهت مشـكلة توفر قواعد لها بعد خـروج المقاومة من الأردن، خصوصـاً وأن سـوريا أغلقت الباب في وجهها بسبب خصـومة البعثَيْن في سـوريا والعـراق، وحدث أن صادرت سوريا أسلحتها أو قبضت على رجالها.

واحتفظت الجبهة بمراكز لها في جنـوب لبنـان، وشـاركت في الـدفاع عن المخيمـات الفلسـطينية وقـامت بعـدد من العمليـات الموجهة إلى داخل فلسطين، واكتسبت حجمها من دور العراق وحجمه في القضـية الفلسـطينية، وكـانت ممثلة في اللجنة التنفيذية لــ م.ت.ف بالـدكتور المؤرخ عبد الوهـاب الكيـالي. وقد انضـمت لجبهة الـرفض سـنة 1974 دون أن تنسحب. ونبعت مواقفها السياسية من العسـكرية وغيرها من مواقف العراق. وهي بشكل عـام تفتقر كثـيراً إلى القاعـدة الشـعبية. ويتولى قيادتها حالياً ناصيف عواد. وهناك مجموعة منشقة عنها تحمل الاسم نفسه بقيادة جميل شحادة ولها وجود ضعيف في الداخل.

حركة المقاومة الإسلامية (حماس):

ظهر اسم حركة المقاومة الإسـلامية مع انطلاق الانتفاضة المباركة في ديسـمبر 1987. ولكن الحركة عـرَّفت نفسـها منذ البداية بأنها "جنـاح من أجنحة الإخـوان المسـلمين في فلسـطين". والحقيقة أن حمـاس هي أحد أشـكال المقاومة الـتي قـرر الإخـوان المسـلمون الفلسـطينيون تبنيها ضـمن تـاريخهم الطويل في العمل الشـعبي والمقاوم. وبالتالي فإن حماس لم تأت من فـراغ، وإنما هي اسـتمرار لعملهم الـذي نشأ في فلسـطين منذ بداية الأربعينيـات من القـرن العشـرين، واتخذ شـكل العمل العلـني المنظم وافتتـاح الفـروع والمقـرات منذ أواخر سـنة 1945 حـتى وصـلت نحو خمس وعشـرين فرعـاً قبل حـرب 1948. وهي امتـداد لعملهم الجهـادي ضد المشـروع الصهيوني (والذي يعتبرونه جزءاً من عقيـدتهم) منذ أن شـاركوا بقـوة في حـرب 1948، وفي عمليـات المقاومة في قطـاع غـزة 1953 ـ 1955، وفي معسكرات الشـيوخ (تحت غطـاء حركة فتح) في 1968 ـ 1970، وفي محـاولات الشـيخ أحمد ياسـين المبكـرة في أوائل الثمانينيـات إلى أن كُشف تنظيمه العسـكري (المجاهـدون الفلسـطينيون) واعتقل سـنة 1984. وفي صـيف عـام 1985 اتخـذت قيادة الإخـوان المسـلمين قـراراً باسـتغلال أية أحـداث للاشـتراك في المواجهة ضد الاحتلال، أي قبل سـنتين من بـدء الانتفاضـة. وقد استشهد اثنان من شباب الإخوان في المواجهات التي شـهدتها جامعة بيرزيت سنة 1986. غير أن الجديد في حركة حماس أنها:

1. **حسـمت حالة "التقطّع" في الأداء الجهـادي الإخـواني، وحولته إلى حالة دائمة مستمرة.**
2. **وفرت غطاء حركياً مقاوماً لجماعة الإخـوان، يتسم بالمؤسسـية التنظيمية والسياسية والعسكرية، وله قيادته السياسية المعلنة.**
3. **نقلت الوضع الداخلي للإخوان الفلسـطينيين نقلة نوعيـة، بحيث أصبح العمل التنظيمي والتربوي والتعبوي يخدم الفعل الجهادي واستراتيجية المقاومة.**
4. **حسم ظهور حماس حالة النقاش التي اسـتمرت سـنوات طويلة حـول "جدلية الدولة والمقاومـة"، أي هل ينتظر الإخـوان إقامة الدولة الإسلامية حتى يبـدأ مشـروع التحرير أم لا. وكـان الحسم باتجاه أن مشروعي الدولة الإسلامية ومقاومة العدو الصـهيوني خطّـان متوازيـان مكملان لبعضـهما البعض، ويسـيران جنبـاً إلى جنب دونما تعارض.**

وقد تمكنت حمـاس منذ البداية من الاسـتناد على أسس أيديولوجية وحركية وشعبية صلبة، مكّنتها من الوقوف في وجه الضربات القاسـية التي تلقتها من الكيان الصهيوني ومن السلطة الفلسطينية بعد ذلـك، وقد أعانها على ذلك:

1. **عراقة وقدم التنظيم الإخواني الفلسـطيني، إذ أنه أقـدم تنظيم حركي فلسطيني، لا يزال يحتفظ بفاعليته على الساحة.**
2. **تراث الإخوان المسـلمين العـالمي الفكـري والـدعوي والـتربوي الضـخم، الـذي أنتجته مدرسة الشـيخ حسن البنا ومفكروها في بلدان العالم منذ الثلاثينيات وحتى الآن. مما سـاعدها كثـيراً في تحديد الرؤية والأولويـات والمواقف منذ مراحل مبكـرة من نشأتها.**
3. **استناد الإخوان إلى ماضٍ جهادي مقاوم يفخرون به منذ 1948.**

4. **شـمولية دعـوة الإخـوان وتكاملهـا، بحيث لم تركز على مشـروع المقاومة العسـكرية فقـط. وإنما مثلت دعـوة إصـلاح ومدرسة تربوية وهيئة اجتماعية خيريـة. وتغلغلت في أوسـاط النـاس، بحيث اسـتفادت من هـذه الأنشـطة في تجنيد عناصـرها وتجديد نفسها، مما جعل عملية اقتلاعها أمراً يكاد يكون مستحيلاً.**

وهذا ما يفسر أن حماس منذ نشـأتها لم تبـدأ من ذيل القائمة الطويلة لمنظمـات المقاومة الفلسـطينية، وإنما قفـزت مباشـرة لتكـون المنـافس الأول والقـوي لحركة فتح الـتي تعد العمـود الفقـري لـ م.ت.ف. إذ إن حركة الإخـوان المسـلمين بـدأت تسـترد عافيتها في الوسط الفلسـطيني منذ منتصف السـبعينيات، وبـدأت تفـوز في الانتخابات الطلابية في الجامعات منذ أواخر السـبعينيات. ومن الجـدير بالذكر أن هذه الحالة لم تكن متعلقة فقط بالداخل الفلسطيني فقط. وإنما شـملت الفلسـطينيين خصوصـاً في الأردن والكـويت وأوربا والولايـات المتحـدة. ففي آخر مـارس 1976 نـزل الإسـلاميون الفلسـطينيون المحسـوبون على تيـار الإخـوان في (قائمة الشـباب المسـلم) في انتخابـات الاتحـاد العامل لطلبة فلسـطين في ثانوية حـولي بـالكويت، وهي المدرسة الـتي كـانت تتبع م.ت.ف في دوامها المسـائي، وفيها أكـثر من 1200 طـالب فلسـطيني، حيث كـانت أكـبر معقل طلابي فلسـطيني منفـرد. وقد تقاسـموا مع فتح المقاعد الخمسة حيث فـازت فتح بالكـاد بثلاثة مقاعد بينما فـازوا بمقعـدين اثنين. وكـانت هـذه أول إشـارة لعـودة الإسـلاميين الفلسـطينيين إلى السـاحة. ثم شـكّلت (قائمة الحق الإسـلامية) القائمة الأقـوى في انتخابـات الاتحـاد العـام لطلبة فلسـطين في جامعة الكـويت خلال السـنتين الدراسـيتين 77/78 و78/79 حيث قادها في سـنتها الأولى خالد مشـعل الـذي أصـبح فيما بعد رئيس المكتب السياسي لحركة حمـاس، وقد تعمـدت قيـادة الاتحـاد "الفتحاويـة" تعطيل الانتخابـات لسـنتين متواليـتين لخشـيتها من خسـارتها في الانتخابـات أمـام الإسلاميين، الذين تركوا الاتحاد في النهاية وشكلوا الرابطة الإسلامية لطلبة فلسطين.

ويبدو أن قرار اختيـار الاسم قد اتخذ بالتنسـيق بين الـداخل والخـارج، غير أن قيادة الخارج أعطت للداخل صلاحية اختيار التوقيت المناسـب، وعنـدما وقعت حادثة دهس أربعة من العمـال الفلسـطينيين في 8 ديسمبر 1987، اجتمعت قيادة الإخوان في قطاع غـزة ليلتها وقـررت تثـوير الوضع وهو ما بـدأ فعلاً بعد صـلاة فجر 9 ديسـمبر 1987 عنـدما خرجت المظاهرات من مخيم جباليا وكان اثـنين من تيـار الإخـوان هما أول شهيدين دشّنا بـدء الانتفاضة المباركة في فلسـطين. وهما حـاتم أبو سيس ورائد شحادة.[326] وفي 14 ديسـمبر 1987 أصـدرت حركة المقاومة الإسـلامية بيانها الأول الـذي عـبر عن مجمل سياسـاتها وتوجهاتها.[327]

الطرح السياسي والفكري:

ترتكز هوية حمـــاس الأيديولوجية وطرحها السياسي والفكـــري على النقاط التالية:[328]

1. **أنها حركة جهادية شـعبية إسـلامية تسـتند في فكرها ووسـائلها وسياساتها ومواقفها إلى تعاليم الإسلام وتراثه الفقهي.**
2. **تـؤمن بتوسـيع دائـرة الصـراع ضد المشـروع الصـهيوني إلى الإطـارين العـربي والإسـلامي، وأن تحرير فلسـطين لن يتم إلا بتضافر جهود المسلمين جميعاً، وأن الإسـلام هو المؤهل الوحيد لتفجير طاقات الأمة وتحرير الأرض المقدسة.**
3. **تؤمن أن قضية فلسطين قضية إسلامية أساساً، وأنها أمانة في عنق كل مسلم. وأن تحريرها فـرض عين على كل مسـلم حيثما كان.**
4. **تعتقد أن الصـــراع مع العـــدو الصـــهيوني، هو صـــراع حضـــاري مصيري ذو أبعاد عقدية.**
5. **تـرى أن مصـالح الاسـتعمار الغـربي الاسـتراتيجية والاقتصـادية وخلفياته الثقافية والدينية قد التقت مع المطـــــــامع اليهودية الصـهيونية في إنشـاء دولة لليهـود في فلسـطين، حـتى تُفـرِّق الأمة العربية والإســلامية، وتمــزق وحــدتها، وتبقيها ضــعيفة متخلفة تدور في فلك التبعية.**
6. **تؤمن أن المعركة مع العدو اليهـودي ـ الصـهيوني معركة وجـود وليس معركة حدود، وأنها معركة تتوارثها الأجيـال، وأنها صـورة من صور الصراع بين الحقِّ والباطل.**
7. **تُميِّز الحركة بين اليهـــود بوصـــفهم أهل كتـــاب لهم أحكـــامهم الخاصة في كتب الفقه، حيث تُحفظ حرماتهم، وتصان حقوقهم المدنية وحريتهم الدينية في إطار الدولة الإسلامية، وبين اليهود المعتدين الذين اغتصبوا فلسطين فوجب حربهم وقتــالهم ليس لكونهم يهوداً وإنما لكونهم محتلين غاصبين لأرض المسلمين.**
8. **ترى أن الجهاد هو الطريق الوحيد لتحرير فلسـطين، لكنها تـرى أن الجهـــاد يجب أن يســـتند إلى منظومة متكاملـــة: سياســـية وتربوية واجتماعية واقتصادية لتوفير شـروط النهضة الحضـارية وحركة التغيير لبناء متكامل لجيل الجهاد والتحرير.**
9. **تؤكد على أن شــــعب فلســـطين هو رأس الحربة في مواجهة المشــــروع الصــــهيوني، وأنه لا بد من إعـــداده ودعمه بكافة الوسائل ليقوم بدوره المنشود.**
10. **تسـعى للجمع بين خصوصـيتها الحالية كحركة وطنية فاعلة في السـاحة الفلسـطينية، وبين تسـليمها بـأن تحرير فلسـطين يستدعي في النهاية حركة أو نموذجاً إسلامياً شاملاً.**
11. **تــــرى أن فلســـطين أرض وقف إســـلامي على أجيـــال المسلمين إلى يـوم القيامة لا يصح التفريط أو التنـازل عنها أو عن أي جزء منها.**
12. **تُقرُّ حماس التعددية السياسية، واختلاف وجهات النظر، مع سعيها لإيجاد قواسم مشتركة للتصدي للمشوع الصهيوني.**

13. **تُقرُّ حماس التعددية الدينية، وترى أن المسيحيين شركاء في الوطن، ولهم من الحقوق والواجبات مثل غيرهم، وأنهم يجب أن يأخذوا نصيبهم كاملاً في مقاومة الاحتلال.**

أهداف حماس:[329]

تتلخص أهداف حماس الاستراتيجية في:

1. **تحرير كل فلسطين من نهرها إلى بحرها من العدو الصهيوني.**
2. **إقامة الدولة الإسلامية على أرض فلسطين.**

ولحماس أهداف مرحلية، تسعى لتحقيقها وصولاً للأهداف الاستراتيجية:

1. **تحرير الضفة الغربية وقطاع غزة أي الأرض المحتلة سنة 1967.**
2. **أسلمة المجتمع الفلسطيني، ونشر الأخلاق والمثل الإسلامية، والوعي والالتزام الإسلامي، باعتبارها أدوات أساسية لصمود الشعب وبدء مشروع التحرير.**
3. **الحفاظ على جذوة الجهاد وخيار الكفاح المسلح في وجه مشروع التسوية.**
4. **تفعيل العمق العربي والإسلامي باتجاه دعم قضية فلسطين.**
5. **محاربة التطبيع مع الكيان الصهيوني، وإيقاف مشروع الاختراق الصهيوني للمنطقة.**
6. **إنهاك الكيان الصهيوني أمنياً واقتصادياً، وفضح ممارساته التعسفية، وكشف الظلم الذي يحيق بالشعب الفلسطيني.**
7. **تحقيق وحدة وطنية فلسطينية تجتمع على برنامج المقاومة والتحرير.**

مواقف حماس وسياساتها:

أ. فلسطينياً:[330]

القاعدة الأساسية التي تحكمها هي التعاون والتنسيق (أو على الأقل التنافس) مع مختلف الجهات في مشروع التحرير ومواجهة الاحتلال والحد من أخطاره.

موقفها من م.ت.ف:

وحسب ميثاقها فإنها تنظر باحترام إلى الحركة الوطنية الفلسطينية وم.ت.ف. وتقدر جهودها والظروف التي أحاطت بها، لكنها ترفض الفكرة العلمانية، لأنها تؤمن أنها لن تؤدي إلى التحرير. وأكدت حماس على قاعدة الوحدة الوطنية، وحرمة الدم الفلسطيني، وتجنُّب أي اقتتال فلسطيني ـ فلسطيني.

وعندما عرضت م.ت.ف على حماس الدخول في إطارها، رفضت حماس إلا بشروط أهمها رفض التفريط بأي جزء من أرض فلسطين، ورفض الاعتراف بالكيان الإسرائيلي وبقرارات الأمم المتحدة التي تنتقص من حق الشعب الفلسطيني. كما طالبت بـ40% من مقاعد

المجلس الوطـــني الفلســـطيني، وقد رفضت قيـــادة م.ت.ف هـــذه الشروط.

الموقف من الفصائل الفلسطينية:

احتكمت حماس إلى مبادئها وإلى قاعدة التعاون والتنـافس في تحرير فلسطين وفي ضرب المشروع الصـهيوني، ورفض الاعـتراف بالكيـان "الإسرائيلي". وقد واجهت في البداية مصـاعب كبـيرة في التعامل مع حركة فتح التي كانت تخشى من النفوذ المتزايد لحماس على حسابها. ولكن حدثت عدة لقاءات بين الطرفين وجرى أكـثر من اتفـاق لتجـاوز الحساسيات ولتحقيق التنسيق الميــداني، ولكن الأمر لم يكن يخلو من حالات احتقان متبادلة كانعكـاس طـبيعي للتنـافس بين أكـبر فصـيلين فلسطينيين. وتحسنت العلاقـات مع انـدلاع انتفاضة الأقصى (سـبتمبر 2000) حيث اقــتربت فتح أكــثر من سياســات حمــاس في عمليــات المقاومة وتفعيل الانتفاضة.

وتعـاونت حمـاس مع الفصـائل الوطنية الأخـرى وخصوصـاً المعارضة لاتفـــاق أوســـلو، حيث كـــانت العمــود الفقـــري لتحـــالف الفصـــائل الفلسطينية العشر الذي تشكل في أواخر سـنة 1993 لمواجهة اتفـاق أوسلو.

ولحماس علاقة أكثر تميزاً مع حركة الجهاد الإسلامي بوصفها الأقــرب من الناحية الأيديولوجيـــة. وكثـــيراً ما يُنسِّـــق الطرفـــان مواقفهما السياسية ويتحالفـان في الانتخابـات الطلابيـة، ويتعاونـان أحيانـاً في تنفيذ العمليات العسكرية.

الموقف من التسوية السلمية:[331]

ترتكز حماس على الأسس الشرعية في رفض التسوية السلمية حسب موقف العلمـــاء الموثـــوقين. ولـــذلك فـــإن موقفها يتسم بالمبدئية والعقدية ولا يـترك مجـالاً للمنـاورة، إلا ضـمن الحـدود الـتي تقبل بها اجتهادات العلماء.

وترى حماس أن التسوية السـلمية في كل صـيغها الحالية (فلسـطينياً وعربيـــاً ودوليـــاً وإســـرائيلياً) تنطـــوي على التفريط بمعظم أرض فلســـــطين، كما ســـــتنطوي في النهاية على التفريط بحق ملايين اللاجئين الفلسـطينيين في العـودة إلى أرضـهم المحتلـة، إذ يسـتحيل على الكيـــان الإســـرائيلي قبـــول هـــذا الشـــرط لأنه ســـيُفقده طابعه اليهودي، الذي نشأ المشروع الصهيوني لأجله.

ولا تمـــانع حمـــاس من فكـــرة عقد الهدنة لـــزمن محـــدود مع الكيـــان الصهيوني مقابل الانسحاب من الضـفة الغربية وقطـاع غـزة، بشـرط عدم إعطاء الشـرعية لهـذا الكيـان على الأرض المغتصـبة سـنة 1948. وهذا ما يكاد يكون قبوله مستحيلاً من الطرف "الإســرائيلي" إلا بمزيد من العمل الجهـادي المـؤثر الـذي يضـطر الكيـان للانسـحاب ـــ وفق حسابات الربح والخسارة ـ كما حدث في جنـوب لبنـان، وإن كـان الأمر في الضفة والقطاع أشد صعوبة.

وتسعى حماس إلى إسقاط خط التسوية في الوسط الفلسطيني والعربي، وإحياء وتفعيل الخط الجهادي. وترى أن اتفاق أوسلو جاء لتصفية القضية الفلسطينية، وأضاع معظم حقوق الفلسطينيين، ويوفر الأمن للصهاينة، ويقمع العمل الجهادي الفلسطيني.

الموقف من السلطة الفلسطينية (سلطة الحكم الذاتي):[332]

ترى حماس أن سلطة الحكم الذاتي في الضفة والقطاع هي إفراز من إفرازات اتفاق أوسلو، وأن الصهاينة وافقوا على إنشائها لأنها تُؤمِّن لهم الكثير من المكاسب. وتعارض حماس المشاركة في المؤسسات السياسية للحكم الذاتي فقد قاطعت انتخابات المجلس التشريعي للسلطة، كما رفضت المشاركة في حكومتها.

وفي الوقت نفسه، رفضت حماس الدخول في مواجهات مع السلطة، وأكدت على حرمة الدم الفلسطيني، وعدم الانجرار إلى حرب أهلية تخدم في النهاية المشروع الصهيوني. وقد اضطرت أن تعض على جراحها لسنوات عندما قامت سلطة الحكم الذاتي بالعديد من حملات الاعتقال والتعذيب والملاحقة لعناصرها، ورفضت الرد على ذلك رغم شدة المعاناة. وكانت عادة ما توجِّه انتقامها إلي "الكيان الإسرائيلي" باعتباره جوهر المشكلة والمسئول أساساً عن دفع السلطة إلى سياساتها التعسفية ضد المعارضة.

ب. عربياً وإسلامياً:[333]

الاهتمام بالبعد العربي والإسلامي هو جزء من إيمانها العقدي بالحل الإسلامي للقضية وتوسيع دائرة الصراع ضد العدو الصهيوني. وكان أبرز معالم سياستها:

1. تبادل التأييد والمؤازرة مع الحركات الإسلامية وتوثيق العلاقات معها على خلفية الاهتمام بإنجاح المشروع الإسلامي في أقطارها باعتباره خطوة في طريق التحرير، وعلى خلفية دفعها باتجاه الإسهام في العمل لفلسطين وقضيتها.
2. عدم التدخل في الشئون الداخلية للدول العربية والإسلامية، وعدم الدخول في محاور صراع بين هذه البلدان، أو تأييد طرف ضد آخر.
3. عدم إنشاء تنظيمات لحماس خارج فلسطين إلى الآن. مما قلَّل من فُرص الاحتكاك والانزعاج الأمني العربي.
4. محاولة بناء علاقات سياسية مثمرة مع الدول العربية، تمكِّن حماس من العمل بحرية سياسياً وإعلامياً، توفر لها الدعم غير المشروط، وتُسهم في تصليب مواقف هذه الدولة ضد التسوية وضد التطبيع.

وقد نجحت حماس في تحقيق درجات متفاوتة من العلاقة مع عدد من الدول العربية مثل سوريا، والسعودية، واليمن، والكويت، والعراق، والسودان، وليبيا، وقطر، ولبنان. ولها علاقة جيدة بإيران. وتذبذبت علاقتها مع الأردن بين الترحيب وإنشاء المكاتب، وبين الاعتقال والطرد وسحب الجنسيات. ولحماس شعبية كبيرة في الأوساط

العربية والإسلامية، حيث يلقى تركيزها على العدو الصهيوني وعملياتها الاستشهادية وتجنبها خوض الصراعات الجانبية تقديراً كبيراً.

ج. دولياً:[334]

في البداية لم يكن حجم الحركة وشهرتها يسمحان لها بالاهتمام ببناء علاقات دولية، كما أن دول العالم كانت تركز نظرها على م.ت.ف وفصائلها. غير أن إنجازات حماس على الأرض وظهورها كثاني أكبر فصيل فلسطيني وبروزها كمنافس محتمل أو بديل لقيادة م.ت.ف ... جعل بعض دول العالم تبدي اهتماماً في الاستماع إلى وجهة نظرها. وقد ظهر هذا التحول خصوصاً إثر أزمة إبعاد 415 فلسطينياً معظمهم من حماس في ديسمبر 1992 والتي شغلت العالم بضعة أشهر. وجرت بعض الاتصالات السرية مع سفارات بعض الدول الغربية كالولايات المتحدة وبريطانيا وإسبانيا .. لكنها سرعان ما توقفت خشية من ردود الفعل "الإسرائيلية" ... وقد تركزت سياسة حماس على الصعيد الدولي في:

1. **التأكيد على أن معركتها داخل فلسطين فقط، وضد العدو الصهيوني المحتل.**
2. **عدم استهداف أو ضرب المصالح الأمريكية أو الغربية. وتجنب فتح معارك معها.**
3. **التأكيد على حجم الظلم والإجحاف الذي ألحقه الغرب بفلسطين وشعبها من خلال بريطانيا وأمريكا وحلفائهما، وعلى مسئوليتهم التاريخية تجاه ذلك.**
4. **محاولة الاستفادة من القوانين الدولية وقرارات الأمم المتحدة التي تجيز مقاومة الاحتلال، واستخدام المصطلحات السياسية السائدة عالمياً لإيصال خطابها السياسي.**

هوامش الكتاب

---

[309] انظر: فوزي تيم، "القوى السياسية الفلسطينية: القسم الأول: القوى العلمانية"، في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص 358. والموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 18.

[310] رياض الريس، مرجع سابق، ص 51.

[311] المرجع نفسه، ص 49.

[312] المرجع نفسه، ص 52 ـ 53، والموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 15.

[313] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 15.

[314] المرجع نفسه، ج2، ص 15 ـ 17.

[315] انظر حول المجالس الوطنية الفلسطينية في: المرجع نفسه، ص 94 ـ 121، وانظر حول برنامج النقاط العشر، وموقف الجبهة الشعبية منه في: فيصل حوراني، مرجع سابق، ص 183 ـ 220.

[316] انظر التشكيل التنظيمي للجبهة في: الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 15.

[317] حول هذه العمليات، انظر: رياض الريس، مرجع سابق، ص 55 ـ 59، والموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 18.

[318] رايض الريس، مرجع سابق، ص 61.

[319] انظر: المرجع نفسه، ص 64 ـ 66، والموسوعة الفلسطينية، ج 2، ص 12.

[320] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 12 ـ 13.

[321] المرجع نفسه، ج1، ص 539 ـ 540.

[322] حول القيادة العامة، انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 18 ـ 22، ورياض الريس، مرجع سابق، ص 69 ـ 71.

[323] انظر: المرجع نفسه، ج2، ص 314 (حول عملية الخالصة)، وج 1، ص 290 ــ 291 (حول عملية أم العقارب)، وج2، ص 22 (حول عملية إطلاق الأسرى الـ 78).

[324] حول الصاعقة، انظر: رياض الريس، مرجع سابق، ص 73 ــ 78، والموسوعة الفلسطينية، ج3، ص 114 ـ 116.

[325] حول جبهة التحرير العربية، انظر: رياض الريس، مرجع سابق، ص 79 ـ 83، والموسوعة الفلسطينية، ج1، ص 514 ـ 518.

[326] انظر: غسان حمدان، الانتفاضة المباركة: وقائع وأبعاد (الكويت: دار الفلاح، 1989)، ص 36 ـ 38.

[327] انظر نص البيان في: وثائق حركة المقاومة الإسلامية، سلسلة بيانات الحركة، رقم 1، إعداد المكتب الإعلامي لحماس (دون مكان: المكتب الإعلامي لحماس، دون تاريخ)، ص 17 ـ 18.

[328] انظر حول الطرح الفكري والسياسي للحركة في: ميثاق حركة المقاومة الإسلامية (حماس) الذي صدر في 19 أغسطس 1988، والمنشور في المرجع السابق نفسه، ص 137 ــ 168. وانظر: جواد الحمد وإياد البرغوثي (محررين)، دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) 1987 ـ 1996، سلسلة دراسات رقم 20 (عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 1997)، ص 117 ـ 221.

[329] حول أهداف حماس، انظر مثلاً: محمد برهومة، "أهداف حركة (حماس)"، في دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية، ص 55 ـ 77، 99 ـ 105.

[330] حول مواقف حماس فلسطينياً، انظر مثلاً: عبد الحفيظ علاوي وهاني سليمان، "علاقات الحركة على الساحة الفلسطينية"، في دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية، ص 263 ــ 285.

[331] حول موقف حماس من التسوية، انظر مثلاً: أحمد عبد العزيز، "حركة حماس والتفاوض والتسوية مع إسرائيل"، في دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية، ص 225 ـ 240.

[332] حول موقف حماس من سلطة الحكم الذاتي، انظر مثلاً: المرجع نفسه، ص 241 ــ 256. ومحسن صالح، الطريق إلى القدس، ص 209 ـ 218.

[333] انظر مثلاً: عبد الحفيظ علاوي وهاني سليمان، "علاقات الحركة على الساحة العربية والإسلامية"، في دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية، ص 287 ـ 291.

[334] انظر مثلاً: المرجع نفسه، ص 293 ـ 301.

بنية حماس التنظيمية وقيادتها:[335]

في 18 أغسطس 1988 أصدرت حماس ميثاقها، وبدأت عملياتها العسكرية باختطاف وقتل جندي "إسرائيلي" في فبراير 1989. وشنَّت القوات "الإسرائيلية" حملة شاملة ضدها في مايو 1989 أدت لاعتقال معظم قيادتها، وعلى رأسها الشيخ المؤسس أحمد ياسين. وتوالت حملات الاعتقال، لكن حماس كانت قادرة على تقديم قادة جدد وعلى الاستمرار في أصعب الظروف. وتطور عمل حماس العسكري، فأنشأت كتائب "الشهيد عز الدين القسام" في 1992 التي مثَّلت جناحها العسكري الضارب. وشكلت عملية إبعاد 415 شخصاً معظمهم من قادتها ورموزها ورجالها (نحو 380) علامة فاصلة، حيث نجحت حماس في المعركة الإعلامية، واضطر الكيان الصهيوني إلى إعادتهم.

ونجحت حماس في تطوير عملها في 1993، لكنها ووجهت باتفاق أوسلو، مما حرمها من فرص النمو والتوسع. ولاقت مصاعب جمة بسبب ممارسات السلطة ضدها 1994 ــ 2000، لكنها ظلَّت محافظة على شعبيتها وحضورها السياسي وعلى عملياتها النوعية القاسية ضد العدو الصهيوني.

ويظهر من خلال أدبيات حماس أن لها عملاً مؤسسياً مبنياً على الشورى، لكنها تحرص على عدم الكشف عن آلياته لأسباب أمنية. ولحماس مكتب سياسي يترأسه خالد مشعل منذ 1996 وقد سبقه إلى هذا المنصب موسى أبو مرزوق وهو يتولى الشئون السياسية للحركة وتمثيلها. كما أن لها مكتباً إعلامياً، فضلاً عن الجهاز العسكري الذي يعمل باستقلالية شبه تامة عن الخطين السياسي والإعلامي. ومن أبرز رموز حماس في الداخل في قطاع غزة مؤسسها ومرشدها الشيخ أحمد ياسين، ود. عبد العزيز الرنتيسي، ود. محمود الزهار، وفي الضفة الغربية جمال منصور، وجمال سليم، وقد استشهدا في 31 يوليو 2001، وجمال النتشة وحسن يوسف، وفي الخارج خالد مشعل، وموسى أبو مرزوق، ومحمد نزال، وإبراهيم غوشة وغيرهم.

التأييد الشعبي:[336]

تحظى حماس بتأييد شعبي كبير في الأوساط الفلسطينية. وعادة ما تحصل في الانتخابات الطلابية والنقابات المهنية التي تشارك بها في داخل فلسطين على معدَّل عام بحدود 40 ـ 45% من الأصوات. كما أن التيارات الإسلامية المؤيدة لحماس تحظى بالشعبية نفسها أو أكثر في انتخابات الطلاب والنقابات والمخيمات في الأردن. وحسب استطلاعات الرأي العام التي تقوم بها جهات محسوبة عادة على م.ت.ف فإن حماس تحصل على 14 ـ 19% من الأصوات. ومن الصعب الركون إلى النتائج السابقة بسبب تشتت الشعب الفلسطيني، وبسبب أن الانتخابات التي شاركت بها تمثل شرائح معينة من الشعب، كما أن هناك ملاحظات على دقة مراكز استطلاعات الرأي العام من حيث توجهها وتمويلها.

حماس والعمل العسكري:[337]

ترى حركة حماس أن العمل العسكري هو خيار استراتيجي دائم، وتتعامل مع المعركة باعتبارها معركة طويلة الأمد، ربما تتداولها

الأجيال. وهي في مثل أجواء التسوية السلمية وحالة استضعاف الأمة تسعى لإبقاء جذوة الجهاد مرفوعة تعبيراً عن عدم التفريط بالأرض المقدسة. ولكن الذي عقَّد الأمر في وجه حماس أنها أقبلت على الخيار العسكري حين أدبر الآخرون، وسارت عكس التيار، لكنها على أي حال تمكنت من إثبات نفسها.

بدأت حماس عملياتها باختطاف الجندي آفي ساسبورتس في 3 فبراير 1989 وقتله، عن طريق جناحها العسكري "المجاهدون" بقيادة الشيخ صلاح شحادة، لكن سرعان ما ضُرب هذا الجناح العسكري في مايو 1989 إثر الحملة الشرسة التي قادتها سلطات الاحتلال. وتعزى بدايات تشكيل جناحها العسكري الحالي "كتائب عز الدين القسام" إلى مايو 1990 حيث أخذت عملياتها تتزايد وتشتد قوة وتأثيراً. وحسب إحدى الإحصائيات نفذت حماس سنة 1993 ما مجموعه 138 عملية خسر الكيان الإسرائيلي حسبما أعلن بنفسه 79 قتيلاً و220 جريحاً. واستشهد في 24 نوفمبر 1993 عماد عقل وهو أحد أبرز قادتها العسكريين.

ومنذ سنة 1994 زادت صعوبات العمل الجهادي إثر دخول السلطة الفلسطينية إلى مناطق الضفة والقطاع، ومع ذلك فإن الفعالية النوعية لأدائها قد تزايدت. وقامت حماس بتنفيذ خمس عمليات قاسية انتقاماً لمجزرة الحرم الإبراهيمي التي ارتكبها الضابط الإسرائيلي باروخ جولدشتاين في المسلمين في أثناء تأديتهم لصلاة الفجر في الحرم الإبراهيمي مما أدى لاستشهاد 29 مسلماً وجرح أكثر من 300 آخرين (استشهد وجرح الكثير إثر المواجهات التي أعقبت المجزرة). وتمكنت حماس في العمليات الخمس ــ وحسبما ذكرته المصادر الإسرائيلية ـ من قتل ما مجموعه 39 إسرائيلياً وجرح 158. وقد برز نجم يحيى عياش في تلك الفترة، الذي اعتبر مسئولاً عن العمليات الاستشهادية التي اشتهرت بها حماس، حتى إن المحللين الإسرائيليين اعترفوا أن "حماس قد صكَّت نماذج جديدة للإنسان الفلسطيني وهم الاستشهاديون الجدد".

وفي يوم 5 يناير 1996 استشهد يحيى عياش، وقد ردَّت حماس بقسوة على استشهاده في الفترة 25 فبراير ــ 3 مارس 1996 مما أسفر عن قتل 45 "إسرائيلياً" وجرح 113 آخرين حسب المصادر الإسرائيلية التي تجنح دائماً للتقليل من خسائرها. وقد أدت هذه العمليات إلى حملة شرسة منسقة لاجتثاث حماس تولتها السلطة الفلسطينية والسلطات الإسرائيلية، كما استدعت عقد مؤتمر دولي لما أسموه "مكافحة الإرهاب" بحضور زعماء الدول الكبرى وعدد من زعماء العرب والعالم. لكن حماس تمكنت من استيعاب الصدمة حيث عادت للعمليات العسكرية التي ظهرت بشكل واضح سنة 1997 وبرز في القيادة العسكرية محي الدين الشريف وعادل عوض الله وعماد عوض الله الذين استشهدوا سنة 1998. وعندما اندلعت انتفاضة الأقصى كانت حماس اللاعب الأكبر في العمليات الجهادية الكبيرة وخصوصاً الاستشهادية التي هزت الكيان الصهيوني وأحدثت توازن ردع حقيقي لأول مرة. وقد كانت عمليات كثيرة يصعب حصرها ومن أبرزها عملية سعيد الحوتري التي أدت إلى مقتل نحو 20 إسرائيلياً وجرح مائة آخرين.

حركة الجهاد الإسلامي:

شهدت سنة 1980 إنشاء حركة "الجهاد الإسلامي" في فلسطين، والتي قام بتأسيسها عدد من الشباب الفلسطيني الدارس في الجامعات المصرية برئاسة الدكتور فتحي الشقاقي رحمه الله.

وكان الدكتور الشقاقي قد انضم لجماعة الإخوان المسلمين في القطاع بزعامة الشيخ أحمد ياسين سنة 1968 واستمر في أطر الإخوان إلى أواخر السبعينيات.[338]

ويذكر الشقاقي الذي ولد في غزة سنة 1951 (عائلته تنتمي أصلاً إلى قرية زرنوقة قضاء الرملة) والذي درس الطب في جامعة الزقازيق بمصر 1974 ـ 1981، أن فكرة إنشاء حركة الجهاد الإسلامي نشأت أيام الدراسة الجامعية، وأنه كان هناك خلافات بينه وبين الإخوان في المنهج وطُرق التغيير وقضية فلسطين والموقف من الأنظمة ومن العالم والواقع والأدب والفن. وأضاف أنه كان يشعر أنه "ليس للإخوان منهج وأن هناك فوضى في المفاهيم في إطار الحركة..."[339].

وانتقد الشقاقي ما عدَّه سكونية مناهج التكوين لدى حركة الإخوان، والتخبط في طرائق العمل، وإهمال جانب التخطيط وطغيان مبدأ السلامة والمبالغة فيها.[340]

غير أن الشقاقي يرى أن حركة الإخوان المسلمين حركة أمّ للتيار الإسلامي في المنطقة، وأن البنا كان رائداً كبيراً، وقال إنه وحركته يكنّون "كل احترام وتقدير لهذه الحركة على دورها التربوي وحفظها للإسلام في المنطقة".[341]

وقال الشقاقي أنه مع مجيء سنة 1978 كان التمايز واضحاً بينه وعدد من زملائه وبين الإخوان. وتابع الشقاقي الثورة الإيرانية باهتمام وانتهى من إعداد كتابه "الخميني: الحل الإسلامي والبديل" في يناير 1979 قبيل نجاح الثورة، والذي صدر بعد نجاحها بأيام، ولم يلتق بأي مسؤول إيراني قبل ذلك، وقد اعتقل ليلة صدور الكتاب مدة أربعة أيام بسبب نشاطه الإسلامي في الجامعة، ثم أعيد اعتقاله في يوم 20 يوليو 1979 لأربعة أشهر، وبعد خروجه من السجن انقطعت صلته التنظيمية بالإخوان، حيث شعر أن فكرة "التأثير والتوافق لم تعد قائمة" بينه وبين الإخوان، فبدأ بتشكيل نواة حركة الجهاد الإسلامي في بداية 1980.[342]

وقبل أن يعود الشقاقي إلى فلسطين سنة 1981، كان قد سبقه عدد من إخوانه الذين تخرجوا سنة 1980 من الجامعات المصرية وبدأوا نشاطهم داخل الأرض المحتلة. وقد التحق الشقاقي بمستشفى فكتوريا بالقدس لمدة سنتين إلى أن اعتقل سنة 1983 لمدة عام لإصداره مجلة الطليعة، ثم أعيد اعتقاله سنة 1986 وحكم عليه بالسجن أربع سنوات بتهمة تشكيل تنظيم سري عسكري، ثم أبعد سنة 1988 إلى لبنان حيث عاش سنة واحدة ثم انتقل إلى دمشق.[343]

وحسب فكر حركة الجهـاد الإسـلامي فإنها جـاءت لتعـبر عن "الإسـلام كمنطق، والجهـاد كوسـيلة، وفلسـطين كهـدف للتحريـر" وأنها عنـدما قـــامت "كـــانت قـــوة تجديد داخل الفكر الإســـلامي وداخل الحركة الإسلامية على مستوى الفكرة والمنهج والتنظيم وعلى مستوى الأداء داخل فلسطين".[344]

وبشكل عام فإن الحركة ركزت على المعـاني الجهادية وتحرير الـوطن وتنظيم العناصر للقيـام بالعمليـات العسـكرية، وتـأثرت بتجربة الجهـاد الإسـلامي في مصر والتجربة الإيرانية والتجربة القسـامية. وحـافظت على علاقات متينة بإيران منذ إنشائها وحتى الآن.

ويظهر أن المجموعة الـــتي أنشـــأها فتحي الشـــقاقي كـــانت إحـــدى المجموعــات الثلاث الـتي اجتمعت لتشــكل حركة الجهــاد الإســلامي، والتي كـان لها تقريبـاً نفس التوجهـات السياسـية والجهاديـة. وكـانت المجموعة الثانية هي "سـرايا الجهـاد الإسـلامي" وهي مجموعة يعـود أصل تكوينها إلى عناصر من حركة فتح، تمركـــزت أساســـاً في قلعة الشــقيف في لبنــان وتمــيزت بخبرتها وتكوينها العســكري. وقد أدت النقاشات داخلها إلى التحول من الخط اليساري الاشتراكي إلى تبــني الخط الإسلامي، وبرز في توجيهها المفكر الفلسطيني المعروف منير شفيق، وفي قيادتها العسـكرية أبو حسن قاسم "محمد محمد بحيص"، وحمدي "محمد باسم سـلطان التميمي". وهي الـتي يعتقـد أنها نفـذت أشــهر عمليــات الجهــاد الإســلامي في الثمانينيــات، وهي عملية بــاب المغاربة في 16 أكتوبر 1986 والتي أدت إلى إيقاع ثمانين إصــابة بين قتيل وجريح من لواء "غفعاتي" العسكري الإسرائيلي. وقد تأثرت هذه المجموعة كثـيراً باستشـهاد أبو حسن قاسم وحمـدي في قـبرص في عملية نفــذتها المخــابرات الإســرائيلية في 14 فــبراير 1988، حيث فقــدت العديد من خيوطها المرتبطة بالقائـدين، كما أن عناصر أخــرى انضمت لجسم المجموعة الأكبر (الشقاقي) بينما جمدت عناصر أخــرى عملها.

أما المجموعة الثالثة فقد شكلها إبراهيم سـربل الـذي أعطى هو ومن معه البيعة للشـيخ أسـعد بيـوض التميمي، وعـرفت بالجهـاد الإسـلامي وقد فضـــلت هـــذه المجموعة فيما بعد الانســـحاب من الوحـــدة مع الشـــقاقي ورفاقـــه. كما حـــدث داخل هـــذه المجموعة خلاف أدى لانقسامها إلى مجموعتين واحدة تتبع الشيخ أسعد (الجهـاد الإسـلامي "بيت المقدس") وأخرى تتبع إبراهيم سربل (الجهاد الإسلامي "كتـائب الأقصى"). وقد انفصـلتا فيما بعد عن مجموعة الشـقاقي الـتي تعتـبر الآن الجهة الأقوى تنظيميـاً وعسـكرياً وشـعبياً بين مجموعـات الجهـاد الإســلامي. وحسب إبــراهيم ســربل فــإن أولى عمليــات مجموعته الجهادية تعـــود إلى شـــهر مـــارس 1982 لكنها أمرها كُشف واعتقل أفرادها في نوفمبر 1983، ثم خرجوا في عملية تبادل الأسـرى سـنة 1985، حيث عادوا لممارسة العمل العسكري.[345]

وتعدُّ حركة الجهاد الإسلامي اليـوم الأول لاشـتعال الانتفاضة المباركة هو 6 أكتـــوبر 1987 عنـــدما استشـــهد أربعة من رجالها في مواجهة عسكرية مع الجيش "الإسرائيلي".

وقد قـامت الجهـاد الإسـلامي بعمليـات نوعية جريئـة، وقـدَّمت نمـاذج استشـهادية متمـيزة وهي لا تـزال تقف إلى جـانب حمـاس في رفض مشاريع التسوية السلمية وتبنّي العمل الجهادي المقاوم.

ومن العمليات المميزة التي قامت بها عملية نتساريم في 11 نوفمـبر 1994، وعملية بيت ليد في 22 ينــاير 1995، الــتي هــزت الكيــان الإسرائيلي إذ قُتل 21 جندياً وجـرح 66 آخـرين. ونفـذت في 4 مـارس 1996 عملية تل أبيب الــتي أدت لمقتل 14 إســرائيلياً وجـــرح 125 آخرين.[346] وعندما اندلعت انتفاضة الأقصى قامت الجهاد الإسلامي بتنفيذ عدد من العمليات الاستشهادية التي أحدثت أثراً كبيراً.

وقد استشهد في 26 أكتـوبر 1995 فتحي الشـقاقي زعيم الحركة إثر حادث اغتيال قام به الموساد الإسرائيلي. وقد تـولى القيـادة بعـده د. رمضان عبد الله شلّح الذي لا يزال أميناً عاماً للحركة.[347]

هوامش الكتاب

---

[335] انظر مثلاً: عبد الستار قاسم وأسامة أبو أرشيد، "التمهيد"، في دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسـلامية، ص 43 ــ 48، ومحسن صالح، الطريق إلى القدس، ص 187 ـ 188.

[336] انظر مثلاً: محسن صالح، الطريق إلى القدس، ص 184 ــ 187، وجـواد الحمد وهــاني سـليمان (محــرران)، انتخابــات الحكم الــذاتي الفلسطيني (عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، 1994)، ص 15 ــ 42، 121 ـ 149.

[337] حـول عمليـات حمـاس 1989 ــ 1996، انظـر: محسن صـالح، الطريق إلى القـــدس، ص 189 ــــ 205، وغســـان دوعـــر، موعد مع الشاباك: دراسة في النشاط العسكري لحركة حماس وكتائب عز الدين القسام خلال عام 1993 (لندن: فلسطين المسلمة، 1995)، وغسـان دوعر، المهندس: الشهيد يحيى عياش رمز الجهـاد وقائد المقاومة في فلسطين (لندن: فلسطين المسلمة، 1997).

[338] انظــر: مقابلة لفتحي الشــقاقي مع مجلة الوســط، لنــدن، 6 نوفمبر 1995.

[339] المرجع نفسه.

[340] محمد سعيد الموعد، "المصادر الفكرية لحركة الجهاد الإسـلامي في فلسطين"، جريدة الحياة، 27 يناير 1995.

[341] الوسط، 30 يناير 1995.

[342] الوسط، 6 نوفمبر 1995.

[343] الوســط، 6 نوفمــبر 1995، وانظــر: جريــدة الأســواق، عمَّان (الأردن)، 30 أكتوبر 1995.

[344] الوسط، 30 يناير 1995.

[345] انظــر: إبــراهيم ســربل، حركة الجهــاد الإســلامي والانتفاضة (عمان: دار النسر، 1990).

[346] انظر حـول هـذه العمليـات في: فلسـطين المسـلمة، ديسـمبر 1994، والرأي، 23 ـ 25 يناير 1995، والرأي، 5 مارس 1996، والحياة، 9 مارس 1996.

[347] الحياة، 30 أكتوبر 1995، والوسط، 6 نوفمبر 1995.

مشاريع التسوية السلمية

للقضية الفلسطينية

1937 - 2001

مشاريع التسوية السلمية للقضية الفلسطينية

مقدمة:

يحمل مصطلح التسوية السلمية معنى محاولة فض النزاع بين طرفين أو أكثر حول القضية مثار الخلاف بالطرق السلمية، وعادة ما تتم بقبول الأطراف لحلٍّ يوقعون عليه، ويلتزمون بتنفيذه، بناء على اتفاقية محددة. وليس شرطاً أن تكون التسوية السلمية "عادلة" أو حلاًّ "وسطاً"، إذ إنها تعكس في كثير من الأحيان موازين القوى، وحالات الانتصار والهزيمة، والضغوط الداخلية والخارجية. كما أن التسوية السلمية ليست بالضرورة حلاًّ دائماً، إذ قد تلجأ إليها القوى المتصارعة لأخذ فسحة من الوقت بانتظار تغير الظروف إلى الأفضل، من أجل فرض تسويات جديدة تعكس تَغيُّر موازين القوى.

ولكن هذا المصطلح قد يكون مُضللاً عندما يتعلق بالشأن الفلسطيني، إذ إن معظم مشاريع التسوية السلمية تكون عادة بين دول مختلفة متحاربة، أو بين أطراف داخلية متنازعة من أبناء الوطن الواحد. أما المعاهدات التي تنتزعها قوى منتصرة نتيجة احتلالها لأرض شعب آخر وتشريد أهله واستغلال خيراته، فهي معاهدات بين غاصب محتل وبين شعب مقهور، وهي تعكس حالة استسلام من الطرف الضعيف إلى الطرف الأقوى. وهي بالتالي ليست صراعاً حدودياً أو إسقاطاً لنظام حكم ...، وإنما هي حالة استعمارية تكون أي تسوية فيها مهما كانت .. تسوية ظالمة لأهل الأرض المحتلة، لأنها بالضرورة ستنتقص ولو جزءاً من أرضهم، أو حريتهم في تقرير مصيرهم، أو سيادتهم التامة على دولتهم. ولذلك، فإن من عادة الحركات الوطنية في البلدان المستَعْمَرة الكفاح من أجل حريتها واستقلالها، وإذا ما حدثت مفاوضات واتفاقات فإنها لا تعطي للقوى الغاصبة حقاًّ في الأرض نفسها، وإنما قد توافق مرحلياً - بانتظار تحسن الظروف - على بعض الأمور التي قد تنتقص من حريتها وسيادتها كوجود قواعد عسكرية أو شروط اقتصادية مجحفة أو تحكّم المستعمر بالشئون الخارجية.

إن أول ما يجب التنبيه إليه أن الوجـــود الصـــهيوني - اليهـــودي في فلسطين هو حالة استعمار واغتصاب بالقهر والقوة، وليس نزاعاً بين بلـدين متجـاورين. وإن جـوهر القضـية أن القـوى الكـبرى (وبالـذات بريطانيا وأمريكا ..) قد سـعت متحالفة مع الصـهيونية العالمية لإيجـاد كيان يهودي في فلسـطين - قلب العـالم العـربي والإسـلامي - يمتلك آليات القوة والتوسع، ويكون سيفاً مسلطاً على رقاب المسـلمين في المنطقة يمنع وحـــدتهم ويضـــمن ضـعفهم وتخلفهم، ويحـــرمهم من شـــروط النهضة الحضـــارية، ويبقي منطقتهم مصـــدراً للمـــواد الخـــام وسوقاً للسلع الاستهلاكية الغربية ...

وبالتـالي، فـإن أي مشـروع يطرحه الغـرب أو الصـهاينة - أو يمكن أن يقبلوه - لا بد وأن يشترط بقاء هذا الكيان اليهودي - الصهيوني وقوته وازدهـاره. وهو بالتـالي لن يكـون عـادلاً مهما حصل الفلسـطينيون أو العـــرب والمســـلمون من "مكاســـب"، لأنها "لن" تضـــمن اســـتعادة الفلسطينيين لكامل حقوقهم في أرضـهم وسـيادتهم عليها أو خـروج الغاصـــــبين المحتلين. ولـــــذلك، فـــــإن أي حل يمكن أن يقبل به الفلسطينيون والعرب والمسلمون سيكون حلاًّ مؤقتاً، وسيزول بزوال مسـببا ته (ضـعفهم وقـوة خصـمهم)، ذلك أن عناصر التفجـير سـتبقى (الإيمـان بفلسـطينية وعروبة وإسـلامية الأرض، والشـعور بـالظلم..). وكما أن اليهـــود لن يـــتركوا عقيـــدتهم في "أرض الميعـــاد"، وكما أن الغرب لن يترك أطماعه، فإن العرب لن يتنـازلوا عن حقـوقهم،كما أن المسـلمين لن يـتركوا إسـلامهم. وعلى هـذا فـإن أية تسـوية "عادلة دائمة" يجب أن تتم بناء على زوال الاحتلال واستعادة الحقـوق كاملـة، وإلا فإن نُذُر الحرب ستظل تلوح في الأفق.

لقد تمت هجرة اليهـود إلى فلسـطين قهـراً ودون موافقة أهل البلاد، وتملكـــوا الأراضي قهـــراً، وأنشـــأوا مؤسســـاتهم العســـكرية والمدنية والاقتصـــادية قهـــراً ... تحت الاحتلال البريطـــاني. وأقـــاموا الكيـــان الصـــهيوني ســـنة 1948 على 77% من أرض فلســـطين قهـــراً. وكل التسويات السلمية لا تتحدث عن إزالة هـذا القهر والعـدوان، وإنما في أحسن الأحـــوال عن "قهر دون قهـــر"، بما يضـــمن إعطـــاء الشـــرعية لمعظم ما تم اغتصابه.

تطور مشاريع التسوية السلمية حتى حرب 1948

ركـــزت المطـــالب اليهودية - الصـــهيونية منذ أواخر القـــرن 19م على إنشـــاء وطن لليهـــود في فلســـطين، ولم يُجمع اليهـــود أو الحركة الصـــهيونية على تحديد دقيق لحـــدود الدولة اليهودية المقترحـــة. لكن الأطماع وصلت بمؤسس المنظمة الصـهيونية العالمية وأول رئيس لها "هرتزل" إلى الإشارة في مذكراته أنها ستكون من النيل إلى الفـــرات ضامة أجزاء كبيرة من مصر وكُـلَّ بلاد الشـام ومعظم العـراق وشـمال الكـويت والسـعودية بما فيها المدينة المنـورة وخيـبر[1]. وهي تشـبه التصور الذي وُجد في خزائن روتشيلد الـزعيم الصـهيوني البريطـاني، الـذي أرسل إليه "وعد بلفـور" رسـمياً. ولكن "وعد بلفـور" تحـدث عن "إنشاء وطن قومي لليهود في فلسـطين" دونما إشـارة إلى حـدودها، غـــير أن الصـــهاينة فهمـــوا أن ذلك يشـــمل شـــرق الأردن. وقد قـــدَّمت المنظمة الصهيونية العالمية سنة 1919 تصوراً لحدود الوطن القـــومي اليهودي، يشمل كل فلسطين الحالية وأجزاء من جنوب لبنان تبـــدأ من

ساحل صيدا شرقاً مخترقة الحدود الحالية مع سوريا، ثم تتجه إلى الجنوب ضامة مناطق الجولان، ثم تخترق شرق الأردن على خط سكة حديد الحجاز تقريباً ضامة كُلَّ مناطق الأغوار وإربد وعجلون والسلط والكرك ومعان، وصولاً إلى العقبة على الحدود الحالية مع السعودية، ثم تتجه شمالاً باتجاه العريش على البحر الأبيض المتوسط ضامّة أجزاء من شبه جزيرة سيناء المصرية. واعتبرت الحركة الصهيونية ذلك تصوراً واقعياً يلبي الاحتياجات الضرورية لإنشاء الوطن اليهودي[2].

وحتى احتلال البريطانيين لفلسطين سنة 1918، لم يكن هناك ما يمكن التفاوض عليه، فاليهود كانوا 55 ألفاً أي 8% من السكان ولا يملكون أكثر من 2% من أرض فلسطين. وعندما أخذ المشروع اليهودي - الصهيوني في النمو في فلسطين بدرجة خطيرة، خصوصاً في الثلاثينيات من القرن العشرين، وعندما قام أبناء فلسطين بالثورات تلو الثورات دفاعاً عن أرضهم واستقلالهم، وعندما وجد الاحتلال البريطاني نفسه أمام مأزق الاستمرار في المشروع الصهيوني، وبالتالي إلحاق خسائر باهظة به في الجنود والأموال نتيجة الثورات التي ربما تؤدي إلى خروجه كمستعمر وإسقاط المشروع الصهيوني نفسه، فإن البريطانيين فضلوا التفكير في حلول "وسط" تضمن إنشاء كيان يهودي ولو على أجزاء من فلسطين ...، ومنذ تلك الفترة كرَّت سلسلة مشاريع واقتراحات التسوية اليهودية والعربية والدولية والتي تجاوزت بضعة مئات إلى وقتنا هذا. وسوف نستعرض هنا المشاريع التي اتخذت طابعاً جدِّياً ولقيت تطبيقاً أو اهتماماً من الأطراف المختلفة، أو شكّلت تطوراً في المواقف السياسية لمختلف الأطراف.

مشروع بيل لتقسيم فلسطين سنة 1937[3]:

بيل Peel هو اسم رئيس اللجنة الملكية التي عينتها الحكومة البريطانية سنة 1936 نتيجة المرحلة الأولى من الثورة الكبرى التي حدثت في ذلك العام والتي أجبرت بريطانيا لأول مرة على إعادة النظر في مشروعها الاستعماري - الصهيوني في فلسطين. وقد وصلت اللجنة إلى فلسطين في 12 نوفمبر 1936 واستمرت تحقيقاتها ستة أشهر، وقدمت تقريرها وتوصياتها في 7 يوليو 1937 في مجلد من أكثر من 400 صفحة يُعدُّ في حد ذاته مرجعاً في تاريخ فلسطين الحديث، على الأقل من وجهة النظر البريطانية.

وقد توصلت اللجنة إلى حقيقة تعارض صك الانتداب البريطاني على فلسطين، الذي يتعهد بمساعدة الشعب الموضوع تحت الانتداب (الفلسطينيون) على ترقية نفسه والوقوف على قدميه، ويتعهد في الوقت نفسه بوضع فلسطين تحت ظروف تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي. واعترفت اللجنة أن الفلسطينيين قادرين على حكم أنفسهم بأنفسهم، وكذلك اليهود. ورأت أن استمرار الانتداب يعني استمرار الثورة والاضطراب. ولذلك أوصت بتقسيم فلسطين إلى دولتين: دولة يهودية تتضمن جميع مناطق الجليل ومرج ابن عامر في شمال فلسطين (بما فيها صفد وطبريا وبيسان وحيفا وعكا ..) والسهل الساحلي الممتد من شمال فلسطين إلى نحو 25 كيلومتر جنوبي تل أبيب، أما مناطق القدس وبيت لحم والناصرة مع ممر يصل القدس بيافا فتبقى تحت الانتداب. ويتم توحيد باقي أرض فلسطين مع شرق الأردن.

وقد رفض الفلسـطينيون بشـكل مطلق هـذا المشـروع، واسـتأنفوا بشكل أشد وأعنف المرحلة الثانية من الثورة الكبرى. أما اليهـود، فقد رفضت قيادة الحركة الصهيونية ما قالته لجنة بيل من أن الانتداب غير عملي، كما رفضت الحـدود المقترحـة، لكنها فوضت لجنتها التنفيذية للـدخول في مفاوضـات مع بريطانيا للتحقق من خطة التقسـيم، ثم إحالتها إلى مؤتمر صهيوني جديد لإصدار قرار بشأنها[4].

الكتاب البريطاني الأبيض مايو 1939[5]:

واشـتهر كـذلك باسم كتـاب مكدونالد الأبيض على اسم وزير المستعمرات البريطاني مالكوم مكدونالد. وقد صدر هذا الكتاب بعد أن اشـتعلت الثـورة في فلسـطين مـرة أخـرى بشـكل أكـثر قـوة وعنفـاً، وتمكنت من احتلال الريف الفلسـطيني، وشَـغَلَت قـواتٍ بريطانية ضـخمة في قمعها وسـحقها، في وقت كـانت بريطانيا فيه بـأمس الحاجة لقواتها مع تصـاعد نُـذُر الحـرب العالمية الثانيـة. كما جـاء إثر التقرير السـلبي للجنة وودهيد الـتي عينتها بريطانيا لبحث التطبيقـات العملية لمشـروع التقسـيم الـذي قدمته لجنة بيـل، وكـذلك بعد فشل مباحثات مؤتمر لندن بين الوفـود العربية وبريطانيا واليهـود (فـبراير - مارس 1939). ويبدو أن الآراء وسط البريطانيين أخـذت تتزايد - نتيجة الثورة - بأن فلسطين لم تعد تستطيع أن تستوعب أكثر مما استوعبت من اليهود وإلا أخلَّت بحقوق غـير اليهـود، وأن بريطانيا وفَّت إلى هـذا الحد بما عليها تجاه وعد بلفـور. واعـترف مكدونالد وغـيره بقـوة حجة العـرب ومظلمتهم. وكـانت أبـرز نقـاط هـذا الكتـاب، الـذي تعهـدت بريطانيا بتنفيذه بغضِّ النظر عن قبول العرب واليهود أو رفضهم:

1. أكد أن بريطانيا غير عازمة على إقامة دولة يهودية في فلسطين.

2. سوف تقام بعد عشر سنوات دولة فلسطينية، يتقاسم فيها العـرب واليهود المسئولية والسلطة بما يحقق مصالح الطرفين.

3. تحديد الهجرة اليهودية خلال الخمس السـنوات التالية بعشـرة آلاف مهاجر سنوياً بالإضـافة إلى 25 ألفـاً يسـمح لهم فـوراً بـالهجرة. وبعد هجرة هؤلاء (الـ75 ألفاً) تتوقف الهجرة اليهوديـة، ولا تتم إلا بموافقة العرب، وبشرط ألا يزيد اليهود عن ثلث السكان.

4. وقف بيع الأرض نهائياً لليهود في فلسطين إلا في مناطق محـددة، وضـمن شـروط لا تضر بالفلسـطينيين حسب رأي المنـدوب السـامي البريطاني.

شكَّل هذا الكتاب انتصاراً سياسياً مرحليـاً للعـرب، لكن معظم القيـادة الفلسـطينية رفضت المشـروع لشـكِّهم أساسـاً في حقيقة الوعـود والنوايا البريطانيـة، ولأنه ربط اسـتقلال فلسـطين بمـدى موافقة اليهـود وتعـاونهم، وليس مثلاً بمجلس تشـريعي منتخب، مما يعـني عملياً تعطيل الاستقلال. كما أن الكتاب لم يَعِد بإصـدار عفو عـام على الثـوار. ورأى الفلسـطينيون أنه ما دامت بريطانيا مُصـرَّة على تنفيذ المشـروع، فليس من الحكمة الموافقة المبكـرة عليـه، والـزمن كفيل بكشف مدى جديتها[6].

أما الصـهاينة فأصـيبوا بانتكاسة وصـدمة كبـيرة، واتهمـوا بريطانيا بخيـانتهم، وقـرروا إسـقاط الكتـاب الأبيض بـأي ثمن، وهـاجمت بعض

عصاباتهم القوات البريطانية داخل فلسطين. لكن الصهاينة كانوا مضطرين للوقوف مع بريطانيا - على أي حال- في الحرب العالمية الثانية، ولذلك قال زعيمهم في فلسطين (بن جوريون): "سنحارب مع بريطانيا في هذه الحرب كما لو لم يكن هناك كتاب أبيض، وسنحارب الكتاب الأبيض كما لو تكن هناك حرب"!![7]

مشروع تقسيم فلسطين حسب قرار الأمم المتحدة 181 لسنة 1947:

استغل اليهود الصهاينة أجواء الحرب العالمية الثانية استغلالاً كبيراً، وسعوا إلى استثمار التعاطف الذي نشأ بسبب المذابح التي ارتكبها هتلر ضدّهم، والتي تم تضخيمها وتهويلها بشكل عظيم، مؤكدين أن لا بديل لنجاتهم إلا بإقامتهم في وطن قومي خاص بهم. وحوَّل اليهود مركز نفوذهم إلى القوة العظمى الصاعدة الولايات المتحدة، وحصلوا على دعم الحزبين الجمهوري والديموقراطي لإلغاء الكتاب البريطاني الأبيض لعام 1939. وأظهر الرئيس الأمريكي الجديد "ترومان" تعاطفاً أكبر مع الصهيونية. وفي جو من الضغط الأمريكي - اليهودي والضعف العربي، قام البريطانيون بالتخلي رسمياً عن الكتاب الأبيض في البيان الذي أصدره وزير الخارجية بيفن Bevin في 14 نوفمبر 1945. وتشكلت لجنة أنجلو - أمريكية (بتوصية من بيان بيفن) للتحقيق في قضية فلسطين، مما أدخل أمريكا بشكل مباشر في القضية، وقد أوصت اللجنة بهجرة مائة ألف يهودي، وبحرية انتقال الأراضي وبيعها لليهود[8].

وعرضت بريطانيا في مؤتمر لندن 10 سبتمبر - 2 أكتوبر 1946 مشروعاً اتحادياً "مشروع موريسون" ويتضمن تقسيم فلسطين لأربعة مناطق إدارية:

1. منطقة يهودية
2. منطقة عربية
3. القدس
4. النقب

بحيث تمنح المنطقتان العربية واليهودية استقلالاً ذاتياً. وقد رفض العرب المشروع وأسقطوه[9].

بعد ذلك، قررت بريطانيا أن ترفع قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة بحجة أنها قررت إنهاء انتدابها على فلسطين[10].

فدعت في 2 إبريل 1947 الأمم المتحدة لعقد دورة استثنائية. وبعد مناقشات مسهبة قررت الجمعية العامة في 15 مايو 1947 تأليف اللجنة الخاصة للأمم المتحدة بشأن فلسطين (انسكوب UNSCOP) وتألفت من 11 دولة هي: استراليا - كندا - تشيكوسلوفاكيا - جواتيمالا - الهند - إيران - بيرو - السويد - الأورجواي - يوجوسلافيا - هولندا. ومهمة اللجنة التحقيق في قضية فلسطين، ورفع تقرير للجمعية العامة وتقديم الاقتراحات التي تراها ملائمة لذلك. وعقدت الانسكوب 16 اجتماعاً عاماً، و36 اجتماعاً خاصاً بين 26 مايو و31 أغسطس 1947، واستمعت لبيانات سلطات الانتداب البريطاني وشهادات العرب واليهود. وأقرَّت في تقريرها أن العرب أكثر من ثلثي السكان وأنهم يملكون ما يزيد على 86% [النسبة الحقيقية أكبر وهي 93.5%]من أرض فلسطين، وأنهم بموجب حقهم الطبيعي القانوني توّاقون للحصول على استقلالهم الناجز.

وتضـمن تقرير اللجنة توصـيات وافق عليها أعضـاؤها بالإجمـاع وهي: إنهـاء الانتـداب البريطـاني، واسـتقلال فلسـطين على أن تسـبق ذلك مرحلة انتقالية، تكون السلطة في أثناءها مسئولة أمام الأمم المتحدة، مع بقاء الصبغة الدينية للأماكن المقدسة.

وانقسم الأعضاء في تفصيلات النقـاط الأخـرى فانقسـموا إلى أكثرية قدمت المشروع التالي:

1. تقسيم فلسطين إلى دولتين يربط بينها اتحاد اقتصادي.

2. تكـــون الدولة العربية على مســـاحة 42.88% من المســـاحة لأرض فلسطين ويسكنها 725 ألف عربي و10 آلاف يهودي.

3. تكـون الدولة اليهودية على مسـاحة 56.74%، وسـكانها 498 ألف يهودي و497 ألف عربي.

4. يوضع للقدس كيان مستقل خاضع لنظام دولي خاص، تتـولى الأمم المتحدة إدارته عبر مجلس وصاية (القدس والبلدان المجاورة حـتى أبو ديس شرقاً وبيت لحم جنوباً وعين كارم غرباً) وتضم 105 آلاف عـربي و100 ألف يهودي.

أما اقتراح الأقلية فقدمته إيـران والهند ويوجوسـلافيا، وتضـمّن إقامة دولة اتحادية عاصـمتها القـدس، تضم حكومـتين مسـتقلتين اسـتقلالاً داخلياً.

وامتنعت استراليا عن تأييد أيٍّ من الاقتراحين.

وفي 3 ســبتمبر 1947 جعلت الأمم المتحــدة من نفســها لجنة خاصة لبحث المشــروعين، حيث عقــدت 34 اجتماعــاً بين 25 ســبتمبر و25 نوفمبر 1947. ورفضت الجمعية العامة اقتراحــاً بـدعوة محكمة العـدل الدولية لتقرير صلاحية الأمم المتحدة في النظر في تقسيم فلسـطين بأغلبية 25 ضد 18 وامتنــاع 11. وبــالعكس صـوتت 21 دولة مقابل 20 على أن للأمم المتحدة صلاحية التوصـية بتطـبيق قـرار التقسـيم، دون حاجة لموافقة أكثرية شـعب فلسـطين!! وتعكس حالة التصـويت هـذه مخالفة الأمم المتحدة لأبرز مواثيقها التي قـامت على أساسـها، وهي حق الشعوب في تقرير مصيرها. وهذا انعكـاس طـبيعي لنفـوذ الـدول الكبرى، وعدم عضوية أغلبية دول العـالم الإسـلامي وإفريقيا في ذلك الـوقت في الأمم المتحـدة، لأنها كـانت ما تـزال تحت الاسـتعمار، مما يجعل للــدول الغربية ومن يــدور في فلكها فرصة أكــبر للنجــاح في التصويت.

وفي 25 نوفمبر 1947 وافقت اللجنة الخاصة على خطة التقســيم مع وحدة اقتصـادية بــ25 صـوتاً مقابل 13 وامتنـاع 17. واختلف مضـمون القــرار بــأن أنقص من المنطقة المخصصة للدولة اليهودية بجعله يافا وحــوالي 500 ألف دونم من صـحراء النقب من نصـيب الدولة العربية لتصبح النسب 54.7% للدولة اليهودية (14400كم2)، و44.8% للدولة العربية (11780كم2) ونحو 0.5% لمنطقة القــــــــدس. ورُفع الأمر للجمعية العامة لاتخــاذ قــرار يحتــاج إلى أغلبية الثلــثين الحاضــرين

المشـــتركين في التصـــويت. ولم تكن القـــوى الكـــبرى تملك أغلبية الثلثين، وكاد في يـوم 26 نوفمـبر أن يحـدث تصـويت، ولو تم لسـقط مشروع التقسـيم، لكن رئيس الجمعية منـدوب البرازيل أجَّل الجلسـة. وقام اليهـود والأمريكـان بحملة محمومة نجحت بمختلف الوسـائل في زيادة الأصوات المؤيـدة، فقد اسـتلمت زوجـات ممثلي أمريكا اللاتينية هـدايا كثـيرة معظمها ألمـاس ومعـاطف فـرو ثمينـة. وأمَـرت حكومة هايتي (التي كانت قد صوتت ضد التقسـيم) منـدوبها بالتصـويت معـه، بعد أن وعدتها أمريكا بالمساعدة الاقتصادية. واسـتخدم رجل الأعمـال الأمـريكي روبـرت ناثـان نفـوذه الاقتصـادي لشـراء صـوت جواتيمـالا، وهدّدت شركة فايرسـتون ليبيريا اقتصـادياً إن لم تتحـول من الامتنـاع إلى التأييـــد، وتعرضت الفليـــبين لضـــغوط شـــديدة، وتـــدخل رئيس جمهوريتها، فأمر مندوبه بالموافقة على القـرار. ووفق هـذه الألعـاب القـذرة تم تقرير مصـير أحد أقـدس وأطهر البقع في الأرض. تُـرى ما هو المنطق في أن يتقرر مصير شعب مسـلم وأرض مقدسة بنـاء على أن زوجة فلان من أمريكا اللاتينية حصلت على طقم ألماس أو معطف فرو!! أو لأن ليبيريا تخشى نفوذ شركة أمريكية!!

وفي يوم 29 نوفمبر 1947 فـاز قـرار التقسـيم بأغلبية 33 مقابل 13 وامتناع 10 (وكانت بريطانيا ضمن الممتنعين عن التصويت!!).

إن قرار الأمم المتحدة هذا من أغرب القرارات الدولية فقد:

1. صدر مخالفاً لأحد أهم أهـداف المنظمة الدولية وهو حق الشـعوب في تقرير مصيرها.

2. يفتقر إلى أي ســـند قـــانوني، فالجمعية العامة لا تملك ســـلطة التصـــرف في شـــئون الأقـــاليم الموضـــوعة تحت الانتـــداب، ومنها فلسطين. فقد أنشأت الأمم المتحدة نظام "الوصـاية" وكـان عليها أن تـدخل في مفاوضـات لوضع فلسـطين تحت الوصـاية، وتقـرر إنهـاء الانتـــداب على فلســـطين، إذا كـــان قد حقق أهدافه في تهيئة البلد للاستقلال.

3. ليس في ميثـاق الأمم المتحـدة أو أي هيئة رئيسـية فيه سـلطة تقسيم إقليم محدد دولياً خلافاً لرغبة سكانه.

4. هذا القرار يعد في الفقه الدولي - السائد في حينه - توصـية غـير ملزمة، صدرت وفق المادة العاشرة من ميثـاق الأمم المتحـدة، وهي لا يمكن أن تمس الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني.

5. قرار التقسـيم - جـدلاً - مخـالف للعـدل في التوزيع فلا هو راعى نسبة ملكية الأراضي (اليهود لا يملكـون أكـثر من 6.5%) ولا هو راعى نسبة السكان (اليهود 31.7%).

ورغم ذلك فإن مشروع التقسيم هذا قد اتخذ هالة كبـيرة وقـوة عملية لأنه يخدم الجانب اليهودي وأهداف القوى الكبرى. ومن الجدير بالـذكر أن الاتحاد السوفييتي أيَّد هذا القرار بقوة وعبأ أنصاره باتجاهه. ورغم أن اليهـود بـذلوا جهد المسـتميت لإنجـاح القـرار واسـتقبلوه بفرحة عارمة، إلا أن الكيان الصهيوني لم يعترف مطلقاً "بشكل رسمي" بهذا القرار، وتعامل معه كأمر واقع ومسـألة إجرائيـة. وسـعى بعد ذلك إلى تجاوزه بشن الحملات الحربية التي وسعت كيانه إلى 77% نتيجة حرب 1948، (وإلى احتلال كامل فلسطين سـنة 1967). وبعد انتهـاء حـرب

1948، لم تقم الأمم المتحدة أو القوى الكبرى بإلزام الكيان الصهيوني بالعودة للحدود المقترحة في قرار تقسيم فلسطين، وإنما سعت إلى تثبيت الحدود الجديدة وفق اتفاقيات هدنة عُقدت بين الجانب "الإسرائيلي" مع مصر في 24 فبراير 1949، ثم لبنان في 23 مارس ثم الأردن في 3 إبريل ثم سوريا في 20 يوليو 1949. وتعاملت القوى الغربية والعظمى مع الأراضي التي ضمها الكيان الصهيوني إليه بالقوة في أثناء الحرب بوصفها جزءاً لا يتجزأ من هذا الكيان. وهذا يظهر لامبالاة حقيقية بموضوع الحقوق وقرارات الأمم المتحدة عندما يتعلق الأمر بالفلسطينيين والعرب والمسلمين.

مشاريع التسوية السلمية 1948 - 1967:

كان القاسم المشترك لمشاريع التسوية في هذه المرحلة هو التعامل مع قضية فلسطين بوصفها قضية لاجئين، أي الشق الإنساني من الموضوع وليس السياسي. ففي 11 ديسمبر 1948 وبناء على مشروع بريطاني وافقت الأمم المتحدة على إصدار القرار 194 القاضي بوجوب السماح بالعودة للاجئين الفلسطينيين الراغبين في العودة إلى بيوتهم في أقرب وقت ممكن، ووجوب دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة إلى بيوتهم، وأن يتم تعويض أي مفقود أو مصاب بضرر من الجهة المسئولة عن ذلك. ويعني قرار العودة هذا أن:

1. العودة حق واجب التنفيذ.

2. وهي تتوقف على الاختيار الحر للاجئ.

3. وهي حق طبيعي وليس منّة من أحد.

4. ولا يجوز لأحد منع هذا الحق أو حجبه.

5. وأن عودته إلى وطنه هي عودة مواطن له كامل الحقوق المدنية والسياسية[11].

ومن الجدير بالذكر أن قرار حق العودة هذا قد جرى التأكيد عليه سنوياً في اجتماعات الأمم المتحدة، وصدر أكثر من 110 مرات حتى الآن، مع رفض "إسرائيلي" مستمر لتنفيذه، ودون أن تتحرك الأمم المتحدة بأي خطوة عملية لإلزام الكيان الصهيوني به. وقد كان قد تم تشريد 800 ألف فلسطيني من أصل 920 ألف كانوا يسكنون المنطقة التي استولى عليها الصهاينة. ويبلغ عدد هؤلاء الفلسطينيين نحو خمسة ملايين و100 ألف تقريباً (حسب سنة 2001).

وفي الوقت نفسه لم يستطع الفلسطينيون إنشاء الدولة العربية الخاصة بهم، إذ قام الأردن بضم الضفة الغربية رسمياً إليه بتاريخ 11 إبريل 1950، كما قامت مصر بوضع قطاع غزة تحت إدارتها.

وقد تضمن القرار 194 نفسه مادة تنص على تشكيل لجنة توفيق ومصالحة[12]بين الكيان الصهيوني والدول العربية. وتشكلت اللجنة من الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا، ودعت اللجنة في أواخر 1949 الكيان الصهيوني لقبول عودة 100 ألف لاجئ فلسطيني مقابل الحصول على صلح مع العرب، لكن الكيان الصهيوني رفض ذلك بشكل قاطع. وتعاونت الدول العربية مع لجنة المصالحة، لكن إصدار الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بيانها الشهير في 25 مايو 1950 بحماية

الحــدود "الإســرائيلية" القائمة (رغم أنها تحتل مســاحة إضــافية من فلسطين تقدر بحوالي 23%) كشف النوايا الحقيقية لهذه الدول، مما دفع الدول العربية لرفض مقترحات لجنة المصالحة المتعلقة بترتيبــات التسوية مع الكيان الصـهيوني. وقد عقـدت اللجنة مـؤتمراً في لـوزان بسويسـرا في 26 إبريل 1949 وكـان الكيـان الإسـرائيلي تحت ضـغط الحاجة إلى قبوله عضـــــواً في الأمم المتحـــــدة فوافق ووقع على "بروتوكول لوزان" الذي تضمن:

1. أن تكـون الخريطة الملحقة بقـرار تقسـيم فلسـطين هي أسـاس للمحادثات بشأن مستقبل فلسطين.

2. انسحاب "إسرائيل" إلى ما وراء حدود التقسيم.

3. تدويل القدس.

4. عــودة اللاجــئين وحقهم في التصــرف بــأموالهم وأملاكهم، وحق تعويض من لا يرغب بالعودة.

ولكن ما إن وافقت الأمم المتحــدة على عضـوية الكيــان الإســرائيلي فيها حتى تنكرّت "إسرائيل" لاتفاقية لوزان، ورفضت تنفيذ شروطها. وقد عطَّلت "إسرائيل" أي عمل للجنة متعلقٍ بتنفيذ التقسيم أو عــودة اللاجئين. وبدا واضحاً أن الموقف الصهيوني وجد هوى غير معلن لـدى لجنة المصــالحة الــتي تعمَّدت التقــاعس وإماتة الموضـوع، وافتقــرت لأدنى درجــات الجديــة، وســكتت ســكوتاً مريبــاً عن مصــادرة الكيــان الصــهيوني لأراضي اللاجــئين وأملاكهم. ومن الجـدير بالــذكر أن لجنة المصالحة هذه ظلَّت (من الناحية الرسمية) مشـكلة لعشـرات السـنين، وظــلّ تقرير الجمعية العامة للأمم المتحـدة يأسف سـنوياً لعـدم تمكن هذه اللجنة من إيجاد الوسائل لتحقيق أي تقدّم بشأن عـودة اللاجـئين، ويطلب منها أن تبذل جهوداً متواصلة من أجل ذلك (مثلاً قرار ب3419 في 8 ديسمبر 1975).

وفي إطار التعامل مع قضية فلسطين كقضية لاجـئين أُنشـئت "وكالة الأمم المتحدة لإغاثة اللاجـئين وتشـغيلهم (الأونـروا)" بنـاء على قـرار الجمعية العامة للأمم المتحـدة رقم 302 الصــادر في 8 ديســمبر[13]. وأخذ يتضح مع الـزمن أن مـزاج القـوى الكـبرى العـام يتجه نحو إيجـاد حلول اقتصادية لمصـاعب الحيـاة الـتي يواجهها اللاجئـون، وتـوطينهم حيث اســتقروا أو في أمــاكن أخـرى، وليس إعــادتهم إلى أرضــهم أو إعطــائهم حقــوقهم السياســية في الهوية الوطنية وتقرير المصــير والاستقلال.

وتوالت المشاريع التي تركز على قضية اللاجئين وعلى تحقيق تسـوية بين الــدول العربية والكيــان الصــهيوني، دونما إشــارة لإنشــاء كيــان سياسي فلسطيني. فكان هنـاك المشـروع الـنرويجي في 26 نوفمـبر 1952 الذي دعا إلى توقف الأعمال العدوانية والـدخول في مفاوضـات مباشرة بين الأطراف المعنية. وكان هنـاك مشـروع "جامـا" الأمـريكي 1955 - 1956، حيث يذكر مايلزكوبلاند أن روزفلت حصل على موافقة كل من بن جوريون وجمال عبد الناصر على عقد لقاء سـرِّي على متن يخت في البحر المتوسط. ولكن عبد الناصر أصَّر أن توافق "إسـرائيل" من حيث المبدأ على قبول عـودة الفلسـطينيين الراغـبين في العـودة وأن تحصل مصر على ممر يوصــلها بــالأردن، لكن المشــروع فشل لـرفض الجـانب الإسـرائيلي مناقشة أي تنـازلات من طرفـه. وهنـاك

مشروع جونسـتون الأمـريكي 1953 -ـ 1955 الـذي اسـتهدف تصـفية قضية اللاجئين وقضية فلسطين، عن طريق تعـاون الـدول العربية مع الكيان الإسرائيلي في اسـتثمار ميـاه نهر الأردن بطريقة تكفل تطـور المنطقة زراعيــاً، وتهيئة سـبل الاسـتقرار فيها للاجـئين، ولمزيد من المهاجرين اليهود. وقد رفض مؤتمر اللاجئين المنعقد في القدس في 20 مايو 1955 المشروع[14].

وهنـــاك مشـــروع دالاس وزير الخارجية الأمـــريكي الـــذي دعا في 26 أغسطس 1955 إلى إنهاء مشكلة اللاجئين بعـودتهم إلى وطنهم "إلى الحد الذي يكون ممكناً"، وبتـوطين البـاقي في المنـاطق العربية الـتي يقيمون فيها، ودعا إلى إجراءات جماعية لمنع أي حرب أو عــدوان بين دول المنطقــــة، وإلى تســــوية الحــــدود بين البلاد العربية والكيـــان الإسرائيلي[15].

وتعاونت مصر مع وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) خلال الفترة 1953 - 1955 في تنفيذ مشروع لتوطين لاجئي قطاع غزة في شمال غرب سيناء، وقد اتخذ المشـروع أبعـاداً مفصـلة وجديـة، غـير أنه لقي معارضة شـاملة وعنيفة من فلسـطينيي القطــاع، الــذين خرجــوا إثر الهجمة الصـهيونية على القطـاع في 28 فـبراير 1955 في تظـاهرات قوية تطالب بتشكيل جيش تحرير فلسطيني، وإيقاف مشـروع شـمال غرب سيناء، وإطلاق الحريات ... وتم إسقاط المشروع[16].

وفي 9 نوفمـبر 1955 طـرح رئيس الـوزراء البريطـاني أنتـوني إيـدن مشـروعه الـذي يـدعو إلى الوصـول إلى "صـيغة تسـوية" بين الموقف العربي الذي يطالب بحدود التقسيم عام 1947، والموقف الإسرائيلي المتمسك بحــدود الهدنــة. ورفضت "إســرائيل" المشــروع وقــال بن جوريون "إن غزو الـدول العربية لأرض فلسـطين في حـرب 1948 قد جعل كافة قـرارات هيئة الأمم المتحـدة حـول فلسـطين لاغية وباطلة بدون أية إمكانية لإعادتها إلى الحياة"[17].

وفي 15 يونيو 1959 صدر عن همرشـولد الأمين العـام للأمم المتحـدة مشـروع ركز على حل مشـكلة اللاجـئين بتـوطينهم واسـتيعابهم عـبر مساعدة الدول التي يتواجدون فيها اقتصادياً، رغم إشـارته إلى حقهم في العــودة. وقد رفض الفلســطينيون هــذا المشــروع بقــوة وأقــام ممثلــوهم في لبنــان المــؤتمر الفلســطيني الــذي عقد في 26 يونيو 1959، والــذي رفض تــذويب الفلســطينيين في اقتصــاديات الشــرق الأوسط[18].

وفي 2 أكتوبر 1962 قدَّم جوزيف جونسون رئيس مؤسسة "كارنيجي" للسلام العالمي مشروعه لحل مشكلة اللاجـئين بعد أن كلفته الحكومة الأمريكية سنة 1961 بدراستها، وأكد في مشـروعه على حق اللاجـئين الحر بالعودة أو التعويض، مشيراً إلى بعض آليات تنفيذ ذلك[19].

أما المشـروع العـربي الوحيد في تلك الفـترة الـذي يسـتحق الإشـارة باعتباره اختراقاً للإجماع العربي حول "السلام" مع الكيان الصـهيوني،

فكان المشروع التونسي الذي قدمه الحبيب بورقيبة رئيس تـونس في 21 إبريل 1965 وتضمن:

1. أن تعيد "إســرائيل" إلى العــرب ثلث المســاحة الــتي احتلتها منذ إنشائها لتقوم عليها دولة عربية فلسطينية.

2. يعود اللاجئون إلى دولتهم الجديدة.

3. تتم المصــالحة بين العــرب وإســرائيل بحيث تنتهي حالة الحــرب بينهما.

وقد رحب الكيان الإسرائيلي بمقترحات بورقيبة بوصفها اتجاهاً جديداً في التفكير العـربي، لكنه رفض التنـازل عن أي جـزء من الأرض الـتي استولى عليها. وقد قوبلت مقترحات بورقيبة باستهجان ورفض عربي شعبي ورسمي عارم[20].

وقد ردَّ "ليفي اشــكول" رئيس الــوزراء الصــهيوني على بورقيبة بمشروع تسوية أعلنه في 17 مـايو 1965 مبـنيٍ على تثـبيت الأوضـاع القائمة مع تعديلات طفيفـة، ومفاوضـات مباشـرة وإحلال سـلام دائم وتطبيع العلاقات مع البلاد العربية[21].

مشاريع التسوية 1967 - 1987:

أفــرزت حــرب يوليو 1967 حقــائق جديــدة على الأرض، فقد احتل الصهاينة ما تبقى من فلسطين (الضفة الغربية وقطـاع غـزة)، فضـلاً عن سيناء المصرية والجولان السورية. وكانت كارثة بحق، فقد تبخـرت ثقة الأنظمة العربية بقـدرتها على تحرير فلسـطين، كما تبخــرت ثقة الجمـاهير العربية بهـذه الأنظمـة. وتحـوَّل الشـغل الشـاغل للأنظمة العربية عن تحرير الأرض المحتلة عام 1948 إلى تحرير الأرض المحتلة سنة 1967، أو تحقيق أي تسوية سلمية تضمن "إزالة آثـار العـدوان"، أي عدوان 1967. وبالتالي تمكَّن الكيـان الصـهيوني من فـرض جـدول جديد لمشــاريع التســوية، تركِّز على أراضٍ لم تكن محتلة أصــلاً بحيث أصــبحت هي موضــوع المســاومة، وليسٍ أرض 1948 الــتي ضَــمن الصهاينة أن تخرج عن دائرة البحث ابتداء. ورغم أن مؤتمر قمة الـدول العربية الــذي انعقد في الخرطــوم في 29 أغســطس 1967 خــرج باللاءات الثلاث الشـهيرة "لا صـلح، لا مفاوضـات، لا استسـلام"، إلا أن ذلك كان اسـتجابة للحالة النفسـية للجمـاهير العربية المصـدومة الـتي تطالب بالثأر والانتقام، ولم يكن ذلك خطّاً أصـيلاً يـرفض على أساسه مشاريع التسوية، إذ إن الأنظمة العربية سـرعان ما سـتتعامل مع هـذه المشاريع. كما أنها لن تقوم بتنفيذ خطط عمل اسـتراتيجية تخـدم تلك الشعارات المعلنة.

وقد أصبحت مشاريع التسوية من الكـثرة بحيث يصـعب مجـرد سـردها، غير أن الإطار العام للمشـاريع العربية سـيتركز على انسـحاب الكيـان الصـهيوني من الأرض المحتلة سـنة 1967، والإطـار العـام للمشـاريع الإسرائيلية سـيتركز على إنهـاء حالة الحـرب وإقامة علاقة طبيعية مع البلاد العربية، مع إنكار حقوق الشـعب الفلسـطيني. أما الإطـار العـام للمشاريع الدولية فسيحاول الجمع بين الرؤيـتين العربية والصـهيونية، بحسب الجهة التي تقدم المشروع وطبيعة علاقتها بالطرفين.

مشروع آلون[22]:

بعد شهر واحد من حرب 1967 طرح وزير الخارجية الإسرائيلية إيجال آلون مشروعه الذي حظي بشهرة واسعة وتضمنت أفكاره:

1. الحدود الشرقية للكيان الإسرائيلي هي نهر الأردن وخط يقطع البحر الميت من منتصفه.

2. ضم المناطق الغربية لغور الأردن والبحر الميت بعرض بضعة كيلومترات إلى نحو 15 كيلومتراً، وإقامة مستوطنات صهيونية زراعية وعسكرية ومدنية فيها بأسرع ما يمكن، وإقامة ضواحي سكنية يهودية شرقي القدس.

3. تجنُّب ضم السكان العرب إلى الكيان الإسرائيلي قدر الإمكان.

4. إقامة حكم ذاتي فلسطيني في الضفة الغربية في المناطق التي لن يضمها الكيان الإسرائيلي.

5. ضم قطاع غزة للكيان الإسرائيلي بسكانه الأصليين فقط، ونقل لاجئي 1948 من هناك وتوطينهم في الضفة الغربية أو العريش.

6. حل مشكلة اللاجئين على أساس تعاون إقليمي يتمتع بمساعدة دولية. وتقوم "إسرائيل" بإقامة عدة قرى "نموذجية" للاجئين في الضفة وربما في سيناء.

ورغم أن آلون طرح مشروعه على حكومته إلا أنها لم تقم بمناقشته أو تبنِّيه رسمياً. ومع ذلك، فإن هذا المشروع أصبح بعد ذلك أساساً تنطلق منه معظم - أو كل - مشاريع التسوية الإسرائيلية حتى أواخر القرن العشرين مع بعض التعديلات أو الديكورات الطفيفة.

قرار مجلس الأمن 242 في 22 نوفمبر 1967[23]:

يعد قرار مجلس الأمن 242 من أهم المشاريع التي لا تزال تستند إليها كافة مشاريع التسوية إلى الآن. وقد قدَّمت بريطانيا هذا المشروع ووافق عليه مجلس الأمن الدولي بالإجماع. وكان مجلس الأمن قد انعقد في الفترة 9 ـ 22 نوفمبر 1967 واستمرت اجتماعاته 107 ساعات في 32 جلسة، قدمت فيها أربعة مشاريع: سوفييتي وأمريكي وبريطاني، ومشروع قدمته ثلاث دول هي الهند ومالي ونيجيريا.

أما نص القرار فنذكره لأهميته ولأنه الأكثر تداولاً حتى الآن:

"إن مجلس الأمن إذ يعرب عن قلقه المتواصل بشأن الوضع الخطر في الشرق الأوسط، وإذ يؤكد عدم القبول بالاستيلاء على أراض بواسطة الحرب، والحاجة إلى العمل من أجل سلام عادل ودائم تستطيع كل دولة أن تعيش فيه بأمن، وإذ يؤكد أن جميع الدول الأعضاء بقبولها ميثاق الأمم المتحدة قد التزمت بالعمل وفقاً للمادة الثانية من الميثاق:

أولاً: يؤكد أن تحقيق مبادئ الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ويستوجب تطبيق المبدأين التاليين:

أ. سحب القوات الإسرائيلية المسلحة من أراضٍ احتلت في النزاع الأخير.

ب. إنهاء جميع ادعاءات الحرب أو حالاتها واحترام السيادة والوحدة لأراضي كل دولة في المنطقة والاعتراف بذلك، وكذلك استقلالها

السياسي، وحقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها وحرة من التهديد أو أعمال القوة.

ثانياً: يؤكد أيضاً الحاجة إلى:

أ. ضمان حرية الملاحة في الممرات المائية الدولية في المنطقة.

ب. تحقيق تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

ج. ضمان المناعة الإقليمية والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة، عن طريق إجراءاتٍ بينها إقامةُ مناطق مجردة من السلاح.

ثالثاً: يطلب من الأمين العام تعيين ممثل خاص للذهاب إلى الشرق الأوسط كي يقيم ويجري اتصالات مع الدول المعنية بغية إيجاد اتفاق ومساعدة الجهود لتحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفقاً للنصوص والمبادئ الواردة في مشروع القرار هذا.

رابعاً: يطلب من الأمين العام أن يرفع تقريراً إلى مجلس الأمن حول تَقدُّم جهود الممثل الخاص في أقرب وقت ممكن".

ومن أبرز عيوب هذا القرار أنه:

- لا يعيِّن بوضوح الخطوط التي يجب أن ينسحب منها الكيان الإسرائيلي.

- يُقرُّ للكيان الإسرائيلي ما حازه من توسع غير قانوني قبل حرب 1967.

- لا يتناول جوهر "النزاع" وهو قضية فلسطين إلا من زاوية اللاجئين، أي أنه لا يتعرض للحقوق السياسية المشروعة للشعب الفلسطيني.

- يجعل الانسحاب "الإسرائيلي" رهناً بتحقيق شروط أخرى.

- تم حذف "ال" التعريف في النص الإنجليزي (The) ليصبح الانسحاب من "أراضٍ" وليس "الأراضي" التي احتلها الصهاينة. بمعنى أن الانسحاب لن يكون بالضرورة شاملاً من كل الأرض. أما النصين الفرنسي والإسباني فقد أبقيا على أداة التعريف، ولذلك ذكرت فرنسا والاتحاد السوفييتي ومالي والهند ونيجيريا قبل الموافقة على القرار أنها تفهم أن الانسحاب سيكون شاملاً. وبالطبع، فإن الكيان الإسرائيلي والأمريكان يرفضون الرجوع إلّا إلى النص الإنجليزي.

وفي الفترة 9 -ـ 12 ديسمبر 1981 أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة عدة قرارات كان من ضمنها أن قرار 242 لا يؤمن مستقبل الشعب الفلسطيني وحقوقه الثابتة، وأكدت حقه في العودة وتقرير المصير والاستقلال الوطني والسيادة الوطنية .[24].

وقد رفضت م.ت.ف وكل المنظمات الفدائية الفلسطينية قرار 242 حين صدوره لأنه يعني "تصفية القضية الفلسطينية تصفية نهائية". كما رفضت سوريا والعراق والجزائر هذا القرار، أما الأردن ومصر فقد وافقتا على القرار[25].

وقد عينت الأمم المتحدة جونار يارنج (سفير السويد في موسكو) مبعوثاً خاصاً لها لمتابعة تنفيذ هذا القرار، وقد قام بعدة جولات واتصالات على مدى يزيد عن ثلاث سنوات ..، حيث ركزت المطالب العربية على اشتراط أن أيَّ تسوية سلمية تعني العودة إلى حدود ما قبل حرب 1967 مع عودة اللاجئين. أما الكيان الإسرائيلي فركز على الدخول في محادثات سلام دون شروط مسبقة، كما عرض انسحابات من سيناء بشرط أن تكون منزوعة السلاح وأن يبقى شرم الشيخ بيده، وعرض انسحابات من أجزاء من الضفة الغربية، لكنه رفض إعادة قطاع غزة والجولان، وأصر على بقاء القدس الموحدة (الشرقية والغربية) جزءاً من الكيان الإسرائيلي، مع رفض إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية. وهذا ما تم عرضه في مشروع إسرائيلي عرف باسم رئيسة وزرائها "مشروع جولدا مائير" في 9 فبراير 1971. وفشلت في النهاية مهمة يارنج، رغم كثرة المشاريع المتبادلة بين الطرفين[26].

مشروع روجرز 25 يونيو 1970:

وليم روجرز هو وزير الخارجية الأمريكي، وقد طرح مشروعاً على الأردن ومصر والكيان الإسرائيلي يستند أساساً إلى تنفيذ قرار 242، وإقامة مباحثات للتوصل إلى اتفاق سلام "عادل ودائم" على أساس الاعتراف بالسيادة وسلامة الكيان الإقليمي لكل طرف واستقلاله السياسي.

وافقت مصر في 23 يوليو والأردن في 26 يوليو 1970 على مشروع روجرز. وقد رفضته "إسرائيل" في البداية، لكنها عادت تحت الضغط الأمريكي فأبدت موافقة متحفظة في 6 أغسطس 1970. وقد أحدثت موافقة مصر والأردن انشقاقاً في الصف العربي، وهاجمته م.ت.ف وفصائلها الفدائية بشدة لأنه يعني التنازل نهائياً عن هدف تحرير فلسطين وإنكار حقوق الشعب الفلسطيني. غير أن الكيان الإسرائيلي نفسه حاول التهرب وإفشال المشروع لأنه يتضمن انسحاباً من بعض الأراضي، ثم إن الأردن انشغل بتصفية العمل الفدائي في الأردن في سبتمبر 1970، كما توفي جمال عبد الناصر في الشهر نفسه، مما جمّد هذه المبادرة عملياً[27].

مشروع المملكة العربية المتحدة 1972:

بعد أن تمكنت السلطات الأردنية من السيطرة تماماً على الأوضاع وتصفية التواجد الفدائي الفلسطيني (أيلول / سبتمبر 1970، وتموز / يوليو 1971)، أعلن الملك حسين في خطاب له في 15 آذار / مارس 1972 مشروع "المملكة العربية المتحدة". وهو مشروع جاء استثماراً من السلطات الأردنية لما بدا انتصاراً على م.ت.ف والفصائل الفلسطينية، وجزءاً من "المعركة" بينهما على تمثيل الفلسطينيين أو جزء منهم.

تلخص برنامج "المملكة العربية المتحدة" في أن تتكون هذه المملكة من قطرين فلسطين (الضفة الغربية وأي جزء يتم تحريره أو يرغب بالانضمام) والأردن، ويرتبط القطران بوحدة فدرالية تحت سلطة الملك. وهناك سلطة تنفيذية مركزية يتولاها الملك ومعه مجلس وزراء مركزي. وهناك سلطة تشريعية مركزية يتولاها الملك ومعه "مجلس

الأمـة" ينتخب أعضـاؤه بـالاقتراع السـرِّي المباشر وبعـددٍ متسـاوٍ من الأعضـاء لكل من القطـرين. ولكل قُطر حـاكم عـام من أبنائه ومجلس وزراء قُطــري من أبنائه أيضـاً، وله ســلطة تشــريعية خاصة به هي "مجلس الشـعب". وللمملكة قـوات مسـلحة واحـدة قائـدها هو الملك[28].

ولم يكتب لهــذا المشــروع النجــاح، فالضــفة الغربية تحت الاحتلال "الإســرائيلي" الــذي لا يــرغب بالانســحاب. كما كــان لــ م.ت.ف والمنظمات الفدائية تواجد وتأييد قوي في الساحة الفلسـطينية يمكن أن يعطِّل هذا المشروع. وقد رفضت م.ت.ف وكافة فصائلها المشروع الأردني، وعقد المجلس الوطــني الفلســطيني لــ م.ت.ف دورة اسـتثنائية في نيســان / إبريل 1972 وانعقد بموازاته مـؤتمر شـعبي حضـره نحو 500 شـخص يمثلـون بشـكل واسع الأوسـاط الفلسـطينية حيث تم رفض المشروع[29].

قرار مجلس الأمن 338 (سنة 1973):

أصـدر مجلس الأمن هـذا القـرار في 22 تشـرين أول / أكتـوبر 1973 والذي على أساسه توقفت حرب تشرين / أكتوبر 1973 الـتي خاضـتها مصر وسوريا ضد الكيـان الإسـرائيلي. وقد دعا إلى البـدء فـوراً بتنفيذ قــرار مجلس الأمن 242 بجميع أجزائــه، وإلى عقد مفاوضــات تحت الإشراف الملائم بهدف إقامة سلام عادل ودائم في الشـرق الأوسط[30]. ووافقت مصر وســوريا والأردن على القــرار، كما وافقت عليه "إسرائيل" بشيء من التحفظ، بينما رفضته م.ت.ف مؤكدة أنها ليست معنية بـه، وأنها سـتتابع الكفـاح المسـلح والجمـاهيري "ضد الكيـان الصــهيوني من أجل تحرير الــوطن، وحق شــعبنا في تقرير مصــيره بنفسه وعلى أرضه"[31].

وبنـاء على قـرار 338 فقد انعقد في جـنيف مـؤتمر السـلام للشـرق الأوسط في 21 ـ 22 كانون أول / ديسـمبر 1973. وقد وضع الكيـان الصــهيوني تعقيــدات كبــيرة في وجه التنفيذ الفعلي للقــرار، رغم مشــاركته في المـؤتمر. وقد شــاركت فيه مصر والأردن بينما رفضت سـوريا المشـاركة. ولم يتمخض عن هـذا المـؤتمر شـيء عملي سـوى تشـكيل لجنة عسـكرية، تـولت فك الاشـتباك بين القـوات المصـرية والصهيونية على جانبي قناة السويس[32].

الفلسطينيون وحق تقرير المصير في الأمم المتحدة[33]:

شهدت منتصف السبعينيات من القـرن العشـرين نجاحـات دبلوماسـية فلسـطينية كبـيرة على صـعيد الأمم المتحـدة باتجـاه إقـرار الحقـوق المشروعة للشعب الفلسطيني وعلى رأسـها الحق في تقرير المصـير والاستقلال.

وكانت الأمم المتحدة قد أشـارت لأول مـرة للفلسـطينيين باعتبـارهم شـعباً في قرارها 2535/أ،ب،ج الصـادر في 10 كـانون أول / ديسـمبر 1969 عندما ذكرت لأول مرة "حقـوق شـعب فلسـطين الثابتـة". وفي نهاية 1970 اعترفت الأمم المتحدة لأول مرة بحق شعب فلسطين في تقرير مصيره، وعدَّت ذلك عنصـراً لا غـنى عنه في إقامة سـلام عـادل

ودائم في الشرق الأوسط. وقد اتخذ هذا القرار بأكثرية غير كبيرة من 47 ضد 22 وامتنـاع 50. ثم أخـذت قـرارات الأمم المتحـدة تـزداد قـوة ووضـوحاً وتأييـداً عالميـاً. كما في القـرارين: 2787، و2792/د في 6 كانون أول / ديسمبر 1971، وقرار 2963/هــ في 13 ديسـمبر 1972، وقرار 3089/ج، د في 7 كانون أول / ديسمبر 1973.

ويُعدُّ قرار 3210 في 14 تشرين أول / أكتوبر 1974 تطـوراً ذا أهميـة، إذ اعتبر أن الشعب الفلسطيني هو الطرف الأساسي المعـني بقضـية فلسطين. وقرّر دعوة م.ت.ف "الممثلة للشعب الفلسطيني للاشتراك في مـداولات الأمم المتحـدة"، وصـوَّت مع القـرار أغلبية سـاحقة من 105 ضد 4 وامتنـاع 20. ودُعي أبو عمـار ياسر عرفـات لإلقـاء خطـاب م.ت.ف في الأمم المتحدة حيث ألقى كلمته في منتصف تشرين ثاني / نوفمبر 1974، والتي لقيت اهتماماً وتجاوباً عالمياً كبيراً.

وصدر إثر ذلك "قرار تاريخي" للأمم المتحدة يحمل رقم 3236 في 22 تشرين الثاني / نوفمبر 1974 بأغلبية 89 صـوتاً مقابل 8 وامتنـاع 37، ويحمل هـذا القـرار عنـوان "حقـوق الشـعب الفلسـطيني" وفيه يؤكد الحقوق الثابتة لشعب فلسطين، وخصوصاً:

- الحق في تقرير مصيره دون تدخل خارجي.
- الحق في الاستقلال والسيادة الوطنية.
- الحق في عودة اللاجئين، والمطالبة بإعادتهم.
- الاحترام الكلي لحقـوق الشـعب الفلسـطيني، وأنه أمر لا غـنى عنه لحل قضية فلسطين.
- أن الشعب الفلسطيني طـرف رئيسي في إقامة سـلم عـادل ودائم في الشرق الأوسط.
- حق الشعب الفلسطيني في استعادة حقوقه بكافة الوسائل، وفقــاً لمقاصد ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه.

وناشد القرار جميع الـدول والمنظمـات الدولية مـدّ يد العـون للشـعب الفلســطيني لاســترداد حقوقـــه، كما طلب من الأمين العـــام للأمم المتحـــدة أن يقيم اتصـــالات مع م.ت.ف في كل الشـــئون المتعلقة بقضية فلسطين.

وبمـوجب قـرار الأمم المتحـدة 3237 (22 تشـرين الثـاني / نوفمـبر 1974) مُنحت م.ت.ف مركز مـــراقب دائم في الأمم المتحـــدة. وفي الســنة التالية قـــررت الجمعية العامة تـــأليف لجنة من 20 دولة للبحث في ممارسة الشـــعب الفلســطيني لحقوقه الثابتة وفق قـــرار 3236 حيث تقوم اللجنة بتقديم تقرير سنوي حول ذلك.

وقد رفضت الجمعية العامة 1979 اعتمـــاد ما جـــاء في اتفاقية كـــامب ديفيد المصرية "الإسرائيلية" حول فلسطين. وفي 15 ديســمبر 1980 أصـدرت قرارها 35/169 أكـدت توصـياتها السـابقة في قـرار 3236، وطـالب مجلس الأمن الـدولي بوضع جـدول زمـني لانسـحاب الكيـان الإســرائيلي من الأرض المحتلة ســنة 1967، وتســليم الأرض للأمم المتحدة التي تسلمها بـدورها إلى م.ت.ف بالتعـاون مع جامعة الـدول العربية.

وتكمن أهمية هـذه القـرارات في تحـوّل قضـية فلسـطين من قضـية لاجئين إلى قضية شعب له الحق في تقرير مصيره وتحرير أرضـه، كما أنها ترفع الشرعية عن اغتصـاب الصـهاينة للأرض المحتلة سـنة 1967 بما فيها القـدس، فضـلاً عن حق الفلسـطينيين في العـودة للأرض المحتلة سـنة 1948. كما أصـبح للفلسـطينيين من يتحـدث باسـمهم باعتراف عربي ودولي باعتباره ممثلهم الشرعي الوحيد (أي م.ت.ف). ورغم أن هذا الأمر قد زاد من "إقليميـة" القضـية الفلسـطينية، إلا أنه جعل هـذه القضـية عصيَّة على التـذويب أو القفز عن حقـوق الشـعب الفلسطيني وفق أي تسوية قد تشارك بها أطراف عربية أخرى. ثم إن هـذه المكاسب السياسـية قد حققت تعاطفـاً دوليـاً واسـعاً، وعـزلت الكيـان الصـهيوني سياسـياً، بالإضـافة إلى قطع معظم دول العـالم علاقتها به.

غـير أن قـرارات الجمعية العامة للأمم المتحـدة لا تعـني شـيئاً كبـيراً، فهي مجـرد توصـيات، والجهة الوحيـدة القـادرة على إصـدار قـرارات ملزمة هي "مجلس الأمن" حيث إن من حق أيٍّ من الـدول الكـبرى الخمس (الولايات المتحدة، روسيا، بريطانيا، فرنسا، الصين) اتخاذ حق النقض "الفيتو Vito" ضد أي مشـروع لا يتوافق مع مصـالحها. وعلى ذلك، فقد كان الأمريكان جاهزين دائماً لاتخاذ قرار الفيتو ضد أي قرار يلـزم الكيـان الصـهيوني بـأيِّ أمر يـراه تنـازلاً أو إضـعافاً لخططه وبرامجه. وبـذلك تظل الأمم المتحـدة منـبراً دوليـاً للدعاية والعلاقـات العامة أكـثر من أيِّ شـيء آخـر، خصوصـاً عنـدما يتعلق الأمر بقضـية فلسطين.

م.ت.ف وبداية المسار السلمي:

كان المطلب الفلسطيني الشعبي والرسمي الـذي لا يقبل التنـازل أو المسـاومة هو تحرير فلسـطين كاملة من النهر إلى البحـر، وإخـراج المهاجرين اليهـود الصـهاينة منهـا. وقد أخذ هـذا الموقف بالتبـدل من الناحية الرسمية أو من ناحية متصدري العمل الفلسـطيني منذ 1968. إذ عرض أبو إياد صلاح خلف في 10 تشرين أول / أكتـوبر 1968 هـدف فتح الاسـتراتيجي وهو إنشـاء دولة ديموقراطية في فلسـطين يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود في مساواة تامة وتكافؤ كامـل. وهو ما تم تبنيه في م.ت.ف في المجلس الوطني الخامس في شباط / فبراير 1969[34]. ويعني ذلك أن الفلسـطينيين لم يعـودوا يُصّـرون على خـروج المهـاجرين اليهـود المعتـدين من فلسـطين، مهما كـان عددهم وسنة هجرتهم، مع إعطائهم حق المواطنة الكاملة فيها.

وإثر الخـروج الفـدائي الفلسـطيني من الأردن، والأوضـاع المحلية والدولية بعد حـرب تشـرين / أكتـوبر 1973، أقر المجلس الوطـني الفلسطيني برنامج النقاط العشر "البرنـامج السياسي المـرحلي" في دورته الثانية عشر في 1 ـ 8 حزيران / يونيو 1974 في القاهرة. وقد أفسح هذا البرنامج مجالاً هاماً للتحـرك السياسي الفلسـطيني، ووضع عبارات مبهمة تُهيِّئ لاحتمال المشاركة في التسويات السياسـية. فقد نصَّ ميثاق م.ت.ف على أن الكفـاح المسـلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، بينما ذكر برنـامج النقـاط العشر أن "منظمة التحرير تناضل بكافة الوسـائل وعلى رأسـها الكفـاح المسـلح، لتحرير الأرض الفلسطينية، وإقامة سـلطة الشـعب الوطنية المسـتقلة المقاتلة على

كلّ جزء من الأرض الفلسطينية التي يتم تحريرها". فلم يعد الكفاح المسلح طريقاً وحيداً للتحرير، كما وافق البرنامج لأول مرة على تجزئة مشروع التحرير خطوة خطوة، ورفض المنهج السابق الذي يؤكد على شمولية التحرير كأمر لا يقبل التنازل[35].

وقد أعطى هذا البرنامج انطباعاً لدى البلاد العربية والعالمية أن م.ت.ف قد أصبحت أكثر "إيجابية" وأكثر "واقعية"، وهو ما أعطى القيادة الفلسطينية مجالاً أكبر للمناورة السياسية. وقد تحققت نتائج ذلك عاجلاً في قمة زعماء الدول العربية في الرباط في تشرين أول / أكتوبر 1974 الذي اعترف بـ م.ت.ف ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني[36]، وفي دعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة لـ م.ت.ف للمشاركة في أعمالها، وإلقاء عرفات لخطابه فيها في 13 تشرين ثاني / نوفمبر 1974[37]. وحققت م.ت.ف العديد من المكاسب السياسية على منابر الأمم المتحدة.

غير أن الحملات العسكرية الشديدة التي تعرضت لها المنظمة في الأردن ولبنان وداخل فلسطين، مُترافقةً مع التوجه العربي، وخصوصاً المصري، نحو التسوية، قد أضعف من إمكانات التأثير العسكري الحاسم الذي يمكن أن تقوم به م.ت.ف وفصائلها ضد الكيان الصهيوني ...، وهو ما فتح المجال أكثر لمزيد من النشاط السياسي على حساب غيره من خطوط العمل. ولأن أي تسوية سياسية هي عملياً انعكاس لحالة موازين القوى، فقد تضاءلت مع الزمن قدرة م.ت.ف على فرض شروطها وتصوراتها، وأخذت تتنازل تدريجياً عن مطالبها، كما سنرى لاحقاً.

وقد ترافق التحرك السياسي مع تنازل متعلق بالاتصالات السياسية باليهود (وخصوصاً داخل فلسطين) والتي كانت تعدُّ قبل ذلك نوعاً من الخيانة. إذ سمح المجلس الوطني الفلسطيني الثالث عشر (القاهرة 12 -ـ 22 آذار / مارس 1977) بذلك مؤكداً على "أهمية العلاقة والتنسيق مع القوى اليهودية الديموقراطية والتقدمية المناضلة داخل الوطن المحتل وخارجه ضد الصهيونية كعقيدة وممارسة"[38].

اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر والكيان الإسرائيلي 1978[39]:

قام الرئيس المصري أنور السادات بزيارة مفاجئة إلى الكيان الإسرائيلي في 19 تشرين الثاني / نوفمبر 1977 وألقى خطاباً في الكنيست "الإسرائيلي" ودعا إلى تسوية سلمية. وبدأت بعد ذلك لأول مرة مفاوضات مصرية - "إسرائيلية" مباشرة وعلنية. وقد نتج عنها توقيع اتفاقيات كامب ديفيد في الولايات المتحدة في 17 أيلول / سبتمبر 1978 بين مصر (ويمثلها أنور السادات)، والكيان الإسرائيلي (ويمثلها مناحيم بيجين)، برعاية الرئيس الأمريكي جيمي كارتر. وقد دخلت الاتفاقية حيز التنفيذ في 26 آذار / مارس 1979. والاتفاقية مقسومة إلى وثيقتين الأولى تتناول أسس علاقة الكيان الإسرائيلي مع البلاد العربية ومستقبل الضفة الغربية والقطاع، وأما الثانية فتحدد أسس معاهدة السلام بين مصر والكيان الإسرائيلي. وقد استرجعت مصر بموجب هذه الاتفاقية أرض سيناء وفق شروط تضبط وجود قواتها فيها. ووافقت مصر على إقامة علاقة سلام دائم، وتطبيع العلاقات سياسياً واقتصادياً وثقافياً ... مع الكيان الإسرائيلي.

وفيما يتعلق بالشعب الفلسطيني فقد دعت إلى مشاركة ممثلي الشعب الفلسطيني في المفاوضات، واقترحت حكماً ذاتياً فلسطينياً في الضفة والقطاع بحيث يشترك في المفاوضات بشأنه وشأن مستقبله مصر والأردن و"الكيان الإسرائيلي" وممثلون عن الضفة والقطاع يضمهم في البداية وفدا مصر والأردن. وقد يضم الوفد فلسطينيين آخرين "وفقاً لما يتفق عليه" أي بمعنى أن للكيان الإسرائيلي حق رفضهم أو قبولهم. كما تضمنت التصورات التفصيلية التالية:

1. تكون هناك ترتيبات انتقالية بالنسبة للضفة والغربية وقطاع غزة لمدة لا تتجاوز خمس سنوات.

2. تنسحب الحكومة العسكرية "الإسرائيلية" وإدارتها المدنية بمجرد أن يتم انتخاب سلطة الحكم الذاتي من قبل السكان عن طريق الانتخاب الحر.

3. تتفاوض الأطراف (مصر، الأردن، ممثلو الضفة والقطاع، الكيان الإسرائيلي) بشأن اتفاقية تحدد مسئوليات الحكم الذاتي التي ستمارس في الضفة والقطاع.

4. سيكون هناك إعادة توزيع للقوات الإسرائيلية التي ستبقى في مواقع معينة، وستتضمن الاتفاقية ترتيبات لتأكيد الأمن الداخلي والخارجي والنظام العام.

5. ستتم المفاوضات وفق قرار مجلس الأمن الدولي رقم 242 بكافة أجزائه. وستعالج المفاوضات - من بين أمور أخرى - موضوع الحدود، وطبيعة الإجراءات الأمنية.

6. يجب أن يعترف الحل الناتج عن المفاوضات بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومطالبه العادلة.

7. سيشترك الفلسطينيون بتقرير مستقبلهم من خلال:

أ. يتم الاتفاق في المفاوضات بين مصر و"إسرائيل" والأردن وممثلي السكان في الضفة والقطاع على الوضع النهائي للضفة والقطاع والمسائل البارزة الأخرى بحلول نهاية المرحلة الانتقالية.

ب. يعرض الاتفاق على ممثلي الضفة والقطاع المنتخبين للتصويت عليه.

ج. تتاح الفرصة للمثلين المنتخبين عن السكان في الضفة وغزة لتحديد الكيفية التي سيحكمون بها أنفسهم تمشياً مع نصوص الاتفاق.

د. المشاركة في عمل اللجنة التي تتفاوض بشأن معاهدة السلام بين الأردن و"الكيان الإسرائيلي".

8. سيتم تشكيل قوة شرطة محلية قوية قد تضم مواطنين أردنيين، وستشترك قوات "إسرائيلية" وأردنية في دوريات مشتركة، وفي العمل على ضمان أمن الحدود.

9. وعندما يتم إنشاء سلطة الحكم الذاتي (مجلس إداري) ستبدأ المرحلة الانتقالية من خمس سنوات. وستتم بأسرع ما يمكن، وبما لا يزيد عن السنة الثالثة من بدء هذه المرحلة، المفاوضات النهائية لتقرير الوضع النهائي للضفة والقطاع وعلاقتها بغيرها، والوصول إلى معاهدة سلام بين الكيان "الإسرائيلي" وبين الأردن مع نهاية المدة الانتقالية.

10. سيتم اتخاذ كل الإجراءات التي تضمن أمن "إسرائيل" وجيرانها.

11. خلال المرحلة الانتقالية تشـــكل لجنة من الأردن ومصر وممثلو الضـفة والقطـاع و"إسـرائيل" للاتفـاق على مـدى السـماح بعـودة النازحين المطرودين من الضفة والقطاع سـنة 1967. وسـتعمل مصر و"إسـرائيل" والأطـراف الأخـرى المهتمة لوضع إجـراءات متفق عليها لتحقيق حلٍّ عاجل وعادل ودائم لمشكلة اللاجئين.

وقد ذكرنا تفصـيلات كـامب ديفيد لأنها أول تسـوية سـلمية متعلقة بفلسطين يتم الاتفاق عليها بين "الكيان الإسـرائيلي" وأحد الأطـراف العربية. ولأن اتفاق أوسلو مع م.ت.ف فيما بعد (سنة 1993) سيشكل النسخة المعدّلة - وربما المشوهة - لهذه الاتفاقية.

لقد أثارت هذه الاتفاقية أحد أشد حملات الرفض والاحتجاج في العالم العـــربي، وانطلقت المظـــاهرات في كل مكـــان معبَّرة عن ســـخط جماهيري شامل. واتّهم السادات بأشنع أوصـاف الخيانة وبيع الحقـوق العربيـة. وقـامت جماعة إسـلامية باغتياله في 6 أكتـوبر 1981، ولم تخف قطاعات واسعة من العرب والمسلمين فرحها بذلك و"شـماتتها" بـه. وفي مـؤتمر القمة العربية في بغـداد 1979 تمَّ قطع العلاقـات السياسـية مع مصـر، وجـرى عـزل مصر عن محيطها العـربي. كما تم تشكيل جبهة الصمود والتصـدي مع عـدد من الأقطـار العربية (سـوريا، العـراق، ليبيـا، الجزائـر، اليمن الجنـوبي، وم.ت.ف) لمواجهة مشـروع كـامب ديفيـد. وعـدَّت م.ت.ف في بيـان أصـدرته هـذا الاتفـاق "أخطر حلقات المؤامرة المعادية منذ عام 1948" وأنه يمثل "استسلاماً كـاملاً من جـانب السـادات لمشـروع منـاحيم بيجن" وأن السـادات أعطى "تسليمه بكامل شروطهم لتصفية القضية الفلسطينية والعربيـة" وأن "الاتفاق بيَّن تواطؤ السادات التام مع الأهـداف الصـهيونية، في إنكـار الحقـوق الوطنية الفلسـطينية بكاملهـا، وفي الاسـتعداد المشـترك لضرب القضية الفلسطينية أرضاً وشعباً وثورة تحت إشـراف وتخطيط الإمبريالية الأمريكيـة". وأكـدّ البيـان أن شـعب فلسـطين "لا يمكن أن يسـاوم أو يهـادن أي مشـروع تصـفوي على غـرار الحكم الـذاتي ..." وأنهم لا يمكن أن يقبلـوا أن يتقـرر مصـيرهم في "إطـار خيانة كـامب ديفيـد"[40]. ومن العجيب أن قيـادة م.ت.ف نفسـها سـتقوم بعد ذلك بخمسة عشر عاماً (إلا أربعة أيام) بالتوقيع على اتفاق شـبيه وسـتتهم خصـومها، بما اتهم به السـادات خصـومه، من عـدم الواقعية والجهـل، وســتزجُّ كل القـوى المعارضة والمجاهـدة في السـجون، وتتهمها بالوقوف ضد "المشروع الوطني"!!

وبـالطبع فقد سـقط الشق الفلسـطيني من اتفاقية كـامب ديفيد في ذلك الوقت لرفضه بالإجماع فلسطينياً، كما رفضته الأردن مما أفقـده أيَّة إمكانية عملية للتنفيذ.

مشروع خالد الحسن 1982:

قــــــدَّم خالد الحسن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، ورئيس لجنة العلاقـات الخارجية في المجلس الوطـني الفلسـطيني في 14 مـايو 1982 مشـروعاً سـماه أفكـار للنقـاش لحل النــزاع، حيث دعا إلى انسحاب الكيان الإسـرائيلي من الأراضي المحتلة سـنة 1967، وإقامة الدولة الفلسـطينية على تلك الأراضـي، وأن تكـون أحكـام الشـرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة هي المرجع القانوني[41].

والحسن بطرحه هـذا يقـترب كثـيراً من المشـروعات العربية - الـتي رفضتها م.ت.ف دائماً وبإصرار - التي تعترف ضمناً بالكيان الصهيوني وتقبل ما اغتصبـه من أرض سـنة 1948. وبالتأكيد فـإن طـرح الحسن (الذي ظهر وكأنه مشروعه الخاص) كـان يعكس حالة النقـاش الـدائرة في صفوف القيادة الفلسـطينية، وارتفـاع أصـوات التيـار "الـواقعي" المتراجع عن الثـوابت ضـمن م.ت.ف، وكـان أقـرب إلى بـالون اختبـار لجس نبض الشارع الفلسطيني والعربي وردود الفعل الدولية.

مشروع ريجان 1982:

مثَّل الاجتيـاح "الإسـرائيلي" للبنـان، وتـدميرُ معظم البنية التحتية لــ م.ت.ف، وإجبارُ نحو عشرة آلاف من مقاتليها على الخـروج من لبنـان في صيف 1982، مرحلةً جديدة في مسار التسوية السلمية. إذ وجدت القيادة الفلسطينية نفسها في تونس معزولة عن فلسـطين، محرومة من أي قاعـدة اسـتراتيجية أو لوجسـتية في دول المواجهة مع الكيـان الصـهيوني. وسـاعد هـذا الوضع على إيجـاد أجـواء عربية وفلسـطينية جديــدة تسـير باتجــاه متابعة منحـنى التسـوية الـذي اختطته مصـر. وأسـهمت حالة العجز العـربي وعـدم جدية أو فاعلية بـرامج المقاومة والتحرير الـتي تُعلنها في طـرح مشـاريع تسـوية تلقى قبـولاً وتبنيـاً رسمياً عربياً، وتتضمن التنازل عن أرض فلسطين المحتلة عام 1948، والتعايش السلمي مع الكيان الصهيوني.

كـان مشـروع الـرئيس الأمـريكي رونالد ريجـان الـذي أعلنه في 2 من ســبتمبر 1982 من أوائل المشــاريع الــتي طــرحت إثر الاجتيـــاح "الإسرائيلي" للبنان. وقد دعا إلى عدم تقسيم مدينة القدس والاتفاق على مستقبلها عن طريق المفاوضات. وتعهد بحماية أمن "إسـرائيل". ويبدو أن هذا المشروع كان مقدمة لاستثمار الظروف السياسية الـتي نتجت عن الاجتياح الإسـرائيلي للبنـان، وهو لا يختلف كثـيراً عن الشق الفلسطيني في اتفاقية كامب ديفيد[42].

مشروع السلام العربي (مشروع فاس) 1982:

وكـان في أصـله مشـروعاً طرحه الأمـير فهد بن عبد العزيز قبل أن يصبح ملكاً على السعودية، وقد تبناه مؤتمر القمة العربية المنعقد في مدينة فاس بالمغرب في 6 -ـ 9 أيلـول / سـبتمبر 1982، إثر الخـروج الفدائي الفلسطيني من بيروت. وقد تضمن النقاط التالية:

1. انسـحاب "إسـرائيل" من جميع الأراضي العربية الـتي احتلتها عـام 1967 بما فيها القدس.

2. إزالة المسـتوطنات الـتي أقامتها "إسـرائيل" في الأراضي المحتلة عام 1967.

3. ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان في الأماكن المقدسة.

4. تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بقيادة م.ت.ف، وتعويض من لا يرغب بالعودة.

5. إخضاع الضفة الغربية وقطاع غزة لمرحلة انتقالية تحت إشراف الأمم المتحدة لبضعة أشهر.

6. قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

7. يضع مجلس الأمن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة.

8. يقوم مجلس الأمن الدولي بضمان تنفيذ تلك المبادئ[43].

وقد مثَّل مشروع فاس الخط السياسي العربي العام الذي ساد حقبة الثمانينات. والذي يجمع بين الاعتراف الضمني بالكيان الإسرائيلي وإقامة الدولة الفلسطينية على الضفة والقطاع.

مشروع بريجينيف للسلام 1982:

وهو مشروع يمثل التصور السوفييتي للتسوية. وقد طرحه الرئيس ليونيد بريجينيف في 15 أيلول / سبتمبر 1982. وركز على حق شعب فلسطين في تقرير مصيره وإقامة دولة مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة بما فيها القدس الشرقية. وأكد على حق جميع دول المنطقة في الوجود والتطور السلميين والأمنيين، وعلى إنهاء حالة الحرب، وإحلال السلام بين الدول العربية و"إسرائيل"، وعلى إيجاد ضمانات دولية للتسوية[44].

وقد رحبت م.ت.ف والدول العربية بهذا المشروع الذي لا يختلف في جوهره عن مشروع فاس. قد أيَّد المجلس الوطني الفلسطيني السادس عشر المنعقد في الجزائر عن 22 شباط / فبراير 1983 مشروع فاس ومشروع بريجينيف، ورفض مشروع ريجان[45].

مشروع الكونفدرالية الأردنية - الفلسطينية 1984 - 1985:

طرح الملك حسين لدى افتتاحه الدورة السابعة عشر للمجلس الوطني الفلسطيني المنعقدة في عمَّان في 22 تشرين الثاني / نوفمبر 1984 الخطوط العريضة لمبادرة أردنية - فلسطينية مشتركة مبنية على قرار 242 كأساس للتسوية، وعلى مبدأ الأرض مقابل السلام، في إطار مؤتمر دولي تحت إشراف الأمم المتحدة.

وقد جرت مباحثات أردنية - فلسطينية مشتركة تم في ختامها إقرار الاتفاق الأردني - الفلسطيني في 11 شباط / فبراير 1985، وكان من أبرز أفكاره:

1. يتم التحرك الأردني - الفلسطيني على أسس الشرعية الدولية التي تمثلها قرارات الأمم المتحدة، التي تنص على الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني مع مراعاة قرارات 242 و338.

2. يجب أن تتم عملية السلام من خلال مؤتمر دولي تشارك فيه م.ت.ف.

3. الاعتراف بمبدأ السلام مقابل الأرض، وانسحاب "إسرائيل" الكامل من الأرضي المحتلة عام 1967، وحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

4. تكـون العلاقة المسـتقبلية بين الأردن وم.ت.ف علاقة كونفدرالية فيما إذا قامت الدولة الفلسطينية.

5. الاتفـاق أنه في حالة نجـاح مفاوضـات الملك فهد في واشـنطن وقبـول الإدارة الأمريكية بمقترحاتـه، أن تقـوم م.ت.ف بخطـوات متقدمة نحو الاقـتراح الأمـريكي القاضي بـالاعتراف المتبـادل (مع الكيان الإسرائيلي)[46].

عكس هذا الاتفاق تحسُّـن العلاقة بين م.ت.ف والأردن، والـتي شـابها التـوتر الحـاد معظم فـترة السـبعينيات. كما عكس اسـتجابة أكـثر من م.ت.ف للتعامل مع الضـغوط الدولية (الأمريكية و"الإسـرائيلية" بالـذات) الـتي تفضل التعامل مع قضـية فلسـطين من خلال البوابة الأردنيـة، فضـلاً عن تراجع م.ت.ف عن إصـرارها على إقامة الدولة الفلسـطينية المسـتقلة. وعلى أي حـال، فلم يكتب لهـذا المشـروع النجـاح إذ لقي معارضة فلسـطينية داخلية من بعض الفصـائل. وقـام الملك حسين بإيقاف المشروع في 19 شباط / فبراير 1986.

مشاريع التسوية 1987 - 2000

تُمثِّل هذه الفترة مرحلة دخول م.ت.ف فيما كانت ترفضه من قبل، وتعدُّه من المحرمات والكبائر. ولقد سارت الأنظمة العربية خطوات من التراجع والتنازل حتى وجدت نفسها في مربع التسوية الذي ذهب إليه نظام الحكم في مصر منذ أمد. وكيَّفت نفسها مع الشروط الأمريكية - الإسرائيلية للدخول في المفاوضات.

عانت م.ت.ف خلال 1986 -ـ 1987 حالة من الاستضعاف السياسي، وحالة متزايدة من محاولات التهميش. غير أن اندلاع الانتفاضة المباركة في 9 كانون أول/ ديسمبر 1987 وفَّر لها رافعة سياسية كبيرة، وكرَّس من جديد الهوية الفلسطينية. وأظهرت الانتفاضة الدور الريادي لأبناء الداخل في المقاومة (الذين تمسهم أساساً كل التسويات المطروحة) لتصفية القضية. وعادت الانتفاضة لتبرز من جديد الوجه القبيح للاحتلال الصهيوني، ومعاناة شعب يرزح تحت الاحتلال ويرفضه ويقاومه بكل ما لديه، حتى لو لم يكن ذلك بغير الحجارة. وتصدرت القضية الفلسطينية مرة أخرى جدول أعمال الأمم المتحدة والقوى الكبرى والبلاد العربية ووسائل الإعلام العالمية. وقد حاولت م.ت.ف اهتبال الفرصة لتقدّم نفسها طرفاً مقبولاً، ولا يمكن تجاوزه، لأية تسوية متعلقة بالقضية.

ولم تكن الرياح تجري بما تشتهي سُفُن المنظمة أو الشعب الفلسطيني، فقد كان هناك حالة عجز وتفكك عربي، وكانت العراق وإيران على وشك الخروج منهكتين من حرب الثمانية أعوام (1980 - 1988) التي دمرت اقتصادهما ومواردهما البشرية والمالية والعسكرية. وعانت البلدان النفطية من تراجع إيرادات النفط وانخفاض أسعاره. ثم ما لبث العالم العربي والإسلامي أن انقسم على نفسه إثر الاجتياح العراقي للكويت في 2 أغسطس 1990، وما تلاه من حرب الخليج التي أورثت وضعاً عربياً بائساً ممزقاً. ونضبت المساعدات المالية من البلاد الخليجية لـ م.ت.ف والفلسطينيين، بسبب استنزاف مواردها المالية في الحرب، وبسبب وقوف م.ت.ف إلى جانب العراق. فيما فرضت أمريكا هيمنتها وتوجهاتها على المنطقة. وفي الوقت نفسه انهار الاتحاد السوفييتي، وانهار معه النظام العالمي ثنائي القطبية الذي سيطر على السياسة الدولية طوال الفترة 1945 ـ 1990. وضعفت بالتالي قدرة دول العالم الثالث - وضمنها البلاد العربية والإسلامية - على الاستفادة من لعبة موازين القوى الدولية لخدمة مصالحها. وزادت صعوبة التحرر من الهيمنة الأمريكية التي أخذت تمثل القوة "البشرية" الكبرى الوحيدة، وسعت إلى تحويل العالم إلى نظام يدور حول قُطبها (أحادي القطبية) ويخدم مصالحها. وأصبحت "شرطي" العالم، وقدَّمت مفاهيمها ومعاييرها للسياسة والاقتصاد بل والثقافة والحياة الاجتماعية لتكون الأساس الذي يحكم العلاقات الدولية وحياة الناس. وزاد الأمر سوءاً، أن النفوذ اليهودي - الصهيوني تزايد بشكل كبير ومكشوف في الحياة السياسية الأمريكية، وخصوصاً في إدارة بيل كلينتون (يناير 1992 - يناير 2001) الذي كان في جزء طويل من حكمه وزراء الخارجية والدفاع والمالية والزراعة وحاكم البنك المركزي، ومدير الـ سي.آي.إيه CIA وسبعة من أعضاء مجلس الأمن القومي الأحد عشر .. كلهم من اليهود!! رغم أن نسبة اليهود في أمريكا لا تزيد عن 2.2% من كل السكان. وقد مثَّل

ذلك كله وضعاً مثالياً بالنسـبة إلى الكيـان الصـهيوني لعقد أي تسـوية سلمية.

مشروع السلام الفلسطيني (نوفمبر 1988):

حاولت م.ت.ف استثمار الانتفاضة المباركة سياسياً، فشـكلت القيـادة الوطنية الموحدة للانتفاضة لينضبط إيقـاع المقاومة مع إيقـاع تحركها السياسي. وصدرت عن بسام أبو شريف - المقرب من ياسر عرفـات - إحدى مؤشرات الاستعداد للتسوية والتنازل في الرسالة الـتي نشـرها في حزيران / يونيو 1988 ودعا إلى السلام والتعـايش مع "إسـرائيل". وقد أفـادت م.ت.ف من قـرار الأردن في 31 تمـوز / يوليو 1988 فك روابطه الإدارية والقانونية مع الضـفة الغربيـة، فأكـدت بـذلك تمثيلها الرسمي الوحيد لأهل الضفة الغربيـة. وقد سـعى الأردن من خلال فك روابطه مع الضفة إلى إفشال الاقتراحات والأفكـار الـتي كثُر الحـديث عنه "إسرائيلياً" والتي طرحت "الخيار الأردني"، وأن الأردن هي وطن الفلسطينيين، بل واجترأ بعضها ليتحدث عن إمكانية تغيير نظام الحكم في الأردن بحيث يتولى الحكم زعيم فلسطيني.

وعندما انعقد المجلس الوطني الفلسطيني التاسع عشر في 12 ـ 15 تشرين ثـاني / نوفمـبر 1988 تم وضع برنـامج فلسـطيني جديـد، بنـاء على نصـائح عربية وسـوفييتية، تَضَـمَّن تنـازلات جديـدة، على أمل أن تجعل من م.ت.ف طرفاً مقبولاً (أمريكياً وإسـرائيلياً) للـدخول في أية تسوية سياسية. وفي هذا البرنامج:

1. اعـترفت م.ت.ف رسـمياً لأول مـرة بقـرار تقسـيم فلسـطين إلى دولــتين عربية ويهودية رقم 181 الصــادر عن الأمم المتحــدة في 29 تشرين ثاني / نوفمبر 1947.

2. اعترفت م.ت.ف رسمياً لأول مرة بقرار مجلس الأمن الـدولي رقم 242 الصادر في 22 تشرين ثاني / نوفمبر 1967.

3. وكــان الاعــتراف بــالقرارين عند م.ت.ف ســابقاً من "الكبــائر" و"الخيانات" التي لا تغتفر.

4. وحـتى "يتجـرع" الفلسـطينيون عند م.ت.ف القـرارين السـابقين، فقد أعلن المجلس "استقلال فلسطين" الذي كان من الناحية الفعلية عملاً عاطفياً و"أملاً" أو "حلماً" لم تتراءى بداياته الأولى بعد. ولم تكن له أية إسقاطات حقيقية على أرض الواقع.

5. الدعوة إلى عقد مؤتمر دولي تحت إشراف الأمم المتحدة، بمشاركة القوى الكبرى، وجميع أطراف الصراع بما فيها م.ت.ف. وعلى قاعـدة قــراري مجلس الأمن 242 و338 والحقــوق المشــروعة للشــعب الفلسطيني وفي مقدمتها حقه في تقرير المصير.

6. انسحاب الكيان الإسرائيلي من الأراضي المحتلة سنة 1967.

7. إلغاء إجراءات الضم الإسـرائيلي للأراضي الفلسـطينية في الضـفة والقطاع وإزالة المستوطنات.

8. حل قضية اللاجئين وفق قرارات الأمم المتحدة.

9. وضع الضفة والقطـاع لفـترة محـددة تحت إشـراف الأمم المتحـدة، لتوفير مناخ مناسب لأعمال المؤتمر الـدولي، ولتسـهيل الوصـول إلى تسـوية سياسـية، ولتمكين الدولة الفلسـطينية من ممارسة سـلطتها الفعلية[47].

وبغض النظر عن الشـــكل الاحتفـــالي الـــذي ظهر فيه إعلان الدولة الفلسطينية، والتي اعترفت بها خلال بضـعة أشـهر نحو 120 دولة في العالم، فقد كان هذا المشروع مجرد اقتراب فلسطيني أكـثر من مُربَّع الشروط "الإسرائيلية". وهو اقتراب لم يجابه بأي اقتراب "إسـرائيلي" من المطالب الفلسطينية. لكن الولايات المتحدة كانت معنية بـالظهور كطــرف وســيط، وبــإغراء الطــرف الفلســطيني لتقــديم المزيد من التنازلات، فاعتبرت هذا المشروع بادرة إيجابية غير كافية. واسـتفادت أمريكا من مجمل الحالة العربية والدولية الـــتي تـــرى أن أوراق حل القضية الفلسـطينية بيد أمريكـا، والـتي دفعت م.ت.ف لإيجـاد السـبل لفتح البوابة الأمريكية لها.

وقد اشترطت الولايات المتحدة - منذ أمد طويـل- للـدخول مع م.ت.ف في أي حوار ثلاثة شروط، الأول: الموافقة على قرار 242، والثـاني: وقف العمليات العسـكرية ضد الكيـان الإسـرائيلي، والثـالث: إعلان نبذ "الإرهاب". وحتى يسترضي أمريكا، قـام عرفـات بـالتوقيع على وثيقة ستوكهولم في 7 كـانون أول / ديسـمبر 1988 الـتي تضـمنت اعترافـاً صـريحاً بالكيـان "الإسـرائيلي" وقـراري مجلس الأمن 242 و338 ونبذ "الإرهـاب". ولم يشـفع لعرفـات مشـروعه السـلمي وكل تنازلاته في الحصول على مجـرد "فـيزا" من الولايـات المتحـدة لإلقـاء خطـاب في مقر الأمم المتحـــدة في نيويـــورك، مما اضـــطر الأمم المتحـــدة لنقل اجتماعاتها إلى جنيف حيث ألقى عرفـات خطابه في 14 كـانون أول / ديســمبر 1988. وفي 15 من الشـــهر نفسه اضــطر عرفــات لإعــادة الاعتراف بعبارات صريحة محددة اشـترطتها أمريكا بنفسـها. وبعد ذلك بساعات أعلنت أمريكا فتح الحوار مع م.ت.ف، حيث بدأ في 16 كـانون أول / ديسمبر 1988 في تونس، ومثّل أمريكا فيه سـفيرها في تـونس روبرت بليترو[48]. غير أن هذا الحوار كـان أشـبه بـالتحقيق وجلسـات الاســتماع غــير المجديـــة، ولم يرتفع بمســـتواه ولا بجديته إلى درجة المفاوضات الحقيقية. لكنه ظـلّ "كـوّة" أمّلت م.ت.ف توسـيعها، بينما أمّل الجانب الأمريكي جرّ م.ت.ف إلى مزيد من التنازلات.

مشروع شامير للحكم الذاتي (مايو 1989):

لم يكن رئيس الوزراء الليكودي المتطرف إسحق شامير يرغب بتقـديم أية تنازلات للفلسطينيين، وكانت سياسته العامة بالتعـاون مع شـريكه في الائتلاف الحكـــومي حـــزب العمل هي القضـــاء على الانتفاضة وســحقها. غــير أن الانتفاضة شــوهت الوجه "الإســرائيلي" دوليــاً، وكشـفت زيف ادعاءاته وحقيقة احتلالـه. كما كـانت ظـاهرة الانبعـاث الإسلامي في العالم العـربي، وتنـامي التيـار الإسـلامي الجهـادي في فلسـطين، وظهـور الأنظمة العربية الصـديقة لأمريكا في وضع حـرج تجـــاه شـــعوبها، كل ذلك كـــان ظـــواهر مقلقة لأمريكا والكيـــان "الإسرائيلي". وهذا دفع أمريكا لتحريك عملية السلام، فكـانت مبـادرة جـــورج شـــولتز وزير الخارجية الأمـــريكي في النصف الأول من عـــام 1988 وهي أقرب إلى الشق الفلسطيني في اتفاقية كـامب ديفيد مع مصر. وعندما قام ياسر عرفات "بهجـوم السـلام الفلسـطيني" وقـدَّم مبادرة السـلام الفلسـطينية، اضـطرت حكومة شـامير لتقـديم مبـادرة "سلمية" تخرجها من زاوية الحرج السياسي، وتضع الكـرة مـرة أخـرى في الملعب الفلسطيني.

وقد قدّم شامير خطته في عشرين نقطة، واعتمــدتها حكومته في 14 أيار / مايو 1989، ووافق عليها الكنيست بعد أسبوعين من ذلك. ومثَّل مشــروع شــامير في جــوهره - مــرة أخــرى - الشق الفلســطيني من اتفاقية كامب ديفيد مع مصر. فدعا إلى انتخابات في الضفة والقطــاع (ما عدا القدس الشرقية) لاختيار فلسطينيين من غير أعضاء م.ت.ف، ليتفاوض معهم الكيــان الإســرائيلي حــول إقامة حكم ذاتي في مرحلة انتقالية مدتها خمس سنوات، يتم بعدها الاتفــاق على الوضع النهــائي[49].

وقد ضغطت أمريكا على م.ت.ف للموافقة على خطة شامير ، وهددت بتجميد الوضع السياسي. وقد رفضت المنظمة مشروع شامير لتجاهله الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني. ووجــدت م.ت.ف نفســها مــرة أخـــرى في مـــأزق سياســـي، لا تســـتطيع الخـــروج منه إلا بمزيد من التنازلات.

مؤتمر مدريد للسلام (أكتوبر 1991)[50]:

سعت الولايات المتحدة إلى اســتثمار حالة التمــزق والتشــرذم العــربي التي أعقبت حــرب الخليج، فــدعا الــرئيس الأمــريكي جــورج بــوش، بعد بضعة أيام من إجبار العــراق على الانســحاب من الكــويت، في 6 آذار / مـــارس 1991 إلى عقد مـــؤتمر دولي لتســـوية الصـــراع العـــربي - "الإسرائيلي". وقام وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر بست جولات مكوكية في الشرق الأوسط أثمــرت عن إقنــاع جميع الأطــراف بقبــول المشــاركة في مــؤتمر مدريد بعد أن قـــدَّم لهم عــدداً من التطمينـــات والضمانات الأمريكية. وكانت الــدعوة مبنية أساســاً على تطــبيق قــرار مجلس الأمن الدولي رقم 242.

وقد انعقد "مؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوســط" في 30 أكتــوبر 1991 برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي (الــذي كــان يعــاني حالة انهيـــــار وأفـــــول ألقت بظلالها على دوره الخـــــافت في عملية السلام)، وبحضــور أوربي شــكلي. وقد ألقى اختيــار مدريد بظلاله عند بعض الذين ربطــوا بين الأفــول الإســلامي في الأنــدلس، وما يمكن أن يحصل من أفول إسلامي في فلسطين نتيجة هــذا المــؤتمر. وشــاركت أكثر البلاد العربية في المؤتمر (مصر، الأردن، سوريا، لبنان، المغــرب، تونس، الجزائر، ودول مجلس التعاون الخليجي الستة). وتمكن الكيــان الصهيوني من فرض شروطه على التمثيل الفلســطيني، فتمَّ اســتبعاد المشـــاركة الرســـمية لـــ م.ت.ف في المـــؤتمر، وشـــارك ممثلـــون فلســطينيون عن الضـــفة والقطـــاع (بمباركة م.ت.ف) تحت الغطـــاء الأردني، وضمن وفد أردني - فلسطيني مشترك.

وقد ابتــدعت في هــذا المــؤتمر فكــرة الســير بمســارين في مشــروع التسوية:

- المسار الثنائي: ويشمل الأطــراف العربية الــتي لها نــزاع مباشر مع الكيان الإسرائيلي، وهي سوريا، والأردن، ولبنان، والفلسطينيين.

- المسار متعدد الأطراف: الــذي هــدف إلى إيجــاد رعاية دولية واســعة لمشروع التسوية، من خلال إشراك معظم دول العالم المؤثرة، وجميع

الأطراف الإقليمية والعربيـة. كما هـدف إلى إيجـاد تحـوّل في الأجـواء العامة في الشرق الأوسط بحيث يصبح الكيان الإسرائيلي كياناً طبيعياً في المنطقــة. كما نقل بعض القضــايا الحساسة إلى هــذا المســار لتخفيف العقبـات من طريق المسـار الثنـائي، مثل قضـايا اللاجـئين، والميــاه، والأمن والحد من التســلح، والبيئــة، والاقتصــاد والتعــاون الإقليمي، حيث شُكّلت خمس لجان لهذه القضايا.

واســتطراداً نشــير إلى أنه جــرت عــدة مــؤتمرات دوليــة، وكثــير من اجتماعات اللجان، لكن عدم تعاون الطرف "الإسرائيلي" إلا فيما يخدم مصـلحته كـان يجعل التقـدم في كثـير من الأمـور مسـتحيلاً وغـير ذي معــنى. فكــان الصــهاينة يســعون إلى إحــداث تقــدم في الجــوانب الاقتصــادية لكسر حـاجز المقاطعة مع الـدول العربية وبنـاء علاقـات سياسـية معهـا. بينما كـانوا يعطّلـون المسـارات الحساسة كـاللاجئين. وقد أخذ المسار متعـدد الأطـراف بـالتعثر بعد التكشف الصـارخ للنوايا "الإسرائيلية"، ومقاطعة سوريا ولبنـان لهـذا المسـار. أما في المسـار الثنـائي فقد حصـلت اتفاقـات سـلام فلسـطينية - "إسـرائيلية"، سـنة 1993، وأردنية - "إسرائيلية" سنة 1994، بينما ظل المساران اللبناني والسوري متعثرين.

وفي المسار الفلسطيني - "الإســرائيلي"، رأس الجـانب الفلســطيني حيدر عبد الشـافي وسـاعده مجموعة شخصـيات مثل فيصل الحسـيني وحنان عشـراوي وغـيرهم. وقد دخل في نحو سـنتين من المفاوضـات العقيمة مع الوفد "الإسرائيلي". وفي الوقت نفسه، كان ياسر عرفات وبضعة أفراد فقط من قيادة م.ت.ف يتابعون خطّاً سرياًّ للتفاوض نتج عنه ما عُرف باتفاق أوسلو.

اتفاق أوسلو (سبتمبر 1993):

ربما نسترجع قبل الحديث عن هذا الاتفاق بعض خيوط الأحـداث الـتي دفعت باتجاهه. ففي عام 1990 عُقد اجتماع سرّي في فيلا خاشـقجي بباريس بين أريل شارون وبسام أبو شريف ومروان كنفاني كـان على جدوله إقامة حكم ذاتي فلسطيني في قطاع غزة. وقد دخلت الـنرويج على خط المفاوضات عبر تيرجي ود لارسن، وهو رئيس معهد نرويجي يبحث في ظــروف وأوضــاع الفلســطينيين في الأرض المحتلــة. وقد تعرف على يوسي بيلين - أحد المقربين من بـيريز - وعـرض عليه في نيسان / إبريل 1992 عقد مباحثات سرية مع م.ت.ف. وقد أصبح بيلين بعد الانتخابات "الإسرائيلية" نائبـاً لـوزير الخارجية (بـيريز). وقـام أحد الدبلوماسـيين النرويجـيين في أيلـول / سـبتمبر 1992 بتقـديم عـرض على بيلين بأن بلاده على استعداد لتكـون المعـبر السـري للاتصـال مع م.ت.ف. وفي ديســمبر 1992 بــدأت الترتيبــات العملية للمفاوضــات الســرية، فـالتقى عن "الإســرائيليين" البروفيســور يـائير هيرشـفيلد أســتاذ التـاريخ بجامعة حيفـا، مع أحمد سـليمان قريع (أبو علاء) رجل الأعمال والقيادي في حركة فتح، في فندق سانت جيمس بلندن.

وفي 20 كانون ثاني / فبراير 1993 عُقد أول اجتماع بينهمـا، من أصل 14 اجتماعاً، في مدينة ساربسـبورغ على بعد 60 ميلاً إلى الشـرق من أوسـلو، في أجـواء سـرية مطلقـة. وفي نيسـان / إبريل 1993 رفعت "إسرائيل" مستوى تمثيلها في المباحثات فعيّنت يـوري سـافير، مـدير

عام وزارة الخارجية، رئيساً للوفد "الإسرائيلي"، وانضم إليهم يوئيل زنجر وهو محام خبير في القانون الدولي. أما "أبو علاء" فساعده مستشار قانوني اسمه طاهر شاش. وكانت الجلسات تنتقل من مكان إلى آخر ويمتد الاجتماع بضعة أيام. وسافر بيريز في 19 آب / أغسطس 1993 إلى النرويج حيث وقع في الليلة نفسها على مسودة الاتفاق. وقد استمر عقد هذه المفاوضات في أثناء انعقاد المفاوضات الرسمية المعلنة بقيادة حيدر عبد الشافي، ودون علم أيٍّ من أعضاء هذا الوفد الرسمي. كما أن مفاوضات أوسلو استمرت حتى بعد أن قام الوفد الرسمي بتعليق المفاوضات، إثر إبعاد الكيان الإسرائيلي لـ 415 فلسطينياً من حماس والجهاد الإسلامي إلى مرج الزهور في جنوب لبنان.

وقد تم التوقيع الرسمي على اتفاق أوسلو في واشنطن في 13 أيلول / سبتمبر 1993، ووقعه عن الجانب الفلسطيني محمود عباس أمين سر اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف وعضو اللجنة المركزية لحركة فتح، والذي تولى متابعة هذه المفاوضات السرية بنفسه. ووقعه عن الجانب "الإسرائيلي" شمعون بيريز وزير الخارجية، كما وقعه وزيرا خارجية أمريكا وروسيا كشاهدين. ويُعدُّ هذا الاتفاق بحقٍّ منعطفاً تاريخياً في مسار القضية الفلسطينية، فهو أول اتفاق يوقعه الفلسطينيون و"الإسرائيليون" ويتم بموجبه تنفيذ تسوية سلمية. وهو يعكس مدى التنازلات الهائلة التي اضطرت قيادة م.ت.ف إلى تقديمها حتى تحصل على اتفاق شبيه في جوهره باتفاق كامب ديفيد 1978، والتي وصفت مُوقِّعه (السادات) يومذاك بالخيانة والاستسلام، ودعت شعب مصر لإسقاطه. وهو يعكس بالتأكيد مدى الانتكاسات والتراجعات والضربات التي عانى منها مشروع تحرير فلسطين خلال الفترة 1978 - 1993. وقد كرَّس هذا الاتفاق الانفصال التام بين مسار المفاوضات الفلسطيني - "الإسرائيلي" ومسارات المفاوضات العربية الأخرى، مما أفقدها القدرة على تنسيق المواقف والعمل المشترك. وتسارعت بعد ذلك وتيرة المفاوضات الأردنية - "الإسرائيلية" والتي أدت في نهايتها إلى عقد تسوية سلمية بين الجانبين في 26 تشرين أول / أكتوبر 1994، والتي عرفت بمعاهدة وادي عربة. أما المسارين السوري واللبناني فبقيا متعثّرين طوال السنوات الثماني التالية (حتى الآن).

وقد عُرف اتفاق أوسلو "باتفاق إعلان المبادئ الفلسطيني - الإسرائيلي" أو باتفاق غزة - أريحا أولاً. ووقعت كافة الاتفاقات التالية بين م.ت.ف. وبين الكيان "الإسرائيلي" بناء على هذا الاتفاق. أما أبرز النقاط في اتفاق أوسلو فهي:

1. إقامة سلطة حكم ذاتي محدود للفلسطينيين في الضفة والقطاع لفترة خمس سنوات.

2. تبدأ قبل بداية العام الثالث من الحكم الذاتي المفاوضات على الوضع النهائي للضفة والقطاع، بحيث يفترض أن تؤدي إلى تسوية دائمة تقوم على أساس قراري مجلس الأمن الدولي 242 و338.

3. خلال شهرين من دخول الاتفاق حيّز التنفيذ، يتوصل الطرفان لاتفاقية حول انسحاب "إسرائيل" من غزة وأريحا، تشمل نقلاً محدوداً للصلاحيات للفلسطينيين، وتغطي التعليم والثقافة والصحة والشئون الاجتماعية والضرائب المباشرة والسياحة.

4. بعد تسعة أشهر من تطبيق الحكم الذاتي، تجرى انتخابات مباشرة في الضفة والقطاع لانتخاب مجلس فلسطيني للحكم الذاتي، وتقوم القوات الإسرائيلية قبيل الانتخابات بالانسحاب من المناطق المأهولة بالسكان وإعادة الانتشار في الضفة.

5. يتم تشكيل سلطة فلسطينية انتقالية ذاتية تشمل الضفة والقطاع، على أن صلاحياتها لا تشمل الأمن الخارجي ولا المستوطنات الإسرائيلية، ولا العلاقات الخارجية، ولا القدس، ولا "الإسرائيليين" في تلك الأرضي.

6. "لإسرائيل" حق النقض "الفيتو" ضد أي تشريعات تصدرها السلطة الفلسطينية خلال المرحلة الانتقالية.

7. ما لا تتم تسويته بالتفاوض يمكن أن يتفق على تسويته من خلال آلية توفيق يتم الاتفاق عليها بين الطرفين.

8. يمتد الحكم تدريجياً من غزة وأريحا إلى مناطق الضفة الغربية وفق مفاوضات تفصيلية لاحقة.

9. وقد أكد الاتفاق على نبذ م.ت.ف والسلطة الفلسطينية "للإرهاب" و"العنف"، والحفاظ على الأمن، ومنع العمل المسلح ضد الكيان الإسرائيلي[51].

وبشكل عام، فإن أبرز الانتقادات والملاحظات على اتفاق أوسلو يمكن تلخيصها فيما يلي:

1. قضية فلسطين قضية كل المسلمين وليس قضية الفلسطينيين وحدهم، وهي معركة بين حق العرب المسلمين وباطل اليهود الصهاينة. وهي معركة تتوارثها الأجيال ولا يجوز لجيل أن يرضخ أو يتنازل فيغمط حق الأجيال التالية. وقد أجمع العلماء الثقات على عدم جواز هذه التسوية بالشكل الذي تمت فيه، ودعوا إلى وجوب الجهاد لتحرير الأرض المباركة.

2. تفردت قيادة م.ت.ف بالموافقة على الاتفاق والاتفاقات التي تلته، ولم ترجع حتى إلى الشعب الفلسطيني نفسه، الذي توجد فيه تيارات واسعة معترضة على هذه التسويات من الإسلاميين واليساريين والقوميين، وحتى في حركة فتح نفسها.

3. اعترفت قيادة م.ت.ف "بحق إسرائيل في الوجود"، وبشرعية احتلالها لـ77% من أرض فلسطين المحتلة عام 1948 والتي لا تجري عليها أية مفاوضات.

4. لم يتعرض الاتفاق لأخطر القضايا حيث تم تأجيلها إلى مرحلة المفاوضات النهائية، ولأن م.ت.ف تعهدت بعدم اللجوء إلى القوة إطلاقاً، فقد أصبح الأمر مرتبطاً بمدى "الكرم الصهيوني" الذي يملك عناصر القوة وأوراق اللعبة، وهذه القضايا:

أ. مستقبل مدينة القدس، والتي أعلنها اليهود عاصمة أبدية لهم وصادروا 86% من أرضها، وأسكنوا في القدس الشرقية أكثر من 200 ألف مستوطن.

ب. مستقبل اللاجئين الفلسطينيين الذين يزيد عددهم (سنة 2001) عن ستة ملايين و 200 ألف لاجئ (4.6 مليون خارج فلسطين، و 1.6 مليون داخل فلسطين وبالذات في الضفة والقطاع).

ج. مستقبل المستوطنات الصهيونية في الضفة الغربية وقطاع غزة، حيث صادر الصهاينة نحو 62% من أراضي الضفة والقطاع، وأقاموا

أكثر من 160 مستوطنة في الضفة و16 مستوطنة في القطـاع يعيش فيها 200 ألف يهودي مستوطن.

5. لا تتضمن مسئوليات السلطة الفلسطينية الأمن الخارجي والحدود، ولا يستطيع أحد دخول مناطق السلطة دون إذن "إسرائيلي". ولا يجوز للسلطة تشكيل جيش، والأسلحة تدخل بإذن إسرائيلي.

6. للكيان الصهيوني حق النقض "الفيتـو" على أية تشـريعات تصـدرها السلطة خلال المرحلة الانتقالية.

7. لا يوجد في الاتفاقيــات إشــارة إلى حق الفلســطينيين في تقرير المصير، أو إقامة دولتهم المستقلة، ولا تشير الاتفاقيـات إلى الضـفة والقطاع كأراضٍ محتلة، مما يعزز الاعتقاد بأنها أراضٍ متنازع عليها.

8. في الوقت الذي تعهدت فيه م.ت.ف (السـلطة الفلسـطينية) بعـدم اللجوء إطلاقـاً للمقاومة المسـلحة ضد الكيـان الصـهيوني، وبحل كافة مشاكلها بالطرق السلمية، فإنها في الوقت نفسه أصـبحت مضـطرة - في ضـوء تعهـداتها السـلمية - لقمع وسـحق أية مقاومة مسـلحة ضد الكيان الصهيوني، ومحاربة أبناء شعبها الذين يقومون بـذلك. ووجـدت نفســـها - عمليـــاً ســـواء رغبت أم لم تـــرغب- أداة لحماية "الأمن الإسـرائيلي" في مناطقهـا، وقـامت بحملات اعتقـال واسـعة وشرسة إثباتاً "لحسن نواياها"، وحرصاً على السلام مع "إسرائيل".

9. أدت الاتفاقية إلى حالة انقســام كبــيرة في الصف الفلســطيني، فـــوقفت فتح ومؤيـــدوها إلى جـــانب قيـــادة م.ت.ف والســـلطة الفلسطينية، بينما وقفت الفصـائل الفلسـطينية العشر وعلى رأسـها حمـاس والجهـاد الإسـلامي والجبهـتين الشـعبية والديموقراطية ضد الاتفاقية وتعهدت بإسقاطها.

10. بما أن "ممثلي الشعب الفلسطيني" الرسميين هم الـذين وقعـوا الاتفاق، فقد فتح ذلك الباب واسعاً أمام الأنظمة العربية ودول العـالم إلى إقامة علاقـات دبلوماسـية مع الكيـان الإسـرائيلي على مسـتويات مختلفـة. مما أدى إلى فك العزلة الدولية عنـه، والـتي عاناها طيلة 45 عامـاً. وأصـبح "لإسـرائيل" مكـاتب تمثيل في تـونس والمغـرب وقطر وعُمـان وموريتانيـا، كما أقـامت نحو خمسـين دولة أخـرى علاقـات دبلوماسية معها.

11. نشأت في الكيان الإسرائيلي (حتى اندلاع انتفاضة الأقصى) حالة من الاستقرار الأمني النسبي والازدهار الاقتصادي، فتضـاعف الـدخل القومي "الإسرائيلي" من نحو 30 مليارا سنة 1993 إلى 105 مليارات دولار أمـريكي سـنة 1999. كما اسـتقبل الكيـان "الإسـرائيلي" مئـات الآلاف من المهاجرين اليهود.

12. أخــرج الاتفــاق الأمم المتحــدة كمظلة دولية تحكم النـــزاع بين الطــرفين. ولم تعد كل قراراتها المتعلقة بحق شــعب فلســطين في تقرير المصير، أو بقرار تقسيم فلسطين سنة 1947، تشـكل مرجعية يمكن الاحتكام إليها. وظلّت الولايات المتحدة تلعب دور الراعي الأكـبر لعملية التســـــوية، وهي المعروفة بانحيازها الصـــــارخ للجـــــانب "الإسرائيلي" ...، ومن استرعى الذئب فقد ظلم!!

13. اتســـمت العديد من بنـــود اتفاقية أوســـلو بـــالغموض، وتـــرك التفصيلات لمفاوضات مستقبلية. وقد أعطى ذلك فرصة كبرى للكيـان الإسـرائيلي (الطـرف القـوي في المعادلـة) للتسـويف والمماطلـة، وفـرض شـروطه وطريقة فهمه للاتفاقيـة، وجـرى تقـزيم المكاسب الفلسطينية (المُقزَّمة أصلاً) في هذه الاتفاقية. كما جرى تأجيل تنفيذ كثـير من الاتفاقـات التفصـيلية. وأعطت "إسـرائيل" لنفسـها شـرعية

إعادة سحب التزامات كانت قد أعطتها للسلطة، كما مارست سياسات الحصـار الاقتصـادي والأمـني لإجبـار السـلطة على تنفيذ التصـور "الإسرائيلي" للاتفاقية. وقد مضى على هـذه التسـوية ثمانية سـنوات دون الوصـول إلى الحلـول النهائيـة، بينما أعلن العديـدون من فلسطينيين و"إسرائيليين" وفاة هذه الاتفاقيـات. لكنها على أي حـال لا تزال القاعدة التي تتم على أساسها المفاوضات.

أما المـدافعون عن اتفاقيـات أوسـلو فيتهمـون خصـومهم "بالعدميـة" و"عـدم الواقعيـة"، ويقولـون إن هـذا هو أفضل ما يمكن تحصـيله في ظل اختلال مـوازين القـوى، والعجز العـربي والإسـلامي الحـالي. كما يذكر المدافعون أن هذه الاتفاقيـات شـكّلت فرصة لــ م.ت.ف وشـعب فلسـطين لبنـاء الحقـائق على الأرض وإقامة السـلطة الفلسـطينية واسـتنقاذ ما يمكن اسـتنقاذه من أرض قبل أن تقضي عليها آلة الضم والمصادرة الصهيونية، وقبل أن يتم تذويب أو تضييع قضـية فلسـطين نفسها. ويـذكرون أن "إسـرائيل" اعـترفت في هـذه الاتفاقية رسـمياً بالشعب الفلسـطيني وبحقوقه السياسـية والمشـروعة، كما اعـترفت لأول مـرة بــ م.ت.ف ممثلة لهـذا الشـعب، واعـترفت أيضـاً بالوحـدة الإقليمية للضـفة والقطـاع. ويقولـون إن مسـار أوسـلو مهما حـاول الصـهاينة التهـرب من التزاماته سـيؤدي في النهاية إلى قيـام الدولة الفلسطينية[52].

وعلى أي حـال، فـإن انـدلاع انتفاضة الأقصى في 28 سـبتمبر 2000 كان دلالة وصول هذه الاتفاقيات إلى طريق مسدود.

اتفاق القاهرة (مايو 1994):

يشـكل اتفـاق القـاهرة والاتفاقـات التالية اتفاقـات إجرائية تنفيذية لاتفاقية أوسـلو نفسـها. فقد فشل الطرفـان الفلسـطيني و"الإسـرائيلي" في الاتفـاق على تفصـيلات المرحلة الأولى (غـزة - أريحا) وانقضت المدة المحددة لانسحاب القوات "الإسرائيلية" قبل أن تبـدأ هـذه القـوات بالانسـحاب. وبعد مزيد من التعنت "الإسـرائيلي" والتنازل الفلسطيني توصل الجانبان إلى توقيع اتفاق القـاهرة، الـذي عـرف ايضـاً باسم (أوسـلو) في 4 أيـار / مـايو 1994، والـذي فصَّـل المرحلة الأولى من الاتفـاق والجدولة الزمنية للانسـحاب الإسـرائيلي من قطاع غزة وأريحا والترتيبـات الأمنية المتعلقة بـذلك. وبـدأ دخـول الشرطة الفلسطينية في 18 أيـار / مـايو 1994، وأدى أعضـاء سـلطة الحكم الذاتي اليمين الدستورية أمام ياسر عرفات في 5 تمـوز / يوليو 1994[53].

اتفاق طابا (أوسلو 2) (28 أيلول / سبتمبر 1995):

حسب اتفاق أوسلو، كـان من المفـروض أن تمضي سـتة أشـهر فقط تبدأ بعدها المرحلة الثانية من الفترة الانتقالية، وهي المتعلقة بتوسيع صلاحيات السـلطة في المـدن والريف الفلسـطيني. لكن المفاوضـات حولها امتـدت عامـاً ونصـف، حيث سـعى الكيـان الإسـرائيلي لفـرض شروطه وتفسيراته الخاصة، وربط إمكانية التقدم بالمفاوضـات بمـدى تمكُّن السـلطة من تحقيق الأمن "لإسـرائيل"، وبعبـارة أخـرى بمـدى تمكن السلطة الفلسطينية من سحق المعارضة الفلسطينية المسلحة. ولم يتم ذلك إلا بعد أن "نجحت" السـلطة إلى حـدٍّ بعيد في الاختبـار

"الإسرائيلي". وقد تم التوصل إلى هذا الاتفاق في طابا بمصر، وجرى توقيعه في أجواء احتفالية كبيرة في واشنطن في 28 أيلول / سبتمبر 1995.

وتضـمن الاتفـاق توزيع الضـفة الغربية إلى ثلاثة منـاطق "أ" و"ب" و"ج". ومنـاطق "أ" هي مراكز المـدن الرئيسـية في الضـفة ما عـدا الخليل ومسـاحتها لا تتجـاوز 3% من مسـاحة الضـفة حيث سـيكون الإشراف الإداري والأمني عليها فلسطينياً. ومناطق "ب" وهي مناطق القـرى والريف الفلسـطيني وهي نحو 25% وتخضع إداريـاً للسـلطة الفلسـطينية، أما الإشـراف الأمـني فيكـون "إسـرائيلياً" - فلسـطينياً مشتركاً. وأما مناطق "ج" فيكون الإشراف عليها إدارياً وأمنيـاً للكيـان الإســرائيلي وهي نحو 70% من الضـــفة، وتشـــمل المســـتوطنات والمناطق الحدودية وغيرها[54].

وحفل الاتفـاق بالمزيد من القيـود والشـروط الأمنيـة، وما إن بـدأت القوات "الإسرائيلية" انسحابها من المدن وإعادة انتشارها، حتى بـدت منــاطق الســلطة الفلســطينية كــالجُزُر المحاصــرة في بحر أمــني "إسـرائيلي". وتحـوّل الاحتلال الإسـرائيلي إلى نـوع من "الاسـتعمار النظيـف"، إذ أوكل المهـام المتعلقة بـإدارة السـكان وضـبطهم أمنيـاً وجمع الضـرائب وأعمـال البلدية وغيرها إلى السـلطة، بينما تـولّى هو التحكم بمداخل ومخارج المـدن والقـرى، يُطبق عليها الحصـار الأمـني والاقتصادي متى شاء ويخضعها لشروطه.

وبعد تلك الترتيبات، تمت في يناير 1996 انتخابات المجلس التشريعي لمناطق الحكم الذاتي، والتي قاطعتها حماس وباقي الفصائل العشـر، وفازت فيها حركة فتح ومؤيدوها بنحو ثلاثة أرباع المقاعـد. كما انتخب ياسر عرفات رئيساً للسلطة بأغلبية 88%.

اتفاق الخليل (15 كانون ثاني / يناير 1997):

عـاد حـزب الليكـود في مـايو 1996 إلى سـدَّة الحكم بزعامة بنيـامين نتنياهو الـذي كـان معارضـاً لاتفـاق أوسـلو، ويعتقد أن الفلسـطينيين أخذوا أكثر مما ينبغي أو أكـثر مما يسـتحقون. وقد اضـطرت السـلطة الفلسطينية إلى تقديم تنازلات جديـدة فيما يتعلق بوضع مدينة الخليل الذي تم التوقيع عليه في 15 كـانون الثـاني / ينـاير 1997 وهو اتفـاق قسَّـم المدينة إلى قسـمين: يهـودي في قلب المدينة بما فيها الحـرم الإبراهيمي، وقسم عربي ويشـمل الـدائرة الأوسع للمدينـة. وتم وضع ترتيبات أمنية قاسية ومعقدة لضمان أمن الـ400 يهودي المقيمين في وسط المدينة، وبشكل يضمن راحتهم وتنقلهم بين أكـثر من 120 ألف فلسطيني يسكنون الخليل، مما جعل حياة سكان المدينة الفلسـطينية جحيماً لا يطاق.

وتضـمّن اتفـاق الخليل إعـادة جدولة زمنية لثلاث انسـحابات (إعـادة انتشار) من أجزاء غير محددة من الضفة تبدأ في مارس 1997 وتنتهي في يونيو 1998، بدلاً مما كان مقرراً في أيلول / سبتمبر 1997[55].

اتفاق واي ريفر بلانتيشن (23 تشرين أول / أكتوبر 1998):

تعامل نتنياهو مع السلطة الفلسطينية بكثير من اللامبالاة والازدراء والتعالي، ونشط أكثر في مجال توسيع المستوطنات والاستيلاء على الأراضي وتهويد القدس. ورفض تطبيق الاتفاقيات أو التعاون مع السلطة ما لم تثبت فاعليتها بنسبة 100% في مكافحة المعارضة الفلسطينية وخصوصاً حماس والجهاد الإسلامي، وما لم تقدم أقصى درجات التعاون الأمني مع الكيان الإسرائيلي.

وقد تعثرت إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي مرة أخرى نتيجة التعنت الإسرائيلي. واضطر عرفات في 5 مايو 1998 أن يقبل أخيراً عرضاً أمريكياً - كان قد رفضه مراراً - بانسحاب "إسرائيلي" من 13% من الضفة الغربية. غير أن نتنياهو لم يوافق على هذا العرض إلا بعد أن وافق عرفات أن يكون هناك 3% من هذه الـ 13% على شكل محمية طبيعية. وفي 23 تشرين أول / أكتوبر 1998 وقع الطرفان اتفاقية واي ريفر بلانتيشن التي تضمنت الانسحاب الإسرائيلي من 13% من أرض الضفة. كما تضمنت إطلاق سراح بضعة مئات من أصل 3000 معتقل سياسي فلسطيني، والسماح بتشغيل مطار غزة والسماح بطريق آمن بين الضفة والقطاع.

وقد اتخذ اتفاق واي ريفر شكلاً أمنياً أكثر حزماً وتشدداً، إذ كان شرط تنفيذ ما سبق أن يُصعِّد الطرف الفلسطيني جهوده ضد ما أسماه "الإرهابيين" أي المعارضة الفلسطينية، ويصادر الأسلحة بناء على خطة أمنية مجدولة تحت إشراف المخابرات الأمريكية CIA، وإزالة كل ما يعادي "إسرائيل" في الميثاق الوطني الفلسطيني. وحسب الاتفاقية تتسع السيطرة الإدارية والأمنية للسلطة لتغطي 18% من الضفة (مناطق أ)، ويكون لها سيطرة إدارية فقط على 22% (مناطق ب) ويكون ضمنها المحمية الطبيعية (3%)[56].

وفي 16 تشرين الثاني / نوفمبر 1998 طمأن نتنياهو مجلس وزرائه أنه حتى بعد تنفيذ اتفاقية واي ريفر فإن الإسرائيليين سيظلون محتفظين بالسيطرة الأمنية على 82% من الضفة والقطاع. وفي 20 تشرين ثاني / نوفمبر 1998 انسحب الكيان الإسرائيلي من 34 بلدة وقرية شمال الضفة. وأطلق سراح 250 سجيناً فلسطينياً معظمهم مجرمين عاديين وليس معتقلين سياسيين. ثم عاد مجلس الوزراء الإسرائيلي فقرر توقيف تنفيذ اتفاقية واي ريفر في 20 كانون أول / ديسمبر 1998. ورجع الإسرائيليون إلى عادتهم في فتح وإغلاق "صنبور" تنفيذ الاتفاقيات كما يشاؤون سعياً لابتزاز تنازلات جديدة.

اتفاقية شرم الشيخ (4 أيلول / سبتمبر 1999):

مع قدوم حزب العمل بقيادة إيهود باراك إلى السلطة من جديد في تموز / يوليو 1999 تجددت آمال السلطة الفلسطينية بالتعجيل بتنفيذ اتفاقات أوسلو، وحسم قضايا الحل النهائي. ورغم أن باراك قاد حملته الانتخابية على أساس الوصول إلى تسوية وتسريع عجلة المفاوضات، إلا أنه قدَّم "لاءاته الخمس" التي استند على أساسها برنامجه "السلمي":

1. لا لإعادة القدس الشرقية للفلسطينيين، والقدس عاصمة أبدية موحدة للكيان الإسرائيلي.

2. لا لعودة الكيان الإسرائيلي إلى حدود ما قبل حرب 1967.

3. لا لوجــود جيش عــربي في الضــفة الغربية (بمعــنى أن أي كيــان فلسطيني يجب أن يكون ضعيفاً غير مكتمل السيادة).

4. لا لإزالة المستوطنات اليهودية في الضفة والقطاع.

5. لا لعودة اللاجئين الفلسطينيين.

وفي شرم الشـيخ في 4 أيلـول / سـبتمبر 1999 وقع بـاراك وعرفـات النسخة المعدَّلة من اتفاقية واي ريفر بحضور الـرئيس المصـري وملك الأردن. وهي تتعلق بموضـوع تعجيل إعـادة الانتشـار الـذي اتفق عليه سـابقاً ومـاطلت "إسـرائيل" في تنفيـذه. كما تم الاتفـاق على تمديد فـترة الحكم الـذاتي إلى أيلـول / سـبتمبر 2000، مع أنه ينتهي حسب "أوسلو" في أيار / مايو 1999. كما نص على الإفـراج عن مجموعة من المعتقلين الفلسطينيين[57].

وعلى أي فإن اتفاق شرم الشيخ نفسه لم يسلم من التســويف، إذ إن موعد استكمال عملية التسليم كان ينبغي أن يتم في 20 كانون ثاني / ينــاير 2000، لكن الخلاف على ما يمكن تســليمه أخّر التنفيذ إلى 21 آذار / مارس 2000[58].

تطور مسار التسوية ومفاوضات كامب ديفيد (تموز/ يوليو 2000):

كانت السـلطة الوطنية الفلسـطينية في أمسّ الحاجة لتحقيق مكاسب على الأرض خصوصــاً فيما يتعلق بــالحلول النهائية وتحقيق حلم إقامة الدولة الفلســطينية. فقد عــانت الســلطة من انتقــادات عنيفة داخلية وخارجية بســـبب ضـــعف أدائها في المفاوضـــات، وبســـبب قمعها للمعارضـة، والاتهامـات بانتشـار الترهل والفسـاد في أجهزتهـا. وفي الوقت الـذي اسـتمر فيه التسـويف والابـتزاز "الإسـرائيلي" اضـطرت السلطة عدة مرات لتأجيل إعلان الدولة الفلسطينية الذي كانت تَعِدُ به الجماهير منذ أيلول/ سبتمبر 1998، ثم هددت بإعلانها في أيـار/ مـايو 1999، ثم أيلـول/ سـبتمبر 1999، ثم أيـار/ مـايو 2000، ثم أيلـول/ سبتمبر 2000. وكان الصـهاينة لا يتعـاطون بكثـير من الجدية مع هـذه التهديدات لأنهم يعلمـون أن هـذا الإعلان السياسي لن يغـير من واقع احتلالهم للضـــفة والقطـــاع، لكنه يمكن أن يســـبب بعض المتـــاعب السياســـية الـــتي يمكن في النهاية التعامل معهـــا. وقد بـــدا الوضع "مأساوياً" في شهر شباط/ فبراير 2000 لدرجة أن عمرو موسى وزير الخارجية المصـري وصف المسـيرة السـلمية بأنها "عبثيـة" بنـاء على الحالة المحبطة الـتي نقلها ياسر عرفـات للـرئيس المصـري مبـارك عندما التقى به في القاهرة[59].

غير أنه كانت هناك خشية "إسرائيلية" – فلسـطينية - أمريكية من حالة الإحباط المتصـاعدة في المنطقـة، والـتي يمكن أن تـؤدي إلى انهيـار مشـروع التسـوية. وأدركت الأطـراف أنه لا بد من نهاية قصـوى لحالة التسويف والابتزاز القائمة، وإلا فإن خيار الجهاد والمقاومة المســلحة سيعود للبروز من جديد.

ولــذلك تواصــلت مفاوضــات المرحلة النهائية بشــكل أكــثر جدية في أماكن مختلفة مثل قاعـدة بـولينج الأمريكية في نيسـان/ أبريل 2000، وفي استكهولم في أيار/ مـايو 2000 وبـدا أن الطـرفين الفلسـطيني

والإسـرائيلي أخـذا يكشـفان أوراقهما حـول الوضع النهـائي، وانتقلت اللغة "المتشـــددة" من الطـــرفين إلى "تَفَهّم" أكـــثر لاحتياجـــات كل منهما.

وكان واضـحاً في المفاوضـات أن الكيـان الإسـرائيلي لا يـزال يسـعى للاحتفـاظ بتفوقه الاسـتراتيجي على العـالم العـربي حـتى بعد تحقيق التسوية، حتى إن بـاراك وصف السـلام القـادم بأنه سـيكون في بداية الأمر "سلاماً مسلحاً"[60].

وقد حـاولت الأطـراف بشـكل حـثيث الوصـول إلى تسـوية قبل قـدوم الموعد الأخـــير الــذي ضـــربه الفلســطينيون لإعلان دولتهم (أيلــول/ ســبتمبر 2000). وفي حزيــران/ يونيو قــال بــاراك عقب اجتماعه مع ديــنيس روس المنسق الأمـريكي الخـاص لعملية السـلام في الشـرق الأوسط "إن مفاوضـــات الســـلام مع الفلســـطينيين بلغت درجة نضج تسمح بالتوصل إلى اتفـاق... وإن أيـاً من الطـرفين لا يمكن أن يحقق كل أحلامه... إلا إن هناك فرصة فريدة للطـرفين للوصـول إلى اتفـاق تاريخي"[61].

وقد نشرت "يديعوت أحرنوت" في 23 حزيران/ يونيو 2000 نص وثيقة أمريكية تكشف اسـتعداد "إسـرائيل" للانسـحاب من 90% من الضـفة والقطـاع ونقلهما للسـيادة الفلسـطينية الكاملـة. والموافقة على أن يكون نهر الأردن والجسور المقامة عليه والأحيـاء العربية في القـدس تخضع في النهاية لسـيطرة الفلسـطينيين، على أن تقـوم "إسـرائيل" بضم مناطق وتجمعات الاستيطان اليهـودي الرئيسة في الضـفة، ومن ضـمها تلك القائمة في محيط منطقة القـدس. وعلى أن تحل مشـكلة اللاجئين على أساس مبدَأي التعويض والتــوطين، ولتحقيق ذلك يحصل الفلسـطينيون على 40 مليـار دولار والأردنيـون على 40 مليـار دولار أخـــرى، ويحصل اللبنـــانيون على 10 مليـــارات والســـوريون على 10 مليارات. واقترح أن تقوم أمريكا بتغطية 25% من هـذه المبـالغ الـتي ستصرف على مدى 10-20 عاماً عن طريق إنشاء منظمة دولية جديـدة تحل محل الأونـــروا. كما وعـــدت الوثيقة بمســـاعدات غـــير محـــددة للفلسطينيين، منها خمسة مليارات لإنشـاء بنية تحتية لتوفـير الميـاه[62].

وفي الوقت نفسه تسـربت الأخبـار عن مشـروع فلسـطيني للتسـوية النهائيـة، نشـرته صـحيفة "يـديعوت أحرنـوت" في 25 حزيـران/ يونيو 2000 على أساس ما أسمته "قائمة مطالب عرفات للسـلام"، مشـيرة إلى أنها نقلته عن مصدر إسرائيلي رفيع. وقد تضمن:

1. انسحاب إسرائيلي من 98.5% من الضفة الغربية.

2. الموافقة على بقاء جزء من المستوطنات تحت السيادة الإسرائيلية داخل حدود المستوطنة بالإضافة إلى 50 متراً خارج جدرانها.

3. الموافقة على أن الشـــوارع المؤدية للمســـتوطنات تكـــون تحت السيادة الإسرائيلية، أما جوانب الشوارع فتحت السيادة الفلسطينية.

وقد أشـــارت الوثيقة إلى أن عرفـــات ســـيوفق في النهاية على كتل استيطانية بحدود 4% من الضفة.

4. توضع القدس العربية (الشرقية) تحت السيادة الفلسطينية الكاملة، وتكون عاصمة فلسطين، مع بقاء الحي اليهودي وحائط البراق "حائط المبكى" وحي المغاربة تحت السيادة الإسرائيلية، فضلاً عن القدس الغربية، ومستوطنات معاليه أدوميم وجيلو وراموت.

5. بالنسبة للخليل: يقوم الإسرائيليون بإخلاء مستعمرة كريات أربع وحي أبراهام أبينو في الخليل، ويُمنحون طريقاً حرة للوصول إلى الحرم الإبراهيمي.

6. يوافق الفلسطينيون على استئجار الإسرائيليين قطعة ضيقة على شريط غور الأردن لفترة محدودة وتحت السيادة الفلسطينية.

7. يجب أن يعترف الإسرائيليون بحق العودة الكامل للاجئين الفلسطينيين، وبالاعتراف بمسئوليتهم عما حدث لهم، وتعويض من لا يرغب منهم بالعودة.

وقد أشارت الصحيفة إلى أن هناك ليونة خلف هذا الموقف الرسمي، إذ إن المسئولين الفلسطينيين سيوافقون في النهاية على إعادة 100 ألف فلسطيني في إطار جمع شمل العائلات.

8. الموافقة على أن تكون الدولة الفلسطينية منزوعة من السلاح الثقيل.

9. تعويض الفلسطينيين عن المستوطنات الإسرائيلية التي ستضمها "إسرائيل" تحت سيادتها، وذلك بتسليمهم أرضاً مساحتها 200 كم2 من الأرض المحتلة سنة 1948 (داخل الخط الأخضر). واقترح أن تتكون من جزأين، الأول منطقة طولية تستخدم ممراً برياً بحيث تصل بين قطاع غزة وحاجز ترقوميا في أطراف جبل الخليل على حدود الضفة الغربية. أما الجزء الثاني فيكون جنوب مرج ابن عامر في منطقة القرية العربية "مقيبلة".

10. الإفراج عن كافة المعتقلين وتنفيذ فوري للانسحاب حسب اتفاق أوسلو[63].

ومن خلال النظر في المشروعين السابقين (الوثيقة الأمريكية، ومطالب عرفات) يتضح أن الطرفين اقتربا بصورة أكثر جدية من تحقيق حل دائم. وفي الوقت نفسه حافظ الطرفان على حالة من التوتير الإعلامي، كجزء من مناورات التسوية. فقد هددت السلطات الإسرائيلية باستخدام الدبابات والطائرات ضد المناطق الفلسطينية. وقد رد ياسر عرفات على ذلك في مهرجان خطابي في نابلس أمام الآلاف من مؤيديه من أنصار حركة فتح قائلاً "نحن مستعدون لأن نُشطب ونبدأ من جديد" وذكّر إسرائيل "بهزائمها" في الكرامة وبيروت والانتفاضة، وهدد بإشعال الانتفاضة من جديد[64].

وفي الجهة المقابلة، لم يكن باراك يتمتع بوضع مريح في حكومته ولا في الكنيست يمكنه من اتخاذ قرارات مصيرية. وحتى لو وافق على الحد الأدنى من المطالب الفلسطينية، فإنه كان سيواجه احتمالات جدية بسقوط حكومته، وعدم تمرير الاتفاقات في الكنيست أو في الاستفتاء الشعبي. فقد كان حزب العمل الذي يتزعمه باراك لا يملك أكثر من 26 مقعداً من أصل 120 ويحكم ضمن تحالف متنافر يجمع اليمين الديني المتشدد مثل المفدال وشاس كما يجمع اليسار العلماني "ميرتس". وقد تمكن حزب الليكود المعارض في 2 مارس 2000 من تعقيد الوضع بالحصول على قرار من الكنيست بأن أي

تسوية سياسية يجب أن تحصل على غالبية أصوات الناخبين المسجلين في استفتاء شعبي (وليس فقط أكثرية المشاركين في الانتخابات). وتزايدت معارضة اليمين الإسرائيلي للتسوية في شهر حزيران/ يونيو 2000، وانسحب عدد من الأعضاء اليمينيين من حكومة باراك مما أفقدها غالبيتها في البرلمان (الكنيست).

وفي يوم ذهابه إلى واشنطن للمشاركة في مفاوضات كامب ديفيد، اجتاز باراك "امتحان" إسقاط حكومته بصعوبة بالغة عندما طُرحت الثقة بحكومته، وفاز الاقتراح بغالبية 54 صوتاً ضد 52 صوتاً، لكنه لم يكن كافياً لإجباره على الاستقالة لعدم حصوله على أغلبية 61 صوتاً. وعلى ذلك، فإن باراك ذهب إلى المفاوضات وهو يعي تماماً قوة المعارضة "الإسرائيلية" للتسوية، وإدراكه عملياً أنه على الأغلب لن يستطيع تسويق التسوية للشارع الإسرائيلي في ظل تلك الأوضاع، حتى لو أراد حزب العمل ذلك. وهذا يضع علامة استفهام على مدى جدية باراك وحكومته في مفاوضات كامب ديفيد.

ومع اقتراب انتهاء ولاية الرئيس الأمريكي كلينتون أخذ يسعى بقوة لتحقيق إنجاز تاريخي، فدعا إلى عقد مفاوضات التسوية النهائية في كامب ديفيد، باذلاً ما في وسعة لإنجاحها، مفرغاً نفسه عدة أيام في أثناء انعقادها. وقد انعقدت مفاوضات كامب ديفيد 12-25 تموز/ يوليو 2000 بحضور كلينتون وباراك وعرفات. وظهر أن المشروعين السابقين كانا أساساً لتلك المفاوضات.

وكان موضوع القدس هو العقبة الكأداء التي واجهت المؤتمر، والتي أدت إلى فشله، كما بقيت معضلة اللاجئين الفلسطينيين وحقهم في العودة دون حل. وكان موضوع السيادة على القدس الشرقية والوضع النهائي للمسجد الأقصى بالذات هم النقطتان الأكثر حساسية. إذ أصر الصهاينة على القدس عاصمة موحدة "لإسرائيل"، وعلى نوع من السيادة على حرم المسجد الأقصى الذي يسمّونه جبل (المعبد) الهيكل ، ويحلمون بإنشاء الهيكل اليهودي الثالث عليه. فكانت هناك اقتراحات بأن تكون هناك سيادة يهودية على الأرض تحت المسجد الأقصى، أو بالاشتراك مع المسلمين بجزء من حرمه، أو حتى ببناء المعبد اليهودي على أعمدة عالية فوقه. وقد أصرّت السلطة الفلسطينية على موقفها من السيادة على القدس الشرقية، وأبدت موافقتها على فكرة أن تكون القدس مدينة مفتوحة وعاصمة لدولتين، واستعدت للاستجابة للمتطلبات الأمنية الإسرائيلية بشأنها. وقد جرت محاولات لإنقاذ الموقف باقتراح تأجيل موضوع القدس مدة سنتين أخريين غير أن عرفات رفض ذلك، وأصرّ على موقفه بإسناد مصري سعودي قوي، وصرح بأن "القدس تحرق الحي والميت"، وبأنه "لم يولد الزعيم العربي الذي يتنازل عن القدس".

أما بالنسبة للصهاينة فإن مجمل ادعاءاتهم التاريخية والدينية في فلسطين تتركز حول القدس وبالذات "جبل المعبد" حسب تسميتهم للمسجد الأقصى. وهم يسعون منذ العشرينيات من القرن العشرين لهدم الأقصى وبناء هيكلهم، وكان الزعيم الصهيوني ديفيد بن جوريون الذي قام على عاتقه الكيان الإسرائيلي وكان أول رئيس وزراء له يقول إنه "لا معنى لإسرائيل دون القدس، ولا معنى للقدس

دون الهيكل". وبحلول سنة 2000 كان الكيان الإسرائيلي قد قام بالكثير من الخطوات العملية لتهويد القدس الشرقية فأسكن فيها نحو 200 ألف مستوطن متوزعين على 27 مستوطنة وحي يهودي، وبحيث تفصل القدس عن محيطها العربي في الضفة. كما قام بعمليات حفريات مكثفة تحت المسجد الأقصى وصلت إلى عشر مراحل، وحفر خلالها أربعة أنفاق وفرّغ من تحته الأتربة، وحاول إذابة الصخور بالمواد الكيماوية مما هدد بانهيار المسجد الأقصى في أي لحظة. كما وقع أكثر من 120 اعتداء على الأقصى، حدث ثلثاها في السنوات التي تلت توقيع اتفاق أوسلو سنة 1993.

وقبيل انهيار المفاوضات، وعندما أخذت نذر الفشل تلوح في الأفق عاد الطرفان للغة التهديد. فقد حذر باراك الفلسطينيين من "مواجهة نتائج مأساوية في حال الفشل" وقال "إذا لم تصلوا إلى اتفاق معي فسأكون آخر رئيس وزراء إسرائيلي يمكن التوصل إلى اتفاق معه"، كما بدأت القوات الإسرائيلية استعدادات عسكرية واسعة لخوض المواجهات في حال فشل القمة[65].

وذكر عماد الفالوجي وزير المواصلات في السلطة الفلسطينية أن المنطقة مقبلة على "مستقبل أسود" إذا فشلت قمة كامب ديفيد[66]. وتوقعت مصادر أمنية إسرائيلية حسبما نقلت صحيفة "يديعوت أحرنوت" أنه إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق فإن يتوقع حدوث مواجهات شاملة يحاول الفلسطينيون خلالها تحقيق عدة أهداف أبرزها:

1. توحيد الصف الفلسطيني من مؤيدي السلطة ومعارضيها، بقصد تصليب الموقف الفلسطيني تجاه المفاوضات.

2. تحقيق مكاسب إقليمية بتنظيم مسيرات ومظاهرات باتجاه المستوطنات "الإسرائيلية" ومناطق "ب"، ومحاولة الاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه سلمياً.

3. إظهار "إسرائيل" على أنها دولة محتلة عدوانية، لا تتورع عن ارتكاب المجازر لتكريس احتلالها، مما يضطرها في النهاية إلى الرضوخ للإرادة الدولية والانسحاب[67].

وعندما انهارت المفاوضات فعلياً أعلن الجيش "الإسرائيلي" استعداده لأي احتمالات مع الفلسطينيين. وفي الجهة المقابلة، أعلن وزير العدل الفلسطيني فريح أبو مدِّين بأن "الوضع خطير جداً، وكل الاحتمالات لدينا مفتوحة" وقال إنه إذا ما وصلت العملية إلى صدام دموي "فإن المنطقة ستنهار، بل كل الشرق الأوسط سينهار، وحتى عملية السلام مع مصر والأردن"[68].

ولم تكن هذه التوقعات بعيدة عن الموضوعية، والقدرة على الاستشراف السياسي للمستقبل، إذ وقعت انتفاضة الأقصى التي شغلت العالم ولا تزال تشغله منذ 28 أيلول/ سبتمبر 2000.

مشروع بيل كلينتون للسلام كانون أول/ ديسمبر 2000:

إثر فشل مفاوضات كامب ديفيد كانت كل عناصر تفجير الموقف جاهزة، فقد كان هناك حالة إحباط فلسطيني واسعة تجاه عملية التسوية، واضطرت السلطة الفلسطينية إلى تأجيل إعلان الدولة

الفلسـطينية عن موعـدها المقـرر في 13 أيلـول/ سـبتمبر 2000 إلى إشعار آخر. وكانت الحكومة الإسرائيلية بقيـادة بـاراك تتكئ على أقلية برلمانية لا تمكنها من اتخاذ قـرارات جريئة أو مصـيرية، هـذا إذا كـانت هي أصلاً مخلصة في الوصول إلى تسوية تُرضي السلطة الفلسطينية. وظل الحد الأدنى الفلســطيني أعلى من الســقف "الإســرائيلي"، خصوصـاً فيما يتعلق بالقـدس واللاجـئين. وبـدا للطـرفين أنهما قـدما أفضل ما يســتطيعان، وأنهما وصلا إلى طريق مســدود. ووفق الحسابات السياسية فإن "تنازل" أي طرف في تلك القضايا الجوهرية كان يعني سقوطه شعبياً، وبالتالي سقوط التسوية نفسها.

وعنـدما اشـتعلت انتفاضة الأقصى إثر زيـارة شـارون لحـرم المسـجد الأقصى في 28 أيلول/ سبتمبر 2000 وجد الطرفان فرصتهما لتحقيق مزيد من الضــغوطات لإجبــار الطــرف الآخر على التنــازل. ودخلت المعارضة الفلسطينية وعلى رأسها حماس لتؤكد صحة الخيار الجهادي والكفاح المسلح، كما برز دعم في العالم العربي والإسلامي لم يسبق له مثيل للانتفاضة، مؤكداً حق الفلسطينيين في أرضـهم ومقدسـاتهم وبناء دولتهم المسـتقلة. وفي الـوقت نفسـه، ازداد اليمين المتطـرف قـوة في الوسط "الإسـرائيلي" الصـهيوني. وانـزوى خيـار السـلام مع ازديـاد العجرفة الصـهيونية وقتل الأبريـاء وهـدم الـبيوت، ومع ازديـاد العمليــات الجهادية القوية الــتي أحــدثت لأول مــرة "تــوازن ردع" مع الكيان "الإسرائيلي".

ورغم أن باراك اسـتخدم كل ما في جعبته من وسـائل إرهـاب وتـدمير وقتل ومن خــبرات له كقائد للجيش ورئيس ســابق للأركــان، وفضح الوجه البشع له ولحزب العمل الذي عمل طويلاً على تجميلـه. رغم كل ذلك، فقد اضـطر بـاراك للاسـتقالة في 9 كـانون أول/ ديسـمبر 2000 مما فتح المجــال للتنــافس على منصب رئيس الــوزراء في انتخابــات تعقد خلال ستين يوماً.

وفي الولايات المتحدة فاز جورج بوش الابن مرشح الحزب الجمهـوري على نـائب الـرئيس الأمـريكي آل جـور مرشح الحـزب الـديموقراطي بأغلبية ضئيلة. وسعى بيل كلينتون في الأيـام القليلة المعـدودة الـتي ظلت لولايته (حتى 20 كانون ثـاني/ ينـاير 2001) إلى تقـديم مشـروع اللحظات الأخيرة، وإلى دعـوة الطـرفين الفلسـطيني و"الإسـرائيلي" للقــدوم إلى واشــنطن لإجــراء المباحثــات. واســتناداً إلى ما سـجله مسؤولون أمريكيون في 23 كانون أول/ ديسمبر 2000 في أثناء لقــاء الرئيس كلينتون مع مسئولين فلسطينيين و"إسرائيليين" فإن مشروع كلينتون يتضمن النقاط التالية:

أولاً: الأراضي:

1. دولة فلسطينية على 94 - 96% من الضفة و 100% من القطاع.

2. في مقابل الجزء الذي تضمه "إسـرائيل" عليها أن تعطي 1-3% من "أراضــيها" [الأراضي الــتي احتلتها عــام 1948] إلى الطــرف الفلسطيني، بالإضافة إلى معبر دائم آمن بين الضفة والقطاع.

3. خريطة الدولة الفلسطينية يجب أن تستجيب للمعايير التالية:

أ- 80% من المستوطنين اليهود يبقون في مجمعات استيطانية.

ب- تواصل الأراضي

ج- تخفيض عدد المناطق التي تضمها "إسرائيل" إلى الحد الأدنى.

د- تخفيض عـدد الفلسـطينيين الـذين سـيتأثرون بهـذا الضم إلى الحد الأدنى.

ثانيـاً: الأمن: حضـور إسـرائيلي في مواقع ثابتة في وادي الأردن تحت سلطة قوة دولية، ولفترة محدودة قابلة للتعديل من 36 شهراً.

ثالثـاً: القـدس: المبـدأ العـام أن المنـاطق الآهلة بالسـكان العـرب هي مناطق فلسطينية، والآهلة باليهود هي مناطق "إسرائيلية".

رابعاً: الحرم (المسجد الأقصى): حل يضمن رقابة فعلية للفلسطينيين على الحرم، مع احترام معتقدات اليهود. وهناك اقتراحـان: إما سـيادة فلسطينية على الحرم، وسيادة إسـرائيلية على حائط الـبراق وسـيادة على المجال المقدس لدى اليهود أي المسطح السفلي للحرم.

أو: سـيادة فلسـطينية على الحـرم وإسـرائيلية على الـبراق، وتقاسم السيادة على مسألة الحفريات تحت الحرم وخلف حائط البراق.

خامساً: اللاجئون: المبدأ الأساسي أن الدولة الفلسـطينية هي الموقع الرئيسي للفلسطينيين الـذين يقـررون العـودة إلى المنطقة من دون استبعاد أن تستقبل إسرائيل بعضهم.

ويتم تشكيل لجنة دولية لضمان متابعة ما يتعلق بالتعويضات والإقامة.

سادساً: نهاية النـزاع: يمثل هـذا الاتفـاق بوضـوح نهاية النــزاع، ويضع تطبيقه حداً لأي مطالبة[69].

وفي مفاوضات واشنطن وافق الطـرف "الإسـرائيلي" لأول مـرة في 21 كـانون أول/ ديسـمبر على تقـديم تنـازلات بشـأن السـيادة على القدس الشرقية، وفي 27 من الشهر نفسه ألغى عرفات اجتماعـاً مع باراك رافضاً الخطوط العامة للاتفاقية المقترحة. وفي 3 كانون ثاني/ ينـاير 2001 وافق عرفـات من حيث المبـدأ على مقترحـات كلـنيتون كإطار للتسوية، لكنه أبـدى تحفظـات هامة عليهـا، وفي اليـوم التـالي رفض الإعلان بوضـوح عن موافقته على المقترحـات حيث لا يسـمح المشروع لملايين اللاجئين بالعودة إلى الأرض المحتلة عام 1948، كما لا يحـدد بوضـوح الحـدود المقترحة للدولة الفلسـطينية. ولقي موقف عرفات دعم الزعماء العرب في اجتماع في القاهرة حول حق اللاجئين في العـودة. وقد وصف البعض المقترحـات الأمريكية بأنها مقترحـات "إسرائيلية" بثـوب أمـريكي. ورغم أن "الإسـرائيليين" وافقـوا مبـدئياً على الاقتراحـات كإطـار للتسـوية ألا أنهم أبـدوا من جهتهم بعض التحفظات. ورفض باراك سيادة الفلسطينيين على المسـجد الأقصى[70].

وفشـلت محادثـات واشـنطن وانتهت ولاية كلينتـون دون التوصل إلى اتفاق.

وقد كـان كلينتـون من الغرابة والوقاحة إلى حد أنه وصف أن جـوهر المشكلة "هو أن اليهود عندما عادوا إلى وطنهم وجدوا أن هناك شعباً آخر"!! حسبما ذكر في خطاب في واشنطن في 8 كانون ثـاني/ ينـاير 2001[71].

وفي محاولة أخـيرة لإنجـاز التسـوية قبل الانتخابـات "الإسـرائيلية" عُقدت في "طابا" المصرية مباحثات 20 ـ 27 كانون ثاني/ يناير 2001 ولم تتمكن من الوصول إلى تسوية نهائيـة، لكن بيانـاً مشـتركاً ذكر أن الطرفين "كانا أقرب من أي وقت مضى للوصـول إلى تسـوية" وأنهما سيوصلان المحادثات بعد الانتخابات "الإسرائيلية"[72].

شارون وتعطّل مسار التسوية:

فاز أريل شـارون برئاسة الـوزراء في الانتخابـات العامة الـتي عقـدت في 6 شباط/ فبراير 2001 ضد منافسه بـاراك وبفـارق تـاريخي كبـير يزيد عن 25%، مما أكد ازديـاد التطـرف والتشـدد لـدى المجتمع الصهيوني.

وقد أعـاد شـارون مسـار التسـوية سـنوات إلى الـوراء، فعـرض على الفلسطينيين حكماً ذاتياً على 40 -ـ 45% من الضفة الغربيـة، ورفض الدخول في أي مباحثات قبل توقف الانتفاضة. وحـاول أن يُسـوّق في أواخر نوفمبر 2001 فكرة دولة غزة أولاً.

لقد جاء شارون ببرنامج أمـني يَعِد الصـهاينة بـالأمن عن طريق سـحق الانتفاضة بالقوة. وهو باعتباره أشد الصـهاينة تطرفـاً، وأكـثر من ولغ في دماء الفلسطينيين منذ الخمسينيات مـروراً بمـذابح صـبرا وشـاتيلا سـنة 1982، وأنشط من شـجع الاسـتيطان ومصـادرة الأراضي في الضـفة والقطـاع عنـدما كـان وزيـراً للإسـكان...، فقد جـاء إلى الحكم بعقلية العسـكري الجـنرال ووزير الـدفاع السـابق الـذي يـرى العنف أفضل وسيلة للتعامل. ولذلك لم تكن عملية التسوية من أولوياتـه، ولا استرضاء الفلسطينيين ضمن برنامجه.

وقد وعد "الإسرائيليين" بـالأمن خلال مائة يـوم، لكنه فشل (بعد أكـثر من سنة ونصف من انتخابه) في ذلك فشلاً ذريعـاً، ولا تـزال المقاومة الفلسـطينية توجه ضـربات قاسـية في العمق الصـهيوني الـذي يعيش حالة من الـتردي والهلـع. لكن المجتمع "الإسـرائيلي" لا يـزال يـدعم شارون وبرنامجه، لأنه ربما كان السهم الأخير في جعبة التطرف لديه، ولأنه يقود حكومة وحدة وطنيـة، أي أن البـدائل الأفضل غـير متـوفرة حالياً.

ولأن المجتمع الصهيوني يعلم أن سقوط شارون يعني ثمناً كبيراً يجب دفعه للفلسطينيين.

مبادرة الأمير عبد الله:

وفي شهر فبراير 2002 رشحت أنباء عن مبادرة لولي العهد السعودي الأمـير عبد الله في مقابلة أجراها الأمـير مع تومـاس فريـدمان كـاتب التحقيقات في النيويورك تايمز وتـداولتها وسـائل الإعلام العربية في 18 فبراير 2002.

والمبادرة الـتي أكـدتها السـعودية رسـمياً فيما بعد ترتكز أساسـاً على فكـرة الانسـحاب الإسـرائيلي الكامل من الأرض المحتلة سـنة 1967

وقيـام الدولة الفلسـطينية عليهـا، مقابل السـلام الكامل والاعـتراف والتطبيع العربي الشامل مع "إسرائيل".

والمبادرة لا تختلف كثيراً عن المبادرات العربية السابقة، سـوى - ربما - في وضوحها فيما يتعلق بالتطبيع العربي الشامل.

وقد لقيت المبادرة ترحيبا أمريكياً وأوروبياً مبدئياً، كما لقيت ترحيباً من الأمين العـام للأمم المتحـدة، ومن عـدد من الأطـراف العربيـة. ولكن حدثت تساؤلات حول موقف المبـادرة من حق اللاجـئين الفلسـطينيين بالعودة إلى أرضهم، وقد أكد الأمير عبد الله على عدم التنازل عن هذا الحق.

وقد حـاول الكيـان الإسـرائيلي الالتفـاف على المبـادرة بـإعلان أنها خطـوة إيجابية واسـتعداد شـارون لمقابلة الأمـير عبد اللـه، غـير أن شارون رفض مبدأ الانسـحاب من كل الأرض المحتلة سـنة 1967. وقد رفضت السـعودية العـرض الإسـرائيلي، وقـالت إن اخـتزال إسـرائيل للمبادرة في شكل عقد لقاءات ثنائية يكشف رفض إسرائيل للمبادرة.

وقد قرر الأمير عبد الله طرح مبادرته في مـؤتمر القمة العـربي الـتي انعقدت في بيروت في 27 ـ 28 مارس 2002. وبالفعل، تبنى مؤتمر القمة العربي المبادرة وحوَّلها إلى مبادرة عربية شاملة، غير أن غيـاب 11 رئيس دولة عربيـاً بالإضـافة إلى عـدم قـدرة ياسر عرفـات على حضور القمة بسبب الحصار الإسرائيلي على مقره قد أضعف من قـوة زخم هذه المبادرة.

قرار مجلس الأمن الدولي:

ومن جهة أخـرى أصـدر مجلس الأمن الـدولي في 12 مـارس 2002 قراره رقم 1397 أوضح فيه لأول مرة رؤيته لمستقبل الصـراع بقيـام دولة فلسطينية تتعـايش إلى جـانب "إسـرائيل". ولكن هـذا القـرار لم يحـدد جـدولاً زمنيـاً لـذلك، ولم يتخذ طابعـاً إلزاميـاً "لإسـرائيل" بالانسحاب، كما لم يحدد شكل الدولة ولا حدودها.

وبعد ذلك بنحو ثلاثة أشـهر ونصف (26 يونيو 2002) قـدم الـرئيس الأمـريكي جـورج بـوش رؤيته للتسـوية السـلمية. ووضع شـروطاً مسـتحيلة للوصـول إلى قيـام الدولة الفلسـطينية. فقد طـالب بوقف الانتفاضة وسـيطرة السـلطة تمامـاً على الأوضـاع، وإصـلاح السـلطة ومؤسسـاتها، وتغيـير القيـادة الفلسـطينية بما فيها عرفـات.... وقد أثارت شروطها مشاعر بالمرارة والسخرية فلسطينياً وعربيـاً ودوليـاً، وحتى في أوسـاط حلفائه الأوربـيين، بل وحـتى من قيـادات سياسـية إسرائيلية. واعتبره الكثيرون ممثلاً ليس لمصالح وبرامج الإسـرائيليين فقـط، وإنما لرؤية شـارون والليكـود للتسـوية... حـتى إن عـدداً من قيادات حزب العمل الإسرائيلي انتقدت المبادرة.

وقد عكست مبـادرة بـوش مـدى النفـوذ الصـهيوني " الليكـودي" في الإدارة الأمريكيـة، ومـدى إيغـال الولايـات المتحـدة في الاسـتخفاف

بحقوق الفلسطينيين حتى تلك التي أقرتها مواثيق الأمم المتحدة وقراراتها. بينما اعتبرها الآخرون أنها في أحسن الأحوال تعكس مدى جهل الرئيس بوش بحقائق الوضع على الأرض في فلسطين.

رؤية تحليلية للموقف العربي والفلسطيني و"الإسرائيلي" من التسوية

من خلال العرض السابق، لاحظنا أن إقبال الأنظمة العربية و م.ت.ف على المشاركة في عملية التسوية السلمية ينطلق أساساً من خلفيتين:

الأولى: حالة العجز العربي واختلال موازين القوى بما يجعل مستحيلاً في المدى المنظور تحرير فلسطين بالوسائل العسكرية.

والثانية: عامل الزمن، وشعور الأنظمة العربية أن الزمن لا يعمل لصالحها حيث يقوم الكيان الصهيوني ببناء الحقائق على الأرض، وأن الأولى إيقاف تمدُّد المشروع الصهيوني، وإنقاذ ما يمكن من أرض قبل فوات الأوان.

وقد يبدو هذا التفكير للوهلة الأولى منطقياً، لكن المشكلة الأساسية تكمن في التعامل مع العجز المؤقت باعتباره قدراً وعجزاً دائماً، وفي الاستسلام ابتداءً إلى مستقبل منهزم، فضلاً عن الحاضر المتردي. كما أنه تفكير لا يدرك تماماً حاجة العدو الصهيوني الماسة للتسوية لتجاوز العديد من أزماته ومشاكله. وهو تفكير يُعبِّر عن إشكالية غياب الإرادة، وغياب الرؤية لأدوات التغيير في المستقبل، كما أنه لا يستوعب دروس التاريخ التي انتهت عادة بإزالة الاستعمار والاحتلال ولو بعد مئات السنين، ما دام هناك شعوب لم تنس قضيتها ومستعدة للبذل في سبيلها. وهو يكشف في الوقت نفسه حالة الأنظمة العربية في الانكفاء القطري على مصالحها الخاصة، وفقدانها لاستراتيجيات مشتركة جادة في تحقيق الوحدة التي لن تقوم إلا بزوال الكيان الصهيوني، كما أن الكيان الصهيوني لن يزول إلا إذا خطى مشروع الوحدة خطوات كبرى. ويميط التدقيق في الموضوع اللثام عن الأزمة الداخلية التي تعيشها هذه الأنظمة. إذ إن الانتصار على المشروع الصهيوني يستدعي مشروعاً حضارياً، وحالة نهضوية عامة، لا يمكن أن تكون بداياتها الأولى إلاَّ بفتح أبواب الحريات للجماهير، والمشاركة الشعبية في الحكم من خلال مؤسسات شورية "ديموقراطية" تستطيع أن تنتخب الكفؤ، وتحاسب المقصر وتعزله. ويأمن الناس على حقوقهم وأموالهم وأعراضهم. وعند ذلك يمكن أن تعود الأموال المهاجرة والعقول المهاجرة ... ولا يمكن لهذا المشروع أن يستقيم إلا إذا توافق مع عقيدة الأمة وتراثها، بحيث يمكن أن يفجر فيها العزة والكرامة وروح التضحية والإبداع. وما دامت الأنظمة مستندة إلى الجيش والمخابرات وأقلية من المنتفعين ... فإن مشروع النهضة سيبقى معطّلاً وبالتالي سيتعطل مشروع التحرير، وسيكون العجز والتسوية السلمية هو البديل الوحيد الذي تُلحُّ الأنظمة على إقناعنا به.

كما لا بد من الإشارة إلى أن الأنظمة العربية والإسلامية تعاملت مع قضية فلسطين ليس بوصفها قضيتها الأساسية المركزية، وإنما بوصفها قضية "جيران" تعرضوا للظلم ويحتاجون بعض الدعاء والمساعدة. وعلى هؤلاء "الجيران" أن يُقدِّروا "الضيافة"، وأن يعلموا

أن للمساعدة حدوداً، فلا يستطيع هؤلاء تنظيم أنفسهم وتشكيل مؤسساتهم بحرية في تلك الأقطار، ولا يستطيعون إقامة قواعد عسكرية أو اختراق حدود بلاد الطوق العربي لتنفيذ عمليات المقاومة. والمشكلة هنا أن "النظام العربي" لا يشعر أن بيته هو الذي يحترق، وأن العدو انتهك حرمة منزله. وهذا جوهر إشكالية النظام القطري في التعامل مع قضايا "الأمة". على أن الوجه الآخر للموضوع هو عدم إدراك الأنظمة العربية والإسلامية لطبيعة المشروع الصهيوني وأهدافه، والذي لم يستهدف الفلسطينيين فقط ولا فلسطين وحدها. إن احتلال المشروع الصهيوني لفلسطين هو مجرد ركيزة ومنطلق لإبقاء الأمة العربية والإسلامية ضعيفة مفككة يمنع وحدتها ونهضتها ويبقيها في دوائر التخلف والتبعية. لأنه يدرك تماماً أن قوة الأمة ووحدتها خطر أكيد على بقائه ويعني زواله عاجلاً أم آجلاً. وبالتالي فإن شرط نُموِّه وبقائه مرتبط بضعف الأمة وتفككها، كما أن وحدة الأمة ونهضتها مشروطة بإنهاء هذا المشروع وزواله.

وفي الجانب الفلسطيني يتنازع الفلسطينيين تياران أساسيان تجاه التسوية، الأول هو تيار القيادة المتنفذة في م.ت.ف وتدعمه أساساً حركة فتح وهو يدعم مسار التسوية واتفاقات أوسلو، والثاني هو تيار المعارضة الفلسطينية الذي تقوده أساساً حركة حماس وعدد من فصائل المقاومة كالجهاد الإسلامي والشعبية والديموقراطية وغيرها. وفي مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة يكاد التياران يتناصفان الدعم الجماهيري. أما في خارج فلسطين حيث يوجد أكثر من نصف شعب فلسطين، والذي ستحرمهم أية تسوية سلمية من حقهم في العودة إلى وطنهم، فإن هناك مؤشرات على رفض الغالبية لاتفاقيات أوسلو وما ينبني عليها.

غير أنه ينبغي التفريق بين قبول الفلسطينيين للتسوية السياسية كحل مرحلي هو أفضل ما يمكن تحصيله في الظرف الراهن، وبين إيمانهم بحقهم المطلق في فلسطين من نهرها إلى بحرها، وإيمانهم بضرورة زوال الكيان الصهيوني. بمعنى أن الأغلبية الساحقة للفلسطينيين غير مقتنعة "بعدالة" التسوية السياسية أياً كانت، ولا مقتنعة بأن هذا الحل هو حل "دائم". وعلى سبيل المثال فعندما كانت اتفاقية أوسلو تعيش أفضل أيامها في البداية مع وعود الرخاء وانسحاب المحتلين وإقامة الدولة الفلسطينية فإن أكثر الذين عبأوا استطلاعاً للرأي العام حول موقفهم من اتفاق أوسلو أبدوا موافقة عليه (نحو 55%). وأجاب نفس الذين عبأوا هذا الاستطلاع على سؤال آخر حول إيمانهم بحقهم في فلسطين المحتلة سنة 1948 (الأرض التي قام عليها الكيان الصهيوني، والخارجة عن دائرة التفاوض أصلاً) فأجاب 86% بأنهم يؤمنون بحقهم فيها. مع العلم أن الذين قاموا بالاستبيان كانوا من مؤسسات تدعمها م.ت.ف التي تبنت التسوية.

وبالنسبة للشعب الفلسطيني فإن كلمة "الحل العادل والدائم" التي تُطرح عادة في كل مشاريع التسوية، تصبح مصطلحاً عبثياً يفقد دلالته الحقيقية. فهل يستطيع أحد أن يقنع 4.8 ملايين لاجئ فلسطيني خارج فلسطين بأن الحل العادل الدائم يكمن في توطينهم حيث هم، وفي ترك أرضهم لليهود الصهاينة؟! وفي أن للصهاينة حقاً في 77% من أرض فلسطين لينشئوا عليها دولتهم لقد أشارت استطلاعات الرأي العام التي أجريت مؤخراً وسط اللاجئين الفلسطينيين أن 98%

منهم يرفضون التنازل عن حقهم في العـودة إلى الأرض المحتلة عـام 1948، ويرفضون التوطين أو التعويض. وفوق ذلك من يملك أن يقنع العـرب بـالتخلي عن عروبة فلسـطين؟ ومن يملك أن يقنع المسـلمين بالتخلي عن إسلاميتها وقدسيتها؟

إن إشـكالية التسـوية تكمن في أنها تحمل بـذور فشـلها في ذاتهـا، وتحمل عناصر تفجيرها في بنودها. وستبقى مسـألة الأرض وهويتهـا، ومسألة العـودة، ومسـألة القـدس ... تضـطرم في النفـوس وسـتظل تتفجر بين آن وآخر لتؤكد أن "السلام" غير عادل ولا دائم.

وقد أفـرزت انتفاضة الأقصى واقعـاً جديـداً وحَّد مختلف التيـارات الفلسـطينية (بما فيها فتح) حـول برنـامج المقاومـة. واكتسب خيـار الجهـاد مصـداقية وشـعبية متزايـدة، ووصل الأمر إلى أن يزيد عـدد مؤيـدي العمليـات الاستشـهادية (حـتى وإن كـانت ضد المـدنيين الإسـرائيليين) في اسـتطلاعات الـرأي العـام المحايـدة في الضـفة والقطاع إلى نحو 80%. وقد وضـعت الانتفاضة مشـروع التسـوية في مهب الريح. وإذا كان هذا المشروع يمشي على عُكّازين في السـنوات الماضية، فقد بدا عاجزاً حتى عن استخدام العكازات!!

أما في الجـانب "الإسـرائيلي" الصـهيوني فـإن الرغبة في التسـوية السلمية ترتكز أساسـاً على قضـية جوهرية تـؤرِّق قادته وهي التحـول إلى كيان سياسي "طبيعي" في المنطقة. وتحويل النظرة إلى الكيـان الصهيوني من كيان "سـرطاني" وخطر يجب استئصـاله، إلى "ظـاهرة صحية" طبيعية. لأن الجانب الصهيوني يـدرك تمامـاً أن لا مسـتقبل له في المنطقة دون ذلـك. وأنه ما دامت حالة العـداء موجـودة وما دامت المعركة معركة أجيـال متواصـلة، فـإن العـرب والمسـلمين سـيملكون يومـاً ما - مهما طـال - أدوات القـوة والـدمار الشـامل، كما لن تبقى الظروف السياسية العربية والإسـلامية والدولية على حالها إلى الأبـد، وبالتالي فإن هذا الكيان سـيبقى مهـدداً بـالزوال لحظة تغـير مـوازين القوى.

لقد دفع هـذا الشـعور رئيس المنظمة الصـهيونية العالمية نـاحوم جولدمان N. Goldman (1956 - 1968)، وهي المنظمة التي أنشأت الكيان الصهيوني إلى القول "لا يوجد لإسرائيل مسـتقبل على المـدى الطويل دون تسـوية سـلمية مع العـرب". بل واعـترف أن بن جوريـون (الـذي قـام على أكتافه إنشـاء الكيـان الصـهيوني، وكـان أول رئيس وزراء له والشخصية الأولى فيه حـتى نحو 1963) قـال له سـنة 1956 إن الدولة اليهودية ستسـتمر في العشر أو الخمس عشر سـنة القادمة ولكن احتمـالات وجودها بعد ذلك هي 50%. وعلى هـذا فـإن الجـانب الصهيوني بحاجة ماسة إلى تسـوية تضـمن بقـاءه. وأفضل وقت يمكن عقد تسوية فيه هو هـذا الـوقت الـذي اجتمعت فيه خمسة عناصر قلما تجتمع في ظرف تاريخي واحد وهي:

1. قوة الكيان الصهيوني بحيث يستطيع هزيمة البلاد العربية مجتمعة.

2. قـوة النفـوذ اليهـودي الصـهيوني الـدولي، وبلوغه درجة كـبرى من العلو في الأرض، تمكنه من الضغط والتأثير على القرار السياسي في الولايات المتحدة ومعظم الدول الكبرى.

3. وقـوف الدولة الأقـوى في العـالم "الولايـات المتحـدة" مع الكيـان الصهيوني، وتحالفها الاسـتراتيجي معـه. وخضـوع العـالم حاليـاً لوضع "أحادي القطبية" بقيادة الولايات المتحدة وحدها.

4. حالة ضعف وعجز وانهزام عربي وإسلامي عام.

5. إن م.ت.ف وهي الطرف الذي يمثل الفلسـطينيين قد دخلت بقـوة في مشروع التسوية، وقبلت بالاعتراف بالكيان الصـهيوني، وحقه في العيش ضمن حدود آمنة على 77% من أرض فلسطين التاريخية.

لكن الصهاينة ينقسمون إلى مدرستين تجاه التسوية السلمية، وشـكل تحقيقها:

المدرسة الأولى: مدرسة حزب العمل ومن يدور في فلكه، وهو الحزب الذي قام على عاتقه إنشاء الكيان الصهيوني وقيادته حتى سنة 1977 (ثم تداول القيادة مع الليكـود). وهي مدرسـةٌ تركز على الحفـاظ على الطابع اليهودي للكيان الإسرائيلي، وتسـعى بشـكل أكـبر إلى التحـول إلى كيان طبيعي في المنطقة. هي بالتـالي لا تضع في هـذه المرحلة عملية التوسع الجغـــرافي على رأس أولوياتهـــا، لأنها تـــدرك أن ضم أراضي جديدة يسكن عليها ملايين العرب، في الوقت الذي نضـبت فيه ينابيع الهجرة اليهودية ... سيؤدي إلى فقدان الكيـان هويته اليهوديـة، كما سيشـغله بمصـاعب أمنية واقتصـادية كبـيرة، ولـذلك تسـعى هـذه المدرسة لتحقيق مخططها الصـــهيوني في هـــذه المرحلة من خلال الهيمنة الاقتصادية على المنطقة، وتحولها إلى كيان طبيعي من خلال إيجاد أوضاع سياسية وثقافية وإعلامية وأمنية تخدم مثل ذلك التصـور. والمنظِّر الرئيسي له الآن هو شـمعون بـيريز الـذي طـرح أفكـاره من خلال كتابه "شرق أوسط جديد".

المدرسة الثانيـة: مدرسة حـزب الليكـود، وهو الحـزب الـذي يتـداول السلطة مع حزب العمل منذ 1977 (بيغن - شامير - نتنيـاهو - شـارون ..). وهي مدرسة تمجِّد اسـتخدام القـوة، وتؤكد على فكـرة الحـدود التاريخية للكيان الإسرائيلي. وكان مؤسس الحزب ورئيسه بيغن يقول "أنا أقاتل، إذن أنا موجود"، وهو وحزبه يَعدَّان الأردن أرضـاً إسـرائيلية محتلـة. ومع ذلك فـإن هـذه المدرسة مسـتعدة للتعـاطي مع العمل السياسي وفق ما يخـدم المصـلحة الإسـرائيلية تكتيكيـاً. لكن هـذه المدرسة لا تثق بـأن العـرب والمسـلمين سـيتحولون يومـاً ما إلى أصدقاء، وهي ليست مطمئنة إلى فكرة التحول إلى كيان طبيعي، وإن كانت ترغب بذلك. كما أنها لا ترى في ظـلِّ الأوضـاع ومـوازين القـوى الـتي تمثل إلى صـالحها بشـكل صـارخ ما يجبرها على تقـديم تنـازلات للفلسـطينيين والعـرب. وتـرى أن الأفضل هو العمل الحـثيث على استجلاب مزيد من اليهود وتهويد للضفة والقطـاع، وبنـاء حقـائق على الأرض يستحيل التنازل عنها، وخلال ذلك الزمن إما أن يستجيب العرب والفلسـطينيون للتصـور الليكـودي للتسـوية (حكم ذاتي على السـكان وليس على الأرض)، أو أن يكـــون قد تم تهويد الأرض. كما يأمل بعض المحسـوبين على هـذه المدرسة بتحقيق تهجـير طـوعي أو قسـري للفلسطينيين من الأرض المحتلة سـنة 1948 والضـفة الغربية وقطـاع غزة ... وبـذلك "يحلّـون المشـكلة من جـذورها" ويجيبـون على مسـألة تحدي بقاء الدولة اليهودية.

وعلى ذلــك، فــإن إشــكالية التســوية عند الصــهاينة مرتبطة بعملية المزاوجة بين مثلث:

1. الحفاظ على الأمن.

2. والحفاظ على الأرض.

3. والحفاظ على الهوية اليهودية للدولة.

وقد تختلف أضلاع المثلث وزواياه عند جهة دون أخرى بناء على ترتيب الأولويــات أو تحليل الأمــور. لكن هنــاك قواسم مشــتركة بين كافة الأطراف الصهيونية من أقصى يمينها إلى أقصى شمالها:

1. لا تنــــازل عن الأرض المحتلة ســــنة 1948 أي نحو 77% من أرض فلسطين.

2. لا لحق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى الأرض المحتلة عام 1948، لأنه يعني عملياً فقـدان اليهـود للأغلبية السـكانية وفقـدان المشـروع الصــهيوني لأســاس تكوينــه، وهو بنــاء الدولة اليهوديــة. (اللاجئــون الفلسـطينيون الـذين ينتمـون إلى مـدن وقـرى وبادية الأرض المحتلة سـنة 1948 يقـدرون بخمسة ملايين ومائة ألف حاليـاً، فلو عـاد هـؤلاء وانضــموا إلى إخــوانهم المليــون و150 ألف فلســطيني لا يزالــون يعيشون تحت حكم الكيان الإسرائيلي في أرض الـ1948 لأصبح عددهم أكبر من المجموع الكلي لليهود في فلسطين. إذ يقدر عدد اليهـود في فلسطين المحتلة بخمسة ملايين حسب إحصاءات سنة 2000).

3. لا تزال الأغلبية الساحقة لكافة التيارات الصهيونية تـرفض التنـازل عن السيادة عن القدس الشرقية، وخصوصاً منطقة المسجد الأقصـى، باعتبارها "جبل المعبد".

4. توافق كافة الأطراف الصهيونية أن الدولة الفلسطينية إذا ما قامت في الضـــفة والقطـــاع فيجب ألا تكـــون مكتملة الســـيادة بـــالمفهوم المتعارف عليه سياسياً ودولياً، كأن تكون منـزوعة من السلاح الثقيل، وأن تضمن الأمن الصهيوني من جهتها.

وأن على العرب والفلسطينيين الـذين لا تعجبهم القواسم الصـهيونية المشــتركة، أن يبحثــوا عن حل غــير التســوية الســلمية. وقد يوافق الصهاينة على عودة رمزية لنسبة ضـئيلة من اللاجـئين، وقد يوافقـون على بعض الترتيبات الحدودية بتبـادل بعض الأراضـي، بشـرط ألا يغـير ذلك من جوهر الأوضاع.

وقد انعكست مفاوضات كـامب ديفيد (يوليو 2000) وانتفاضة الأقصى (منذ 28 سبتمبر 2000) على مزاج المجتمع الصهيوني تجـاه التسـوية. إذ ظن "الإسـرائيليون" أنهم قـدموا أفضل ما لـديهم في المفاوضـات "دونما فائــدة"، وأدت حالة "الإحبــاط" هــذه إلى تزايد الشــعور بــأن الفلسـطينيين لا تنفع معهم سـوى لغة القـوة. وقـوَّت الانتفاضة هـذه المشاعر فـانزوى ما يسـمى بتيـار "معسـكر السـلام" الإسـرائيلي، بل وأظهرت الكثير من رموزه عنفاً وتطرفاً وشراسة كبـيرة. وتمكن تيـار الليكود من الفـوز بانتخابـات رئاسة الـوزراء بأغلبية تاريخية لم يسـبق لها مثيل (بفــارق 25.7%) وظلت إلى الآن اســتفتاءات الــرأي العــام تدفع باتجاه الخيار الأمني، واستخدام وسائل أكثر وحشية وعنفاً.

وما يهمنا الإشارة إليه هنا الآن هو أن التيار المعادي للتسوية السلمية، وفق الحد الأدنى الفلسطيني، بل ووفق الحد الذي طرحه حزب العمل هو تيار واسع قوي يمكن أن يتسبب في إسقاط التسوية أو تعطيلها، وهو ليس تياراً معارضاً بعيداً عن السلطة، وإنما هو تيار يشارك في الحكم بل وينفرد به أحياناً عديدة، كما حدث خلال الخمس وعشرين سنة الماضية. وبالتالي فهو ليس مجرد تيار معارض يمكن قمعه وإسكاته كما يحدث في بلادنا العربية.

إن سلوك المجتمع الصهيوني النفسي العام يتأثر أساساً بقضيتين أو عقدتين اثنتين:

الأولى: الأمن.

والثانية: الوضع الاقتصادي.

ولا شك أن هناك عوامل أخرى تلعب دورها كالجوانب الدينية والتاريخية. لكن عقدتا الأمن والمال هما جزء من التكوين التراثي الديني التاريخي اليهودي نفسه. وقد أشار إلى جانب منهما القرآن الكريم، إذ قال تعالى: "ولتجدنهم أحرص الناس على حياة يود أحدهم لو يعمَّر ألف سنة ..."، وذكر الله تعالى قول اليهود: "إن الله فقير ونحن أغنياء".

وهاتان القضيتان لهما دورهما الجوهري في صناعة الرأي العام "الإسرائيلي"، وفي صناعة القرار السياسي، وفي سلوك الفرد "الإسرائيلي" العادي. وعادة ما يتعامل المجتمع الصهيوني مع مشروع التسوية حسب ما يمكن أن يوفر له من أمن ومنافع. ولذلك فإنهم عندما تعاملوا مع السلطة الفلسطينية كان كل شيء مرهوناً بما يمكن أن توفر لهم السلطة من أمن من خلال تولي مهمة قمع المعارضة الفلسطينية ومنعها من مواصلة الكفاح. ولم يتعاملوا معها بروح الشريك السياسي المكافئ، بقدر ما أرادوا التعامل معها كوكيل يتولى تنفيذ "المهام القذرة" بالنيابة معها. ولذلك عندما اندلعت الانتفاضة ارتفعت الأصوات بوجوب تغيير ياسر عرفات واستبداله، وكأنما هو موظف لديهم، وليس باعتباره شخصاً آخر يمثل شعباً آخر.

إن فكرة المشروع الصهيوني نفسه قائمة على إقناع اليهود بتوفير الأمن لهم والذي فقدوه بسبب ظهور المشكلة اليهودية في شرق أوربا، وتداعيات اضطهاد الزعيم الألماني هتلر لهم. ولأن "رأس المال جبان" فإن المشاكل الأمنية تؤدي عادة إلى أزمات اقتصادية، وهروب المال وأصحابه طلباً للسلامة. وهذا يُفسر جانباً من الهجرة اليهودية المعاكسة إلى أوربا وأمريكا بأعداد ضخمة إثر اندلاع انتفاضة الأقصى.

وعلى ذلك فإن السلوك "الإسرائيلي" يتجه عادة إلى التشدد والتصلب والقسوة في أثناء الأزمات في سبيل المحافظة على الأمن. لكنه لا يستطيع تحمُّل مشاكل وتحديات أمنية حقيقية ودائمة. وهذا ما يفسر قسوته في الرد لمحاولة حسم الأمور بسرعة. لكن المقاومة إذا صبرت وصمدت واستمرت في ضربها الموجع بحيث جعلت التكاليف "الإسرائيلية" أعلى من المكاسب، فإنه سيرتد ليحاول أن يجد الأمن في التسوية أو الانسحاب بعد أن فشل في إيجاده عبر آلة الحرب.

وطبيعة المجتمع الصهيوني لا تميل إلى التضحية والموت في سبيل المبادئ، ولا تتحمل الخسائر البشرية كثيراً. ونقطة الضعف هذه لديهم، هي نقطة القوة لدى المسلمين. وهي التي أدت في النهاية إلى انسحاب الكيان الصهيوني من جنوب لبنان دون قيد أو شرط.

وبشكل عام، فمن المتوقع أن يستمر "المجتمع الإسرائيلي" على تشدده وأن تستمر السياسيات الحكومية "الإسرائيلية" على تصلبها وفظاظتها، طالما لا تزال موازين القوى تميل إلى صالحها، وطالما لم تفقد أملها في سحق الانتفاضة. ولذلك فإن قدرة الانتفاضة على الاستمرار ستؤدي إلى سقوط شارون وسقوط الخيار الأمني الإسرائيلي. لكن القيادة السياسية الفلسطينية والعربية - على الأغلب - لن تستثمر ذلك باتجاه مشروع تحرير، وإنما باتجاه تسريع مشروع التسوية نفسه وفق ظروف أفضل بالنسبة لها.

انعكاسات مشروع التسوية على المنطقة

حقق المشروع الصهيوني نجاحاً كبيراً عندما عقد اتفاقية التسوية مع مصر أكبر وأقوى البلاد العربية، حيث تمكن من تحييدها وعزلها لسنوات عن محيطها العربي، مما هيأ له فرصة الاستفراد بشكل أفضل في تنفيذ مشروعه في المنطقة، فتضاعفت وتيرة الاستيطان والتهويد في الضفة والقطاع، وتم ضرب البنية التحتية للمقاومة الفلسطينية في لبنان. في الوقت الذي نحَّى فيه العرب جانباً الخيار العسكري مع خروج مصر من المعركة.

على أن توقيع قيادة م.ت.ف على اتفاقات أوسلو (1993)، وتوقيع الأردن على اتفاقات وادي عربة (1994) قد أدخل المنطقة في أوضاع جديدة. وبدا أن الكيان الصهيوني أخذ بالتحول إلى كيان طبيعي في المنطقة ... بينما أخذت تتصاعد وتيرة التطبيع وفتح العلاقات العربية والإسلامية مع الكيان الصهيوني. ولولا أن المقاومة الفلسطينية قد استمرت تحت قيادة حماس والجهاد الإسلامي والمعارضة الفلسطينية، ولولا أن الصهاينة قد استمروا في عنجهيتهم وإرهابهم وتسويفهم، ولولا أن انتفاضة الأقصى قد تفجرت، ولولا أن الشعوب العربية والإسلامية لا تزال ترفض بقوة التعامل مع الكيان اليهودي - الصهيوني ... لولا ذلك لربما سار التطبيع مسيرة كبيرة.

إنه إن قُدِّر لهذا المشروع النجاح وفق التصور "الإسرائيلي" - الأمريكي فإنه سيكون له انعكاسات خطيرة على المنطقة العربية والإسلامية، وبسبب المساحة الضيقة للكتابة في هذه الدراسة فإننا نحيل القارئ الكريم لبعض الدراسات المتخصصة، مثل كتاب التطبيع لغسان حمدان، وغيره كما يظهر في الهامش[73]، ونظهر هنا أبرز الآثار:

فمن الآثار السياسية للتسوية:

- تسويق الكيان الصهيوني ككيان طبيعي في المنطقة، له حق العيش ضمن حدود آمنة، أي حصول الكيان على "شرعية" فلسطينية - عربية.
- تكريس حالة التجزئة والقطرية والضعف في العالم العربي، وهي حالة لا يمكن أن يستمر الكيان الصهيوني بدونها.

- إسقاط قرارات الشرعية الدولية المتعلقة بفلسطين كقرار تقسيم فلسطين، وحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أرض 1948.

- زيادة التوتر داخل الصف الفلسطيني، حيث توجد معارضة قوية واسعة للتسوية.

- قمع كافة الحركات الإسلامية والوطنية المعارضة للتسوية في البلاد العربية، وقطع الطريق عليها للوصول إلى الحكم وفق الطرق الدستورية.

- وهذا، سيؤدي تراجع مسار "الديموقراطية" والحريات في العالم العربي، مما سيحدث حالة احتقان وأزمات داخلية كبيرة.

- هناك مخاوف كبيرة حقيقية من أن تمارس "إسرائيل" دور شرطي المنطقة الذي يحمل عصاه الغليظة لكل من يخرج عن "الطاعة".

- هناك احتمالات كبيرة أن تستمر البلاد العربية تدور في فلك التبعية للقرار السياسي "الإسرائيلي" - الأمريكي - الغربي.

- توفير ظروف أفضل للهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة حيث الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي.

وفي الجانب الاقتصادي:

- سيستفيد الكيان الصهيوني من القدرات المالية الهائلة والإمكانات الاقتصادية التي لديه في محاولة السيطرة على اقتصاديات المنطقة.

- ستنتهي المقاطعة الاقتصادية العربية - الإسلامية للكيان الصهيوني التي كلفته عشرات المليارات من الدولارات.

- ستوفر أجواء التسوية فرص نمو اقتصادي أفضل للكيان "الإسرائيلي" وهذا ما حدث فعلاً خلال الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين إذ قفز الناتج القومي "الإسرائيلي" من 15.3 مليار دولار أمريكي سنة 1983 إلى 105.4 مليار سنة 1999، وارتفع دخل الفرد "الإسرائيلي" إلى 18.300 دولار أمريكي ليشكل أحد أعلى الدخول في العالم.

- سيقوم الكيان الصهيوني بالاستثمار الاقتصادي في المنطقة حيث هناك عمالة أرخص، وشركات غير قادرة على المنافسة، مما يفتح المجال إلى مزيد من الأرباح. وسيكون أقدر على الإضرار بالاقتصاد المحلي لأي دولة عن طريق ضرب الأسعار أو السحب المفاجئ للأموال أو طرد العمال وغير ذلك. وهناك أخبار كثيرة عن نتائج سلبية ومأساوية أحياناً للتعاون الاقتصادي مع الكيان الصهيوني، فقد تحدثت تقارير عديدة عن دمار في محاصيل القمح والقطن المصرية باسم استخدام بذور مستوردة من الكيان الإسرائيلي كما حدث دمار مماثل في محاصيل الطماطم في المغرب للسبب نفسه.

وفي الجانب العسكري والأمني:

- تعمل الدول العربية - وعملت - على منع استخدام أراضيها كقواعد للعمل الفدائي، ومنع أي عمليات فدائية عبرها، وعلى حماية الحدود "الإسرائيلية" من جهتها.

- تحقيق الهيمنة العسكرية الإسرائيلية في المنطقة، ومنع الدول العربية من تطوير قدراتها العسكرية.

- تسهيل النشاط التجسسي "الإسرائيلي" في البلاد العربية تحت غطاء السفارات والسياحة والوفود وغيرها.

وفي الجانب الثقافي:

- إعادة النظر في مناهج التدريس، وحذف الآيات والأحاديث والمواد الدراسية المعادية لليهود والكيان الإسرائيلي (وقد حدثت العديد من المراجعات فعلاً).

- منع المواد الإعلامية والثقافية التحريضية وخطب الجمعة الموجهة ضد اليهود والكيان الصهيوني.

- استخدام وسائل الإعلام والثقافة لتقديم صورة إيجابية عن اليهود والكيان الصهيوني.

- التوقف عن تدريس قضية فلسطين، وعدم الإشارة إلى فلسطين بحدودها التاريخية. وتقديم "إسرائيل" بدلاً عنها ككيان جغرافي مجاور.

- إلغاء روح الجهاد، وإضعاف روح المقاومة والتضحية واعتبارها إرهاباً.

- فتح المجال للمواد الثقافية اليهودية والرؤى الصهيونية لغزو عقول العرب والمسلمين.

وفي الجانب الاجتماعي:

- استجلاب الكتب والدوريات والبرامج والأفلام الإسرائيلية الصهيونية التي تحمل في جنباتها الكثير من الفساد والتحريض على الرذيلة.

- ظهرت الكثير من الدلائل على قيام المخابرات "الإسرائيلية" بتعمد ترويج المخدرات في مصر وغيرها.

- ظهرت العديد من الدلائل على تعمد الصهاينة إرسال شبكات فساد إسرائيلية من العاهرات وبائعات الهوى بقصد إفساد القيم في المجتمع المصري والأردني (اللذين وقعا معاهدتا سلام). كما كشفت حالات تعمد نشر مرض الإيدز، حيث اعترفت عدد من الفتيات اليهوديات بتجنيد الموساد لهن بعد إصابتهن بالإيدز، حيث تم إقناعهن بالذهاب إلى الأندية الليلية ونشر الإيدز باعتباره خدمة قومية للكيان الإسرائيلي، وقد نشرت مجلة المجلة السعودية تحقيقاً عن هذا الموضوع.

- تشجيع وتمويل الرحلات واللقاءات الشبابية المختلطة بين الجنسين من عرب ويهود، نشراً للفساد، وتجنيداً للشباب في "الموساد" الإسرائيلي.

الحكم الشرعي للتسوية السلمية مع الكيان "الإسرائيلي"

تؤكد معظم فتاوى العلماء المسلمين الموثوقين على حرمة التسوية السياسية مع الكيان الإسرائيلي، وقد كان هناك حالة إجماع على إصدار مثل هذه الفتاوى من العلماء المسلمين المشهورين سواء كانوا رسميين أو غيرهم، وقد استمر ذلك حتى سنة 1977 عندما قام السادات بزيارة إلى الكيان الإسرائيلي حيث صدرت بعض الفتاوى الرسمية من بعض المؤسسات المصرية لدعم موقفه في ضوء المعارضة الشعبية الواسعة في معظم أرجاء العالم الإسلامي. وبشكل عام لجأت الأنظمة لتبرير مواقفها السياسية لتحصيل فتاوى من علماء موظفين لديها. غير أن التيار العام لعلماء المسلمين غير المرتبط بالخوف على الوظيفة والمصلحة استمر في تأكيد تحريم التسوية السلمية إلى وقتنا هذا.

وقد صدرت مئات الفتاوى بهذا الصدد منذ قـرار الأمم المتحـدة إنشـاء الكيان الإسرائيلي. وتحمل الفتـاوى عـادة نفس المضـامين الأساسـية دونما أي اختلاف جوهري. وأبرز هذه المضامين:

1. إن فلسطين أرض عربية إسلامية.

2. فلسطين ملك لأجيال المسلمين، وليس لأحد حق التنازل عنها كائناً من كان.

3. الجهاد هو طريق التحرير.

4. اليهود الصهاينة معتدون غاصبون، ولا يجـوز إقـرار الغاصب على ما اغتصبه.

5. ضرورة إعـادة القضـية إلى هويتها الإسـلامية، وتعبئة طاقـات الأمة باتجاهها.

ومن نمـاذج الفتـاوى، الفتـوى الـتي أصـدرها علمـاء الأزهر إثر قـرار تقسيم فلسطين في 29 نوفمبر 1947 والتي جاء فيها "إن قرار هيئة الأمم المتحدة قـرار من هيئة لا تملكـه، وهو قـرار باطل جـائر ليس له نصـيب من الحق ولا العدالـة، ففلسـطين ملك العـرب والمسـلمين ... وليس لأحد كائنـاً من كـان أن ينـازعهم فيها أو يمزقها ... اعلمـوا أن الجهـاد قد أصـبح فـرض عين على كل قـادر بنفسه أو مالـه، وأن من يتخلف عن هذا الواجب فقد باء بغضب من الله وإثم عظيم"[74].

وفي عام يناير 1956 أصدرت لجنة الفتوى في الأزهر فتوى تقـول إن "الصلح مع إسرائيل - كما يريده الداعون إليه - لا يجـوز شـرعاً لما فيه من إقرار الغاصب على الاسـتمرار في غصـبه، والاعـتراف بحقية يـده على ما اغتصبه، وتمكين المعتدي من البقاء على عدوانه" وأضافت إن على المسـلمين "أن يتعـاونوا جميعـاً على اختلاف ألسـنتهم وألـوانهم وأجناسهم لرد هذه البلاد إلى أهلها ...، وأن يعينوا المجاهدين بالسلاح وسائر القوى على الجهـاد في هـذا السـبيل ... ومن قصَّـر في ذلك أو فرَّط فيه أو خَذَّل المسلمين عنه أو دعا إلى ما من شأنه تفريق الكلمة وتشـتيت الشـمل والتمكين لـدول الاسـتعمار والصـهيونية من تنفيذ خططهم ضد العـرب والإسـلام ... فهو - في حكم الإسـلام - مفـارق جماعة المسلمين ومقترف أعظم الآثام"[75].

وجاء في فتـوى شـيخ الجـامع الأزهر ومفـتي الـديار المصـرية الشـيخ حسن مـأمون "إن ما فعله اليهـود في فلسـطين هو اعتـداء على بلد إسلامي يتعين على أهله أن يردوا هذا الاعتـداء بـالقوة حـتى يُجلـوهم عن بلدهم، ويعيدوها إلى حظيرة البلاد الإسلامية وهو فرض عين على كلٍّ منهم، وليس فـرض كفاية إذا قـام به البعض سـقط عن الآخـرين. ولما كـانت البلاد الإسـلامية تعتـبر كلها داراً لكل مسـلم فـإن فرضـية الجهـاد في حالة الاعتـداء تكـون واقعة على أهلها أولاً، وعلى غـيرهم من المسـلمين المقيمين في بلاد إسـلامية أخـرى ثانيـاً، لأنهم وإن لم يُعتد على بلادهم مباشرة إلا أن الاعتداء قد وقع عليهم بالاعتـداء على بلد إسلامي هو جزء من البلاد الإسلامية.

... الصلح إذا كان على أساس ردِّ الجزء الذي اعتُدي عليه إلى أهله كان صلحاً جـائزاً، وإن كـان على إقـرار الاعتـداء وتثبيته فإنه يكـون صـلحاً

باطلاً، لأنه إقرار لاعتداء باطـل، وما يـترتب على الباطل يكـون بـاطلاً مثله"[76].

وفي فبراير 1968 أصدر العلمـاء المشـاركون في المـؤتمر الإسـلامي الدولي في باكستان فتوى جاء فيها "أن الصلح مع هؤلاء المحاربين لا يجوز شرعاً، لما فيه من إقرار الغاصب على غصـبه، والاعـتراف بحقية يده على ما اغتصـبه. فلا يجـوز للمسـلمين أن يصـالحوا هـؤلاء اليهـود المعتدين، لأن ذلك يمكنِّهم من البقاء كدولة في هـذه البلاد الإسـلامية المقدسة. بل يجب على المسلمين أن يبذلوا قصـارى جهـودهم لتحرير هذه البلاد"[77].

وأعد د. محمد عثمان شـبير دراسة حـول هـذا الموضـوع بعنـوان "حكم الصـلح مع اليهـود" سـنة 1983، ثم اختصـرها على شـكل فتـوى في أكتوبر 1989 جاء فيها:

"أما بعد ... فإن الصلح مع اليهود اليوم لا يجوز شـرعاً لعـدم تـوفر أي شرط من شروط عقد الصلح فيـه. فقد وضع علماؤنا الأماجد شـروطاً ينبغي أن تتوفر في عقد الصلح مع المحاربين من غير المسلمين ومن هذه الشروط:

الشرط الأول: أن يتولى عقد الصلح إمام المسلمين أو نائبـه، فـإن لم يكن فأهل الحل والعقد، ممن تنطبق عليهم المواصفات الشرعية، وإلا اعتــبر العقد غــير صــحيح عند جمهــور الفقهــاء. وينبغي على إمــام المسلمين ألا ينفرد بمثل هذا القرار الخطـير، وإنما يجب عليه مراجعة العلماء العاملين الذين نذروا حيـاتهم لله تعـالى ولمصـلحة الأمـة، وأي قرار يصدر على غير هذه الصفة فلا يصح.

والملاحظ اليـوم أن قـرار الصـلح مع اليهـود يتخذ في غيـاب العلمـاء المخلصين الحريصين على مصلحة الأمـة، فلا يتحقق هـذا الشـرط في الصلح مع اليهود اليوم.

الشرط الثاني: أن يتحقق من الصـلح مصـلحة حقيقية راجحـة: كتقوية المسلمين والاستعداد لجولة قادمة.

وبتطبيق هذا الشـرط على الصـلح مع اليهـود اليـوم، نجد أنه لن يحقق للعرب والمسلمين مصلحة راجحـة، وتكـون المكاسب الكـبرى في هـذا الصـلح لصـالح اليهـود، إذ سيحصـلون بموجبه على الاعـتراف الـدولي الكامل بهم، وهذا بالتالي سـيؤدي إلى التغلغل الاقتصـادي الصـهيوني في المنطقة العربية والإسلامية، ونشر الفساد والانحلال في صـفوف شباب الأمة، والقيام بدور الشرطي لضرب أي تحرك عـربي وإسـلامي صادق، وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة.

أما المصلحة التي سيجنيها الشـعب الفلسـطيني من وراء هـذا الصـلح فهي إقامة دولة هزيلة على جــزء يســير من أرض فلســطين. فهــذه

المصلحة تتضاءل أمام المصالح التي يحققها الأعـداء من وراء الصــلح، فلا يتحقق هذا الشرط في الصلح مع اليهود اليوم.

الشــرط الثــالث: أن يخلو عقد الصــلح من الشــروط الفاسـدة، ومثَّل الفقهاء لذلك باقتطاع جزء من دار الإسلام، وإظهار الخمور والخنـازير في دار الإسلام.

وبتطبيق هذا الشرط على الصلح مع اليهود نجد أنه لا يتحقق فيـه، لأن الصــلح يقــوم على مبــدأ "مقايضة الأرض بالســلام" أي لا يمكن أن يتحقق الصلح بدون اقتطـاع اليهـود للجـزء الأكـبر من فلسـطين. ومن جهة ثانية فـإن الصــلح سـيؤدي إلى اخـتراق اليهـود للمنطقة العربية والإســلامية لنهب ثرواتهــا، وإفســاد شــبابها، والقضــاء على قوتها العسـكرية والمعنويـة. فلا يتحقق هـذا الشـرط في الصـلح مع اليهـود اليوم.

الشرط الرابع: أن يكون عقد الصلح مقدراً بمدة معينة، فلا يصح الصلح المؤبــد، وبخاصة مع الغاصــبين المعتــدين على الأعــراض والأديــان والمقدسات.

وبتطبيق هذا الشـرط على الصـلح مع اليهـود اليـوم نجد أنهم يريدونه صــلحاً دائمــاً، يتنــازل بموجبه المسـلمون عن جــزء كبــير من الأرض المباركة، ولا يجـوز لهم أن يطـالبوا بـذلك الجـزء المقطـوع فيما بعـد. ولضــمان ذلك لا بد أن تكــون تلك الدولة الــتي يســعى إليها رمــوز الفلســطينيين في الخــارج منــزوعة الســلاح أو مرتبطة في اتحــاد كونفدرالي مع الأردن بحيث، لا تقوم لها قائمة في يوم من الأيام. فلا يتحقق هذا الشرط في الصلح مع اليهود اليوم.

فإذا كانت شروط عقد الصلح غير متوفرة في الصلح مع اليهـود اليـوم فلا يجوز الصلح شـرعاً، ولا بد من أن تكـون معاملة المسـلمين لليهـود قائمة على أســاس الجهــاد، وأنه الطريق الوحيد لتحرير فلســطين، ويجب على المسلمين أن ينتبهوا جيداً لمخـاطر الوجـود اليهـودي على الأمة الإســلامية، ويحــذروا منها حــذراً شــديداً، ويخلصــوا الأمة من السرطان اليهودي الذي غرس في جسمها، لئلا يستفحل أمره وينتشر خطره"[78].

وعندما قامت م.ت.ف بعقد مجلسها الوطني التاسع عشر في منتصف نوفمبر 1988، واعترفت بالكيان الإسرائيلي وقرار تقسيم فلسطين، ودخلت بشكل حثيث في عملية التسـوية السـلمية. قـام العشـرات من كبــار علمــاء المســلمين والشخصــيات الإســلامية المرموقة وقــادة الحركات الإسلامية بـالتوقيع على فتـوى في أواخر عـام 1989 بشـأن الصلح مع اليهود. وجاءت توقيعات هـؤلاء العلمـاء من 19 بلـداً (مصـر، وفلسـطين، والأردن، وسـوريا، ولبنـان، والعـراق، والكـويت، وعُمـان، وتركيا، والهند، وأفغانستان، وماليزيا، وباكستان، والجزائر، والمغـرب، والسودان، وتونس، وجزر القمر، وغينيـا) وشـارك في التوقيع الشـيخ يوسف القرضـاوي ومحمد الغـزالي وغيرهما ... وكـانت هـذه التواقيع

هي ما أمكن جمعه على عجـل، دونما حملة منسـقة مسـتمرة ... وقد جاء في الفتوى:

"ونحن نعلن بما أخذ الله علينا من عهد وميثـاق في بيـان الحـق، أن الجهـاد هو السـبيل الوحيد لتحرير فلسـطين، وأنه لا يجـوز بحـال من الأحوال الاعتراف لليهود بشـبر من أرض فلسـطين. وليس لشـخص أو جهة أن تُقر اليهـود على أرض فلسـطين أو تتنـازل لهم عن أي جـزء منها أو تعترف لهم بأي حقٍّ فيها.

إن هـذا الاعـتراف خيانة لله والرسـول وللأمانة الـتي وكل إلى المسلمين المحافظة عليها ... إننا نوقن بأن فلسطين أرض إسـلامية، وسـتبقى إسـلامية، وسـيحررها أبطـال الإسـلام من دنس اليهـود كما حررها الفاتح صلاح الدين من دنس الصـليبيين. ولتعلمنّ نبـأه بعد حين ..."[79].

وعندما وقعت قيادة م.ت.ف اتفاقات أوسلو في سبتمبر 1993 تتـالت الفتـاوى من علمـاء المسـلمين في معظم بلـدان العـالم الإسـلامي والمهجر بعدم جـواز عقد الصـلح مع الكيـان الصـهيوني. وكـان أبرزها فتـوى وقعها معظم العلمـاء المشـار إليهم في الفتـوى السـابقة مع كثيرين غيرهم. وأصدر علماء فلسطين وعلماء الأردن فتاوى مماثلة.

وقد عكست هذا الفتاوى حقيقة أن التيار السائد بين علماء المسلمين (غـير الحكومـيين الرسـميين أي غـير المحسـوبين على الأنظمة الـتي تدعم السـلام ...) هو تيـار رافض للتسـوية، ويعتقد بحرمتها من وجهة النظر الشرعية.

وتكمن أهمية هذه الفتـاوى في تأثيرها الشـعبي الواسع على جمـاهير المسلمين في العـالم، وفي أنها تمثل قاعـدة انطلاق صـلبة للتيـارات والحركات الإسلامية التي تتبنى الجهاد طريقاً للتحريـر. كما أنها تمثل ركـيزة هامة للوقـوف في وجه التطـبيع وإقامة أية علاقة طبيعية مع الكيان الصهيوني. وبذلك فإنهم تسهم في إبقاء وترسيخ حالة العـداء، وتوجد حالة من التوتير الذي يجعل الانفجـار في وجه العملية السـلمية أمراً محتملاً عندما تنضج الظروف الملائمة له.

[1] انظر: أسعد زروق، إسـرائيل الكـبرى: دراسة في الفكر التوسـعي الصهيوني، ط2 (بيروت: مركز الأبحاث (م.ت.ف)، 1973)، ص87-89.

[2] انظر: هند البديري، مرجع سـابق، (ملحق الخرائـط)، وعبد الوهـاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص112.

[3] نشرت بريطانيا هذا المشروع ضمن ما يعـرف بتقرير بيـل، انظـر: حكومة فلســطين، تقرير اللجنة الملكيــة: الكتــاب الأبيض رقم 5479، النسخة العربية الرسمية (القدس: حكومة فلسطين، 1937).

[4] انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص492-494.

[5] See: Palestine Statement of Policy, May 1939, Cmd. 6019 (London: H. N. S. O., 1939).

[6] انظر: الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص300-302، وخلة، مرجع سابق، ص733-743.

[7] الموسوعة الفلسطينية، ج4، ص72.

[8] انظر: فلاح علي، مرجع سابق، ص141، وص181، وص195-197، وص205، وحـــرب فلســـطين 1947-1948 (الرواية الإســـرائيلية الرسمية)، ص26، وص87.

[9] الموسوعة الفلسطينية، ج4، ص52-54.

[10] حول رفع قضية فلسـطين إلى الأمم المتحـدة وصـولاً إلى اتخـاذ قرار التقسيم، انظر مثلاً: المرجع نفسه، ج1، ص558-563، وانظر:

Zafrul – Islam Khan, Palestine Documents (New Delhi: Pharos Media, 1998), pp.232-268. (Hearafter reduced to as Palestine Documents).

[11] انظر نص القرار في : Palestine Documents, pp.276-279.

[12] انظر حول هذه اللجنة في: الموسوعة الفلسطينية، ج4، ص19-21، ومنـــير الهـــور وطـــارق الموســـى، مشـــاريع التســـوية للقضـــية الفلسطينية 1947-1985، ط2 (عمـان (الأردن): دار الجليـل، 1986)، ص38-39.

[13] انظر نص القرار في : Palestine Documents, pp.288-289.

[14] حـول المشـروع الـنرويجي ومشـروع جاما ومشـروع جونسـتون، انظر: الهور، مرجع سابق، ص50-55.

[15] انظر: المرجع نفسه، ص55-57، والموسـوعة الفلسـطينية، ج2، ص393-394.

[16] انظر: حسين أبو النمل، مرجع سابق، ص84-96.

[17] الهور، مرجع سابق، ص57-58.

[18] المرجع نفســه، ص60-63، والموســوعة الفلســطينية، ج4، ص 548-549.

[19] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص110-111.

[20] الهور، مرجع سابق، ص63-64.

[21] المرجع نفسه، ص64.

[22] المرجع نفسه، ص80-82.

[23] انظر: المرجع نفسه، ص84-85، والموسوعة الفلسطينية، ج2، ص183-185، وانظر:

Palestine Documents, pp.296-297.

[24] الموسوعة الفلسطينية، ج2، ص260.

[25] انظر: الهور، مرجع سابق، ص86-87، وصلاح خلف، مرجع سابق، ص123، وص140.

[26] حول مهمة يارنج وجولاته، انظر: الهور، مرجع سابق، ص86-113.

[27] حول مشروع روجرز انظر: الهور، مرجع سابق، ص121-127، والموسوعة الفلسطينية، ج2، ص488-490.

[28] الهور، مرجع سابق، ص129.

[29] حوراني، مرجع سابق، ص178-181.

[30] الهور، مرجع سابق، ص136-137، وانظر نص القرار في:

Palestine Documents, pp.307-308.

[31] الهور، مرجع سابق، ص137-139.

[32] المرجع نفسه، ص147-157، والموسوعة الفلسطينية، ج2، ص 568-571.

[33] حول هذا الموضوع، انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج1، ص552-557.

[34] انظر: صلاح خلف، مرجع سابق، ص104.

[35] انظر: حوراني، مرجع سابق، ص204-216.

[36] انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص595-596، وصلاح خلف، مرجع سابق، ص155-161.

[37] انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج4، ص603-606.

[38] المرجع نفسه، ج4، ص115.

[39] حول نصوص كامب ديفيد، انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج3، ص625-630، وانظر:

Palestine Documents, pp.337-342.

[40] انظر: بيان م.ت.ف. في: الهور، مرجع سابق، ص195-196.

[41] المرجع نفسه، ص212-213، وقد نشرته جريدة الرأي الأردنية في 15 مايو 1982.

[42] انظر: الهور، مرجع سابق، ص215-218.

[43] انظر: المرجع نفسه، ص218-222، وانظر: Palestine Documents, p.373, pp.381-383.

[44] الهور، مرجع سابق، ص222-223، وانظر: Palestine Documents, pp.383-384.

[45] انظر: الهور، مرجع سابق، ص226.

[46] المرجع نفسه، ص230-231.

[47] غطت الصحافة العربية بكثير من الاهتمام هذا المجلس وقراراته، انظر مثلاً صحف، القبس والوطن والأنباء الكويتية، 13-16

نوفمبر 1988، وانظر نص القرارات الإنجليزية في: Palestine Documents, pp.410-418.

[48] انظر صحف القبس والوطن والأنباء، 8، و 5-17 ديسمبر 1988.

[49] انظر نص المشروع في: Palestine Documents, pp.424-428.

[50] حول مؤتمر مدريد للسلام والمفاوضات التي حدثت في إطاره، انظر، جواد الحمد، "مشاريع التسوية السلمية للصراع العربي-الإسرائيلي وعملية السلام في الشرق الأوسط"، في المدخل إلى القضية الفلسطينية، ص484-492، وانظر: Palestine Documents, pp.463-484.

[51] انظر نص الاتفاق في: عماد يوسف، الانعكاسات السياسية لاتفاقات الحكم الذاتي الفلسطيني (عمان (الأردن): مركز دراسات الشرق الأوسط، 1994)، ص128-136، وانظر: Palestine Documents, pp.500-512.

[52] امتلأت الصحف العربية والعالمية بآلاف المقالات التي تحلل الاتفاقيات، وتمدحها أو تنقدها، كما ظهرت الكثير من الكتب والدراسات مما يستحيل الإشارة إليه في الهامش. انظر على سبيل المثال: منير شفيق، أوسلو "1" "2": المسار والمآل (لندن: فلسطين المسلمة، 1997)، وجواد الحمد، عملية السلام في الشرق الأوسط: وتطبيقاتها على المسارين الفلسطيني والأردني (عمان (الأردن): مركز دراسات الشرق الأوسط)، 1996، ص15-71.

[53] انظر: الدستور، 4-5 مايو 1994، وداود سليمان، السلطة الوطنية في عام 1994-1995 (عمان (الأردن): مركز دراسات الشرق الأوسط، 1995)، ص23، وانظر نص الاتفاق في: Palestine Documents, pp.521-534.

[54] جواد الحمد، عملية السلام في الشرق الأوسط، ص43-44. وانظر النص الإنجليزي للاتفاق في: Palestine Documents, pp.603-815.

[55] انظر صحف: القدس العربي، والخليج، والرأي، 16 يناير 1997، وفلسطين المسلمة، فبراير 1997.

[56] انظر: القدس العربي، والخليج، 24 أكتوبر 1998، وفلسطين المسلمة، ديسمبر 1998.

[57] انظر: القدس العربي، والخليج، 5 سبتمبر 1999، وفلسطين المسلمة، أكتوبر 1999.

[58] انظر: الرأي، 22 مارس 2000.

[59] جريدة الاتحاد (الإمارات)، 7 فبراير 2000.

[60] الخليج، 8 إبريل 2000.

[61] الخليج، 24 يونيو 2000.

[62] الخليج، 24 يونيو 2000.

[63] الخليج، 26 يونيو 2000.

[64] الخليج، 26 يونيو 2000.

[65] الخليج، 20 يوليو 2000.

[66] الخليج، 22 يوليو 2000.

[67] الخليج، 22 يوليو 2000.

[68] الخليج، 26 يوليو 2000.

[69] الخليج، 3 يناير 2001.

[70] هـذه الأخبـار وغيرها من الأخبـار المماثلة تنشر عـادة في اليـوم التـالي في الصـحف العربية والعالميـة، بحيث تصـبح معلومـات يعرفها الجميع، وقد اخترنا صحيفة الخليج مصـدراً أساسـياً للأخبـار، واهتممنا بتوثيق تلك الأخبـار والتصـريحات الهامة الـتي قد لا يتنبه لها القـارئ المتخصـص، وينصح القـارئ المهتم بمتابعة تطـورات لأحـداث لقضـية فلسطين بالرجوع إلى اليوميات الـتي يحررها موقع passia.org على الانترنت تحت عنوان Chronology, Palestine facts.

[71] الخليج، 9 يناير 2001.

[72] انظر: يوميات 27 ينـاير 2001 تحت عنـوان: Recentments في موقع: passia.org.

[73] انظـر: غسـان حمـدان، التطـبيع، (بـيروت: دار الأمـان، 1989)، ومنـير شـفيق، اتفـاق أوسـلو وتداعياته (لنـدن: فلسـطين المسـلمة، 1994)، وإدوارد سـعيد، أوسـلو 2: سـلام بلا أرض (القـاهرة: دار المستقبل العربي، 1995).

[74] فتوى علماء المسلمين بتحريم التنازل عن أي جزء من فلسطين (الكويت: جمعية الإصلاح الاجتماعي، 1990)، ص47-50.

[75] المرجع نفسه، ص53-59.

[76] المرجع نفسه، ص63-66.

[77] المرجع نفسه، ص69-73.

[78] المرجع نفسـه، ص79-81، وانظر الدراسـات كاملة في: محمد عثمان شبير، حكم الصلح مع اليهود (الكويت: الرابطة الإسلامية لطلبة فلسطين، 1983).

[79] فتوى علماء المسلمين، ص16-24.